

رواية

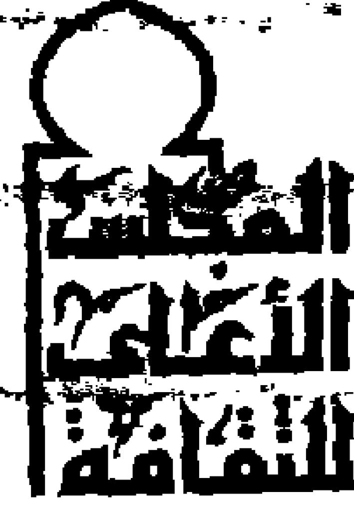
معتوق الخير

المجلد الأول

حجاج
أدّول









المشرف العام: **د. أحمد مجاهد**

سكرتير التحرير الفني: مكرم شحاته

رواية معتوق الخير
المجلد الأول

حجاج أدول

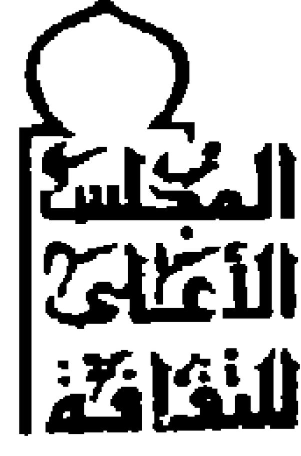
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة
١ شارع الجبلاية ، دار الأوبرا ، القاهرة
الرقم البريدى : ١١٢١١
تليفون : ٧٣٥٢٣٩٦
فاكس : ٧٣٥٨٠٨٤
بريد إلكترونى :
egypt council @ yahoo. com

رقم الايداع : ١٧٠٥ / ٢٠٠٢







إبداعات التفرغ

[٨]

روايــة

معتوق الخير

المجلد الأول

حجـاج
أدول

إهـــداء

إلى هدى عبده ...

مازلت أحبك ..

حجاج

أدّول

الضريح

أشرعة المراكب البيضاء تلمع تحت الشمس، تسبح راقصة في النيل الريّان جـنوب جـندل سُوين. شريطا الخضرة الضيقان يلوذان بالمجرى الرزين كأنهما هاربان من قفر وفقر الجبال المحيطة. القرى البيضاء متناثرة على سفوح الجبال فـي مسـتويات متعددة فبدت كأنها نُسِّقَتْ ونُظِّمَتْ على دَرَج فطري هائل. تفصل بيـنها ألسـنة مائية تسللت بين النجوع لتروي أجناباً بعيدة من الجبل. أذرع من الجـبل تنحدر في ثِـقل وجبروت مكتسحة مساحات الخضرة مفرّقة ما بين أدغال النخيل لترتمي على حافة النيل صخرية صلدة لا تشرب ولا تلين. البيوت مزركشة بالرسـومات الفطـرية، والأطـباق المعدنية موزعة على واجهاتها تعكس أشعة الشمس الباهرة، فتعطي إشارات سلام وتحيات ودّ وَمَضيَّة لأشرعة المراكب وترد عين الحاسدين.

مـن أعـلى المناسـيب العالية لدَرَج البيوت المنمّقة، قباب مدافن الشيوخ والأوليـاء تطـل بغزارة. منها الشهير الذي يزار كل يوم، ومنها الذي يزار في المواسـم، ومـنها من نسوا حتى اسمه فـضربه الإهمال وسقطت أجنابه وهَوَت قـبَّتُه.

شـمال جـبل فرعون العالي المكلل بأطلال المعبد التليد وقبله حيث الساقية الكبيرة الغريبة، وعلى شاطئ النيل ذاته حيث رصيف أبيض عريض وحافة خور واسع في عمقها البعيد جسر قديم، مصطبة حجرية تعلو عشرة أذرع، بُني عليها ضـريح ذو قبة بسيطة أنيقة ناصعة البياض، بجوارها مباشرة قبة صغيرة لا تقل بياضـاً عنها، تتجدد القبتان كل موسم من مواسم الفيضان الحَوْلي. ناس القرى الـنوبية المجـاورة لا ينقطعون عن زيارتهما، يتبركون بالقبّة العالية ثم يملّسون عـلى الواطئة وهم يسبحون الله الذي هدى الوحش وجعله رحيماً ببني الإنسان. يوزعـون البـلح واللبن على بعضهم ويأكلون ويشربون، يحكون عن الولي كل

غـــريب عجيب. يتردد اسمه في حب وعشق برجاء أن يعيده الله يوما على وعد بألا يتركوه يُقتل مرة أخرى.

إنها قبة الحبيب الطيّب. ـ معتوق الخير.

***

لغيـــاب القمر، انطبق تِيه الليل على تِيه الجبل. أصبح المكان تِيه على تِيه. الجـــلاّب العجوز أبَيِّدْ يقود جمليه واثقاً. يحفظ هذه الصحراء بجبالها ووهادها كما يحفـــظ تضـــاريس وجه زوجته المغضن. والذي جعله يقطع تلك المسالك الجانبية بعيـــداً عـــن دروبها المعروفة، ولا يقترب من أية قرية طوال الرحلة، خوفه من الهجّانـــة الســـودانية، الـــتي كثفت هذا الموسم من مطاردتها ومحاصرتها لقوافل الجلاّبـــة المشـــهورة بتهريب مخدر البانجو والرقيق بين حدود مصر والسودان. اضطرت قافلة المهرب العجوز أبَيِّدْ إلى العودة فرادى من رحلتها الفارغة الخائب وبعـــد اطمئـــنانه بتخطى منطقة الحدود المشتركة ببضعة فراسخ شمالاً، انحرف شرقاً مهتدياً بالنجم.

على بعد نهار من قرية صديقه آبدون، الجملان تنسما زلال النهر من على بعد، العطش اعتصرهما لأيام وقسى عليهما الجلاّب. أسرعا خبباً رغم إرهاقهما. أبَيِّـــدْ وجسده يتمرجح على ظهر الجمل الأول، يُمَنّي نفسه بالتمدد في دار صديقه وتـــناول ســـلطانية لبن وعنقوداً من العنب الذي يعشقه وبعدها غذاء ساخن، ثم يدخن لفافتين من مخدّر البانجو.

الصمت والسكون شفافية متصلة من قبة السماء العالية السوداء والمثقوبة بـــنجوم لامعة مبحلقة متناثرة من علوها العالي تكلل قمم الجبال والوهاد وتقترب حتى تكاد أن تسقط على إمتدادات الرمل المفتوحة اتساعا. خشخشة الحصى تحت مناســـم الجملين اللينة في شدّة. انطلقت من جامع بعيد تسابيح ما قبل أذان الفجر اختـــلطت بتســـبيح أضعف يأتي من الشط الآخر. تداخل ينساب مطمئناً في الكون المحيط والراقد في سلام.

رتابـــة عدو الجملين اضطربت. آذانهما القصيرة توترت. توقفا في حيرة. عـــادا للسير المضطرب. أرهف الجلاّب المحنّك أذنيه. عيناه اللتان تعودتا الظلام

تمســحان ما حوله بدقة. إنّه ليس كميناً من الهجّانة الملاعين. الجملان الخفيفان مدربان تماماً على كيفية مواجهة الهجانة.. بمجرد تنسم ريح الهَجّانة ينطلقان في عدو سريع للاتجاه المعاكس بدون انتظارلأي أمر من صاحبهما. ستة آذان ترهف السـمع! تــأكد أبَيِّدْ من الصوت الضاحك الحاد. أوقف جمله فتوقف الجمل الثاني الـذي يتبعه ويتصل به بحبل. وثب العجوز كالنمر إلى الرمال. استل سكينه التي تكاد أن تكون سيفاً من طولها.. يسراه تمسك بالكرباج ولجام الجمل معا. كان في بدايــة الخور. ترك جمليه جانباً. تقدم متسللاً. في منتصف أعلى الجانب الأيمن، كــانت فتحة الكهف أشد سواداً مما حولها. الأذان يتصاعد ويبحر لكن الضحكات الحــادة واضــحة. ضــحكات رضيع سعيد. تسمّر الجلاّب محتاراً. .ما الذي أتى برضــيع إلى الجــبل؟! هــل معــه والداه؟ ربما هذا الصوت الغريب من ألاعيب الشياطين؟ يستدرجونني ويسخرون مني. تقهقر ليعود. ضحك الرضيع يرتفع كأنه يدعــوه. مــنطقا الخــوف والحذر يأمرانه بالابتعاد. لكنه تقدم. صعد في خطوات واســعة رشيقة حتى وصل لجانب فتحة الكهف. بصوت لم يسمعه حتى هو،نادى باسـم وَلِيّــه طالــباً منه الحماية من المخلوقات غير المرئية، شياطين وعفاريت وخلافهما..

- يا شاذلي.

ثــم أخــذ شهيقاً عميقاً ليستجمع قوته وتركيزه. وفي وثبة واحدة كان في مدخل الكهف وسِكّينه يتقدمه صائحا..

- هاا!.

الصيحة لإلقاء الرعب على من في الداخل فيذهل ثوانٍ تكفي الجلاب العجوز ليتبين الموقف ويتصرف. زمجرة الوحش واندفاع كتلته الداكنة على أربع في لمح البصــر من باطن الكهف الضيق إلى فتحة الخروج وعيناه وأنيابه تلمع في حمرة مصفرّة. اضطر الجلاب للشهيق الخائف وارتكن على جانب لينطلق الوحش هارباً.

ارتخــت ركبتاه فتثاقل أرضاً والعرق البارد يسيل من ظهره. لحظةهي زمن مــا جــرى. أفــاق والأذان قد انتهى وضحكات الرضيع تستهدفه. اطمأن لنجاته فتحيّر.. رضيع مع وحش في كهف. والرضيع يضحك! سبحان الله. رُغاء الجملين

المــرعوبين ضــرب قلبه. خبط رأسه بقبضته القابضة على الكرباج في حسرة. أسرع عائداً ناحية الجملين. رآهما شبحين عاليين يهربان بعيداً ليخرجا من الخور غربا. الوحش يجرى شرقاً. جرى خلف الجملين يصيح لهما حتى اطمأنا لصوته بعد عناء فتوقفا. سحبهما عائداً وهو يلعن تلك الرحلة المشئومة. ولما دخل الخور مرة أخرى وقد أقنع نفسه بأن الموضوع كله مكيدة من شيطان الصحراء للضحك عـليه. قــرر أنــه لن يرويها لأحد حتى لا يكون موضع سخرية. عادت ضحكات الرضــيع تجلجل. الجملان مازالا يرتعشان خوفاً ويحاولان أن يسبقاه ليتخلصا من هذا المكان. نثرات الخيوط البيضاء في السماء بدأت تتكوّر على الخيوط السوداء لتنقشــع الظــلمة على مهل ويرسخ النور في تَمهل. مَرّوا على الكهف. ضحكات الرضيع تناديه. ربط الجملين على نتوء وهما يرغوان سخطاً. دخل الكهف. رائحة اللــبن الطــازج تملأ المكان. تقدم والسكين يتقدمه. وجد الطفل عاريا. أسود في ســواد غطيس. لعن العجوز كل ما طرأ على رأسه من أشخاص ووحوش لينفث الغيــظ عــن قلبه المغيظ. حمل الرضيع العاري الذي تعلق بشعره وجذبه. تعجب الجلاّب..

- أنت قوي يا ابن من أنت ابنها.

الشمس صعدت فوق الجبل الشرقي. وفي عصاري النهار دخل زمام القرية. أبَيِّـدْ وجهــه عــابس فــي قرف. جملاه يخترقان الحقول وظهراهما العاليان في اهــتزازات رتيــبة للأمام والخلف وهو على ظهر الأول يهتز مع اهتزازه. أبَيِّدْ لا يلق بالاً ولم يلق سلاماً على أي من المزارعين السمر الذين تركوا ما في أياديهم وانتصــبوا يتابعون موكبه. أغلبهم في جلابيب قصيرة زرقاء وطواقي مزركشة. النســاء في جلابيبهن الداكنة وطرحهن السوداء المنسكبة على الظهر والأكتاف، فبانت ضفائرهن الكثيفة النحيفة، والتي تتراقص مع كل حركة من حركات الرأس. الأطفــال والفــتيات يتجنبونه بسحنته الجلمودية الحادة وشعره الكثيف المكوم لأعــلى وقد اخترقته عظمة ناصعة البياض للزينة. سبحة طويلة ضخمة كُرياتها السوداء تتدلى على صدره.

فــي منتصف الوادي انحرف الجملان يصعدان إلى النجع الذي يحتل أسفل بطــن الجــبل الغربي. يتخطى البيوت الواسعة المتناثرة في مستويات عدّة وكلها

تطـل عـلى نهر النيل بواجهاتها البيضاء المزركشة بعدّة ألوان، وإن غلب عليها الـلون الأزرق. وأمـام بيـت الصديق ابن الصديق، أناخ الجملين. هبط الجلاّب وكرباجه في يده وسِكِّينه في نطاقه. الباب المردود انفتح عن سيدة سمارها فاتح متورّد، بالغة النحافة جميلة الوجه تحمل رضيعاً هزيلا..

- من؟ أبَيِّدْ الجلاّب! والله زمان يا عجوز اللصوص وكبير المهربين.

أفسـحت له. دلـف إلى الداخـل بدون أن ينظر إليها. ملبسه قطعة قماش واحـدة تـلف نصـفه الأسـفل وتصـعد لتُـلقى على كتفه الأيسر. دخلت خلفه فعاجلها بصوته الخشن الحاد الآمر. .

- أولاً، اسقي الجملين وأطعميهما، بسرعة يا هَكيمة بوصة.

- إم م م م. طول عمرك جِلف.

- أما زال رضيعك حياً؟

- أعوذ بالله منك. والله ثلاثة عيب آبدون الوحيد أنه يصادق مثلك.

تعجّـل آبـدون تركاً حقله. امتطى حمارته فأسرعت به صاعدة. متيقناً أن الجملين الرشيقين هما جملا صديق والده وصديقه اللدود أبَيِّدْ الجلاّب.

الحـوش رمـلي واسـع تنتصب في جانبه الأيمن نخلة. الجزء الأخير منه مسـقوف بجريد النخل. جلسا سوياً تحت السقيفة المكونة من وصلات من سيقان الـنخيل وسقفها من الجريد. بجوارهما المزيرة ذات الأزيار الثلاثة. رجل ريفي وعجوز صحراوي. متشابهان طولاً ونحافة وسواداً، إلا أن أبَيِّدْ الجلاّب المستلقي عـلى ظهـره أطول وأشد وأدكن سواداً وأطعن عمراً بكثير. الجلاّب أعلى صدره عنقود عنب ثقيل، أتوا به خصيصاً له. يلوك الحبّات ويتفل البذور بعيداً في قوة، ثـم يـرفع يده حاملاً العنقود لفمه ليقضم منه. آبدون يحمل ابنه الرضيع ويبتسم لأبَيِّدْ. .

- إيه يا لص الجبل ومهرب البانجو. إيه يا جلاّب العبيد يا ملعون. تستلقي متهدلاً كالجوال الفارغ. زهقت من الدنيا؟ غداً تشبع موتاً يا عجوز.

- آ آ ه.

- أكيد رحلتك إلى الجندل البعيد خابت ولم تأت بشيء ذي قيمة اعتدل أبَيِّدْ وضرب جبهته بكفه فطرقع صوت ارتطام العظام بالعظام. هبّ واقفاً. وفي خطوات واسعة ذهب من الدار وهو يقضي على بقايا عنقود العنب. وعاد بشيء. جلس وألقى كيس القماش جانباً في إهمال فصدرت منها أنّة قاطعة. هَكيمة التي كانت آتية من حجرة الخزين محملة في يد بطبق من الخوص يحوي البلح والفشار واليد الأخرى تحمل سلطانية لبن، بادلت آبدون نظرات الشك. .

- أبَيِّدْ، ماذا في هذا الكيس القذر؟

- والله يا هَكيمة بوصة، هذا حصاد الهشيم لرحلة استغرقت مرور أربعة أقمار. سوء البخت لازمني في آخر رحلة لي. ضيقت علينا الهجّانة أبواب الرزق. لعنهم الله وأعماهم عنّا.

آبدون وهو متكئ، مد يده. جذب رباط الفوهة المرتخي وأدخل يده. ضاقت حدقتاه. اعتدل. أخرج رأس اللقيط الرضيع. أطلت رأس باسمة ساذجة سوداء غطيس تتحرك في آلية مضحكة وهي مغمضة العينين تجنباً للضوء من بعد ظلمة طويلة. انبعثت من الكيس روائح مختلطة.. عبق طزاجة لبن مركز يكاد يغالب روائح إفرازات الرضيع المنفرة. فتح عينيه ليتمعن لحظة في وجه هَكيمة ولحظة في وجه آبدون. دهشة طفولية غلبته فابتسم لهَكيمة، فهبطت على ركبتيها تاركة صينية الخوص. أطلق الرضيع أول ضحكة له تجلجل في الدار والقرية. حملته هَكيمة بقماشة الكيس القذرة وهي تبتسم له والرضيع العاري يزداد ضحكاً ويفرفص بأطرافه. آبدون تملكه الغضب. .

- خيّبك الله يا جلاّب الشقاء. إنه رضيع مسكين!

أولوا، رضيع هَكيمة وآبدون دفع يدي والده بعيداً وزحف إلى أمه قلقاً من الرضيع الجديد الذي احتل حضن أمه جذبها من جلبابها. لم تأبه به. فأطلق أول صيحة غيرة من صدره. هَكيمة تداعب اللقيط الضاحك وتوجه حديثها للجلاّب. .

- حرام عليك يا أبَيِّدْ. أين ستهرب من غضب الله؟

- أنا لي الثواب يا امرأة. التقطته من كهف بالقرب من دَرْب الجِمال.

نظر إليه آبدون في تكذيب. .

- يا سارق الأطفال.طول عمرك لا تستحي من المتاجرة في العبيد.

- وذِكْرَى أبيك رحمه الله هذا ما حصل.

- كاذب.

- وعافيتي يا شيخ أنا لا أكذب. الفجر كان يُرفع من نجوع قريتين قريبتين منّي حين وجدته.ولولا أنني أريد فعل أمر طيب في آخر رحلاتي البعيدة، لتركته.

زاد أولــوا من حدّة بكائه فضربته هكيمة بسبابتها على فمه.فصمت كاتماً بكــاءه وأخــذ ينهنه وينشج مكتوياً بأول لسعة من نار المقت التي زا لهيبها مع توالي الأيام والليالي.

قبل أن يسترسل الجلاّب، رفع سلطانية اللبن وعبّ نصفها في نفس واحد. تجشأ ثم بدأ يحكي لهما حكايته مع اللقيط وهو يلوك بلحة تليها بلحة. .

-.. اســتمر العجب ونحن نخبو داخل الدرب. الجملان لم تفارقهما الدهشة والخوف. يشمّان رائحة الوحش ونحن نعبر مسافة من الدرب ضيقة. على يسارنا الجــبل وعــلى يمينــنا حافــة النيل. وعندما وضح الصبح وأطلّ بنوره. شاهدت الوحــش يتابعــنا موازياً لنا في بطن الجبل. يظهر ويختفي. يتقدم ويتأخر حسب تضاريس الصخور. لذلك سيرنا كان بطيئاً قلقا. لازمتني العصبية والضيق ولعنت اللقيط والوحش معا.

اخــتفى الوحش. لم أعد أراه رغم الضحى الباهر. الجملان مازالا في حالة غيــر طــبيعية. فجأة توقف الجملان. دارا بي حول نفسيهما في رغاء خوف.لم اســتطع الســيطرة عليهما. وثبت من أعلى السنام وأمسكت بخطام جملي الكبير. وإذا بالوحش يظهر من خلف صخرة لا تبعد عنا سوى ذراع. مغلق الفكين. عيناه تــلمعان فــي ســلام. خــطى بهدوء خطوتين فصار بجوار ساقي. لا أعلم كيف أحسســت أنــا والجملين أن الوحش أتى مسالما. هدأنا. تقدم الوحش إلى الجمل الــثاني الذي أخذ يتقهقر بخطوات قصيرة. جلس الوحش على مؤخرته.رفع فكه مفــتوحاً ناحية سنام الجمل. فظهر بوضوح أنه بناب واحدة.عوى في رقة. فإذا

باللقيط من داخل الكيس يثغو ويضحك كأنه يبادله الوداع. كل هذا وأنا في غيبوبة ذهول. الوحش التف يخطو عائداً إلى الجبل في هدوء. في النور الرباني الساطع ولقـربها مني وضح لي أنها ذئبة فتيّة أثقل من شاة سمينة ريانة. ضرعها كان ملئاً تكاد أن تجرجره على الأرض. حتى أنني لمّا اختبرت المكانَ الذي أقعت عليه، وجدته قد ابتل باللبن!

هكيمة وهى تحاول إسكات نهنهات ابنها..

- أبَيِّدْ، نعهدك مهرباً، نخاساً، سكيراً كبيراً. لكن أول مرة نعرف أنك كذّاب.

-يـا بوصــة أنــا أقسمت لك بذِكْرى الشيخ موسى أبي زوجك. أم أنك لا تقدرين ذكراه؟

- خبيث شرير.

- آبدون، تركت ابنتي التي كانت تتمناك زوجاً، لتتزوج من بوصة؟!

- آبدون اختارني لأنني أفضل من ابنتك حسباً ونسبا.

- وابنتي ذات جسد رطب ورحم معطاء.

- وأبوها لص جمال ونخّـاس.

- والله كان آبدون يتمنى ابنتي، لولا أمه.

- هاها. شجاركما احتد. لكن يا أبَيِّدْ، هَكيمة على حق.

- والله يا آبدون. ما أقوله حصل. أقسم بمقام سيدكم الشاذلي.

- الشاذلي سيدكم أنتم.
- آه يا امرأة في سِمنة البوصة.
- المهم. أكمل يا جلاّب المصائب.
- أنــا والجمــلان نقف مبهوتين. نراقبُ الذئبة الشابة الصاعدة إلى الجبل حــتى كــادت أن تختفي. التفتت مرة أخرى إلينا وعوت عواء حزيناً طويلاً. أما اللقيط، فصمت عن ضحكه من ساعتها. أقسم أنها كانت ترضعه في الكهف.

- إم م م م، تجاوزت السبعين وأصابتك بلاهة الشيخوخة.

- والله يا بوصة، البلاهة أصابت زوجك ساعة أن تزوجك.

- مازال قلبك مكلوماً أن آبدون رفض الزواج من ابنتك.

- وشرفي، إن وافق آبدون، تُطلِق ابنتي زوجها وتتزوجه. فقط آبدون عليه أن يعلن موافقته.

- ابنتك مثلك، لا دين لها ولا ذمَة.

ضحك آبدون. .

- المهـم يـا أبَيِّـدْ، حكايـتك حكاية تتشابه مع حكايات جداتنا عن غولة الإيركابي.

- يا رجل، أقسمت بعافيتي ومقام سيدنا الولي الشاذلي أني صادق!

- أكمل يا زعيم جلاَّبة الجبل، أكمل.

- أعطيت نذراً أن أبيع هذا اللقيط لابن أعز أصدقائي. لك. اشتره يا رجل. إنـه قوي. تخيل قوته، وأنا أحمله في الكهف تعلق بيده في شعري فآلمني! ومن قـوة جلجلة ضحكاته خشيت أن يكشفني الهجّانة الملاعين، فضربته بكعب مقبض الكرباج على جبهته. صرخت هَكيمة. .

- يا قاسي القلب. انتقم الجبار منك.

وقفـت هَكيمـة حامـلة اللقيط والكيس يغطي نصفه السفلي. دخلت إحدى الغـرف. خـرجت ومعها ملابس أولوا الذي أبعد يدي أبيه عنه مرّة أخرى وحبى مسرعاً خلف أمه يصرخ. حملته هَكيمة مع اللقيط. فاعتدل أبَيِّدْ في جلسته..

- هَكيمـة. أسـتخرجين بـدون أن تعدي لي وجبة طعام طازجة ساخنة، تعوضني مشقة الرحلة؟!

نظرت هَكيمة إلى زوجها وأشارت له بذقنها أن يتولى صديقه. خرجت من الدار وكل رضيع محمول على جانب من جانبيها. قام آبدون. يذهب ويعود بصينية خوص واسعة تحمل وجبة باردة أعدتها هَكيمة لأبَيِّدْ، الذي لم يشغله الحديث عن الطعام. .

- آبدون، بكم تشتريه؟

- ولا بقطعة حجر.

- خمسة ذهب سلطاني.

- هاها، أنسيت أن جدي جوش الكبير هو الذي منع شراء العبيد في قريتنا هذه؟

- اتخذه أخاً لابنك. هَكيمة رَحِمها تهتك وهي تلد لك أولوا. و..

تحمل الرضيعين وتهبط في اتجاه النيل. تخطت الحقول ثم أجمات النخيل الكثيفة وبعدها صفاً من أشجار السنط. الغروب يسود. وعند النخلة العجوز التي تقف وحيدة شامخة على حافة النهر كأنها راع لأشجار السنط المجاورة، نخلة جوش أعلى وأغلظ نخلة في القرية والقرى المجاورة. أسندت هكيمة ظهرها على النخلة وأنزلت الطفلين. عرّت اللقيط وألقت الكيس القذر بعيداً عن مجرى النهر. تغسل مخلفات اللقيط على البر، ثم أخذت تغطسه في الماء الجاري بحرص لتستكمل تنظيفه وهي تدعو له بالبركة. تمسح على جبهته بإصبعها مصلّبة. تدعو باسم الله الواحد وتصلي على طه الرسول وتذكر مريم أم عيسى ويوكابد أم موسى وأمهات المسلمين وزوجة فرعون. فرح اللقيط بالماء وأخذ يضحك ويلاعب وجه هكيمة بيديه. نظر لأولوا الباكي. قرّبته هَكيمة منه. أولوا شديد الهزال. وجهه هضيم. جفناه متهدلان على عينين منكسرتين. التجاعيد منتشرة على الوجه كأنه عجوز وهو الطفل. حاول اللقيط أن يلاعبه، ضربه أولوا على وجهه. صمت اللقيط لحظة، ثم نظر إلى هكيمة وانفجر ضاحكاً فأضحكها. لاحظت كف يمناه المطبقة على شيء عاجي تكاد أصابعه أن تخفيه. حاولت أن تفك كفّه باللين، بالدغدغة، بشيء من القوة. لم تفلح. يأست وتركتها مضمومة. جففته، ألبسته ملابس أولوا المترهلة عليه. ازداد أولوا بكاءً وهو يرى ملابسه على جسد غريمه. اللقيط قدماه على حِجْر هَكيمة ويثب على صدرها. يمرمغ وجهه فيها.

- يا ليت يا بني. صدري جاف كخشبة. وابني أولوا تزيد أيامه عن موسم وأرضعه لبن الماعز. سامحني، لضحكك المتواصل لم أفطن لجوعك.

لإصرار الطفل، ضمته إليها ومالت عليه. أعطته صدرها الممسوح. فالتقط الحلمة. مصّها بقسوة. تألمت هَكيمة وهي تشعر بأن أنسجتها من الداخل ستخرج من حلمتها لفم هذا اللقيط.

- يا الله، ما أبلغ قوتك بسم الله ما شاء الله.تشتهي لبني ولن تجد مبتغا.

الرضيع يمتص.. يمتص. هَكيمة تتألم ثم أحست بجداول دافئة تجرى داخلها محدثة أزيزاً محسوساً يتجه إلى صدرها. تتجمع. تتجمع ثم فيضان كفيضان النيل يهدر في صدرها مندفعاً إلى فم الرضيع. لم تأبه ببكاء أولوا. تنظر لفم الرضيع، فإذا بقطراتِ لبن تسقط منه. صاحت. .

- يا كريم يا رب. يا كريم يا رب.

أبعدت جلبابها عن نهدها الآخر. منتفخ كحبّة دوم صغيرة. رفعت أولوا وألقمته الثدي فتلقفه بلهفة مقلداً الغريم وتذوق لبن أمه لأول مرّة. هَكيمة تحتضن الطفلين وتميل بجذعها للأمام والخلف في نشوة محروم يَشْبع.

انتهى أبَيِّدْ من طعامه ولم ينتهي من محاولته. .

- آبدون، هذا العبد اللقيط فرصة. خادم لابنك الضعيف. فلاح في أرض.

- أرضي! آه، أرض زوجتي.

أخرج أبَيِّدْ علبة محشوة بلفائف دخان، التقط منها أربع وناولها لآبدون. .

- دخنها في الليل. تمام التمام. ستدعو لي زوجتك بوصة بدوام العافية

أخذ آبدون اللفائف. .

- شكرا، لكن لن أشتري اللقيط.

- ملعون، والله لولا إحساسي بأن هذا الرضيع بركة. لكنت بعته لعمدتكم بعشرة قطع ذهبية.

دخلت هَكيمة تحمل الطفلين والفرح يفيض من عينيها. سمعت زوجها يجيب. .

- بعــه للعمدة. لمُهدي البقال الأصفر. لإسْهاج النجار. إنهم أغنياء القرية. إن رضى أحدهم بشراء عبد.

وقفت هَكيمة أمامهما وقالت في حزم. .

- آبدون، اشتريه.

رفــع آبدون عينيه. زوجته فرحة. الطفلان على الكتفين يواجهان بعضهما. أحدهما عبوس كظيم والآخر باسم في رضاء.

- هَكيمة. مالنا ومال العبيد؟ لا عبيد في قريتنا.

- آبدون، اشتريه.

- هَكيمــة! جدي جوش هو من منع شراء العبيد. فهل أنا حفيده، اشتري عبداً؟!

- سنعتقه.

ابتسم أبَيِّدْ أخيرا. ولما نظر إليه آبدون رد نظرته في تحد. .

- ثلاث قطع يا آبدون.

- أبَيِّدْ، كنت تقول قطعة واحدة من لحظة.

- الآن أقول. .ثلاثة وإلا فلا.

- يا لص الجبل. يا نخّاس يا ملعون. يا صديق ليس له لزوم.

رحل الجلاّب سريعا. وبعد صلاة العشاء، عاد آبدون لداره متعجلاً. الطفلان نائمــان بجــوار هَكيمة. مازال الكظيم كظيماً والباسم باسماً كأن ملائكة تلاعبه. هَكيمــة تــرتدي قميصاً خفيفاً وعلى ضوء الفانوس نظر إليها متعجبا. تحسسها فغلبها البكاء والفرح. .

- آبــدون، أرضــعته فجلب اللبن إلى صدري الجاف. وأرضعت أولوا حتى شبع وتكرّع. ثم وجدت صدري منتفخاً هكذا! إنه مبارك يا آبدون. طفل مبارك. إن عاش أولوا المريض سيكون بفضل بركة اللقيط.

- بفضل الله يا هَكيمة.

- إيْ، فالله هو الذي أرسله إلينا.

آبدون لا يصدق. تبدّلت زوجته من عود بوص هزيل إلى امرأة نحيفة تملك صدراً صغيرا. وقبل أذان الفجر، استرخي جسد آبدون متعبا. ينظر للسقف وبجانبه هَكيمة منهكة سعيدة. عرقهما بلل الملاءة والحشية من تحتهما. أمسك بأصابعها فجذبت كفه وقبلتها مبللة إيّاها بدموعها.. - آبدون، كنت تحتضنني سابقاً بلا اشتهاء، ترتاح لوجهي، تحب ما ينطقه لساني.لكنك لم تتقبل جسدي بشهوة أبدا. أول مرّة أحس أنك تشتهيني حقاً كأنثى. إنها أجمل ليلة عشناها. أعذب من ليلة زفافنا. بركة اللقيط. - هو حر لوجه الله. لن يكون عبداً لي ولا لغيري. هو من هذا الفجر معتوق.

آبدون في الحقل. الشمس في قبة السماء. في عز جبروتها. هَكيمة تهبط إليه وعلى رأسها صينية الخوص المزركشة، وعلى الصينية صحن كبير مغطي بصينية خوص أصغر. تحمل العابس الضامر والضاحك العفي على ذراعيها. تتمختر مزهوة بصدرها. وجدت آبدون جالساً تحت نخلة جوش. أخذ منها الطفلين فأنزلت هي الصينية الكبيرة..

- تستريح من قبل الميعاد، شِخْت يا رجل.

- آه. تعبت من ليلة أمس يا هَكيمة. سمكة بلطية لعوب كانت في فراشي ليلة أمس.

- آهّا. لذلك لم تحك لها الحكايات، لم تقم وتَسَتك معها. فقط هذا الشيء الذي يهمّكم معشر الذكور.
- هاها. كانت لذيذة لذيذة.

رفعت الغطاء عن الصحن. المليء بالثريد الساخن وقطع لحم وبخاره يتصاعد راقصاً.آبدون ينظر للطعام متلمظاً. أولوا بدأ البكاء وصعب أن يكف عنه. لم تأبه به أمه. .

- اسكت ابنك هذا حتى أصِلَ ناسنا.

- كلام فارغ.

- إب ب ب ب، لا تقلْ هذا الكلام على ناس النهر. أنا أخشَى من أشرارهم.

اتجهــت هَكيمة إلى النهر. وقفت على جرف والنهر العريض صار تحتها. الصــحن الواســع العميق تضمه من حافته الباردة إلى وسطها بيسراها وبيمناها تأخذ لقيمات خفيفة من الثريد الساخن وتلقي بها إلى المياه التي تتدفق شمالاً..

- آمــون -نتّو. يا ناس النهر الطيبين. تناولوا طعامنا. طعامنا واحد وربنا واحد. يا ملائكة النهر، نرضى عنكم وترضون عنا جيراناً طيبين.

تقذف لقيمات أخرى. .

- آمــون -دُجُــــر. يا أشرار النهر، خذوا طعامي ولا تأخذوا أولوا. خذوا طعامي ولا تأخذوا معتوق. الحاجز بيننا وبينكم.

آبدون يراقبها ويسمع حديثها ويضحك. هَكيمة وهي عائدة يبدو عليها القلق من ضحكات آبدون الساخرة..

- لا تسخر منهم يا آبدون. لا تضع القلق في قلبي.

- نحن أولى بهذا الغذاء الفاخر الذي تلقيه.

- يوجــد الكفاية. خاف على زوجتك البلطية ووحيدك يا آبدون. خاف على معتوقك.

اســتعانت هَكيمــة بــآبدون لبسط كف معتوق الأيمن القابضة على الشيء الصلب ذي اللون العاجي. فشل هو أيضاً. وكلما همّ باستخدام القوة صرخ الطفل وتشنج مرعوباً، فيضطر آبدون لتركه.

اليوم التالي انفردت هَكيمة بمعتوق وقد نام أولوا. أرقدته على ظهره فوق الســرير واستلقت بجواره على جانبها. راحت تحادثه برفق كيف أن مصلحته فك قبضته. أقسمت له أنها ستحافظ على ما في يده ولو كانت كَفّــه مريضة ستذهب بــه إلى يونس المجبّراتي ليعالجه. مدة طويلة تواصل الحديث وتربت برفق على قبضــته المضمومة حتى فتحها والقلق مازال يرقد على صفحه وجهه. فإذا بناب شــديد الــبياض لامــع! أمسكت هَكيمة بالناب في تعجب، رفعته واعتدلت. صرخ معتوق فعادت بجانبه. يمد يده لأخذ الناب. احتارت هَكيمة، هذا هو الناب الناقص

من فك الذئب الذي حكي عنه أبَيِّدْ ؟! إذن أبَيِّدْ لم يكذب! ذئب أرضع معتوق وترك له نابه! أفاقت على ارتفاع صريخ معتوق.

عـاد آبدون من الحقل، صريخ الطفل وصله قبل أن يقترب من الدار. حكت له هَكيمة وهو يقلب الناب في يده. الطفل الذي لا يعرف البكاء لا ينقطع عنه هلعاً عـلى الـناب! خشيا من إعادة الناب إليه فيقبض عليه مرة أخرى ولا يتركه مما يضر بكفه. اقترح آبدون عمل حجاب أعلى ذراع الطفل ووضع الناب فيه.

بصعوبة حفر آبدون في باطن الناب لفظ الجلالة. وأمام عيني الطفل وضعوا الـناب في قصاصة جلدية. والقصاصة داخل حافظة جلدية أخرى خاطتها هَكيمة. وربطوها أعلى ذراعه فاستراح وابتسم. ثم عاد للضحك. أصبح الحجاب لا يفارقه أبداً، وكل عدّة أيام تحل هَكيمة رباط الحجاب وتعيد ربطه بما يلائم نمو معتوق. لم يـنقض وقـت طويل. ولغرابة دخول هذا اللقيط القرية مع صيته الذي يطغي مع الأيام القليلة التي أعقبت مجيئه، صار موسم ظهوره شهيراً بموسم معتوق.

انتشـت هَكيمة بدخولها دنيا غير الدنيا. التفجر السريع لجسدها غيرها من حال إلى حال. بدّل الدنيا من حولها. الغيرة الهادئة التي كانت قد تسللت إلى قلبها رغمـاً عـنها، فاختلطت بحبها العميق تجاه شقيقتها الوحيدة نَبْرة، انقشعت كما ينقشـع الضـباب تحـت سـياط الشمس الصاعدة، فلم يتبق في قلبها إلا الحب لشـقيقتها الصغرى. حركات هَكيمة وثكناتها لانت وتأودت من بعد عصبية رزحت عليها. ترطّب صوتها. امتلأت ثقة بأنوثتها فزادت من الدلال طوال موسمها هذا.

يومـاً كـانت منحنية تكنس أمام بيتها فرأت قدمين توقفتا على بعد. رفعت رأسها فرأت عيني المراهق ترصد صدرها. بقيت مبتسمة طوال اليوم. لأول مرة فـي حياتهـا تتلصـص عينا ذكر وتحوم حول جسدها. كانت تلمح في ألم عيون الرجال تتخطاها وتنحط على أختها الصغيرة نَبْرَة. الآن العيون عليها هي الأخرى.

وفي تجمع نسائي حول مناسبة مولد طفل جديد، تعمدت هَكيمة الجلوس مع الجانب المتحلق حول تَعويضة لِسانين، فابتسمت لها تلك في مكر.

– آه يا أخت الهارب اللئيم. تتدللين وترمين بعجيزتك وأنت تجلسين لنحس بثقل أردافك.

- إم م م م.

تدخلت نَبْرة من بعيد. .

- خمسة في عينيك يا تَعويضة. ستحسدين أختي.

- ورأس شقيقكما الأصلع أثمان الهارب، من أين يا بنت؟ تستخدمين دهونا وأعشاب لم يسمع عنها إنس ولا جن؟ تعاشرين عفريتاً من ناس التيار؟ أم نصدق أن اللقيط الذي جلبتينه في بيتك هو السبب؟!

اشتركت النساء في موضوع هَكيمة، لكن ديوانة صديقة الأختين معاً وخيشة العجوز منعتا تدفق الحوار حتى لا يحسدن هَكيمة. بعد فترة عادت تَعويضة لِسانين لنفس الموضوع. .

- لكن كيف يا بنت تحولت من بوصة إلى امرأة بحق وحقيق؟

ديوانة في شراسة غير معهودة منها إلا نادراً تدخلت في حدة. .

- تَعويضة، كفي عن هَكيمة. ستحسدينها.

فوجئت تَعويضة والنساء، ديوانة الهادئة جاءها غضبها. وديوانة قوية الجسد طولاً وعرضاً ثقيلة الثديين والمقعدة. وإن كانت تَعويضة لِسانين تخشاها كل النساء فهي لا تخشى إلا ابنتها كِسبانة، وأيضاً ديوانة هذه حين تثور.

حتى فطما سوياً، صدر هَكيمة يعطي اللبن. رغم معارضة آبدون، أصرت هَكيمة على إرضاع أولوا وحيدها حولين كاملين مع معتوق حتى جاوز أولوا ثلاثة فيضانات عمراً!

معتوق مرّات رضاعته تتباعد، وقبل أن يمر موسم من عمره كان لا يرضع إلا رضعة في الفجر ورضعه في العشاء. يشرب فيهما ما لا يطيقه صبي كبير. وكل صباح صدر هَكيمة يؤلمها من زخم اللبن فيريحها معتوق بالرضاعة ويخفف من ضغط اللبن. أولوا وإن تحسنت صحته فهو مازال عليلاً، يرضع رضعات كثيرة لكنها ضعيفة. معدته لا تتحمل، وإن أصرت هكيمة وأعطته فوق إرادته. مَجّ لبنها وشحب لونه وبقيت معدته متعبة لفترة طويلة من اليوم.

مواضع الأنوثة فيها تزهر في عبقرية، ذابت عقدتها تماما. كانت بوصة كما أطلقت عليها تَعويضة لِسانين هذا النعت، صارت الآن فخورة بما تملك. تتعمد إرضاع الطفلين على الملأ. تعلن جمال الصدر الناهد من بعد ضمور ويُبس. لا تستحي إن كان هناك ذكر يراقب. بل تتلذذ. أصبحت توأم جمال لأختها نَبْرة. لم تعد هَكيمة بوصة. حذفوا لقب بوصة رغماً عنهم. وعندما أطلقت عليها تَعويضة لِسانين نعت هَكيمة عِفريت، نظراً لما طرأ على جسمها من تغيير سريع غير مألوف، رفض ناس القرية تسميتها لأول مرة في حياتها، واكتفوا بالاسم الحقيقي للتي كانت بوصة.. هَكيمة، ندم الرجال الذين تغاضوا عن زواجها حين كانت هزيلة فأخذها آبدون الذي أتى بعد غربة طويلة من مدينة سُوين الملاصقة للجندل في الشمال.

ناس القرية رسخ في نفوسهم أن اللقيط الأسود بَرَكة، لكنهم لم يصدقوا رغم ذلك حكاية الذئبة التي أرضعته. طلبت أكثر من امرأة أن تقوم بإرضاع الطفل لتتشرب منه نفحات من البَرَكة، لكن هَكيمة رفضت. فإن قبلت لواحدة فستقبل للكل ولن يبقى الطفل في بيتها بعد ذلك.

أولوا الطفل، صار هاجسه وكابوسه هو هذا الآخر الذي زاحمه في حنان والديه، خاصة حنان وتدليل أمه. عاد يتبول على نفسه ويتبرز. المرض دائماً مصاحبه، لكنه بخبث طفل يتمارض أيضاً! لينتزع اهتمام هَكيمة له وحده. شهور وأدركت هَكيمة خبث رضيعها فذهلت. .

- هل الأطفال في هذه السن بإمكانهم التخابث؟

بلغ معتوق السادسة من العمر وحتى بعدها، النساء يمسحن رأسه بكفوفهن ويضعن ما أخذنه من بَرَكته على رؤوسهن وصدورهن. وكلما وعى أولوا قليلاً لاحظ أن الكل يتقرب إلى معتوق، والكل يتجاهله. وبعد أن وعى أكثر، وسأل هَكيمة وآبدون أبلغاه حكاية معتوق. وليقويا من نفس أولوا، حكى له آبدون حكاية جده جوش الولي الكبير. بتفصيلات كثيرة كثيفة، كيف أنه من أهم أولياء المنطقة النوبية كلها. الطفل لم يستوعب كل هذا، لكنه أحس وأدرك عظمة جدّه. سمع من أبيه الكثير عن جده جوش من قبل بتلميحات سريعة ومعلومات مقتضبة. هذا الحكي التفصيلي المركّز كان أثره عكسياً على أولوا، فبدلاً من جلب الثقة بأصله

فتقــلل مــن أغــوار نار الغيرة التي يكنّها لمعتوق، زاد قلبه حسداً على معتوق وحسرة على نفسه، فكيف وهو حفيد جوش الكبير تتجاهله النساء ويتمسحن في معتوق اللقيط؟! كيف يتجاهلونه رغم أن جدّه الولي العظيم كان يسير على الأرض بــدون أن تطأ قدماه الأرض! وفوق الماء ليلاً بدون أن يلامس الماء؟! كيف كان وهــو جــالس في الجامع يعطي دروسه وحكمته لناسه، كان يرتفع عن حصيرة الجامع فيعلو عنها أشباراً ؟!

زواج المــراهقات يتم في بدايات مراهقتهن، لا يزيد عمر الفتاة عن أربعة عشــرة موسماً. هَكيمة حين زاور عنها ابناء العمومة والخئولة ورأت أن كلهم يحومــون حــول أختها الأصغر منها، كان رد فعلها طفولياً. رفضت قريبها الذي أرغمــوه عــلى التقدم لها لمجرد سترها، رفضت وأصرت على رفضها أن تكون زوجة ثانية لكهل حسب عادة القرى لمجرد أن يكون لها بيت ورجل. أتعبت أبويها وأخوهــا أثمان كُورنة. اضطروا للموافقة على زواج الصغرى نَبْرة قبلها حتى لا تصــيبها العنوســة الــتي ستصاب بها حتماً أختها الكبرى هَكيمة. فرحت هَكيمة بــزواج شقيقتها الوحيدة ولم تصب إلا بسحابة غيرة رقيقة ثم بقيت بدون زواج مواســم قليلة تعتبر طويلة في عرف ناسها. مات والداها وبقى لها أثمان شقيقها يحمل همّها ويحاول جاهداً تزويجها.

والذي مالت إليه من طفولتها كان هَمَرين. لكن هَمَرين مثله مثل نُوري ابن العمــدة وغيرهما. . يطلبون رضاء نَبْرة! فمن يهتم بها. . من يقبل أن تشاركه تــلك البوصة فراشه! معركة ساخنة بين هَمَرين ونُوري على نَبْرة. هَمَرين ترجح كفته أن شقيقها أثمان تزوج من شقيقته. وكفته أرجح لذكائه الحاد المشهود به، ولعــلمه وشخصــيته القويــة، وعينيه العسليتين وبريقهما الذي يرج قلبي نَبْرة وهَكيمــة، إضافة لوسامته خاصة لو قورنت بملامح نُوري التي قاربت حد القُبح. لكــن نُــوري كفته تعلو لأسباب قبلية، فهو ابن العمدة ومنصب العمودية ينتظره يوماً ما. غِنى أسرته الواضح بأرضها الواسعة خاصة بعدما بدأت الأرض الجديدة الــتي استصلحها أبوه العمدة تعطي أكلها وصارت حديقة برتقال ومانجو وارفة. ويتضــح غِــنى عائلة نُوري لو قورنت بتواضع حال أسرة هَمَرين المادي. ورغم ذلــك كاد هَمَرين أن يفوز بمن أحبها. .نَبْرة. لولا تعجله، لولا إنه هو الذي دبّر

مقـــابلات عديـــدة مع نَبْرة يحكى لها عن الكثير مما يتمناه، ويستعرض ما يعلمه ويَتـــباهى بمـــا يتقـــنه. ظنّ أنه بذلك يبهرها، وكاد أن يفعل. إلا أن طول فترات مقابلاتهمـــا أتـــاحت لنَبْرة الفرصة بأن تحس بهَمَرين وإن لم تستطع أن تفهمه. استشـــفت نَـــبْرة مـــن بـــريق عينيه الغريب أنه ليس بالشاب السوي. تيقنت أن طموحاتـــه فيها من الشراهة ما يخيف. أحست بحموضة جوفه، فأخذ قلبها يتحول ويستشـــعر أن راحتها مع نُوري الطيب متواضع الذكاء ذي القلب الكبير. ثم كانت الغـــلطة الحاسمة، حين تهور هَمَرين وتهجم عليها، قاومته فثار وأسقطها أرضاً وانكـــب فوقها محاولاً أن يجبرها على الاستسلام له. لم يقو على ذلك لمقاومتها الشرسة.

سقطة فاضحة من هَمَرين جلبت عليه الاحتقار من نَبْرة. تأكد لها ما سمعته عـــنه، إنـــه من موسمين فاتا وهو في بداية مراهقته يمارس الجنس مع الحمير! انقـــلب قلـــبها من ميل إلى هَمَرين إلى احتقار له. عقلها الساذج الذي كان يقدّر نبوغ هَمَرين صار يزدري بهيميته.

هَكيمـــة بوصة، رزقت بابنها أولوا بعد أربع مواسم كادت تصيبها وزوجها باليـــأس. مواسم أربع وضعتهما على حافة هاوية. ولما حَبَلت أخيراً كان الخوف على حياتها وحياة جنينها عظيماً نظراً لهزالها. وضعت حملها بعد معاناة خطرة، إلا أن الأم عاشـــت وعاش الابن. وكان الثمن باهظاً، تمزقت البوصة ولن تلد بعد ذلك أبدا. الابن ولد هزيلاً رغم وسامته، جوفه يحمل أكثر من عضو مُتعَبٍ، خاصة معدتـــه. ولما صبر آبدون وهَكيمة على ما كان، وصلهما معتوق ومعه الخير كل الخيـــر لهمـــا فـــي أول الأمـــر خاصة أنه كان سبباً رئيسياً في إبعاد الموت عن وحيدهمـــا أولوا، والألم كل الألم لأولوا نفسه الذي أصيب بداء الحقد مضافاً على داء المعـــدة. صـــار يبغض أخاه في الرضاع ويتهم والديه سراً وهو طفل، وعلناً وهو مراهق بأنهما يفضلان عليه معتوقا، وأنهما أصلاً من داخلهما يتحسران على أن أولـــوا هو ولدهما الحقيقي وليس معتوق! لكنه لم يفهم ولا يريد أن يفهم أنه لـــولا وصـــول معتوق وإدراره اللبن من صدر أمه هَكيمة، فإن احتمال موته كان احـــتمالا كـــبيراً. فرضاعته من الماعز كانت تتعبه. لم تتقبل معدته إلا القليل من شـــراب البذور وأوراق أعشاب الجبل. لا يريد أن يفهم هذا. ولا يريد أن يفهم أن

هكيمة أمه يملؤها إحساس بأنها مدينة لمعتوق أساساً لأنه مَدَدٌ من الله ليبقي لها وحيدها أولوا.

الموســمان الأولان بعد وصول معتوق، انتعشت نخلة جوش الكبير وعادت لــلعطاء الــثري، وصــارت الأرض التي يستزرعها آبدون أفضل أرض معطاءة وبهائمـــه ولاّدة حلوب فاغتنى واشترى الحمار العالي وجمله الذي سمّاه السعيد. ولما عاد أثمان كُورنة من غيابه الطويل، زار آبدون في ليلة وانفردا فطلب أثمان مـــالا لـــتجارة ينتويها، مقابل أن يبيعه أرض جده جوش الكبير وأيضاً الدار التي يسكنها والتي هي أصلا دار جد آبدون، جوش الكبير.

آبـــدون موسى جوش، عاد صاحب أرض ونخيل ودار. صار من أبرز ناس القـــرية. اســمه ذاع بين القرى المجاورة. فهو آبدون حفيد الشيخ الولي الكبير جـــوش. ولغـــرابة طباع ناس النوبة الفطرية، لم يطلق عليه أحد أبداً اسم الشيخ آبـــدون، رغـــم أنه تعلم موسماً دراسياً كاملاً في الأزهر قبل وفاة والده موسى. ربما لأن آبدون همّه الأرض وفلاحتها والبهائم ورعايتها وتوليدها ثم تأبير النخيل فـــي موسمها، ربما لميله لارتداء أفضل الثياب والتأنق الزائد، ربما لوجود الشيخ صَـــلاتو، الجبل العالي الذي يتضاءل بجانبه أي رجل آخر في أمور الدين والهيبة الراسخة الواثقة.

فـــي الصـــيف، وقبل ميقات الفيضان الحولي، يكون البلح قد استوى على نخيله، تتثاقل السباطات تماماً بما تحمله من ثمار حلوة، تصير كل سباطة وكأنها ثـــدي وافر يتدلى في صحة وعافية، وبدلاً من حلَمة واحدة تتوّجها، تكون المئات مـــن الحَـــلمات البلحية الملوّنة، بني وأصفر وأحمر وزيتي داكن وفاتح. كل ثدي حسب نوع نخلته.

تـــأتي مـــراكب نـــاس الصعيد من الشمال وترسو عند مَرْسَى صخرة دُجُر. مراكـــبهم واسعة عميقة. يأتيهم مُهدي التاجر. يتبادلون الأحضان وكلمات عربية متكســـرة من مُهدي وعربية ذات حروف مشبعة بشدّة محببة من ملاحي الصعيد وتجّاره، ثم مساومات بيع تلال البلح.

مركب عليها اثنان من أهل الصعيد يهبط لهما آبدون الذي يبيع وحده إليهم بــدون وســاطة من مُهدي. يبيع محصول أرض عائلة أثمان كُورنة خلال غيابه. الأرض الــتي يديرها نيابة عنهم. وأيضاً يبيع محصول العمدة نُوري نيابة عنه. مُهــدي الأصفر غير راضٍ عن هذا. ويعتبر ما يفعله آبدون بتشجيع ورضاء من العمــدة، كسراً لتكاتف القبيلة في قريتهم. ومُهدي صاحب المتجر الكبير في نجع أورّك، والذي له فرعان، فرع في كل من نجعي القرية الآخرين. يبدل المسئولين عنهما كل فترة بخبث. وهو المستفيد الأكبر من هذا الطقس الاحتفالي، طقس عيد البلح. ناس القرية يشترون منه احتياجاتهم بالأجل. هو يعطي ويسجل في دفاتره. يأخذ في موسم الذرة مكاييل من محصولات الناس، لكن السداد الرئيسي يكون في موسم البلح، عيد الرزق الأكبر للنوبيين. النخيل كثيف كثيف.. غابات. بلحهم وفير ذو نوعيــة شهيرة، يتلهف عليه تجار الصعيد ليبيعوه في مدن الشمال بأسعار جد عالية.

بعــد محاولات ومجادلات ومساومات بين كل عائلة وبين مُهدي على حدة، ومــن قبل أيام الحصاد. يتحدد سعر بلحهم تبعاً لنوعيته. يعطي ناس القرية جزء كــبيراً من محصولهم لمُهدي. وبعض العائلات التي نضجت فتياتهم وحان موسم قطــافهن زوجــاتٍ، أو شــب صبيانهم وبلغوا مبلغ الرجال وحان ميقات منحهم زوجــات مــن الصبايا الناضجات، يعطون مُهدي كميات إضافية من البلح، لأنهم ســيأخذون مــنه الكثير من ضروريات حفل الزواج. دقيق، زيت، سمن، حناء، روائح، أقمشة متنوعة. فانوس أو اثنين. وغيرها.

تهــبط النساء إلى الحقول جماعات جماعات ووسطهن الأطفال، يصفقون بإيقاعــات تناســب مايغــنونه مــن أغــاني فرحة الحصاد، فرحة البلح. يباركن لبعضهن. قبل التحلق حول نخيلهن يذهبن إلى ضفة النيل. يهبطن فيه حتى تصل الميــاه إلى أفخــاذهن. يناجين ناسهن الآخرين.. ناس النهر، ساكني أعماق مياه الــنيل وقراره الطيني. يبللن وجوههن وأثداءهن. يرفعن أياديهن ووجوههن إلى السماء الصافية ليشكرن الرب في تراتيل منغمة.

يصــعد رجــال مهــرة جذوع النخيل الهيفاء الشاهقة بدون خوف وكأنهم يصــعدون درجــات مــآذن جوامعهــم الآمنة! معهم الشراشر، يجزّون الصدور

الســباطية فتهوي بأزيز ثم ترتطم بالأرض في عنف ودويّ ليثب منها الكثير من البلح متناثراً هنا وهناك. الأطفال يهرعون إليها يلتقطونها يجمعونها في منافسات ضاحكة، والنساء يبقين سعيدات مبتسمات فرحاتٍ بخير الرب الوفير.

ينــثر البــلح على أبراش في الأحواش وفوق أسطح الحجرات. ألوان البلح الفاقعــة تزيد من بهرجة الألوان التي تغمر القرية المزخرفة قبل أن يدخل الكثير مــنه داخــل صوامعهم الطينية التي تُبنَى في أركان الأحواش الواسعة، ارتفاعها بطــول قامــة إنسان بالغ،محيطها تكاد أربعة أذرع تحيط بها. وبعض الصوامع الصــغيرة باسم كل طفل ليأخذ منها ويضع فيها ما يحلو له. ومن الصوامع تؤخذ كل فترة احتياجات البيت.

تعود مراكب ناس الصعيد شمالاً ثقيلة بما تحمله من أجولة البلح المضغوط تســير مــع الــتيار وكأنها ستسيخ غارقة من عبء حمولتها. أمواج النهر تكاد تتخطى حوافها الواطئة.

مُهــدي يعيــد فــتح دفاتره الجديدة، سعيد بأن أمواله ربت وازدادت. ناس القــرية كــلهم فرحون بالرزق وبالبلح وبالغناء الحاوي للدعوات التي أدّوها لإله النيل وإله النخيل الإله الواحد.

حكاية آبدون جوش

جدّه، أحبه ناس القرية وناس القرى المجاورة. الشيخ المبارك الفلاح النشط ذو الكـــرامات الـــتي لا تُعد ولا تُحصى. منهم وعليهم، ابن القبيلة الشيخ جوش. الزاهد في أي زعامة أو صيت. يغضب إن حاول أحد تقبيل يديه، يثور رافضاً أن يفاخـــر بـــه ناســـه لكونه وهو متربع يشرح لهم أمور الدين أو يصلح في أمور دنياهم.. يتصاعد أشباراً فوق الأرض هادئاً وقوراً. يرفض مقولة أن رزقه الزائد نـــتيجة ورعه وقربه من الخالق الرزاق فقط. في مواسم البذر والحصاد يكون مع الـــرجال في الحقول، يشاركهم في بناء بيت لعريس جديد. هو المؤذن والمأذون والمرجع الشرعي والحكيم والقاضي بين ناس القرية والقرى المجاورة. ذهب إلى العديـــد مـــن قـــرى الـــنوب يتابع معيشتهم وقضاياهم ونخيلهم وحصادهم معطياً المشورة.زاهداً في الفُتيا الدينية. يقول إن كل قرية بها من يفهم في هذه الأمور ويســـتطيع أن يســـد احتياج الناس منها، وإنه علينا أن نزيد من فهمنا في أمور الدنيـــا. آية القرآن التي يرددها دائما.. "وقل اعملوا". مكانته فوق العُمَدْ، إن قال سمعه الكل وإن غضب تأسف له الكل.

وفي موسم السخونة التي ضربت القرى وخنقت الكثير خاصة الأطفال، فقد جـــوش كل أولاده مثلما فقد كل بيت الكثير من أرواحه. تحمل الشيخ بلوته بصبر المؤمـــن فأعطاه الله ابنا جديداً، سَمّاه موسى وأفرغ فيه حناناً طاغياً، هو حقيقة نزيف حزن على مصيبة فقد أبنائه، ولا يستطيع أن يعترض على ربه والقدَر الذي كَتَبَه عليه، ولا يستطيع منع نفسه من الانتفاض رفضاً، لكن استطاع أن يسوسها ويهذبها ويلاطفها فارتخت لا تملك شيئاً ولم تفهم ولم تدرك ما هي الحكمة في فقد كل الأبناء؟ ارتخت فلم يظهر اعتراضها لغير صاحبها الولي ولغير خالقها.

شـــبّ موســـى وصيت والده جوش يغمره. تزوج صغيراً لكن قبل أن يرزق بالذريـــة، مات والده الولي الزاهد المكلوم. دُفن في الجبّانة مثله مثل غيره تنفيذاً لوصيته ألا يضعوه في مقام وضريح. دفنه ناسه في الجبانة وهم في ضيق.. لماذا

لا يكــون لهــم ضــريح يحــوي رفات ولي يتبركون به مثلما تتبرك بقية القرى بأضرحتها ورفات أوليائها!

توقــع موســى جــوش أن يأخذ مكان والده، لكنه كان شاباً مراهقاً غضاً بالإضافة لحدّة فيه وتشدد في الدين ليغطي ضعفه وخواءه في أمور الدين والدنيا. يعشق الزعامة محباً للمظاهر، فانفض من حوله ناس القرية ولم يزره ناس القرى المجــاورة كما كانوا يزورون أباه. ثم ظهر له في قريته شاب أصغر منه عاد من أزهــر بر مصر متعلما متفهماً، التف حوله الناس ونصّبوه مأذوناً وإماماً ومرجعاً شــرعياً ومعــلماً ومدرساً لابنائهم، إنه الشيخ صَلاتو، القصير المتوقد ابن نجع نجيــبيّة. أصيب موسى جوش في كبريائه، حاول أن ينقص من مكانة هذا الشاب صَلاتو، تحداه أن يسير على سطح النهر، تحداه أن يرتفع عن سطح الأرض وهو يلقي دروسه كما كان يفعل أبوه جوش الولي. لم يقبل الشيخ الصغير التحدي. قال إن هــذا العطاء منحة من الخالق وإلا لفعل ذلك متحديه نفسه، موسى بن جوش! قال ما كان ناس القرية يعلمونه.. إن الولي جوش، لم يكن يحب أن يحكى هو أو غيــره عــن تجلياته هذه، وكان رحمه الله يؤكد أن المهم هو العمل وسط الناس وفيمــا يــنفع الناس. وليؤكد صَلاتو ما يقول. .تحمّس أكثر وأعطى جهداً أغزر لإنشــاء أول كتّاب في القرية.لم يعد راضياً بعدم النظام في تربية الأطفال وعدم تحديــد مواعيــد معــلومة، وعدم تحديد مكان معلوم، فبنى الكتّاب ذا الحوش في أرض يمــلكها هــو، وزرع نخلة الكتّاب التي أطلقوا عليها نخلة صَلاتو. وقال أن الكتّاب يغلق مع بداية موسم الصيف، ليترك الأطفال يعملون مع أسرهم في سرعة جني المحصول قبل أن يغرقه الفيضان، وليعملوا مع أسرهم في أعياد جني البلح، عــلى أن يعودوا مع أفول الصيف بعد موسم الرعي الكثيف مباشرة. تحمس معه نــاس القــرية معجبين بمنطقه، لم يأبهوا باعتراض موسى على تداخل الدين مع التعــليم، تداخــل الشــيخ مع الخوجة المُعلم، فرحل موسى وزوجته التي رافقته مــرغمة، ومعهما طفلهما إلى مدينة سُوين حيث شلال الشمال الأول. شبّ آبدون هناك. ولما توفى أبوه موسى جوش، لم تتركه أمه ليلة ينام فيها هادئاً، تلح عليه أن يعودا إلى قريتهما.. إلى ناسهما. وآبدون بين رغبة أبيه أن يسري قرار هجر القرية عليه وعلى ذريته، وبين بكاء أمه وأملها أن تموت في قريتها مُعذب.

حين عاد آبدون شاباً غضاً إلى قريته، لم يكن له دار يأوي إليها ولا أرضاً يـزرعها. أبوه موسى جوش في غضبته العارمة على القرية باع الدار والأرض وهاجـر هجـرة أرادها أبديه حتى على ذريته المتمثلة في وحيده آبدون. بث في قلبه كم ظلمته القرية وهو ابن جوش الولي الكبير، وأن هذا الظلم يقع حتى عليه هـو، آبدون! موسى جوش لم يترك إلا قيراطاً يتيماً تتوسطه نخلة جوش الكبير ليـتذكروا دوماً حق موسى جوش وولايته، حمل معه في رحيله الإبريق النحاسي الـذي كـان يتوضأ به والده. إلا أن زوجته بعد موته لم تجد صعوبة شديدة في حض آبدون على العودة سوياً إلى قريتهما حيث ناسهم.

عادا في موسم موت زوجة أثمان كُورنة الذي قرر الرحيل جنوباً، ويريد أن يطمـئن عـلى شـقيقته هَكيمة التي بقيت بدون زواج بعد زواج أختها الصغرى الجميـلة نَـبْرة. أثمان كُورنة عرَض أخته هَكيمة بوصة على آبدون، يتزوجها ويقيـم في الدار التي باعها أبوه موسى جوش لوالد أثمان قبل رحيله. بالإضافة أن أثمان سوف يترك آبدون يزرع أرض والده التي بيعت أيضاً لوالد أثمان! وافق آبدون لاحتياجه لدار تؤويه هو وأمه العجوز بدلاً من المبيت عند الأقارب. رضى آبـدون بهـذه الصفقة، فكما أن أثمان يريد الاطمئنان على شقيقته، فآبدون أيضاً يـريد الاطمئـنان عـلى أمه التي تتمنى أن تعيش في نفس البيت الذي تزوجت وأنجبته فيه. وما شجّع آبدون أكثر على قبول عرض أثمان، سماحة هَكيمة بوصة رغم هزالها الغريب، وهَكيمة قلبها استراح لآبدون السَلس ولأمه السعيدة بعودتها إلى قريـتها ودارها، السعيدة بناسها وقبيلتها والتي تقبّل كل من يسلم عليها، كل مـن يقابلها شوقاً وحبا. ثم ماتت قبل مولد أولوا، ماتت راضية بأن حياتها انتهت في قريتها وبين ناسها. فكان رضاؤها إضافة رضاء من ابنها آبدون على زوجته البوصة.

آبـدون محب للتأنق في ملبسه وفي حديثه. وأحب ما تحبه فيه هَكيمة هو ونَسَـته معها. مهما كان مرهقاً، مهما كان مهموماً، فقبل أن يناما لا يفوته الكلام الحـلو معهـا. يغازلهـا حتى أيام كانت بوصة. يراقب ملبسها وينصحها ويبدي إعجابـه. قـبل أن يجامعها يجعلها في حالة صفاء واستعداد له، فتتناسى اختفاء تضـاريس الأنـثى مـن عود بوصها، بل إنه يهيئ نفسه لينسى ذلك. لكن لا هو

ينســى ولا تنســى هــي واقع هزال الجسد العظمي. يحكى لها عن سُوين، عن الـزراعة وأحـوال البلد من وجهة نظره، ويأخذ رأيها. آبدون هو الرجل الكامل بالنسبة لها، الحكّاء اللذيذ.

وآبــدون رغــم سماحة وجهه وطيبته وتوازنه وتعاونه مع ناس قريته، لم يسلم من بذرة الحسرة التي زرعها في قلبه أبوه موسى جوش. لم يلاحظ أحد من نــاس القرية هذه البذرة المرّة وهي تنمو داخله رغماً عنه. زوجته فقط هي من احسّــت بها، أدركتها وهي تنمو شجرة حنظل كادت أن تمرّر حياة آبدون وتلوث طيبة قلبه وحبه للناس. في أمسيات الونَسة مع هَكيمة، لسانه طيب زلق، يمتّعها ويمــتّع نفسه في الحكى والتودد، لكن.. كلما أخذه الحديث إلى أبيه، تعثّر سلسال حكْيه النهري وكأن جندلاً جلمودياً فظاً يوقف تدفقه، فيحيد عن الموضوع ويتفرع إلى حديث آخر. لم تعلم هكيمة، لكنها أحست أن سيرة أبيه تؤلمه. لم يجرؤ آبدون على كشف بذرة مرارته لها إلا بعد عمر طويل صارت فيه هكيمة سكناً له، سكناً لنفســه المُتعــبة، وبعدما كانت هكيمة نفسها قد وَعت أن أباه هو الزارع للبذرة المــرّة التي تعذِب زوجها، فكانت تدفعه للوضوء بإبريق جده النحاسي ويصلي لله طالباً منه العفو واللطف والرحمة بأبيه الذي مات حزيناً ممروراً.

أبــوه موســى جوش حكى له كثيراً وهو طفل عن حقه المزعوم في ولاية وقيــادة القــرية والقرى المجاورة، حكى له كيف تنكرت القرية له ولأبيه جوش الكــبير، فتركــته هــو وأعطت حقه للشاب القصير الفقير صَلاتو الذي هو مؤهل ليكون مجرد خوجة وليس وليّا. ذات ليلة وهو يحكى. .بكى، فتوقف بعد ذلك عن الحكى حتى مات هضيم القلب متكدراً.

ولأن آبــدون يكــره الشــر، ويأبى أن يكون عامل هدم بين الناس، صارع مــرارته ليمــنعها مــن دفعه للحقد على ناسه، نجح في ذلك. لكن شجرة الحنظل داخله تنكرت في أشكال أخرى داخل تلافيف نفسه وبرزت بدون أن يدري وأعطت ثمــرها المر. دفعته ليؤكد حقه وحق أبيه في التربع على قمة القبيلة، قمة القرية والقــرى، لكــن بأســلوب مراوغ. ودخل الخير إلى بيته مع دخول الطفل اللقيط معــتوق الخير، رغم إنكاره أن الخير جاء مع معتوق، يدعي أن الخير نتاج عمله فقــط، لم يعترف بذلك إلا بعد مرض الموت الذي ألم به، فحادث هَكيمة في شجن

عــن أيــام الخير والفتوة والزرع النضيد. تقوَى آبدون بالخير الهابط عليه وعلى بيته وصار يساعد ويدخل في مشاكل القبيلة بثقل، صار يستعرض ملبسه ومأكله وبهائمه بأسلوب ظاهره بسيط متواضع. لكن داخله يقصد أن يقول. .

- شاهدوا مكانتي يا ناس وأنا حفيد جوش الكبير وابن موسى الذي أنكرتم عليه مكانته.

ضغط على ابنه أولوا ليصير عالماً متعلماً ويأخذ المشيخة والسؤدد من بلال حفيد صَلاتو ومن سِسِّي ابن العمدة، يطلب منه الوضوء بإبريق جده النحاسي بعد أن يمــلأه بنفسه بماء الزير الرطب. ضغط على ابنه بكل قسوة. الخطأ الذي فعله أبــوه معه ومرّر به حياته، كرره هو مع ابنه أولوا بطريقة مغايرة في مظهرها، لكنها هي هي في مخبرها. فساعد على هدم حياة ابنه الوحيد. انكسر أولوا عليل الجســم والــنفس. لــم يســتطع أولوا بنفسه المنكسرة أن يتحمل وقاراً ومهابة يفرضهما عليه أبوه. ولم يستطع ببنيانه الهزيل جسداً ونفساً أن يصارع الأقوياء، ولم تسعفه عقليته المتواضعة.

آبــدون بانكســار ابنه وإقبال الفقر عليه، وبفهمه أخيراً أن شجرة الحنظل داخلــه ضحكت عليه وسخرت منه ودفعته لهجرة القرية للبقاء في سُوين وحده، نفــس مــا فعلــه أبوه، حاول تعويض ما فاته وعاد ليساند ابنه الذي ضربه عار الشــذوذ الجنسي ويساند الجانب الخيّر في القرية، لكن العمر وصل لنهاياته وبدأ فــي الانهيــار. هَكيمة وأولوا سامحاه، لكنه لم يسامح نفسه. وبذلك تكون شجرة الحــنظل قد احتلته وقضت عليه بمرارتها، فسقط هضيم القلب ومات متكدراً مثلما مات أبوه وقبلما يرى معجزة الله في ابنه.. حفيد الولي جوش الكبير.

أصـــر آبـــدون أن يكـــون حفـــل ختان أطفال هذا الموسم في بيته. هَكيمة بمســـاعدة نَـــبْرة وغيرها، أعددن عجائن الشعرية، جلبن كميات كبيرة من اللبن وأوعيـــة عديـــدة من السمن، فالطعام يجب أن يكفي ناس الأطفال الذين سيأتون بأطفالهم، طعام أبيض تفاؤلاً، قصعات الشعرية بالسمن، عصائد اللبن.

مـــن شقشقة العصافير وصياحات الديكة المبكرة وثغاء الحيوانات، والبيت يمـــوج بالحـــركة، ثم ازداد الزحام بوصول الناس ومعهم الأولاد والبنات، الأطفال مـــنهم مـــن هـــو في ذهول، منهم من يبكي ويصرخ، منهم من يدعي الشجاعة والوقار في محاولة ساذجة لحجب الخوف الذي يعض في حشاهم. ثم جاء يونس المجبّراتي متباهياً بأهميته، فاشتدت الزغاريد وأخذت تتعالى من النساء الفرحات بهـــذا العيد وبأولادهن وبناتهن الذين دخلوا مرحلة جديدة من العمر. خَتَن خمسة بنات وأربعة أطفال أولهم كان أولوا الذي كان أكثر الأطفال صياحاً ووهنا. ثم فيّاج بـــن مُهـــدي الأصفر الذي ما كادوا يمسكون به حتى ترك وقاره المُدعَى صائحاً لاعـــناً، ثم حاول عض ماسكيه. وأمرُ الله الأشرم ضعيف البنية الذي تخاذل وبكى بكاءً واهناً به خنفه. الأخير كان الغريب عن أصل القبيلة.. معتوق، حين أتوا به إلى الحجـــرة حيث يونس بأدواته وشلحوه وأرقدوه، أخذ يراقب مايفعلونه بعضوه فـــي اندهـــاش. لـــم يضطر آبدون للإمساك به بكامل قوته. عند القطع أطلق آهة واحدة سريعة، ثم صمت مذهولاً. لحظات وابتسم! ويونس يتعجب منه وهو يلملم حاجياتـــه، مد يده يتحسس ذراع معتوق حيث الحجاب. في الحوش وقبل أن يترك البيت، طلب يونس من آبدون رؤية الحجاب. أجابت هَكيمة من خلفه.

- لا.

طـــلب مـــنها يونـــس ذلك أكثر من مرّة، توقعت أن يطلب من زوجها نفس الطـــلب مســـتغلاً انشغالها مع الطفلين خاصة أولوا الباكي. أتت خلفهما لتقول في حزم.

- لا.

أولـــوا بكاؤه استمر أياماً ولا ينقطع إلا عندما ينام أو يجبروه على ابتلاع لقيمـــة وشـــرب لـــبن أو منقوع بلح. التباين بين الطفلين يزداد، أولوا لا يطيق معـــتوق، معـــتوق قوي سمين، يوضع أمامه الطعام فيأكل كفايته وإن كان يفضل البلح واللبن، ثم يعمل طوال اليوم ولا يلتفت إلى طعام. ضاحك السن كما كان طفلاً ضـــاحكاً. عبوسه نادر. أولوا هزاله مستمر معه، لا يستطيع أن يأكل قرصاً واحداً مـــن الخـــبيز، وإن لاك بلحة واحدة فلن يتناول طعاماً لساعات. إناء اللبن لا يأخذ مـــنه إلا جرعـــتين تحت إلحاح وتهديد أمه. وكلما ازداد والديه حباً لمعتوق، زاد نفـــور أولـــوا مـــنه، وكلما ازدادت القرية توددا لمعتوق، كره أولوا معتوق أكثر وأكثر.

مـــرض أولـــوا. معدتـــه كالعـــادة مع سخونة مصاحبة. لا يمر أسبوع إلا ويمرض وتصر هَكيمة ان يعوده يونس المجبّراتي وهي تكرهه من صغرها وتكره حضـــوره! عرّاه يونس وبأصابعه المدرّبة يجس جسد أولوا العظمي. أولوا يبكي فـــي ضـــعف. يفرز من فمه لعاباً أصفر. تضغط أصابع يونس على بطنه فيضرط ضراطاً ليناً ويخرج منه خيط من البراز السائل كريه الرائحة، تمسح هَكيمة بقطعة قمـــاش مخـــلفات ابنها ودموعها تسح. من حقيبة قماشية يخرج يونس أعشابه. ويطـــلب كما طلب من قبل بعض قطع الخبز العفن. هَكيمة تترك بعضه هكذا بناءً عـــلى نصـــيحة يونس. أولوا مستلقٍ في وهن ينظر بعيداً عن يونس يجد معتوق يـــنظر إليـــه فيبعد أولوا نظره عن معتوق الذي يكرهه أكثر من كراهيته ليونس، الذي كلما جاء اعطته أمه مشروبات قبيحة واطعمته خبزاً عفن.

يونس وقد ذهبت هَكيمة وآبدون غير موجود، ينظر إلى معتوق الذي ابتسم لـــه قلقا. ناداه يونس ليقترب فاقترب منه ضاحكاً في رهبة. أمسك يونس بالطفل. شلّح كم ذراعه. بان الحجاب. يتحسسه يونس. معتوق متوتر. يتحسس يونس مـــابداخل الحجـــاب ليعرف. متلهف على معرفه كنّه هذا الحجاب. أجلس الطفل ملتصقاً به وأخذ يفك رباط الحجاب. اطلق معتوق صرخة عالية. أسرعت هَكيمة قـــبل أن يـــنجح يونـــس في مبتغاه، دفعت يدي يونس غاضبة محذرة من اعادة المحاولة. يونس يبرر فعلته بأكثر من حجّة وهَكيمة ترفضها كلها بحزم. معتوق

متعــلق بساقي هَكيمة. أولوا ينظر إلى مايجرى غير راضٍ بدخول معتوق في أمه لكنه لا يملك أي فعل.

أمســكت هَكيمــة بأولوا ليضطره يونس أن يبتلع قطع الخبز التي ضربها العفــن بــلونه الأخضر، ثم شراب البلح المسكّر حتى لا يقيء ماأكله .في الصباح هبطت حرارة أولوا، لكن معدته لاتهدأ حتى تهيج، لاتصح يوماً حتى تمرض أياماً.

نَــبْرة أحبت معتوق بعد أن رأت أختها تنقلب من بوصة إلى عروسة. أتت يوماً لتأخذه عندها حتى يلعب مع طفلها سِسِّي وسلاطين ابن أخيها وربيبها. ذهب معــتوق مــع نَبْرة مسرورا. لكن الولدين قابلاه ببرود. ورغم ضغط نَبْرة، رفضا الاندماج معه وتحاشياه. أتت هَكيمة في المساء لتأخذه. صارحتها نَبْرة . .

- سِسِّــي كان من الممكن أن يصادقه، لكن سلاطين ابن أخينا الغائب، هذا الطفــل الشــرس رفضه تماماً فتبعه سِسِّي . ألا تتركين معتوق عندي بضعة أيام، ربما تعوّد عليه الطفلان؟

- لا، لن أطيق بعده عني.

- هاها. لا تظهري حبك الشديد لـه. حتى لا تزداد غيرة أولوا.

- وقع الفأس في الرأس. تمكنت الغيرة من قلب أولوا . يكرهه من أول يوم أتانا .

لم يشب معتوق طفلاً طبيعيا. لا يكف عن الضحك حتى ظنوا به بلها. لسانه ثقيل، الكلمات تخرج من فمه مشوّهة مبتورة كأنها ذات مفردات خاصة بالأحجية، لا يفهمها بسهولة إلا عائلته، خاصة أمه بالتبني هَكيمة. الأطفال يضربونـه، ورغم قوتــه لا يضــربهم هــو. نادوه بالعبيط زمناً. لا يحب لعب الأطفال، فلعبه العمل. عــندما يساعد هَكيمة فهو يلعب . عندما يساعد آبدون في الحقل فهو يلعب. وهو يطعــم الــبهائم يــلعب. وعندما يحادث الكبار برطانته فهو يلعب. وأكثر ما يثير فضــوله مــن مــتاع الدار، البندقية التي يناديها دُكّة. أخرجها آبدون إلى الفناء ليــنظفها ويزيتها. أوقفها على مؤخرتها الخشبية. احتضنها معتوق . كانت أطول منه بكثير. باردة. ماسورتها من القِدم بَهتت فصارت من أعلى الفوهة لامعة كأنها فضة، ومن الأجناب رصاصية غامقة. قال آبدون..

- معتوق، تحب الدُكّة كثيراً يا ولد.

ابتسم معتوق. وضع إصبعه في فتحة الدُكّة وأشار بيده الأخرى إلى السماء الصافية وضحك بجلجلة..

- دُكّة، كور. .شو. .م. نا. .رااح. .فو.

ضحك آبدون وابتسم أولوا. لكن هَكيمة ضربت بيدها أعلى الصدر في فزع. قال آبدون. .

- لك ربع لسان فقط يا معتوق، تكاد تكون أخرس. مابكِ ياهَكيمة؟ هل قال مايُفزع؟

- يقول الدُكّة ستضربه كوورشووم، فيروح إلى فوق. يموت!

- ياساتر يارب. لكنه يقولها ويضحك؟

- ومتي رأيته يعبس؟

الطـــبيعة ظاهرها قاس، فالجبال سلسلة جدران شاهقة، أجزاء منها رأسية الارتفـــاع تنـــتهي بعضها بقمم متورمة كانها ستسقط على بيوت القرية المتناثرة أســـفل السفح. شريط الخضرة الموازي للنيل يمتد أسفل القرى، أحياناً يضيق ولا يـــزيد عرضه عن مرمى حجر. وفي أماكن ينحدر سفح الجبل ويتقدم حتى يشرف على النهر نفسه، فلا يترك شبراً واحداً يُزرع، لذا فالخير الظاهر محدود.

ومـــن يـــوم أن عرف معتوق شوارع النجع الواسعة، وأصبحت دار عسل الضرير أحب البيوت إليه بعد دار هَكيمة، ماتكاد القيلولة تذهب بهجيرها المريع، حتى يجرى صاعداً يراوغ الأطفال الذين من سنه والأكبر منه، يتفادى ضرباتهم، وإن طـــاردوه لا يلحق به أحد، فهو الأسرع، ولا يبطئ من سرعته أبداً، تتحشرج صدور مطارديه وهو مستمر في عدوه السريع كأنه مازال في بداية العدو، يدخل دار عسل وينادى..

- إدي أســـ اا سل.

يجالســـه ساعات في الحوش أو خارج الدار. من يسمعهما يضحك، العجوز الأعمى مدّاح قديم، ينشد الأدعية والمديح النبوي والتسبيح ومعتوق بلسانه الثقيل

يقــلده وهــو لا يفهم أغلب المفردات. والعجوز تخطى زمن المشاركة في الحياة المــتدفقة، واتعبــته مواســمه الطويلة التي يحملها فوق كتفيه المرهقين، اقتنع بملازمـــة داره، والـــدار ممـــلوءة حركة. حفيدتاه كِسبانة وهُوشَة وأمهما سليطة اللســـان تَعويضـــة لِســـانين. تَعويضة وكِسبانة لا يلقيان بالاً إلى العجوز الضرير بحجّـــة أنـــه عجوز أخرق كثير الكلام دائم الطلبات مغرم بالأوامر، لكن تَعويضة تقول أن لعسل الضرير نفع واحد، قراءته الدائمة للقرآن ومدائحه للنبي تبعد أهل الــتيار الشياطين عن البيت. لم يمانع أحد منهم في حضور الطفل غطيس اللون شبه الأبكم. يأخذ العجوز إلى الجامع ليصلي المغرب ويعود به بعد صلاة العشاء.

هُوشَـــة أصـــغر أحفاد العجوز، لاتنسَى جدّها الضرير في مواعيد الوجبات، لكـــنها لا تجالسه تقليداً لأمها وأختها رغم عطفها عليه. تعثّر جدها الضرير أكثر مـــن مـــرّة لإهمال أمها وأختها وتركهما الأغراض هنا وهناك. والضرير يلعنهن كـــلهن كلما سقط بسبب طست أو وعاء أو كومة من بقايا أي شيء، فهو يرفض اســـتخدام عصـــاته داخـــل بيـــته، يكفيه احتياجه إليها في دروب القرى وبيوت الآخرين، هُوشَة آلت على نفسها رفع كل ما يكون ملقي في الحوش أو في طريق المـــرحاض. أمـــا حفيده زجِرْ، فهو دائماً مع أبيه سلَيمتو عسل، حتى تزوج ولم تستطع زوجته أن تبقى مع حماتها المتوحشة تَعويضة سوى زمن فيضان واحد، هـــربت بجلدها منها، وأجبرت زجِرْ ضعيف الشخصية والبخيل مثل أبيه أن ينتقل معهـــا إلى بيـــت أمها في نجعها، نجع المنحنَى الذي يفصله عن نجع أورِّك حيث حماتها، نجع آخر هو نجع نجيبيّة!

فـــي دار عســـل، طفـــل أشرم أعجف ذو عرجة واضحة. دائماً إن لم تكلفه تَعويضة بعمل ما، يختلس النظرات إلى معتوق ويتمنى الاقتراب منه واللعب معه، أو يجلسان سوياً مع جده الضرير. الطفل المشوّه يعمل في البيت كأنه خادم لعائلة لا ترحم، وقليلاً ما يخرج مع خاله سلَيمتو وابن خاله زجِرْ. لم يحاول معتوق أن يتقدم منه لإحساسه بأن الطفل الذي يكبره عمراً لا يريد ذلك خوفاً من تَعويضة. لكنهما تبادلا نظرات ود.

المنشـــد العجوز الضرير يطلبونه في الأعراس ومآدب الكرامات ومناسبات الطهـــور، يطلـــبونه بـــدون حمـــاس، فلم يظهر من بعده من يسد مكانه. يأتونه ويأخذونه على حمار فيأتيهم لينشد ويمدح، لا يبقى إلا وقت جد قصير، فلا صوته

عاد يصلح ولا ذاكرته عادت تعي مئات الأبيات التي كان يحفظها، لكنه عندما يعيدونه إلى بيته، يكون قد أحس بأنه مازال المنشد ذا الدور الهام في القرية. خاصة حين يحضر في المناسبات الدينية الكبيرة.

أحب عسل الطفل، يجلسه بجانبه وبكفه يضرب برفق على كتف الولد ليضبط الإيقاع. الطفل يهتز معه في تواز يمنة ويسرة وهو يدندن بلسانه الثقيل، يعيد ويزيد مع المنشد حتى ينجليا سوياً. يدمع معتوق مع دموع عسل بعد إنشاد كل قصيدة وهما يصليان ويسلمان على طه الرسول. المنشد العجوز الذي كانت ذاكرته قد تعبت وصوته ينسحب ويشحب مع الزمن، بدأ يعود لحماسه ويحاول مجاهداً أن يبدع الشدو من جديد بعد أن وجد الجليس المعجب المشارك.

في مغرب يوم، ذهبا معاً إلى الجامع. تعثر عسل، وفي طريقه للارتطام بالأرض كان معتوق أسفله كالصخرة يسنده ويحاول رفعه. تحسّس العجوز يدى معتوق غير مصدق، وأخذ يسمي باسم الله ويصلي على النبي المختار حتى لا يحسد الطفل حاسد. انحنى قليلاً ناحية الطفل. .

- أنت قوي كبغل ساذج كبقرة طيب كملاك. غريب عنّا. لا يحميك نسب ولا تصلب ظهرك عائلة. كيف ستعيش وسطنا؟ من له صفاتك يذهب سريعا.

ضحك معتوق وبلسانه الذي أبان قليلاً مع تقدمه في السن قال..

- حيح إدي أس سل، تووك. هُبّ. .نا. ودُكّة كور. .شو. .م. .آح. .
فو.

حكاية الشرماء والأشرم

ابـتلاها الله بشِـقة أرنـبية شوّهت وجهها، فشقتها العليا بها خور مفتوح لأعـلى يصل للأنف، يكشف اللثة في بشاعة ويفسد مخارج الحروف حين الكلام. لـم يشفع لها أن ما بها هو قضاء الله، فلم يهتم بها الذكور رغم ذكائها وحيويتها وروحها المرحة الطيبة. لم تتزوج حتى قاربت الذبول.

عمّهـا هـو المنشد الضرير عسل الذي كَفَلَها عنده بعد يتمها. سَليمتو ابن عمها، لم يتزوجها رغم تقاليد القبائل بعد دخول الإسلام بتفسيراته البدوية، والتي تدفع أولاً ابن العم لبستر ابنة العم لكونها من العصب، خاصة إن لم تكن مرغوبة. وإن كان العذر الظاهري أنها تكبره بجزء من مرور فيضان واحد، فالسبب المعلوم لها ولناس القبيلة التي تتكوّن منها القرية، أنها فتاة مشوهة منفرة الوجه خنفاء، وعليه فإن أولاد الخال والخالة رفضوا الاقتران بها لأن الأولى بها تخلّى.

عـندما أتى الغريب من الجبل، استضافه العمدة الكبير، فقد رأى فيه رجلاً صالحاً من طلق الصحراء. وحين أبدى الغريب رغبته في الاستقرار، وافق المنشد عسل على رأي العمدة الكبير بأن يعطوه الشرماء زوجة.

سَـليمتو الصامت كالأخرس هاج وماج وأبكى أباه الأعمى، الذي لم يستطع حمايـة ابـنة أخيه الشرماء من طغيان ابنه. العمدة الكبير عنّف سَليمتو. اشمأز مـنه ناس القرية، لكنه أقسم بأن هذا الزواج لن يتم. كيف يتزوج ابنة عمه رجل غريب من إفراز الصحراء؟! أعلن سَليمتو أنه سيتزوج الشرماء. تَعويضة زوجته وافقت على زواج زوجها من ابنة عمه لتكون ضُرتها. قالت في منطق غاب عنه زمنا..

-أليست ابنة عمه؟ أليست مسئولة منه ودمها هو دمه؟

والشـرماء تعلم أن سَليمتو لن يقربها أبداً، فقد عاشت معه في دار واحدة، إنـه يعاف حتى من تناول الطعام معها من طبق واحد. ثم إن تَعويضة أم لِسانين

تعلم أن الشرماء ضعيفة مكسورة القلب وبشرمتها هذه لن تأخذ منها رجلها حتى لو تزوجته، تطمع في سبعة قراريط وعشر نخلات ودار ورثتها الشرماء، طامعة مثل زوجها الذي بخله أشد وأعمق من بخل مُهدي البقال الأصفر.

أصـــابت الشرماء نوبة هلع مجنون، كانت تتألم منذ طفولتها حتى مراهقتها مـــن بشاعة منظرها. مواسم طالت وحرمانها من الغزل ونظرات الشباب يكويها. جســدها، رغم صغره وقصره، قوي نشط مفصل في براعة. أنوثتها أرض خصبة تشـــققت بأخاديد الغضون من فعل العطش. لا ينقصها إلا غرز البذور في فيضان من ماء الحياة فتمتصه وتطلق حصاداً كأي أرض طبيعية. تألمت حتى دخلت كهف اليـــأس، ولطيبـــتها قبلت الأمر الواقع من بعد عمر المراهقة، وأصبحت لا تذكر أنوثـــتها وحرمانها إلا كل ليلة فتذرف دمعتين وتنام، أما في النهار فهي لا تبقى أبـــداً في بيت عمّها، تَعويضة لِسانين تذيقها المر من تلميحات وغمزات جارحة، وتصـــريح أقـــوال مباشرة تؤذيها في أنوثتها وكيانها كإنسانة، وإن جرأت وردّت أوحـــتى احـــتجت، أقامتها تَعويضة معركة وفضيحة فتضطر الشرماء للانسحاب خجلاً. عمها الضرير لا يستطيع حمايتها. وابن عمها سَليمتو في رحلاته بمركبه الشـــراعي طوال اليوم وإن شكا له أبوه مهانة ابنة عمه.. مَصمص شفتيه ولم يجب.

مـــن عمـــرها ليس لها إلا ديوانة زوجة مُهدي البقال. ومن البنات الأصغر منها مباشرة، تتقبلها الشقيقتان هَكيمة ونَبْرة وشقيقهما الذي اعتبرها شقيقة ثالثة له، أثمان كُورنة. لم يكن فقط يستقبلها مرحباً، بل كان يمازحها ويدللها ويتشاجر مع تَعويضة بسببها. حلمت به زوجاً وسرعان ما طردت هذا الحلم الغبي. فأثمان كـــان يـــأمل فـــي الزواج من تَعويضة! لا تعلم لماذا وهو الطيب وهي الشرسة! وبســـبب حب أثمان للشرماء، قللت تَعويضة قليلاً من سخرياتها منها، قليلا. وبعد بيـــت أثمـــان ليـــس للشـــرماء إلا عـــدد من البيوت المحبّـــة لها والتي تتقبلها ويضاحكونها مقدرين روحها الطيبة بدون شبهة شفقة تؤلمها. لو أمكنها المبيت فـــي دار أبيهـــا المهجورة والتي سقطت بعض جدرانها وأسقفها، لفعلت. أمانيها وأحلامهـــا المســـتحيلة تـــتركز في طلبين.. رجل ودار. رجل يحميها من سَليمتو وتَعويضـــة لِســـانين. رجل تزف إليه في ليالى حافلة بالرقصات ثم يأتيها في زفة

صوفية مثل كل عَروس. رجل يسكنها حصنه وتسكنه حصنها مثل سائر النساء. ودار تخصها، تخصها هي، تكون فيها سيدة الدار، تغلق بابها عليها، تزورها فيه السيدات ويهنئنها ويقرصنها ويسألنها في ليلة الصباحية ضاحكات. .

- ما أخبار ليلتك الساخنة؟ وكيف كان معك؟ هل كان فظاً أم يجيد الوَنَسَة؟ هل هو خبير أم أرعن عبيط؟

تضحك منهن وتتدلل وتكذب كما كَذبن من قبل. تقول. .

- إنه فحل خشن قوي. مزق مصراني ولم يهدأ ويهمد إلا بعد بضعة دورات وبعد ما بكيت له مستعطفة أن يرحمني لأني التهبت.

رجــل ودار. رجل وإن كان أرملاً أو مطلقاً، عجوزاً مريضا. رجل وإن كان ليس من صلب القبيلة. تسكن معه دار أبيها وإن كانت خربة.

والآن استجاب الله لها. أحلامها في الصحو والنوم قاربت أن تتحقق لا تعلم كيف! فبدأت تضيف إلى أحلامها حلماً ثالثاً. . أن تلد أطفالاً أشقياء ليسوا شُرماء .فــتأتى تَعويضة لتخرّب عليها حلمها وحياتها! سَليمتو الزير البارد، يسخن! ابن عمها الصامت والبخيل حتى في كلامه، يتكلم ويثور ليقتل حلمها فيقتلها!

بــدأ الناس يوافقون على حجج سَليمتو الذي تحمس رافضاً زواج الغريب من ابنة القبيلة حتى لو كانت شرماء. العمدة والمنشد عسل اكتفيا بالصمت، فحق ابــن العــم في ابنة عمه وابنة خاله صار حق قبَلي. تيقنت الشرماء أن عصابة تَعويضـــة ستنتصــر عــليها. ساومتهم حتى رضوا. سَليمتو لم يهمه كلام الناس وازدياد احتقارهم له. باعته نصف أرضها ونصف نخيلها بثمن بخس. فتنازل عن مطالبته بالزواج منها.

كــلفت مــن أصلح دار أبيها، دهنتها وزينّت جدرانها وأدخلت فيها سريراً وصــندوقاً وأزياراً وبعض الحُصُر، أواني قليلة وصومعة بلح. بنفسها زينت الدار مــن الخارج بنقوش من ألوان الجبل، وعيون من أطباق خزفية ألصقتها بجدران الــبيت الأمــامي المطل على النيل، لتكون اشارات ضوء مطمئنة لكل عابر سبيل غــريب فــي الليالي القمرية، ولتعكس نظرات الحاسدين. اشترت ركوبة صغيرة وبضــعة جلابيب لعريسها ولم تنس العطر والزيوت الخاصة بكل عَروس ستزف إلى ذكرها.

أشـــبعت نقصـــها الداخلي وأصبحت امرأة مثل أترابها من بعد ظمأ مواسم، ودخلت بجرأة في مناقشاتهن عن كل ما يدور بين الإناث والذكور، تترك مجلسهن أحيانـــاً بِحِجّــة أن زوجها عصبي ولن يعفيها من العقاب إن تأخرت عليه، وهن يعــلمن أن زوجهـــا ليس عصبياً بل هو في غاية الهدوء والطيبة، يضحكن عليها وهي تهرول مبتعدة سعيدة. شهور سعد لم تَدُم.

كُــتبَ عــليها أن لا تهــنأ في الدنيا. مات الغريب بعد أن رواها وبل صَدى جســدها وأجــلى أنوثـــتها. يومها كان بطنها في انتفاخ. صُدِمت، إنهارت، هزل جســدها ويأست تماماً من حياتها، فتمنت الموت لنفسها ولمن في بطنها فيلحقان بالغــريب الــذي أحبته ورحل، ثم جثم في بالها هاجس مرعب، فكلما زاد انتفاخ البطن، اشتد بها القلق أن تنجب شرماء مثلها فتبتلى بالوحدة الباردة طوال حياتها وتشرب من بئر الحرمان المر الذي شربت أمها منه وتجشأت. هزالها وضمورها ســريع. انــتفاخ الــبطن لازال ينمو وأصبح كأنه ورم معلق في عودها الضامر القصـــير، جاءهـــا الطلق، لم تصرخ صرخة واحدة. فقط تنهنه باكية وتوصي من حولهـــا بمن سيأتي. تدعو أن يموت معها. لا تأبه بكلمات التشجيع من السيدات حولها. حتى خرج منها الذي كان. لم يعرضوا عليها ابنها. سمعت بكاءه الأخنف. من الوجوم علمت. زادت من نهنهتها ونزفها يشتد غزارة ثم صمتت. لم تر وجهه لـــم تـــر شرمته ولم تعلم أن بساقيه عيباً سيضيف إلى قبح الوجه وضعف البنية والخنفة عرجاً واضحا. ديوانة بكت. احتضنت الطفل الباكي في خنفه وقالت. .

- أمر الله.

في هذه الليلة، في نجع المنحنى، أنجبت هَربية ابنها سَيّد. أعطوها أمرُ الله فأرضـــعته مـــع ابـــنها. تكفلت به حتى فُطم ثم أخذه خاله سَليمتو على مَضض واســتقبلته تَعويضة أسوأ استقبال. فعاش مهاناً غير مرغوب فيه مثلما كانت أمه الشرماء. كِسبانة ابنة خاله، عاملته معاملة أسوأ من معاملة أمها لأمه الشرماء.

الأطفال تحوي نفوسهم طيبة مخلطة بقسوة متوحشة وإن كانت ساذجة. في الـــنجع ثم في القرية ضايقوه كثيراً ورحموه قليلاً حتى تعود أغلبهم على شرمته، ومن يعاف النظر إليه أو تناول الطعام معه بدأ يداري هذا رحمة به. وندرة منهم من يواجهه بالأذى. نادوه بالأشرم، ثم نادوه بالأشرم بن الشرماء حين يعاكسونه

.حتى سَيّد هَربية أخوه في الرضاع، والذي ظهرت عليه علامات السذاجة والغباء منذ طفولته، كان يناديه بالأشرم ولايحب مخالطته، وحين صار صبياً كان يغضب عندما يعايره الأطفال بأنه أخوه في الرضاع. يعترف تحت سخرية أقرانه بأنه شخصياً أبله، لكن عذره.. أن سبب بلاهته، مشاركة الأشرم له في صدر أمه هَربية.

عندما عاد أثمان كُورنة من رحلته الجنوبية التي اختفى فيها طويلاً، أصرّ على أخذ أمرُ الله الأشرم ليعيش معه، خاصة أن ابنه سلاطين رفض البقاء والعيش مع أبيه. تَعويضة لِسانين رفضت أعطاءه الأشرم، فمع ذهابه سيذهب معه ريع أرضه ونخلاته. وهذا الريع هو السبب في مطالبتها لهَربية بإعادة الطفل إلى دارها.. دار خاله سَليمتو، تدّعي خشيتها من لوم ناس القرية واتهامها بأنها طردته! ألحّ أثمان وتحدث مراراً بين الناس أنه يحتاج أمرُ الله ليآنسه في البيت الخالي.حتى اطمئنت تَعويضة أن أثمان لن يطالب بحق الطفل في أرضه ونخيله، فتخلت له عن الأشرم بعد أن أشبعته بسخرية مدعية إنه كان يميل جنسياً إلى الشرماء أم الأشرم، فلم تنس غيرتها القديمة من حبه للشرماء ومقولته..

- أنا لي ثلاث شقيقات . . هكيمة ونَبْرة والشرماء.

لذلك رغم عدم خجل تَعويضة من أي حديث مفضوح مفتوح أمام الجميع، فإنها لم تطعن سمعة أثمان كُورنة وسط الناس بإتهامه باشتهاء الشرماء. فقط بينه وبينها تتهمه لتشاكسه وتضايقه.

خرج أمرُ الله الأشرم من بيت خاله سَليمتو عسل. ارتاحت الأسرة منه عدا هُوشَة التي كانت تسعد به . خرج الأشرم بجلباب وطاقية وقلب مهترئ وجسد ضئيل . يضع أثمان يده على كتفه مشجعاً، وعند الباب التفت الطفل المشوّه، تبحث عيناه عن الفتاة الوحيدة التي يحبها في هذه الأسرة.. هُوشَة. وجدها تقف بعيداً تراقبه. تلاقت أعينهما فبكت هُوشَة وأسرعت تختبئ في حجرتها ورحل هو مع أثمان بشرمته وعرجته ونفسه المهيضة تتلهف على حب إنساني يحيطها.

إن كان أثمان يعطف عليه، فإن ابنه سلاطين حين عاد إلى دار أبيه أثمان اتخذ من الأشرم خادماً. الأشرم نفسه أحب ذلك، أحب أن يكون تابعاً لسلاطين، لأكثر من سبب، أبسطهم أنه ابتعد عن دار تَعويضة، إذن فكل ما يلاقيه أخف

وأبســـط مـــن عـــذاب أم لِســـانين. وبذكائه الفطري الموروث من أمه، أدرك أن ســـلاطين أقـــوى من أبيه أثمان كُورنة، وأن أثمان مكسور أمام ابنه. لكن السبب الرئيسي كان هو شعور عجيب يدفعه إلى التقرب والالتصاق بسلاطين. فهو يخاف مـــن ســـلاطين ويهابـــه، يعجب به حتى جعله مثله الأعلى. هما مختلفان تماماً، نقيضـــان، قمـــة وســـفح، جمال وقبح، قوة وضعف، صلابة وتهدل، نفس آسرة مُسَيِّرَة طاغية ونفس مأسورة مُسَيّرة ذليلة، لذا كان سلاطين هو الطفل الذي كان يتمـــنى أمرُ الله أن يكونه. وفي أحلام يقظته التي أدمن الهروب إليها طوال حياته مـــن بؤس حياته، كان يتصور نفسه سلاطين، يأمر فيُطاع، يضرب فيؤذي، يقول فيستمع الأطفال له، ينظر إلى الصبايا فيملن إليه. ولمّا لاحظ وهو الثاقب النظر أن سلاطين هواه عند هُوشَة ابنة خاله سَليمتو، والتي يعتبرها الأشرم شقيقته، ازداد هـــو تقديراً لهُوشَة وأخذ حبه لها كأخت يتحول إلى حب ذكر لأنثى. ولما تزوجها ســـلاطين، تزوجها هو أيضاً في أحلامه. أنجب منها سلاطين فكان أطفال سلاطين منها أطفاله هو. وكلما زادت مكانة هُوشَة عند سلاطين ازدادت هُوشَة مكانة في نفســـه أيضا. لكن حبه لها اختلف اختلافاً واحداً خطيراً عن حب سلاطين لها،حب ســـلاطين لها قابل للضمور والتراخي، وحبه لها قابل للتعملق والتعمق. والأشرم طبعه اللين وسلاطين هو القسوة والشراسة بعينها. تألم الأشرم حين تبدّل سلاطين مع تبدّل الحال وصار يقسو على هُوشَة حبيبته وزوجته وأم أولاده. تمزق أمرُ الله الأشـــرم وهو يرى حال هُوشَة يتدهور. امتلأ الأشرم تعاسة لتعاستها. ومع الزمن بـــدأ ســـلاطين يتكسر كمثل أعلى عند الأشرم، حتى أتى اليوم الذي حطم الأشرم صنمه ومثله الأعلى منتقماً منه شر انتقام.

يجـري فـي دروب النجوع المستقيمة والمتعرجة والمرتفعة والمنخفضة. يجرى ويجرى حتى في الجزء العالى تحت أقدام الجبل، على الصخور الصلدة يثب وهو مستمر في الجرى حتى أطلقوا عليه وقتها . . الطفل الذي يجرى. .

- الذي يجري اتجه من هنا.

- الذي يجري ارتطم ببقرة فلانة فكاد يسقطها.

- الذي يجري مفشوخ الضَب دائماً.

- الذي يجري لا يتعب أبداً!

- الذي يجرى لا ينسى أن يجرى إلى دار عسل كل عصر.

أولوا يكبره بموسم وشهور ويعلوه طولاً، يباهي صبيان البلد بوسامة وجهه وشعره الناعم المسترسل في مويجات رقيقة ورثهما عن هكيمة، ويضايقه جسده الهـزيل الـذي تحـتله الصُفرة التي تشوب سُمرته وتغطي بياض عينيه وسحنة وجهه. تضايقه معدته التي تمنعه من أكل كل مايصبو له نوعاً وحجماً، تمنعه حتى مـن تـناول بضـع بلحات وشرب سلطانية لبن مثلما يفعل معتوق. معتوق. . معتوق. . معتوق. . خليط الغل والحسد اللذان احتلا قلبه من معتوق طفح على بشـرته ولـم يرحه أبداً ولم يتركه يستمتع بحياته وغِنى والديه الذي يتضح مع الأيام ويتزايد مع المواسم ثم أخذ في التناقص والتلاشي.

معـتوق، على العكس من أولوا، مائل للقصر غليظ الأطراف متنافر ملامح الوجـه، ذو شعر أكرت خشن، ثقيل اللسان، لا يتورع أي طفل أو شاب يقابله أن يصـفعه عـلى قفاه ثم يستمر في سيره أو عمله كأنه لم يفعل ما يُـؤاخذ عليه. أولـوا أكـثرهم سـخرية من معتوق وصفعاً له بعيداً عن والديه، خاصة لو كان سـلاطين وسِسِّي موجودان حوله، فيعطوا جميعا علقة ثقيلة لمعتوق، يحاصرونه حتى لا يجرى منهم، فإن جرى لن يلحق به أحد.

دار هَكيمة لم تعد كما كانت، الخير بدّل الدار وزينها. صوامع البلح الطينية بجـــوار سور الدار من الداخل مليئة دائماً، محاصيل الأرض وفيرة، النخيل يعطي أضـــعافاً خاصة نخلة جوش التي عادت إلى سابق عنفوانها فأعطت بلحاً كأنه تمر مُعَـــتّق. اشترى بقرة ثانية صغيرة وخرافاً وماعز فامتلأت حظيرته وفناؤه غص بالدجاج والبط والأوز الذي لا يستطيع السير سريعاً من ثقله. ورغم ضيق آبدون من قول الناس.. دار هكيمة، إلا أنه لايستطيع أن يلوم كل قائل أو حتى يعترض، فالأمر عادي عند الناس ولا فرق بين اسم امرأه يطلق على الدار أو اسم زوجها، لكـــن العيب داخله هو، فالدار دار أبيها هي، حتى وإن كانت أصلاً دار أبيه، ولولا هَكيمة ماوجد داراً تأويه هو وأمه.

ركب آبدون حماره الجديد القوي. على ظهره بردعة منقوشة ومغطاة بفروة خروف عريضة ناصعة. يجرى به في خيلاء. يتجه إلى مضيفة القرية حيث العزاء لعجـــوز توفيـــت. كانت مجموعة من الرجال بجوار ركائبهم ولم يدخلوا المضيفة بعـــد. عمائمهم أطرافها متهدلة على الرأس والأكتاف كإشارة حزن على المتوفاة. معتوق يكاد يصل إلى جمعهم والمنشد العجوز عسل بجانبه يضع يده على كتفه. آبدون استرعى انتباه الرجال بعمامته الشامخة الرحبة. هبط آبدون من على ظهر حمـــاره وهـــو يلقي السلام ويستعدل جلبابه الناصع وعباءته. كانت هيئته مهيبة أنيقة. عاجلوه في مزاح. .

- والله علا مقامك يا آبدون.
- صرت كعمدة ثانٍ لنا.
- أنيق طوال عمرك.
- لكنه زاد في الأناقة هذه الأيام حتى صار وجيهاً بيننا.
- الوجيه حتى لم يهن عليه إرخاء طرف عمامته!

وسط ضحكات الرجال المكتومة لواجب العزاء. قال آبدون وهو يرخي طرف عمامته المتغطرسة ويداعب رأس معتوق الذي وصل وسطهم..

- وصول معتوق توافق مع نجاحي في الزراعة، معتوق فأل خير.
- ولمـــا لا تقـــول إن أرضك ازدهرت لوجود معتوق؟ كلنا نعرف انك فلاح جيد، لكنك مثلك مثلنا.

رفــع عســل رأسه كأنه يتشمم الهواء وجفونه تُبربش من فوق عينين لا تريان، وبحروف واضحة عميقة. .

- معــتوق هو الخير المصفى. إنه معتوق الخير. لكن يا كبار القرية، هذا الولد شديد الطيبة، احموه من شياطين الإنس. لا تتركوه يرحل حزيناً.

لــم يهــتم الرجال بمقصد المنشد الضرير، لكن ما أطلقه على معتوق ذَهَبَ عَلماً، فمن يومها صار اسم الولد.. معتوق الخير.

اشــتدت فــورة الفيضــان الصيفي، هاج النيل هياجه الحولي وعلا وفاض وغمر جزيرة أصلاد وابتلع جزءاً من الأرض الزراعية وتشبّه ببحيرة طولية تمور فيهــا تيارات قوية ودوامات خطرة، نسي هدوءه المعهود وانسيابه الحاني، بيّن لهم وذكّر كل من استهان به أنه النهر الأسطوري الباطش الهادر.

لا عمــل فــي موسم فيضان النيل، بعد السباق المعهود في سرعة الحصاد تحــت لهيب الشمس قبل أن تدخل المياه العفيّة الزراعات وتتلفها، ليس للناس إلا قــص زعف النخيل وتلوينه من تراب الجبل الملوّن ثم صناعة الزنابيل والحصر والصــواني المزخــرفة، المشاركة الجماعية في بناء بيت أو بيتين على الأكثر، ســماع الحكايــات، لكــن ما يشغلهم حقيقةً، هو العمل الوحيد والأساسي في أيام الفيضان، تحديد ليالى الزيجات بناء على النجوم وطالعها. ثم إقامة حفلات أعراس بعدهــا حفــلات أعــراس، إنه موسم تزويج البنات الفائرات من شمس الجنوب الحامية، موسم ترطيب ثمارهن التي نضجت سريعاً وتحتاج لحصادها سريعاً.

في العُرس الأول والدفوف تنطلق في عنف أفريقي ثم تتهادى لتتعاجب آلات الطنبورة في رقة. النساء فوق جلابيبهن الملونة يرتدين ثوباً شفافاً أسود، يعلن عــن الألــوان الــزاهية التي تحته، طويل حتى أن ذيله يُجر على الرمال فسمّوه الجــرجار. كــل مــنهن تتعاجب بما تتحلى به من الحلي، خاصة قريبات العريس والعروس اللاتي يستعرن العديد من قطع الذهب لاستكمال النقص في بعض القطع لديهن، يصير عليهن تشكيلات من أثقال الحُلي الذهبية المتنوعة، معلقة من أعلى الرأس لتتدلى شبة مثلثة على الجبهة، من الأذنين أقراطاً، من الأنف خزاماً، عقود تحيــط بالرقبة تماماً، تتدلى منها لأعلى الصدر وتتدلى من الرقبة أيضاً في تهدل

فضــفاض حتى تصل لأعلى البطن. وكل حلية تحمل أوراقاً ذهبية ثقيلة بيضاوية ودائرية وهلالية، مثلثة في تشكيلات فرعونية قبطية إسلامية. في الرسغ السّوار، وفـــي القدميــن خلاخيل فضية. الحُلي متوارثة من الأسلاف والبعض منها حسب أرزاق الأزواج والآباء، وحسب كميات الحلي التي تصلصل خلال الرقص وتضيف وسوســة جميــلة، يتضح مستوى الأسرة التي تتبعها الأنثى وتظهر مكانتها في القبيلة.

هَكيمة ترقص كل ليلة من ليالى العرس السبع، ترقص كطوفان لا يهدأ ولا يهمد. وحين ترقص الرقص الثنائي والفردي وسط الحلقة، يتبدى جمالها. جسدها الــريان مويجاته غضة بضة تنساب في دلال عفي وثقة وسط النساء. تبرهن في حلقة الرقص على أنوثتها التي أتت من بعد غياب، ترقص رقصة السمك الصامتة السائلة ورقصة الحمامة التي تتقدم فيها بصدرها في نبضات وهي تحمحم كحمامة متكــبرة وعنقها يتمايل في تعاجب تجلب به العجب. ولما نزلت أختها نَبْرة الحلقة تشارك أختها، كان الجميع يراقبون الأختين، حتى الرجال تركوا صفوفهم وغناءهم ليــتابعوا اثنتين من أجمل نساء القرى: الصغرى من صغرها جميلة ريانة تنافس عــليها الشــباب فتزوجت ابن العمدة الذي صار العمدة الآن، تحمل على جسدها أغزر كمية من الحلي على جسد امرأة، فهي زوجة أهم رجل في القبيلة، والكبرى كانت إلى وقت قريب نحيفة ممصوصة فسميت بوصة. الآن رَبَت وثار منها الصدر وبرز العجز وجرى في الوجه ماء الشباب وزعق صخب العافية، وحين تلتف في الــرقص ســريعا ويحــتار الجــرجار ويلتصق بالجسد، يبرز بطن خفيف لم يكن موجودا.

الــزوج آبــدون وســط الرجال فرح بزوجته، ابتاع لها قطعتين من الحلي الذهــبية. زوجته التي كانت توجعه في الفراش بنتوء عظامها ثم أصبحت تنهكه كفرس رهوان يطير به إلى ملكوت النشوة. صار آبدون لشهور أحلى في أمسيات الوَنَسَــة مــع هَكيمــة، الرضــا يملأ قلبه. لذلك كانت حكاياته ألذ وأرق، مشبعة بالمرح، التباسط مع هكيمة كان أبسط، حتى عاد ليحكى لها بالتفاصيل كيف كانت ابــنة أبَيِّــدْ الجــلاّب تحاول معه. هكيمة تضحك والغيرة تدغدغها رغم علمها أن آبدون لم يزن أبداً، ولا تظن أنه يزني. تقول له..

- لا أظن أن رجلاً يقيم ونَسَة مع زوجته أحلى من ونَستك معي.

يحتضنها آبدون. •

- ولا رجل في الدنيا عنده هكيمة. لا أحد عنده أحلى من زوجتي.

بمجـــرد هدوء الفيضان وعودة الرتابة والأمان للنهر، جاءت مركب جباية المكوس! عجوزان هما من عَسْكر العثمالية تابعان للكاشف التركي الذي يسكن في الـــبيت الكبير بقرية أبريم بجوار الحصن الذي يسكنه ما لا يزيد عن عشرين من عَسْكر العثمالية، أغلبهم سمين مترهل، وأقلهم شديد النحافة وكلهم بقوا منذ زمن فـــتزوجوا نوبيـــات وتقدم بهم العمر فصاروا في سن الشيخوخة. هم رمز للحكم العثمالي الباطش الوحشي التابع للسلطة القوية القابضة على قلعة الجبل بالقاهرة والخاضعة بدورها لجبروت الباب العالي بالأستانة.

زوج العَســكر واحد منهم سمين جداً والثاني نحيف جداً وإن كانا يشتركان فـــي الطول البائن والأكتاف العريضة والبياض الناصع والشارب الكثيف. يسيران خـــلف مُــــركوس القـــبطي ماســـك دفاتر الوالي. مُركوس كهل يرتدي ما يرتديه الـــنوبيون مـــن عمامـــة ضخمة وجلباب أبيض بدون ياقة والمركوب الأحمر في قدميــــه. يلقي السلام وزوج العَسْكر يربتان على سيفيهما المتدليين من خصريهما وهما ينظران في تهديد لكل من حولهما في الميناء.

فـــي ســـرعة وصلت الركائب من بيت العمدة، ركبوا ومُركوس في المقدمة ودفـــتره الكـــبير عـــلى حجـــره وخلفه العثمانيان ينظران إلى القرية وأهلها في اشمنزاز. وفي بيت العمدة رحبوا بهم خاصة مُركوس الذي يصر على الحديث مع ناس القرية بالنوبية التي يتقنها تماماً. اتجه مُركوس ناحية الحجرات وهو يصفق كفيه وينادي..

- نَبْرة هووي. بنت يا راضية.

عاد لمجلس الرجال بعد أن ضاحك نَبْرة وراضية واطمأن عليهما وطمأنهما عـــلى زوجـــته وأولاده. وجد مُهدي قد حضر، قام مُهدي من جلسته مهللاً وأخذ مُـــركوس بالأحضـــان الكاذبـــة، ثـــم جلس يشرب معه الحلبة ويسأله عن عائلته

المســتوطنة في قرية عنيبة القريبة. الغداء يتم تجهيزه وينتظرون وصول آبدون والشــيخ صَــلاتو صديقي مُركوس. حضرا فبثا وداً يخفف جو التحفز الذي يبثه مُهدي قصاد مُركوس في عملياتهم الحسابية، وإن كان مُهدي يحاول إخفاء باطنه بود مصنوع لا ينطلي على مُركوس. بعض الشباب يدخلون بالأطباق ولا تظهر أي فتاة أو سيدة، فزوج العَسكر بذيئان. وبعد الغداء الجماعي في وجود زوج العسكَر التركيين ذهب نُوري العمدة ومُركوس ومُهدي لحجرة وحدهم ليكون تقدير جباية مكــوس الموسم الفائت والتي تقدر على كل آلات الري من سواقي وآبار مياه، ثم على كل نخلة.

آبــدون وصَــلاتو بقيــا في الغرفة مع زوج العسكر اللذين خلعا سيفيهما وانشــغلا في تدخين غليون واحد يتبادلانه، ناما يشخران وقد بان ضعفهما سواء الســمين المــترهل أو النحيف الذي لا يحوي سوى عظام واهنة. صَلاتو وآبدون يتحاوران ثم كبس عليهما النعاس فناما. المحاسبة أخذت وقتاً قصيراً بين مُركوس ومُهدي، مهدي يعلم أن مُركوس ليس ساذجاً ولن يستطيع أن يضحك عليه ويقلل قيمــة الجباية. بعد التراضي على الجباية التي ستُدفع يخرجون على المنتظرين. العمــدة وصَلاتو وآبدون ومُهدي يقومون بتوصيل مُركوس والجنديين إلى ميناء دُجُر. والعثمانيان في المؤخرة مع شيخ الخفر. مُركوس يسأل الشيخ صَلاتو سؤال كل موسم..

- متى سيهديك الرب يا شيخ صَلاتو وتعود للنصرانية؟

يضــحك آبــدون ومُهــدي، الشيخ صَلاتو ضحكه يستمر طويلا ثم يجيب مُركوس..

- ألن تتعبوا من هذا الأمل البعيد؟

- أبداً.

- وإن حاولنا نحن أن نأتي بك للإسلام؟

- لقد حاول ناسكم في قرية عنيبة كثيراً.

- تظن أنهم لن ينجحوا في ذلك؟

- أبداً.

يضحك مُركوس فيضحك المرافقون ويودعونه في الميناء ويبقون حتى تسبح المركب مبتعدة، فيلوحون له داعين له بسلامة الوصول والعودة لهم الموسم القادم بكامل الصحة.

الخفيران مع شيخ الخفر مع مُهدي وآبدون ورجل من قرية المنحنى غالباً ما يكون تابعاً لمُهدي، يتولون جمع ما تقرر على كل بيت. يمرون على البيوت ويأتون بأجولة البلح والدواجن. وفي حوش بيت العمدة قدر ضئيل يدخل مخازن العمدة وقدر أقل يوزع على شيخ الخفر والخفيرين. الباقي يتم تقديره بالريالات. رجال تابعون لمُهدي ينقلون الجباية العينية إلى بيت مُهدي الذي سيدفع المقابل بالريالات الحقيقية للعمدة الذي يرسل آبدون أو غيره لأبريم ليسلم الريالات لمساعد مُركوس. فالوالي يفضل المال النقدي، ومُهدي يكسب من كل خطوة تتم.

كان نُوري العمدة يأكله القلق، نَبْرة حملت ووضعت ثلاث مرّات أطفالاً ذكور سرعان مايموتون قبل دورة قمرية واحدة. لولا حبه لها لناخ تحت أشواق تلهفه لوريث وتزوج عليها. ثم أتاه طفل لم يخطفه ملك الموت منه، سِسِّي. فكان هذا الطفل حياة العمدة ومماته. نور عينيه وولي عهده في حفظ اسم العائلة وحفظ منصب العمودية في السلالة. سِسِّي أخذ ملامح أبيه غير الجذّابة وطول جسده ولم يأخذ من جمال أمه أي شيء. حين سُمح لنُوري بالدخول على نَبْرة وابنهما لأول مرّة، حمل الرضيع الباكي فبكى معه. لم يستطع أن ينادى بأذان الصلاة في أذن ابنه من حرقة إجهاشه العميق إلا بعد فترة هدأ فيها.

في السّبوع، أخذوا المولود في حشد ملحمي إلى النهر. الشمس انكسرت حدتها بعد العصر بفترة. تحمله خالته هَكيمة بوصة، وحولها السَيّدات والفتيات وكثافة أطفال، وسبع من البنات طويلات الهامة في مؤخرة الموكب تحمل كل منهن صحناً كبيراً عميقاً مغطى بغطاء من الخوص الملون. هبطوا إلى الحقول مزغردين تتقدمهم تَعويضة لِسانين، تمدح عائلة العمدة وعائلة نَبْرة، تصل نسب المولود بأسلافه العظام ذوي الجاه والسلطان والمال والشرف والتفقه في الدين، أبطال الحروب الذين هزموا عصابات القبائل الرعوية المغيرة، السباحين المهرة رجالاً ونساء والذين تخشاهم التماسيح في البحر والذئاب في الجبل.

عـبروا الحقول إلى النهر. دعوات من تَعويضة لِسانين، والحشد يصيح بعد كـل دعاء.. آمين. تدعوا تَعويضة لملائكة النهر أن يحرسوا المولود، أن يباركوا فـي صـحته وعمـره، أن يبعدوا عنه الأرواح الشريرة وأشرار النهر. ثم ترفع صـوتها لتعلن لساكني قاع النهر حيث القرى المائية، تعلن لهم إن سِسِّي قد وُلد وإنه يقرؤهم السلام. وإنه يحبهم.

وضـعت الفـتيات السبع الصحون على الشاطئ، رفعن الأغطية. تَعويضة مسـتمرة في الدعاء والإعلان عن ولادة سِسِّي، وتصلي على النبي محمد. خلال ذلـك كـانت هَكيمـة بوصة قد قرفصت تجاه النهر. بكى الطفل عندما اقتربت به حاملـته مـن الماء. رأس المولود لأعلى حيث السماء. سِسِّي يبكي صارخاً وهو مندهش من كل هذه الوجوه التي تنظر إليه من أعلاه ضاحكة. بمورد كحل صلّبت هَكيمة على جبهة سِسِّي صليباً كبيراً. جردوا المولود من ملابسه. هَكيمة تمسكه بيسـراها وبكـف يمناها تجلب المياه من النهر وتغسل الطفل. ثم أمسكت به من وسطه غير آبهة بشدّة صياحه الفزع، باركته بمياه نهر الخير المبارك وهي تعيد وتزيد التسبيح للواحد الأحد وفي الصلاة على المختار النبي محمد.

أتت فتاة بنموذج المركب المنحوت في قطعة خشب من جذع صغيرة لشجرة قديمـة. المـركب مُحمّـل بحبوب ذرة وبضع بلحات وشمعة مضاءة، وبالخَلاص ولفافة هي قطعة من جلباب الأم نَبْرة مشبعة بعرقها حين ولادتها لسِسِّي. المركب الضـئيل عـلى سطح النهر، دفعته الفتاة برفق.. يسبح. النساء والفتيات يأخذن قبضـات مـن الثريد من كل صحن ويلقين بها إلى ملائكة النهر وهن يدعين لهم ولكـل مخلوقاته بالسلام. انطلقت الزغاريد والمركب تتحرك في النهر شمالاً مع التيار. صاحت النساء..

- تابوت موسى يسبح في سلام.
- تابوت موسى يسلم من الأذى.

اسـتعدت بضعة فتيات لمتابعته وهن يستجلبن بركات أم موسى وأم عيسى عـليهما السلام ونداءات التواصل مع ملائكة النهر وناس النهر، والجميع يهللون لله الواحـد الصمد ويصلون على النبي محمد المختار، لكن المركب ماكادت تسبح شمالاً مقدار دفقات حتى مالت وتسربت إليها المياه ثم انقلبت! فترة وجوم، انقلبت المركب سريعاً وانطفأت الشمعة واختفت مع الحبوب في باطن المياه.

ضـــحكات تحـــاول الـــتخفيف من شؤم ما جرى والاستخفاف منه. انطلقت الزغاريد في إلحاح. النساء كل منهن أخذت لقيمة من ثريد اللبن ولاكتها وبلعتها وهكذا فعلت هَكيمة وهي تحتضن سِسِّي لتُسكن من روعه، تَركن الصحون للأطفال يتحلقون حولها ويأكلون في مرح وهزر. وقت والنساء في حوار ودعاء والتقطت كـــل منهن عوداً أخضر أغلبه من جريد النخيل، ثم عاد الموكب إلى القرية والكل يرفع اليد حاملة العود الأخضر في تهليل لله الرحمن الرحيم.

أبـــوه يكاد يسلم روحه لعزرائيل إن عطس الطفل أو سعل أو انسالت بطنه. ملأ الطفل بالأحجبة، زار به كل مزارات الأولياء، صعد به مزار شيخ الهَوَى الذي يـــتربع على أعلى جبل غرب مدينة سُوين حيث الجندل، طاف به أضرحة الشيوخ الســـبعة بقـــرية جـــرف هِســـين. ولو أمكنه الذهاب به إلى مقامات أولياء حلَفا وكنائس فرص عند الجندل الثاني.. لذهب وما تكاسل. ولولا خشيته من إرهاق وحيـــده الطفـــل وأمـــه، لذهب بهما إلى ما بعد الجندل الثالث حيث شيوخ دُنجلة المشهورين بأحجبة الحماية من شياطين الإنس والجن!

نَـــبْرة رغـــم أمومتها التي أشبعها لها سِسِّي تماماً، بعدما كانت تبحث عن أمومـــتها في تربية ابن أخيها الهارب، ورغم كرامتها التي صانها لها هذا الطفل الـــذي أتى من رحمها هي ومن صلب زوجها، وحمايته لها من ضرّة، إلا أنها لم توافـــق زوجهـــا عـــلى حبّه المبالغ فيه لابنهما. حاولت نصحه فلم يأبه، راجعته فغضـــب. ولمـــا رفضـــت يوماً أن يأخدها وسِسّي إلى ضريح في بطن الصحراء، وقـــالت كيف تترك طفل أخيها الذي تربيه وحده؟ حتى صفعها بقسوة وأقسم يمين ثلاثـــة بـــأن يطلقها إن تمنعت. فكانت هذه الصفعة هي الأولى والأخيرة والقسم بـــالطلاق هـــو القسم اليتيم. وكم تعذب نُوري من تهوره على زوجته التي يحبها كثيراً، وكم تأسف وكم أقسمت له نَبْرة أنها سامحته. لكنه لم يغفر لنفسه أبدا.

تركته نَبْرة يفعل ما يفعله مع سِسِّي.وكان عليها من جانبها أن تأخذ جانب الصرامة مع ابنها لتشذب من غلوائه في مطالبه، ساعدها في ذلك أن نَفس سِسِّي طيـــبة، لم تتعالَ ولم تَفسد بتدليل والده، إلا بالقليل من طغيان طفل ساذج، بل إن سِسِّي لم يتأثر كثيراً بملاصقته للطفل الآخر الشرس الذي تربي معه في صغره.. سلاطين.

مواسم وعاد نُوري العمدة للقلق الشديد. بطن زوجته لمْ ينتفخ مرة أخرى. يتمنى بنتاً. وعندما لامته نَبْرة نظر إليها في حب. .

-أريــد بنــتاً تماثلك جمالاً وأدبا. أريد ان يكون عندي اثنتان نَبْرة، زوجة وابنة. لن أطمع في المزيد بعد ذلك.

وكأن رغبته ورجاءه أجيبا من السميع تماما. فحملت حملاً خفيفا. لم ينقطع نُــوري العمــدة عــن الصلاة والدعاء ليلاً ولا نهارا. يلمس بطن نَبْرة وينظر في عينيها ويردد. .

- بنت إن شاء الله. نَبْرة الثانية بإذن الله.

جــاءت بنــتا. جميــلة جميــلة. أقيمت سبع كرامات في سبع ليالٍ كل ليلة بذبيحــة، شاة سمينة، ثم بقرة في الليلة السابعة. أفراح أتى إليها المدعوون من كل قرى النوب. حتى إن هذه الرضيعة التي لا تعرف إلا البكاء والرضاعة والنوم ولا تتحكم في إفرازاتها، صارت شهيرة وأصبح يؤرخ موسم مولدها باسمها ويقال موسم مَوْلِد راضية.

بعــد أســبوع كــان موعد إطلاق اسم على المولودة. بعد لأي أقنعت نَبْرة زوجهــا بعــدم تســمية البــنت باسم أمها، تريد اسم راضية، فهي راضية بابنها وبابنتها ويجب أن يرضى هو الآخر فلا يعود إلى القلق.

صــعد نُــوري إلى سطح بيته عصر اليوم السابع. رفع ذراعيه حاملاً ابنته تجاه الشمس ثم واجه بها الشمال وبعده الجهات الثلاثة الأخرى. . نادى بصوت مرتفع. .

-يــا نــاس القبيلة، يا ناس العشيرة، يا ناس القرية، يا هووووي. رزق الــرزاق عمدتكــم نُــوري العمدة وحليلته نَبْرة بابنة.. راضية، راضية، راضية، فادعوا لها بالستر. ادعوا لها بالصحة والعافية.

كانت الليلة السابعة مسك الختام. المنشد عبد الرحيم عسل في جلوة ومزاج طيب، أمتع الحضور بعد أكل لحم الكرامة بأناشيد الدعاء لله وتسبيحه المديح لطه الرســول، وبجانبه جلس معتوق شبه الأبكم يتمايل معه ويحاول النطق السليم في صوت خفيض، وبعد كل قصيدة يمسح المنشد على رأس معتوق يدعو له بالبركة ويسأله إن كان يريد المزيد من الطعام والشراب.

أيام بعد إطلاق الاسم وجفّ صدر نَبْرة. قالوا إنه حسد، إنه إشهار. أسرعت هَكيمة تبحث عن معتوق في دار عسل. أخذته وهرولت به إلى دار العمدة. يسبقها معتوق ضاحكاً كأنها تلاعبه. سلاطين مع ابني عمتيه سِسِّي وأولوا دخلوا الغرفة متابعين هَكيمة ومعتوق، وعندما أخرجت نَبْرة صدرها لمعتوق ابتسم حائراً، امتثل معـــتوق لطـــلب هكيمة. رضع من نـهدَيْ نَبْرة. قبل فجر اليوم التالي أحست نَبْرة بتيار يتدفق ويتجمع في قاعدتي صدرها ليتقدم منتشراً في ثدييها لينسال فترضع منه راضيه. أيقظت نُوري الذي صاح..

- الحمـــد لله. احمد لله. إن الولد مبارك مثلما قالت هَكيمة وآبدون وعسل. إنـــه مـــبارك. أنـــا نُوري العمدة أقول إن هذا الولد مبارك وأقسم بالله العظيم إنه لمبارك.

أتوا بمعتوق إليه في الصباح الباكر. حمله نُوري وأخذ يقبله. ضحك سِسِّي في أقصى الحجرة. عبس أولوا واغتاظ سلاطين. خرجا ثائرين، مخاصمين سِسِّي الذي ضحك سعادة بمعتوق!

تكـــررت رضاعة معتوق من نَبْرة. زاد حب نُوري لمعتوق. زاد نفور أولوا وسلاطين منه. أمّا سِسِّي، فكان بين الرضا عنه حباً في أخته وفرحة برضاء أبيه، وبيـــن شيء خفيف من الغيرة ورغبة في تقليد سلاطين وأولوا في كرههما للقيط العبد.

أصـــبح معـــتوق أخاً بالرضاعة لراضية كما هو أخ بالرضاعة لأولوا. أحب بيت العمدة واللعب مع راضية، إن حملها ترتمي عليه وتضحك، لكن عندما ضربه ســـلاطين واشـــترك سِسِّـــي معه من خلف ظهر نَبْرة والعمدة، ابتعد. يسأل عنه العمـــدة. نَبْرة تعلم لماذا يبتعد معتوق. علم العمدة بالسبب. ضَرَبَ الطفلين سِسِّي وســـلاطين. لكـــن ضربه لسلاطين أشد وأوجع. سِسِّي توقف عن ضرب ومطاردة معـــتوق حين يأتي إلى بيتهم. سلاطين لم يرتدع فعاد لضرب معتوق فعاد العمدة لضرب سلاطين وأعلنها أمامه..

- ليت معتوق يبقى في بيتي، ولتذهب أنت في داهية.

ليالي يُصاب فيها سلاطين بالأرق وهو الطفل. يتلصص مراقباً نُوري ونَبْرة. يتمــنى أن يكون قوياً حتى يُبعد نُوريِ عن عمته نَبْرة. في الليالي شديدة الحرارة حينما يناماِن في الحوش في سهرة ونَسَة معا، يراقبهما سلاطين. في نفسه نوازع متضاربة. يسائل الدنيا. .

- ماذا لو جعلتني ابنهما مثل سِسِّي؟ لم يكن ليكرهني نُوري.

ثــم يعــود لرفض هذه الأمنية. لأنه يكره نُوري. يكره أن يراه يعتلي عمته ويسمعها تتألم ويتعجب لماذا تتركه يفعل بها ذلك؟!

حكاية تَعويضة لِسانين

مــن صــغرها مُشْكِلة. طويلة العود. طويلة اللسان. لا يراها أحد إلا وهي ســاخطة تلعن أحداً أو ضاحكة تلعن أحدا. وفي أمسيات الصيف حين يشتد طوفان النيل ويصير لا عمل كثيف يشغل ناس القرية، وحين تكون هي رائقة المزاج، من بعــد الظهيرة الحارقة، تجمع حولها الأطفال في بيت من بيوت نجعها، لتحكي لهم الحكايــات الخرافية والأساطير الحاوية تاريخ أسلافهم القدامى، وتشرح لهم عن مَوْلِد النهر الحي، ولماذا يجري إلى الشمال دوما. ثم تُبَيِّن لهم قرابتهم لمخلوقات الــنيل السّمَكيّة. وتُجسّد لهم بإشارات يديها الطويلتين مخلوقات ناس التيار غير المرئيين من جِن وعفاريت مؤمنين وكَفَرة. وخلال هذه الحكايات، ترى أنه واجب عليها أن تلعن الأطفال بسبب وبدون سبب كل حين وحين، خاصة وهي تحكي عن الجن والعفاريت وتتصبب عرقاً، فهي تخشى هذه المخلوقات وتحتفظ بحجاب بين ثدييها الكبيرين لتحتمي منهم. ولا تبدأ حكاياتها إلا بعد غروب الشمس تماماً، فإن الــراوي إن بدأ والشمس مازالت تطل، يصاب بالعمى. لذلك لا تنتهي الجلسة إلا بعــد العشــاء بوقت طويل. يذهب الأطفال مع أمهاتهم وعدد من الرجال يقومون بتوصيلهم ومعهم الفوانيس. لا تترك تَعويضة أحداً من المستمعين يخرج من دار الحَكــي أبداً ونور النهار باق، وإلا التهمته غضبة فئة الأشرار من مخلوقات الله غير المرئية.

وفــي مواكــب الإعلان عن الزيجات وهي تسير بين شوارع نجوع القرية الثلاثة تمدح عائلتي العروسين، لا تستطيع أن تكون جادة وهي تؤدي طقساً قبلياً مــتوارثاً من قِدِم، لا تستطيع الإغراق في الوقار الواجب في هذه المسيرة، مثلما كان يفعل من سبقتها في آداء هذا الملمح العشائري الهام. تَعويضة ما تكاد تسير مســافة لا تطــول بهــا، حــتى تأخذ في السخرية من العائلتين وتنثر بعضاً من مخازيهمــا في مبالغات تجسّدها بالحركة سواء بالذراعين أو الجذع أو الحواجب وعَــوْج الشفتين في أكثر من شكل ولكل شكل مغزى. وكل الأسر تتقبل منها ذلك

ضاحكة، فهذه هي فطرة تَعويضة التي يَعلمونها. وإن تركت السخرية المحببة لهم ناوشــوها وناخزوها لتحرك لسانها شبيه المنجل. لكنهم يتألبون عليه ويلعنونها حيــن يغلبها الشر وتضر بناسها، مثل يوم واجهت الصعيدي هاشم الكيد بما فعله سلاطين مع ابنته في الخفاء، فتسببت في إصابة هاشم الكيد بالشلل، فلم تسلم من إهانات النساء ولعنهن ومقاطعة الكثيرات منهن لها، فكان درساً مؤلماً.

تشــاجرت مــع كــل نساء القرية ومع أغلب الرجال، حتى العمدة والشيخ صَــلاتو وحماهــا المنشد عسل الضرير لم يسلموا منها. لم تستكف بناس القرية فتشــاجرت فــي الموالد مع ناس القرى المجاورة ومع رجال قوافل الجلاّبة الذين نادراً ما يمرون بالقرية على جِمالهم الضامرة، ومع بحارة قوارب الصعايدة التي ترسو على مَرْسَى صخرة دُجُر فيبيعون لها بأقل سعر ويشترون منها بأعلى سعر ممكــن ليــتقوا شــرّها. وحين أتى الغجَر مرة واحدة في حياتها وضربوا خيامهم خــارج القــرية، أكدت لهم بالفعل أن القرية بها من هم أغْجَر منهم وأطول لساناً فأرعــبت نســاءهم ورجالهم. وغمزاً فيها يقول ناس القرية إن الغجَر بسببها لم يــأتوا بعد ذلك أبداً تجاه قريتهم. ورغم سلاطة لسانها وعاداتها السيئة في إطلاق الأسماء الساخرة على كل إنسان، فناس القرية لم يكرهوها كرهاً تاماً، إلا اثنين.. سلاطين الذي وضحت كراهيته لناس القرية، فأطلقت عليه لقب شرّين، بعد تطاوله بــاليد عــلى مُعــلمه فــي الكتّاب الشيخ صَلاتو، ثم ضَرْبه لابنتها كِسبانة. صار سلاطين شرّين. وشرّين هذا هو الذي أحب ابنتها الثانية هُوشَة، وأقسم ألا تدخل تَعويضة لِساتين بيته، فلم تدخل تَعويضة بيت ابنتها هُوشَة إلا بعد مقتل سلاطين. أما الثاني، فهو أمرُ الله الأشرم الذي عيّرته بالأشرم ابن الشرماء، واذاقته العذاب في صغره كما اذاقت أمه الشرماء الأمرّين. فلم يسامحها أبداً رغم محاولاتها في نهاية عمرها أن يسامحها.

تَعويضــة بعد كل معركة شَيّقة تقيمها وتشعل نارها، تذهب في صباح اليوم الــتالي تتمسح كالقطة في غريم الأمس وترضيه وتصالحه. أما إذا كانت المعركة شــديدة وأصــابت فيهــا عدوها المؤقت بإصابات ليس من السهل نسيانها، فإنها تترصد مناسبة معينة تراضي فيها الخصم المتأثر.

إن كــانت الأعراس هي أمتع ليالي القرية، يندمج الكل ويشارك في الرقص والغناء الأسطوري حتى الصباح، فإن معارك تَعويضة عُرس عجيب، الكل يشاهد

تَعويضة في فاصل الشتائم وبعد فترة قصيرة تطول وتقصر حسب مقاومة الغريم، تكــون هــي في الساحة وحدها فتواصل هوايتها فتلعن وتسب وتقلد غريمها في لــزماته، ثم تقلد أقاربه المقربين في حركات مضحكة فتتحول من الشتائم باللسان إلى عــرض تشخيصــي هــزلي غنائي هي النجمة الوحيدة فيه، وغالباً مايتحول الغريم إلى مُشاهد ضاحك.

وأحد أساليبها لمصالحة أسرة لعنت فرداً منها وذمته ذماً قبيحاً، أو تكون قد لعــنت الأســرة كلها، أنها تدعو أطفال النجع ومن يستطيع الحضور من النجعين الآخرين إلى دار هذه الأسرة من بعد المغيب، وتحكي لهم حكاياتها وتشبعهم، لكن هذا بعد أن تحكي عن جد هذه الأسرة وعائلتها الكبيرة وبطولاتها وكرمها. وكيف أن هذه العائلة هي أهم بطن في القبيلة وتدلل على ذلك بالأحداث التي وقعت على القبيــلة وكيف كانت هذه العائلة هي خط الصد الجلمودي أو هي الرمح الذي هجم أولا فتداعت لها الخصوم. وتَعويضة تعلم الكثير من الحقائق والحوادث والأحداث فــي تــاريخ القبيلة. وبذلك تعطي فخار الضيافة والسؤدد لهذه الأسرة المقصودة وتُبَــرِّد من غضبها عليها.

كان سَليمتو عسل أكبر منها قليلاً، يعمل مراكبياً على مركب تملّكه بمساعدة مــن مكاســب أبيه المنشد الضرير. وبعد ادخار طويل منه، استطاع إقناع إسهاج الــنجّار ليصنع له مركباً بأقساط مريحة، كادت تَعويضة أن تفلت منه لأثمان لولا أنــه أقرب إليها قرابة. ولولا أن أصبح لديه مركب تخصه، ثم إن شقيقتي أثمان حذرتــاه منها، خاصة نَبْرة التي كانت تدفعه ليتزوج شقيقة هَمَرين، فأيامها كانت نَبْرة تميل إلى هَمَرين.

وسَــليمتو لا يخالط أحداً إلا نادراً، بالكاد يشارك الجمع في واجب عزاء أو عقد قِران. يبقي قليلاً ثم يتسلل. لا يتحمل الزحام. يسكر ويدخن البانجو وحده .في الأعــراس لا يرقص ولا يغني حتى ولا يبتسم. يبقى دقائق ينظر إلى لا شيء ثم يخــتفي. وحده في مجتمع قبلي شديد التلاصق. ولا يعلم أحد، حتى ولا تَعويضة نفســها، لماذا اختار سَليمتو تَعويضة زوجة له! المنزوي يتزوج التي لا تطيق أن تجلس وحدها لحظة. الصموت يتزوج من يتوقف قلبها ولا يتوقف لسانها. طلبها زوجــة رغم علمه أنها أطلقت عليه لقب الزير البارد. وفي ليلة زفافهما أجبروه

على الرقص قليلاً فابتسم حرجاً، ولما أبلغوا عروسه السليطة أن عريسها ابتسم! مصمصت شفتيها في عدم تصديق. .

- ابتسم! أكيد وجه الزير مَسّـه الشلل فظننتم أ-نه يبتسم.

الحـزين الوحيد في العرس هو عسل الضرير، كان يتمنى لابنه الذي رفض ابنة عمه الشرماء الزواج من أي فتاة، عدا هذه السليطة التي لم يسلم هو نفسه مـن لسـانها. كـان يتمنى فتاة طيبة تقوم على راحته وتعمل على خدمته وهو الضرير.

وفـي ليـلة عرسـها اكتشفت تَعويضة أسلوبها الفذ في التشخيص حينما أجـبرت عريسـها ليكون غريمها. كانت على السرير الجريدي، ترتدي القميص المضمّخ بالعطور وجسدها دلكوه من البكور بالزيوت الزكيّة الطيّبة، ونُقشت كفّاها وقدماهـا بنقوش الحنّة، وشعرها مجدول في جدائل صغيرة كثيفة، صارت وكأنها جميـلة. وتـبيّن للناس أن لها جسداً ليس هيناً وصدراً عالياً مغرياً، وأنها تمتلك أنوثة فعلاً!

أرضـاً على جانب من جوانب الحجرة الواسعة، مساند مرصوصة ووسطها صـينية خوص عليها أطباق فخارية مازالت ساخنة، فاحتفظ الطعام داخلها بدفئه وقـد تغطى بصينية خوص مزركشة. دخل سَليمتو على تَعويضة فادّعت الخجل. الفـانوس نوره خافت. ترك سَليمتو الكرباج وخلع عمامته وجلبابه. حَلّ الخنجر الرمـزي المعلق أعلى ذراعه. امتطى السرير متجاهلاً أن العريس يجب أن يدفع لعروسه "فكّ الكلام" قبل أن تستسلم له. مجرد مبلغ رمزي يُبيّن أن عروسه لها قيمة في القبيلة. سَليمتو حتى لم يحاول إقامة ونَسة مع عروسه قبل أن ينالها.

مـا جـرى فـي الداخل حكاه الأطفال الصغار الذين تسلقوا السقف المشيد بـأفلاق النخيل ومعرّش بالجريد الكثيف، صنعوا فتحات صغيرة، يتلصصون على العروسين، فهكذا يفعل الأطفال في كل عُرس. تَعويضة تعلم أن الصغار يراقبونها من السقف، لكنها تركتهم ليشاهدوا ثم يحكوا بَسالتها. وكانت تريد لأثمان كُورنة بالذات أن يسمع ما فعلته بغريمه الذي أخذها منه. ففي هذه الأيام كانت في داخلها تتمنى كَوْن أثمان هو العريس الذي يدخل عليها وبها. لكنها أيضاً لم تكن ستتركه ينالها بدون فك الكلام وشيء من مشاكلها ومعاركها المشَخّصة.

اضـــطرته للهـــبوط من السرير وإحضار فكّ الكلام. قذفت تَعويضة بالريال الفضي الذي أتى به سَليمتو على مضض. .

- أنـــا بـــنت سَبَلْطة، أنا وأنا بنت محمود تانا. وأنا من أنا وقد قبلت شاباً بدأت رأسه تصلع، آخذ في ليلتي مجرد ريال! إم م م م. أريد عشر قطع ذهبية يا سَليمتو.

شهق سَليمتو فزعا..

- مصـــاريف العُـــرس كلـــه وكراكيب البيت الجديدة لا تتعدى ثلاثة ريالات فضية!

- عشر قطع ذهبية يا أبرد من الزير.

- يا بنت الحلال!

- يا بخيل.

- أول ليلة لنا يا تَعويضة!.

- لتكن آخر ليلة يا أبخل من بقالنا مُهدي الأصفر.

بدأت المعركة. سخنت سريعاً بأفاعيل تَعويضة. أشبعها سَليمتو صفعاً، وهي تولـــول وتغمشـــه وتعضه فيصرخ معها، أسرعت إلى الباب وسبقته، جذبها من شـــعرها وواصـــل ضربها ولم يستجب للقرع المجنون على الباب، حتى أمسكته تَعويضـــة مـــن خصـــيتيه فجأر وبرك أرضاً. تركته لتحمل صينية الطعام المليئة بالأطـــباق الحاويـــة عـــلى الدجاج المحمر وشوربة مازالت ساخنة وألقتهم على عريسها المكوّم أرضاً، فصرخ ألماً وحسرة على الطعام المسكوب. خرجت فالتف عليها الأهل والبسوها جلباباً غصباً عنها وهي مشغولة بالنداء. .

- يا هووي يا أهل المروءة. يا أهل المروءة يا هووي.

خـــرجت إلى الشارع. منعوا سَليمتو من الوصول إليها. وهي وسط النساء الضـــاحكات تـــلعن الزيـــر البارد الذي شاهد جمالها فأصابه الخبل. تلعنه وتصفه بالخســـيس الذي يضرب زوجته ليلة الدخلة. وأبوه من رحمة الله به جعله أعمى

حـــتى لا يشـــاهد ابنه السافل. ثم أخذتها الحمية فأخذت ترقص رقصاً إيقاعياً هو مـــزيج مـــن رقصة السمك ورقصة الحمامة ورقصة النائحات النسائية مع رقصة الكـــف الـــرجالية وحتى مقاطع غنائية من موّال أسمر اللونا لم تتركها، لكن في كلمات شامتة ساخرة لاعنة.

غضـــب الـــرجال لإهانـــة الرجل. حرضوا سَليمتو على تأديبها وإلا ركبتهم النســـوان. هجم سَليمتو عليها بالكرباج. النسوة تفرقن من حولها رعباً. وقبل أن تهـــرب تَعويضـــة، ألهبها الكرباج في كفلها فصرخت. أسرعت تعدو وهي تدعك مؤخـــرتها والجموع تضحك عليها ضحكاً يوجع بطونهم. دخلت البيت ثم حجرتها وتـــركت الـــباب مفتوحاً لزوجها الذي دخل عليها في كبرياء سلطان القبائل وإن كـــانت آثـــار أظافـــر تَعويضة مازالت تؤلمه وتدميه، ولزوجة الحساء على عنقه وصـــدره. ما كاد يدخل حتى أغلقت تَعويضة الباب ثم صعدت واقفة على السرير ناظرة إلى السقف تلعن الأطفال وآباءهم الذين لم يربوهم كما يجب. هرب الأطفال ضاحكين ثم عاد للتلصص منهم من تغلبت شجاعته على خوفه من تَعويضة.

نظرت إلى سَليمتو في رقة لا تناسبها. .

- سَـــليمتو، يا رجلي، أعطني الريال الفضي لقد قبلته. لكن قبل أي شيء، اذهب واستحم من لزوجة الشربة يا ابن عسل الأعمى.

في الصباحية، استرد سَليمتو الريال منها.

ابـــنها البكري سمته زجِرْ. اسم نوع من المراكب الصغيرة التي تمخر في الـــنيل. ولما كبر قليلاً ماثل أباه تماماً شكلاً وموضوعا. فأطلقت عليه أمه اسم " قُلّة" تصغيراً لإسم الزير أبيه. ثم كانت ابنتها كِسبانة التي تماثلها كثيراً ثم هُوشَة الجميلة الهادئة التي لم تأخذ من أبويها أي شيء. تَعويضة كانت تنظر إلى هُوشَة الرقيقة وتمصمص شفيتها قائلة. .

- لـــو كنت أدخن البانجو، أو أشرب العرقي وأغيب عن الوعي، لقلت إنكِ ابنة حرام. أحدهم ركبني وحبلت منه بدون أن أدري. لكني لم أغب عن وعي أبدا. ثـــم إن نومي خفيف. إذن من أين أتت هذه البنت بكل هذا الأدب، بكل هذه الرقة، وكل هذا الجمال؟! صحيح العِرق دسّاس وسبحان الله.

ابـــنها زجِرْ كلما شَبّ ازدادت مشاجراته مع أمه. يكره فضائحها كما يقول عـــن مشاجراتها، ولا يطيق الكلمات الجنسية الصارخة التي تطلقها حتى لو كان الـــرجال حولهـــا. سَليمتو رمي طوبة تَعويضة واستسلم لأفاعيلها بسلبية باردة، يخـــرج من البيت في الصباح الباكر ولا يعود إلا بعد المغرب لينام. وإن كانت له رحـــلة بعيـــدة يـــنام في المركب مع ابنه زجِرْ، لكنه بعدما شبّ زجِرْ ودخل طور الرجولة، بدأ سَليمتو يتشاجر مرة أخرى مع تَعويضة حتى يحمي ابنه من الإحراج وسط ناس القرية.

نسّابة القبيلة العجوز تهتم بتَعويضة من صغرها، وتلقنها. لماذا هي؟ لماذا اختارت تلك العجوز هذه الفتاة الشرسة بعينها؟ تقول نسّابة القرية. .

- إنها الأفضل.

ورثـــت تَعويضـــة هذا الشرف بعد زواجها ووفاة النسّابة العجوز. صارت تَعويضـــة عند كل حفل زواج تسير في النجوع الثلاثة وبيدها طار صغير وخلفها بضـــع نســـاء وزحـــام من الأطفال. تُنشد سلسلة نسب العريس والعروس وتبين مفاخـــرهما، وقرابتهما لكبار شخصيات القبيلة، تمدح في أقاربهما الأقربين وتؤكد أن نســـبهما يصـــل للملكة كِنداكَة القديمة وإن جذورهما تتأصل وتتشابك مع كل القـــبائل، من شمال الجندل الأول حيث قبائل المتّوكين الكنوز، حتى قبائل الدناجلة حيث جندل النيل السادس. توضح جَمال العروس وكيف أن العديد من الشباب تقدم إليهـــا، لكن ناسها فضلوا العريس هذا لأنه ولأنه ولأنه، وأن فتيات القبيلة كلهن يتمنينه. ثم تفاخر بالقبيلة والقرية التي من حظهم كلهم أنهم ينتسبون إليها

تَعويضـــة تبالغ كثيراً، أكثر بكثير مما كانت تفعل النسّابة السابقة. وأضافت التشـــخيص في مهمتها. مزجت المديح بالكثير من السخرية من ناس العروسين ومـــن نـــاس الـــبيت الذي تمر أمامه خلال مسيرتها. ولا مانع من لعن طفل ترك الـــزحام خلفها وسار أمامها وكاد يعرقلها. وإن عرفته تلعن من أنجبته حتى وإن كانت من أنجبته تسير مع ثلة النساء خلفها.

فـــي شـــيخوختها وقد كفّ بصرها أو كاد، فصارت أقرب ما تكون لحَماها المنشد الضرير الذي لم ترحمه، بدأت تنتابها موجات من الحزن والأسى. وعندما

يمـــوت أحـــد مـــن القرية، تبكي عليه جهراً في رقصة النائحات وسراً تبكي على الشـــرماء.ضـــميرها أتعـــبها كثيراً في أواخر أيامها. تعلم أنها أضرّت بالشرماء وظلمتها ظلماً عظيماً، ثم ظلمت ابنها الأشرم من بعدها. وبعد زمن، وبعد أن ماتت الشرماء ولم يعد الأشرم في بيتها ولم يعد حتى يحتاج إليها ولا إلى أسفها، وصار يكـــرهها كرهه ثعبان الطِريشة، تأسفت تَعويضة لما فعلته به وبأمه، عَرضت أن تعيـــد للأشرم ما أخذته من أمه الشرماء ظلماً، لكن الأشرم رفض متعمداً تعذيبها في حياتها وفي مماتها. وكم ليلة في أواخر حياتها زارتها الشرماء ولا تنطق إلا بكلمة. .

- ابني.

ثم تنخرط الشرماء في البكاء الأخنف.

حـــاولت تَعويضـــة أن تعـــوّض الأشرم. ألحّت عليه ليقبل أن يأخذ الأرض والـــنخلات التى اشتراها سَليمتو من أمه بثمن بخس، ليوافق على زواج الشرماء مـــن الغـــريب. أرسلت له تترجّاه أن يأتي ويعيش في بيتها معززاً مكرماً لتخدمه كـــابن لهـــا رغـــم شيخوختها. لو كان أثمان كُورنة حياً لبكت على كتفه القصير واعـــترفت له بعذابها وحرقة ضميرها، ولكن لمن تشكو وتبث عذاباتها في أيامها هـــذه؟ كِسبانة! إنها جلمودية القلب مثلما كانت أمها في شبابها، هُوشَة.. إنها في عـــذاب من انقلاب حال زوجها سلاطين، وأصلاً هي ساخطة من قسوة أمها على الأشرم، فكيف تحكي لها ما فلعته بأمه الشرماء؟

وجَـــع الضمير أصبح شوكة في جنبها حتى في لحظات نزعها الأخيرة، في الليلة الظلماء في تيه الجبل، كليلة البصر تموت عطشاً، لم يعذبها العطش الحارق ولا الـــرعب من انفراد الوحوش بها، مثلما عذبتها ذكرى الشرماء وابنها الأشرم والرعب من لقياهما يوم الدين.. يوم الحساب.

القرية نجوع ثلاثة. بيت آبدون في نجع أورِّك الذي يحتل الجانب الجنوبي. وهــو أكــبر نجع في القرية وبه الساحة الرئيسية الواسعة التي تتوسطها شجرتا الــتوت، ويطــل عــليها بيت العمدة، ونجع نجيبيّة في الوسط وهو أفقر النجوع وأصغرها حيث هجم الجبل الصلد حتى قارب النهر فلم يترك إلا مساحة بسيطة من الــتربة الصالحة للزراعة، ولم يتسع النجع إلا لعائلة واحدة وضاقت عليها أيضاً، فســكنوا بيوتــاً ضيقة لها أحواش ضيقة بعكس بيوت نجعي القرية الآخرين ذات الأحــواش الواســعة. أطلقَ على النجع اسم نجيبيّة لنجابة ناسه في العلم والفقه. كــبيرهم الآن هــو الشــيخ صَــلاتو، معلم أطفال القرية كلها في الكتاب الصغير الملاصق لجامعهم الصغير، وهو مأذون القرية وقاضيها الشرعي. والنجع الأخير هــو نجــع المنحنَى، أقصى شمال القرية حيث ينحرف مجرى النيل بشدة موازياً انحراف الجبل وتبعتهما بيوت النجع فبُنيت بنفس الانحناء الهلالي.

رغــم أن الشــيخ صَلاتو من عائلة نجيبيّة الضئيلة العدد، ورغم أنه قصير الجســم أقرب إلى الفقر، إلا أنه قوي الشخصية حاد الرأي لإيهاب أحدا. والشيخ هو المتشدد بقوة في تنفيذ وصية الولي الكبير جوش بعدم اقتناء عبيد في القرية. رافضاً تماماً أن يَستعبد إنسان إنساناً، فكانت تلك القرية هي الوحيدة بين الجنادل التي لا تحمل بين أجنابها عبدا.

هَكيمة أعطت كل من ولديها قنينة من الطين المحروق، بها سائل خليط من شــعر الماعــز وصمغ شجر السنط وهباب قرص الحديد الذي تخبز عليه، فكانت محبرة وحبراً. أقلامهما من بوص الذرة. وعلّقت على كتف كل منهما كيساً كبيراً مــن الكــتان به لوح خشب مكسي بالجير. معتوق بلغ الخامسة فقط، لكن جسده القــوي يوحــي بأنه تخطى السادسة. يذهب إلى الكُتّاب مع أولوا الذي تأخر عن الذهاب إلى الكُتّاب لضعفه العام، وهذا هو موسمه الثاني كتلميذ.

وفي صبيحة يوم، اتجه أطفال القرية إلى الكتّاب، بنين وبنات من الخامسة حــتى الــرابعة عشراة أولاداً وحتى الثانية عشرة بناتاً. كلهم حفاة. الذكور منهم

عــلى رؤوسهم طواقي ملونة بألوان صارخة، تحميهم من لظى الشمس القاسية، البــنات يكفـــي شعرهن الكثيف حماية، وربما أضافت إحداهن أحيانا طرحة ملوّنة بسيطة. معتوق في الذكور هو الغريب الوحيد عن سلالة القبيلة ويصر على عدم ارتـــداء طاقية. أولوا ترك معتوق وانضم إلى ابني خاله وخالته سلاطين وسِسِّي. ســــلاطين أكبر الجميع جسداً وعمراً، أخذ من خاله الجرم المدكوك وتوسط الطول والوجه الممتليء ذا الذقن العريضة. كما أخذ العينين العسليتين والذكاء. ولم يترك الطــبع الشرس ولا سرعة الغضب، لا يقبل معارضة. خلال وقت الذهاب والعودة هـــو العمدة الذي يُخيف. في الكتّاب تتآكل سلطته لوجود الشيخ. في نجعه، نجع أورِّك وبعيداً عن بيت العمدة حيث يعيش، له سلطاته المحدودة، لكنه داخل البيت يصير خائفاً مرعوباً أن يراه العمدة في موقف لايعجبه فينال صفعة قاسية. خلال مشـــواري الذهـــاب والعودة من وإلى الكتّاب، قرر سلاطين أن كل يوم على أحد أتـــباعه الضعفاء من نجع أورِّك حمل أدوات الكتّاب عنه، لم يستثن إلا أولوا لأنه ابن عَمته، إلا حين يتواضع ويُبيِّن لهم كم هو طيّب.. فيحمل هو أدواته بنفسه! الأطفـــال يتجنـــبون معـــتوق، ليـــس لأنه غريب عن قبيلتهم، لكن لأن هذه رغبة سلاطين الزعيم. بجيوة، هي الفتاة كبيرة الجسد بين البنات، جسدها مدملج وكلما تحـــركت ارتـــج لحمها من تحت جلبابها شديد الاتساع حسب رغبة والدها الكيد. بشرتها غطيسة السواد لكن ملامحها دقيقة رقيقة وجدائل شعرها طويلة مسترسلة فـــي نعومـــة لامعة. عيناها واسعتان نجلاوان، تكاد أن تماثل سلاطين في الجِرم والقـــوة والجـــرأة، تشـــتهي أن تنطلق وتستمتع لعباً بكل وقتها. لا يقبل جسدها الســـكون، لذلك فهي تُقبل على كل جديد ولا تَقبل أن يوقفها شيء. أما ما يماثلها بمعـــتوق، فكونهـــا شديدة السواد وغريبة عن سلالة القبيلة، فأمها كما يتهامس الأولاد فـــي الأصل عبدة مخطوفة مجلوبة من جنوب الجنوب، وأبوها من الصعيد الشمالي. جرأتها واندفاعها وضعاها زعيمة للبنات.

قبل أن يصلوا إلى خور البحر، ينظرون ناحية مكان يخشونه ويرتعبون منه من كثرة تحذير ناسهم منه، أرض العقارب. .تلك الأرض متوسطة الارتفاع فتعلو قليلاً على الأرض الزراعية لكنها لا تصل علواً لمستوى الأرض التي بُنيت عليها بيوتهـــم. أرض العقـــارب أخذت مساحة بين آخر بيوت النجع وبين الخور ناحية

نهايات الأرض الزراعية، حدّها الذي لا يقترب منه الأطفال. .شجرة النيم الميتة بأغصـــانها جافة خالية من الأوراق، قيل لهم إنها كانت تستغيث لينقذوها لكن لم يجرؤ لا إنس لا جان على إنقاذها خوفاً من جيش العقارب الكثيف.وسبب موتها كمـــا يؤكدون لهم. .كثرة لدغ العقارب لها، ومن اقترب من أرض العقارب سوف تــلدغه عشــرات العقـــارب من حرّاس تلك الأرض فوراً فيموت وذراعاه لأعلى مستغيثاً ومتصلباً ولن يغيثه أحد، فيبقى جافاً عِبرة لمن يعتبر مثل شجرة النيم.

سلاطين وأتباعه يسيرون على الجسر الحجري الطويل ذي الفتحات السبعة والذي يصل بين نجعي أورك ونجيبيّة مخترقاً أكبر أخوار المنطقة، والذي يمتلئ بالمـــاء في أيام الفيضان فيبدو وكأنه فرع من النيل فسّموه خور البحر. وعندما يصـــعد ســـلاطين وأتباعه للسير على الجسر الضيق الذي يسمح بمرورهم صفاً، فعـــلى الـــباقين أن يسيروا تحت على رمال الخور، لذلك عندما اتجه معتوق إلى الجســـر ليعـــبره خـــلف عصـــابة سلاطين، لمحه أولوا فنادى بصوته الحاد على ســـلاطين الـــذي يتقدم صف عصابته وأشار إلى معتوق. جلست عصابة سلاطين الـــتي صعدت الجسر على ركبهم حتى يتخطاهم سلاطين عائداً إلى الخلف. معتوق يقف متفرجاً عليه في بلاهة لا يعي شيئاً، بقية الأطفال من أسفل الجسر يراقبون فـــي توتـــر، وصل سلاطين إلى معتوق، نظر إليه في اشمئزاز، معتوق ابتسم له ليرضـــيه إلا أن الـــزعيم مد يمناه ودفع معتوق من فوق الجسر، ولأنهما كانا في بداية الجسر فالخور من تحتهما لم يكن يزيد عمقه عن ثلاثة أذرع، يسقط معتوق على جانبه الأيسر ثم يتدحرج على الرمال. تحطمت المحبرة والحبر لوث جلبابه. قـــام، مـــازال مبتســـماً في خجل كاتماً ألماً في كتفه. سار خلف الأطفال مخترقي الخور. صعد الأطفال إلى نجع نجيبيّة، فجأة انفجرت في قفاه صفعة قوية من كف سلاطين الخشنة، يضحك الجميع عليه. معتوق يبتسم برجاء أن يقبلوه وسطهم، لكن الصفعة الثانية انفجرت في قفاه من كف قيّاج ابن مُهدي الأصفر بقال القرية، التفت إلى الخلف فنال الثالثة من كف سِسِّي، نظر إلى سِسِّي في أسف. حتى أولوا شـــارك في ضربه بكفه الضعيفة غير المؤلمة، وإن كانت صفعاته أشد إيلاماً في نفس معتوق. وصلوا الكتّاب.

الكـتّاب يضـم أطفــال النجوع الثلاثة. وضحت بينهم عصابتان متنافرتان، عصـابة سـلاطين واتباعه فيّاج وسِسِّي وأولوا وأمرُ الله الأشرم من نجع أورّك وتاج وسَيِّد هَربية نصف الأبله ابنا نجع المنحنَى، وغيرهم. أما العصابة المضادة والـتي تتحداهم فهما مجرد اثنين فقط، بلال حفيد الشيخ صَلاتو من نجع نجيبيّة ومعــه صوفاني من نجع المنحنَى. بلال قصير مثل جدّه الشيخ ومثله أيضاً قوي العود، وصوفاني عادي الجسد وإن كانت عيناه حالمتين تبثان شجناً، وهذا لا يمنع أنــه شــجاع ولا يأبــه بكـثرة أعداد العصابة المضادة. معا لا يميلان لسلاطين وعنجهيته وشغفه بالعدوان وإذلال الآخرين. عصابة سلاطين تستطيع الفتك ببلال وصــوفاني، ولكــن بخســائر ليست قليلة، فهم يخشون عناد الاثنين وجرأتهما، ويخشون الشيخ صَلاتو المهيب الحازم ذا الخيزرانة الملهبة.

بجيوَة انضمت إليها البنات الكبار في مجموعة واحدة. هي الزعيمة وتليها كِسـبانة الـتي هــي من مواليد نفس موسم بجيوَة، لكنها أخف من بجيوَة لحماً وأطـول عـوداً ولا تمـلك جمال عيني بجيوَة وشعرها. وصدر كِسبانة المشرئب وحــده، لا يشــي بأنوثــة تلفت الأنظار مستقبلا. ولا تملك كِسبانة جرأة وجسارة بجيوَة وإن كانت تملك لساناً يطلق كلماتٍ مقذعة حادة مثل أمها تَعويضة لِسانين. وبعدها فُوزية نجّار ثم بُرون.

الأطفال الصغار سرعان ما تآلفوا ببساطة. دخل الشيخ صَلاتو. أسرع الكل بالجـلوس فــي صمت. يجلسون مجاميع حسب السن، إلا معتوق الذي التجأ إلى الــركن الــبعيد. لا يستطيع أن يفهم لم هو مرفوض من الأطفال، ولم يصفعونه؟! اهــتزت الدنيــا به. ظهره للحائط وقد ركبه القلق من صفعات جديدة تناله. وحده يجلس منكمشاً ناظراً للأرض يريد الاختباء من أعين الجميع، بجانبه الكيس الذي تــلوّث بالحبر وشظايا المحبرة الفخارية المحطمة. أشار إليه الشيخ فأقبل مخترقا صــفوف التلاميذ والخجل والوجل يحتلان قلبه وتعبيرات وجهه. اعتقد الشيخ أن كسر محبرته وتلوث جِلبابه هو سبب كآبته. أجلسه الشيخ بجوار المبتدئين.

مــن أول يوم دراسي لم يتحمل معتوق، لسانه كأنه ملتصقا بسقف فمه، لا يســتطيع أن يلاحــق الأطفال في ترديد آيات القرآن الكريم خلف شيخهم، عجزه الخــلقي وهوانــه بيــن الأطفال خاصة عصابة سلاطين ملأه كآبة فجرت دموعه

غزيــرة قبل نهاية اليوم الدراسي. استبقاه الشيخ لحظات بعد خروج الأطفال، ظن هذه المرّة أن الطفل يبكي لعجز لسانه فقط، مسح على شعره الأكرت..

- لا تبكِ يا بني، حاول مع زملائك وإن لم تستطع مجاراتهم لا يهم.. قلبك سيحفظ كل ما لا يستطيع ترديده لسانك.

وقف أعلى الخور. شمس الظهيرة قاسية. يراقب أطفال نجع أورِّك يجرون فــي مــنخفض الخور، يُوَحْوِحُون لأن الرمال ساخنة تلسع أقدامهم الحافية حتى يصــلوا لمنتصف الخور حيث الصخور المتناثرة، يجلسون عليها رافعين أقدامهم لأعلى بعيداً عن لظى الرمال. ولأن الصخور ساخنة أيضاً، الصغار منهم في ضحك وقــد وصــلت لســعتها الحامية إلى مؤخراتهم، يضطرون إلى التراقص كالبندول واضــعين ثقلهم على جانب واحد ثم يميلون إلى الجانب الآخر في سرعة ورعشة تخفيفاً من لسعة النار. كبارهم بنين وبنات يسرعون عائدين إلى حافة نجع نجيبيّة القــريب ثــم يتجهون مرة أخرى إلى الصخور لإظهار مدى صلابة باطن أقدامهم وســرعتهم. أولــوا الذي يلاحق الكبار لم يستطع العودة إلى حافة نجيبيّة فوقف باكيــاً، يــرفع قدميــه الواحــدة تلو الأخرى في ألم شديد. سقطت المحبرة منه لتنســكب.شاهده معتوق، علّق الكيس المتشرب بالحبر على رقبته وأسرع ينحدر ويخــترق الرمال حتى لحق بأولوا. حمله من وسطه وأسرع به حتى وضعه على الصــخور. فاجأتــه صــفعات الأكــف عــلى قفاه. ضحك سلاطين وبطانته وهم الضــاربون، مســح أولوا دموعه وضحك. وضع معتوق يديه خلف قفاه وأسرع يعــدو ناحية نجع أورِّك. طاردوه. تخلف سلاطين عن المطاردة لثقل جسده، بينما فيّــاج وسِسِّي لنحافتهما وطول سيقانهما يلاحقان معتوق بالصفعات. حشرجا في الصــعود إلى حافة نجع أورِّك، توقفا عن العدو، معتوق كالبغل العفي لا يكل حتى صعد من الحافة واختفى بين البيوت المتناثرة.

دخــل بيــت هكيمة عدوا. العرق يسيل على وجهه وعنقه وبلل جلبابه من الصــدر والظهر واختلط بالحبرالجاف فأعاده للسيولة ليلوث مساحات أوسع على جســد معــتوق. هَكيمة تخبز لوجبة الغذاء. انزعجت، لم يفصح معتوق عن حالة ملابســه ولا عــن الأسى الذي يملأ عينيه، اتجه حيث الأزيار وأخذ يعب من كوز

مليء. عندما أتى أولوا وجلبابه أيضاً به بقع الحبر، سألته عن سبب تلوّث ملابس معتوق وتوتره وحزنه، أجاب في إهمال متعمد. .

- الأطفال يصفعونه على قفاه.

- أولاد من؟

- ..

- ولماذا لم تدافع عنه؟

- ليس شأني.

- أخوك.

- لا. ليس أخي. إنه لقيط. إنه عبدنا.

رفعت هكيمة يدها الملطخة بالعجين لتضربه، ردتها كاظمة، قلبها لا يطاوعها على ضربه، تنظر إليه في غيظ، وتشفق عليه لمرضه ولهزاله، هطلت دموعها. ذهب أولوا من أمامها إلى حيث الأزيار الأربعة الكبيرة المتراصة تحت السقيفة الظليلة، يملأ الكوز بالماء البارد يشرب جرعتين ثم يسكب على قدميه. يخاطب أمه بدون أن ينظر إليها..

- هَكيمة، أريد مركوباً أذهب به إلى الكتّاب، الرمال ساخنة.

نظرت هَكيمة في دهشة لابنها، أغلب ناس القرية تزوجوا وأنجبوا ومازالوا يسيرون حفاة، وهذا الطفل المدلل يطلب مركوباً!

اقترب معتوق من هَكيمة مبتسماً لها، التصق بها رافعاً ذراعيه يربت بكفيه على بطنها مواسياً..

- لـ. لـ. يش. لـ. لـ. يش. (معلهش، معلهش).

ليلاً يضطر أولوا لمشاركة معتوق غرفة واحدة، لكن في سرير وحده. لولا خشية الظلام لاتخذ حجرة أخرى بعيداً عن معتوق. في ليالي الزمتة شديدة الحرارة، الجميع ينامون في الفناء أو حتى خارج الدار بجوار الباب الكبير. أولوا ينام في ركن من الفناء قريباً من ركن والديه وبعيداً عن معتوق، وأحياناً يكون

والداه قد أقاما ونَسة، يدعوانه وتأتي هَكيمة بسريره الصغير لينضم إليهما. يدخل في الونَسة معهما، يسمع حكايات أبيه عن سُوين، عن جدّه موسى وجده الكبير جوش. يسمع النوادر ويسمع ضحكات أمه هَكيمة. معتوق لا يستطيع السهر، لن يستطيع الدخول معهم في الونَس، إنها أحلى ليالي في حياة أولوا كلها. يعده أبوه أن يأخذه لمدينة سُوين، يؤكد له بأنه سيأخذه إلى هناك يوما.

في اليوم التالي بكّرت هَكيمة وذهبت إلى الحقل، وفي موعد عودة الأطفال، تـركت آبدون وحده. سارت والتقّت حتى دخلت أول خور البحر من ناحية النهر، رأت قطيع الأطفال مهرولين في الخور ومعتوق يجري أمامهم والصفعات تلاحقه حتى سبقهم صاعداً حافة النجع. لمحت أولوا وسط الأطفال الأصغر سناً في الخلف يهـلل ويشجّع، أسرعت خلفهم. صعدت إلى النجع تجري بين البيوت وسط دهشة مـن يشـاهدها، دفعت باب البيت الموارب. في الحوش معتوق على مقعدته يدفن رأسـه بيـن ركبتيه وذراعيه، جسده ينتفض باكياً. كيسه مشرّب تماماً بالمحبرة الجديـدة الـتي تكسـرت أيضـاً فتلوّث جلبابه وسرواله الداخلي وجسده بالحبر والعرق. ضربت هَكيمة على صدرها. .

- هِيلو هِيلو معتوق. يا حسرتي عليك يابني.

ماكـاد يسـمع صوتها حتى وثب وارتمى في حضنها يجأر ويخور ويرغي ويشهق في شخير، جسده ينتفض ودموعه ولعابه يسيلان فأبكى هَكيمة معه.

لـم يـأت أولوا إلى البيت، رأى أمه تجري مهرولة خلفهم فذهب إلى بيت خالـته نَـبْرة مع سلاطين وسِسِّي. هَكيمة أخذت معتوق وأسرعت إلى بيت أختها نَـبْرة. كـان الأطفال الثلاثة يأكلون، سمعوا بكاء معتوق يقترب فانكمشوا. دخلت عـليهم نَـبْرة وهَكيمة وكل منهما تحمل جريدة نخل، انهالا على الأطفال ضربا. سلاطين يقف في رسوخ لا يتحرك ولا يبكي، وسِسِّي يحاول تفادى الضربات وهو يضحك ثم بكي عندما نال ضربة شديدة من أمه على أم رأسه. أولوا بكى من قبل أن تلمسه أي جريدة.

بعـد صـلاة المغرب في جامع النجع، وقف آبدون ونظر إلى الرجال أثناء تسبيحهم. .

- اســمعوا يا ناس النجع. معتوق مثل ابني أولوا تماماً. ولولا تحريم ديننا لاتخذتــه ولدا. معتوق عَيي اللسان. أولادكم يصفعونه ويلعنونه ويعيرونه باللقيط العــبد. يتكــبُرون عــليه. والله العظيم حرام. الولد من الظهيرة يبكي وينتفض. اســمعوا. اقسم بالله، أي من أولادكم يهين ولدي معتوق ساشعل معكم معركة تسمع بها كل قرانا، وقد أعذر من أنذر.

لــم يكــن نُوري العمدة يحتاج إلى كل هذا الغضب من آبدون ليغضب على الأولاد الذيــن يهينون معتوق. آبدون في ثورته تخطى حق العمدة في التصرف، وأخـــذ يهــدد ناسه مباشرة! والعمدة يحب آبدون ويعتبره من أقرب الناس إليه، صـــداقة وقُــربى. ويحب معتوق ولا ينسى أنه بإذن من الله أعاد اللبن إلى صدر نَبْرة فوقر لبنها لرضيعته راضية. وافق آبدون في ضرورة تأديب الأولاد وإبعادهم عــن معــتوق الخير. عاد من الجامع إلى بيته غاضباً مصمماً على تأديب سِسِّي وسلاطين لأنهما من أكثر الأولاد ضرباً لمعتوق.

حيــن داهم حجرة الولدين حاملاً جريدة نخل جافة، لم يستطع ضرب وحيده سِسِّــي ضرباً مؤلماً، فنال سلاطين أقوى الضربات وأقل الشتائم ونال سِسِّي أخف الضربات وأقذع الشتائم.

بكى سِسِّي، لكن سلاطين لم يبك إلا ليلاً وعندما انفرد بنفسه تماماً، لم يبك مــن آثار ضرب مفراك عمتيه أو جريدة العمدة القاسية، بكى لإحساسه بأنه يتيم غــريب في البيت، فأولوا التي تضربه هي أمه، وسِسِّي التي تضربه هي أمه، ثم كلــتاهما تلتفــتان إليه لتضرباه. فأين أمه هو؟! ماتت وأبوه أثمان طَقش. وزوج عَمــته العمدة يضربه بقسوة ثم يلين مع ابنه الحقيقي سِسِّي. وأصلاً زوج عَمته يكــرهه وتمــنى علــناً أن يكــون معتوق هو ربيبه والساكن في بيته مع سِسِّي وراضية وأن يبتعد سلاطين في ستين داهية.

الشــيخ صَلاتو عندما أبلغ بما كان، هدد العصابة وخَصّ سلاطين بالتهديد ووبّخــه عــلى مــرأى من الأولاد وعرك أذنه. تشجع بعض الأطفال وتقربوا من معــتوق بتشجيع من الشيخ ووعده بحمايتهم من سلاطين. مرّت رحلات الصباح

والظهيـرة من وإلى الكتّاب في أمان، لا يهم نظرات سلاطين المتوعدة وعصابته المنتظرة لأول فرصة تأتى لينقضوا.

ذو العرجة والشفة الأرنبية المشقوقة لأعلى حتى فتحة الأنف فتبرز لثته في مـنظر قبيح، كان قبحاً على قبح، وإن كانت نفسيته لم تتلوث بالحقد على الأطفال العاديين، يريد أن يتقرب من معتوق في رحلات الكتّاب جيئة وذهاباً، لكنه يخشى سـلاطين، مثـلما كان يريد أن يتقرب منه عندما يأتى في بيت عسل لكنه خشي تَعويضة لِسانين وابنتها كِسبانة. اكتفى أمرُ الله بالحزن على معتوق الخير والحزن على نفسه.

أمّـا تاج، فهو لا يقسو على معتوق، يضحك عليه إن ضحك الأطفال، لكنه مـثل أمرُ الله لا يضربه أبدا. وتاج ذو صوت جميل، مولع بالغناء والضرب على الدفوف. برع حتى إن الكبار يستحسنون غناءه ويشجعونه.

صـوفاني، مـثل بلال صَلاتو، يحب معتوق، يتودد إليه، يحادثه باسماً. أما معـتوق، فقد بدأ كل الأطفال يفهمون كلماته المشوهة ويفسرون ما إنغلق عليهم سوياً ويضحكون فرحاً عندما ينجحون في تفسير كلمة جديدة غامضة منه. أحياناً يشـاركهم سِسِّـي الحديـث مـع معتوق. وقليلاً ما يشاركهم قيّاج. عدا سلاطين وأولوا، سلاطين يراقب رافضاً منتظراً اليوم الذي يتلهى الكبار عنهم، ليعود فيذيق معـتوقا مـن النار التي تحرق حشاه. أما أولوا لا يسير معه خطوة واحدة رغم شـفاعات والديه وتهديدهما له، يحتقر كل من يصاحب عبدهم كما يسميه، وازداد التصـاقه بالكـبار كمـا يسـمي عصابة سلاطين، وأخذ مع سِسِّي يحاولان تقليد سلاطين في شقاوته مع بِجيوَة وكِسبانة، لكن وقتها لم تهتم بهما أي من الفتاتن.

حيوية معتوق تزداد. رغب في ترك الكتّاب ليعود إلى العمل مع آبدون وإلى الجـلوس لوقـت أطول مع المنشد عسل، هَكيمة رفضت أن تلبي رغبته في ترك الكتّاب. معتوق يعود من الكتّاب وبدلاً من الصعود لنجع أورِّك مع الأطفال، ينسال شرقاً حتى ضفة النهر ثم يعرج جنوباً على حافة الحقول حتى يصل لأرض آبدون. يـلقي بالكيس تحت نخلة جوش ويهبط للعمل مع آبدون. لا يكل ولا يمل. يشفق عليه آبدون ويأمره بالراحة، يرفض الطفل. تأتى هَكيمة لهما بالغداء البسيط وهي

علـى ظهر الحمارة القديمة، يأكلون سويا. لا ينقصهم إلا أولوا الذي واظب على الغـداء مع سِسَّي وسلاطين في بيت خالته، ليبعد عن معتوق وعن البيت ووالديه اللذين يفضلان معتوق عليه.

قبل المغرب، تكون هَكيمة قد سبقتهما إلى البيت بحمارتها وقد حملت على ظهـرها المنبسـط الكثير من الخضروات. آبدون ومعتوق يعبران صفوف النخيل حـتى تختـلط بعض أشجار السنط والنخيل إطلالاً على المجرى المائي. يهبطان الـنهر. يوغـل آبـدون في النهر وإن كان الوقت يسعفه، يسبح إلى جزيرة تايي الصخرية. يصعد صخورها ويلوّح لمعتوق صائحا..

-معتوق هووي.

يلّوح له معتوق وهو قرب حافة النهر. .

- آدون هـ هـ هـ و ي.

يعود ليعلّم معتوق السباحة. معتوق يرفض أن يتعلم كما يُبين له آبدون. بل يسـبح بطريقـته الخاصة، يداه من تحت الماء كالتمساح. يسعد بالسباحة ويسعد بقرب آبدون منه.

عـلى ظهر الحمار العالي، يردف معتوق خلفه وأمامه حزم من الخضروات ويسـحب بحـبل البقرة القديمة. وبعد أن يأخذ معتوق البهائم إلى الحظيرة يجري خارجـاً وسط ضحكات آبدون وهَكيمة فهما لن يستطيعا منعه من الذهاب اليومي إلى العجوز عسل ليأخذه إلى الجامع ويعود به بعد صلاة العشاء لينشد معه قليلا.

تَعويضـة تـرى الطفـل مندفعاً إلى بيتها قاصداً حماها عسل. بدأت تكره وجوده. .

- احتملنا العجوز الأعمى الذي لا يموت، فأتى لنا الأخرس اللقيط!

ابنتها كِسبانة تجاري أمها. .

- آه لومات جدي الضرير، لاسترحنا منه ومن اللقيط الأخرس.

أمّــا هُوشَــة الصغيرة، فلا تملك إلا أن تقول في صوت خفيض خائف من الشرستين أمها وأختها . .

- حرام.

الســرير الواحــد يجمــع سلاطين وسِسّي. طفلان لا يزيد عمر أولهما عن الــثاني إلا بموسم وبضع موسم، لكن نمو سلاطين سريع. أحاسيس مبهمة بدأت تغــزوه، لا يفهمهــا، يحسّها غامضة، حين اللعب مع جماعات الأطفال في النهر ينجذب نظره إلى أجساد الطفلات العاريات. في حذر يراقب أفخاذهن ومؤخراتهن. أحيانــاً يــلمح ما بين أفخاذهن. يحيره أن بقية الأطفال لا يهتمون إلا بفضول كما تهــتم البــنات بأجساد الأولاد لمجرد الفضول! لكن أن يكون بينهم اهتماماً يماثل اهتمامه الغريب . . لا، لم يجد بينهم من يهتم ويتشوق مثله! ليلاً مع سِسّي يتعمد أحيانــاً الالتصاق بظهره. سِسّي يتضايق خاصة في الليالي الحارة. سِسّي انزعج عــندما احتضنه سلاطين مرّة من ظهره وهو نائم وأحس بقضيبه المشدود يضغط فــي مؤخــرته. نهض جالساً ناظراً لسلاطين الذي ادّعي النوم والظلام يساعده. تكرر هذا الأمر. ثم توقف سلاطين عن هذا وقد تأكد أن سِسّي لن يسمح له بهذه اللعبة، وخشى أن يقول لأمه نَبْرة، أو ربما أبلغ أباه نُوري العمدة، حينها لن يمر الأمر بسلام.

الــتهويمات الغامضــة لا تســتكين ولا تــتوقف عند حد. تفور داخل خلايا سلاطين لا يعلم من أين ولا يعلم لم هذه الأحاسيس الغريبة تمور داخله ولا يشتكى منها أقرانه؟ يراقب عضوه الذكري كثيراً، الفتيات الصغيرات حين الاستحمام عكّر لعبهن وانطلاقهن خجلهن منه ومن نظراته المتلصصة منها والمباشرة. بدأن في الخجــل الأنــثوي مبكرات بسببه. لعبه معهن ليس لعب أطفال أبرياء. إنه بخلاف بقيــة الأولاد، فلعــبهم معهن عروس وعروسة لعب ساذج حتى لو أخذت أحدهم الحميــة مقــلداً أفــاعيل الكبار. وإن انتصب عضو أحدهم عفواً أو لزخم بولي، ضحكن عليه مع بقية الأولاد، لكن سلاطين سخونته تفزعهن!

فــي الأيام شديدة الحرارة يرى عَمّته نَبْرة في ملابسها الخفيفة، خاصة إن تعرّى فخذاها أو ثدياها. يراها بعين تزاحم عين الابن. الوحيد الذي تَقبل مناوشاته

التي يغطيها باستدعاء اللعب والمزاح، الوحيد الذي سار معه مشواره، هو أولوا، بل إن أولوا شجّعه على ذلك، يريد ذلك الأمر المشوّق في لهفة أكثر من سلاطين. ترك سلاطين يحتضنه من الخلف ويبقى على هذا الوضع حتى يشتد العود ويحس أولوا به ينغز ما بين فلقتيه. لكن لم يفعل سلاطين شيئاً، معا كانا تحت سن الفعل. وحيـن وصل سلاطين إلى هذه السن سريعاً والتي بامكانه فيها إيلاج عضوه في نفق لحم حي، كان مهبل حمارة ثوري العمدة هي أول ما استخدمه، وبعدها حمارة والـده. .ثم فعل في أولوا حتى أخذته بجيوَة فترك جسد أولوا. لكن أولوا استمر فـي عشـقه لأن يَلوط به الشباب من القبيلة ثم من الغرباء. وبقي أولوا عاشقاً يـثيره جنسياً جسد سلاطين حتى بلوغه مبلغ الرجال، حتى تحوّل تماماً إلى رجل مغايـر وقـد هجـر قريـته إلى الجبل وترك شاربه يتطاول ويلتحم بلحيته الكثة المغبرة، لا يمتلك إلا إبريق نحاسي ورثه عن والده آبدون الذي ورثه بدوره عن أبيـه موسى والذي كان موسى قد احتفظ به بركة من مقتنيات أبيه جوش الولي الكبير.

الـنهر يعـلو محمراً مبشراً بفيضان كل موسم الذي لا يخلف موعده أبداً، وهذا أحد مواسم العمل المستمر بالمراكب صغيرة وكبيرة. ثلاثتهم، آبدون وهَكيمة ومعـتوق، ركـبوا مع ناس القرية المركب متجهين إلى جزيرة أصلاد المستطيلة الواسعة. الجزيرة ليست عالية صخرية مثل جزيرة تايي، منخفضة طينية خصبة، يأتيهـا الفيضان ويغطيها ويرسّب عليها الكثير من الطمي ثم ينحسر عنها مخلفاً أرضـاً زراعية خصبة تنمو فيها الأعشاب والأشجار وحدها في زخم أخضر رائع كأنه غابة. ناس القرية من قديم اتفقوا أنها جزيرة مشاع، لهم جميعاً. بعد انحسار الفيضـان يركـبون إليهـا المراكب مع بعض مواشيهم الصغيرة والمتوسطة ثم يـتركونها عـلى الجزيـرة ويعودون. الماشية تعيش في جنّة جزيرة أصلاد تأكل وتشرب وتسمن حتى بداية الفيضان التالي حيث يأتيها ناسها ويأخذونها ليعود كل بماشيته وقد شبّت قبل أن تغرق الجزيرة تحت الفيضان الجديد.

حوّطوا الجزيرة بسور من جذوع وفروع الشجر، فتحاته واسعة تسمح لكل الماعز والأغنام بالمرور إلى النهر، عدا البقر الذي يميل للسباحة ولا يرعوي عن

الهبوط في النيل المقدس ويلوثه. الخوران الممتدان كأنهما جداول إلى داخل الجزيرة، بإمكان الكل الشرب منهما.

مركب سَليمتو في عمل مستمر. أتاهم مركبان من القرى المجاورة منهما المركب التي يعمل عليه زجر ابن سَليمتو. يذهب بالناس ثم يعود بهم وبمواشيهم ليذهب بآخرين. طوال أسبوع كامل. ولما عادت المركب بعائلة آبدون وحدهم، وقف من شاهدهم في ذهول، لقد تركوا بقرتهم الصغيرة وثلاثة خراف وماعز واحدة. فإذا بهم يعودون بالبقرة وخلفها رضيعان وجماعة خراف وماعز حتى أنهم احتاجوا لأكثر من رحلة للعودة بقطيعهم! التساؤل في قلوب من رأي كان على البقرة. . متى شبّت ونضجت وتناسلت.

اشتد الفيضان فغطي شريط الزرع، يسابقه ناس القرية جامعين ماتبقى من حصاد سريعاً سريعاً حتى لا يغرق. وحصاد البلح يكاد أن ينتهي في تجمعات سعيدة، وهم يدعون الله ألا تصلهم رياح جُنيب التي تأتي أحياناً في مثل هذا الميعاد مفعمة بالحرارة القاسية ومحمّلة بالرمال، فتبوخ أفراحهم وتجلب لهم الضجر واشتعال الأعصاب.

يعلو النيل في قسوة وجلال مندفعاً بمائه الثقيل في الأخوار فيكاد يفصل النجوع، وبهذا يبدأ موسم الزيجات والمزاج الرائق بدون إلحاح العمل في الحقول الغريقة. المراكب تراصت على الشواطئ في بيات موسمي. إسْهاج النجّار مع مساعديه فقط يعملوا في صيانة المراكب التي تحتاج لمراجعة. حفلات أعراس وسهرات شرب خمر العَرقي وتدخين لفائف البانجو. النساء في جلسات تحت ظلال الجدران في مسامرات ومشاحنات وأياديهن مشغولة في صناعة الأطباق الملونة والحُصر وتلوينها. والبعض يغزلن الطواقي، ويذهبن إلى بيوت المتزوجين حديثاً لصنع الشعرية والمساعدة إن كان هناك بيت جديد سيُبني، لكنهن لا يغفلن عن مراقبة أطفالهن الذين يلعبون على ضفاف النهر الهادر بالأطواف المصنوعة من أشطار النخيل الطولية والمجدولة بحبال الليف.

- ينحسر الفيضان. يسرع ناس القرية ببذر بذور الترمس والقرطم. الصغار يرعون الماعز والخراف على شرائط من الأرض زهزهت بالخضرة. معتوق يَسعد

بـــرعي أغــنام البيت التي تزايدت وربت لحماً وشحماً، يعطي كل منها إشارة منه معينة أو اسم يخترعه من شكلها الداكن أو الفاتح، من شراستها أو وداعتها، من عَيــب فيها أو ميزة. ومايطلقه عليها يخرج من فمه شائهاً لا يعلم مقصده إلا هو والأغنام.

أتت مركب الجباية وعليها مُركوس وزوج العَسكر العثمالية اللذان ضربهما العَجَــز ولــم ينسيا عنجهيتهما. في بيت العمدة يأتي آبدون وصَلاتو بعد وصول مُهــدي، ثم يقومون بتوصيله للميناء مرّة أخرى، ويجري نفس الحديث الضاحك عن أمل مُركوس في هداية الرب لصَلاتو وكل النوبيين فيعودون للنصرانية، وأمل الشــيخ صَلاتو أن يستطيع ناس قرية عنيبة النوبية أن يجذبوا مُركوس وعائلته للإسلام، يودعونه ملوحين له داعين له بسلامة الوصول وبالعودة الموسم القادم بصحة وعافية.

ذهــب الصيف وعاد. النيل في هدوئه المعتاد. موسم دراسي جديد. الأطفال عائدون إلى النجع. في منتصف الخور صاح سلاطين. .

- نذهب إلى النهر. من لا يأتى معنا أبوه حمار.

من خاف أن يكتشف ناسه هبوطه في النهر، لم يتبع الأغلبية التي أسرعت فــي مجــرى الخور ومنه إلى ضفة النيل، انحرفوا شمالاً قليلاً حتى يداريهم دغل كثيف من أشجار السنط وجميزة ضخمة عجوز تطل على المجرى مباشرة. الأولاد ألقوا أكياسهم، خلعوا جلابيبهم وسراويلهم الداخلية وهم يصيحون وألقوا بأنفسهم في المجرى يشقون الماء. توغلوا قليلا.

البــنات في مكانهن المعتاد، ثنية مائية صغيرة على ضفتها نباتات الحَلفاء عالية. خلعن جلابيبهن وسراويلهن وهبطن مثل الأولاد. عرايا. خطوات إلى داخل النهر وخرجن من حيز الثنية والحلفاء. البنات اليانعات اللاتي على وشك البلوغ، يحرصــن عــلى بقــاء نصفهن الأسفل تحت المياه يلعبن سوياً، لكن يتحاشين أن يغطســن رؤوســهن في المياه، حتى لا تبتل شعورهن المضفرة في ضفائر كثيفة رفيعة، فتكتشف أمهاتهن أن سبب تاخيرهن هو السباحة في النيل.

هُوشَـــة الـــتي لـــم يظهـــر في جسدها أي نتوء يُنبيء بأنها أنثى، تتحرك بحريـــتها. بجيوَة ابتدأت السخرية من مؤخرة هُوشة لتغيظ أختها الكبيرة كِسبانة، عـــلى فـــلقة مؤخـــرة هُوشَـــة اليمنى، وحمة كبيرة، تشير إليها بجيوَة وتضحك، اكتشفت أنها على شكل قطيطة. البنات كلهن ينظرن، اغتاظت هُوشة وخجلت من مؤخـــرتها فـــبكت. أنقذتهـــا كِســـبانة بلعنات سريعة موجهة إلى بِجيوَة. ثم خبت المعركة سريعاً مثلما بدأت سريعاً ليهتموا بالاستمتاع بالنهر سباحة ولذيذ العُري.

معـــتوق عـــلى رأس ثنية النهر جالس يراقب الكل ويضحك. سلاطين أكثر الأولاد توغـــلا في مجرى النهر، جسده القوي السمين يساعده على السباحة في رسوخ. بجيوَة أكثر البنات توغلا في النهر لنفس السبب ولأنها مثله جريئة أيضاً، ولتـــبين له أنها سباحة ماهرة وليست جبانة، فقد رفعت شعرها وتوغلت أكثر من كِســـبانة ببضعة أذرع! ثم عادت لتكون مع الفتيات صفاً، بجيوَة وكِسبانة وفوزية وبُـــرون، وبالاتفـــاق معـــاً، فجـــأة يقفزن لأعلى رافعات أياديهن صارخات فتبرز أنصـــافهن العليا بفصوص نهودهن الساذجة، مبللة تحت أشعة الشمس تلمع في نشـــوة ثم تغطس سريعاً عائدة مع رجوع الجسد لأسفل فتعود مياه النهر لتحميها من الرؤية والرصد. أما مجمع الفخذين وأعلاهما فهو آخر ما يظهر وأول مايعود فـــوراً للاختـــباء في المياه. ضحكات الأولاد وهم يحاولون الإمساك بتلك اللحظات الخاطفة فيرون ماتشاكسهن به البنات. يصيحون..

- نَلِسَوه. نَلِسَوه. رأينا. رأينا.

وليس على البر سوى معتوق. تهامس سلاطين مع أتباعه. صاح. .

- من يجلس على البر أبوه خروف.

وافقه الجميع. .

- إيْ. إيْ.

معتوق يضحك، لكنه مازال جالساً على مؤخرته رافعاً ركبتيه عالياً مستنداً عليهما بذقنه ويداه تضربان على الطين الجاف أسفله سعيداً بلعب الأطفال. أولوا الـــذي يســـبح على عمق ذراع فقط، ارتاح لشجاعته بالنسبة إلى معتوق الجالس

عــلى الضفة في جبن. يعرف أنه سبّاح، لكنه جبان يخشى هبوط النهر في وجود سلاطين وعصابته. نظر إلى معتوق في كبرياء. .

- معتوق، يا عبد هَكيمة.. انزل إلى النهر يا جبان.

بجيــوَة وكِسبانة وفُوزية وبُرون شاركن في السخرية من معتوق. لكنه لم يترك ابتسامته. لمّا ازددن منه سخرية، قام في هدوء واتجه إلى ثنية البنات. ترك حقيبـــته القمـــاش بما فيها من إردواز ومحبرة بجوار حقيبة كِسبانة. خلع جلبابه ورمـــاه فـــوق جلـــباب كِسبانة تماما. ضحكت بُرون.. - إنه يهتم بك يا كِسبانة. هاها.

- أنا؟ أنا لا أعطي اللقيط أي اهتمام.

قالت بجيوَة. .

- نعاكسه.

معتوق يهبط في المجرى في بطء. لاحقته البنات. .

- عَبْد هَكيمة، تحرك.

- اتظنون إنه سيسبح سريعاً مثل مركب سَليمتو؟

- إم م م م، لاتقارنوا مركب أبي به يا بنات.

- لكن، لماذا لم يخلع السروال؟

- اخلع السروال.

- يخجل المسكين!

- يخشى أن نرى مؤخرته.

-هاها.

الفتيات يضحكن منه فيجيبهن هو الآخر بالضحك. ولما رأوه يسبح بدون ان يــرفع ذراعيـــه أعـــلى سطح الماء، ضحكوا على خيبته. من ضاعت بهجته كان أولوا. اقترب الصبيان الكبار من معتوق. فَيّاج في سرعة مد يده وأمسك بالحجاب

الحــاوي على الناب المربوط أعلى ذراع معتوق. جذبه ليقطعه ويكشف سِرّه إن كان ناب ذئبة كما يقولون. شهق معتوق هلعاً. بيسراه أمسك بكف فَيّاج وسحبها بعيــداً عــن الحجاب. ضغط على يد فَيّاج في قسوة فصرخ فَيّاج وهو يشعر بأن عظام كفه تنسحق. تركه معتوق بعد أن أبكاه ألماً. خرج فَيّاج من النهر يتحسس عظــام كفّــه. فــترة ذهول أخذت الأطفال. معتوق عاد للابتسام والتقدم في عمق النهر. قال سلاطين في نَبْرة غيظ وخبث. .

- أيها السابح مثل أمه الذئبة. تتحداني؟

ابتســامة معــتوق خبت قليلاً من سباب سلاطين، هز رأسه موافقاً. ابتسم ســلاطين وأشار إلى جزيرة تايي. الجزيرة تبعد بزاوية من مكانهم فأصبحت أبعد وأبعد من الضفة حيث يجلس. أولوا صاح فرحاً..

- جزيرة تايي. .جزيرة تايي.

صــمت الباقون. تقدم سِسِّي وأقبل فَيّاج وحازاهم وقد اتفقوا بالعيون على مكيدة. صاح سلاطين. .

- هيّا.

انطــلق الجميــع يســبحون. تعمد سلاطين وصحبه السباحة ببطء واضح ليســبقهم معــتوق. سعد معتوق أنه الأسرع. يسبح. .يسبح. وقبل ثلث المجرى العــريض، توقــف الــثلاثة المنافسون له وتركوه يسبح مبتعداً وحده. تراجعوا. معــتوق يتقدم غير عابيء بهم. الجميع يراقبونه من الشاطيء. لا يظهر منه إلا رأس سوداء تبتعد. صاحت بُرون مرعوبة. .

- إبيوو - إبيوو.

ولّــت هاربــة. تبعتها الفتيات والأولاد الصغار. كل يحمل ملابسه وكيسه. ارتــدى الكبار ملابسهم وهم يتابعون رأس معتوق التي تضاءلت ومازالت تبتعد. أمــرُ الله الأشرم يبتعد وهو يبكى معتوق. سلاطين يضحك وقد ضمن غرق العبد. فــترة. ولدهشــة الجميــع وصل معتوق إلى الجزيرة، صعد صخرها، لوّح لهم، ينظرون إليه في بلاهة، وثب مرة أخرى وبدأ يسبح عائدا.

وصـــل إلى البر فلم يجد أحداً، لم يجد ملابسه، لم يجد كيسه. بقى فترة في حيــرة ولــم يفهــم أنهم خدعوه وسرقوا حاجياته. هبط إلى الحقول متجهاً لحقل آبــدون. خجل مما جرى له ومن جسده العاري إلا من سرواله القصير الذي جفَ ســريعاً على جسده. عثر على حصير قديم لفه حول جسده فصار مثل فسيل نخلة لم تغرس بعد.

آبــدون يعمل على الشادوف، يمسك بالحبل الذي يجذب به الذراع الطويلة لتــتدلى لأسفل. الوعاء المعدني المربوط في نهاية الحبل يغطس في النهر ليمتلئ بالماء، يترك الحبل، الثقل الطيني المتورم خلف الذراع يجذب طرف الذراع لأعلى فيصـــعد الوعـــاء بما حملَ عالياً. يسكبه آبدون لتجري المياة في خريرها لتروي الجداول، يغني آبدون في إيقاع يساعده على العمل المتعب المضجر.

وجــده آبــدون يقف بجانبه، نظر إليه مستغرباً، ترك الشادوف وغرق في الضحك. معتوق ينظر إلى آبدون، ترك عبوسه وأخذ ينافسه في الضحك.

الأيام تتوالى بشموسها والشهور تنسحب بأقمارها والغريب الأغمق سواداً عــن عَصــب القبيــلة يدخل قلوب ناسها أكثر وأكثر. ضربه آبدون أكثر من مرة ليترك بعض عاداته السيئة، كالسباحة يومياً إلى جزيرة تايي من بعد عدو سريع. يسيح بين النجوع مسرعاً، وخلال تجواله لا يجد إنساناً يأكل شيئاً أو يشرب شيئاً إلا وجــلس معه وأخذ لقيمة واحدة أو رشفة. يوماً كان مُهدي الأصفر واقفاً على واجهـــة دكانه تحت ظل السقيفة الخشبية المعروشة بعيدان القمح الجافة، منضدة عالية بجواره عليها كوب من النعناع قارب أن ينهيه، يراقب ثلة الرجال الجالسين متحــلقين تحت شجرة الكافور المزروعة على جانب أمام الدكان، يلعبون السيجة بقطع من الحصى في نقرات بسيطة في الرمال، فإذا بمعتوق الذي كان يعدو ماراً أمامـــه يتوقف ويتجه إليه، يمسك بالكوب ويرفعه ويشرب الرشفة الأخيرة الباقية ثـــم أعـــاد الكوب وعاد لعدوه في بساطة وسرعة. اشمأز منه مُهدي وحزن على جـــرعة نعـــناعه، كـــاد يطوح بالكوب بعيداً لولا أن يتحطم الكوب. ضحكوا منه، فـــازداد غضب مُهدي وازدادت لعناته، بحجة أن الرشفة الأخيرة هي قمة المزاج عنده.

خلال عدو معتوق، إن وجد إنساناً يعمل، فلزاماً عليه أن يساعده مهما كان نوع العمل . . بناء، فلاحة، حتى توليد بهيمة! لا فائدة من ضرب آبدون له، يتلقى الضـــرب ويضحك مهما كانت الضربات قاسية، فيضطر آبدون للضحك هو الآخر، يأخذه في حضنه ويتأسف له. وفي وقت فورة الفيضان، يجري معتوق بالقرب من الميـــاه الهادرة. يهبط النهر العالي يسبح في العمق القريب . تعجبه السباحة ضد التيار، يتجرع المياه الثقيلة متلذذاً بطعمها شديد الدسم.

وأكـــثر مـــا يشـــتهيه، أن يقـــوم بالعمل في الشادوف. مبهوراً به وبالمياه وبصـــوتها. لكـــن قصر طوله يمنعه من هذا العمل الذي يبهره. يلح على آبدون وهَكيمة أن يطلبا من إسْهاج أن يصنع لهم ساقية. لا يريد استيعاب أن أرضهم لا تحـــتاج ســـاقية. يريد أن يجلس على تروسها وعلى ظهر الثور الذي يديرها . . يريد اللعب.

الشـــمس فـــي الظهيـــرة قاســـية . يجري تحتها إلى النجوع فيعبر الجسر الحجري على خور البحر . يذهب إلى نجع نجيبيّة، ثم يأخذ طريق سفح الجبل إلى نجع المنحنَى . إن وجد من يركب حماراً، يسرع إليه ليردفه معه وضحكة معتوق المجلجـــلة تتصـــاعد. وقـــت قليل يثب منه ويجري موازياً الركوبة في تحد. بعد اشتهاره بالبَرَكة، كانت غالبية النساء يشتهين أن يأخذنه معهن فيرفض أن يردف خـــلفهن . بل يركب أمامهن، يضحكن منه، لكنه لا يُرْدَف إلا خلف العجائز وخلف هَكيمة ونَبْرة.

حيـــن عـــدوه السريع، تلاحقه كلاب النجوع الثلاثة، تنبح وتسبقه ليسبقها تداعـــبه فيداعـــبها . يرونه يساعد قطة حبلى على وضع ما في بطنها، يطعمها، يمـــوء لها فتموء له. معتوق الخير ينهق للحمير. يبرع في تقليد نهيق كل حمار على حِدة. يثغو للخراف يمأمئ للماعز ينبح للكلاب.

الـــليل . . في حوش الدار يتربعان أرضاً، عسل ومعتوق . عسل يقرأ أذكاره ومدائحـــه. معتوق قلق، قلبه مع دقات الدفوف والأغاريد التي تملأ الفضاء وتدفع الحـــرارة فـــي الأجســـاد. متشـــوّق. دقات الدفوف تتشكل وتتنوع بغرابة حسب الرّقصـــات، من عنف افريقي لرقة نيلية لنمنمات شرقية . ثم تتصارع مع ضربات الكفـــوف الرنّانة في رقصة الكف وجملة غنائية متكررة بعينها. ثم ضربات أخرى

لــلكف مـــع وحْوَحَــات معبرة بدون أي غناء. ينظر معتوق إلى عسل في رجاء لســرعة الذهـــاب. ساعة زمن. البيت خالٍ إلا منهما. القرية كلها تكاد أن تكون خاليـــة. الجميـــع فـــي ساحة العُرس إلاهما. وعندما انفجر ضيق معتوق ولهفته وقف. .

- إدي أس س ل. ا اذهـــ ب.

- اجلس يا بني حتى نسمع دقات السَّفين الصوفية. اجلس يا ولد.

جلس متوتراً. بعد فترة خالها دهراً، تبدلت الدفوف الراقصة إلى دقات هادئة راضـــية. قـــبل أن يقف عسل مستنداً على عصاته، كان معتوق قد انتصب جاذباً العجوز الذي قهقه. مد عصاته للأمام ويمناه على رأس معتوق..

وصلا إلى ساحة القرية الرئيسية الواسعة. المشاعل والفوانيس تنير المكان فـــي صُفْرَة وتصنع خيالات ثابتة ومتحركة على الرمال وعلى جدران بيت العمدة العريضة. أفسحوا لهما. آبدون أمسك ذراع عسل وأبعد عنه معتوق رغم اعتراض معتوق.

- هـــلّيت علينا يا منشدنا عسل. كنت أعلم أن معتوق الخير عندك ياعَمّنا. أنا وهَكيمة بدأنا نغار منك.

- هاهـــا. أنـــا أعلّمه التسبيح والمديح. وإن كان يحبني درجة فهو يحبكما درجات. يابختكما السعيد ببَركته.

مســتطيل كـــبير من أجساد رجال القرية. وفي الضلع الصغير الذي أعطى ظهـــره لشـــجرتي التوت، يقف العريس شامخاً مُعمّماً بعمامة ضخمة وفي جلباب حليـــبي يمسك بالكرباج، يتأبطه من يمينه وشماله أقرب أصدقائه كوزيرين. خلفه صـــفوف النســـاء وفـــي صـــفهن الأول أمه وأخته وأم العروس وإخوتها. داخل المســـتطيل بعـــض رجال يحملون المشاعل والفوانيس، وشاب يحمل سيفاً قديماً يرقص به مقاتلاً وآخر يحمل رمحاً صدئاً يلّوح به. والصفان اللذان سيديران الزفة الصـــوفية، صـــف من خمسة يضربون الدفوف، وصف من شيوخ القرية، الشيخ صَـــلاتو وإسْهاج النجار ويونس المجبّراتي وآبدون، يتوسطهم المنشد عسل. هم صف المنشدين. ضاربو الدفوف في حركة وسط الفراغ. يضربون في تراخ خادع مواجهين صفوف أضلاع المستطيل البشري، يلتفون حول أنفسهم في الوسط. أما

صــف عســل فيــتحرك جيئة وذهاباً في بطء. رجال المستطيل نفسه عدا صف العــريس أقدامهــم على الرمال لا تتحرك، لكن جذوعهم تهبط للأمام وترتفع في هــدوء وهــم مــتأبطون بعضهم. رويداً رويداً تزداد الحركة مع سرعة ضربات الدفوف، ثم رفع عسل عقيرته منشداً وهو يسير وسط صفه..

- الله الله ويا الله.

فيجاوب الجمع كله..

- الله الله ويا الله.

كان هذا مفتاح القصيد التسبيحي. بعد ذلك صف المنشدين معه ينشد بالأبيات المحفوظة، وما على رجال المستطيل إلا أن يرددوا خلال حركاتهم الراقصة مفتاح القصيد. .

- الله الله ويا الله. .

الدفــوف تُســرع وتُسرع. صف المنشدين يُسرع ويُسرع مواجهاً الصفوف ويدور. الصعيدي هاشم الكيد، اخترق المستطيل يحمل بيد مبخرة مترعة بالبخور، وبيــد يحمــل نبّوته، عصاته الغليظة المصفحة بقطع من الحديد وأسلاك نحاسية محكمــة الالــتفاف حــول أجزاء منها كزينة وأيضاً لوقت القتال والأذى.. يواجه الراقصين وينفخ البخور فتَهب الروائح الذكية عليهم وهو يردد معهم. .

- الله الله يا الله. .

يــدور ويتراقص ونبّوته يتلاعب به في الهواء بحنكة، وعرجته تتلاعب به عــلى الــرمال، يذهب إلى العريس ويبخره، يدور في فراغ الوسط وهو يتحاشى صــفي المنشــدين وضــاربي الدفوف فلا يصطدم بهما، يرقص في براعة رقصة تخصــه وحــده وإن كانت على نغمات الدفوف والإنشاد، فلا يعلم الرائي إن كان يــرقص رقصة التحطيب الصعيدية أم يرقص رقص النوب؟ الكيد سعيد بأنه منهم وفخور بكونه صعيدي من قلب الصعيد المشهور بصلابته وصلادته.

ضــربات الدفــوف تلاحقت. حركات الجذوع اشتدت. انحناء سريع واعتدال أسرع. صف المنشدين وأذرعهم متأبطه بعضها، كأنهم مخلوق جديد هبط من قمة الجــبل. له خمسة أزواج من الأرجل وخمسة أزواج من العيون وخمسة رؤوس بهــا خمســة أفــواه. والمخــلوق العجيب له ذراعان فقط على الأجناب ترتفعان

وتنخفضان في نشوة وروح واحدة وخطوة واحدة. يتقدم والأكتاف حاملة الرؤوس الخمســـة تـــتحرك صـــاعدة هابطـــة فـــي ليونة موحية، للأمام ليواجه ضلعاً من المستطيل ثم يتقهقر بظهره ليعدو مسرعاً منحرفاً لضلع جانبي ثم يمور في الوسط ويتحدى فوران مخلوق ضاربي الدفوف الخماسي المتلاصق، عندما يشتد اندفاعه لضـــلع مـــن الراقصين يقف فجأة ليثبّت جانباً ويلتف جانبه الآخر وكأنه يتدحرج عـــلى الـــرمال مستديراً كضلفة باب يتطوح لينغلق أو لينفتح حتى يستوي عرض المخـــلوق فينطـــلق الجـــانب الثابت معهم مسرعاً متعاجباً برشاقته. هذا والإنشاد مستمر في الفم الواحد المقسم إلى خمسة.

- صلّوا عليه ويا الله.

الجموع المهتزة تردد خلفهم. .

- الله الله ويا الله.

صـــف العـــريس معفي من الحركة، يشاهد ويداعب العريس، يمازح بعضه وخلفهم أغاريد النساء وهن ينثرن عليهم حبّات القمح والذرة والملح وماء الورد. عـــندما تمـــر ســـاعة زمـــن عـــلى الراقصين، يبدلون حركة الجسم من الانحناء والاعتدال المتوالي في سرعة، إلى الوقوف في اعتدال متكبر وأمشاط أقدامهم معاً تـــرتفع بهـــم لأعلى وتعود بهم كأن أسفل منهم ياياً سحرياً، هم في حالة فرسان يركبون أحصنتهم.

الأطفـــال صـــف وحدهـــم خلف صف من صفوف المستطيل الأطول، ماعدا معـــتوق الخيـــر، معـــه عصا عسل، يحاول التسلل إلى داخل المستطيل. لم يمكنه الكـــبار. الـــنظام نظام. حتى انتهى القصيد. راحة لدقائق. أحاديث جانبية ومزاح. البعض يتسلل ليتجرع بعض العَرَقي ويعود ليسبّح ويمدح. انفرط المخلوق المنشد إلى خمســـة، كـــل منهم يمسح عرقه ويشرب القليل من الماء المحلّـــي بالسكر. يجـــلس المنشـــد عســـل عـــلى الرمل الناعم ليريح بدنه العجوز المرهق. وصف الدفوف يريح أياديه ويسخن الدفوف على نيران صغيرة. بنادق خمسة منها ثلاثة تابعة للسُّلطة. . شيخ الخفر المُعجب بنفسه والخفيران، وبندقية آبدون ثم بندقية بالغـــة القـــدم يمسكها ابن عم هَمَرين. يطلقون أعيرة نارية تحية للعُرس وناس

الغُــرس وللقبيــلة كثيفة العدد والتي تعتز بأصلها وتغتر. ترتفع زغاريد النساء فرحة. ثم عاد المستطيل كما كان. وقف عسل وأعطى إشارة القصيد الجديد..

- الله الله الله. أحمد حبيب الله

اشــتد الرقص مرة أخرى، وجدوا معتوق في الداخل، يقتفى أثر المنشدين ومعــه عصــا عسل الأطول منه. أحد حاملي المشاعل حاول طرده، لكن معتوق حــاوره خلال المنشدين وضاربي الدفوف حتى أضحك الناس. صاح به آبدون أن يــتركه. تــركوه فأبدع. كان إضافة مرحة لناس البلد، حتى أن أضلاع المستطيل تــتعمد مــن إطالــة حركة راكبي الأحصنة اليايية لمجرد مراقبة الطفل الراقص المضحك. يقلد المنشدين في حركاتهم، يحاول أن يوازيهم لكنهم يفاجئونه من غير أن يقصــدوا بحــركة جديدة، وما يكاد يوازيهم مرة أخرى حتى يباغتوه بالتفاف حــركي. يلتفون يميناً عندما يتوقع حركتهم إلى اليسار، يعودون بظهورهم للخلف حيــن يســتمر هو في تقدمه للأمام. يصرخ ياااا، لأنه ضبط نفسه لم يفهم. يجري لــلحاق بهــم. العصــا تعرقله. بالقرب من صف العريس الذي ضحك كثيراً على معــتوق، كان يطارد المنشدين فإذا بهم يعودون بظهورهم، حاول الارتداد فعرقلته العصــا فســقط أرضا. فزع الناس وأرجل عشرة تتقهقر لتدهسه، يتدحرج الطفل بالعصــا جانباً ويهرب من الهرس. يهب واقفاً بالعصا ليلحق بهم وهو يهز أكتافه مثلهم. يخطو للأمام بركبته ثم يمد ساقه لكامل امتدادها مثلهم. يلتف مثلهم..

- الله الله الله. أحمد حبيب الله.

وفي القصيد الثالث كان معهم تماماً إلا من بعض الهنّات. وبعد ذلك وفي كل عُرس، يدفعون هم الصبي للدخول والرقص وعصا المنشد عسل معه.

نهــار خِتان راضية. أتت الأمهات ببناتهن الصغيرات اللاتى لم يختن. منهن تَعويضــة الــتي أتت بهُوشَة. يونس سوف يقوم بختان راضية ثم ثلاث فتيات ثم عدد من الأطفال الذكور. جمعٌ كثيف في حوش العمدة. حفل كرامة عظيمة احتفالاً بابــنة العمــدة. ذبيحــة والطعام الأبيض المعتاد وغناء ورقص تقليدي ديني ثم تواشيح عسل.

طقس الختان مؤلم مرعب على الفتيات اللاتى سيختن. بكاء صراخ، لكنهن فـي الـنهاية يستسلمن ويتجاوبن مع ما يقع لهن، إلا هُوشَة التي ضربها رعب وتشـنج، تركها يونس المجبّراتي لتكون الأخيرة، فازدادت تشنجاً وهي مفشوخة السـاقين بين أيادي النساء ومنهن أمها تَعويضة. فزعها عميق وجزعها، مشرط يونس بريقه خطف عينيها، والزغاريد الكثيفة حادة الصوت زادت من كآبة ورعب اللحظات التي تكتم على قلب هُوشَة، تم قطع قمّة بظرها. صرخت وأغمى عليها.

نـزفها استمر أياما. مرضت زمن قمر كامل. وموسم الصيف كله بقيت في خصام مع أمها. يقول يونس..

-كـل موسـم تصـاب فتاة بخوف زائد، لكن البنت هُوشَة جُبنها ليس له وَصف.

وإن كان يونس ضَرب المثل في الجُبن بهُوشَة ثم نسى كل ما كان بعد عدد مـن المواسـم، فـإن هذا النهار وما جرى لها فيه، لم تنسه هُوشَة. بقيت هذه السويعات ومنظر وجوه النساء المرعبة، خاصة أمها التي تخلّت عنها ولم تحمها ممـا جرى، بل ساعدتهن في الإمساك بها حتى لا تَعض يد يونس! أذناها لم تنس صـريخ زغاريد النساء وكأنها صرخات على عمرها الذي سينتهي. بقيت الشمس الـتي عَلتها تزغلل عينيها طوال عمرها، ولم يفقها قوة ورعب وطغيان إلا بريق مشـرط يونـس المجبّراتي الذي بقيت طوال العمر تخشاه وتكرهه. وخيّل لناسها إنهـا ستنسى، وخُيّل لهُوشة نفسها أنها نَسِيت، حتى أتاها الطمث فخرّت مريضة تـرتعش. أختها كِسبانة التي أتاها الطمث من موسمين، مع أمها.. بذلتا مجهوداً ليبثا اطمئناناً في نفس هُوشَة، وليقنعاها بأن الختان أمر عادي يجب فعله في كل أنـثى خُـلِقت، لكن هُوشَة أصيبت بالتقزز، ويتجدد تقززها كلما أتاها طمثها في موعـده القمَري واستمر تقززها طوال عمرها، ولم تَخمد نيران رعب الخِتان، بل زاد أجيجهـا بعد زواجها وإنجابها وصارت مرضاً كان من أسباب تصدع زواجها ممن أحبته وأحبها.. سلاطين.

أطفـال جُدد في الموسم الجديد. ناسهم كالعادة أرهقوا الشيخ صَلاتو إلحاحاً عليهم ليرسلوا الأولاد إلى الكُتّاب. يؤكد لهم أن همّه ليس أخذ المقابل من حصاد زراعاتهم خاصة البلح، بل لأن الإسلام يحض على العلم، وفك الخط أمر في صالح

القبيلة لأهميته. وفي هذا الموسم أقسم هاشم الكيد بأنها المرّة الأخيرة التي يوافق فيهــا على إرسال ابنته بجيوَة إلى الكُتّاب. أما سَليمتو فبخله يأمره بمنع كِسبانة، يكفيها ما حصّلت من علم ويكفينا تكلفة تعليم هُوشَة الصغيرة، لكن تَعويضة تصر، فابنــتها هــي الأقرب قرابة إلى سِسِّي ابن العمدة، وهي الأنسب عمراً إليه. إذن يجب بقاء البنت حيث يبقى سِسِّي، علّ وعسى تلتقطه زوجاً.

من أخذت الأنظار تماماً، الطفلة راضية بنت نَبْرة. أخذت لواء جمال الوجه مــن هُوشَة التي سبقتها، ومع الأيام كانت هي الواضحة رغم صغرها بين البنات كلهن. فهي قرة عين سلاطين الذي أسبغ عليها حمايته ورعايته. ليست فقط ابنة عمته، بل أخته تماماً كما يقول. فهو يعيش معها منذ مولدها.

هُوشَــة، مكانتها في قلب سلاطين يلاحظها الجميع، خاصة الفتيات الكبار، وهــذا يضــايق بجيــوَة وكِسبانة. سلاطين يميل إلى تلك الطفلة الأصغر منهما، بوجهها الوسيم خاصة غمّازتين تتجسدان عندما تبتسم هُوشَة ابتسامتها الخفيفة. الطفلة النحيفة تغاران منها، حتى كِسبانة أختها الكبيرة والوحيدة تغار منها غيرة شديدة. تتعمد ضرب هُوشَة لأقل خطأ يبدر منها أو بدون خطأ أصلاً، فكِسبانة مثل بجيــوَة، تــرغب في سلاطين أقوى الصبيان وأبرزهم شخصية. لا تأبه بإيحاءات أمهــا بــأن تتقرب من سِسِّي، فسِسِّي لا يملك ما يُعجب الفتيات. أما فوزية ذات الــدلال، والــتي أثقــلت نفسها بالقرط الذهبي الثقيل والخزام العريض في أنفها، فأنوثــتها تــزداد أريجاً ولا ينافسها تفجر جسد بجيوَة ولا وسامة وجهي هُوشَة وراضية، وهي مستمرة في الوله بتاج ذي الصوت الشجي.

بجيوَة التي لايبعد سلاطين عن عقلها وتحط عليه آمالاً، لا تعلم لماذا تشعر بــالخجل من صوفاني! حين تنطلق في الضحك واللعب ثم تجد صوفاني على قُرب تــبهت وتهمد قليلاً. حين تحاول تشخيص دور الفتاة الناضجة وتتدلل دلالاً أنثوياً مع سلاطين وتجد صوفاني من بُعد ينظر إليها في عتاب، ترتد إلى طبيعتها كفتاة صــغيرة وهي في حَرج بالغ منه. وصوفاني يعاملها بنبل مثلها مثل غيرها. لكنه يهــتم بها فعلاً. لا يفرض نفسه عليها، بل يتعمد البعد عن اللعب معها. رقيق في حركته ليّن في كلماته، لا يخيف أحداً ولا يؤذي أحداً، لكنها تخجل منه، ويشوبها نوع من الضيق أن عينيه الآسرتين ترتاحان عند الفتاة بهيئة، الأصغر منها والتي أتت مستجدة! رغم ميلها لسلاطين، لا تفكر بجيوَة في صوفاني كحبيب ولا كزوج.

أتت مستجدة! رغم ميلها لسلاطين، لا تفكر بجيوَة في صوفاني كحبيب ولا كزوج. ظنت بينها وبين نفسها أنها ترتاح لصوفاني لأنه يذكرها بأخيها سلامة الذي هرب من قسوة أبيهما، والفرق في الشكل بين سلامة وصوفاني فرق شاسع.

راضــية في مشاوير المرواح والإياب، دائماً وسط سلاطين وسِسِّي وأولوا، وســط عــزوة قويــة. يكفيهــا سلاطين، ويكفيها أنها ابنة العمدة. ولذلك أحياناً يــنادونها راضــية عمــدة. في الأيام الأولى، تفرغ سلاطين لها تماماً فلم تحس بالهيــبة من الكتّاب. لم يستطع معتوق الاقتراب منها. وفي يوم من أيام الكتّاب، وهــي جالسة وسط البنات الصغيرات ولم يأت الشيخ بعد، وجدت معتوق من بعيد يــنظر إليهــا، ابتســمت له، قامت وجلست بجواره، وقبل أن تتحادث معه أتاها ســلاطين ووقف قبالتها ينظر إليها شذراً، ثم أولوا. بحثت عن سِسِّي، لم تجده. قامت وعادت إلى مكانها وسط أترابها. معتوق أطرق إلى الأرض يداعب الحصير تحته.

فــي موسم انضمام راضية، أتت إلى الكتّاب عجوز تمتطي حماراً. أجلست أمامها صبياً وخلفها صبية. عند نخلة صَلاتو المنتصبة في الساحة الصغيرة أمام مبنى الكتّاب الملحق بدار الشيخ، أنزلت حفيديها اليتيمين ثم هبطت هي. تشتد في التوصــية عــليهما لأنهما يتمين ثم تبكى قليلاً فيطمئنها الشيخ، تنسى أنها كانت تــبكى فتضــحك معه عندما يداعبها. ثم تعود إلى البكاء في يسر وسهولة وهي توصي على حفيديها.

بعــد انتهاء اليوم الدراسي، كانت العجوز تنتظر خارج الكتّاب مع حمارها. تعود بحفيديها مصطفى وبهيتّة إلى نجع المنحنى. من شدّة خوفها على الصغيرين كان منعها مصطفى من الالتحاق بالكتّاب حتى تأخر عن أترابه. وكل يوم لا يفوتها أن تأتى بهما وتعود. الطفلان يرتديان المراكيب خوفاً عليهما من لدغات العقارب. فصــار الــتلاميذ لبســو المراكيب خمسة وسط جمع من الحفاة، أولوا ومصطفى وبهيــتَة خيشة. ثم سِسِّي وراضية. وبعدهم سلاطين الذي ألحّت عَمّته نَبْرة كثيراً على زوجها العمدة، ليسمح لها بإحضار مركوب لابن أخيها، ويمنعان عنه حزنه الواضح على وجهه. وكان ارتداء الصغار للمراكيب بدعة جديدة لم تألفها القرية. فحــتى الكبار لايأبهون بارتداء المركوب كثيراً. الرمال مفروشة على أغلب أرض

القرية والقرى كلها وما بين القري، صفراء نقية. والأرض الزراعية لن يعمل بها فلاح يرتدي مركوباً.

ولا تنسى خيشة العجوز مداعبة الطفل فيّاج كلما أتت إلى الكتّاب، تُقبّله وتوصيه على بهيتَة، إنه أصلاً من نجع المنحنى، ومن صلب عائلتهم، رغم انتقال أبيه مُهدي إلى نجع أورك، النجع الرئيسي والذي يساعده على فرض تجارته خاصة أن به الميناء الرئيسي. وليدخل مُهدي النجع بسلاسة اتخذ من ديوانة فتاة نجع أورك زوجة له. وفيّاج بن مهدي هذا، هو أمل خيشة أن يتزوج يوماً من بهيتَة فيكون أبناء بهيتَة يحملون نفس اسم العائلة، فلا ينقطع فرع أسرتها المبتلي بموت أفراده مبكراً والمهدد بالضياع من شجرة القبيلة كليا.

حكاية خيشـــة

اسـمها سـالمة، وعـندما كانت شابة وضرب القرية وباء السخونة وفتك بالكـثير مـن ناسـها، أثقل ملك الموت على إسْهاج النجار وزوجه هانم مفكوكة فالتهم طفليهما، وأثقل أكثر على عائلة الولي جوش الكبير فأكل كل أبنائه، وكذلك بعائـلة سـالمة فعـل. لكنه كان عند سالمة أثقل كثيراً وأحد منجلاً، فأكل ولديها وإخوتهـا وخـتم بوالديها. أما هي فقد كُتبت لها الحياة. ولئن كان الولي جوش الكـبير قد تقبل المأساة في رضاء بالقضاء والقدر، رغم آلامه وثوراته الداخلية والـتي كـان يكتمها بصعوبة، فإن سالمة التي كانت أصغر إخوتها، جزعت تماماً ورفضت قدر السماء حتى بعدما شبت، فأنهكها القضاء.

أتى القـرية هاشـم الصعيدي شاباً جلداً، كانت سالمة حاملا. قال لها سَمِّي مولـودك باسـم قـبيح، نفعل ذلك في بلادنا فيعيش الأطفال. أنجبت طفلاً فسمّته خيشة بناء على اقتراح هاشم. عاش، فمات زوجها، وزوجها الذي مات مبكراً كان ابن عمها وابن خالتها. زوّجت ابنها خيشة وعمره أقل من خمسة عشر فيضاناً. أنجب مصطفى وبعده بهيَّة، ثم مات وأعقبته زوجته.

المـرأة ينادونها باسمها، لكن هاشم الصعيدي الذي تولى زراعة أرضها لا يسـتطيع مناداة امرأة باسمها، فليس الأمر هكذا في قراه. يناديها وهو يعمل في أرضـها بصوته العالي بأم خيشة، التصق بها الاسم لغرابته، صار اسمها خيشة. ترك ناس القرية اسم سالمة وتمسكوا باسم خيشة لغرابته وتفرّده! ورث حفيداها نفس الاسم، فصارا مصطفى خيشة وبهيَّة خيشة. هما نور عينيها، ولأن الموت ابتـلع كـل أحبابها أولاً بأول، أصبحت تخاف على حفيديها خوفاً مَرَضياً، تخشى عـليهما مـن نسمة الشمال أن تضربهما. لا تطيق أن يبتعدا عن عينيها. الموت رعـبها الدائم الجاثم على قلبها. أطفال القرية عرفوا ذلك فيها. يعابثونها.. يقول لها أحدهم في هلع طفولي ساذج مصطنع..

-خيشة هووي، مصطفى يسبح في النيل، يريد العبور إلى الضفة الشرقية.

تولول خيشة، تجرى هابطة إلى الضفة وهي تنادي..

- مصطفى.. مصطفى هووي.

يكون حفيدها بعيداً عن النهر.

- خيشة هووي. بهيتَة تصطاد العقرب في أرض العقارب.

تولول خيشة. تجرى مخترقة خور المنحنى ثم نجع نجيبيّة لتصل إلى خور السبحر ومنه إلى نجع أورّك. تجرى فيه ولا يعمل عقلها ويخبرها بأنها لو ركبت حماراً سوف تصل أسرع. وإن لم يوقفها أحدهم ويعطيها ما تركبه تستمر وهي العجوز في الهرولة حتى تهبط خور أورّك وتصعد إلى أرض العقارب غزيرة العقارب والثعابين وهي تنادي..

- بهيتَة. بهيتَة هووي.

وقد امتلأت عرقاً تحت الشمس القاسية. فلا تجد شيئا. تطمئن أن حفيدتها ليست هنا! تدرك بعدها أن خطر الموت بلدغات العقارب صار يحيط بها هي، تصرخ وتبتعد خشية الموت، وخشيتها من الموت.. هو تركها لحفيديها ولا راعي لهما.

ورغم كثرة مقالب الأطفال، فإن خوفها على حفيديها من عدوها ملك الموت الذي يصر على ملاحقتها ولم يخطفها هي، بل خطف ناسها من حولها! خوفها يجبرها على تصديق أكاذيب الأشقياء، حتى ثارت عائلات الأطفال على أطفالهم وحذروهم وضربوهم حتى امتنعوا عن تدبير المقالب لخيشة العجوز المرعوبة.

أحسنت إلى الصعيدي هاشم الذي حَضَرَ وزوجها على فراش الموت. أعطت هاشماً الأرض يزرعها وله الثلث من الحصاد. كان هاشم القوي أميناً. ولأنه فلاح يعي شئون الفلاحة، وغريب يريد إثبات مقدرته، أعطاها محصولاً وفيراً وحفر لها بئراً فبنى عليه إسْهاج النجار ساقية سُمّيت ساقية خيشة. أصرّت خيشة أن تكون قطعة الخشب التي تصدر الصوت المميّز لكل ساقية، ذات صوتٍ حزينٍ أسيان. نفذ لها إسْهاج رغبتها، فصارت ساقية خيشة من بين كل سواقي القرية تصدر عديداً حزيناً حين تدار!

هاشم الغريب غريب الأطوار، ما كان يبتسم لامرأة سوى خيشة. أطلقت عليه تَعويضة لِسانين اسم هاشم الكيد. كانت خيشة الوحيدة التي يحادثها ببساطة .ولما زوجوه من جارية ثقيلة السواد بعد إعتاقها، كانت خيشة تزور زوجته وتعلمها إعداد المأكولات النوبية والحديث بلغة النوب.تماماً كما علّمت هاشم الكثير. ثم أخذت ولديه سلامة ويجيوَة عندها خلال أزمة هاشم بعد وفاة زوجته المفاجئ، ولتبعدهما عن قسوة أبيهما المكلوم.

خيشة كانت تلوم نفسها، تظن أن قربها من هاشم الكيد حتى صارا وكأنهما أخ وأخت، جعل ملاك الموت يأخذ زوجته الصغيرة. ثم صرحت بذلك لهاشم لكنه لم يأبه بظنونها.واصلت الذهاب إلى بيت هاشم في نجع أورِّك حيث الأرض الجديدة التي استصلحها هاشم لنفسه. تطبخ له وتغسل ملابسه وتدير شئون بيته، وهو الرجل الغريب الغامض وليس من سلالتهم.

صار أصعب أمر عليها. تَقدُّم مصطفى في دروسه تقدماً سريعاً ليعَوض المواسم التي ضاعت عليه، حتى قال الشيخ صَلاتو إنه أذكى تلميذ عنده. وإنه تفوق حتى على بلال حفيده النابه نفسه.أصر مصطفى بعد ذلك على استكمال دراسته في مدرسة مدينة سُوين مع بلال. بكت وحسّت الرمال على رأسها رفضاً لرحيله بعيدا. أصلا هي أرسلته مع أخته إلى الكُتّاب تحت إلحاحه الشديد والحاح صَلاتو. لم تكن تظن أنه سيتفوق كل هذا التفوق، لم تدرك حدّة ذكائه. أملها فيه محصور في مطلب واحد. .زواج سريع مبكر وإنجاب ذرية من الذكور تحفظ الاسم الفرعي لعائلتها فيستمر الاسم ويقوى ليكون عائلة كبيرة قائمة بذاتها مثلها مثل بقية الفروع التي تكاثفت. لا يهمها حتى بقاء مصطفى أمي لا يفك الخط، فما أهمية ذلك؟ وهل الأمي لا يستطيع الإنجاب؟ ومصطفى إن فك الخط وحفظ بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث، كل ما سيجنيه. . تأخير سن الزواج، أي تأخير الإنجاب، ليس إلا! إذن، الأمي أجدى لها وأنفع. خيشة مطلبها ولُب أمانها. . تعويض الوفيات التي كادت أن تطمس اسم العائلة.. وأن تبقى أسماء الذين ماتوا بسبب تسرع وتعجل منجل الموت البشع، تؤمن خيشة تماماً بأن من ماتوا سيتم فقدهم ويتلاشون تماماً إن لم يتذكرهم أبناؤهم وأحفادهم بتكرار أسماءهم في ذريتهم. تؤمن بما يقوله لها الشيخ صَلاتو بما أتى به الإسلام، لكن بمجرد أن يبتعد الشيخ عن أذنيها.. يعود إليها ما وقر في قلبها وذهنها وموروثها الراسخ.

ضـــغط الشـــيخ عليها لم تستمع له. لكن مصطفى رأسه صلدة. أصر وهو الصـــبي وغلبَها، وذهب أخيراً إلى مدرسة سُوين الداخلية بعيداً عنها. ولما شبّ مصـــطفى طالـــباً نجيـــباً، أصر أيضاً على استكمال تعليمه في أزهر بر مصر! لم تســـتطع كـــبح جماحه وهو الشاب وهي العجوز الآفلة. صار يغيب عنها مواسماً كاملة. فكانت لا تنام الليل ولا ترتاح في النهار رعباً من مكروه يصيبه، رعباً من منجل الموت المتسرع، عدوها اللدود أن يتبعه حيث هو فيغتاله هناك بعيداً عنها. كل صباح وكل مساء ومصطفى في القاهرة، كانت خيشة تقف على شاطئ النيل الممـــتد ووجههـــا ناحيـــة الشمال، ناظرة لبعيد لعلّها تتنسم ريح حفيدها الطموح القاسي الغائب. ومن وقفتها هذه، وهي تنظر إلى البعيد شاردة حيث الأفق، جاءها منجل الموت في صورة بشعة يسبح في هدوء فيسحبها ليميتها غريقة مأكولة.

وحدهما. هكيمة ومعتوق الخير. خلع معتوق جلبابه الأزرق. جلس باللباس الداخلي. الحجاب وبه الناب مربوط في عضده الأيمن. الرباط ضاق، هكيمة تفكّه، معتوق مضطرب. ابتسمت له هَكيمة مشجّعة. .

- كل مرّة يركبك الخوف يامعتوق! أتخاف مني يابني!

- لـــ.. لا.

- ألا تتذكر شيئاً عن هذا الناب؟

- لـــ.. لا.

- ولا تتذكر أي شيء عن ذئبة كانت طيبة معك؟

يبتسم معتوق خجلا..

- لـــ.. لا.

حلّت هَكيمة رباط الحجاب. وضعته في كفّها. نظرت إليه تستأذن منه. حرك رأســه موافقــاً. حــلّت هَكيمة لفافة الحجاب الجلدية. الناب العاجي يبرق. قبّلت هَكيمــة الرق الجلدي، آية قرآنية غير واضحة. كتبها آبدون عليه وحفر اسم الله عــلى الناب الصلّب. قربته من رأسها واقترب منها معتوق برأسه. ينظران إلى الناب في دهشة وتساؤل.

أعادته إلى قطعة الجلد وربطته على ذراع معتوق.

آبدون أرضه تعطيه، مواشيه جيدة لحماً وشحماً ولبناً ونسلاً. صوامع بلحه فــي حوش البيت ازدادت وامتلأت. زوجته هَكيمة جمالها يطربه ويكفيه. اشترى لها مزيداً من الذهب، ولنفسه ينتقي أرق وأغلى الجلابيب وأزهى العمائم. وهَكيمة بعــد غسيلها لملابسه يجب أن تكون آخر شطفه لها من الماء المُصفى من أسفل الزير في إناء مخصوص، أو من مياه بئر لم يعكرها أحد منذ زمن! مركوبه دائماً جديــد لامــع شديد الحمرة. في الشتاء يرتدي عباءة بلون القهوة المضاف إليها

القـليل من اللبن، حوافها مطرّزة بطرز ذهبية دقيقة رقيقة. فاشتهر بها وأخذ في تقـليده عـدد مـن الرجال في عدد من القرى. سعادته ملأت قلبه وظهرت على قسمات وجهه فصار أكثر وضاءة مما كان، كأنه يعوض حسرة أبيه موسى الذي رحـل عن القبيلة كظيماً محسوراً. آبدون تساعده وتشجعه هكيمة على أن يكون زيـنة الـرجال هـو وابـنها ومعتوقهما. يطاوعها أولوا فهو ابن أبيه في التيه والتعاجب. معتوق لا يهتم إلا بأن يكون جلبابه نظيفاً، ومازال رافضاً ارتداء طاقية ملونة مزركشة مثل الأطفال. يفضل كونه عاري الرأس عاري القدمين.

آبـدون فـي سعادته الوافرة، لم يعد حماره العالي يعلو بما يكفي ويوازي العلو والزهو اللذين يبتغيهما آبدون. ابتاع جملاً أطلق عليه اسم السعيد. فرح به كطفـل وزيّـنه بسرج جميل. صار يمتطيه في كل تحركاته مهما كانت بسيطة. لا يحمـل عليه أياً من محاصيله. يرفض أن يعيره لأحد، من يريد ركوبة من عنده، يعطيه الحمارة القديمة أو حتى الحمار العالي. لا يهم. أما الجمل السعيد. ـ لا.

وافقـت هكيمـة مرة واحدة أن تمتطيه بعد رجاء شهور من آبدون ـ وبعيداً عـن أعين الناس، وفي وقت كان معتوق وأولوا بعيدين عن البيت، صعدت على الجمـل السـعيد لتركب خلف زوجها وتشبثت بوسطه تدعو الله بالستر. وما كاد الجمل يجرجر ويرغو ويبدأ في النهوض، وهكيمة تجد جسدها يميل بعنف للأمام والخلف حتى ولولت وصرخت وأجبرت آبدون أن يجعل جمله السعيد يبرك أرضا. هـبطت وهـي تمسك دموعها وتتفل في عبّها من الخضّة. وتحمد الله أن معتوقا ليس موجوداً وإلا لكان ضحك عليها طوال اليوم.

أولـوا يركـبه تحـت إلحـاح آبدون كل حين وحين. معتوق يحب السعيد ويمـتطيه وحـده. لكـن لا يركبه كثيراً ويفضل عليه الحمارة العجوز. يعرف أن آبدون يريد السعيد له وحده.

أتى الفيضـان، ارتفع منسوب مياه النيل واحتارت الأعين فيه. ألوانه تتبدل يوماً بعد يوم ضاربة إلى الحمرة القانية بعد اللون البني. وقبل صعود المياه حتى تغطـي جزيـرة أصلاد، أتى ناس القرية بحيواناتهم المتروكة في الجزيرة. كانت حيوانات آبدون أكثر كثافة ولحماً وشحماً من غيرها، ومثل الموسم الذي المضي، أخذت الأنظار وجلبت الغبطة من البعض والحسد من البعض. صعدت المياه وكادت

تغطـــي جزيـــرة تايي الصخرية. ناس القرية تحت لهيب الشمس المتحدية، أتموا حصـــد زراعـــاتهم وتجميع جذوع النخيل الساقطة وأفرع الأشجار الميتة لاتخاذها وقوداً لمواقدهم.

غمـــرت المياه شريط الزرع فكونت بحيرة واسعة طولية شبه راكدة تطفو عـــليها الأعشاب وبعض الحشائش والأغصان. الأطفال بنين وبنات قادرون على الســـباحة وبينهم سباحون مهرة. جمعوا أشطار الجذوع النخيلية وربطوها بحبال الـــليف فصنعوا أطوافهم. أخذوا جريد النخيل مجاديفاً يشقون البحيرة المؤقته في كـــل اتجاه على وعد لأمهاتهم ألا يقتربوا بأطوافهم البسيطة من المجرى الرئيسي حتى لا يأخذهم شمالاً مع دواماته وأمواجه ويسقطهم ولن يستطيع أحد أن ينقذهم أبدا.

طوف واسع، سلاطين وأتباعه عليه. بلال وصوفاني وصديقان لهما على طـــوف وحدهـــم. البنات بجيوَة وكِسبانة وبُرون وحتى فُوزية على طوف. فرصة لـــتاج أن يغـــني بصوته الرخيم. الصوت ينساب على محيط المياه يشف ويكتسب المـــزيد مـــن الحلاوة والقوة ثم يعود صداه من الجبل الشرقي وقد تحلى بأعماق جديـــدة. يغـــني الأغاني الشهيرة التي تشبّب بالحبيبة السمراء السمهرية الجسد، وأرومـــة أصلها، وأمله أن يجمعه الله بها يوما عريساً وعروسة. البنات يصفقن ويزغردن تشجيعاً ونشوة، خاصة فُوزية الولهانة بتاج.

بـــرز طـــوف جديـــد عليه معتوق الخير، يجدف ومعه راضية. يشق مياه البحيرة فرحاً ولا يبالي بغضب سلاطين وأولوا وسِيِّي. بل تمادى في إعلان فرحه وأنشد بصوته المضغم القوي بعض مديح تعلمه من عسل.

صلاةُ اللهِ رَبّـــي

على طهَ المُرَبي

صـــار المـــرح الطفولـــي حماســـة وتحدياً وضحكاً وعبوساً، براءة وخبثاً. واختـــلطت الأصـــوات يضـــمها غرين الفطرة وجمر الأحقاد، لتصل للكبار الذين يستمعون لها فرحين بهم موقنين بأنهم أطفال ملائكة!

تدور الأيام بالأطفال سريعاً، وما يكون خلال مراحل الطفولة والصبا، ينقش بعمــق فــي الــنفوس. نقــوش تدوم طويلاً مثل نقوش الفراعين في معابدهم، والعواطف المتباينة لا تجد متسعاً من الأنفس للاختيار فتصب نارها ونورها على أجيال القبيلة القليلة العدد نسبيا.

فُوزية بنت إسْهاج النجار، من طفولتها عميقة الإحساس بأنوثتها. تتعاجب بنفســها ومــن قــبل أن تجيــئها أحاسيس المراهقة، لم تنس يوماً دَهان شعرها وجســدها. جلابيــبها التحتيّة الزاهية تُرى من تحت جلباب الجرجار ذي القماش الشفاف الخفيف. يساعدها على ذلك البذخ، غنى أبيها النجار وتدليله هو وزوجته لهــا. أليســت الابنة الوحيدة التي بقيت حيّة من أولاده الذين أطاحت بهم أيام الســخونة! ومــن كل الصبيان حولها لم يلفت نظرها إلا تاج. وتاج فقير. عادي المظهــر ضــئيل وتابع لسلاطين. لكن هو الذي أعجبت به فُوزية. عندما يضرب بأصــابعه عــلى أي وعاء أو صفيحة، أو حتى على فخذيه، ويغني أشهر الأغاني والمواويل، وتقترب منه وتنظر إلى وجهه المعبّر عما يقوله لسانه ووجدانه، تهيم بأغانيــه وتحــس أن تلك الأغاني لها، خاصة المواويل القديمة التي تتحدث عن العشــق ونــاره. تجَسد نفسها بطلة لكل ما يغنيه تاج. ويوماً بعد يوم، أحب تاج إعجــاب فُوزية به، ولما مرت بهما المواسم وصارا في مواسم المراهقة، أصبح معروفاً لأترابهما أنهما قريبان من بعضهما. لا تأبه بسلاطين حين يبدي لها سراً تأففــه من اهتمامها بتاج، سلاطين لا يريد لأي واحد من زملائه أن يستولي على اهــتمام أي واحــدة حتى إن لم يكن يريدها. فُوزية تهدي من تميل إليه الطواقي علــناً والجلابيــب سراً. وفي سنه الصغيرة هذه، ألف العديد من الألحان بفطرته فيــردد خلفه زملاؤه. وخلال إحدى راحات القيلولة في الكُتّاب.. تدفق من لسانه نغمٌ بدون كلام صار شهيراً بينهم لمواسم طويلة..

كِشِبْ كِشِنْ.. كَيْ كَيْ كَيْ
كِشبْ كِشِنْ..
كَيْ
كِشِبْ كِشِنْ.. كَيْ كَيْ كَيْ
كِشِبْ كِشِنْ..
كَيْ

ولمّا اشتدت نزعة الفن عند تاج وتحرّق شوقاً إلى آلة طنبورة يعزف عليه ويغـنـي، أتته بثمنها سراً، فاشترى آلة طنبورة وتعلم عليها سريعاً وغنى لها أول أغنيات من تأليفه. واحتفظت فوزية له بهذه الطنبورة الأولى كذكرى، بعد مواسم عديـدة وقـد صـار لهمـا بنتان، ثم تدهور تاج وصار مدمناً للحشيش والخمر والسـفوف، وسـقط فـي الفقر من بعد الغنى، باع هذه الطنبورة. صُدمت فوزية وتبدّلت تماماً، كرهته وأحبت الذي كان يحبها كاتماً حبّه قدر استطاعته.

طارت فوزية فرحاً عند سماع أول أغنية غنّاها لها، تتمنى العديد من أغاني العشق باسمها فينتشر التشبيب وتصبح مشهورة بين عشائرها مثل الجميلة هائم أبسـامبَليّة جميلة قرية أبو سمبل، وآشا آشري جميلة قرية توماس. تلهفها على أغـاني تـاج أعماهـا عن محب حقيقي لها. . بلال صَلاتو. بلال لإحساسه بذاته ورجولـته ولأنه حفيد الشيخ صَلاتو، امتنع عن منافسه تاج الخائب في دروسه، والذي لا يمضي يوم دراسي واحد إلا ويضربه الشيخ صَلاتو لبطء فهمه الواضح كـرهاً فـي الدروس واستهتاراً. وأحياناً يضربه لقذارته سواء في ملبسه أو في كراساته. يستنكف بلال منافسة تاج. وبلال صَلاتو محب للقراءة خاصة في الأدب والـتاريخ وتراجم المشاهير ويتشوق دائماً للاستماع لحكايات الكبار الذين عاشوا فـي حَـلفا وسُـوين والقاهـرة على وجه الخصوص مثل آبدون. ليحكوا له عن شوارعها وجوامعها الضخمة، وبيوتها المبنية فوق بعضها!

بـلال ذو الأفـق المتسع والمتعالي على الصغائر، ارتاحت له راضية وهي الـتي تكـاد أن تكـون طفلة. تدعي أنها تحب سماع حكاياته، لكن بلال قلبه عند فوزية!

وتستمر سخرية الدنيا بهم، فكما تُعجب راضية ببلال وبلال بفوزية وفوزية بتاج، فإن أولوا يتمنى راضية، وراضية تنفر منه تماما. أولوا في مراهقته ومطلع شـبابه لـم يحـبها، لكن راضية هي أجمل الفتيات وأغناهن وبنت العمدة ذاته، الأفضل فيهن كلهن، ولهذه الأسباب أولوا يريدها ويقول لنفسه أنه يحبها، ومتيقن أنه الأحق بها. نفسه في الخفاء مضعضعة، لكنه وسط أترابه والناس كلهم، مثله

مـــثل سلاطين ابن خاله، يمتلئ زهواً بنفسه ولا يقل عن سلاطين اقتناعاً بأنه نال أقــل ممــا يستحق. ثم. . أليست راضية أيضاً ابنة خالته؟ يغار من عدوه معتوق حينما يسير معها ويلاعبها. يغار من بلال حينما كبرت راضية قليلاً وصارت تسير معــه وتجــلس بجواره لتستمع له. لكن.. من يضرب له معتوق ومن يضرب له بلال؟ لا أحد. ولا حتى سلاطين.

كِســبانة تــريد سلاطين. لكنها تعلم أن سلاطين يفضّل اللعب المتلاحم مع بجيوَة. ويميل إلى أختها الضئيلة هُوشَة. وكِسبانة لا تملك إلا صدراً ناهداً وطولاً والــباقي كله لا تفخر به. اضطرت لمصارحة أمها ذات اللِسانين، فنصحتها على المكشــوف بالــتقرب من سِسّي ابن نُوري العمدة، للقرابة التي تقربها من صُلب العمــدة نفســه. ثم إن طوله من طولها. وأكدت لها أمها إن الرجال أغبياء أصلاً وبإمكان أي عاقلة لئيمة أن تطيح بأذكاهم وأقواهم.

سِسّي رغم أنه مدلل متهور قليلاً، فانه صبي طيّب بسيط التفكير. لمّا وجد أن كِســبانة تــتقرب مــنه وتشاغله بأنوثتها. أحس بفوران ما داخله فمال إليها، بدايــات ســاذجة لفــوران جنسي غامض. هي التي استحثته. وأيضاً يريد تقليد سلاطين فتكون له فتاة تتودد إليه ويتودد إليها.

عندما قالت راضية لهُوشَة..

- سلاطين يهتم بك، احترسي إنه ابن خالي، وأخي في الرضاع وأنا أعرفه تماماً. فقد يفعل معك قلّة الأدب.

ضحكت هُوشَة..

- إنه لا يفعل هذا معي ولن يفعل.. سيتزوجني.

أمــا الــذي أتى عبداً وصار معتوق، فهو شاذ عنهم بثقل سواد لونه وثقل لسانه المبهم. سذاجته وطيبته يفهمها ناس القرية على أنها بلاهة، وأنه ذا صلة بقــوى الغيــب الطيــبة. ينظر إلى كِسبانة نظرات إعجاب غريبة لم يفهمها أحد ويقدرها حق قدرها، خاصة أنها أكبر منه وتحتقره. وللاختلاف البيّــن بينهما. لم يهتم أحد في البداية باهتمام معتوق بكِسبانة، ولا كِسبانة نفسها اهتمت.

أمرُ الله الأشرم أقبح أطفال القرية، بشرمته المنفرة وعرجته وضآلة جسده وفقره المدقع، ولأنه ابن رجل من طلق الصحراء، فنسبه ليس من عصب القبيلة مــن ناحيــة أبيــه، وهذا أضعف مكانته أكثر،لكن يحميه قليلاً أن أمه من سلالة القبيــلة. البنات لا يحببن الجلوس معه، حتى أن فوزية تشعر بالغثيان من منظر لثته البشع، وفوزية تعلن ذلك بقسوة أمامه. أما هو، فلأنه معجب بسلاطين ويحب مـــا يحــبه سلاطين، فقد أحب هُوشَة أكثر مما كان يحبها أصلاً، تقمص شخصية ســـلاطين المحب لهُوشَة، وساعده على ذلك أنها الوحيدة التي لم تكن تؤذيه وهو مقيم في بيت أبيها، خاله سَليمتو.

هُوشَـــة تحـــس بأمرُ الله يستنجد بها، يلوذ بها أن يجد من تحدثه بدون أن تـــتقزز منه أو تتعالى عليه أو تشفق. أمله أن تعامله هُوشَة بحنان يفتقده. وهي خاصـــة بعد تخطيها مرحلة الطفولة ولم تعد تخشى أمها وأختها خشيتها المرعبة السابقة، صارت تقترب منه علناً.

ويومـــاً كـــانت الصغيرات وحدهن يلعبن على الشاطئ لعبة زفاف العريس والعروســـة، وبـــدون ذكـــور. جعلوا راضية العروس ثم غيرها. جاء الدور على هُوشَـــة، فظهر أمرُ الله الأشرم الذي كان يراقبهن بدون أن يشعرن به. ظهر لما أتى الـــدور عـــليها.. عـــلى هُوشَة. قادم إليهن بعرجته وشرمته، ضحكت فتاة وصاحت..

- العريس وصل.

صاحت الباقيات فرحات لإتمام مهزلة ضاحكة على الأشرم.

وافقـــت هُوشَة على إلحاح صويحباتها الصاخب حتى لا تحرج الأشرم الذي يـــنظر إليهـــا نظـــرات رجاء. أمرُ الله هو المسكين الذي يستنزفها شفقة كأنها أم صـــغيرة له، وهو الأكبر منها سناً! تمت لعبة الزواج بينهما. قامت إحداهن بدور الشيخ صَلاتو مأذون القرية.وقالت أخرى للأشرم..

- هُوشَة زوجتك على سنة الله ورسوله.

وزفوهمـــا إلى دغـــل نخيل كثيف وتركوهما ووقفن على بعد قريب يراقبن ويحـــددن دور كل منهما. هُوشَة لا تتكلم حتى تأخذ من الأشرم فكّ الكلام المعلوم.

يناولها نواة بلحة كرمز. فلا تحادثه حتى يغازلها ويصف جمالها.. والأشرم يتكلم في خجل، لكنه يقول الكثير مستعيناً بأغاني الحب الشهيرة المتداولة والتي أمدته بالكثير من الكلام المعبر عن شوقه حقيقة. وهُوشَة تسمع وهي خجلة أكثر منه، وسعيدة لسعادته. لكن عندما هجمت عليهما البنات مصرّات أن يمثلا الواقعة. تجمد الأشرم رعباً وانسحبت هُوشَة رافضة.

كان زفافهما لعباً، لعب أطفال، لكن كان لهذا الزفاف الطفولي في قلب الأشرم وقع كبير لم ينسه أبدا. بل تحوّل مع الأيام حين أتت أزمته الكبرَى مع سلاطين وفقد توازنه، تحوّل في نفسه إلى الزفاف الحق والأكثر أحقية من زفاف هُوشَة لسلاطين. رسخ هذا الزفاف وصار زفافاً صحيحاً مُلزماً في وجدانه، مما كان له أثر خطير عليه وعلى هُوشَة. حُفر هذا الزفاف الساذج في قلب أمرُ الله الأشرم حَفراً فندمت هُوشَة على هذا الزفاف ندماً حسيراً حين لا ينفع الندم.

يماثل سلاطين جسداً لكن لا يماثله في القوة ولا في الذكاء ولا في اللون. لم يهتم مطلقاً بالفتيات، بل يتعالى عن مخالطتهن حتى بلغ المراهقة فغرق عشقاً في جسد بجيوَة. أصبحت مبتغاه. أما بجيوَة فتلاعبه وتعذبه أياماً بالصد والإهانة ويوماً بالرضاء، لكنه لم يأخذ منها شيئاً إلا عندما تزوجها، فتجرع منها الإهانات والفضائح وبسببها ماتت أمه هَربية غاضبة عليه. فكانت بجيوَة لعنة عليه فكرهها بعد ذلك كرهاً عنيفاً. إنه الطفل الداكن السواد فيقارب معتوق سواداً، ساذج التفكير.. سَيِّد هَربية أخو الأشرم في الرضاعة.

عندما التحق الأخوان مصطفى وبهيتَة خيشة بالكتّاب، كانا صبيين. مصطفى بإصراره وذكائه وعناده تقدم سريعاً حتى زامل بلالاً وصار معه كفرسي رهان ثم سبقه. لم يهتم بالفتيات. حتى تزوج في القاهرة من بناتها. أمّا أخته بهيتَة، فلم تمكث بالكُتّاب إلا موسمين وابتعدت عن الكتاب تحت إصرار جدتها خيشة بعد موت بُرون بسم العقرب تحت نخلة صَلاتو. لم تتعلم إلا القليل، لكن في هذين الموسمين، تعلقت أكثر بصوفاني ابن نجعها وتعلق بها أكثر. وتطورت علاقتهما إلى حب كبير ثم حرمان ظالم عليهما معا، بقي على عزوبيته من أجلها وهي من أجل جدتها خيشة القتيلة تزوجت عجوزاً فانياً، ثم كانت تلك الليلة المأساوية التي جمعتهما سوياً في سُوين. حطم الحرمان صمودهما فغرقا في ليلة جنسية محرقة.

فــي حوش البيت لأن الجو شديد الحرارة، الأطفال متكأكئين ليسوا صفوفاً وليســوا دائــرة. كلهم ينظرون إلى أم لِسانين طويلة القامة وقد انتهت من تناول لقيمــات حــتى تســتطيع تحمل المجهود الذي ستقوم به، أتت على سلطانية لبن مــترعة حتى حافتها مع بلحات لتقاوم ببركة اللبن وقوة الجسد دخول المخلوقات غير المرئية فيها ليؤذوها بسبب إصرارها على الحكي السيء عنهم!

العديد من النسوة أيضاً تجمعن على بعد بسيط من الأطفال. ولم يخلُ الفناء مــن بعض رجال جلسوا على بعد وكأنهم يتحاورون في أمر حتى لا تظن النساء أنهــم أيضاً يريدون الاستماع إلى حكاوي الأطفال الساذجة التي تحكيها تَعويضة، فهــم ليســوا ناقصــي عقل مثل الأطفال والنساء، لكنهم حقيقة ينتشون بحكايات تَعويضـــة والنساء يعرفن ذلك. لكن حجّة الرجال أنهم ينتظرون بعد نهاية حكايات تَعويضـــة ليلاً ليقوموا بتوصيل الأطفال وأمهاتهم إلى بيوتهم منيرين لهم الطريق بالفوانيس المضاءة.

لــم تمــض فترة قصيرة حتى غاب ضوء الغروب تماماً واطمأنت تَعويضة عــلى ذلك وتأكدت من أكثر من امرأة ألا ضوء نهار تبقى في القرية وأن الظلام حلّ فعلاً. دقائق واندمجت تَعويضة في الحكي.من حكاية لحكاية. لكنها كانت أشد اندماجــاً فــي حكاية فانالاندي. تلك الجِنيّة التي تعشق مكاناً بعينه على الشاطئ شمال القرية.حكت للأطفال ولكل من يسمع عن مدى طولها البائن وشعرها الناعم الطويل الطويل وثدييها الطويلين الطويلين الطويلين، حتى أنهما من الأمام يصــلان في تهدل حتى أول فخذيها ومن الخلف شعرها المنساب يصل حتى أسفل عجيــزتها. وفانالاندي في الجو الحار عندما يضايقها ثدياها، تلقي بهما خلفاً على ظهــرها فيتهدل ثدييها على وسادة شعرها التي تفصل بين لحم الثدي ولحم الظهر فتستريح فانالاندي. تصف تَعويضة وجه فانالاندي السمح وفمها الشهي ثم عينيها المائلــتين قليلاً بحيث لاهما أفقيتان ولاهما رأسيتان، وهما ما يبينان أن فانالاندي من جنس العفاريت. تحكي..

- أســمعتم عــن جدكــم الرحّالة سِيدين رحمه الله؟ كان هو أيام كان شاباً صــاحب أهــم حكايــة ممن قابلوا فانالاندي. فانالاندي ضحكت على شباب كثير وأغرقتهم أو قتلتهم مَصاً.تمصّ الناس من أنوفهم! لكنها لم تستطع مصّ سِيدين المشهور بدهائه.

تحكي وتحكي وهي تمسح عرقها ويرتفع صوتها وينخفض وتضرب بقدمها في الهواء وتلعن خبث فانالاندي وتشيد بذكاء ابن القبيلة سِيدين. وتبين كيف أن دهـاء الإنسـان أحَدّ من خبث العفاريت. وسِيدين ليس ككل الرجال الذين يملؤهم الغـباء. فهـو العليم بالأعشاب وتجبير العظام، فهو الذي علم هَمَرين كل شيء. وهـو الذي رحل جنوبا حتى مدينة جوبا، حيث الأمطار تهطل مدرارة مدة بزوغ وأفول أربعة أقمار. وسِيدين هو الذي رحل شمالاً حتى البحر المالح المستدير في سكَندَرية. وحجَ بيت الله متخذاً مركباً حتى سُوين، ومنهاعلى ظهور الجمال قاطعاً الصحراء شرقاً حتى ميناء إيساب. ثم يمتطي مركباً مهولة، على ظهرها مائة من الحجـاج، تـبحر بهـم في بحر مليء بأسماك متوحشة تستطيع أن تمضغ مركباً صـغيرا بركابه. سِيدين كان رجلاً خَبَر الدنيا وفهم ألاعيبها، ولذلك عندما فاجأته فانـالاندي فـي ليلة ظلماء، أكدّت إنها قاتلتة .وتركت له أن يختار أسلوب مقتله! فماذا كان من سِيدين؟ أمهلها حتى تُبَيّن له كيف تلقي بثدييها على ظهرها. فألقت لـه بـثدييها خلفاً. فأمهلها حتى يرى منظر الثديين من الخلف. فالتفت وأعطته ظهـرها. وهنا هجم سِيدين بسرعة على ثدييها وتلقم في فمه حلمة ثدي وامتص مـنه جـرعة لبن، انتفضت فانالاندي واقشعر جسدها ذاهلة، وقبل أن تفيق مما أوقعهـا فيه الإنسي، كان سِيدين سريع الحركة وأمسك بالثدي الآخر ورضع من حلمته جرعة أخرى. وهنا كانت فانالاندي قد تمكنت من الالتفات وكادت أن تطيح بـه بضـربة واحدة، لكنها لم تستطع فقد رضع منها. سِيدين ضحك كثيراً عليها وعـلى خجلها. لم تظهر فانالاندي مرّة أخرى لمواسم طويلة في مكانها المعلوم. رفعت سطح مياه النيل كأنها ترفع ملاءة سرير وهبطت في النهر إلى حيث أهلها على مرأى سِيدين الذي لم يتوقف عن الضحك إغاظة لها.

قـبل أن تـرتفع الشمس عالية، وتحين القيلولة بجبروتها الحارق، امتطت خيشة ركوبتها تحمل زنبيلاً مليئا. رفض حفيداها الركوب معها. أسرعا يسبقانها إلى نجع أورِّك. خيشة تصيح بهما أن يقفا ليركبا معها. مصطفى يبتعد جارياً تتبعه أخـته. وكـلما لحقـت بهما خيشة على ركوبتها، انحرف مصطفى جانباً تلاحقه بهيـتّة، تتجه خيشة بالحمار ناحيتهما، فيعود مصطفى لينحرف في اتجاه مخالف. مـرّات حـتى بلـلهما العـرق وصدرهما صار ينهج. الطفلان سعيدان بمشاغبة جدتهما. الجدة يركبها الخوف من شدة إرهاقهما. توقفت عن المطاردة ووافقت أن

جدتهما. الجدة يركبها الخوف من شدة إرهاقهما. توقفت عن المطاردة ووافقت أن يســير الطفــلان أمامها. عند خور البحر، أصرت أن يمتطيا معها الركوبة خشية العقارب والثعابين.

فــي نجع أورِّك اتجها إلى بيت هاشم الكيد وخيشة تلقي السلام على كل من تراه. لا يدعوها أحد للدخول عنده. يعرف الجميع أنها ذاهبة إلى الكيد. عند الباب هــبطت خيشــة. الطفلان دفعا الباب ودخلا مهللين. خيشة تسحب الحمار وتدخل زاعقة..

- هووي كيد. يا كيد. هاشم أنّينجا. أخي هاشم.

ما كادت تدخل حتى ظهر الكيد حاملاً الطفلين آتياً ناحيتها وهو يعرج..

- أم خيشة. أنّيسي. أختي أم خيشة.

وضــع الطفــلين. فوجــد خيشــة تعانقه بيدها الخالية. الكيد يبتسم ويداه مســترخيتان جانــبا. مــازال بعد كل هذا العمر يخجل من احتضان خيشة. رفعت خيشة يدها التي تحمل الزنبيل الثقيل..

- أيها الصعيدي الحجرى. اليوم تأكل من يدي يا قليل الأصل.

- هاها.

- تضحك يارجل! متى آخر مرّة زرت فيها أختك خيشة؟ هه؟ تكلم؟

- يا أم خيشة، الدنيا مشاغل يا حُرمة.

- حُرمة في عينك.

- هاها.

- نهايته، اليوم أنا والولدان ضيوف عندك. وجئنا بشيء من طعامنا معنا. مقابل ما سنأكله من الخبيز الذي سأخبزه أنا من دقيقك.

- بَــه بَــه بَه. بيتي كله مــن خيرك وخير المرحوم يــا أم خيشة. تكلّمي زين يا ولَيّة.

- أين بجيوَة جوليه؟

- تلعب مع صديقاتها كالعادة.

- مصــطفى، بهيــتَة، ســريعاً آتيــا بها. لكن، حذار أن تلعبا مع الأطفال وتنسيانا.

عندما جلسوا للغذاء، كان الكيد في أشد حالات انبساطه. كم يحب خيشة وأحفاد خيشة؟ يشعر معهم أنه وسط عائلته. أن له عزوة. وكل حين وسط فرحته بهم، تمر غمامة رمادية على صفحة وجهه المُحمر، وسرعان ما تشغله كلمات خيشة المحبة له وهي تسبّه وبعد كل سباب تزقزق ضحكات الأولاد. بجيوَة تحب زيارة خيشة لهما، أبوها الحجري لا يضحك إلا إذا جالسته خيشة. أبوها لا يضاحك امرأة أبداً، حتى ابنته، بل دائماً ينهرها ويرفع عليها صوته مهدداً. أبوها الحَجَري عندما يلقي عليها تحية كل صباح كأنه سيتشاجر معها. لكن مع خيشة يكون رقيقاً. تشعر أنه ناس مثل بقية الناس. وأن ملامح وجهه ممكن أن يغمرها الضحك مثل بقية الناس.

خيشة لا تترك غمائم الحسرة تستقر على وجه الكيد. يتحسر على موت زوجته جوليه مبكراً. يتحسر أن ابنه تركه هاربا. يتحسر أنه ترك ناسه في قلب الصعيد وبقى هنا غريباً. لم يبق له إلا بجيوَة، وبجيوَة مجرد فتاة ليس لها حساب في ميزانه الصعيدي.

قبل عودتهم إلى نجع المنحنى، يزورون بيت نُوري العمدة ثم يستقرون قليلاً في بيت مُهدي الأصفر وديوانة. تترك خيشة حفيديها يلعبان مع فَيّاج. تريد أن تدخل بهيتّة قلب فَيّاج من الآن. فياج من نفس عائلتها وإن سكَن نجع أورِّك. وهو في السن المناسبة تماماً لبهيتّة. إنه الأمل الثاني بالنسبة لها في امتداد نسلها الحامل لنفس اسم العائلة. أما أملها الأول، ففي ذريّة مصطفى.

عصر يوم جمعة، تَعويضة تعمل في حقلها مع بنتيها، أتتها هَكيمة ممتطية الحمار العالي وقد أردفت خلفها معتوق. كِسبانة فوق حمارهم وقد كدّست أمام حِجرها على ظهر حمارتهم الضعيفة حزم من خضروات كثيفة. من بعيد هُوشَة مقبلة تهرول فرحة بمعتوق الخير وهَكيمة. رائحة الدِميرة هَبّت على المكان. عَبَق فورة النيل بفيضانه وغرينه السمين الثمين. رائحة سمك طازج مبهجة. تنسم الجميع الرائحة، فالتفتوا لحظة ناحية النهر ثم عادوا ليتابعوا الحمار العالي المقبل ناحيتهم وفوقه هكيمة ومعتوق.

تَعويضة ظنت أن هَكيمة آتية تشكو كِسبانة لأنها تضرب وتسب معتوق. وضعت يديها في وسطها في تحد. ولما اقترب الحمار العالي حاملاً غريميها على ما ظنت، أخذت تصيح وهي تلوّح لهَكيمة بيديها معا..

- والله العظيم إن معتوق يستأهل أن تسبه كِسبانة وتضربه على أم رأسه. لماذا يسخر منها ويضربها في بطنها؟ وأنتِ يا هَكيمة تدافعين عنه؟ ثم بدون خجل تأتين لتلومينني؟

ضحكت هَكيمة. فانبسطت أسارير تَعويضة..

- هَكيمة. أنت لم تأتي هنا لتشكي ابنتي؟

- لا. جئت لأمر أهم.

- ماذا؟

- معتوق الخير!

- ما به هذا الـــ..

- تَعويضة، لا أحب أن يسب أي مخلوق ابني معتوق.

- انتهينا. ماذا به هذا الولد الطيب معتوق الخير. ذلك المخلوق الربّاني؟

- ألم تحكي للأطفال منذ أسابيع، عن جنيّة الشط.. فانالاندي؟

- إيْ.

- يقول معتوق إنه رأى فانالاندي!

صـــمتت تَعويضـــة. اقـــتربت هُوشَة، وكِسبانة غمزت الحمارة بكعب قدمها ووجهـــته ليقـــترب مـــن المتحدّثين. معتوق هبط من ظهر الحمار العالي واقترب سعيداً من تَعويضة التي تنظر إليه في تعجّب وعدم تصديق. رائحة الغرين الثمين، رائحة السمك الطازج تنبعث من معتوق. هُوشة اقتربت من معتوق ومسحت بيدها عـــلى رقبته ثم وضعت باطن كفها أمام أنفها تتشمم بلذة الرائحة الطيبة. معتوق الخير يتبسم لها وهَكيمة تواصل حكي ماجرى لتَعويضة..

- ويقول إنه حادثها ورضع قطرات من ثدييها المتدليين أمامها، وبرضاها!

اتسعت عينا تَعويضة وارتجفت. تتحسس الحجاب الذي بين ثدييها..

- ولد يا معتوق. تكذب ياولد؟

- لـــ.. لا.

- رأيــت فانـــالاندي يـــا ولد؟ والله إن كذبت على أمك هكيمة وعلى أمك تَعويضـــة. تعــرف مـــا سيحصـــل لك؟ تأتيك فانالاندي ليلاً وتعضك من شفتيك وتصحنهما وتعضك من لسانك فتقطعه لك، ثم تمصّك من أنفك حتى تموت فطيساً كدجاجة ليس لها قيمة. هل رأيتها يا ولد؟

- إيْ.

- ويْ ويْ ويْ. آخ يا ابن الكلب والذئبة. آخ سوف تقتلني بالجنون يخرب بيتك وبيت أمك هكيمة.

جلست تَعويضة أرضاً ضامة قبضتيها في قوة تضرب بهما جانبي صدغيها فـــي قســـوة.فــترة وهَكيمة وهُوشَنَة تكبتان ضحكهما. تماسكت تَعويضة وعادت للكلام..

- هل شاهدتها يا ولد وكلمتها وكلمتك؟!

- إيْ.

- ورضعت من ثديها؟!

- إيْ.

تَعويضـــة تـــرفع يديها وتقوّسهما أعلى الرأس. وكل يد تشير بسبّابتها إلى الأخرى. ثم تضع كفاً على أم رأسها وبالكف الأخرى تضرب عليه..

-إبيوو -بيو. اسكبي على رأسك الرماد يا تَعويضة.

يحكي معتوق بلسانه العيي مضيفاً ما لم يقله بعد. فتترجم هَكيمة ما يقول..

- معـــتوق الخير يقول.. إنه رضع من ثدييها واحداً بعد الآخر. وإنه طلب مـــنها أن تـــرمي بثدييها على ظهرها ففعلت ودار هو من خلفها ليشاهدها. لكنه

خجــل من مؤخرتها العارية! ثم إنها ضحكت له ومشت إلى النهر ورفعت غطاءه ولوّحت له ثم غطست!

الوجــوم على وجوه تَعويضة وبنتيها. عاد معتوق لقول شيء وهو يضحك وتضحك معه هكيمة التي شرحت لتَعويضة ما يقول..

- معتوق يقول فانالاندي طويلة مثلك وثدياها طويلان مثل ثدييك!

هُوشَـــة فقط التي ضحكت مع هَكيمة ومعتوق. أمّا تَعويضة وكِسبانة فكانتا فـــي ذهول وغضب مما يقوله معتوق. عاد معتوق ووثب على ظهر الحمار خلف هَكيمـــة. وذهب بهما. هُوشَة توقفت عن الضحك خشية من أمها وأختها. بعد هذا اليوم ازداد خوف تَعويضة من كائنات التيّار الجن والعفاريت. وخافت من معتوق وقلّلت من لعناتها له وترجّت ابنتها كِسبانة كثيراً أن تتجنب إغضاب معتوق الخير وإلا عاقبها الجن والعفاريت، و.. فانالاندي.

حـكاية هَمَرين

حكايـــة هَمَرين بدأت منذ كان طفلاً في القرية. من جيل نُوري ابن العمدة. تعلّم مع نُوري فكّ الخط وحفظ أجزاء من القرآن الكريم. فكان هَمَرين هو الواعد في جيله. لم يدخل في أمر إلا وكان الأفضل. حتى في اكتساب خبرة تجبير كسور العظـــام واســتخدام طــب الأعشاب. ولولا تعاليه على المهنة لكان هو مجبّراتى وطــبيب القــرية والقرى المجاورة بدلاً من يونس المجبّراتي، لكنه سمع بتشوق ولهفة من الرحالة سِيدين، سمع عن رحلاته إلى المناطق الجنوبية وطبائع ناسها ومحـــاور خبراتهم. بينما كان رفيقه أثمان يستمع ويركز كل انتباهه على النساء في كل منطقة ومواطن جمالهن.

وعندما دخل هَمَرين سن المراهقة نضج جسده سريعاً وطموحه كان أسرع. طمـــوح بـــلا حدود. وفي مراهقته هذه وقعت أغلب تحوّلاته الحادة. رغم نشاطه الجم وعلاقاته الكثيفة المتشابكة بناس القرية والقرى المجاورة، لم يتصور إنسي واحـــد أن ينقـــلب هَمَرين هذا الانقلاب المفاجئ. لم يشعر بما في قلبه أحد. نَبْرة أحست بالنار التي داخله، ثم تخلّت عنه عندما تهجم عليها. داخل عائلته، لا أبوه ولا إخوتـــه رصـــدوا نفسه الشريرة رصداً عالماً عدا أمه التي أوحى إليها قلبها. أعلنت خوفها لأسرتها أكثر من مرة أن يأتي يوم يفجعها فيه ويدنّس اسم العائلة.. هَمَراب. ندمت أشد الندم انها أسمته باسم جدهم الكبير هَمَرين.

مـــن صغره يترقب يوماً يكون عمدة البلد، وبعدها زعيم كل القبائل النوبية. ومـــرّة واحدة تكلّم عن مملكة يكون فيها هو الملك. مرّة واحدة سمعه فيها نُوري وأثمـــان، لكـــنهما أرجعـــا ذلك إلى كَون هَمَرين في حالة سُكْر بَيّن. تشبع غروراً بذكائـــه الحـــاد وقوة جسده الربعة. امتلأ سخطاً لأن أباه رجل عادي ولا يملك إلا أحدي عشرة نخلة وخمسة قراريط من الأرض.

أحـــب نَبْرة وتيقن في نفسه أنه الأحق بأجمل بنات القبيلة. لاعبها، رافقها وتابعها. أعجبَت بذكائه. أحبت قوة شخصيته وقوته الجسدية. انبهرت بالكتب التي

يحصــل عليها بمشقة، يقرأ عن الفلك والمسارات وارتباطها بالبشر، عن التاريخ القديم والممالك والحروب والهجرات. جلساته الطويلة في أعلى سفح الجبل أعلى من أعلى صف من البيوت.. اختياره لزوايا معينة من صلد الجبال الجرانيتية ترتد منها أشعه الشمس ثم قوله إن فيها شفاء وفيها مرض إن أساء أحد استخدامها. فضّــلته نَــبْرة على منافسيه، مالت إليه ولم تأبه بمنافسه ذي المكانة، نُوري ابن العمدة. هَمَرين داهمته نيران الجنس مبكراً وغلبته فأفرغ طاقته في حمار عندهم ثــم في أتان تملكها عائلة أخرى. ضبطوه فتندروا عليه لكنه لم تخزه فعلته. نجح في إقناع نَبْرة بأن ما يقال عنه مجرد حسد ومحاولة لتحطيم سمعته، صدقته لأنها تريد تصديقه. ثم بدأت تخشاه من نظرات عينيه الواسعتين العسليتين اللتين كانت تحــبهما مــن قبل. بدأت تتنبه لشرّه حين صرّح لها بأنه أولى بالعمودية وليس نُــوري الساذج الذي لا يمتلك أي موهبة. وإنه سوف ينتزع العمودية ويأتي بها لأســرته هَمَــراب! يســتمر في الاندفاع فيصرح لها بأن نُوري مجرد محظوظ لا يستحق إلا أن يكون غفيرا.

صُــدمت عندما تهجم عليها وحاول أن يأخذ جسدها. ولما قاومته صفعها. عضــته فخــنقها بطرحــتها ووجهه يلامس وجهها وأنفاسه تهب عليها محرقة وعيناه في جحوظ غلّ. أحس بنفسه يكاد يقتلها، أصابعه خفّت من شدّتها فهربت مــنه. انقلب إعجابها به إلى كره واحتقار بعد ذلك. اختارت نُوري الطيب الهادئ. وافقهــا شقيقها أثمان ولم يحاول إجبارها على هَمَرين، بل كان سعيداً باختيارها، رغم أنه تزوج من شقيقة هَمَرين في الموسم السابق.

رفض نَبْرة له، أسرع بدفعه إلى منحنى الشر. أحس بأن الجميع تخلوا عنه حــتى أبويــه اللذين يلومانه ليل نهار. وفي ليلة زفافها على نُوري سافر هو إلى الجنوب. زمن وعاد يحمل كتباً مربوطة في رزمة كبيرة. عاد فوجد العمدة الكبير وقــد أرهقته الشيخوخة .ثم مات المولود الثالث لنَبْرة فكان شؤمه سريعاً. رفضت نَــبْرة قــول زوجها إن موت ابنهما الأخير من تأثير سحر غريمه الحاقد هَمَرين. وإلا يكــون مــرض زوجــة أخيها أثمان وهي أخت هَمَرين بسبب هَمَرين أيضاً! وهَمَرين لا يكره أخته. إلا أن نُوري أكّد. .

- لكـــنها تكـــرهه، أخته الوحيدة تكرهه كرهاً شديداً وقبل وفاتها السريعة، صـــبّت عــلى رأسه لعنات أبدية. علمت أن شر أخيها سوف يؤثر على مستقبل ابنها الذي تحمله في بطنها وكان على وشك النزول.

مـــاتت شقيقة هَمَرين تاركة وليدها. ولحالة الحزن على الأم، لم يطلق اسم عــلى المولـــود اليتيم. وهم يشيعونها ثار أثمان على حضور هَمَرين جنازتها. تشـــجع العمـــدة مؤيـــداً أثمـــان. ثم الخفراء وشيخ الخفر المعجب بطوله الفارع وبوسامته التي يظنها في نفسه، خاصة بشاربه المدهون وبزيّه وببندقيته. تحمس شـــيخ الخفـــر ولـــوّح ببندقيـــته تجـــاه هَمَرين حتى خاف البعض أن يطلق عليه الرصاص فعلاً، فالكل يعلم بما يحمله شيخ الخفر من ضغينة ضد الساحر.

بـــزغ وأفـــل هلالان على سماء القرية، وقبل أن يستوى الثالث بدراً منيراً، هجر أثمان كُورنة القرية تاركاً الوليد أمانة عند نُوري العمدة ونَبْرة متخطياً أحقية هَمَرين في أخذ ابن شقيقته. نُوري يواصل الإلحاح على أثمان أن يبقى، سار معه حـــتى المرســـى. وقبل أن يصعد أثمان على ظهر المركب الذي سيقله جنوباً، ألح على نُوري حتى أقسم له نُوري بأنه سيربي ابنه اليتيم وكأنه ابن له ولنَبْرة.

رفـــض العمـــدة الجديد نُوري أن يسمح لهَمَرين برؤية الطفل. أطلقوا على الطفـــل اســـم سلاطين. فتلقفته خالته نَبْرَة مضطرة أن ترضعه من صدرها، رغم خشـــيتها أن تـــنجب بعد ذلك فتاة، فتصير أختاً بالرضاع لسلاطين ولا يستطيعان الزواج بعد أن يشبّا.

ولم يمض موسم حتى حَبَلت بمن قُدّر له أن يعيش، ابنها سِسِّي. وقبل ولادة سِسِّي، نُوري يتلهف على ابن. تألم من ثكله لابنه السابق. تعود ناس القرية على موت الأطفال بالسخونة والإسهال وموت الأمهات أثناء الوضع بحمي النفاس. لكن نُـــوري لا يتقـــبل نجاة زوجته نَبْرَة من عدّة ولادات. يريد نَبْرَة ويريد ابنا. وكان صـــعباً عـــليه أن يتقـــبل تربية ابن أثمان الذي أنجبه من أخت هَمَرين. لكن كيف يرفض طلب أثمان صديق عمره وشقيق زوجته؟! أدخل الرضيع بيته وهو راض ظاهرياً رافضاً من أعماقه. يسائل نفسه دائما..

- لم مات ابني وعاش هذا اليتيم الذي لا يهتم به أبوه؟

لم يكد أثمان كُورنة يترك ابنه الوليد ويرحل جنوباً، حتى رحل بعده هَمَرين جـنوباً. تيقن هَمَرين أنه لن ينال العمودية. الكل يكرهه ولم يتغلغل الخوف فيهم بما يكفي. والأقلية التي تريده أهون وأتفه من أن تسانده. غاب ثلاثة مواسم وعاد فـي هيـئة بعيـدة عن هيئته الأصلية وهيئة رجال النوب، ملبسه عباءات فاقعة الألـوان. شـعره ضفائر مدهونة بالدهن الثقيل مثل النساء المتعاجبات بأنفسهن. عيناه أشد وأقسى قسوة. الكراهية تشع منه حتى وهو يتفوه بليّن الكلام! عاد وقد توغل في علمه أعمق وأغور. عاد وشره أنكى وناره أحمى.

هَمَـرين ومـن حجـرته داخل دار أبيه الواسعة باع روحه للشيطان مقابل حصـوله على المكانة التي يبغيها. بدأ يسيطر على مقادير بعض ضعاف الإرادة. زمـن مـرور هلال واحد وازداد سطوة. غرز الرهبة في قلوب الكثير من الرجال والرعب في قلوب النساء، بالسحر الأسود فرق بين المرء وزوجه. يربط العريس في ليلة عرسه ولا يفكه إلا إذا دفع له أولاً خضوعه ثم القطعة الفضية. تيقن ناس القرية أنه بذرة فساد. لكن.. من الذي يجرؤ على التقدم ومحاربة هَمَرين! خاصة أن أحـد أبـناء عمومـته كان أكثر المتحمسين له، يسانده نظير مكاسب يتلقاها، سـطوة أتـته بالتبعية ففرح بها وتعشّم في خيرات تصُبّ عليه. ابن العم لم يكن يحـب هَمَرين، ولم يكن هَمَرين يحبه، لكن المصالح تجمعهما. وكان هَمَرين أملاً للكثيرين من عائلته، أن ينتزع لها العموديّة ويضعها في أسرتهم.. الـهمَراب!

ومن يبدأ بمحاربة هَمَرين؟ هَمَرين الذي زرع فيهم الخوف ببعض الغرائب وتحـريك الجمـاد. وهم ناس لا يفهمون في السحر جيداً ولا يستخدمونه إلا في بعـض التفاهات. ذابت شجاعتهم. نُوري خائف. أبوه العمدة الذي دهمه المرض وصار ممدداً لا حول له ولا قوة، يشجعه على محاربة هَمَرين وطرده من القرية. نُـوري يقـوم بمسئوليات العمدة حقيقة لملازمة أبيه فراش الموت، لكنه خائف. خوفـه الأساسـي على رضيعه سِسّي، وحيده. يخشى أن يفعل هَمَرين فيه شيئا. فكيـف ينسـى أن حضـور هَمَرين السابق مات فيه وليده الأخير؟ يحرض بعض الـناس بالـثورة على الساحر، ويتحجج بأن خفراءه الثلاثة كل خائف على نفسه وعائلته. لذا فهو لا يملك قوة رسمية لمجابهة الساحر الشرير، فماذا يفعل؟ خاصة

بعدمــا ســرت الإشــاعات أكــثر وأكــثر عن الزوجة الثانية الشابة لشيخ الخفر المتباهي، الذي يلعن هَمَرين ويحرّض العمدة والناس على محاربته.

هَمَــرين والداه تركا له الدار كلها وبقيا في بيت قريب لهما. ثم ماتا حسرة قــبل مــرور فيضان واحد وهما متبرآن منه، داعين عليه بالخسران حيث أتى. رفضا حججه بأنه يريد الخير لهما وأنه سوف ينعمهما بالمال والخير. لم يبق له إلا ابــن عمــه التابع له والمالك للبندقية المتهالكة، وعدد من ابناء العمومة، فقد اضــطر بعضهم للتقرب منه بالتهديد والوعيد وبإغراء الهدايا والحماية، وأعدّهم ليساعدوه يوماً في انتزاع العمودية بعد أن يموت العمدة الكبير والد نُوري غريمه وخاطف حبيبته نَبْرة. أما ابناء عمومته الذين قاوموا ضغطه،فقد اضطرهم للحياد فلا يكونوا عليه.

العمــدة الكــبير عافيــته المتبقية هي مجرد القدرة على التنفس الضعيف وتقــليب عينيه فيمن يتحلقون حوله، وابتسامة يأس واستكانة لقدَر الله. والقرية الــتي تســكنها قبيلة تستجمع نفسها لتودع زمناً لزمن آخر وعمدة آخر. والعائلة مــتفرعة ولنُوري الشاب منافسون يأملون أن ينالوا شرف العمودية بدلاً منه. مر عــلى الثبات والانتظار وقت. ومات العمدة الكبير واجتمع ناس القرية في الساحة الكــبرى فــي نجع أورك. وكان للشيخ صَلاتو موقف قوي سانده فيه أغلب أفراد القبيــلة، وأيــده فيه تأييداً خفيفاً مُهدي الأصفر وتابعه المجبّراتي زاعق الصوت كــثير الضوضاء يونس. فنال نُوري العمودية وأخفق من نافسه. أما هَمَرين فلم يكن اسمه مطروحاً أبداً رغم جبروته وسحره. حتى من أراد هَمَرين لم يجرؤ على نطــق اسمه. الرفض كاسح للساحر الشرّير وإن كان رفضاً سلبياً، فلم يتصدى له علــناً سوى المجبّراتي.. يونس. المجبّراتي كان صوته الجهوري يغطي على كل أصــوات القــرية. غمــز ولمز في هَمَرين وقد أخذه التهوّر وحب إرضاء العمدة الجديد وكبار القرية.

تواجد هَمَرين في هذه الليلة. لكنه كان مثل شاة لا تملك من أمرها شيئاً إلا ثغــاءً ضاع وسط الجموع. باء بالفشل وعاد إلى بيته بالحسرة المضاعفة. لم يَلُم ذكاءه الذي خانه. لم يضع الفشل على نفسه المتعجّلة التي لم توازن الأمور جيدا. ولــم يــلُم عقله الذي منعه من عمل سحري يُخَرب عليهم اجتماعهم، فأمله فيهم

وفـــي تأييدهم له كان موجوداً، بل صبّ نيرانه الغاضبة على القرية، على صَلاتو وعــلى ثوري العمدة وعلى المجبّراتي وغيرهم. وتوعد الكل وقال لأتباعه بعد أن لعنهم ونعتهم بالجبن . .

- لينتظروا قليلاً، سوف أتحكم في قواي أكثر وأكثر، وأتعمق في كتبي أكثر وأكثر. ثم أعود إليهم.

شـــاع مـــرض يصـــيب الأطفال، مرض غريب. الطفل المعافى فجأة يصيبه ســكون مفــزع، يــرفض سواء صدر أمه أو الطعام، يرتمي كجوال فارغ، عيناه تنكســران فـــي موات، لا يعالجه لا أعشاب الجبل ولا رقيات الشيوخ ولا مداواة يونـــس له، لا يشفيه إلا هَمَرين. وهَمَرين لا يسمح بالدخول عنده إلا للنساء مع أطفالهن المرضى فقط، إذلالاً للرجال.

تيقن ناس القرية، كم هو خطير هذا الساحر الذي ظهر بين ظهرانيهم. وكم هــو شرير حاقد. والناس خوف السحر يشلّهم عن التكتل ضد الساحر. والعمدة لم يســتطع شيئاً، فالخفراء مرعوبون من الساحر وشروره. بعدها تأكدت إشاعة أنه يســيطر على المرأة، يناديها ليلاً فتترك سرير زوجها لتذهب إليه بنفسها. امرأة واثنــتان شوهدتا وهما عائدتان إلى بيوتهما قبل الفجر. والذي ساعد على كتم ما يجــرى، عـــادة عشائر النوب في الستر على كل ما يمس النساء، بل تجريم أي تلميح يهينهن أو يسخر من رجالهن وأبنائهن. أصبحت النساء والفتيات الفائرات جســداً يتحاشين رؤية هَمَرين لهن. لكن التيار التحتي للهمهمات والهمسات التي حــدّدت الــزوجة الثانية لشيخ الخفر، أضافت زوجة يونس المجبّراتي رغم بعدها عن وسامة الوجه وانعدام أنوثة جسدها. وتلتها عروس شابة.

فـــي ليـــلة عُـــرس، وحين اشتعل الرقص، حضر هَمَرين في أبهى صورة. جلــباب ناصع وعباءة صيفية فاخرة في لون الشفق. لا عمامة على رأسه، ترك شعره المضفّر مثل النساء متهدلاً مدهوناً، وفي يده عصا زان مقبضها على هيئة قـــناع زنجي. سرت رعشة في ناس القرية. توقفت النساء عن الرقص وتوارين بعيـــداً عن ضوء الفوانيس. لم تصمد منهن الا نَبْرة التي تحمل سِسِّي الذي مازال يرضـــع مـــنها. وسلاطين طفل يقف بجوارها متعلقاً بثوبها ويصعب عليه السير

السريع على الرمال اللينة. نظر هَمَرين إلى ناس قبيلته رجالاً ونساء، ثم دخل وسط الرجال غير آبه بنظراتهم الرافضة له والتي تتهمه بإفساد العُرس. يحادثهم في برود ولا يجيبونه. حتى أتى إليه والد العَريس حانقاً طالباً منه الابتعاد عن ساحة العُرس. والد العريس رفع صوته عالياً بحدة جريئة! الخفراء أتوا وبدأوا يتحمسون لتحريض كبيرهم المتصابي. ضحك هَمَرين في سخرية وانسحب.

الدفوف التي أصابها الفتور بتواجد هَمَرين عادت للحماس، الرقصات الخاملة عادت للنشاط. عاد العُرس كما كان حاراً منعشاً يبث البهجة في النفوس. فترة، ثم إذا بأحجار ثقيلة تسقط وهي تصفر من السماء لتصطدم بالرمال في صوت عظيم. صرخت النساء والرجال. هرولوا إلى الأجناب متشرذمين محتضنين أطفالهم، ومن أجناب الساحة هرولت الكثيرات حاملات أطفالهن إلى بيوتهن. الأحجار تتساقط لكن لا يرى أحد حجراً واحداً! السماء مضاءة بفضة ثلث القمر البازغ. الرمال عاجية اللون. الفوانيس تضيء بقعاً بوضوح. لو سقط حجر لأمكن مشاهدته. الأحجار تتساقط. لكن أين هي؟ ناس القرية يقرأون سوراً من القرآن.. من شر حاسد إذا حسد..من شر النفاثات في العقد. آية الكرسي. يبَسْمِلون،يُحَوْقِلون.. توقفت الأحجار قليلا. هدوء. .ثم عادت أصواتها ساقطة ولا حجر يبين! أسرع رجلان إلى دار هَمَرين. قال لهما جملة واحدة..

- والد العَريس يأتيني وحده.

أتاه الرجل خائفا. ألحف في الاعتذار. أعطاه الريال الفضي فأخذه منه هَمَرين وقال..

- هَمَرين لا يحتاج إلى نقود قرى النوب كلها. لكني سأقبل منكم النقود والعطاء العيني، كجزية خضوع تقدمونها لي. ابلغهم ذلك. والآن فلا أحجار ستسقط عليكم بمجرد عودتك.

لم يعد الحماس لرقصات العُرس. فما جرى أمامهم شل فرحتهم. أرعبهم أكثر وأكثر من هذا الساحر الذي خرج من صلب القبيلة ليذلها. بعد هذه الحادثة وحين رصد انتفاضة تتوالد داخل نفوس الناس، بقى أسبوعاً ساكناً هادئاً حتى يسترخوا. ثم سافر وغاب مدة قمرين بعيداً حيث لا يعلمون ثم عاد بدون أن يعلم أحد لماذا سافر ولماذا عاد.

بعــد المغــرب مباشرة، سلاطين وسِسِّي يلعبان على طرف الساحةِ. سِسِّي يحــاول الــلحاق بسلاطين فلا يلحقه. يضحكان. خاصة سِسِّي الذي صار سلاطين عنده في أهمية أمه وأبيه.

بــرز لهما رجل. توقفا عن العدو. هَمَرين! تقدم منهما. وقف قبالتهما يداه متشــابكتان أمام بطنه. الشمس التي غربت في موقعها خلف الجبل وخلف ظهره بَــثّت احمراراً نارياً وكأنه يشع من حدود جُرم هَمَرين. ينظر إليهما وينظران إليه فــي توتر منعهما من العدو بعيداً. سِسِّي اختبأ خلف سلاطين وأخذ في التلصص عــلى هذا الرجل البدين ذي الضفائر والغريب الملبس. تقدم هَمَرين من سلاطين. تلاقت عيونهما ذات اللون العَسلي مَدَّ هَمَرين يده بما هو مُمسك به.

- خذ هذا مني يا سلاطين.

- ..

- خذ من خالك يا ولد. إنها هدية.

- مدّ سلاطين يده وعيناه تحاولان سبر ملامح وجه خاله المعتمة. ثم نظر إلى الهدية. حصان مجنّح.

صاح سِسِّي.

- حمار بجناح!

ابتسم سلاطين فضحك له هَمَرين وهو يبتعد.

الحصان المجنّح في طول شبرين، خشبي

مــتقن الصنع. رائع في نفس الطفلين خاصة سلاطين. لعبا به. تخيل سِسِّي أنه يركبه فيطير به أعلى الشجرة. سلاطين ركب الحصان المجنّح ليطير به أعلى القــرية والجبال شرق وغرب النيل. أعلى القرى النوبية كلها. واستعد ليلاً ليطير به عند أبيه ثم أبعد مما ذهب أبوه. استعد ليطير به أعلى الدنيا كلها.

خـــلال وجـــبة العشـــاء التي جمعت الكل في جانب الحوش، كان الحصان المجنّح بين الطفلين. لم يلحظه لا نُوري ولا نَبْرة. صاح سِسِّي فرحاً والطعام يملأ فمه..

- ونحن نلعب، هَمَرين أعطى سلاطيناً حماراً بجناح. جميل. با، سوف نلعب به أنا وسلاطين بعد الأكل.

توقـــف نُوري عن المضغ. نظر في غضب وقرف إلى سلاطين. ثم مد يده ناحيـــته آمـــراً. سحب سلاطين الحصان من جانبه وناوله له. أخذه نُوري ونظر للحصان اللعبة في استهانة. حطّم جناحيه وأرجله ثم ألقاه بعيداً. نفض يديه وعاد لمضغ طعامه في قرف.

صـــمت راسخ. نَبْرة تكلمت في أكثر من موضوع لتخفيف الحرج. سلاطين يـــأكل غصباً عنه، لم يستطع القيام والابتعاد حتى لا يجلب على نفسه غضباً أشدّ شراسة من نُوري. سِسِّي يأكل في آلية وهو يسترق النظر لسلاطين مشفقاً عليه.

فـــي الليل على سريرهما، بكى سلاطين. سِسِّي يحاول التخفيف عنه إلا أن ســـلاطين لعن أباه العمدة، ودعى الله أن يحطمه كما حطم حصانه المجنّح. صمت سِسِّي ولم يجب.

ذاب قمر. مرض سِسِّي. انتابه خمول مريب وعيناه غرقتا في موات. الطفل المـــتفجر حيوية بات كالخرقة. رغم معارضة نَبْرة، إلا أن نُوري صمم بعد اليوم الثالث من مرض الطفل على ذهابها إلى هَمَرين برفقة أختها هكيمة.

الـــلّيل مظلم ساكن سئيل. في حجرة هَمَرين، الكتب متناثرة، بخور وتماثيل مفـــزعة. هَمَرين يقرأ في كتاب ضخم أوراقه صفراء مهترئة ويتمتم، حين دفعت نَـــبْرة بـــاب الدار. وقفت حاملة طفلها سِسِّي وخلفها هَكيمة. نظر إليهما مبتسماً فـــرحا. جلست نَبْرة واضعة ابنها بينها وبين هَمَرين. لم يتحمل الطفل ثقل جذعه فسقط على ظهره. ارتطم رأسه بالأرض فلم يصرخ. بل استمر في مواته. نظرت نَبْرة إلى هَمَرين في كُره. هو لا يأبه بكل غضبها، ينظر إليها في هدوء وهو يعدّل من وضع ضفائر شعره الغزيرة والمدهونة بدهانات طيبة الرائحة، وبعض الحلي

الفضـــية مُعلقة بالضفائر ويصدر منها صليل خفيف حين تتصادم. تنظر نبْرة في عينيه مباشرة متحدية..

- تنـــتقم مـــنّي في ابني يا هَمَرين؟ ما ذنب هذا الطفل؟ كم تريد يا شيطان البلد؟

أخرجت كيساً به مصاغها وألقته تحت قدميه فأصدر وسوسة صافية..

- مصاغي، ذهبي كله.

- لا أريد ذهبك.

- ماذا تريد؟

- أريدك.

- الموت أفضل.

- وابنك؟

-..

- ستُحرق إن شاء الله. السّحرة لهم الحرق يا هَمَرين.

-اجلسي يا حارسة أختك، اجلسي واهدئي قبل أن تهدديني يا هَكيمة.

- لا.

- وأيضاً صرت حادة كأختك! ومعي أنا!

-..

- ما رأيك لو أعطيتك دواءً يكسو عظامك باللحم؟

- لا.

- ويملأ ثدييك باللبن، يرضع منك من ولدتيه من أقمار مضت؟

- لا.

- ستكونين جميلة مثل أختك التي تصغرك لو تخلصت من نحافتك وهزالك.

- لا.

نَـــبْرة تنظر إلى ابنها ضعيف التنفس وهو يحاول فتح عينيه ولا يستطيع. دَمَعت عيناها. حَمَلت الولد. مدت يديها به..

- ابني يا هَمَرين.

لم يلتفت إليها هَمَرين. مد يده إلى كيس المصاغ الملقي، التقطه وألقاه في حِجر نَبْرة واستمر في مخاطبة هَكيمة..

- سيفرح بك آبدون المختال ولا يفكر في الزواج من امرأة ريانة.

- ليس شأنك.

- هاها. تُرى، مازلت غاضبة مني لأني تركتك ونحن صغاراً وطلبت الزواج من نَبْرة؟ أحزنك هذا وقتها. كنت تأملين في هَمَرين زوجاً.

- تخاريفك.

- جئنا بسبب طفلي يا هَمَرين لا لنسمع كلامك الفارغ.

- أمرك يا نَبْرة. لكن.. أختك هَكيمة إن اكتست لحماً فلن تقل عنك جمالاً.

- قالت لك ليس شأنك.

- هاها. أردت أن أقدم خدمة لقريبات أمي.

- إذن، خلّص ابني من دائك.

- أكـــنت تعـــرفين أن هَكيمة كانت تتمناني زوجاً، وكانت جدّ حزينة لأنني أريـــدكِ أنـــتِ؟ ثم إنني أميل كثيراً للمرأة المحمّلة بكثبان اللحم في منطقة الصدر ومنطقة الـــ . هاها.

- طول عمرك داعر، غليظ الحس.

- هاها. صحيح يا بوصة.

- خلّص ابني من دائك.

- والثمن يا نَبْرة؟

- موت ابني ثمنه عمرك.

- هاهـــا. تقتلينـــني يـــا نَبْرة؟ هاها. الجمال الخالص والرقة نفسها، تقتل وتشرب الدم؟!

- لو مات سِسِّي قتيلاً ستموت قتيلاً يا هَمَرين. أقسم بالله يا هَمَرين. أقسم برب العزّة، لو مات سِسِّي بسببك قتلناك، نُوري.. وأنا.

- هاهـــا. أرى فـــي وجهك تصميما. لكن هَمَرين لا يخاف لا منكِ ولا من نُوري الذي ينتظرك مرعوباً داخل الدار والخفر يحرسونه! هاها. وأنت يا هَكيمة. ألا يتألم زوجك من عظامك البارزة؟

- نحن الآن في مرض سِسِّي وليس لك شأن بي ولا بزوجي.

- صحيح. نَبْرة، عودي بابنك.

- مريض بسحرك يا هَمَرين.

- ليس لي دخل بما تشيعونه عني.

-ابني..

- قـــلت لك عودي به فأنا لا أنسى لا قرابتنا ولا ما كان بيننا مثلما نسيتِ أنتِ.

- لو مات سِـــ..

- قـــلت عودي. سيشفى بعد يومين مثل غيره. لكن بذلك تكوني مدينة لي. وسآخذ حقي منك إن عاجلاً أم آجلا.

قامت نَبْرة على ركبتيها ومعها كيس الذهب القماش.ثم انحنت تحمل سِسِّي لـــتقوم به. هَكيمة لمحت هَمَرين وهو يراقب فتحة صدر أختها. فازدادت عبوسا. ابتسم لها هَمَرين وهمس لها وقد ابتعدت أختها..

- تغيرين من نَبْرة، من أختك؟ لو كُنتِ لحيمة يا هَكيمة، كنت نظرت ناحية صدرك أنتِ الأخرى .فكري.. ربما تأتينني لأعدّ لك علاجا.

- عندما ترى قفاك.

- هاها، ولكني أراه يا هَكيمة.

بمجرد أن خرجتا من دار هَمَرين. تصدى لهما آبدون..

- الحكاية؟

طمأنتاه. عاد معهما حتى بيت العمدة نُوري الذي كان في قلق حارق. سمع ملخص ما جرى. أخذ سِسِّي بين ذراعيه.. .

- إن مات سأقتله لا محالة حتى لو تخلت عني القرية كلها.

نُوري ونَبْرة لم يناما، لكن في الصباح بدأت صحة سِسِّي تتحسن ليعود طفلاً حيويا كما كان.

أسبوعان بعد توقف مرض الأطفال، لم يستكمل القمر دورته بعد. تعجب مُهدي من زوجته ديوانة. لم تستيقظ مبكراً كعادتها. ابنهما يبكي بجانبها. أخذه مُهدي وتركها تنام مخاطباً نفسه..

- ربما كانت مريضة، النوم بإذن الله يشفيها وبذلك أوفر أجر العلاج إذا عادَها يونس المجبّراتي. هذا بخلاف ثمن الأعشاب وطعام وشراب النساء اللاتي سيزرنها.

في الظهيرة عاد من دكانه فوجدها مستلقية على سريرها تبكي في صمت غير مبالية ببكاء ابنها. جاءها يونس. أعطاها سفوف الأعشاب ومنقوعها. زارها الكثير من النساء. بكاؤها مريب. لا تريد أن تصفو.

في الليل رزحت تحت كابوس ثقيل. تردد في صراخ..

- حرام. حرام. حرام. الملعون. الملعون. الملعون.

أيام على ذلك. حَجَّمتها النساء لإخراج كمية دم منها فترتاح أعصابها. لا فائدة. وفي نهار يوم وسط النساء صرخت..

- غصب عنّي ذهبت. الملعون أخذني. مظلومة. مظلومة.

بعـــد طـــرد هَمَـــرين، تركت سريرها لكنها لم تعد كما كانت. أحبت الانفراد بنفسها. دائماً داخل حجرة نائية في حوش البيت. مرّة واحدة حاول مُهدي دخول هذه الحجرة والتودد إليها ليضاجعها، صفعته. ولولا هروبه سريعاً لنال منها أكثر مـــن ذلك. إن خرجت من حجرتها النائية فهي مضطرة لقضاء حاجتها أو لإلحاح نَبْرة وهكيمة عليها أن تجالسهما تحت السقيفة. صار خروجها من حجرتها نادرا. لا تـــزور المرضـــى ولا تشـــارك في الأفراح والأتراح، لم تعد تهتم بطفلها قيّاج. تيقّـــنت النساء بأن هَمَرين مسئول عن مرض ديوانة. ولما ظهر الحَبَل عليها، لم تترك البكاء يوماً حاولت التخلص من الجنين بإدخال عود أخضر داخلها. فجرحت رحمها وازدادت سوءا. لكن الجنين استمر في نفخ بطنها يوماً بعد يوم.

تألم مُهدي الأصفر من مصاريف علاج زوجته وضيافة كثافة الزائرين التي لا تنقطع. علم بدون أن يقال له أن في الأمر شيء مريب. لكنه يضع همّه الأكبر في عمله وتجميع حسابات ديون ناس القرية، التي يأخذها منهم بلحاً بالمقايضة، ثـــم يقايض بلحهم مع تجار الصعيد بالريالات الفضة ويبدّل كميات منها إلى ذهب هـــو معبوده المفضل. وحين أطلقت عليه تَعويضة لِسانين مُهدي الأصفر تعريضاً بـــه لعشـــقه للذهب.. لم يغضب، بل اعتبر أن هذا اللقب يشرفه. فمن في القرية يملك ذهباً مثله؟

ليس له وزوجته من أولاد عدا قيّاج وفتاة أكبر منه بمواسم، زوّج الفتاة في قـــرية قريـــبة لابن أكبر تجّارها، زوجته ديوانة أنجبت بعد الفتاة فتاتين ماتتا ثم عـــاش قيّاج الصغير. في محنتها أتتها ابنتها لتساعدها، تلوم أبيها صمتاً وقولاً لبروده وعدم اهتمامه الكافي بأمها، لكن الأصفر لا يهتم بلوم الابنة، ويعلم أنها لن تنسى له تزويجها من خارج القبيلة، لمجرد أن يستفيد من هذا النسب مع حميها الـــتاجر. اضطرت الابنة لإبلاغه بأن في مرض أمها شبهة اعتداء هَمَرين عليها. ثـــار ولعن وهدد وكأنه لم يدرك هذا الأمر من قبل. غضب واغتاظ من ابنته لأنها وضـــعته أمام مسئولياته كزوج وأب، فيجب عليه أن يقوم بعمل ما. في الليل فكّر وقـــدّر، لـــن يســـتطيع مجابهـــة هَمَرين. العمدة نفسه لم يستطع. إذن.. الصبر والاكتفاء بالتهديدات الشفهية وسط الناس حتى يكون يوم يستطيع فيه الانتقام من

هَمَــرين نظير ماله من زوجته ديوانة والإهانة التي تعرض لها، ونظير ما تكلفه من مصاريف علاجها. أصابه الضيق من شبهة مضاجعة هَمَرين لزوجته، فديوانة ملكيــته هو الخاصة. مثل دكانه وعملاته الذهبية والفضية التي يحتفظ بها بعيداً عن أعين ناس القبيلة. ضيقه وغضبه كزوج لم يستمر طويلاً تحت السطح، هبط إلى القـــاع لمواسم طويلة حتى كان تشفّيه وانتقامه لكن ليس من هَمَرين، بل من ابن أخته سلاطين. في الصباح تناسى الأمر وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن ما سمعه صــراحة مجــرد إشاعة ليس لها أي صلة بالواقع! ولما حاولت ابنته أن تعيد ما قالته الليلة السابقة، منعها وأقسم وهو يشيح بيديه غاضباً..

- أقسم بالله، أقسم بالله. .لن أنسى لهَمرين اعتداءه على أمك.

صــمت برهة وقد بين لها أنه لن ينسى ما جرَى لأمها. ثم صاح بغل وحقد وغضب أشد من سابقه..

- أقسم بالله، أقسم بالله.. لن أنسي لهَمرين اعتداءه على ما يخصني.

لــم تستطع الفتاة أن تبقى أكثر من زمن رحلة قمر واحد، فبمجرد استقرار حالــة ديوانـــة نوعـــاً عـــادت الابنة إلى أطفالها في قرية زوجها تحمل همّ أمها المريضة وهمّ من ستنجبه سفاحاً ليكون أخيها أو أختها.

مــع الأيام تفقد ديوانة سمنتها، تفقد بريق العينين. لا ينمو فيها إلا بطنها. وقبل الوضع كانت قد فقدت وَفْرَة لحمها التي اشتهرت بها في قرى تغلب النحافة عــلى نسائها ورجالها. لم يبق لها سوى هيكلها الذي نحف وأناخ همّاً، وبرز من منتصفه انتفاخ غير مريح. وفي حديث لها مع هَكيمة قالت..

- جســدي مثل جسد الشرماء قبل ولادتها. الفرق أنني طويلة وهي كانت قصيرة. الفارق أن زوجها كان والد أمرُ الله. وأنا.. لا. ليس مُهدي هو أب ما في بطني. ماتت الشرماء وعاش ابنها. ليتني أموت ويموت ما في بطني.

ليــلة الوضع، كان حولها نَبْرة وهَكيمة وابنتها العائدة لها. تصرخ والدموع تنهمر نيلين من عينيها..

- ليته يموت. ليته يموت ولا يأتي إلى الدنيا. ليته يموت. المنتقم ينتقم من الملعون. مظلومة. مظلومة. مظلومة.

عــندما سمعت أنين من أطلقته حملوها إليها. بنت. وضعوها بجانبها عسى أن تهــدأ. دفعــت رضيعتها وكادت تُسقِطها أرضا. هَكيمة لحقتها وأخذت الطفلة بعيــدا. ديوانة صراخها يعلو كثيراً علىَ صراخ ابنتها الضعيف. تعض يدها حتى أدمتها. نظرت إلى النساء..

- لو عاشت. سمّوها مظلومة.

عاشـــت ديوانـــة ومـــاتت طفلتها. تيقنت بأن هَمَرين هو من أنجب الطفلة غصبا. لم ينطق أحد من ناس القبيلة بكلمة تؤذي ديوانة أو مُهدي أو ابنتهما التي تعيــش في قرية أخرى. لم يسمع فيّاج وكان طفلاً بما كان إلا بعد مواسم عديدة، لمــا صار في المراهقة وفهم ما بين الذكر والأنثى أبلغته أخته بما يجب أن يعرفه عن أمه المريضة. وكيف أن هناك شك في أمر فعله الساحر هَمَرين في أمه وأنه السبب في مرضها. وقتها كان هَمَرين قد قُتِل بأيادي ناس القرية. لعنه فيّاج ميتاً ولــم يجــد حياً يصب عليه غضبه سوى ابن أخت الساحر وشبيهه، منافسه الذي يتألق سريعا.. سلاطين.

ولــم يعايــره أحد بما كان. وذات يوم سيسمع من بِجيوَة تعريضاً رداً على تعريضـــه بها، فتألم وفي الليل بكى بكاء مرا. لا يدري لم كل هذا البكاء، هل من الإهانـــة الـــتي أهانـــته بها بِجيوَة، أم بكاء على ديوانة أمه التي ظلمها وفضحها هَمَـــرين الســـاحر خال غريمه سلاطين؟ أم يكره أباه وبروده حتى إنه تعامل مع هَمَـــرين بعد ذلك من أجل مزيد من الذهب! يستأهل أن تأكل أمه أذنه هذا الزوج الديـــوث. غيـــر طعـــنة بِجيوَة لم ينل فيّاج أي طعنة كلامية. لا من سلاطين الذي ســـيزداد صراعهما يوماً بعد يوم. ولا حتى من تَعويضة لِسانين، لم يلفظ لسانها الحـــاد الذي يستمرئ البذاءة، لم يلفظ كلمة تؤذي ديوانة التي دائماً ما كانت تثور عليها. بل إن شفقتها على ديوانة جعلتها تطلق عليها اسم ديوانة مسكين.

ديوانـــة صـــارت ديوانـــة مسكين. الجسيمة اللحيمة، والتي اختارها مُهدي الأصـــفر لوفرة قوتها وكأنه يختار بقرة سوف تدير له ساقية البيت ويحلب منها اللـــبن وتعاونـــه في عمله بقوتها، صارت نحيلة. انحنى منها أعلى الظهر وكأنها تريد أن تندسّ في الخفاء، لكن بقى لها الكثير من الطول وانسحب منها العَرض.

لـــم يعـــد ثدياهـــا وافـــرين صارخين. تبخرا ولم يبق منهما إلا جرابان من الجلد مـــتدليان. الـــبطن والسرة ضاعتا. اختفت المؤخرة الرجراجة. وبعد ولادتها للتي ماتت بمرور قمرين، أضافت إلى منفى حجرتها البعيدة، مجلساً على الطرف البعيد للمصـــطبة الخارجيـــة لـــلدار، تخرج إليه من وقت الغروب إن خرجت. وهناك لا يصلها ضوء فانوس دكان زوجها إلا باهتاً واهناً فلا يوضح معالمها.

فـــي قلب الليل اشتعلت المعركة بين تَعويضة لِسانين وزوجها. لم يوقفهما حـــتى بكـــاء ولدهمـــا زجرٌ ولا لعنات العجوز عسل. وطفلتهما الصغيرة كِسبانة. سَـــليمتو فقـــد أعصابه تماماً. جرى ناحية صندوق السحّارة. تَعويضة رأته يبحث عـــن الكـــرباج الـــذي لا نتركه معلقاً على الحائط ولا ملقيا في متناول يد زوجها احتســـاباً لـــثوراته النادرة التي يرفع عليها الكرباج، رغم أنه لم يضربها أبداً بعد عـــلقة ليـــلة دخلـــتهما، لكن.. ربما في ثورته يفعلها! خرجت تعدو خارج الدار. تجـــرى بيـــن الدروب صامته حتى لا يحدد سَليمتو اتجاهها فيلحق بها وهي تعلم لســـعة كـــرباجه. تـــتجه ناحيـــة بيت العمدة لتحتمي به. تتبيّن طريقها في الليل بصعوبة، لكنها تُدرك الاتجاهات. تبينت شبحاً مقبلاً ناحيتها. يسير في تراخ رافع الـــرأس. ملابسه بيضاء وعيناه تلمعان في ضوء القمر. ارتعبت تَعويضة. احتمت بجدار بيت وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. اقترب الشبح. امرأة.. اقتربت حتى حاذتها. نَبْرة! جرت إليها تَعويضة. أمسكت بها..

- نَـــبْرة! نَبْرة! إلى أين؟ ماذا بك؟ هل أنت مريضة؟ لماذا تسيرين في هذه الساعة وكأنك نائمة؟

لـــم تجـــب نَبْرة. تحاول الاستمرار في سيرها وفي نفس اتجاهها السابق. تَعويضة بالقوة أدارتها وسحبتها لتعود بها. لحق بهما سَليمتو. شاهد نَبْرة. حاول المساعدة آخذاً بيدها. لكن زوجته دفعته بعيدا..

- ألا ترى يا رجل أنها شبه عارية! خنزير قليل الحياء.

ســـار خلفهما وكرباجه متدلٍ. تَعويضة وجدت باب دار نُوري مفتوحاً. عاد سَـــليمتو لينام بدون أي فضول ليعرف ماذا سيكون الأمر! دخلت تَعويضة بنَبْرة. أيقظت من في الدار في جَلَبة بصوتها الجهوري. أرقدوا نَبْرة. رشّوا عليها المياه الباردة من الأزيار. لكنها استمرت في ذهولها ناظرة إلى السقف أسرع خفير على ظهر حمار يعدو إلى بيت عسل.

الهـــرج والمرج يزداد لحظة بعد لحظة في سكون الليل حتى استيقظ النجع كلـــه ثم بدأ بعض سكان النجعين الآخرين ينتبهون. فقد أطلق شيخ الخفر طلقات مـــن بندقيته إعراباً عن شدة البلاء المنتظر وليرضي العمدة تزلفاً، واستعداداً لأن ينتقم لزوجته الحرون التي اغتصبها هَمَرين بنفس الطريقة.

أمر المدّاح الضرير بإرقاد نَبْرة على الأرض. جلس بجوارها. قرأ آيات من الكتاب ودعوات ورقئ قرآنية. قبل الفجر أفاقت نَبْرة. تكلمت في إعياء..

- صوت كان يدور في رأسي يناديني.. يأمرني ويوجهني. صوت لم أستطع مقاومـــته. كـــنت في حالة لا.. لا أعرف ما أقول. أحسست بتَعويضة تمسك بي. تهزني. لكن لو لم تأخذني بالقوة لما عدت معها. لكنت واصلت إلى الجهة التي.. التي..

- إلى أين؟

- لست أعلم. لكن الصوت كان يوجهني هنا وهناك.

نُـــوري بعد أن اطمأن قليلاً يواصل استجوابه في غيظ، رغم أن العدد القليل من العائلة الذين تحوطوا في الغرفة يحدسون مصدر الصوت عدا الأطفال. سألها نُوري في غضب عارم..

- صوت من يا نَبْرة؟ صوت من الذي كان يأمرك؟

- هَمَرين.

وهَمَرين توقع ما سيكون. أرسل لابن عمه الذي أتى مهرولاً ببندقيته وبعدد مـــن عائلـــتهما الهَمَـــراب الذين أشعل في قلوبهم عصبية العائلة وكرامتها داخل القبيـــلة، وأن تـــاريخ وسُمعة فرعهم سيتلوث طوال تاريخهم وسيكون العار على أجيـــالهم القادمـــة، إن أهين هَمَرين وقُتل. بالإضافة إلى عدد أقل من الذين وضع هَمَرين الخوف في قلبهم بأنه قادر على الإضرار بهم. حشدهم ابن عمه داخل بيت هَمَرين قبل أن تصل مجاميع القبيلة المضادة له فينقلب هذا النفر ضده أو يتخلون عنه.

نُـــوري العمـــدة ورجـــال ونساء البلد جمعوا الهراوات والكرابيج والمناجل الشرشـــرة الحـــادة، شـــيخ الخفر وخلفه مساعديه الخفيرين بالملابس الرسمية وبـــنادقهم مشرعة للأمام، وآبدون يحمل البندقية الرابعة. مظاهرة ملتهبة الدماء تتجه إلى بيت هَمَرين. الكلاب تنبح مندهشة من جموع الناس التي كسرت حُرمة

الـــليل الذي يُترك لـهم يصولون ويجولون فيه. تنبح معترضة وتتبعهم. الفوانيس تقذف قطعاً من الضوء مرتعشة أمامهم، والمشاعل تتراقص كالعفاريت التي تخرج ألســنتها الـــنارية فــرحة بأن القبيلة الآدمية على وشك الانفجار. أحاطوا بالبيت وداخله المدافعين عنه يحملون هم أيضاً الكرابيج والمناجل وبندقية واحدة مع ابن عــم هَمَرين. بندقية أقدم من أن تطلق حصاة، لكنها بندقية تدوّي بصوت البارود، فهـــي ترمز ولا تفعل. رفضوا تسليم هَمَرين. تبادلوا التهديد بالصياح. المدافعون اعتلوا الأسطح وراقبوا كل أركان البيت الأربعة. ورغم كثرة الرجال خلف العمدة، إلا أنهم يشفقون على معركة تسيل فيها الدماء ولن ينسوها، ولا بعد مائة فيضان ستنسى عائلة منهم واقعة مهينة لها. ستكون شرخاً في القبيلة.

كـــان الإنقـــاذ على يد الشيخ صَلاتو الذي أتى من نجعه نجيبيّة على حماره مســرعاً.. وافـــق الجميع على حكم الشيخ بعد جلسة طالت على الرمال. الديوك صاحت تستجلب الشمس من رقدتها خلف الجبل الشرقي. وطيور النهار استيقظت تتصـــايح بعـــد أن خفـــت صـــيحات طيور الليل. حظائر نجع أورّك تتصاعد منها احتجاجات تصلهم.. حمير تنهق وأبقار تخور وأغنام تثغو. كل يطالب بإخراجه من محبسه، كل يطالب بفطوره. كل يحتج على نسيان أصحابه لها.

الجلســـة جمعت ابن عم هَمَرين، وآبدون الذي يمثل جانب العمدة بعد سحب البندقيـــتين منهما معا. شيخ الخفر يقف خلف المجتمعين ببندقيته ومعطفه الداكن الرســـمي وعلى رأسه الطربوش العالي والذي بَهَت لونه الأحمر، وقد اطمأن بأن طـــرفي شـــاربه مدهونين صاعدين للسماء، وجوده خلفية لسلطة العمدة وقوته. وثلاثة من نجع نجيبيّة بجواره، أقسموا على أن يفوا كلهم بما اتفقوا عليه. يرحل هَمَـــرين من القرية ولا يعود. تُحرق كُتبه وكل محتويات حجرته ثم تهدم الحجرة نفسها وتغرق بالمياه لتعود طينا من جديد ويهشم السقف والنافذة ثم تحرق أيضا حتى لا تحوى الحجرة في أركانها أي فعل سحري مخبوء. وتنسى القبيلة كلها ما كان ولا ينطق أحد بحرف ضد عائلة الهَمَراب. تُدفن الفتنة تماما.

الصُـــبح مشتد والشمس علَت الجبل الشرقي. خرج هَمَرين، جلبابه أبيض! في حراسة ابن عمه والشيخ صَلاتو وآبدون. أبعدوا نُوري العمدة هو والخفيرين بعيـــدا. اللّعنات تنصب على هَمَرين وهو وسط الحماية. شاهد ناس القرية هَمَرين خائفاً لأول مرّة. رأسه تلتفت هنا وهناك مراقبة متوقعة أي شئ. ضفائره الكثيفة

ترتج مع تحركات الرقبة التي لا تستقر. وعندما حاول نُوري أن يخترق الصفوف ليفـتك بهَمَـرين، صـدّوه وأبعـدوه في صعوبة. لكن الكثير من الرجال والنساء يحـاولون الهجـوم على هَمَرين. شيخ الخفر تدخل للحماية تحت صيحات صَلاتو الآمـرة. يبعد الناس وهو يختلس نظرات غيظ إلى هَمَرين. لم يترك أحد الخفراء العاديين ليقوم بهذه المهمة! في عقله دوافع متشابكة، أن يبين للناس أن لاشيء يضـمره ضد هَمَرين، أي أن زوجته الشابة الجذابة لم تكن ضمن السيدات اللاتي ذهبن إليه كما يقال. وفي قلبه غل يريد فرصه لتفريغه لأن زوجته المغناجة، كانت فعـلاً ضمن اللاتي اغتصبهن هَمَرين. وما يزيد جنونه أنها لا تحمل همّاً لذلك. بل يخيل له أنها سعيدة باختيار هَمَرين لها..

هبطوا به إلى المرسَى. امتطوا مركب سَليمتو. مازال يحيط به من كل جانب الشـيخ صَلاتو وآبدون وابن عمه لكنهم بدون سلاح. ويحرس الجمع شيخ الخفر بالبـندقية الـتي يمسـك بها وماسورتها تتأرجح لهنا وهناك. أبحروا إلى الضفة الشرقية. هَمَرين يلتفت دوماً إلى الخلف ليطمئن ألا أحد يطارده، وفي نفس الوقت يراقب وجه شيخ الخفر ليقرأ فيه.. هل سيهاجمه؟ هل سيطلق عليه النار في أيّة لحظة وبأيّة حجّة؟ سَليمتو سأل في اقتضاب..

- أيها الساحر. هل ستتجه شمالاً أم جنوباً؟

أشار هَمَرين بذقنه ناحية الجنوب. فرد سَليمتو الشراع لتدفعه نسائم الشمال جـنوبا. الكل صمت يراقب ناس القرية وقد وصلوا إلى المرسَى يراقبون المركب بمن فيه. دقائق والمركب تسير بزاوية ناحية الجنوب الشرقي. اقترب من الضفة الشـرقية، بعـد أن قطعـت مسافة معقولة ناحية الجنوب، سَليمتو لا يرغب في الإبحـار جنوباً أكثر من ذلك وهو يحمل الساحر البغيض على ظهر مركبه. ثم أن أحداً لن يدفع له.

تقـدم هَمَرين مرتبكاً يستعد للهبوط، في سرعة ضربه شيخ الخفر بمؤخرة البـندقية فـي رأسه ذات الضفائر النسائية الغزيرة. تأوه هَمَرين ممسكاً برأسه. كـادت تقوم معركة في القارب بين شيخ الخفر وابن عم هَمَرين على بعد خطوات مـن الضـفة. قفـز هَمَرين في النهر، يخطو إلى الشط والمياه تغطي حتى أسفل بطـنه، يخطـو سريعاً خائفاً مرتعشاً، يهرول والتحذيرات أن يعود تتابعه. يسرع

مــرعوباً أن يطلق عليه شيخ الخفر النار. يصعد إلى البرج والتهديدات من خلفه تلاحقه ألا يعود إلى القرية أبدا.

الــرجال والشباب يسرعون حاملين المشاعل إلى بيت هَمَرين. صائحين الله أكـبر.. الحــرق للســاحر. تزغرد النساء والأطفال يهللون والكلاب مازالت تنبح فأطلقت بهائم القرية وهي في حظائرها صراخها المندهش لما يجري ولا تفهمه.

دخلوا حجرة هَمَرين. الشباب بمجرد دخولهم امتدت شعلاتهم إلى كل شيء فــورا. بدأوا الإحراق في فوضى فأفلت منهم النظام. الغضب والحماس والرعونة تتحكم فيهم. جُبنهم القديم من الساحر وجد له متنفساً للانتقام فاندفع. كل يريد أن يسـبق ويحـرق شـيئاً مــا. الكتب،الأصنام الصغيرة خشبية وطينية، الحيوانات المحـنطة من سحالي وثعابين، بوم وغربان. ألقوا في النيران جِفاناً طينية مليئة بذيول العقارب وأنياب مختلفة الأحجام وأظافر وأحشاء حيوانات مجففة.

طاشــت النيران وأحاطت بالغرفة فأسرع الشباب خارجا. الصيحات تتوالى من كل مكان..

- الله أكبر.
- الله أكبر.
- الحرق للساحر. الحرق لهَمَرين.

الأطفال يصيحون والأمهات يصرخن كل على طفلها. النار أمسكت في جريد الــنخيل الجــاف ثــم جــذوع النخل المشطورة بالطول والمكوّنة لسقف الحجرة. انفجــارات دوّت داخلها. أسقف الحجرات المجاورة تلقت ألسنة النيران فاشتعلت. لم يعد بالإمكان محاصرة النار الغول.

أسرع رجلان إلى غرفة الطيور والدواجن. وجداها تضرب بأجنحتها وتتقافز وومضات اللهب وسحب الدخان تأتيها وترعبها. خلعوا عمائمهما وأخذا يطاردنها بهــا لتخرج من الباب المفتوح. ضرب أحدهما جانباً ضعيفاً من السقف الجريدي فأفسح لها بأن تطير وتسرع في الجهة البعيدة عن النيران هاربة. وجدوها تحوم حــول صغار لها، أمسكوا بصغارها وبها أخرجوها ثم انطلقوا إلى حظيرة البهائم. حماران يرفسان الباب انطلقا فور أن انفتح لهما. أخرجا بقرة وعدداً من الماعز.

الجميــع خــارج الــبيت المشتعل. استعدوا بالمياه في البيوت المجاورة إن وصلتهم النيران. النساء بدلاً من الأغاريد أطلقن صرخات الرعب والتحذير..

- إبيوو -إبيو.

حيوانات القرية مازالت تطلق صيحاتها خائفة ومندهشة.

النـــار في بيت هَمَرين شعلة عظيمة تفور وترغي وتزبد. تهجم على ركن وتتصـــاعد مــنه. ثم تهبط لتعلو في ركن آخر. صار البيت كله ناراً عالية. النخلة الــتي تتوسط الحوش، الضوء الناري ينير ثلثها العلوي. خضرة شواشيها غلفتها حُمــرة الــنار وســحب دخانية سوداء تتصاعد من حولها في موجات ثقيلة غير منتظمة لتغطي ألسنة النار دقائق فتبدو الشواشي وكأنها تسبح في سحب سوداء. لــتعود ألســنة النار فتغلب عليها بأمواجها وشهيقها. الجمع العشائري ينظر إلى الــنيران. النار شديدة الحُمرة.. ناصعة الصُفرة تأكل البيت. ولولا حكمة الخوف عــلى تماســك القبيلة تغلبت عليهم، لأحرقوا الساحر وفتكوا بعائلته لتمتد النيران بين العائلات وتأكل بنيان القرية.

زال الخطــر عن بقية البيوت المجاورة. النساء بأطفالهن يعدن إلى البيوت. الشباب تفرق في أكثر من مكان. والكثير منهم ذهب مع الرجال إلى الجامع. تُجمع الميـــاه للوضوء استعداداً لصلاة الصّبح. بعدها الشيخ يعيد عليهم ما اتفق عليه.. ألا حديث عمّا كان. لا كلمة تسيء إلى امرأة من نساء القبيلة. وكل رجل مسئول هو عن لِسان أهل بيته نساء وأطفالا. فلا مساس بِعِرض لأمر حدث أو كاد. وافق الجميع فكان الاتفاق أمرا قبليا ملزما.

الكل رضى عدا ديوانة مسكين ونُوري العمدة. ديوانة غضبها داخلها فقط. وداخــلها وخارجها احتقارها المتزايد ساعة بعد ساعة لزوجها البخيل، الذي غلب سَليمتو الزير البارد في بروده، فلم يواسها بكلمة ولم تظهر عليه أيّة دلائل غضب أو غيــرة على ما جرى لزوجته وأم بنيه! أما نُوري لم يرضه الاتفاق. العدل من وجهــة نظــره.. إحراق الساحر. إحراق غريمه وعدوه هَمَرين. لا يستطيع أن يــتخيل مـــا كان سيحدث لنَبْرة. صَبّ غضبه عليهما معا.. الشيخ وآبدون. إنهما السبب في الموافقة على هذا الاتفاق الجبان.

الجانب الآخر من النيل. هَمَرين مختبئ وسط صخور على بطن الجبل خشية مـــن تهـــور الشباب، ربما يتبعونه ليقتلوه. دامي الوجه. ضربة بندقية الخفير أحدثـــت شــجاً في مؤخرة رأسه. الدماء أغرقت ضفائره. الألم والإرهاق عذابهما يهـــون. ينظر ناحية النيران ويسمع. النار تأكل منزله. الأغاريد فرحة من النساء

ثــم صراخ الخوف من امتداد الحريق. تغلبت القرية عليه وتم طرده. يتحسر على مجـد يحـلم به من صغره وفقده مرتين. يتحسر أن نُوري العمدة متوسط الذكاء ضـعيف الشخصية تغلب عليه للمرة الثانية. يتحسر أن نَبْرة وقد كادت أن تكون شـريكة فراشــه يسـتمتع بها ويطعن بها نُوري طعنة نجلاء لا يقوم منها طوال الحياة. لكن، صدفة.. صدفة غبية أنقذتها منه، أنقذت زوجها البليد.. صدفة غبية أطاحت بأحلامه.

بصـق عـلى القرية. قام. هبط إلى ضفة النهر وأخذ طريق الجنوب. وكل بضـعة خطوات يلتفت ناظراً إلى القرية في حقد وغل. يمسح عرقه الغزير ويتأكد أن الجـرح توقف عن النزف. ولما أخذ مسافة بعيدة والشمس توسطت السماء، وقف والتفت ناحية القرية. بقي ناظراً إليها. معالمها اختفت، لكنه يحدد مكانها من هيـئة الجبل خلفها. بقايا النار هَبّت هَبّة أخيرة تودع الحياة فانعكس ضوؤها على باطن الجبل، ثم دخان أسود يتصاعد في زفرة أخيرة وسط ضوء الشمس الغالبة.. قال ودموع الهزيمة والحسرة قليلة رغم سخونتها وحرقتها..

- سأعود.

في غرفة نَبْرة والزحام كثيف، سلاطين وسِسِّي يقفان خلف الناس باكيين. أبعدهمـا آبدون عند الحائط البعيد. نُوري خلال التفاتاته الكثيرة المرتعشة ضربه صوت بكاء سِسِّي مناديا أمه. ذهب إليه ملهوفاً. أراد حمله في حضنه ليُهدئ من روعـه. لكن يد سِسِّي في يد سلاطين متشبثة به. نظر العمدة.. سلاطين، تماماً نفـس وجه خاله هَمَرين. ابن أخت هَمَرين يأويه هنا في بيته! ويمسك بيد وحيده وخليفـته سِسِّـي الذي كاد خاله أن يزني بأمه! لم يشعر بأن سلاطين أيضاً طفل صـغير يـبكي خوفـاً على عَمته، مُرتعِباً من كل هذا الزحام وكل هذه الضوضاء والصـيحات والصـرخات والـنار التي أفزعته. نُوري ضرب تشابك يدي سِسِّي وسـلاطين فـانفك التشابك الطفولي. سلاطين توقف عن البكاء وهو رافع صفحة وجهـه يراقب الحقد والاحتقار الموجهين إليه من عيني زوج عَمته الذي يعلوه. العمـدة حمـل ابـنه بيـد وباليد الأخرى دفع سلاطين بعنف فارتطم جسد الطفل ومؤخرة رأسه بالحائط خلفه. ابتعد العمدة حاملاً ابنه عائداً للسرير الحاوي لنَبْرة. أخـذوا الطفـل منه حتى لا يرتعب أكثر من هلاوس أمه. لكن لم يهتم أحد للطفل

الآخـــر المـــرعوب.. سلاطين الذي اختبأ بعيداً عن الكل تنز عيناه دمعاً وتنزف مؤخرة رأسه دما.

في الصباح التالي للواقعة، سلاطين كلما قاربه سِسِّي ليحادثه، ليمسك بيده، يبـــتعد عـــنه خوفاً من العمدة. يخشى أن يأتيه زوج عَمته فيطيح به مرة أخرى ويشـــجّ رأسه. يخشى أن يرى في عينيه الكره والاحتقار مرة أخرى. لكن سِسِّي يحاول ويكرر المحاولة أن تتشابك أصابع يده في أصابع يد سلاطين.

أتـــت هكيمـــة بالطعـــام للطفلين. رأت الدماء وقد لوثت جلباب سلاطين من خلفه. أبدلت له جلبابه. سلاطين تعجَب من نظراتها التي بها شئ غريب لم يتعوده مـــنها، وهي تربط له جرحه بكل هذه الشفقة والحب. لم يقل من الذي شج رأسه، ولم يتكلم سِسِّي، فظننت أن الجموع دفعته بدون أن تدري. لم يأكل سلاطين، لاحظ أن الكـــثير من المترددين على البيت للاطمئنان على عَمته نَبْرة، لاحظ أنهم عندما يـــرونه يـــنظرون إليـــه في عدم رضاء. في ضيق.. في استغراب.. في شفقة. وبعـــض الأعيـــن ترقبه في قرف، حتى الأطفال الأكبر منه قليلاً يتهامسون عنه. تذكَر نظرات عمته هَكيمة، أحس أنه أتى جرماً لا يفهمه.

إصـــابته لم يعد يجدي كبسها بالبن أو تطهيرها بالكحول. وضع يونس على الجُـــرح لبخة حتى لا يتلوث وليبرأ سريعا. سلاطين بعد هذا اليوم، عاش في هذا البيت وهو متيقن من بعد شك حاول أن يحمي به نفسيته المهانة، تيقن أنه ضيف ثقيـــل في بيت عَمته، أن زوج عمّته يكرهه تماماً. ومهما أعطته نَبْرة من عطف وحـــب، لم تستطع أن ترفع تلك المضغة الممرورة التي احتلت قلبه. كل ليلة قبل نومه، يتساءل..

– لماذا أمي هي التي ماتت؟ لماذا أبي تركني ورحل ولم يرحل أي أب لأي من الأطفال الآخرين؟

وبعد ظهور وغياب أكثر من هلال، حين عايره الأطفال بأن خاله هو الساحر الشـــرير هَمَرين، وأنه الذي هدد تكاتف القبيلة، تجسّـــد سؤال ثالث عنده ليس له جواب..

– لماذا من دون الأطفال يكون خالي هو هَمَرين الساحر؟

لا يعـــلم ما معنى كلمة ساحر! لكن بالتأكيد ساحر معناها شيء فظيع. شرّ بالغ. إن خاله شرّير. وفي نفس الوقت تيار تحتي يحيّره.. إن هَمَرين خاله يحبه.

لقـــد قابله.. أعطاه الحصان المجنّح ليلعب به. وثب في ذاكرته يوماً وكان أصغر عمـــراً، أن خاله هَمَرين كان يضع كفّه على رأسه حباً، يداعب شعره ويبتسم له وكـــاد أن يحملـــه ويقبّله، لولا تدخل نُوري العمدة. إذن، كيف يكون خاله هَمَرين بهذه الطيبة التي لا يجدها عند نُوري العمدة، ويقولون إنه ساحر؟!

فيضـــانات عديدة أتت هادرة في مواسمها المحدّدة ثم انحسرت. أتى معتوق رضـــيعاً غريـــبا إلى القـــرية، ليصير تلميذاً ويذهب إلى الكتّاب مع بقية التلاميذ مختـــلفي الأعمار. وفي يوم من أيام الشّتاء.. رَسَى على مَرسَى القرية الملاصق لصـــخرة دُجُر مركبان شراعيان منحدران من الجنوب. أسرع البعض إلى المرسَى فـــي جمهـــرة ليشـــاهدوا، وعدد يحملون زنابيل تحوى بعض منتجاتهم البسيطة للمقايضـــة بمـــا تحمله المركبان. مُهدي الأصفر وعماله الذين يساعدونه في مثل هـــذه المناسبات، احتلوا المكان المعلوم، أفضل مكان لمواجهة المراكب الراسية. المركـــبان من مراكب قبائل الكُنوز النوبية آتية في رحلة عودة من الجندل الثاني حيـــث مديـــنة حَلَفا التجارية. ما كاد ناس القرية يرصدون بضائع المركب الأول، حتى رسَى الثاني، فإذا برجال طوال أشداء عراة إلا من مآزر من جلد النمر تغطي عوراتهم. ومعهم ثلاث نساء مثلهم لا يرتدين إلا تلك المآزر المرقطة، ولا يقلون عـــنهم طولاً وقوة. ذوات نهود عارية صغيرة صلبة مرتعشة. يلمع سواد الجميع كالأبـــنوس. يهـــبطون مســـلحين بالرماح وأشباه السيوف العريضة والتي لا تقل لمعانـــاً عن أجساد حامليها. وسطهم ربعة بدين حليق الرأس تماماً، يرتدي جلباباً واسعاً مزركشاً بألوان صارخة. يتلفع فوقه بجلد نمر كامل شاسع. تتدلى من عنقه عقود خرز مختلفة الألوان والأحجام وأشكال من خيوط معقودة، وفي أذنه اليمنى قـــرط ذهـــبي صغير وفي اليسرى قرط فضي. ولمّا اقترب من الناس وجدوا في قدميـــه خفـــاً غريـــباً وضربتهم رائحة عطر ثقيل تنبعث منه. خلفه تابعه المشوه يحجـــل كالغـــراب داخل جلباب أحمر، على رأسه عمامة متوسطة فاقع صفارها. يسير بكتف للأمام وكتف للخلف. عوده نحيف بحيث لا يتصور أحد أن بداخل هذا المخلوق اتساع يتسع لمصارينه ومعدته، بالإضافة إلى رئتين مثل بقية خلق الله! نصـــفه العلوي مائل للأمام بانحراف إلى اليسار. وعجيزته داخل الجلباب الأحمر بارزة ولا يزيد حجمها عن قبضة اليد منحرفة إلى اليمين.

نـــاس القـــرية يبتعدون عنهما في خوف من شرهما ومن الحرس الأسود الغطيـــس المســـلح والذي بدأ ينقل متاعهم الكثير. لم يتقدم من هَمَرين أحد ليسلم

عليه. ابتسم هَمَرين باستهانة. سار رَكْبه على الأقدام سريعاً متجهاً إلى ضفة خور أورّك الغـربية، على الجانب الجنوبي من القرية. الأنظار تتابعه في رهبة وكُره. ومـن هناك تسلقوا جبل كارا المطل على الخور. وفي ثلثه الأدنى حيث المساحة المنبسطة في استطالة. توقفوا.. وفي حماس وبدون أن يفقدوا أي برهة، بدءوا في نصب خيمة كبيرة. لم تعطلهم حجرية الأرض.

أتى العمدة على حماره الذي يسرع بين الحقول منحدراً في المدق الرئيسي وخـلفه يجرى خفير بالبندقية. وبعده عدد من الرجال على حميرهم ليلحقوا بركب العمـدة. العمدة وجد ناس القرية وبينهم مُهدي في حيرة. نظر حيث اتجه هَمَرين وركْـبه. نُصِبت الخيمة الكبيرة وأخذوا في نصب بضعة خيام صغيرة. دار حديث متوتر بين العمدة وبين ناسه.. عدد حرس هَمَرين؟ أسلحتهم؟ حال هَمَرين نفسه؟ هيئـته؟ عاد العمدة ثائراً يتابعه من وصلوا بعده. أرسل يطلب بعض رجال القرية ليـنظروا في تلك المصيبة. لكن في مَرسَى دُجُر البيع والشراء أخذ مُهدي الأصفر وأتباعه وعدداً من الناس حتى أذان المغرب. المركبان معبآن بمشغولات من العاج وجلد التمساح. وأعشاب التطبيب وريش النعام والبخور والعطور. سيوف وخناجر ورمـاح وتماثيل عجيبة لوجوه بشر سود في حالة فزع وفي حالة شرود. كرابيج سـودانية وقطـع من قرون الخراتيت التي تبطل من مفعول السموم. يبيعون كل شـيء مقـابل زنابيل البلح الممتاز التي يعرضها مُهدى وأتباعه ويشيحون عن شراء الطواقي والحقائب والصواني والأبراش الخوص.

انـتهت صلاة العشاء، أغلب رجال القرية في جامع نجع أورّك. ثم انضمت إليهـم النساء. ديوانة في مقدمتهن وقد خرجت من محبسها وتحررت دموعها. العمدة نُوري والشباب والنساء معهم على رأي واحد، الهجوم على الساحر وقتله حتى لو حاربنا حرسه الشداد. لكن الكثير من الحضور صامت، منهم الذي يترقب، ومـنهم الـذي يود أن يقوم غيره بالقتال، ومنهم من يمزقه انتماءان.. انتماؤه للقبيلة، للقرية أصلاً، وانتماؤه لفرع العائلة.. الهَمَراب! كيف يشارك في قتل ابن عمه هَمَرين!

الشيخ صَلاتو يشير بيديه ليوقف همهمات الجَمع ويحاول هو التصرف في هدوء..

- خور أورك في الليل خطير بثعابينه وعقاربه. النهار له عيون. غداً صباحاً أذهب أنا إليه. إن قبل الرحيل عن القرية، إذن كفى الله المؤمنين شر القتال. إن رفض.. علينا قتاله. وللعلم يا ناس البلد.. هَمَرين ليس غبيا ليعود هكذا فجأة بدون ترتيبات احتياطية اتخذها بالفعل.

صاح العمدة رافضاً هذا الرأي، متهماً الشيخ بسوء التقدير، وأنه السبب في ضياع هيبة القرية، بإصراره طوال مواسم طويلة على إشراك الناس مع العمدة في إتخاذ القرارات ليكون له هو شخصياً دور ينافس به العمدة، فضاعت هيبة العمودية وقدرتها على سرعة البت والحسم وعقاب المارقين. ولو استطاع العمدة اتهام الشيخ بالجبن أمام الساحر لفعل، لكنه عاد مخاطباً الناس يحرّضهم على الهجوم الفوري. ذكّرهم بشروره، بخطره على وحدة القبيلة، بما فعل بالنساء لكن من وافقوه كانوا الأقلية.

تفرقوا وديواتة بين النساء مازالت تبكي. والجميع يعلم أن اقتراح الشيخ وتحججه بثعابين وعقارب خور أورِّك، بالرغم من حقيقته، إلا أنه أصلاً لوقف تهور العمدة الموتور. فإن قطاعاً كبيراً من الرجال الموجودين كانوا رافضين لفكرة القتال رغم أنهم لم يعلنوا رأيهم هذا. هَمَرين فعلاً ليس بالغبي ليعود هكذا فجأة.. ترى، ماذا أعد لعودته؟

لم ينم العمدة بسهولة، في حوش بيته على حصير جالس. بجواره آبدون الذي يتلقي لوم العمدة في صمت. يذكّره العمدة بالاتفاق الذي مكّن هَمَرين من الإفلات في المرّة السابقة. يلومه بقسوة ويلوم الشيخ ويلعنه بما لم يستطع لعنه به علناً في الاجتماع. يُدين ناس القبيلة التي صار انتماؤها الأساسي إلى العائلة وليس إلى القبيلة الأم. يُدين نظام القرية التي صار تحريكها مبنيا على عدد من الرجال يتباحثون في السر ولا يعلنون أمرهم علناً، وليس على الكلمة الأهم التي يصدرها العمدة بعدما يتباحث مع كبار القرية العقلاء. فلو كان الأمر بيد العمدة، لكان الهجوم على الساحر وحرقه والانتهاء من هذا الموضوع من أوله وقبل استفحاله. أتتهم نَبْرة تحمل أكواباً من منقوع الينسون. لتهدئ أعصاب زوجها.

الطفلين سِسِّي وسلاطين على فراشهما، لم يناما وصوت العمدة الغليظ العالي المتشنج يصلهما وهو يُقسم لنَبْرة وآبدون إنه سيحرق هَمَرين هذه المرّة

ولن يمنعه لا شيخ ولا غير شيخ. سلاطين وجهه ناحية الحائط. يمسك سِسِّي بيد سلاطين الممــدودة أعلى جانبه..

- نحن أخّان يا سلاطين.
- إيْ.
- لن تكرهني مهما كان؟
- أبدا.

ذهــب آبــدون إلى بيـــته بعــد لأي. نام سِسِّي مرهقا. وكان يريد أن يبقى مستيقظاً مع سلاطين حتى ينام سلاطين أولا. وسلاطين حتى تصايحت الديكة كان مســـتيقظاً يُفكّــر فـــي مصيره. يحاول أن يتوقع ما سيقع على خاله الساحر من عقاب. يُسائل نفسه..

- هل سيحرق العمدة خاله؟ هل سيجد العمدة صعوبة في الإيقاع بخاله كما يــتوقع آبــدون؟ هــل من الممكن أن ينتصر خاله هَمَرين ويحرق العمدة ويتولى العمودية ويقيم في هذا البيت ويتزوج عمته نَبْرة؟

ارتاح لهذا التوقع البعيد. لكنّه تذكر سِسِّي النائم خلفه فاحتار. ثم أقنع نفسه بأنه سوف يهتم بسِسِّي ولن يترك خاله يضربه كما يضربه نُوري العمدة.

فـــي نفــس تــلك الليلة تابع هَمَرين المشوه، كان يطرق الباب على مُهدي الأصــفر ومعــه دليل من ناس القرية. بقيا وقتاً قليلاً ثم خرجا يتلصصان ليدخلا عــدداً من البيوت. في الصباح التالي، صعد الشيخ وآبدون إلى جبل كارا، خلفهما خفيران ببندقيتيهما يرتديان ملابسهما الرسمية توقفا على حافة المستطيل. وجدا أعداداً من الحرس الأشداء بحرابهم أمام خيمة الساحر. والبقية تقوم بعملها بدون أي اهــتمام بهمـــا. النساء الثلاثة، اثنتان منهن يعملان في نسيج معقّد في هيئته وفـــي ألوانه وفي تعدد أنواع نسيجه. الثالثة تهبط من خلف صخرة حاملة وعاء خاليـــاً والــرداء الخفيف التي ترتديه لا يداري النهدينِ الفتيين ولا يخفي تقاطيع جسدها و لا يحجب أثر المياه التي انسكبت عليه خلال استحمامها. لم تهتم بالذين أتوا عابسين مهددين ودخلت إحدى الخيام الصغيرة.

تقـــدم الشيخ وآبدون وخلفهما الخفيران. خرج لهم هَمَرين. يبتسم في ثقة. جســـده أكثر امتلاء. رأسه حليقة تماماً مدهونة تلمع تحت سطوع الشمس. تقدم

مـــنهم متحاشيا الشيخ وآبدون. اقترب من الخفيرين، شيخ الخفر الذي يبحث عنه ليس من ضمنهمـــا. قال لهما..

- قــولا له ولــلجميع.. هَمَـــرينَ أتى ليبقى. قولا له خاصة.. إنني عدت. وسوف أحطم جمجمته. وستأتي لي زوجته مرّة أخرى متشوقة.

يعــلمان مـــن يقصد. تلفت بجذعه وأدار رأسه. الشّج الذي أحدثته ضربة مؤخـــرة البـــندقية أثره واضح، شج عمودي طوله يماثل طول إصبع. عاد للشيخ وآبـــدون. طـــلب الشيخ أن يدخلا الخيمة بعيدا عن لهب الشمس. رفض هَمَرين. حديـــث شـــديد القصـــر. رفض الساحر الرحيل في تحد وأنفة. ذكَراه بأن اتفاقهم السابق كان ألا يعود. رفض الاتفاق لأنه كان اتفاق إذعان اضطر للموافقة عليه. هدّده الشيخ وآبدون بأن الحرق للساحر، فرد عليهما الساحر تهديد الحرق بتهديد بحرق القرية كلها وأنه لن ينسى أنهم أحرقوا بيته.

حمل العمدة سيفه القديم الذي كاد الصدأ أن يضربه. الكثير من الشباب أعد المـــناجل وبعض السيوف القديمة والسكاكين الكبيرة. إلا أن القرية لم تتجمع عن بكـــرة أبيها. فمن الكثرة الصامتة ليلة أمس أعلن جانب منهم رفضهم للقتال. هم أقـــلية قليلة، لكن حول الأقلية القليلة، جانب من عائلة الهَمَراب، وجانباً من الذين آثروا السلامة، وبعض الرجال كان موقفهم الساكن مفاجأة للكثيرين، وعامل مهم فـــي كسر شوكة المتحمسين وأغلبية عددية صامتة لم تنضم لجانب من الجانبين فانشل ساعد القبيلة. الرافضين للقتال من الهَمَراب يتزعمهم ابن عمه الذي حماه مـــن قـــبل. ضاع النهار ولم تتفق القرية على العمل ولا على رأي. ضرب الشيخ صَلاتو كفاً بكف وهو يردد مقولته التي تجرى على لسانه كلما نغّص حال القرية قلبه..

- يا حسرة على العباد.

انكشـــف الأمر بعد ذلك بمواسم عديدة. هَمَرين كان على صلة بأتباع له في القـــرية، خاصـــة ابن عمه. الشّك كان في مُهدي الأصفر أيضاً لكن لم يستطع أن يقيم أحد عليه الحجّة. قيل أن هَمَرين أغراه بميناء تجاري نشط يكون مركزاً مهمّا بيـــن الجنوب وبين الشمال، مركز تجاري. ويكون مُهدي هو شاه بندر التجار كما يقول ناس الشمال، ويكون أكبر وأكثر أهمية من تجّـــار سُوين. وكما يحلم مُهدي منذ زمن هو زمن عمره. العربون الذي ناله كان المقايضة السهلة المربحة له مع

المركــبين. وإصبع ذهب صغير من مناجم أنف الساحل الافريقي الجنوبي حيث لم يذهب أي من ناس النوبة هناك من قبل، حتى سيدين الرحّالة.

العمــدة، آبــدون. يونس المجبّراتي وهاشم الكيد، معهم الخفيران وشيخهم ببــنادقهم وبينهم عدد من الشباب اقتحموا خور أورِّك. هبطوا صائحين من ضفته الملاصــقة لنجوع أورِّك. يجرون في باطن الخور فتمتص رماله قوتهم وتصيبهم بالإرهــاق. يجــرون يجــرون يجرون. صعدوا ضفته الملاصقة لسفح جبل كارا. أنفاســـهم تـــتهدج. تســلقوا قــليلاً سفح الجبل يشجعهم عدم وجود أي من اتباع هَمَــرين. لكنهم عندما اقتربوا من المستطيل المنبسط حيث مخيّم هَمَرين، وجدوا أنفســـهم داخــل مصيدة أعدها لهم هَمَرين.. عصابته تحاصرهم من كل الجهات مصــوبين إلى صــدورهم وظهورهم الحراب والنبال في نظرات نارية تتحدى. إن بــدأت إحدى المجموعتين القتال لا يضمن أحد مَنْ المنتصر. تجريدة القرية أكثر عــدداً وعدّة. لكن جنود الساحر في موقع أفضل، ونبالهم أسرع قذفاً من البنادق القديمـــة. كـــاد هاشم الكيد أن يتهور. كاد نُوري العمدة أن يهاجم. يونس يطالب بالصـــبر. قـــال إن موقفهـــم سيئ وتقهقر من قبل أن يوافقه أحد. كلمات وتقهقر يونـــس صـــدّعتا الجمـــع. أخـــذوا جميعاً في التراجع وضحكات هَمَرين تتصاعاً وتخزيهم.

بالإغـــراء الثقيل، وافق ثلاثة رجال ممن يملكون خبرة البناء، وافقوا على العمـــل في بناء بيت هَمَرين. يوميتهم بالفضة الحرّة. أتباع هَمَرين السود سوف يقطعـــون لهـــم الأحجـــار من الجبل نفسه. هم عليهم جلب المياه اللازمة للبناء. الرجال السود الطوال عملهم مستمر طوال النهار وقطاع من الليل. يملأون المياه فـــي جرار يحملونها على رؤوسهم مثل النساء ويصعدون بها حتى مكانها العالي في جبل كارا لاحتياجاتهم واحتياجات هَمَرين وتابعه والنساء الثلاث!

سَليمتو خشي أن يتعامل مع هَمَرين علناً. أسرع إليه ابن عم هَمَرين. كَبَسَ عليه في بيته. عرف كيف يسوسه. أخذه من ناحية ضعفه أمام المال. ثم بتهديده بـــإعلان أنه كان بمركبه المرسال بين هَمَرين وبينه، وبين هَمَرين ومُهدي أيضا. إن مـــا سَـيُعلن أخطـــر مما لو عمل علنا الآن معه. وسيكون عمله مع ابن العم وليـــس لـــه دخـــل بهَمَرين. دخلت تَعويضة وعرفت الأمر.. ثارت عليهما معا.. تلعـــنهما وتـــلعن أجدادهما وتذكرهما بشَر هَمَرين على القبيلة وما فعله بالنساء.

وأنهـــا هي البطلة التي أنقذت نَبْرة من فراش هَمَرين، فكيف يأتي زوجها التّيس ليتعامل مع هَمَرين؟ قال ابن عم هَمَرين إن سَليمتو كان الرسول. أمسكت بتلابيب سَليمتو الذي يرجوها أن تخفض من صوتها. ترجّــه ثم أطاحت بالعمامة والطاقية فكشفت عن رأسه الصلعاء. كادت تصرخ لتجلب المشاهدين كالعادة. عاجلها ابن العــم بأمر كيس الفضة الذي أخذه سَليمتو مقابل خدماته. هبطت ثائرتها. صارت تؤنــب سَــليمتو كيف يدارى عليها مكاسبه. ولما استرسل ابن عم هَمَرين مبيناً الــرزق الذي سيجرى على يدي سَليمتو إذا عمل مع هَمَرين، وكيف انه سيضمن العديــد مــن الرحلات إلى الجنوب والشمال ولن يبقي يوماً بدون عمل، والمقابل ضــعفا ما يأخذه عادة، وأقسم لها إن هَمَرين لن يقترب من القرية ولا من ناسها ونســائها. استمرت تَعويضة في لعن زوجها.. لكن لأنه مُتردد في قبول عرض ابن عم هَمَرين الطيب الكريم. أنهت المفاوضة بقولها..

- ستقوم بالعمل المطلوب منك أيها الزير البارد.

مُهــدي الأصــفر لــم يقم بأي عمل علني مع هَمَرين أو مع ابن عمه، لكن دكانه ينتعش بالبيع والشراء. والمفاوضات مستمرة في سرية إعداداً لما هو آت. وان كــانت عينه تورمت من ضرب زوجته ديوانة له ولعنها إياه بأنه ديوث، فإن مُهدي الأصفر سعيد بالفضّة التي أتته والذهب الذي يتوقعه.

أيام ورحل الرجال السود. بقى هَمَرين وصار له أتباع خاصين به من رجال القرية نفسها. لكن بقاءه إلى حين.

عــادت آلام ســلاطين. لم تكن هدأت. طيلة المواسم القليلة التي غاب فيها خالــه هَمَــرين. لــم يرحمه العمدة ويمنع نظرات عدم الرضا تجاهه. تعبت نَبْرة لتهدئ زوجها على ابن أخيها. ما يوقف العمدة عن سلاطين ليس رجاء نَبْرة فقط، بل وعد قطعه على نفسه لأثمان كُورنة.. أن يربي ابن أثمان كأنه ابنه هو.

الأمور كانت عند سلاطين قد أخذت في الاستقرار البارد، فإذا بالساحر يعود ليشعل النفوس. يزداد احتياج سلاطين إلى أبيه الهارب جنوباً، فيعود خاله.. وأبوه لا يعود! ثم إنه لا يكره خاله بل يشعر بحب ناحيته، يشعر بإعجاب أن خاله وحده يسبب كل هذا القلق للقرية وخاصة القلق والرعب الذي يبثه خاله في قلب العمدة! لا ينســى محاولة خاله بأن يُقبله، وعطفه وهو يداعب شعره. ولا ينسى الحصان

المجنح الذي أعطاه له وحطمه العمدة. يحلم به كثيراً في أحلام يقظة. يطير على ظهره فوق القرى حتى الجنادل، بعيداً عن بيت العمدة وذلّه.

بعد الغروب، الليل يلقي بأولى غلالاته الظلامية الخفيفة. البعض مفترشين الأبراش أمام دكان مُهدي بجانب شجرة الكافور. يتجادلون في أمر هَمَرين. يدافعون عن موقف مُهدي وكيف أنه على حق في تعامله مع أتباع الساحر. رجلان فقط يعترضان ويتهمان الجالسين المتحوطين بمُهدي بأنهم وراء مصالحهم الخاصة وأن وجود الساحر هَمَرين سيجلب النحس والشر على ناس القرية كلهم بما فيهم مُهدي وسَليمتو وابناء أعمام هَمَرين أنفسهم.

ارتفعت أصوات المجادلات مع توالي غلالات الظلام المنسدلة، مُهدي ومن معه يسخّفون من المعارضين لهم. لم ينتبه أحد لوجود ديوانة الجالسة في مكانها المعتاد وحدها. تقرفص متربعة على المصطبة عند أقصى الطرف البعيد من البيت. الظلام يغشى الضوء. والأصوات العالية للمجادلة تخترق السكون المحيط وتنتشر. لم يرها أحد منهم وهي تقوم وتسير مقتربة منهم كأنها شبح قدَري يتقدم في هدوء وثقة. مرت من بين الرجال الجالسين فرادى على الرمال. مُهدي يقف على باب دكانه متكئاً على جانب من حائطه. رأى ديوانة قادمة ناحيته في وجوم. بقى في وضعه المائل ناظراً إليها في تساؤل. يطمئن من قوتها وعافيتها منذ وقت طويل.

ديوانة وقفت أمامه لحظة. الكل صمت في ترقب. أحس مُهدي بالخوف، وقبل أن يعتدل كانت قد انقضت عليه آخذة رأسه الأقصر منها بين كفيها المتشنجتين وجذبتها ناحية فمها، صرخ صرخة عالية ومقدم أسنانها يقضم أعلى أذنه اليمنى. حاول الرجال إبعادها. مُهدي يشيح بيديه في استرحام لزوجته، يصرخ مستنجداً بالرجال. سقطت عِمامته أرضاً ثم لحقت بها الطاقية. وكلما دفع الرجال ديوانة ليبعدوها عنه صرخ مُهدي أكثر لأنها تأخذه معها من أعلى أذنه المحشورة بين أسنانها. أتى فَيّاج، يترجى أمه أن تترك أباه. أحد المعارضين لتجارة مُهدي مع أتباع هَمَرين يحاول كتم ضحكاته ولم يستطع. فَيّاج يبكي شفقة على أبيه وخجلاً من موقفه. صراخ مُهدي تحول إلى عويل. تركته ديوانة وأذنه اليمنى فاقدة جزءها العلوي والدماء تندفع لتلطخ جانب رأسه وتسيل على رقبته وجانب كفّه بإبهامها التي يحاول بها كتم آلامه من حول أذنه فلا تعذبه كما تعذبه.

دفعت ديوانة رجلاً بعيداً عنها ثم بصقت ما في فمها ناحية مُهدي الذي يتلوى على الرمال. مسحت الدماء من حول فمها وبصقت بقاياه وهي تعود إلى ركنها في هدوء كما جاءت.

زحام حول مُهدي. أقبل ناس النجع سريعاً لكن كانت الواقعة قد انتهت. لم يقترب من ديوانة أحد. ولما جاءت هكيمة جلست بجوار ديوانة ووضعت يدها على كتف صديقتها لتهدئ من رعشتها العصبية. أخذتها إلى داخل البيت.

سلاطين وسِسِّي يجلسان على غصن من شجرة التوت التي تتصدر ساحة الأعراس بجوار مثيلتها. الظهيرة والشمس لا ترحم. يأتيهما صوت نَبْرة تناديهما. سِسِّي يضحك لأن أمه عند باب البيت تنادي ولا تراهما. يحادث سلاطين الذي لا يجيبه. سلاطين ينظر بعيداً حيث النيل وبعده الجبل الغربي الأجرد. تحيّر سِسِّي..

- سلاطين، أنت غاضب؟

- إيْ.

- مني أنا؟

- قلت لك قبل ذلك مرّات ومرّات.. لا.

- من أبي؟

- من كل شيء. لماذا أنا يتيم الأبوين؟ لماذا يكون خالي أنا بالذات هَمَرين الساحر؟ لماذا وجهي مثل وجهه؟ لماذا أولد مثله ويعايرني الناس بنظراتهم؟ ولماذا يحاربونه الآن؟ ولماذا عندما يتحدثون في سيرة أبي يبتسمون في سخرية؟ وأبوك.. عندما رفضت أنت طاقيتك الجديدة يلقيها عليَّ كأني شحاذ؟ أخطئ أنا فلا يسامحني. تخطئ أنت يضحك لك! لأنك ابنه.. وأنا اليتيم. اسمع يا سِسِّي. أنا لا أكره خالي هَمَرين حتى لو أنه حاول مضاجعة أمك. أتفهم؟

هبط من الشجرة. يسير وحده في خطوات سريعة. لا يأبه براضية التي أتت من البيت مسرعة ناحيته ليحملها بعيداً عن الرمال التي تلسع باطنى قدميها ويسير بها ملاعباً لها، فأبعدتها نظراته الرافضة. يضرب بكعب قدمه الحافية على الرمال. تخطي دروباً وبيوتاً، تخطى بيت أبيه الأصلي. فليس له دخل به. وقف أمام بيت هكيمة. يقولون أنه بيت جد آبدون أصلاً، جوش الكبير، لكن المهم أنه صار بيت أبيه. اشتراه أبوه أثمان كُورنة بماله. إذن، هذا البيت بيته هو.. سلاطين. هنا وُلد. هنا ماتت أمه. لم يدخل. ينظر إليه من الخارج وهو كظيم. لا

يبالي بشمس الظهيرة القاسية. تخشّب أمام بيت أبيه الهارب. أعطاه لآبدون مقابل أن يـتزوج هَكيمة. ثم لا تكتفي هَكيمة بما غنمته، فتأتى بطفل غطيس أسود غير معـروف النسـب، لقيط عَبد. تعامله كأنه ابنها وتفضله على ابنها أولوا. وهو سلاطين ابن صاحب البيت، يتربى كلقيط لا بيت له ولا أبوين!

اندفع كبش خارجاً من الباب تتبعه شاة ثم هَكيمة تطاردهما لإعادتهما. رأت سلاطين على بعد قليل أمام الباب يقف تحت شمس الظهيرة واجماً ناظراً إليها في غضب. تَعجّبَتْ. تركت الكبش والشاة يذهبان حيث شاءا..

- سلاطين! لماذا تقف هكذا؟ ادخل. تعال.

نظـر إليهـا سـلاطين وعيناه مليئتان تبرماً وحسرة ورفضاً لها وللبيت. أعطاها ظهره وابتعد يضرب بكعب قدمه الرمال.

تهدأ الحوادث قليلا. هَمَرين يكبت نفسه أن يتهور مثلما تهّور من قبل. يقنع نفسه ليهدئ من تلهفها..

- إن الرَويّة أفضل. فلآخذ القرية في هدوء. فلأزيح العمدة في هدوء.

الأيام تتوالى عادية على السطح. تتململ النار في الباطن.

في نجع المنحنى أصروا على استضافة تَعويضة لِسانين لكي تحكي لأطفالهم حكاياتهـا. ذهبت معها العديد من نساء نجع أورّك ونجع نجيبيّة ومعهن أطفالهن وأزواجهـن، فحَكْـي تَعويضة لِسانين حَفل بهيج. هَكيمة تشبث بها معتوق حتى وافقت على الذهاب معه. آبدون في زيارة لقرية مجاورة لعدد من الأيام.

بعـد الغروب، الحكي أخذ تَعويضة لِسانين تماما. تحكي عن أشد المخلوقات إرعابـاً للـنوبيين في تيه الجبل الرابض خلف القرى. غولة الإيركابي التي تأكل الجِمـال الشاردة في وجبة ثم تستكمل امتلاء معدتها بذئب أو ضبع، ويا حبذا لو كـان إنسيا تائهاً أو عابراً لدرب الجِمال وحده بدون تحصين سحري. وأشهى ما تأكلـه ليس نوعاً من الفاكهة، بل هو لحم الأطفال. وتُبَيّـن تَعويضة كيف تعشق الإيـركابي قزقزة عظام الأطفال مثل حبوب لب البطيخ الطرية! وحين تقبض على عدد منهم تحبسهم في كهف وسعه وسع القرية بنجوعها، وتأكل واحداً بعد واحد كنوع من الفاكهة بعد كل وجبة تأكلها. تحكي عن فظاعة الإيركابي وكيف تتحايل عـلى الأطفـال حتى تختطفهم وتشويهم على النار ثم تضعهم على صينية خوص شاسـعة وتلـتف حولهـا الإيركابي وأطفالها البشعون الذين يأكلون لحم الأطفال

الإنســيين والعرق يسيل من وجوههم وأعناقهم. وتحدد أوصاف أولاد الإيركابي.. الضخم الذي نابه بطول ذراعه. الطويل الذي عند كمال نموه سيصل لطول نخلة. أحدهــم أعمى يتعثر كثيراً في أغراض البيت مثل حماها عسل.. تمثل كيف يتعثر فيقع. يضحك الأطفال وتضحك النساء والرجال مع إصدار أصوات عدم رضاء عن هــذه الســخرية. لِســانين تحكي عن العديد من الحوادث التي حدثت نتيجة لعدم ســماع الأطفال نصائح والديهما بعدم ذهابهم بالقرب من الجبل والصحراء، فكانوا وجــبات شهية للإيركابي وأطفالها تنبه أن عائلات الإيركابي هم المغرمون بتقليد حفلات الأعراس واستدراج الناس السكارى والمساطيل والأغبياء والأطفال للجبل، ثم فجأة يتركونـهم ليتوهوا فتأكلهم الوحوش.

تشــعر تَعويضــة باللذة وقد ارتعب الكبير والصغير. تبين بتمثيلها المنفعل كيــف أن زفير الإيركابي حين تغضب يتحول إلى هَبّات من رياح تتضاعل بجانبها ريــاح جُنيب المهولة. وإن زفرت الإيركابي ووجهها ناحية قرانا.. إبييو - إبيوو. داهية تحل، تكتسحنا زوابع ريح العفريت الدواميّــة. أرجلها العديدة على الأرض تتســحّب متــلهفة وقمــة رؤوســها تصــل للسماء. تأتينا دائماً في عز الصيف والســخونة، محمــلة بالرمال سافة معها الكثير من العقارب والثعابين والسحالي التي تشفطها من الرمال ومن جحورها، وعظام الوحوش الميتة وعدداً من الحدآت والغربان والصقور. تلقي بحمولتها علينا وتسحب معها الكثير من الحمام واليمام وتقطف عناقيد العنب من الكروم وسباطات البلح والثمار من أعالي الأشجار لتعبر النهر وتأخذ معها السمك ثم تضرب نفسها في قمم الجبل الشرقي ملقية حمولتها هناك حيث تنتهي هي.

بعد الحكي، عاد الناس بأطفالهم والظلام جاثم. لم يكن الأطفال هم الوحيدون الذيــن ضــربهم الخوف من الجبل ومن الإيركابي. بل كانت النسوة غارقات في الخوف فضلاً عن الرجال الذين سمعوا حكايتها والكل يلعنها ويلعن استغراقها في أمــور الرعب التي تستمتع هي به. وقبل الدخول على نجع أورّك وسرب الحمير يمــتطيها نــاس النجع وقد تقدمهم رجل يردف ابنه خلفه وأمامه فانوس، وعلى يميــنهم رجــل بفانوس وعلى يسارهم مثله، فصارت النساء والأطفال في مأمن نفســي، اقتربت تَعويضة بالحمارة المُتعَبة التي تركبها وقد وضعت ابنتها هُوشَة أمامها، اقتربت من الحمار العالي الذي تركبه هَكيمة وأمامها معتوق. قالت..

- هَكيمـــة، لـــو جـــئت بمعتوقك هذا بعد يومين ثلاثة لتقولي لي إنه شاهد الإيركابي وحادثها.. سوف أموت.

- هاها. هل تخافي من حكايات تحكيها أنتِ وتزيدين وتعيدين فيها؟

- معتوقك هذا يخيف الجِن. وأنا أحكي عن الجن والعفاريت والشياطين من شدة خوفي منهم.خاصة من يسكنون الجبل.

الكتّاب، خلال العودة ظهر يوم، ألعاب تركها من شبّوا قليلاً لمن هم أصغر. سلاطين المكبوت يخرج توتراته خشونة وعدوانية على الأطفال أكثر ممّا تعودوا منــه مــن قبل، ولا يسمح لرفقته أن يظنوا مجرد الظن أن مكانته اهتزت لمجرد حكايــات خالــه الساحر. حذّر سِسِّي أكثر من مرّة أن يشير بكلمة واحدة أن أباه العمــدة يضربه أو حتى يزجره. ترك سلاطين الجسروأخذ طريق الخور. اقتنصت راضــية الفرصة. اقتربت من معتوق فابتسم لها. أمسكت يده وسارا على الجسر الحجري، يتقدمها معتوق قليلاً فالجسر بالكاد يسعهما. خلفهما بقية الأطفال. أولوا مــن تحت لمحهما معا فاستشاط غضباً. صاح. أسرع سلاطين عائداً وأولوا خلفه يحرضّــه وهو لا يحتاج إلى تحريض، التعالي من العمدة الذي يحرق قلبه، يسكبه عــلى هــذا العــبد اللقيط. معتوق أحس بالشر المقبل، أبعد راضية وبقية الأطفال للخلف قليلاً وتقدم وحده. سلاطين من أسفل بكفيه يغرف الرمال الناعمة ويقذفها ناحيــة معتوق وهو يلعنه باللقيط. معتوق يبعد وجهه ويغطي عينيه بكف يساره ويميــنه تمســك بحقيبة القماش. خلفه انكمش صف الأطفال على بعضه. أياديهم الخاليــة مــن حقائبهم القماشية يحمون بها أعينهم من الرمال ويصرخون خوفا. ســلاطين ينحــني أرضــاً ليجلب الرمال ويقذفها ناحية معتوق في آلية متحمسة سريعة. راضية تقدمت مسرعة لتحمي معتوق بمنع سلاطين حثو الرمال. انحنت لأســفل لتلوم سلاطين فصفعتها قبضة من الرمال فدخلت بعض حبّات في عينيها. اعــتدلت مضــطربة فمال جسدها للخلف. خشيت السقوط بظهرها، تقدمت خطوة فسقطت من أعلى الجسر تحت أقدام سلاطين صارخة.

كــان سِسِّي قد اقترب وشاهد عن قرب أخته وهي تسقط صارخة. سلاطين يقف مذهولاً. هجم سِسِّي على سلاطين، يضربه ويعضه وسلاطين يتراجع ونظره عــلى راضية التي تصرخ ألما. وثب معتوق من أعلى الجسر وترك حقيبته. حمل راضية وأسرع ليعود بها إلى نجع أورِك. سلاطين نحى سِسِّي جانباً وأسرع خلف

معــتوق وقد تملكه الغضب العنيف على معتوق وكأنه مسئول عن إسقاط راضية! لحــق بــه. أمسكه من ظهر جلبابه. معتوق يقاومه ويحاول سرعة الوصول إلى الــنجع لعلاج راضية. جذبه سلاطين جذبة قوية فأوقعه على مقعدته وراضية بين يديــه تصــرخ. لم يجد معتوق مفراً فترك راضية على الرمال وقد قبع بجوارها سِسِّــي. عاد سلاطين يحثو الرمال على معتوق. اندفع معتوق محنيا رأسه كثور فأصــاب سلاطين في بطنه وأوقعه أرضا. جثم عليه، خنقه بيد وبالأخرى يكيل له اللكمات. سلاطين لم يأبه بالأطفال كباراً وصغاراً يراقبونه وهو ملقي كالذبيحة. كل همّــه في يد معتوق الكلابية وهي تكاد تمنع عنه التنفس ولم يشعر بالأخرى التي تدمي وجهه السمين. سِسِّي تركهما وحاول حمل راضية التي يتعالى صراخها بين يديــه كمــا كــان يحملها معتوق فلم يستطع. أوقفها ومن أسفلها حملها معتدلة. راضــية صــارخة تبعد يسراها عن الاحتكاك بجسم أخيها. أعلى صدرها ورأسها مــنحدرة خلف سِسِّي. فيّاج وأولوا وبجيوَة وكِسبانة وبُرون تكالبوا على معتوق ودفعوه فألقوه جانباً. انقضوا عليه كلهم بما فيهم سلاطين.

رفض العمدة انتظار يونس المجبّراتي الذي طُلب لمعالجة مريض في قرية مجاورة، ذراع ابنته بها كسر وهذا أمره بسيط، لكن عظمة الكوع مصابة وكأنها تحــركت من مكانها، وهذا ليس بالأمر البسيط. حمل ابنته على الحمارة فأسرعت بهما إلى حافة النجع. هبطت بهما خور أورّك. وعندما بدأت تصعد جبل كارا أمر الخفيــر الذي يلاحقه عدواً بالعودة. في دروب صخرية تصعد بهما الحمارة حتى وصل إلى المساحة المنبسطة، اتجه ناحية المبني الجديد، بيت واسع محاط بسور مــن الدبش. لم يبال بالرجال الذين يراقبونه عن كثب. وثب نُوري حاملاً راضية. ضــرب الباب بقدمه. هذا البيت هو البيت الوحيد الذي يغلق أبوابه. استمر نُوري في ركل الباب وهو ينادي..

- هَمَرين.. هَمَرين.. هَمَرين هووي.

انفــتح الــباب عن التابع المشوّه. لم يلتفت إليه نُوري. اندفع إلى الحوش بحملــه الخفيف الغالي والذي لا يكف عن البكاء. حجرات كثيرة، وحجرة واسعة عــلى بعــد بلا نوافذ. أسرع نُوري إليها. ضرب الباب بقوة فانفتح الباب مرتطماً بــالجدار فــي دَويّ. المشــاعل المضيئة في الداخل تراقص ضوؤها نتيجة لتيار الهواء المفاجئ. الغرفة بجدران عالية مبطنة بالطين ثم دهنت بلون أزرق مزهر.

في الركن المقابل للباب وفي الزاوية تماماً فانوس منير خلف أفرع شجر مدهونة بالسـواد، مثبـتة من آخرها على الحائط وعلى أطرافها رُشِقت كائنات محنطة.. رؤوس ذئاب وضباع وثعالب، ثعابين متنوعة وسحالي ضخمة، يتوسطها تمساح صغير. كلها أفواهها مفتوحة في حالة رعب وإرعاب. ضوء الفانوس يسطع على ظهورهـا وتـرك وجوههـا في غموض مفزع تلمع أنيابهم كأنها نصول أسلحة. وعندما تتوهج الشعلة الصغيرة في الركن المقابل، تلقي عليها موجات ضوء أحمر فتـبرق عيونهـا ويخيل للرائي أن تلك الكائنات المفزعة سوف تثب عليه في أية لحظـة. عـلى جـانب من الجدار الآخر أسطر معلقة من أنياب الوحوش متنوعة الأحجـام في تسلسل حسب ضخامتها. وفي جدار ثالث نابا فيل وقرون لجاموس إفريقي وتيوس. أعلاها ثلاثة من جلود التماسيح الضخمة.

الأكلمة تغطي أرضية الغرفة كلها. لا يوجد كنب للجلوس. هَمَرين في الركن الأيسـر على فروة نمر. على جانبيه مبخرتان من طين يتصاعد منهما الدخان ذو رائحـة طيـبة لكنها ثقيلة. وخلفه أرفف من كتب كبيرة قديمة صفراء متهالكة. الشـعلة الكبيرة خلفه فورات نيرانها تتراقص وتسقط توهّجاتها على ظهر هَمَرين العـريض السـمين وعلى رأسه الأقرع تماما. لحيم، يجلس على مقعدته الثقيلة. بـارد الحركة. نظر إلى العمدة في بطء. راضية خبأت وجهها في صدر أبيها من الخوف وكتمت بكاءها. وضع العمدة راضيه أمام هَمَرين وهي تحاول الدخول في حضنه. عادت إلى البكاء الصارخ. تبادل الرجلان النظرات. ابتسم هَمَرين ابتسامة صفراء وهبط بعينيه إلى الطفلة. ذراعها الأيسر مكشوف. تحسس عظامها خاصة الكـوع وراضـية تحاول الفرار منه. العمدة لا يطيق صبرا. ترك هَمَرين الطفلة ونظر لسقف الحجرة في شموخ..

- اذهب يا نُوري. عد عند الشفق.
- ذراع وحيدتي. تصرف الآن. الآن.
- اتركني في خلوتي حتى الشفق.
- ابنـتي، ألا تسمع صريخها؟ كيف أتركها ساعة زمن أخرى؟ أنت ساحر وطبيب ومجبّراتي.. تَصرّف.
- اذهب إلى يونس المجبّراتي.
- أرسله مُهدي إلى قرية مجاورة.

- إذن، الشفق موعدنا.

- بــل الآن. أنــا العمدة. عمدتك. هل ستعود معي لمحاولاتك العقيمة؟ لن تذلني بوحيدتي يا هَمَرين؟ ألن تنسى أبداً؟ سنُعالجها الآن.

وصــلتهم أصــوات ناس القرية الذين وصلوا متابعين لعمدتهم. دخل التابع المشوه يبلغ هَمَرين. نظر إليه هَمَرين نظرة العالم بما يجرى. وقف المشوّه جانبا. الطفلة تنشج ولا تريد أن يقربها هَمَرين، تدفس نفسها في جسد أبيها البارك على ركبتيه قبالة هَمَرين الجالس على مقعدته في رسوخ الواثق.

- الشفق موعدنا.

صياحات ناس القرية أعطت نُوري العمدة قوة. أخذ طفلته في يسراه ورفع يمــناه ونــاول هَمَرين صفعة دوّت في الغرفة. المشوّه ارتعش. نظر إلى الكائنات المحــنّطة فــهيئ لــه أن لمعان عيونها يزداد وقطرات دم تسيل من فم التمساح الصغير. لم يتحرك هَمَرين كأن شيئا لم يحدث يُعكّر الصفو. أبعد العمدة ابنته عنه في حزم. وبيمناه أيضاً شلّح كم يسراه حتى الكتف واستل من أعلى الذراع خنجراً من جرابه، برق معدنه بأمواج حُمرة النيران المعكوسة على نصله..

- الآن، وإلا قتلتك وأحرقت بيتك.. الآن.

لــم تــتحرك عضــلة واحدة في وجه هَمَرين. نظر إلى التابع المشوّه الذي أســرع إلى ركــن وأحضر المطلوب أمام سيده، وسيده بهدوء وببساطة مد يديه ناحيــة الطفــلة الــتي تحاول الهروب منه ومن أبيها الذي يدفعها ناحية الساحر المخيــف. أمسك بها هَمَرين وقرّبها منه. ألقاها على وجهها ثم عدّل من جلسته، مــد ســاقاً ووضعها على جسد الفتاة النحيل فلم تستطع الحركة، بالكاد تتنفس. أمســك بيســراها كأنهــا عــود بوص أخضر طري. ضغط بإبهاميه على الكوع فصــرخت الطفــلة صــرخة حادة واحدة وأغمى عليها. استكمل الساحر الضغط الــبطيء على ساعدها ثم أحكم الجبيرة على الساعد والفتاة غيبوبتها تحميها من بقية الآلام.

المشــوّه خــارج الغرفة يرتعش خوفاً من لعنة ستصيب كل من يكون أمام ســيده. الصفعة التي نالت من وجه هَمَرين لن تمر على خير. ترتعش ساقاه وهو يــتابع العمــدة خارجاً يحمل ابنته كأنها جثة. لحظات وخرج هَمَرين. يتابعان معا المبتعدين. نظر التابع إلى وجه الساحر البارد الكظيم..

- قتلت الطفلة طبعاً.

- لا.

- عالجتها؟

هَمَـــرين يـــتابع موكب العمدة وقد هبط الحافة وبدأ يعبر الخور. لا يخاطب التابع، يخاطب غريمه العمدة..

- الكسر سيبرأ يا نُوري. لكن الكوع أعدته في وضع خاطئ. لن تعود ذراع ابنـــتك لطبيعتها أبداً، لن يكون ساعدها ذا فائدة كبيرة. ثم.. ثم إن ذراع ابنتك لا تكفيـــني، كـــانت نِيتي أن أصبْر عليك يا عمدة قليلاً.. فلم تَصْبر أنتَ عليّ.. ولي عهدك يا زوج نَبْرة. ابنك، سأزوجه من دوامات الفيضان القادم.

- آ آ آ آ يا اا. آ آ آ آ يا اا.

ضـــحكات التابع المشوّه تخرج من فمه مشوّهة. يمسك بطنه الضئيلة من عنف الضحك. راض تماماً في حُبور من سطوة سيده الساحر.

نُوري العمدة في هياج شديد. زحام في بيته. راضية في حجرتها وقد نامت إرهاقاً من بعد يوم عصيب. نَبْرة بجوارها وحولهما هَكيمة ومجموعة من النساء. أتـــاهن صـــوت نُـــوري وهو يصرخ في شيخ الخفراء يأمره ومساعديه بإحضار ســـلاطين من أي ركن لاذ به. نَبْرة وهَكيمة تنظران لبعضهما. تخشيان من انتقام نُوري الهائج هياجاً شديداً فيؤذي سلاطين أذية بالغة.

فـــي المضـــيفة. بعض الرجال حوله. لا يلين بكلماتهم التي تحاول تهدئته قائلين.. قضاء أخف من قضاء، وراضية حفظها الله من شيء ربما كان أسوأ.

دخـــلت نَـــبْرة عليهم. تلاقت عيناها مع عيني زوجها اللتين ترسلان شَرَرْ الشَرّ. لم تتكلم. لن يجدي الكلام معه في حالته هذه. عادت لحجرة راضية النائمة وهَكيمة جالسة بجوارها. أفرغت نَبْرة ما بقلبها..

- نُوري شيطان الغضب يركبه. لن يستمع لي. لن يستطيع كبحه إلا آبدون أو الشيخ. أين آبدون؟

- ذهب على جمله السعيد إلى القرية الشمالية.

- إذن صَلاتو سأرسل له من يحضره سريعا.

- لا، سأذهب أنا. سلاطين ابن أخينا صار طفلاً بائساً بسبب مآسيه. ضربه نُوري كثيراً من قبل، وإن ضربه اليوم في الساحة.. الله يعلم ما سيكون حال هذا الولد.

رغــم أن هَكيمــة على ظهر الحمار العالي، وصلت سريعاً إلى نجع نجيبيّة وعادت وأمامها الشيخ على حماره مسرعاً، إلا أن خفيراً قبض على سلاطين الذي كــان مختبئاً فــي بيــت الشــرماء المهجــور. استلمه منه شيخ الخفر الكظيم والمــتعاجب. يمســك سلاطين من ياقة جلبابه في قسوة ويسحبه خلفه، سلاطين عــنقه مدلاة لأسفل في إذلال. عينه اليمنى بها زرقة وشفته متورمة. آثار دمائه الــتي ســالت من أنفه وفمه تُلوث صدر جلبابه. لقد ضربه معتوق ضرباً مبرحاً! ازداد إحساساً بالمهانة وشيخ الخفر يسحبه هكذا كالخروف المساق للذبح. لم يعد يقاوم كما قاوم في أول الإمساك به، بل يسير مسرعاً مع شيخ الخفر حتى يتخلص مــن عيون الناس التي تشاهده في وضعه هذا المخزي، لكن شيخ الخفر يسير به الهوينى ليُشهر بالطفل ويذله.

عــند شــجرتي الــتوت، في الساحة كما أصرّ نُوري العمدة، علقت ساقي ســلاطين فــي الفلقة. رفعهما شيخ الخفر لأعلى قابضاً عليهما في قوة. تشلحت أفخاذ سلاطين.

آلام راضــية وعذابهــا يحرقان جوف نُوري، كرهه لهَمَرين خال سلاطين يطفــو مُقلِباً ذكريات كريهة. ضِيقه من تواجد سلاطين في بيته طوال هذه المدة، مــنذ أن تــوفى ابــنه الرضيع وبعده في أقل من أسبوع تَلد شقيقة هَمَرين طفلاً يعيش.. سلاطين. فيأتي به أبوه أثمان ليربيه له نُوري، ونُوري لم تَبرد ناره على ابــنه الــذي من صُلبه! تَحمّس ليُجاري حماس زوجته نَبْرة التي انكفأت على ابن أخيها اليتيم لتُفرغ فيه أمومتها المجهضة بموت بَنيها. تَحمّس نُوري لأخذه ليخفي حســداً ثــار ناراً في جوفه، لماذا يموت أبناؤه بعد أن يأتي كل منهم ذكراً مبشراً بوصول خليفته في الذريّة والعمودية؟! يُربي ابن الغير في بيته الخالي من أطفاله هو. وعندما يصل ابنه سِنّي من عِلم الغيب إليه، يجده يهتم بسلاطين ويبقى معه أكــثر من بقائه مع أبيه! يضاحك سلاطين ويسعد معه أكثر من سعادته مع أبيه! أخذ هذا السلاطين الشقي اللعين قلب ابنه وعقله. ثم بعد كل هذا يستمر هذا الطفل

الشّــرير فــي غَــيّـــة ويتسبب في كسر ذراع راضية، وكاد أن يتسبب في كسر عنقها!

شيخ الخفر بندقيته يحملها له خفير من أتباعه، يمسك هو في حماسة وتلذذ بقدمـــي ســـلاطين رافعـــاً إياهما لأعلى في أفضل وضع مهيأتين لتلقي الضربات. العمدة يمسك بجريدة خضراء، يده ترتفع وتهبط في قسوة على باطني قدم الطفل. ســـلاطين نـــار حاميـــة تحرق قدميه. لكن.. ما يحرقه أكثر، أن زحاماً من ناس القــرية رجالا ونساء وأطفالاً يتحلقون حوله يشاهدون مهانته وذله ولا يتقدم أحد لحمايــته! يكتم صرخاته ولا يستطيع أن يكتم دموعه. يفتح فمه لاتساعه مع كل ضـــربة تـــرج جسده، لكنه يعود ليكتم الصراخ. عويله يعود من حَلقه هابطاً إلى جوفه ليترسّب ويتكلّس أحجاراً جرانيتية نارية.

من حافة المستطيل المنبسط في الثلث الأدنى من جبل كارا، يطل شبح رجل سمين تلمع رأسه القرعاء. يداه متشبثتان بوسطه المنبعج. أعلمه أحد التابعين له بما كان وسيكون من العمدة في عِقاب ابن أخته. ينظر ويركز عينيه على الساحة التي يهان فيها ابن أخته.

تيار ما صدم جسده فاقشعر. رفع العمدة رأسه ناظراً مباشرة حيث أتاه هذا الـــتيار الـــذي صدمه، وجد الساحر يرقبه. المسافة بعيدة وإن أحس العمدة بعيني الســـاحر تـــأخذان عينيه. تملكه هياج حيواني. انهال ضرباً بالجريدة على قدمي سلاطين وكأنه يضرب خاله الساحر الذي لا يطوله. يضرب ليؤدب سلاطين الواقع تحت سطوته، وينتقم من خاله الساحر الذي لا يطوله.

اقترب رجل من العمدة، حاول أن يمسك الجريدة الخضراء منه. دفعه نُوري بعيـــداً في غلظة. ضربات أخرى قاسية، تململ الرجال وبكت بعض النساء شفقة عـــلى الولد. يستعطفونه أن يكتفي. نَبْرة بكاؤها يعلو ويعلو. لم يستطع سلاطين كـــتم آلامه. نظر حوله ليجد من يتقدم لإنقاذه من عذابه. الكل يسكب عليه نظرات الشـــفقة ولا يتحرك أحد. لمح بين الزحام ابن عم هَمَرين. غاضب لكنه أجبن من أن يتقدم. الجريدة

تهبط على قدميه في عنف فيرتج جسده والدماء تقفز من القلب منطلقة في أعضـــائه فـــي هَبّة تجبره على الشهيق وترتج محتويات دماغه في عنف. يصيح

سـلاطين صـيحة لـم يعيها بعقله أبداً وإن كان سعد بها بعد ذلك. يصيح في ألم وغضب وحقد مستنجداً بـ..

- هَمَريـ يـ ين.

اهتز العمدة وارتجفت أعضاؤه. اتجه بوجهه ناحية انتصاب هَمَرين. مازال فـي وقفـته المـتحدية له. بل خال له أنه يبتسم سخرية واستخفافاً به ووعيداً. يتـنفس العمدة بصعوبة ولا يعلم ماذا يفعل وقد تخشّب في وقفته، فقط يتمنى أن يكـون أمر القرية في كامل يده.. إذن لأمر بالهجوم عليه الآن بالبنادق والمناجل والمشـاعل ليقـتله بالرصاص وبالذبح ثم يحرقه ويلقى برماده في الجبل. انفلت سِسِّي من بين سيقان الكبار. هجم على والده العمدة. أمسك بيديه معا بيمنى أبيه الممسـكة بالجـريدة. أخذه أبوه الهائج بيسراه من شعره وألقاه بعيداً عنه. عاد لضرب سلاطين. بضع ضربات. لكنه كان قد ارتج من صيحة سلاطين، وآلمه أنه ألقى ابنه بهذه القسوة. صرخات ابنه ترج قلبه. بكائيات وتضرعات نَبْرة وهَكيمة ازدادت عـلواً وكادت تصل إلى حد الوَلْوَة. ظهر على وجه العمدة الضعف. فتقدم عـدد مـن الـرجال أمسكوا به. حاول إبعادهم عنه متشبثاً بالجريدة في عصبية ظاهـرية لكنّه من داخله موافق على إمساك الرجال له ومنعه من استمرار تعذيب سـلاطين. جَهـراً يـلعن سلاطين ويوم وُلد سلاطين، سراً يلوم نفسه على قبوله تـربية هـذا الولـد في بيته. يلعن نفسه أنه أعطى وعداً لأثمان كُورنة أن يربي طفله.

شـيخ الخفـر الموتـور من هَمَرين مازال ممسكاً بساقي سلاطين في لذّة موجهاً قدميه المهترئتين لأعلى.

دخل الشيخ صَلاتو بحماره وسط الزحام. صاح في شيخ الخفر آمرا..

- اترك الولد.

ترك الخفير مضطراً ساقي سلاطين تسقطان أرضا. ينظر في وجه سلاطين فـي شـماتة وهو يعدّل من ملبسة ويوازن طربوشه وبإبهام وسبابة كل يد يبرم طـرف مـن طـرفي شاربه رافعاً إياهما لأعلى. تلاقت نظراتهما.. شيخ الخفر المنتشـي بنفسـه وبما فعله في ابن شقيقة هَمَرين، والصبي المضروب المهان سـلاطين. تلاقـت نظـراتهما.. اضطرب شيخ الخفر، اقشعر جسده من طلقات

الـنظرات المـترعة بسموم البغضاء والتي تنطلق من محجري الصبي المكبوب أرضا.

تقدم صَلاتو من نُوري..

- اذكر الله يا نُوري.

- لا اله إلا الله.

لم يهبط صَلاتو من على ظهر الحمار..

- هيا إلى بيتك، اطلب من نَبْرة أن تعد لنا الغذاء. نحن ضيوفك يا عمدة.

- كان يجب تأديب هذا الولد شبيه خاله الملعون.

والـرجال تبـتعد، كـانت النسوة حول سلاطين. هَكيمة ونَبْرة جلستا على جانـبيه. أمـرُ الله الأشرم وفيّاج وأولوا يفكّون الفلقة من ساقيه. انقلب سلاطين منـبطحاً عـلى وجهه. لا يريد أن يراه أصدقاؤه وأعداؤه وهو هكذا. هوانه اليوم ثقيـل ثقيل. تقدمت منه عَمّتاه. غطتا ساقيه بجلبابه. حملتاه سوياً بمساعدة أمرُ الله ووضعتاه على الحمار العالي وسلاطين مازال ينظر للأرض كاتماً نشيجه غير قادر على منع هطول دموعه. ولذلك لم ير نظرات الكره والتشفى التي يتابعه بها شيخ الخفر.

الـليل والهـدوء ساكن على القرية ومعالمها الظاهرية. على نفس السرير الواسـع القصـير، سِسِّـي نائم على الطرف الخارجي. أنفاسه منتظمة. من بعد محـاولات فاشـلة لتهدئة سلاطين، وسلاطين محصور كالعادة بين الحائط وبين سِسِّـي. يـنظر إلى السـقف غيـر المرئي في الظلام الدامس. كظيماً محصوراً. الضـربات الـتي نالهـا من العمدة أسالت الدماء من باطني قدميه. مسّها يونس بسوائله فترطبت وخفّ الألم كثيراً. نفسه تتناسى بقية الآلام الجسدية، لكنها تُدمي دمـاً غزيـراً وحِمضاً كاويا لا يعالجه لا يونس ولا غير يونس. الأسئلة الساذجة المؤلمة الثقيلة تعذبه..

- لمـاذا أنـا؟ لماذا أنا يتيم الأم مفتقد الأب؟ لماذا سافر أبي؟ لماذا أعيش هـنا؟ لمـاذا بيـت أبيَ تسكنه عمتي هَكيمة وآبدون وأولوا وذلك اللقيط الحقير؟ اللقيط يجد بيتاً وحناناً وتدليلاً وأنا مهان هنا؟ آبدون يحب معتوق ويربيه في بيته ويفضـله حـتى عـلى ابنه أولوا نفسه! لا يدلل أولوا ولا ينسى معتوق! لا ينظر نظـرات غيـظ إلى اللقيط! لا يقسو عليه ويحنو على ابنه أولوا! لماذا لم تأخذني

هَكيمـــة في بيتـها.. بيت أبي الأصلي؟ استكفت باللقيط! معتوق لقيط وكان عبداً، وأنـــا ابن شقيق نَبْرة زوجة العمدة! وابنها بالرضاع. العمدة يكرهني كرهاً كبيراً ولا أعـلم لماذا! يكرهني بدون سبب! لذلك.. غداً عندما أكبر سأكون أقوى منه. ســأكون قويــا مــثل خالي هَمَرين. سأضرب العمدة، وفي الساحة الكبيرة مثلما ضربني. سأصفعه. سأكون أغنى منه. سأصفعه حتى لو بكت عَمتي نَبْرة. حتى لو غضــب مــني سِسِّي ابن عَمَّتي وأخي في الرضاع. سأكون غنيا أغنى من مُهدي الأصــفر. ستكون لي أرض واسعة واسعة أكبر من التي يقولون أن العمدة الكبير استصلحها، ومن التي استصلحها هاشم الكيد.. معا. يجب أن أكون صاحب تجارة أكبر من تجارة الأصفر. يجب أن أكون مهاباً أكثر من الشيخ. قويا فأضرب معتوق اللقيط وأطرده من بيت هكيمة، بيت أبي. وسأضرب العمدة نفسه ولن أترك شيخ الخفــر، ســأقتله ببندقيــته. ولـــن أترك الذي في مقام خالي وتركني ولم يتقدم لإنقاذي.. الجبان ابن عم خالي هَمَرين.

قطرتان فقط من الدموع انسلتا فانسابتا على وسادته في هدوء.. ونام.

تَعويضـــة فـــي بيـــتها المـــتطرف وحدها، بنتاها ترعيان الأغنام. مشغولة باســتكمال طاقية ملونة وهي تلعن زوجها البخيل الذي سيأخذ منها الطاقية فرحاً وسينســى أن يشــكرها. تنسّمت رائحة خليط من رمال مثارة وشياط وعرق ثقيل وإن كـــان غيـــر مقزز. نظرت حولها.. لاشيء. عادت لما تفعله مستنكرة ألاعيب الحـــواس. الـــباب مفـــتوح، لذلـــك لم تشعر بدخول معتوق إلا وهو واقف خلفها صائحاً..

- تَـــ.. ويضة.

صـــرخت خوفـــاً وارتمـــت للأمام كأنها تريد الدخول في الأرض خشية من الرعب الذي أتى من خلفها وفوقها.

- تَـــ.. ويضة لِـــ سانين. أنا معتوق.

اســـتعدلت نفســـها ولم تنظر خلفها لتراه. تأخذ شهيقاً وتزفره بارتياح من أفـــلت مـــن الموت. أشارت بإصبعها أمامها. فأتى معتوق وجلس أمامها. صفعته فجأة وصاحت فيه..

- يا ابن الذئبة. يا ملعون يا ابن من أنت ابنها ولا نعلم عنها شيئاً.

معتوق يضحك وهو ممسك بصدغه حيث هبط عليه كف لِسانين.

- كم مرة قلت لك لا تفاجئني يا ابن هَكيمة بوصة؟ ستقتلني لعنك الله.

- هاها.

- ثم.. رائحتك غريبة! ألا تستحم يا ابن الكلب؟

- تَعويضة لقد شاهدت وحادثت الإيركابي.

تَعويضة في ذهول. ومعتوق يحكي..

- ذهبت خلف الجبل صبـــ.. اح اليوم. تعبت صعوداً في جبال صغـــ.. يرة قصـــــ.. يــرة وسـيراً فــي شعاب. لم أجد.. ها. فنمت متعباً على فَرْشَةَ رمال. صحوت على ضحـــ.. كاتها.

- معتوق.. لسانك سليم طلق وأنت تحكي كذباً!

- لم تكن ضخمـــ.. ة ضخمـــ.. ة. لكنها ضخمـــ.. ة. أســـ.. نانها حادة.. قويـــ.. ة داكنـــ.. ة. لكنها تبتسم لي وتضـــ.. حك وتحادثني.

الرعب يخنقها وتتماسك حتى لا يغشى عليها..

- معت.. وق..

- قمت. حادثـــ.. تها. أنـــ.. ها لا تأكل أطفال. لا تأكل النـــ.. اس أصلا.

- معتوق..

- سرت معها. خطواتها واسعة. نســـ.. يـــ.. ت، كانت عارية. ثدياها ليسا كبيـــ.. رين يتدلـــ.. يان مثل فاناالاندي. تـَــ.. ويضة، هل، هل لك شعـــ.. ر بيـــ.. ن ثدييـــ.. ك؟ إيركابي لها شعر بين ثدييـــ.. ها.

- معتوق يا ابن الشياطين. قلبي سيتوقف.

- قـــلت لها إنك تحكي عنها. وقلت لها إنك تقولين إنها تأكل الناس خاصة الأطفـــال. وإن أهـــلها يقومـــون بتضـــليل الأطفال والأغبياء في الجبـــ.. ل ليلاً، بالأعـــرا.. س الكاذبـــة. غضبت. وقالت أنها ستضللك في الجبل وستأكلكِ أنتِ. سألتني عن اسم أمك، لكنني لا أعلمه.

قلبها يكاد يتوقف، ارتمت فاقدة الوعي.

- تَـــ.. ويضة. هل أنتِ نائمة؟

فـــي عصر هذا اليوم، ذهبت تَعويضة إلى بيت هَكيمة. لم تلعن معتوق. لم تـــلعن هَكيمة. بل توددت إلى هَكيمة. وسألت وتيقنت أن هَكيمة عَمّدت معتوق في النهر حين جاء به الجلاب أبَيِّدْ. ولا مخلوقات غير إنسانية تأتيه في البيت ولا في

غيــر البيت. بعد ذلك حكت لهَكيمة ما حكاه لها معتوق. فوجدت هَكيمة قد علمت مــن معــتوق، وأنهــا طالــبت معتوق بألا يحكي لتَعويضة، لكن معتوق قال إن الإيــركابي طالبته بأن يبلغ تَعويضة أنها ستنتقم منها إن حكت عنها الأكاذيب مرة أخــرى. وإن الرائحة التي غلبت عليه، هي رائحة جسد الإيركابي. لقد احتضنته وقبّلت رأسه وهي تودعه.

حكاية أُثمان كُورنة الأولى

لونـــه مـــن لـــون غرين النيل. حُلو التقاطيع آسر الابتسامة بفمه الصغير وشــفتيه المحددتين. وسامته واضحة تُقارب وسامة الإناث رغم فحولته وهوسه الجنسي وعشقه لأنواع النساء، خاصة السوداوات. وكأنه يدرك أنه سيفقد قدرته هذه تماماً، وسيصير عضوه مجرد ممر للبول ليس لأمر آخر، حتى إن أحد الألقاب الــتي ســتطلق عليه هو أثمان بدون. كناية لفقد مهام عضوه الرئيسية. وكانت هذه التسميّة من صديقته اللدود تَعويضة لِسانين.

إن كــانت أخته التي تليه هَكيمة بوصة مثله في جمال الوجه. فإن أختهما الصــغرى نَــبْرة جميــلة الوجه والجسد معا. طول عمره غريب الطباع في لين. أعصــابه دائمــا ملتهــبة وبدون أن يؤذي أحدا. رَعشة خفيفة تطفو أحيانا على شــفتيه الرقيقتين فتشي بأنه غير سوى تماما. يحب الخمر. دائماً منتشي بعرقي البــلح وإن كان يحافظ على نفسه أن يثقل عليها في الشرب ويترنح. عندما يزداد توتــره يكثر من الكلام والضجيج حتى يترك المكان منتقلاً إلى مكان آخر فترتاح نفســه قليلاً. ليس به صبر لأن يبقى في مكان واحد طويلاً، وعدم صبره هذا كان أسّ مآسي وحيده سلاطين. وكان السبب أيضاً في موت أثمان تلك الميتة العجيبة الــتي لا يتصــورها إنــس ولا جان، وحكت عنها الأجيال بعد الأجيال كعجيبة من عجــائب دنيانــا الغريبة. وصارت قِمّة الجبل الشرقي الذي يواجه القرية هي قِمّة أثمان كُورنة. حيث وجدوا عظامه وعظام حماره. ورغم طبعه في إلقاء التهديدات لأقل إثارة، خاصة وهو مراهق أرعن وشاب غرير،ثم وهو عجوز ضعيف، فإنه لم يتشــاجر مطلقاً مستخدماً القوة، ليس لأنه ضعيف البنيّة فقط، بل لأنه ليّن الطبع مُحب للناس ولا يحتمل فِعل الشر.

ارتاح قلبه مع الفتاة التي تكبره عمراً بمجرد موسم. طويلة اللسان والقامة، لكــنها لــم تنــتظره وتزوجت مثل بقية الصبايا من فتى من الجيل الذي يسبقها، والذي امتلك مركباً. فبقى أثمان على إعجابه بها،وهي أبقت على الود في قلبها،

فصـــارا رفيـــقي عمـــر. وعـــبّرا عـــن ودّهمـــا باغتنام كل فرصة للجلوس معاً وبالمشـــاجرات اللســـانية ضد بعضهما، ودائماً تتغلب عليه بلسانها شبيه المنجل والـــذي مـــن أجله أطلقوا عليها تَعويضة لِسانين. تزوج من شقيقة هَمَرين. ليس فقــط لأنها قريبة أمه، فالقرابة ليست لصيقة، لكن تزوجها تحت تأثير مكر وخبث شقيقها هَمَرين. ثم ندم على ذلك سريعاً. ماتت بحمّى النفاس بعد أن أعطته ابناً. فتحجّج بحزنه على زوجته لتنفيذ رغبة تراوده من زمن.. الترحال جنوباً.

كـــان له صديقان من طفولته حتى شبابه الأول.. نُوري وهَمَرين. والاثنان تنافســـا عـــلى أخته الأصغر نَبْرة مهملين الأكبر منها.. هَكيمة. كان من السذاجة لدرجـــة أنـــه لم يفهم حبهما لنَبْرة أخته وتنافسهما الصبياني ثم العدواني إلا بعد زمـــن. بل لم يفهم أن هَمَرين الأذكى بدأ يخطط ليكسب والدي أثمان ويكسبه هو شخصـــيا بإغراقه بالعلوم التي يكتسبها من القراءات العديدة التي يهواها بما فيها مـــن أعمال السحر البسيطة. لم يفهم أن هَمَرين هو الذي خطط بهدوء حتى جعله يُعجب بشقيقته الوحيدة ويدفعه من حيث لا يدري للاقتران بها حتى يكسب علاقة مصاهرة معه تكون بنداً ليفوز هو أيضاً بأخت أثمان التي يحبها.. نَبْرة!

من دون جيلهم كانوا معاً دائماً، أبقى الزمن عليهم في تقارب كُره بدلاً من تقارب الحب القديم. وإن كان أثمان لم يستطع أن يصارع بقسوة، لأنه لم يستطع أن يكره بقسوة، فقد كره هَمَرين ولم يشارك أبداً في محاربته. كره أن يكون ذلك هَمَرين هو صديق الطفولة والصِبَى ومطلع الشباب، وهو الساحر شقيق زوجته ثم خال ابنه.. ثم كان في حيرة بين كُرهه لملامح وتكوين هَمَرين وحبّه لنفس هذه الملامـــح وهذا التكوين في شخص ابنه سلاطين الذي تركه لنُوري فأطلقت عليه نَـــبْرة اســـم ســـلاطين تعويضـــاً عن يتمه بفقده أمه بالرحيل للموت، وفقده أبيه بالرحيل للجنوب.

وإن كـــان هَمَـــرين ونُوري استمر تقاربهما كتقارب القنافذ وكل قنفذ منها مشـــهر على الآخر كل أشواكه يطعنه بها ليقضي عليه، حتى مات كلاهما مقتولاً بأشواك الآخر. وبقى أثمان يحب نُوري العمدة ويحبه نُوري.

ذكـــرى زوجـــته الراحـــلة أم سلاطين كانت تأتيه حزينة واهنة. تأتيه في هيئتها وهي مريضة مرض الموت. يحن إليها ويشفق. يعدها بأنه سوف يعوض ابنها عن كل شيء. في مواسمه الأخيرة قبل رحيله هو عن الدنيا ولم يعد له شعر

في رأسه تام الصلع إلا من خط شَعري أبيض يبدأ من فوق أذن ويهبط ناحية القفا ليلتف للجانب الآخر صاعداً لأعلى الأذن الثانية. في مواسمه هذه أتته خيالات لأناس كثيرين أحبهم وأحبوه. تأتيه مُحِبة له داعية له مبشرة له بالجنّة. تهدئة وتوحي له أنهم ينتظرونه متشوقين. فلا خوف عليه من نبش مقبرة الأسلاف مرتين.. ولا من عشقه للخمر وصناعته لها. ولا من الزنى الكثيف الذي مارسه مع النساء السوداوات. وبدلاً من أن يرضى ويطمئن، صار بكّاءً شكّاءً. خاصة عندما يكون في مكان له ذكرى عزيزة مع أحد الراحلين الذين أحبوه وأحبهم، ومنهم زوجته التي يرجوها أن تسامحه وألا تتزوج غيره هناك لأنه مصمم على الزواج منها في الآخرة على أن يعوضها ولا يرحل عنها أبداً.

أثمان كُورنة هاجر جنوباً متخذاً من نهر النيل طريقاً هاديا. اختفى بعد أن تخطى الجندل السادس وقد مر على عشائر عديدة من القبائل حتى استقر في بلاد البحر المستدير والشلال العظيم. تزوّج منهم وأنجب فتاتين. وعندما انتابته حالة القلق من المكان وكواه التحنان إلى قريته النوبية، تسلل عائداً هابطاً مع النهر ففاجأ ناسه بعودته كما فاجأ ناس قرية البحر المستدير باختفائه. وجد ابنه سلاطين صبيا قوي الجسم معطوب النفس. صبياً كارهاً للقرية عامة ولمعتوق وأبيه على وجه الخصوص. كارهاً للقيط معدوم النسب الذي نال ما لم ينله هو. كارهاً أباه لأنه لم يمت بدلاً من أمه، أباه الذي تركه لكل هذا الهوان. وأثمان لم يحكِ بالتفصيل عن رحلته هذه إلا في أواخر حياته وتحت ضغط وفاة أخته وإلحاح صديقته اللدود تَعويضة لِسانين. لكنه أحياناً كان يشير إلى المكان الذي بقى فيه كل هذه المواسم فلا يزيد إلا أنها بلاد البحر المستدير والشلال العظيم. وإن وصفها لهم، وصف قوة ناسها وصلابتهم وحتى نسائهم المحبات للجنس. حكى كيف تكون الأمواج في البحر المستدير عالية بعلو بيوت القرية. كيف هي الأمطار التي إن هطلت دقيقة في قريتهم هذه النوبية.. لأذابت بيوتهم المسكينة وأعادتها إلى هيئتها الأولى طيناً. لم يتحدث عن ماجيتا التي تزوجها وهددته، إلا خلال بعض الكوابيس، وحين حكى لتَعويضة قبل وفاته. وكان حين يسأله ناس القرية..

- ومن تكون ماجيتا هذه؟

لا يجيب.

فـــي ظهيـــرة يـــوم، رست مركب على مَرسَى القرية. التفوا حولها للشراء والـــبيع. هبط من المركب رجل نحيف قصير وسيم، على رأسه طاقية صغيرة لم تســتطع أن تخفي صلعته الشاسعة. في شفتيه رعشة عصبية. أخذوه بالأحضان فوضح لهم كم صار هزيلاً ضعيفاً. أثمان كُورنة. عاد أثمان. اتجه من بين الحقول صاعداً إلى القرية. يحتضنه كل من يقابله رجالاً كانوا أمساء. تعلقت نَبْرة وهَكيمة فـــي رقـــبة شقيقهما الوحيد. فرحته بهَكيمة كانت فرحة مضاعفة، تركها هَكيمة بوصة وعاد ليجدها ريانة الجسد لا يقل عودها جمالاً عن عود أختها.

في دار العمدة، نُوري كاد يحمله حملا. اختفت نَبْرة وَهَكيمة لإعداد الذبائح الـــتي ســـتُذبح وإعداد ما يليق من طعام وشراب للهارب الذي عاد ومن سيأتون للتهنئة. عاد أثمان الذي هو من أحب الناس إلى الناس.

حوش بيت العمدة الفسيح المعبأ بالشمس امتلأ بالناس رجالاً ونساءً. تحت الســقيفة، أثمـــان يحتضـــن الآتيـــن وعقله مشغول. جلسوا إلا هو. لا يستطيع الجـــلوس. يقعـــدوه فيقف. يقعدوه دفعاً مازحاً فرحين به ليقوم. بقى واقفاً! تقدم ناحية العمدة..

- نُوري، أين ابني؟

اضطرب العمدة. غُصّة في قلبه..

- سلاطين.

- سَمَيتُموه سلاطين!

- نَبْرة اختارت له هذا الاسم. اجلس يا هَرّاب.

- أين هو سلاطين؟

- في الكتّاب مع ابني سِسّي.

- سِسّي!

- يصغر ابنك قليلا. ربيتهما كأخوين.. تماما.

- طـــبعا. وهل تستطيع أن تفعل غير هذا يا نُوري. آه.. سلاطين سلاطين. اسم جميل.. لكن أين هو يا نُوري؟

- أرسلنا إليه.

المرســـال الشاب اقتحم الكتّاب الذي لا يزيد عن حجرتين صغيرتين وحوش واســـع مفـــروش برمال نظيفة ناصعة. وجزء منه مسقوف بفلق النخيل وجريده وعيـــدان الـــذرة الجافـــة الكثيفة. جلس المرسال على ركبتيه بجوار أذن الشيخ ووجهه يبحث عن وجه سلاطين..

- شـــيخ صَـــلاتو، أثمـــان كُورنـــة وصل، أرسلني العمدة لأقول لك أرسل سلاطين.

لـــم ينـــتظر ســـلاطين الإذن، قفز كالممسوس. ترك حقيبته وانطلق خارجاً كالعاصـــفة. ضحك الشيخ وهو يحمد الله. وقف سِسِّي ينظر في رجاء إلى شيخه. قام الشيخ.. رفع عمامته من جانبه وأشار للجميع بالانصراف فاندفعوا جميعاً في ضوضاء فرحين.

دخـــلت حوش العمدة، ديوانة مسكين. كأنها مُنوّمة تتخطى جمهرة النساء والأطفـــال الصـــغار. تُردد الحمد لله الحمد لله. عارية الرأس شعرها مهوّش وقد اشرأبت خصلات بيضاء في سواده. اقتربت بهزالها ووجهها الهضيم من السقيفة. زحام من الرجال، تبعد من يقف في طريقها في حَسم. احتضنت أثمان في رقة ثم انســـحبت فـــي هـــدوء. قبل أن يستفسر أثمان عن سرّ نحافتها وهزالها وحالها الغريـــبة، داهمتهم الضوضاء التي أشعلتها تَعويضة لِسانين. زغرودة طويلة حادة متقطعة أضحكت الجميع فصاح أثمان..

- إنهـــا تَعويضـــة لِسانين. إنها الشمطاء الطويلة. مازالت حيّة تسعى بنت المركوب.

دخلت تَعويضة. وقفت أمامه على بعد خطوتين. وسط ضحك الرجال عَبست ولعـــنت أثمـــان ولعنت أختيه نَبْرة وهَكيمة ثم لعنت أمه كُورنة ثم ترحمت عليها وعلى أبيه. ثم عادت ولعنت اليوم الذي ولد فيه أثمان والذي رحل فيه وهذا اليوم الـــتعس الـــذي رضى أن يعود فيه أثمان. بعدها زغرودة أخرى من زغاريدها ثم رقصـــت رقصـــة ليـــس لهـــا اسم وإن كانت تعبر عن بالغ الفرح ثم غنت بيتين مرتجـــلين وأقـــامت عرساً لمدة دقائق وسط زغاريد النساء اللاتي يضحكن على تَعويضة وأفعالها، وفجأة.. أخذت أثمان في حضنها تبكي مع بكائه.

نُـوري العمـدة رغم فرحته بعودة أثمان كُورنة، إلا أنه في ورطة. عقابه القاسـي لسلاطين لم يمر عليه إلا أيام. والطفل صار يكرهه تماماً وسوف يشكو لأبيه.

سـلاطين يطير على جسر البحر عدوا. خلفه سِسِّي يحمل حاجياتهما، ومن بعدهمـا بقيـة الأطفـال ووسطهما معتوق يضحك مسرورا. دخل النجع ثم اقتحم الحـوش يدفع زحام النسوة ثم زحام الرجال بدون أية كلمة. وقف ينظر لصفوف الكَـنَبْ تحت السقيفة التي يتراص عليها كبار القبيلة. يحدق في الوجوه الجالسة. عيـناه وقفتا على الغريب الذي وقف يحدق فيه، يشبه عَمتيه. أثمان فوجئ بابنه صـبيا قويـا ثـم بهـت.. إنه صورة مطابقة تماماً لخاله هَمَرين! اندفع سلاطين يحتضـن أباه. فانفض الناس على وعد بالحضور في مضيفة النجع من بعد صلاة العشاء، حيث ستكون ليلة حفل كرامة بعودة الهارب.

قالت نَبْرة..

- أسبوع واحد وسيكون بيتك أفضل مما تركته. بيتك الأصلي. بيت أبيك. لن ينقصه إلا دخولك أنت وابنك. الأقارب يصلحون بعض الجوانب في البيت الآن. ثم تختار زوجة لك.

وضع أثمان كَفّه على كتف سلاطين وهو ينظر إليه في شوق لم يرتو..

- لا أحتاج زوجة. فقط ابني وأنا.

سلاطين من بعد أن رأى والده وانبسطت أساريره وهو يجالسه، عاد وجهه لا يحمل إلا بروداً قاسيا. ظنّت العائلة أن حاله من تأثير عودة أبيه المفاجئة. رفع سلاطين رأسه إلى أبيه قال كلمتين سريعتين وأبعد يد أبيه عن كتفه..

تركوا لهما الحجرة ليختليا ببعضهما حسب طلب أثمان.

- با.

- نعم يابني؟

- با.. با.. لم أقلها أبدا.. با.

- قلها كما يحلو لك. قلها. أنا با. عدت لك.

- با، لماذا تركتني؟

- عمتك تجهز لك غداءً حافلا.

- طوال عمري آكل عندهم.

- بيت عمتك وزوجها العمدة منّا. نُوري صديق عمري.
- وأين كان أبي؟
- سلاطين، يا بني. دع الماضي. أنا معك من الآن وحتى أموت.
- تركتني كالشحاذ. لماذا أنجبتني إذن؟
- سلاطين. لماذا تقسو على أبيك؟
- لو كنت مُت أنتَ بدلاً من أمي. لماذا عدت الآن؟
- ابني..
- كنت أحلم وأتمنى عودتك يا أبي. لكني أكرهك.
- سلاطين. سنعود لبيتنا معا. وسنعوض ما فاتنا.
- لن أعود معك. لن أعود معك.

اندفع خارجاً وضرب الباب خلفه. كَمَن بين فروع شجرة التوت حتى مقدم الليل حيث أتاه سِنّي فهبط معه مُتْعَبا. رفض الذهاب إلى مضيفة القرية حيث كانت أمسية حفل كرامة عودة أبيه سالماً إلى القبيلة.

العشاء بالثريد وأكوام لحم شاتين ذبحوهما، ثم خبز الشدّي الرقيق باللبن والسكر والسمن. لفائف لا حصر لها من الدخان. بعض الشباب تسللوا إلى ربوة مِجيد الرملية ليشربوا عرق البلح، ثم عادوا وقد بدأ الإنشاد الديني. الشيخ عبد. لرحيم عسل يسبّح ويمدح. معه الصبي معتوق يجلس بجانبه يهتز مع اهتزازاته، يردد معه. ناس القرية في سعادة، لكن أثمان يضحك والألم في قلبه من رفض ابنه له. في قلبه غصّة كُتبت عليه. شفتاه ترتعشان في عصبية واضحة. في غيابه الطويل لم يكن يفكر ولم يكن يحس بكل هذا الحب للرضيع الذي تركه. ولم يكن يحس بأنه يضر بابنه الوحيد كل هذا الضرر.

قبل أن يذهب أثمان في اليوم السابع إلى بيته. انفرد به العمدة..

- أثمان، لن تستطيع الفلاحة. صار جسدك ضعيفاً ويداك أرق من أيدي الفتيات.

- والله يا نُوري.. أنا محتار.
- كيف ستكسب عيشك؟
- والله.. أنا أظن.. تجارة.
- تجارة ماذا؟

- شيء ما.
- ماذا؟
- لم أستقر بعد.
- على ماذا؟
- شيء ما في عقلي.
- تهريب يا أثمان؟
- أعوذ بالله. ماذا جرى لكم يا ناس؟ نَبْرة وهَكيمة يخنقانني لأتزوج، ثم أنت تقول لي تهريب؟
- إذن؟
- اتركوني أدَبر حالي. ثم هل صِرت وليّ أمري لكونِك صرت عمدة؟ أم ماذا تظن نفسك؟

-لك ما تريد. إن احتجت معاونة مني أيًا كانت.. نحن إخوة.

أثمان بمستحقاته التي أخذها من آبدون، وبما حصل عليه من العمدة، أبحر إلى سُوين. عاد بعد مرور قمر كامل. مركبه مشحونة بالقوارير مختلفة الأحجام وكثير من القدور. سينشئ أثمان تجارة للخمور! اطمأن مُهدي أنه لن ينافسه في مجاله. بنى أثمان داخل حوش منزله ثلاث حجرات موازية للسور الخارجي. حجرة معمل واسعة، وحجرة لخزين متطلبات البيت من زيت وسمن وبصل وثوم وغيره، وحجرة للبيع مفتوحة على الداخل والخارج اختار هذه الحجرة لأن أمامها شجرة جميزة، فيكون أمام دكانته شجرة مثلما أمام دكانة مُهدي شجرة! وبدأ العمل فوراً، وحده.

وجد معارضة شديدة من ناسه، خاصة أختيه وزوجيهما ومن صَلاتو، لكنه مُصِر. الشيخ صَلاتو في يوم الجمعة التالي لوصول أثمان كُورنة بمعداته، لم يخطب خطبة صلاة الجمعة في جامع نجيبيَة. أتى إلى الجامع الرئيسي في النجع الرئيسي، نجع أورِك. أتى ومعه كل رجال وشباب نجعه، نجع نجيبيّة. وصل إلى الجامع أيضاً رجال وفتيان نجع المنحنَى. فُرشت الحُصُرُ خارج الجامع أيضاً لتستوعب الزحام. الفتيات والسيدات وقفن عند حيطان أقرب المنازل تتسمعن لما يصل إليهن من خطبة الشيخ الغاضب. الشيخ صَلاتو من منبر الجامع هاجم أثماناً هجوماً مقذعاً. لعن الخمر وشاربها وحاملها. لعن كل رجل يقبل أن يعمل مع

أثمان أو يترك ابنه أو أخاً له صغيراً يعمل معه. ذكّر المصلين بالولي الكبير جوش وكراهيــته للخمر. يعلم الشيخ صَلاتو أن الكثير من ناس القرية يشربون الخمر. فــي الأعــراس يظهر العديد من الشباب والرجال وهم في حالة انتشاء، والبعض يكــون في حالة سُكر بيّن. ربوة مِجيد المطلة على رأس خور البحر يوميا يتربع عــلى رمالهــا عدد من الشاربين. يعلم الشيخ أنه توجد فتوى لا تُحرم كل ما هو مُخمّر، يعلم أن عَرق البلح بند من بنود الحياة الرئيسية في القرية، وناس القرية لــم يتعودوا على التشدد في محاربتها سواء من قِبَل الشيوخ أو من قِبَل العمدة، وأن بعــض ســكان القــرى يخمّرون عرقي البلح بكميات بسيطة، لمزاج فرد أو بضعة أفراد، ولا يتم هذا التخمير بغرض البيع. لكن أن يقيم رجل من رجال القرية معمــلاً لها يخمّر فيه ما يكفى بضعة قرى ويبيع علناً! هذا أمر شائن من الناحية القبــلية. لــذا كــان لا بــد من مجابهة ناس القبيلة لمن يفعل ذلك. القرية تأتيها الخمور مع مراكب ناس الصعيد. وبعض الجيد منها يأتي من القرى المجاورة في شبه سرية.

انفــض الــزحام. بقى أغلب ناس النجعين نجيبيّة والمنحنى في نجع أورِّك لتناول الغداء والنقاش في هذا الأمر المفاجئ لهم. أثمان كان بينهم. أتى بيته عدد مــن الضــيوف. ثلاثة من كبار العائلة القلقين على اسم العائلة الذي سيلوّث بما يفعلــه أثمــان كُورنة. وكان الشيخ صَلاتو نفسه على رأس الجميع باسم الدين. وحــتى ميعاد العصر وتكسّر جبروت الشمس، كان النقاش والحوار باللين والشّدة لثــني أثمان عن أمره. وأثمان يجابه الكل بعناد وصياح وتهديدات بأنه لا يهمه لا شــيخ ولا عمــدة. لا يهمه لا عائلته ولا كل ناس قبيلته أيضا. البعض يضحكون عــلى عصبيته وتداخل حروف الكلام في حديثه، يضحكون على تصرفاته التي لم تتغير كثيراً رغم تقدمه في العمر. لم يبق على صرامته وغضبته وعبوسه سوى الشيخ والثلاثة الممثلين لعائلته. وانصرفوا كل إلى نجعه.

بعد صلاة العشاء، تحت السقيفة وبجوار الأزيار، افترش أثمان حصيراً على الــرمال.ظهــره مسنود على الجدار وبجواره زجاجة عرقي وكوب. يدخن لفافة دخان. دخل سلاطين. وقف أمام أبيه. اعتدل أثمان جالسا..

- سلاطين! اجلس بجانبي.

- لماذا تركتني وسافرت؟

- يابني شرحت لك مائـــ..

- هل أنا كنت السبب في موت أمي؟

- أبدا. إنه قدر الله.

- بيت هَكيمة وآبدون، أليس بيتنا؟

- أصـــلاً هو بيتُ موسى والد آبدون. اشتراه منه أبي، جدك. ثم تركته أنا لآبـدون يــتزوج فيه عَمتك. الآن آبدون اشتراه مرّة أخرى مني. أخذت فيه ثمناً جيدا.

- سِسِّـــي، فـــي بيته. أولوا في بيته. قيّاج. بلال. بجيوَة كِسبانة.. أنا في بيت ليس بيتي.

- بيتك هنا. تعالي لتعيش معي.

- بعد أن تربيتُ كاليتيم!

- سلاطين انس الماضي. ثم انه بيت عَمتك وبيت صديقي، عَمّك نُوري.

- نُوري العمدة ليس عَمّي. لم يعاملني مثل ابنه سِسِّي. أبدا.

- لكنّه والله وعدني بأن يعاملك مثل ابن له!

- لم يفعل. هل تعلم إنه جلدني في الساحة؟

- أبلغتــني عَمّــتيك. وابلغــتاني عن السبب. وأنا عاتبته بشدّة. بل.. بل صحت فيه ووبخته ولم يهمني أنه عمدة أبدا.

- يضربني ويفضحني من أجل هذا اللقيط معتوق.

- اسمع يا سلاطين. اسمع يا بني.. اجلس هنا، ابق معي.

- جَلَدني عمدتكم، صديقُك جلدني في الساحة. كان ولا يزال يكرهني. ناس القرية كلهم يكرهونني لأنني أشبه خالي. لم أجد أحداً يحبني.. أمي في القبر وأنت لا أعلم أين!

انهــار ســلاطين جالســاً وجهه بين كفيّه يحاول إخفاء دموعه وتشنجات وجهــه. تقــدم إليه أثمان. ركل الزجاجة التي اعترضت طريقه فسقطت تتدحرج خطــوات وهـــي تمُجّ سائلها في دفقات. أثمان احتضن ابنه الذي بمجرد أن أحس بذراعي والده حتى قام نافضاً جسد أثمان بعيداً عنه..

- لن أبقى معك. سأهجرك إلى أن تموت مثلما هجرتني. سأبقى مع العمدة رغماً عنه وعنك حتى أعذبكما معا.

ذهب أثمان إلى آبدون. قضى الليلة عنده. سهر طويلاً يستمع منه ومن أخته. يشرحان له عن سلاطين ما خفي عنه. يحاولان أن يحلّلا نفسية ابنه المعذّبة. تحدثا عن الشبه الكبير بينه وبين خاله هَمَرين. حكيا له بالتفصيل ما كان سيفعله هَمَرين بنَبْرة أخته. الحديث يعذّب أثمان. لكن ما عذّبه أكثر قول آبدون وهَكيمة أن سلاطين يميل قلبه لهَمَرين! وأنه استنجد باسمه يوم جلدَه العمدة. وأنه لا يشبه خاله في الشكل فقط، بل في الكثير من الخصال!

حينما جاء لأثمان رجل من عائلة هَمَرين يطلب كمية طيبة من العرقي. فرح به. أخذ منه ريالات عدّة وملأ له زمبيلين بقوارير العرقي. لكنه فوجئ بالرجل يتسلل في حديثه. بداية بالسؤال عن سلاطين، ثم الترحم على قريبته أم سلاطين. وسأل أثمانا لماذا لا يزور سلاطين أقارب أمه؟ يحاول أثمان أن يغلق هذا الموضوع. يداهمه الرجل مفصحاً عمّا يريد..

- إن هَمَرين، خاله يريد أن يراه.

رفض أثمان كما رفض قبل ذلك أن يزور هَمَرين أو أن يزوره هَمَرين. صار كارهاً للساحر كارهاً لما فعله بقبيلتهما. غاضباً أشد الغضب مما حاول أن يفعله بشقيقته نَبْرة. لذلك أمام رسول هَمَرين لعن هَمَرين وعائلة هَمَرين. لكن الرجل لا يثور. بل يستمر في المراوغة والإلحاح. يسأل أثمان..

- لماذا ترفض مقابلة هَمَرين؟ عنده أفكار تفيد تجارتك؟

ألقي أثمان نقود الرجل خارج دكانه. أخذ منه خمره وطرده لاعناً له ولآله. الرجل يسرع مبتعداً قبل أن يجتمع الناس على صراخ أثمان.

قرار سلاطين بعدم الإقامة مع أبيه لم يكن سهلاً عليه. والقرار وإن كان مفاجأة لأبيه ولعمته نَبْرة، فإنه كان مفاجأة كبيرة على نُوري العمدة! ذهل. كان ينتظر من الصبي سلاطين أن يسرع تاركاً البيت الذي أهين فيه. يعلم نُوري أن سلاطين ليس غبيا. إن الصبي يوقن أن العمدة يكرهه تماماً. إذن لماذا يبقى برغبته؟

سلاطين نفسه فوجئ بقراره! لكنه تشبث به بعد ذلك. إنه يبين لرفاقه وأترابه أنه في بيت عمته نَبْرة برغبته. إن البيت بيته، أنه مثل سِسِّي وراضية ابنا لنَبْرة. تشبث سلاطين بقراره عقاباً لأبيه أثمان كُورنة الذي أذله بهجره له وتركه كاللقيط في بيت عمته. ثم إنها أول مرة يقول لا لمن حوله، لمن هم أكبر

منه. إنها لذّة. لذّة الوقوف أمام مجرى الناس. ترجّته عَمّته نَبْرة وهي تحتضنه أن يذهب مع أبيه رحمة به. رفض. هَكيمة أتته حادثته لاطفته. لا. استمرأ الكلمة. عشق الموقف. إنه لأول مرّة يكون صاحب الفعل الأساسي عند الكبار، بمن فيهم العمدة.

حجرة سِسِّي. السرير الجريدي الواسع يجمعهما. سلاطين محصور بين سِسِّي والحائط. نائم على ظهره مراقباً السقف المختفي في الظلام. سِسِّي نائم على جانبه مواجهاً سلاطين. سلاطين يحس بأنفاس سِسِّي المستيقظ مثله. يمد سِسِّي يده ويُربت على كتف سلاطين..

- هل أنتَ غاضب منّي يا سلاطين؟

-..

- أنا ابن نَبْرة، ابن عَمّتك. ورضعت مثلك من نَبْرة.

- أنا غاضب من نُوري العمدة.

- با!

- عندما أكبر، سأكون غنيا يا سِسِّي. سأكون عظيماً. أعظم من أبيك. ويومها سأضرب أباك. سأضرب صَلاتو. سأضرب.. سأطرد معتوق من القرية. ستكون أنت العمدة. وسأكون أنا أهم منك يا سِسِّي.

سحب سِسِّي يده من أعلى كتف سلاطين.

- غضبت يا سِسِّي؟

- لن تضرب أبي، فأنا أحبه.

شهر رمضان. شهر الصوم والاقتراب أكثر من الله على الأبواب، اقترب مع اقتراب الشتاء ودخوله ببرودته خاصة في الليل. ولم تستطع القرية أن تستجمع قواها لطرد هَمَرين. العمدة نُوري لا يستطيب طعاماً ولا شرابا. ولا يستغرقه جمال زوجته عن شبح الساحر القابع في المستطيل الحجرى المنحوت في ثلث جبل كارا الأدنى. عدوه اللدود. الشوكة التي لا تريد أن تفارق ظهره منذ صباه. هَمَرين لا يزال يطعنه. آخر طعناته علاج ذراع ابنته راضية بخطأ مقصود جعل ذراع الطفلة ضعيفاً شائها غير مستوٍ. ولن يعود إلى حالته الطبيعية بعد ذلك. هَمَرين شق جسد القرية القبيلة. أعلن الداهية لأنه تاب عن السحر فتلقف ابن عمه وبعض أقاربه هذه التوبة الكاذبة وصاروا يساندون هَمَرين الساحر علناً. إنهم قِلّة ضئيلة،

لكـــن محاربتهم بالقوة تنسف عُرَى القبيلة نسفاً، خاصة أن الجموع الساكنة من الـــناس يـــزداد. لا هـــو مع العمدة ولا على الساحر. مُهدي الأصفر بخبثه يساند هَمَـــرين فـــي الخفاء وتابعيه في النجوع الثلاثة صاروا تابعين لهَمَرين. سلَيمتو أعـــلن أنه مع هَمَرين لأنه تاب عن السحر! كلما هبّ العمدة ليهاجم هَمَرين خذله ناســـه. عصبية العائلات ضربت القبيلة فترهلت قواها بتضعضع تماسكها. أحس العمدة أنه مقطوع الذراعين، أنه جسد فقد قوته الضاربة وصار جثه تتنفس.

الشيخ لا يقل حماساً لمحاربة الساحر، يحث الناس في كل مناسبة. يطالبهم بالوقوف مع العمدة لطرد الساحر النجس. يحذرهم أن رمضان الشهر المفضل عند الله، لن يكون كامل البركات وعدو الدين الساحر بين ظهرانيهم. ولما كثف الشيخ من نشاطه ضد الساحر قال له مُهدي الأصفر في محفل من الناس..

- الساحر شر. وصانع الخمور وبائعها. أليس شراً؟ أم لأنه قريب ونسيب العمدة؟

العمـــدة ثائر على أثمان. هَكيمة ونَبْرة ثائرتان على أخيهما. آبدون، صَلاتو وحـــتى هاشـــم الكيد! كل من له صلة قرابة أو صداقة أتى مرّة ثانية وثالثة على أثمـــان غاضـــباً مـــنه أو لائماً. وأثمان كُورنة ممزق بين ميله لصناعة وتجارة الخمور وضغط ناسه عليه. بين التجارة التي ارتضاها وبين عمل الفلاحة المضني عـــلى جسده وعضلاته التي استرخت طوال مواسم بعده عن الأرض. ولن تعود لنشاطها لتتحمل مشقة الزرع والري والحصاد. الشباب ولّى، فكيف يكسب عيشه؟ هـــل ينتظر أن يصرف عليه زوجا أختيه؟ هل يرحل مرّة أخرى؟ وكيف يترك ابنه ســـلاطين، الذي حتى الآن، ورغم كل محاولات التقرب منه، لم يغفر له تركه إياه صـــغيراً. ثـــم إن سلاطين نفسه الذي يزوره كل بضعه أيام ويجلس مراقباً له في صمت، بدأ يتواصل معه ويحادثه مؤيداً لتجارة الخمر. وكلما زادت العائلة ضغطاً عـــليه لترك الخمر أتاه ابنه مؤيداً رافضاً لتدخّل العائلة! إن هذه التجارة هي التي ألانـــت من رقبة ابنه الغليظة وصار يحادثه ولو بضع كلمات. لذلك استجاب أثمان لـــرأي آبدون التوفيقي.. ترك صناعة الخمور خلال شهر رمضان. وقبَل سلاطين هذا القرار على مضض.

هَمَـــرين في هذا الخلل المتزايد في بنية القبيلة، نزل القرية مرّات. زيارات ســـريعة ووســـط ابن عمه وأتباعه. مبتعداً تماماً عن بيت العمدة. لكنه زار بيته

المحروق وبقى أمامه متحسراً متوعداً بأنه سيبنيه مرة أخرى وسوف يحرق من يحاول حرقه.

فـــي عصر اليوم التاسع والعشرين من شهر شعبان، اجتمع جمع غفير من رجال وشباب وصبية القرية في جامع أورّك والبياض ملبسهم. لم يسعهم الجامع البســيط. بسطوا الحصر على الرمال خارج الجامع. صلى بهم الشيخ. وبعدها في الســاحة الكــبيرة تجمّع الجميع. البعض يتحسّر أن لا مقام وليّ واحد في قريتهم كلها، يتمنون مقاماً يتبركون به مثل بقية القرى. وصيّة الولي جوش الكبير الذي مــنعهم مــن إقامـــة أي مقام حتى له هو لم ينسوها، لكن الكثير متشوقون لمقام يذهــبون إليه في المناسبات الدينية والملمات الفردية والجماعية. توقف الحديث قبل أن يستفحل وقبل أن يصل للشيخ صَلاتو فيعنفهم ويقسو عليهم.

الليل يغشى الجبال والنهر الرائع والقرية. السعادة في الوجوه إلا شيء من الأســى لــم يفــارق العيون. المنشد العجوز عبد الرحيم عسل في يسراه عصاته الغــليظة ويمــناه على كتف معتوق الباسم الوجه السعيد بتواجده في دائرة كبار القــوم. يــنظر إلى آبــدون في حبور. آبدون مع يونس المجبّراتي وهاشم الكيد وغيــرهم يجهــزون المشــاعل وبضعة أوصال من جذوع النخيل الجافة، ونخلة متوسطة الطول ماتت من مواسم وصارت شديدة الجفاف. عبد الرحيم عسل ينشد تسبيحاً لله ومديحاً لرسوله. والجموع تجاوبه.

يا ذا العُلى والمُلْكِ والملَكوتِ

والكبريا والعِزِّ والجَبَروتِ

الشــباب حَمــل أوصال النخيل الطويلة تاركين النخلة الكاملة أرضا. تتجه المســيرة لتتخطى نجع أورّك. النساء تستقبلهم وتودعهم بالزغاريد وهم يمرون عــلى الــبيوت حتى وصلوا إلى درب الجمال التليد ثم قاربوا منتهَى خور البحر. صــعدوا ربــوة مِجيــد. المنشد في وسط الزحام. العمدة في الأمام وعلى جانبيه الشــيخ وآبدون وإسْهاج النجار ويونس المجبّراتي. آبدون يحمل شُعلة تنير لهم. خلفه شُعلات متفرقة تنير للحشد وتصنع بهجة في قلوب الجمع.

هــدأ التســبيح. ابــتعدت الشعلات إلى الأطراف البعيدة. الأبصار تتجه إلى الســماء في مكان محدد معلوم.. يستطلعون رؤية هلال شهر رمضان. ولما طال الوقــت ولــم يــبزغ الهلال، وتمعنوا في مواقع عالية تشرف على أقرب القرى

الأخـــرى بالنســـبة لهم.. لم يجدوا نيراناً تتوهج لتقول لهم أن الغير شاهد ورصد الهلال المبارك. صلوا العشاء حيث هم. واستمروا في الابتهالات الجماعية ورجع الصـــدى يغشاهم بموج من ابتهالات الجبال التي تؤوب معهم. ثم هبطوا مرددين الأناشيد.

العمـــدة لـــم يفته أن ينظر من حيث هو إلى بعيد، حيث جبل كارا.. أربعة شـــعلات بســـيطة كأنهـــا نجوم شاحبة توضح أن معسكر عدوه الساحر متواجداً مازال.

أولوا تعشى وحده لقيمات وقبل أن ينام لم ينس أن يلوم أمه أن معتوق كان مـــع الكـــبار وحده من دون الأطفال. هَكيمة وآبدون ينتظران عودة معتوق. أتى معـــتوق بعـــد أن قـــام بتوصيل المنشد إلى بيته. جلس بينهما فأوسعا له. خلال العشاء يتساءل معتوق لماذا عند الابتهاج برمضان نشعل المشاعل في ربوة مِجيد وجبل شرق ولا نُنير جبل فرعون؟ يقولون له إن قمة فرعون شديدة العلو، ومن يجرؤ على صعودها؟ فيقول لهم الصبي..

- نا.

الليـــلة التالية، الموكب نفسه يتجه إلى ربوة مِجيد الرملية يراقبون متأكدين أن القمـــر لن يغيب عن تبشيرهم. صعد الهلال الشاحب من بحر السماء المظلم. نـــوره ضعيف لكن أثره شديد الإضاءة داخل قلوب المتلهفين. هلّلوا وكبّر الجميع بمـــا فيهم كبار السن الذين لم تمنعهم الحشرجة وتعب الصدر من السير وصعود المرتفع الرملي. أنشدوا خلف عسل جهير الصوت وجميله.

ثـــبّت الشـــباب أوصـــال النخيل الجافة مشرئبة تشير إلى الجهات الأربع واشعلوا فيها النيران لتعلم القرية والقرى المجاورة أن هلال رمضان ثبتت رؤيته في قريتنا وأن غداً صيام. وشاهدوا هم أيضاً نيران بعيدة تتوهج.. لقد رأت القرى الأخرى بزوغ الهلال وكل من يرى يرسل إشاراته أنه رأى وكل عام وأنتم بخير. الجمـــع بالمشاعل الضوئية يهنيء بعضه بعضاً برمضان المبارك. أقاموا الصلاة. العمـــدة وسط كل هذا الابتهاج لم ينس أن ينظر حيث موقع غريمه، نيران عديدة عند معسكر هَمَرين..

- يحتفل الكافر بالشهر الديني المبارك!

أخـــذه آبدون من ذراعه ليبعده عن فكره الذي ذهب بعيدا حيث ترى عيناه ويتحســـر قلـــبه. الموكب هبط تاركاً النيران. النساء في النجوع الثلاثة تشاهدن الـــنيران بالـــربوة.. تزغردن تشاهدن المشاعل المحمولة وسط رجالهم وشبابهم تـــتفرع إلى مواكـــب ثلاثة كل موكب يتجه إلى نجعه.. تزغرد. مسيرات مباركة انضممن إليها عندما توسطت نجوعهن.

تـــرك معـــتوق المنشـــد الضرير بعد أن ترجّاه طويلاً أن يسامحه. المنشد يضـــحك وكهل يأخذ بيده بدلاً من معتوق الملهوف بشيء لا يستطيع عنه صبرا. أســـرع إلى الســـاحة حيث النخلة الجافة. عدد من شباب النجوع الثلاثة في تحد ابـــتدعوه من مواسم قليلة مضت. حملوا النخلة وساروا في موكب إنشاد هابطين إلى حيث النـهر. عند صخرة دُجُر. كان قارب متوسط ينتظر. وضعوا النخلة عليه وركبوا حولها مهللين. وجدوا الصبي معتوق جالساً بينـهم! نـهروه ليبتعد فلم يأبه لصـــياحهم فيه. حاول شاب حمله لإلقائه خارج المركب لكن معتوق أمسك بجانب القارب فلم يستطع الشاب زحزحته. ولم يستطع غيره مجرد أن يفك أصابع الصبي مـــن جانب القارب. أخذوه معهم وأبحروا إلى الضفة الشرقية، يصعدون بالنخلة الجبل الشرقي وشعلتان صغيرتان مع شابين احتلا مقدمة القارب.

اخـــتاروا القمّـــة الثانية من حيث العِلو، فالأعلى لن يستطيعوا صعودها ليلاً ومعهـــم هـــذا الحِمـــل الثقيل. النخلة طويلة ثقيلة والمجهود شاق وبه جانب من الخطورة. استمروا ومرشدان أمامهم يحملان الشعلتين ويحاوران تضاريس الجبل التي درسوها نـهاراً حتى وصلوا إلى القمة. ثبّتوا النخلة على قمتها وصبوا عليها القـــليل من النفط ثم أشعلوا فيها النار. صاحوا فرحاً بها ووصلتهم أغاريد النساء من قريتهم تبارك نجاحهم وتفخر معهم أن هذه النخلة، هي أعلى شعلة تعلن عن الشـــهر المقدس في كل قرى النوب. يراها على الأقل دزينة من القرى المتناثرة على طول شط النيل. أنشد معتوق الخير..

الله الله ربنا
الله الله حسبنا
يا رسول الله ياجد الحسين
كن شفيعي يا إمام القبلتين

فالــتف الشــباب حوــله راقصين مصفقين مرددين والشعلتان الصغيرتان تتراقصـــان فـــي الظلام والشعلة النخلة تتوهج فتنير ما حولها وتبرز جوانب من الشباب وجوانب من تضاريس الجبل وتزيد التسبيح والمديح ألقاً.

حين تأخر معتوق عن العشاء، هَكيمة تسأل زوجها..

- لو كان يقوم بتوصيل عسل، لعاد من زمن. تُرى، أين يكون قد ذهب؟!

- أخشى أن يكون قد صعد مع الشباب قمة الجبل الشرقي.

صاحت فزعة..

- آي نويي سيه.

مـــازالت الأصوات المبتهلة وصدَى الجبل ينثران النفحات تقرباً لله وسعادة بشهره المفضل الكريم.

مرحباً بالمصطفى يا مَسْهَلا
مَسْهلا في مرحباً في مَسْهَلا
الصفى نعم الصفى نعم الصفى
من ترقَّى للمعالي واعْتَلا
مرحباً بالمصطفى يا مَسْهلا.

المـــراكب مـــن الجنوب تنساب شمالاً، وكل بضعة قرى تنضم إليها مركب حامـــلة مـــن أزمعوا على الحج ومعهم عدد من مودعيهم، فيزداد الموكب مركباً جديداً. مركب سَليمتو زُيِّنت بالأعلام البيضاء والخضراء التي ترفرف مع نسمات الشمال الندية. ارتفعت الزغاريد مع اقتراب أشرعة موكب الحجيج. دقات الدفوف والأناشـــيد الصوفية. تواثب الأطفال صائحين ومراكب المجاديف الصغيرة تخرج إلى عـــرض نهـــر الخير لتحيّ الموكب المبارك السابح على النهر المبارك. ترك الجميع أعمالهم، أسرعوا على المطايا قاصدين دار إسْهاج النجار فرحين مهللين. تجمعـــوا فتشكلوا زفّة والعروسان هما إسْهاج وهانم مَفكوكة، ذاهبان برضاء الله إلى حـــج الـــبيت العـــتيق وسيقبِّلان الحجر الأسود وسوف يقفان عند شباك طه الرسول.

الـــزفّة تسير على ضفة النيل تتوسم الجنوب حيث المَرسَى لإعطاء الفرصة لـــناس القرية كلهم للمشاركة في الفرحة. تخطوا نجع نجيبيّة ثم دخلوا في زمام نجـــع أورِّك. عسل ينتظر باكياً ويده على كتف ربيبه معتوق. أسرع إليه إسْهاج فاحتضـــنا بعضهما وهانم يداها على كتفي الاثنين تشاركهما البكاء. حولهم ناس القـــرية يواسون عسل، فحج البيت أمنية عمره ولم يحققها حتى الآن، واستحالة أن يحققهـــا بعـــد هذا الموسم. طعن في العمر وبارحته الصحة والأمراض تغالبه وتغلبه ولازَمه العمى وبخل ابنه. سار في الزفّة ولم يستطع الشدو لهما. عيناه لا تكفان عن البكاء. يسير متألماً وجذعه يترنح يمنة ويسرة ناظراً إلى السماء التي لا يراها.

فـــي المَرسَـــى، ركبا مركب سَليمتو. فُوزية تبكي وتودع والديها وبجوارها خالـــتها العجـــوز التي ستأخذها عندها طيلة شهور رحلة الحج. تخشى فُوزية أن تفقدهمـــا أو تفقـــد أحداً منهما في هذه الرحلة الطويلة المنهكة. خوفها أشد على أبيهـــا الأكـــبر ســـناً والأضـــعف صحة. كل ناس القرية يطلبون من الراحلين أن يتذكروهما بدعوة صالحة عند أستار الكعبة. وثب إسْهاج مرة أخرى إلى الضفة.

احتضن عسل ليهدئ من بكائه. عسل وهو ينهنه يكاد صوته يخرج صريخاً مبحوحاً يوصي إسْهاج..

- تذكرني عند أستار الكعبة وادع لي بالمغفرة. تذكرني على جبل الرحمة وادع لي بالرحمة. تذكرني عند شبّاك المصطفى واعتذر له نيابة عني. ادع للسميع أن يأخذني سريعاً عنده فقد مللت من الدنيا.

تحركت المركب تنساب منضمة لقافلة الحجيج المزدانة بالأعلام الملونة خاصة العلم الأخضر الذي يتوسطه الهلال. أناشيد الفرح التي تنبعث منها لم تتغلب على الحزن الذي بثّه بكاء وحسرة عسل في ناس القرية فجعلهم جميعاً في بكاء. المراكب مُبحرة في المجرى العريض الرزين. تختال بزينتها وركابها ومقصدها المُقدّس، وعلى الضفة ناس القرية يوازونها سيراً على الأقدام وعلى الحمير. مُهلّلين منشدين ضاربين على الدفوف مصفقين بالكفوف. يلوحون لكل من في قافلة الحجيج النهرية. يلوّحون لمن يعرفونه ولمن لا يعرفونه. ينشدون..

قولوا.. لا إله إلا الله.

صادق.. يا رسول الله.

انووا.. نزور بيت الله.

النساء لا تنقطع زغاريدهن حتى وصلت المراكب إلى نجع المنحنى، حيث التقت لتختفي مع الانحناء الكبير لتنضم إليها مركب من القرية التي تستقر عند اعتدال الانحناء حيث زفة إضافية لوداع الحَجيج.

في المسجد صلوا المغرب. وقبل صلاة العشاء كان عسل قد هدأ قليلاً. تنحنح وأخذ يهتز يمنة ويسرة فاقترب منه معتوق وقد علم المصلون أن عسل سينشد فابتسموا فرحين به وله. معتوق يتمايل معه مستعداً لحفظ ما سينشده حبيبه الضرير. انطلق عسل. رأسه لأعلى. كف يسراه يرتفع عند أذنه اليسرى فتأخذها بين الإبهام والسبابة تضغط عليها لضبط اللحن عيناه العمياوان جفناهما يتراقصان وفمه يتماوج..

يا راحلين إلى مِنى بزيارة

هَيَّجتُموا يوم الرحيلِ فؤادي

سِرتُم وسَار دليلكُم يا وَحْشَتي

الشوق أغلبني وشوق الحادي
أحرمتموا جَفني المنام ببعدكُم
يا ساكنين المنحنى والوادي
إذا وصلتم سالمين فبلّغوا
مِنّي السلام إلى النبي الهادي

يتأوه السامعون ويدمعوا مع دموع منشدهم الباكي. فكل منهم يتمنى الحج، لكــن.. كل منهم عنده لكن. خاصة لكن تكاليف السفر الباهظة ولكن مشقة الرحلة ولكن تقدم العمر وتَهدّل العافية..

ضَحّوا ضحاياهُم وسال دماؤها
وأنا المُتَيّم قد نحرت فؤادي

النساء اللائى جلسن في خلفية المسجد، ارتفع بكاؤهن مع الرجال..

بالله يا زوّار قبر مُحمد
من كان منكم رائحاً أو غادي
له المختار ألف تحية
من عاشق متفتّت الأكباد
صلى عليك الله يا عَلَم الهُدَى
ما سار ركب أو ترنم حادي

في الظلام الدامس، كان عسل عائداً وحوله آبدون وبعض الرجال وتَعويضة ومعتوق. وصلوا إلى داره في جمع بسيط. تقدمت تَعويضة وفتحت الباب. أدخلته ودخلت خلفه. التفت الناس ليبتعدوا فإذا عسل يردد..

قولوا له عبد الرحيم مُتيّم.
ومفارق الأحباب والأولاد.

تشبث معتوق بكف آبدون، يحكّها بوجهه وهو يبكي عسل الذي بشّر بقرب رحيله.

الشمس كأنها احتلت قبة السّماء كلها وأقسمت ألا تتحرك. ترسل لظا مبهراً يســخن الجــبل الصـــلد فيلتهب من شلالات النار. تسخن صخوره وأحجاره فتفح ســخونته بالــتالي عــلى القرية القابعة أسفلها في مَسْكَنَة. بيوت القرية الطينية

بالفطرة لا تسمح بالسخونة أن تتخلل جدرانها وقبابها البدائية الرشيقة والأسقف الخوصية تكسر حدة الشمس وطوفان السخونة الهادر منها وجيشان الحرارة الساقط من الجبل على أسقف وجدران تلك البيوت. وفي زمن أقمار الشتاء الضئيلة، تحتفظ بدفء الشمس لجوفها، فيكون داخلها معتدل الحرارة مكيّف على مدار الموسم! الشيخ صَلاتو يشرح لناسه ذلك الأمر الذي يشغل عقلهم فيقول..

- مِمّ خلق الله الإنسان؟
- من التراب.
- والطين الذي نبني به، أليس تراباً؟
- إيْ.
- إذن، حق على التراب أن يحب التراب فهما أشقاء. خلاياهما واحدة. ثم أليست كل موجودات الأرض والسماء من خلقة أحسن الخالقين؟
- إيْ.
- إذن، كل المخلوقات إخوة. حتى ثعبان الطريشة حين ينهشني ويقتلني مسموماً، بطريقة ما، هو أخي. لكنه لا يدري أخوتنا، لكنني أدري. لذلك يجب أن أسامحه.

أقمار الصيف عديدة. شموسها ثقيلة خاصة وهي تتوسط السماء في النهارات الممتدة. والرمال تمتص الحرارة وصهد الجبل. تسخن. البالغون إن كانوا حفاة، يسرعون في السير. النساء أرجلهن أقل قدرة على التحمل، بعضهن ينتعل المراكيب في بعض المشاوير البعيدة. الأطفال غالباً حفاة. أرجلهم لينة نسبياً، يجرون على الرمال موَحْوَحين.

سلاطين انقلب وجهه غاضباً حينما تحدث أحد الأطفال عن معركته مع معتوق، فلم يعد أحد يأتي بهذا الموضوع ولا بواقعة ضرب العمدة له في الساحة. أعلن سلاطين أنه قاتل معتوق يوماً ما لا محالة، ولن يحزن على هذا اللقيط أحد أكثر من حزنه على كلب أسود جربان. الأطفال من عمر معتوق والذين تقربوا منه بعد ضربه لسلاطين، عادوا وخافوا فابتعدوا عنه. حتى أمرُ الله الأشرم ابتعد. والطفلة هُوشَة.

استيقظت نَبْرة مبكراً كعادتها. لم تجد نُوري بجوارها. وجدته على مصطبة البيت الخارجية حاسر الرأس بقميصه الداخلي الخفيف. شمس الصباح خلف الجبل الشرقي ونُوري ينظر ناحيتها ساهما. جلست بجواره..

- نُوري، ماذا بك؟

-..

- ما الذي يشغلك هكذا يا نُوري؟

- لماذا لم يذهب هذا الولد عند أبيه؟

- سلاطين! سيذهب. إنه يُكابر فقط.

- أخشى أن يكون أثمان غاضباً مني.

- أنا وهَكيمة شرحنا له كل شيء.

- قريتنا هذه مستقبلها مثل الحنظل.

- لماذا يا نُوري؟

- هذا الطفل أنا أخشاه. لا أفهمه. يكره أباه. يكره معتوق. يكرهني. يغار من سِسِّي. يكره ويغار من كل طفل. عنيد عنيف قاسٍ. لماذا يكره هذا الولد كل الناس؟ لماذا أضبطه ينظر إليَّ نظرات تَرَصّد؟ أنا كنت أعاقبه لأربيه.

- سيهتدي يوماً.

- وإن لم يهتدِ يا نَبْرة؟

-..

- بلاء.

عادت راضية إلى الكتّاب رغم معارضة أبيها. صدمة ذراعها أخذت منها أياماً ثم تخطتها، إلا حين تندمج في لعب يحتاج فعل ذراعها فلا تسعفها أو تخونها فتشعر أنها صارت أقل من صديقاتها فتبكي قليلاً وتنسى. ومن أول يوم عادت فيه تأكد خوف سلاطين وسِسِّي، لم تعد راضية كما كانت، لا تهابهما ولا تحترمهما. تركتهما وأسرعت إلى بيت خالتها. معتوق كان يستعد للخروج. رآها أمامه. أخذته من يده وخرجا حتى بدون أن تلقي السلام على خالتها هَكيمة وبدون أن تهتم بأولوا.

صمّمت على العبور فوق الجسر ومعها معتوق نِكاية في سلاطين وعصابته الذيـن اتجهـوا إليه. أولوا تَعَب ويَأس من تحريض سلاطين.وسلاطين لولا أنه جـرب قوة معتوق وأن قدماه مازالتا ملتهبتين من ضرب ثُوري العمدة، لما كان ينتظر تحريض أولوا الذي يواصل تحريضه..

- ألقــه من أعلى الجسر. اقتله يا سلاطين. آبدون وهَكيمة لن يغضبا عليه كثيراً. فلوسنا كثيرة ونشترى عبداً غيره.

فــي العــودة، أولــوا صفع معتوق على قفاه وسار ضاحكاً وهو ينظر إلى راضــية متشفياً. تضحك عصابة سلاطين. لعنت راضية أولوا وهددته أنها ستبلغ هَكيمــة. معــتوق يبتســم في خجل. أولوا عاد يواجه معتوق في جرأة. يعلم أن معــتوق لم يؤذه مطلقاً ولن يؤذه. راضية يمناها تبعد أولوا عنه. لكن أولوا رفع يــده وصفع معتوق على خده. ثم استدار يسير في خيلاء وسط ضحكات التلاميذ وقهقهة العصابة. ابتعد الكبار وهبطوا الخور. راضية غاضبة من معتوق. تحرّضه عــلى رد الإهانة وضرب أولوا. معتوق يبتسم في بلاهة بدون أن يجيبها. ألحّــت عــليه أن يضربه فهز رأسه رافضاً. سلاطين لا يشارك في الضحك على معتوق. لا يــلعب معهم. جلس جانباً يراقب مهانة معتوق. ومهانته الشخصية جاثمة على قلبه.

كــان سباق الكبار في عبور الخور الملتهب من الشمس قد بدأ. وصلوا إلى الصــخور المنــثورة في وسط الخور. جلسوا عليها رافعين أرجلهم صارخين من لسعة الرمال في باطن أقدامهم.

الأطفــال الصــغار تراصــوا هم أيضاً صفاً للسباق مثل الكبار، لكن راضية رفضــت اللعب غاضبة. هُوشَة ومعتوق يترجيانها حتى وافقت. أولوا من خلفهم يســير فـــي هــدوء، فهو لا يهاب الرمال لأنه أول من ارتدى مركوباً. وقبل أن ينطلقوا، كانت الصفعة تدوي على قفا معتوق في عنف. ذهل الأطفال. الكبار الذي يجلســون على الصخور انفجروا في الضحك لنجاح المؤامرة. أولوا يسرع إليهم فــرحاً. خارت حماسة معتوق، وازداد غضب راضية وانضمت إليها هُوشَة وقالتا إن معتوق جبان. سارتا على الرمال في سرعة عادية رغم لسعتها لأقدام البنتين. راضية نظرت إلى معتوق في غضب..

- إلى مـــتى ســـتتركه يهينك أمامهم؟ أنت أقوى منه بكثير. أنت أقوى من ســـلاطين نفسه، فلماذا لا تضربه أتخاف أن تغضب هَكيمة منك؟ إذن تعال عندنا أبي يحبك وأمي تحبك. اضربه وتعال عندنا.

-ي ي ي. اااا.. ننـــ..

- أنت ماذا؟ أنت جبان.

ابتعدت عنه في غضب أسرعت هي وهُوشَة في العدو لترحما أقدامهما من لســعة الـــرمال الحارقـــة. خلال هذا أولوا التف مرة أخرى ليعيد تنفيذ المؤامرة، اقترب من قفا معتوق سعيداً. صرخت راضية تحذره. التفت معتوق، وجد يد أولوا مـــرفوعة لتهبط على قفاه كما كان مخططاً لها، أمسك معتوق يد أولوا في قسوة. صرخ أولوا لما رأى نظرات الغضب مصوبّة إلى عينيه. معتوق بيده الأخرى من وسطه رفعه من الأرض. رَجّه غاضباً فسقط المركوب من قدمي أولوا. أنزله على الرمال وهو ممسك به، وضع معتوق قدمه على قدمي أولوا الرقيقتين معا. يصرخ ويبكي ويعض كتف معتوق ثم يعود للبكاء. لم يتركه معتوق حتى قال..

- معتوق، اتركني يا معتوق، لخاطر هَكيمة.

تـــركه معـــتوق فســـقط أولـــوا على مقعدته صارخاً. أتت راضية وهُوشَة مبتســـمتين وسارتا مع معتوق يخترقون الصخور المنثورة حيث عصابة سلاطين الصامتة. راضية تخرج لسانها لسلاطين الجالس وحده.

بعـــد أن استحم في النيل وتوضأ. سحب جمله السعيد وحماره العالي وخلفه بقـــرتين. لم يأته معتوق هذا العصر. لا يعلم لماذا؟ يتجه شمالاً حيث حديقة هاشم الكيد وخُصّه. وجد عدداً من الرجال قد جمعوا ماشيتهم وسبقوه، سيصلّون العصر جمعـــاً بركة شهر رمضان. وقفوا للصلاة. كلهم بجلابيب العمل الزرقاء القصيرة التي تصل لتحت الركبتين بقليل.

بعدهـــا ونَسَة قصيرة ثم كل يركب ويسحب بهائمه ويصعد إلى النجع حيث بيته استعداداً للإفطار. ومن الباب الجانبي العريض الذي رفعوا منه حدّه العلوي، دخـــل آبدون ممتطياً جمله وخلفه بقية بهائمه وعدد من الخراف والماعز تتدافع داخلة وخارجة. يبرك السعيد وهو يجرجر كاشفاً عن أسنان صفراء ضخمة. يهبط وتتشتت قافلته كل إلى مكانها المعلوم.

أولــوا جالس على الحصير تحت السقيفة يرفع قدميه لأعلى وهَكيمة تدهن باطــنهما بالــزيت. يبالغ في إظهار الألم ليأخذ شفقة أمه. لكن هَكيمة لم تأبه به وسألته..

- لماذا تصفع أخاك يا بني؟
- قلت لك مائة مرّة إنه ليس أخي. إنه لقيط. عبد عندنا.
- أخوك في الرضاع. وأعتقه أبوك يا ولد.
- لا. مازال عبدنا.
- وأخو راضية في الرضاع.. وخالتك نبْرة تحبه.
- هو عبدنا. هو عبدنا.
- أنقذ حياتك. معدتك كانت مريضة أكثر منها الآن. لو لم يكن هو لما امتلأ صدري باللبن الذي رضعته أنت معه ولكان موتك مؤكدا.

أبعــد أولــوا يــد أمه. انتصب واقفاً وأسرع يعرج خارجاً من البيت وأمه تناديه..

- أولوا. أولوا. قدمك ملتهبة. إلى أين يا أولوا؟
- إلى خالتي.

في حوش الدار، على جانب السور هَكيمة جالسة القرفصاء وأمامها وعاء واسع تعجن فيه الدقيق استعداداً للخبز. أحس أنها حزينة. لم تقم إليه وقد سمعت أصــوات الــبهائم آتية. اقترب منها. يقف خلفها. لا تلتفت إليه. جلس بجوارها. بأصابعه يتحسس رأسها العارية من الطرحة..

- ما بكِ يا بلطية؟
- مرّة أخرى، أولوا ومعتوق.
- أولوا ضرب معتوق ومعتوق لا يضرب أولوا، ولا حتى يشكو.
- لا، هذه المرّة أمسك به معتوق وحرق باطن قدميه على الرمال.
- لم؟
- صفعة أولوا على قفاه عدّة مرّات.
- راضية أخبرتني أن أولوا يسعد بضرب معتوق.
- غيرته العمياء لا تنضب.

- لن يصفو له أبداً.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- مُصممّ على ظنه، بأن معتوق أخذ حناننا ورعايتنا منه.
- لكننا نحبه، إنه وحيدنا يا آبدون.
- طفل ولا يفهم.
- لا أستطيعِ أن أهجر معتوق. هو الذي أنقذ حياةِ وحيدي.
- أين هما الآن؟
- أولوا ذهب إلى بيت نَبْرة حيث سلاطين وسِسِّي. ومعتوق لم يعد.
-لا أمل أن يصفو له أولوا.
- والعمل؟
-لا أعرف. هل أرسل معتوق إلى دار أخرى؟
-لا، لا. إنــه ابــني. إنه ابني. كيف طاوعك قلبك. كيف طاوعك لسانك؟ معتوق لا يترك داري أبداً.
-اجلسي، اجلسي. سيكون ابننا أيضاً وهو خارج دارنا. لن أتخلى عنه.
-لا، لا، لا.
- أنا لا أقصد..
- لا،لا،لا.
- هكيمة، أين أنتِ ذاهبة؟

أســرعت إلى الأزيار. أخذت كوز ماء وعلى وعاء المياه المستعملة تغسل يديها وهي مستمرة في البكاء، ثم تمسح وجهها ببقية المياه.

آبدون في مكانه يراقب هكيمة المصدومة. تلتفت إليه معاتبة مغاضبة..

- ألا تعــلم.. معتوق الخير اتخذناه ابناً فحفظ الله لنا ابننا الوحيد المريض. إن تركــنا معتوق يذهب.. يُذهب الله وحيدنا. ثم.. معتوق ابني. رضع من صدري وربيته. صارت رائحته رائحتي.

- وأنا أيضاً أحبه يـــ..

تركت ما بيديها وأسرعت خارج البيت.

- هكيمة، إلى أين أنت ذاهبة.

الشـــمس في الغروب، هبط حتى صخرة دُجُر وهو يراقب النهر. عاد. وعند بداية خور البحر وجد قميص معتوق وحقيبته على الحشائش. وعلى صفحة النهر في منتصف المسافة إلى جزيرة أصلاد كان معتوق نائماً على ظهره ورأسه ناحية الجـنوب. أطرافه تتحرك في بطئ ليمنع التيار من أخذ جسده شمالاً. ناداه آبدون مـــرّات ومرّات حتى أفاق إلى نفسه. رفع رأسه إلى الضفة ورأى آبدون يلوح له. ســـبح كالتمساح الصغير في هدوء وبدون أن يزعج المياه بأي ضربة من ذراعيه أو ســـاقيه. ارتـــدى ملابسه وهو ينظر إلى الأرض إحساساً بالذنب. حمل آبدون حقيبة معتوق وهو ينظر إلى الصبي في حب..

- أين المحبرة يا معتوق؟

يبتسم معتوق في خجل.

- أضـــعتها. يوم تضيع الكيس باللوح ويوم تضيع المحبرة. آه لو وافقتني هَكيمة. لقلت لك اترك الكتّاب.

ابتسم معتوق راضياً ممتناً. ثم تذكر ما جَناه في حق أولوا فعاد للعبوس.

كانت هَكيمة تقف خارج البيت تنظر إلى بعيد. تتعجل رؤية آبدون والطفلين. لما لمحت آبدون ومعتوق. صاحت..

- معتوق الخير.

ثـــم أسرعت تجري غير خجلة من رجرجة صدرها ولا عجزها حتى أخذت معتوق في حضنها. لم تستطع حمله، فقد ثقل جسده.

في الحوش، معتوق يجلس بجوار هكيمة. تضحك له وتقبل رأسه. ثم تعبس لغيـــاب ابـــنها أولـــوا ورفضه الدخول في تجمعهم الأسري. تضحك.. وجدت سلاطين وأولوا يدخلان وينظران إليهما في اشمئزاز. أولوا هطلت دموعه. قامت هَكيمة إليه..

- أولوا، قدمك تؤلمك؟ ألم أقل لك لا تخرج؟

ازداد أولـــوا في البكاء وهو يبتعد عنها ويمسك بيد سلاطين. معتوق وقف بعيداً وعاوده شعوره بالذنب. أمسكت هَكيمة بكتف سلاطين.

- قل لابن عَمتك كثرة البكاء عيب على الرجال. لم تعودوا أطفالاً صغاراً.

- هو غاضب منكِ. وأنا أيضاً.

- آه، هكذا الأمر.

أشار سلاطين إلى معتوق..

- تعاملين هذا اللقيط كأنه ابنك؟ وتفضلينه على أولوا ابنك الحقيقي!

- سلاطين. أنت الذي تشعل الحقد في قلب أولوا. لا تتدخل في شئون بيتي أيها الصبي.

- أنا لا أرضى أن تربي هذا اللقيط مع أولوا.

- قلت لك لا تتدخل يا ولد. أنا حرّة في بيتي.

- إنه بيت أبي يا هَكيمة وتركه لآبدون مقابل أن يتزوجك.

ذهلت هَكيمة من جرأة سلاطين.

- سلاطين، تأدب. إنه أصلاً بيت والد آبدون ثم أن آبدون عاد واشتراه.

- لا، اطردي العبد من بيت أبي.

رفعت هَكيمة كفها ولطمت سلاطين الذي لم يتوقع ذلك. اللطمة خفيفة، لم يهتز لها سلاطين. يكبت ثورة داخلة، ثورة تريده أن يطيح بعَمّته. رفع رأسه ناظراً إلى أخت أبيه في غضب وتحدّي. أولوا يزداد في البكاء. اقترب معتوق. أمسك بيد هَكيمة..

- لش، لش. معلهش. معلهش.

خرج سلاطين من البيت ولم يدخله بعد ذلك لمواسم طويلة. وزاد مقته للقيط. أولوا خرج وهو يعرج لكن أمه أمسكت به وأعادته رغماً عن أنفه.

للجبل الغربي قمم متفاوتة طولاً وعرضاً وجمالاً. القمة العالية تحمل تاجاً هو أطلال معبد فرعوني تليد. صخرة مهيبة وأعمدة شامخة تطل على النيل والزرع والقرى. تكشف الصحراء النوبية الممتدة إلى الصحراء الكبرى. الصعود إلى تلك القمة صعب. لذلك فهي مهجورة. الجبل يميل منحدراً للشمال مطأطأ في تواضع واستكانة للقرية وناسها ومحيطاً بظهرها، حتى ينتهي قبل خور البحر شبه منبسط ليهب للقرية نفثه رطبة هي ربوة مِجيد الواطئة ذات الفسحة الرملية الناعمة. أسفل قممه العالية جنوب القرية وخلف تل الجبانة يمر أخدود الأشباح، ذلك الأخدود الذي هجره الناس من عهود الأسلاف، ولا يجرؤ على عبوره إلا كل متهور يبغي أمراً هو عار عليه وعلى قبيلته.

قبل فرحة عيد الأضحى. أذان المغرب يصدح. العجوز الضرير يتأوه ويسير بصعوبة وعناد. يتعكز على عكازه وعلى كتف معتوق. وقبل أن يصلا إلى الجامع، بَـرك عسـل على ركبتيه. معتوق يسنده خوف السقوط. شهيق العجوز متلاحق. أشـار لمعـتوق أن يتركه يستلقي على الرمال. معتوق جالس بجوار صدره الذي يعلو ويهبط في سرعة وتشنج. معتوق ينظر حوله ثم إلى منشده في حيرة. أقرب دار مـنهما عـلى بعـد رمية حجر، هل يذهب ليستدعي نجدة؟ أم يبقى بجواره؟ أمسكت به يد عسل وقربته إليه، همس لسان العجوز

بشطرة واحدة ودّع بها دنياه..

مولاي مالي إلا حُسن لُطفك بي

الرجال في مضيفة القرية، منهم الجالس على الحصر والجالس على الكنب، ومـنهم الواقـف. سَـليمتو وابنه زجرْ وأقرب الأقارب بما فيهم العمدة يتقبلون العـزاء. همهمة الاستغفار للمرحوم وقراءة ما تيسر من كلام الله. رغم أن الليل جثم على الجبل وارتخى على السهل الممتد ودكّن لون النيل وأخفى البيوت، كانت النسـاء تـزحف من بيوتهن في النجوع الثلاثة ذاهبات إلى بيت ناس الميت. لم تـرتجف قـلوبهن، فكل من تسمع خبر الوفاة تضع على ملابسها الجلباب الأسود السـميك وتمسـك بطرحـتها في يدها وتندفع حافية. ينادين بعضهن ويتقاطرن زرافـاتٍ من الشوارع المستقيمة الواسعة. نسوة نجعي المنحنَى ونجيبيّة يقتحمن الخـور في سرعة رغم خطورة العقارب والثعابين. وإن عوى الذئب في الجبل لا يـبالين به. أما لو كان الذئب قد هبط وقطع الخور ووصل إلى النيل ليشرب، فهو نفسه يركبه الرعب من الجماعات المسرعة في ولولة ونواح مع رنّات الخلاخيل الفضية في أرجلهن.

خـارج بيت عسل الظلام سائد. تَعويضة وابنتها كِسبانة وبعض قريباتهما وضـعن الـرماد عـلى رؤوسهن. صرن بشعات المنظر. النساء حولهن. النواح الـنوبي مـع صرخات إبيوو إبيو. كل منهن تعطيه استطالة حسب قوة صوتها وطول نَفَسَها ومدى حرفتها وعمق حرقتها على الفقيد. تصل من النساء مجاميع جديـدة. وكل منهن تأخذ تَعويضة في عناق باك ثم تنفصلان متواجهتين رافعتين أيـاديهن لأعـلى بالطرح نادبات إبيوو -إبيو. ثم تعودان للعناق الباكي. الجميع

يعـلمن أن تعويضة لم تكن تحب عسل، بل كانت تتمنى موته منذ زمن، لكن هذا الصراخ والنواح والدموع المدرارة واجب يجب أن تؤديه. تعويضة المهووسة مع تـزايد تقاطر النساء من النجوع، أخذتها الحِمْية فانجذبت واندمجت وغاصت في طقوس رقصة النائحات. تحزّمت بطرحتها تدب بقدميها وتأخذ المكان جيئة وذهاباً تـلوح بيديها وهي تهمهم وتنشد سجعاً تبين فيه كم كان المرحوم عسل طيباً وكم كـانت تحـبه وتجله، كيف كانت تصر على تقبيل يديه صبح مساء! تجلس أرضاً وتـرفع الـرمال مـن أسفلها وتضعها على شعرها، ثم تشد ضفائرها فتجذب بها جذعهـا يمـنة ويسرة. لا تبالى بالأيادي التي تربت عليها لتهدأ. كِسبانة تقلدها. هُوشَـة فـي بكاء ونحيب هادئ. وسط الحشد الأسود في سواد عشرات الأيادي السـوداء، يـلوحن بالطرح السوداء تاركات شعرهن الجعد مهوشاً كأنها ثعابين صغيرة مفزعة نمَت على فروة الرأس.

الأطفـال بجـوار جدران البيوت القريبة يشاهدون أشباح الرقص الحزين. انسحب معتوق. تفادى ناس القرية وذهب إلى الجامع. بقى وحيداً ساعة زمن ثم أخـذ الطـرقات ليعود إلى دار عسل. مر على بيت أثمان. يسير متمهلاً داعياً في بكاء عالٍ للفقيد بالرحمة. يقرأ آيات من القرآن بلسانه الذي زاد من عجزه بكاؤه الحار المتواصل. انفتح باب صغير فأطل منه ضوء كابى. أثمان ينظر وقد تبيّن أن صـوت الـبكاء والهمهمـات هي للصبي الصغير معتوق الخير. ينظر.. الصبي يقـترب مـن الباب غير مبال. أثمان جلبابه الأزرق بلّله العرق. يعمل في الخفاء ليل. أ فاجأه موت عسل وصارت القرية مثله مستيقظة. نادى..

- معتوق. معتوق هووي.

لـم يجبه معتوق، يسير مطأطئاً رأسه على صدره. خرج أثمان خلفه حافي القدمين. أمسك الصبي من كتفه في عصبية..

- ألم أناديك يا ابن من أنت ابنها؟ تعال معي لأنهي عملي .

جذب معتوق لنخلف بقسوة..

- أريد أن ألحق بالدفن يا ولد.

بيديه معا عاد وجذبه جذبة شديدة. سقط معتوق على مؤخرته. قام ليستكمل سيره بدون أن ينظر إلى أثمان. جذبه أثمان جذبة ثالثة. أخذه بخشونة حتى أدخله

دكانـــه خـــافت الضوء ومنه إلى داخل الحوش إلى الحجرة المهيأة كمعمل. رائحة كحـــول وخمير. دخان. حرارة عالية. معتوق حزين متوتر متراخ في أسى. رئتاه تشنجتا من الرائحة الثقيلة. صاح فيه أثمان..

- لا تقف كالحمار يا ولد. أنت قوي كالثور وسوف أعطيك حق عملك. انقل هذه الأجولة وقربها من القِدْر. لكن حاذر النار يا ولد.

نظر إليه معتوق، يرجوه بنظراته أن يتركه وشأنه. يشرح له والنهنهات لا تـــنقطع. يشرح كم هو حزين على موت حبيبه المنشد عسل. أثمان متعجل انهاء عملـــه والـــلحاق بجـــنازة عسل. لم يلاحظ مدى حزن معتوق وكبته لغيظه. دفعه ناحيـــة الأجولة. معتوق خجل أن يثور ويدفع أثمان بعيداً عنه. إنه رجل كبير. ثم إنه شقيق هكيمة التي لا يقبل إغضابها. أخذه أثمان من ياقة جلبابه. سحبه وقرّبه مـــن الأجولة على بعد خطوات من النار والسائل الغليظ الذي يبقبق ويبعث رائحة تلهب رئتيه. غطى معتوق وجهه بكفيه مشمئزاً وكاتماً لغضبه.

- يا ولد، هيا أنا متعجل.

دفـــع معتوق الذي عرقله إناء فسقط أرضاً. نظر إلى أثمان في غضب. قام وصـــرخ صـــرخة أذهلت أثمان. اندفع حانياً رأسه ناحية بطن أثمان. حمله حملاً وألقـــاه عـــلى الأجولة. أثمان يكتم ألمه ويراقب العفريت الذي انطلق متجسداً في معـــتوق. يرتد إلى الخلف ثم يهجم عليه. يأتي بأثمان الضئيل من يده ويقذفه إلى ركـــن آخر وكأن أثمان عروسة قماش مما تصنعه الأمهات لبناتهن. تركه ملتقى عـــلى الأرض ثـــم تقدم من القدر الكبير المغلق بإحكام بعجين تيبّس من مسحوق الحلبة. أمسك المغرفة. وانحرف يكسر بها القوارير فيسيل الخمير. أغمض أثمان عينيه. أذناه تسمعان فرقعة القوارير المعدّة للبيع ولا يجرؤ على الحركة خوفاً من الصبي المدكوك الهادر الغاضب.

- ولـــد. يـــا ابن اللقيط، النار أن طالت الكحول ستحرقني وتحرق نفسك. حرام عليك يا ابن الكلب.

تقدم معتوق ناحيته. نظر أثمان إلى وجه الصبي الغاضب. بيديه حَمَي أعلى رأسه شاسعة الصَّلَع والتي ينعكس عليها بعض من وهج النار، مشفقاً عليها من ضـــربة بالمغرفة، لكن لم تقع عليها المغرفة. فتح عينيه ليجد الصبي الهائج يدفع

القــدر دفعــه واحــدة. وقع القدر فتحطّم غطاؤه اليابس. الأنابيب المصنوعة من أغصــان شــجرة الخــروع والملفوفة بقطع القماش، انحلت وتبعثرت ليسيل ما بداخلها إلى الضياع. السائل المغلي ذو الرائحة الفائحة يجري على الرمال فتَتشَرب منه. أسرع أثمان يلقي بالرمال الجافة على النار حتى لا تمتد إلى الكحول فتشعل الــبيت كلــه. انطفــأت النار. الطفل يتقدم من أثمان. أقدامهما تسير على شظايا الــزجاج والــرمل المبــلول بالخمر النيئة المغلية. أثمان يتراقص ألماً وعيناه لا تهبطان عن وجه معتوق الصبي الهائج. قدما معتوق كأنهما معدن قوي تهشمان الزجاج تحتهما. تحسّس أثمان فراغاً بين أجولة مليئة واندس بظهره فيه. يترجى الوحش الصغير المتقدم نحوه..

– معــتوق. أنــا أخو أمك هَكيمة. ولد يا معتوق. ولد يا حر. من أجل أمك هَكيمة يا ولد. ارحمني يا ابن الحرام.

وقــف أمامــه معتوق متسمراً. قبضتاه تنفرجان وتنغلقان كأنهما تفكران.. هل تضربانه أم تتركانه؟ التف معتوق وأسرع باكياً.

كفّــنوا الجــثة بملاءة، ثم لفوها بالحصير ووضعوها على سريره الجريدي الــذي جُهّــز بأقواس من زعف النخيل من ناحية رأس الجثة وقدميها. ثم حملوه نعشــاً. خرجت جنازته والليل في منتصفه. تتقدمهم المشاعل والفوانيس. النساء خــلف الرجال تنوحن تحت قيادة تَعويضة التي بح صوتها وتشربت تماماً بالعرق والــرماد والــرمال. صلوا عليه في الجامع ثم صعدوا به تل الجبانة. الرجال في بكاء هادئ على عزيز لديهم. سَليمتو وزَجَرْ خلف النعش الجريدي. دفنوه وتركوا أوانٍ فخاريــة مليــئة بالمــاء وحفنات قمح وأذرة ولقيمات طعام وشراب للطير والــزواحف. صراخ النساء لا يتوقف. لمح آبدون معتوق على بعد يقف وحده. صامتاً ذاهلا. أخذه عائداً.

بكــت هَكيمة وهي ترى باطن كفيه وقد تحرقا من سخونة القدر الكبير. ثم بــاطن قدميــه كــل هذه الشظايا مرشوقه فيه. تعجب آبدون.. كيف كان يسير معتوق وفي باطني قدمه كل هذه القطع من الزجاج الحاد؟ معتوق راقد على ظهره ناظــراً للســماء الــتي تبادله التحديق بنجومها اللامعة. هَكيمة تضع قدميه على

حجـرها تلـتقط الشظايا على ضوء الفانوس الذي يحمله لها آبدون. قدم معتوق صلبة، لكن.. الشظايا الزجاجية مرشوقة فيها.

قـبل الفجـر، ذهبت هكيمة قلقة تحمل فانوساً صغيراً إلى حجرة الطفلين شـهقت. معـتوق ليـس على سريره. عادت مسرعة إلى آبدون. بحثا عنه في حجرات البيت وهما يناديانه. وقفا في الحوش وكل منهما يخشى أن يقول ما في خاطره.

أيقـظ آبـدون جيـرانه. معه بندقيته. الرجال معهم عصي وكرابيج. على الركائب اتجهوا إلى تل الجبانة. يمسحون الظلام حولهم منادين..

- هووي. معتوق هوووي.

أصـواتهم تنحدر وتكتسح وتنزلق على مجرى النيل لتصدم الجبل الشرقي فتعود صدى عميقاً مهيباً. صعدوا تل الجبّانة. لا يهابون عواء الذئاب الصادرة من بعد قريب. لمحوا شبح الصبي جالساً عند القبر. مقرفصاً، حاشراً رأسه بين كفيه وركبـتيه. يـردد الصمدية بلسانه العيي وينشج. أمسكه آبدون بلطف فقام معه الذئـب القـريب والرابض بجوار قبر قريب، لمحه رجل فصاح هلَعاً وهو يطرقع بكرباجه..

- الذئب. الذئب.

ابـتعد الذئب في هدوء. والكرابيج الأخرى تفرقع في الهواء. آبدون استعد بالبندقية إن هجم الذئب. لكن معتوق خشي أن يطلق النار فهبّ ممسكاً بها خافضاً ماسورتها لأسفل، يصيح في آبدون..

- لا. لا.

الذئـب فـي نفس ركضه الهادئ يبتعد تماماً حتى يغرق في الظلام. الرجال صـامتون مضـطربون. لا خـوف فـي قلوبهم، لكن حيرة يقطعها ترديد معتوق للصـمدية مرّات ومرّات ثم دعوات مفهومة رغم عجز لسانه الذي لم يبرأ تماماً مـن عجـزه. هبطوا وهم يحاولون متابعة شبح الذئب الذي كان يجثم في هدوء والـذي ذهب في هدوء! دخلوا القرية. جمع كبير من النساء والأطفال. أسرعت إليهـم هكيمـة. احتضـنت معتوق فبكى معها. عادوا إلى البيت. رفض الدخول.

جلســت هَكيمة معه على عتبة الباب يدها على كتفه. هدأ. آبدون خلفهما قلقا. نظرت إليه هَكيمة ليعود وينام. جذب معتوق ذقن هكيمة إليه..

- إدي أسل. حج راح.
- كان أمله أن يذهب إلى الحج.
- راح. راح. إدي أسل راح حج.
- ذهب إلى الحج! طيب. طيب.
- آمد لله. آمد لله.
- الحمد لله.

لم يحكِ لهَكيمة عن الذئب. لكنها سمعت في النهار. وسمعت ارتياب الناس أنها ذئبة. وأنها هي التي أرضعته. حادثت آبدون. قال..

- ربما هي.

وبــدون أن يــأخذ أي شيء معه. لا ملابسه ولا حتى كيس الكتّاب الحاوي عــلى لوح إردوازه ومحبرته. خرج من بيت العمدة نُوري، علم مؤخراً بما جرى لأبيــه أثمان وضرب معتوق له وأن أباه لم يحضر دفنة عسل لأن قدميه داميتان وضــلع مــن ضلوعه مرضوض. مقته وكرهه لمعتوق يتعمقان واحتقاره لأبيه اشــتد. فــرح أثمان بوصول ابنه. كان ممدداً على حصيرة وقدماه ملفوفتان في ضــمادات. ما كاد ابنه يجلس بجانبه ويميل ناحيته. حتى تعلّق أثمان بعنق ابنه ساحباً إيّاه ناحيته. يقبله ويبكي.

لكن سلاطين لم يكن حنوناً مع أبيه. أصر على عدم مساعدته في عمله. لم يهمــه أن أباه يسير بالكاد، ولم يفرح أن أباه شفيت جروحه. لم يساعد حتى في أعمــال الــبيت. حتى مجرد إلقاء بقايا طعام للدواجن القليلة. وضع أطباق الطعام على الحصير ليأكل مع أبيه. رفض غليظ ووجه جامد صلد في معاملته لوالده.

فــتيات مــن الأقارب والجيران يملأن لهما الأزيار كل صباح. تأتي هكيمة يوميــن في الاسبوع ونَبْرة يومين آخرين. تطبخان لهما. وتنظفان البيت الواسع عــدا غرف الخمر الثلاثة. أثمان راضي. يكفيه وجود وحيده معه. يراهن على أن الأيــام ســتلين رقبة سلاطين وترطب سحنته الجامدة. ومع الأيام سلاطين شاهد تجــارة أبيــه تــنمو باطراد. يحضر معارك عمتيه مع والده لإبعاده عن صناعة

الخمــر. يــراقب أباه خلسة وهو يعمل. تيقن أن تلك التجارة مكسبها وافر تماماً وإن كانت تجارة لا تحترمها القبيلة وتنظر بتكبر لمن يمارسها. قال لأبيه..

- لا تســتمع إلى كلام أختيك. لا تترك التجارة. الخمر عل الأقل أفضل من أن تمد يدك تتسول من زوجيهما.

ســلاطين انشــغل بأرباح التجارة. إنها الطريق لتحقيق أحلام يقظته. أحلام بداية طفولته بأن يكون غنياً، أغنى رجال القرية.. أهم رجال القرية لينتقم من كل من أذله.. يضرب كل من ضربه.. يلعن كل من لعنه.

لم تفرح القرية فرحتها كاملة بالعيد. موت المداح عسل وضع مَسحة حزن عــلى الوجوه. ووجود هَمَرين الساحر يخالطهم وقتما يريد غصباً عنهم، يحز في قلوب غالبيتهم خوفاً على بركة قريتهم أن تذهب. كل رجل يظن أن زوجته جميلة أو أخــته أو ابنــته، يخشى عليها من الساحر. كل امرأة نضجت ابنتها وصارت أنــثى، تخشى من الساحر أن يرمي عليها شياطينه. وهَمَرين لا يهاب صَلاتو ولا يخــاف مــن العمدة بل إن العمدة هو من بدأ الخوف يدخل قلبه من شرّه. الشيخ يخشــى من الشيطان في هيئة هَمَرين أن يستهوي ناسه واحداً بعد واحد. النساء والبنات يرتعبن من هَمَرين ومجرد سيرته. لو شاهدنه سائراً في دروب القرية أو حــتى لمحن هامته تطل من مكانه البعيد في جبل كارا، يسرعن بالاختباء يخشين أن يرســل نظــراته إليهن ويأمرهن أن يزرنه ليلاً فيذهبن إليه مرغمات مثل من ذهــبن إليــه مُجّــبرات. صار هَمَرين هو من تخوّف به النساء أطفالهن الصغار ليــرتدعوا. والنســاء اللاتي لا يطفئ أزواجهن كامل شوقهن يتمنين بينهن وبين أنفســهن أن يجــدن جســد هَمَرين عليهن فيروي ما فشل أزواجهن في ريّه ريّاً كاملاً.

نــاس القــرية بــالملابس الجديــدة في صباح العيد الباكر ذاهبون إلى تل الجــبانة، الــرجال والشباب ومن كادوا أن يبلغوا الشباب في جلابيبهم وعمائمهم البيضــاء. النســاء والبــنات في جلابيبهن السوداء الشفافة والتي يرتدينها على جلابيب ذات ألوان مبهجة، وعلى رأسهن ونصفهن العلوي شيلان حمراء. أطفال على رؤوسهم الطواقي الملونة بالزركشات. والجميع تلوّح أياديهم بأعواد السعف لــتزيين القبور بالأقواس الخضراء. حاملين طعاماً وشراباً وأواني فخارية جديدة

مليئة بالمياه، لكنهم لا يهزجون معاً بالمديح للمصطفى والدعوات لله. ذات القبيلة المـتوحدة أصابتها شدوخ وأضعفتها شروخ. النفوس مكسورة مذلولة خجلة من ربّها. كل نفس مع نفسها تدعو وتمدح وتسبح في صوت واطئ ضعيف. جلسوا حـول مقابـر الراحلين يدعون لهم ويقرأون ما تيسر من القرآن. وبعد أن مرّوا جميعا على قبر المنشد عسل وقرأوا له الفاتحة، عادوا دامعين بعد أن عَيّدوا على أسلافهم.

الـرجال يمـرون عـلى كل البيوت مهنئين النساء والمرضى ومن ضربهم العجـز. وإن كـانت الـتهاني فاترة. وقبل الضحى تجمع الرجال، كل في مضيفة نجعـه. وأخـرجت كل امرأة من بيتها الصينية الخوصيّة الواسعة، تحوى صَحناً واسـعاً عميقـاً مترعاً بأنواع من الإدام واللحم. وعليه صينية الخوص الغطاء. تحمـل الفـتيات الصـواني ويذهبن بها في ملابسهن الجديدة المزركشة بالألوان المبـتهجة. يتـناول الصبيان منهن الصواني ويدخلون بها المضيفة التي فُرشت بالحصـير اللامـع، ويرصونها أرضاً صفوفاً متوازية بينها فراغات مناسبة حيث سيجلس عليها الرجال ويتناولون الغذاء الجماعي المبارك.

أثمـان كُورنـة فـي حرج بالغ. ناسه يتحاشونه. نُوري العمدة عابس في وجهـه. الشـيخ صَلاتو حينما صافحه أثمان صافحه في قرف واضح قائلاً إن له حديـث معه وأي حديث. من أيام وأختاه هددتاه بالمقاطعة. يعلم الجميع إنه خمّر البلح، في رمضان شهر الصوم!

قـبل أن يـبدأوا صدرت جَلَبَة من الفتيات القريبات من المضيفة ثم صياح الشـباب والصـبية خارجها. شبح هَمَرين وتابعه مقبلان من ناحية خور أورّك. يرددون اسمه في تعجب من جرأته..

- هَمَرين.. هَمَرين..

خرج من المضيفة كل من بداخلها. الفتيات ابتعدن تماماً. والجريئات منهن يتابعن من بعيد شبح الرجل. أتت بعض العجائز لتتابعن من قرب غير مباليات، فلم يعـد لديهن ما يخفن عليه. هَمَرين ينظر إليهن مبتسماً في تودد وطيبة مفتعلة. الـرجال بجـوار حائط المضيفة ينظرون إليه في ذهول من جرأته. مازال يرتدى جلـبابه المـزركش وعـلى كتفه جلد النمر رغم الحرارة العالية. رأسه المحلوقة

بالموســى والمدهونـــة تلمع وتعكس أشعة شمس الضحى. تابعه الضنيل بعمامته الصــفراء وجلبابه الأحمر في مشيته العجيبة التي هي ليست عرجة عادية. بالكاد يلاحق خطوات همَرين الواسعة عن عمد لتعطي له مهابة.

العمــدة والشيخ وآبدون ومعهم هاشم الكيد بنبّوته الذي يحركه في غضب. قطعــوا الطــريق عــلى الساحر وخلفهم أتى جمع كبير. جمع من عائلة الهمَراب تجمعوا ووقفوا على جانب وحدهم. ابتسم همَرين مطمئناً. لن تجتمع القرية ضده يــداً واحــدة أبداً. نظر إلى أثمان الذي يحاول الاختباء وراء هامات الرجال لكنه يتلصص ولما صدمته نظرات همَرين أخفض رأسه.

- لن تدخل وسطنا يا همَرين. فأنت ملعون من الله ومنّا.

ازدادت ابتســامه همَرين استهانة بحديث العمدة. لكنه لم يجب. ينظر حيث الصبية الصغار حتى رأى سلاطين. ابتسم له. الصبي ينظر إليه في رهبة وتقدير وخوف. همَرين أخذ خطوات واسعة مبتعداً في هدوء متجهاً ناحية شجرتي التوت ثم هابطاً ناحية صخرة نُجُر وتابعه المشوه يحجل خلفه ملاحقاً.

عــاد الرجال إلى حيث الطعام. تربعوا يأكلون ولا يستطعمون ما يأكلونه. أحــاديث ســريعة مــتوترة خجلة تدور. أحاديث لا معنى لها، تحاول إزالة حرج وشعور الخزي في نفس كل منهم.

الصّــبيّة في ركن وحدهم يأكلون صامتين. خاصة سلاطين، فلقد رأى خاله عن قرب مرّة أخرى. إنه يشبهه فعلاً شبهاً يكاد أن يكون تاماً، كأنه أبوه. أقرانه نظروا كثيراً إلى خاله وإليه ليقارنوا تطابق الشبه. وهو يأكل الآن يحس بنظرات الرجال المختلسة إليه. يتناول طعامه في بطء وقرف.

تم رفع بقايا المائدة. الأطفال كل منهم يأخذ الصينية التي تخص بيته. أثمان يبحث عن صينيته. لا يجدها. سلاطين ناداه..

- يا.

نظــر إليــه أثمــان ووجــد ابنه يشير إلى ركن بعيد. صينية طعامه هناك مركونة كأنها وباء. ذهب إليها. رفع الغطاء. الطعام كما هو. لم تمسسه يد! ناس القــرية يــأنفون أن يتــناولوا طعامــه. من يخمّر الخمر في رمضان، يؤدبونه بطريقتهم. وكانت طعنة مؤلمة لأثمان كُورنة ولسلاطين.

الرجال خارج المضيفة. من معه حماره يمتطيه. الكل يعيد تهنئة الكل. الكل يتمنى أطيب الأمنيات التي تناسب الآخر. لكن التمنيات فاترة خافتة. الشيخ وهو على مطيته يتقدم بعض الرجال، تمتم لنفسه..

- عيد! بأي حال عُدت يا عيد؟

الحرارة شديدة. قرص الشمس شاسع الاتساع. جوفها المشتعل لا يكف عن سكب فيضانات اللهب. آبدون مع معتوق. تركا الحقل وأخذا خطوات سريعة إلى النهر. آبدون يتوضأ ويغسل أطرافه وتحت إبطيه. بكفيّه يُغرق شعره. معتوق قفز في النهر ضاحكاً. غسل نفسه في المياه العميقة ثم عاد مع آبدون. ينتظران هَكيمة أن تأتيهما بالغذاء. جلسا تحت شجرة وارفة. هَكيمة على الحمارة العجوز مقبلة. معتوق يأخذ منها الصينية الخوصية المغطاة. ربطت هَكيمة الحمار. أسرع آبدون برفع الغطاء الخوصي ليتناول أول لقمة من الثريد. قبل أن تأتي هَكيمة وتفعل مثلما تفعل كل مرّة. لكن معتوق أمسك بيمين آبدون مانعاً. ضحك آبدون..

- هل تتآمر أنتَ وهَكيمة على أبيك يا ولد؟

أتت هَكيمة..

- أنتَ ولد خير يا معتوق. أنت معتوق الخير. لا تجعل آبدون يأكل إلا بعد أن يأكل أقاربنا الخيرون في نهر الخير.

استسلم آبدون. أخذت هَكيمة ثريد لبن بعسل البلح. ذهبت إلى النهر. ألقت بضعة قبضات من الثريد وهي تدعو لهم أن يحفظوا ولديها أولوا ومعتوق ويباركوا في عمر زوجها آبدون. ويحموا بيتها من عين الحاسدين. عادت ليبدءوا في تناول الطعام. فإذا بهاشم الكيد على رؤوسهم. وقبل أن يدعونه للجلوس معهم. صاح..

- والله يا آبدون إن لم يأت معي معتوق الخير للغداء، أغضب منك.

رفض الكيد أن يتناول غداءه معهم. لكنّه أصّر. يجب أن أتناول طعامي في حقلي وليس في حقل الغير. إنه يحادث آبدون أساساً ولا يخاطب هَكيمة إلا بالنذر اليسير. فمازال صعيدياً. قالت هَكيمة..

- اذهب يا معتوق مع عَمّك هاشم.

قام معتوق. فقال هاشم..

- ربـــنا يبارك في ناسِك يا أم أولوا. غدائي يحوي عسل البلح واللبن. ما يحبه معتوق الخير.

وضع يده على كتف معتوق. يتذكر سلامة. ابنه الهارب. حزين من وحدته. يده الأخرى يتعكّز بها على نبّوته. ذهبا إلى حديقته الملاصقة لحقل آبدون.

قالت هَكيمة..

- كنت أحب زوجته جوليه.

- ومن منّا لم يحب جوليه؟ ومن منّا لا يحب هاشم الكيد نفسه.

مع الكيد. معتوق يجب أن يفتح موضوع شئون الزراعة، ويلح أن يشرح له هاشم كيف استصلح أرضه.

أثمان رغم إرهاقه وضعف بدنه. مستمر في صناعة وبيع عرق البلح بخبرة واسعة. المكاسب تتواصل ولعنات الكثير من ناس القرية تتواصل عليه لكن ليست بنفس الحرارة أيام شهر رمضان والعيد. وعندما يسألونه..

- متى وأين تعلمت هذا؟

يضحك في استعلاء ويقول..

- وهــل كــل سفرياتي التي سافرتها كانت أي كلام؟ لو أعلم أن منكم من يحــب خمــر المَــرَيســة الحلفاوي لصنعتها لكم. وخمر الموز والذرة. لو أردتم لخمّــرت لكــم عســل البلح خمراً عجيبة لا تتصورون لذتها. بل أثمان قادر على تخميــر الــبطاطا والمانجو! لكن أنتم حتى لم تعرفوا ما هي المانجو إلا من أول أمــس. نـــاس جهلاء حقاً. طوال عمركم ملتصقين بجوار مؤخرات نسائكم حتى يرفعونكم أمواتاً لتسكنوا تل الجبّانة!

بعــض الشباب يشترون منه نهاراً، ثم تعودوا الجلوس أمام دكانه من بعد العصــر ويــزدادون من بعد الغروب. صحبة وأحاديث خفيفة تختلف عن الصحبة الــتي تتحــلق حول دكان مُهدي والذين لا يجتمعون إلا لمصالحهم. بعض الرجال يشـــترون مــن أثمــان خِفْيَة. لم يستكف أثمان بزبائنه من القرية، باع لمراكب الصعايدة التي تمر على ميناء دُجُر، أصبحوا زبائن أهم من زبائن القرية القليلين، يشـــترون بالجملة. ثم أتته زبائن أخرى من القرى المجاورة، يأتون على ركائبهم

بالزنابيل فارغة فيعودون بها مليئة بقوارير عرقي أثمان كُورنة، لذلك تشجع شاب ورضى أن يعمل عند أثمان، حينها بدأ أثمان يستريح من أغلب العبء البدني، بل وجـد وقتاً للفراغ. وما زاد أثمان فرحاً، أن ابنه سلاطين أصبح يساعده في نقل كميات البلح ورصَ القوارير ويبتسم له. يعلم أن ابنه يساعده حباً في المال الذي يدخل البيت مدراراً وليس لأنه نسى آلامه من والده. يقول لنفسه..

- ليكن. ليحبني ابني من أجل مالي. ليكن.. أريد أن أكسبه بأي طريق.

يصـحو أثمـان والشـمس تكون قد صحت قبله بفترة وأخذت درجات في صـعودها إلى قبة السماء. يخترق الحوش الواسع متجهاً إلى دورة المياه والنوم مـازال يغالبه. في يوم سمع نخير حمارته في الحظيرة، واصل سيره، لكن صوتاً آدميـاً كظيماً وصل أذنيه. تعجب. اتجه ناحية الحظيرة. نظر من شق بين الجدار والـباب. اندهـش. كاد أن يضحك. ابنه سلاطين حاصر الحمارة في ركن ووضع خلفها جذع شجرة عريض. يقف عليه وانهمك في مضاجعة الحمارة التي تتململ منه.

ابتعد أثمان بدون إصدار أي صوت. عاد إلى حجرته واستلقي لفترة. يتذكر ويضحك ويعبس. هَمَرين كان يفعل هذا. خرج أثمان من حجرته وسلاطين قد ترك البيت كله بعد أن قضى وطره .

لم يستطع الإفلات من الحصار. تهرّب كثيراً من هذه العُصبة التي تحاصره. لكـن حـتى متى؟ الجِلسة في بيت العمدة. الحضور الشيخ وآبدون وهاشم ونفس الـثلاثة الذيـن يمثـلون عائلته التي زاد غضبها من تلويث سمعتها بفعل أثمان وتخميـره الخمـور فـي رمضان، ومعهم أختاه.. هَكيمة ونَبْرة. أثمان أصبح وسـطهم كالكـتكوت المبلّل المفتقد دفء أمه في ليل بارد، غريق وسط زحامهم. أخـرج علـبة صفيح من جيبه. بها دخان وورق صغير خفيف. يحاول لف لفافة دخـان. لـم يستطع. أعصابه زادت توتراً. ضحك هاشم الكيد من عصبيته، فألقى أثمان بالعلبة جانباً ثم رفع عمامته وطاقيته عن رأسه معلناً صلعته الشاسعة. نظر في تحدٍ لوجوه محاصريه..

- هه. ماذا تريدون مني يا ناس؟ وأيضا تحضرون النساء؟

- إنهما أختاك يا أثمان.

- زهقت منهما.
- تعرف يا أثمان ما نريد منك.
- إي. ندخل في الموضوع يا صَلاتو. يخجلكم أني تاجر خمر. هه؟
-إنه حرام.
- قال أحد الأئمة، إنه ليس بحرام.
- لم يقل ذلك يا أثمان، حرام عليك. ثم إن الأغلب من الفقهاء حرمه.
- وأنـــا يا صَلاتو أتّبع من لم يحرّموه. ثم إن الكثير من رجالنا يشربونه، فهل أحضرتهم وحاصرتهم كما تفعل معي؟ هه!
- شارب الخمر حرام. فما بالك بصانعها وحاملها وبائعها؟ هل ترضى على نفسك هذا العار؟ وعلى قبيلتك؟
-آهّـــاااا. يهمكـــم اســـم القبيـــلة فقط، وهؤلاء الثلاثة يهمهم اسم العائلة وفخارها بين العائلات، ولا يهمهم اسم القبيلة، أليس كذلك؟ هه؟
تدخل نُوري في غلظة. وأختاه في لين. الكيد في حب ورجاء. آبدون يحاول بموضوعية. حتى حسمت المرأتان الموضوع. بكتا له. قالتا أن بيعه الخمر سوف يجلب العار وقلّة القيمة لابنه سلاطين وأيضاً لأبنائهما.
بـــدأ يتراجع أثمان كُورنة. ضعف أمام بكاء أختيه. فأثار حجّة قوية ليتغلب على بكائهما..
- ومـــن أيـــن سأصـــرف عـــلى بيتي؟ وهل أنا صرت شحاذاً لأتقبل منكم حسنات؟
كـــان آبدون مع هَكيمة قد فكرا في الأمر وأعدا لهذه الحجّة ما يضعضعها. تقدم آبدون..
- قريتنا كلها ليس بها إلا دكان واحد. تاجر واحد. مُهدي الأصفر. لماذا لا نفتح لك بقالة؟ فيكون في القرية تاجران يتنافسان؟ وهذا منفعة لناس البلد كلها. أنت تعرف جشع الأصفر.
وافق أخيرا على ترك تجارة الخمور.

على باب الحجرة، وهم في حبور لانتصارهم عليه. واجههم أثمان في ضيق وطاقيته التي على رأسه ينست عن تغطية كل صلعته، والعمامة على كتفه مَفكوكة وعلبة الدخان في يده..

- لكــن سأســتمر فــي شرب خمر العرق. والله العظيم لو عملتم لي ألف مجــلس ومجــلس، وأحضــرتم فيه ليس أختاي فقط. بل لو أحضرتم أمي كُورنة نفسها من القبر، لن أترك شربها.

ليلاً أتى سلاطين. حدثه أبوه بما كان. ثار سلاطين. أنب أباه ولامه. حَرضه عــلى رفــض ضغط الأقارب والاستمرار في صناعة وتجارة العرقي. لعن العائلة وأكــد أن العائلة لن تساعد أثمان في أمر. ستتركه إن احتاج إليها كما تخلت عنه والعمدة يجلده في الساحة. لكن أثمان لم يوافق ابنه رغم أنه أصلاً يفضل صناعة وتجــارة العرقي. عيّره ابنه بأنه شحاذ. سيأخذ إحساناً من أختيه وزوجيهما. لم يســتطع سلاطين أن يحمل أثمان على كسر اتفاق ناسه معه. فضغطهم عليه كان أشد من ضغط سلاطين. أثمان برّر لسلاطين أن تجارة البقالة والبلح وغيرها فيها مكسب لا يقل عن مكاسب العرقي.

سليمتو حانق على أقارب هَمَرين. المشاريع الخيالية التي قالوا له عنها، لم تــتحقق. فمــال للعمل مع أثمان رغم ما بينهما من تنافر طوال العمر. قلبه كارد لأثمان ليس لأن أثمان أحب زوجته وكان يريد الزواج منها قبله. بل لأن أثمان لم ينتصر عليه ويتزوج تعويضة لِسانين ويريحه منها. يقول مخاطباً نفسه..

- كــانت من نصيبي هذه البشعة أم لِسانين! قضائي وقدري أن أتجندل في داهية تعويضة وأتزوجها ويفلت منها أثمان كُورنة لعنه الله.

مَهدي الأصفر أصابه شبه جنون عندما علم بأنهم يحرّضون أثمان على فتح دكان ينافسه بدلاً من تجارة الخمور. أسرع على حماره متجهاً إلى نجع نجيبيّة. لا يــلقي ســلاماً على رجل كان أم امرأة يمر عليه،بل لا يرد سلاماً ألقاه عليه أحد. وجهه مربد. الحمار يسرع به لكن مَهدي بخيزرانة صغيرة في يده يلهب بها كفل

الحمـــار كأنـــه يـــريد منه أن يطير به. ولما وصل إلى نجع نجيبيّة انحرف ناحية الكتّاب وهو يصيح ينادي..

- صَلاتو. صَلاتو هووي. ابعدي يا امرأة عن الطريق، ناقصات عقل ودين. صَلاتو. صَلاتو هوووي.

لـــم يكن صَلاتو هناك. الأطفال يتناولون غداءهم البسيط. والشيخ في بيته لـــلغداء وأخذ قليل من الراحة. عند بيت صَلاتو، وثب من أعلى الحمار مثل شاب صـــغير. دخـــل الـــبيت. لم يصفق بيديه، لم يناد هووي حتى تعلم نساء البيت أن غريـــباً عـــن الأسرة سيدخل عليهن. رمال الحوش الصغير تعكس شعاع الشمس التي تفترشها كلها إلا ركن المزيرة، حيث السقيفة والتي رأى تحتها صَلاتو جالساً عـــلى حصـــير مـــلوّن يقرأ المصحف. عليه السروال الطويل والقميص الداخلي الخفيـــف الفضـــفاض. بيـــاض لحيـــته القصيرة وشاربه المشذب يكسوان وجهه الأسمر.

خطوات سريعة قصيرة تحت الشمس وصار مُهدي أمامه تماماً..

- صَـــلاتو. تـــريد خراب بيتي؟ هل ما شجعت عليه ناس البلد يوافق عليه ديـــن؟ لا مُســـلم ولا نصـــراني ولا يهودي يا صَلاتو يقول إن ما تفعله يرضيه. صَـــلاتو، بعدمـــا ضربتك الشيخوخة صرت تخرف يا صَلاتو؟! حرام عليك. حرام عـــلى المصحف الذي بين يديك. صَلاتو.. مالك تنظر إلى ولا تنطق؟! ألا تريد أن تدافع عن جُرمك يا صَلاتو؟ طبعاً، لا تجد حرفاً تدافع به عن فعلتك الشائنة يا ابن القبائل!، يا شيخ العشائر! يا مُعلم القرآن للكبار والصغار! يا إمامنا طوال أربعين موســـماً ويـــزيد. أخرسك ظُلمك لمُهدي المسكين. مُهدي الذي يصرف على أطفال وزوجـــة مريضـــة. هـــذا بخلاف ما أعطيه خَفية من إحسان لناس البلد الغلابة. صَلاتو..

اســـتمر مُهـــدي فـــي كلامه العصبي. عرقه من تحت العمامة يسيل ويختلط بعـــرقه الـــذي يـــنز من صفحة وجهه وعنقه حتى ابتل إبطا وصدر جلبابه. تعب مُهدي من مقالته الطويلة وأم بلال وبناتها حولهما ينظرن في عجب إليه. أم بلال تقدمت منه وربتت على كتفه وأخذته من ذراعه وأجلسته تحت السقيفة بعيداً عن أشعه الشمس. جلس وهو يمسح دمعة سالت. ثم نظر إليها..

- ظلمني أبوكِ. لن يغفر الله له إلا إذا سامحته أنا، لأنه ظلمني أنا، وأنا لن أسامح أباك، سأتركه يذهب إلى جهنم الحمراء وبئس المصير.

ضحكت السيّدة وتركتهما وذهبت وخلفها بناتها. صمت مُهدي. يتنفس بعمق وصَــلاتو وضــع المصــحف بجانبه وبقي ينظر إلى مُهدي في هدوء. لم يستطع مُهــدي بهجومــه ولا باستدرار الشفقة أن يجعل الشيخ يتراجع عن الأمر. حادثه وراوغه. لا فائدة. قال..

- ولينا ومولانا جوش الكبير كان قد أفتى بأن يكون في القرية تاجر واحد.

- لم يفتِ جوش بهذا أبداً. أنت الذي تشيع عنه ذلك.

- تقصد أنني كاذب؟

- لا. أنت لست كاذباً فقط، أنت كذوب يا مُهدي.

- إب ب ب ب. هذا اتهام خطير يشعل النار في القبيلة. فعائلتي ليست هينة يا صَلاتو.

- عائلــتي أنا هي الهينة يا مُهدي. لكن عائلتك كلها تعلم أن نعتي لك بأنك كذوب.. نعت صحيح.

انتفض مُهدي واقفاً متشنجاً..

- تظــن نفسك ولي كبير مهيب مثل جوش! لا. كلا. لا وكلا معا. أنت حتى وقــد قاربت على الموت، لم تستطع السير على سطح النهر حتى الآن. أنت وأنت تشرح الفتاوى لم ترتفع عجيزتك عن الأرض ولو بمقدار إصبع واحدة، بينما كان ولينا جوش يستطيع أن يطير كالنسر فوق جبال القرية والقرى المجاورة إن أراد! أنت لم تبق في أزهر بر مصر سوى موسمين ثم عجز عقلك عن الفهم، فلا تظن نفســك شيخاً كبيراً كلامك يؤثر في الناس. أنت لست شيخاً ولا يحزنون فأنت من أدخل بدعة المشيخة الدينية مع الخوجة التعليمية وهذا إثم عظيم عليك وعلى من وافقــوا فعلــتك الــتي فعلتها. هذه شهادتي أقولها في وجهك وأسجلها في تاريخ القبيلة. وشهادتي سوف تحكي عنها تَعويضة لِسانين ضدك.

صَــلاتو يــنظر لمُهدي في استهانة ولا يهتز ولا يفقد أعصابه. مُهدي هو الــذي يفقــد البقية الباقية من أعصابه وهو يرى الإصرار في عيني الشيخ، فأخذ يهــدد ويــتوعد بعمل شرخ في القبيلة. بأنه سوف يساند هَمَرين علناً وسيزوره

ويدعـوه لـزيارته، وأنـه سيتعاون معه في تجارة واسعة، وبأنه سيمنع الزكاة المعلـنة والإحسـانات الخفية عن ناس البلد، وسيعمل على نقل الكتّاب من نجع نجيبيّة قليل الشأن إلى نجع أورِّك حيث العمودية والعمدة، حتى إن استأجر على حسـابه الخـاص شيخاً معلماً من سُوين أو حَلفا. وبذلك يحرم صَلاتو من كيلات البـلح وهدايا الذرة وغيرها التي ينالها من ناس التلاميذ. سيحاربه في رزقه كما حاربـه صَـلاتو فـي رزقه. ولم ينس مُهدي أن يذكر الشيخ بأن الكثير من قبل حاولوا منافسته بفتح دكاكين لكنهم فشلوا.

خـرج مُهدي ولم يمد يده إلى طبق الفشار والبلح الذي أحضرته الفتاة، بل رفـض أن يمـس كـوب منقوع بودرة الحلبة البارد. خرج هادراً كما دخل. في الخارج وثب على حماره المنتظر وصاح..

- ابعد يا ولد يا ابن الكلاب. وأنت يا امرأة يا عمشاء ابعدي.

ولـم يكن هناك أحد يعترض طريق حماره! ذهب إلى نجع المنحنى وتوجه إلى عـدّة بيـوت. رغـم كل تمثيله وتهديده. لم يجد استجابة حقيقية لطلبه. ألا يتعاونوا مع أثمان كُورنة.

فـي بيـت هكيمـة، لم ترد على شتائمه، فقط قالت له إن آبدون ذهب إلى صديقه الكيد. ذهب مُهدي إلى بيت الكيد. من هناك إلى الحقول.. إلى حديقة الكيد. وجدهما جالسين تحت ظلال أشجار البرتقال. يدبّر آبدون بيع محصول البرتقال إلى تجـار حَلفا. فعل مع آبدون مثلما فعل مع صَلاتو وغيره، هجوم مفاجئ وتهديد. وأضـاف أنـه يعلم أنهما يتمنيان خراب دكانه ببيعهما محصولاتهما مباشرة إلى تجار الجملة الغرباء ويشتريان مباشرة أيضاً منهم. وأن سوء النية عندهما متوفر منـذ زمـن، فآبدون مازال كارهاً للبلد وكبار البلد من أيام امتعاضهم من مشيخة وولايـة أبيـه موسى جوش عليهم. ضحك آبدون ليداري حرجه من نكء جرحه القديم الحي. والكيد عَبس. حوّل مُهدي هجومه على هاشم، اتهمه بأنه غريب عن البلد وليس من حقه مجالسة كبار ناس النوب الأصلاء. انجرح الكيد. عبس كاظماً غيظـه. لكـن الأسى ووجع غربته بأثقالها الكريهة طفحا بؤساً على وجهه. فثار آبـدون لإهانة الكيد ووجد الفرصة أن يجرح مُهدي لطعنه في سيرة والده موسى جوش. فوقف أمام مُهدي متحدياً..

- الكيـــد والله العظيـــم خيـــره على القرية كلها. وأنت يا مُهدي شَرّك على القـــرية لا نستطيع حصره. هو ينتج ويزكي ويحسن وأنت تسرقنا ولا تزكي. ولا تُـــحـــسن. الكيد يخالطنا بالمعروف وأنت تستغلنا بالخبث والإساءة.

- إ ب ب ب ب.

- الكيـــد يـــده معـــنا تساعد في الأفراح والأتراح. وأنت يدك هاربة إلا من مكسب تبتغيه أو مظهر لا يكلّف فتظهر وتتظاهر.

- آبدون! أنا كل هذا؟!

- وأكـــثر. أنـــت تســـرق ناســـك. أنت على استعداد أن تسرق مال النبي وتُحَـــلّي بمال الصحابة.

- أنا يا حفيد جوش الولي؟!

- هاشم الكيد لم تشتك منه امرأة أبداً. يصون نساءنا. وأنت لم تترك حتى الصبايا.

- إ ب ب ب. هـــذا اتهـــام يشعل النار في القبيلة كلها. وأنا عائلتي في المنحنى وفي أورك أكثر عدداً وعِزّة من عائلتك يا ابن الهارب.

- تمـــد يدك النجسة على أجسادهن يا مُهدي، أيها الأصفر من صُفرة الغِل والحسد والنية السيئة.

- أنا! أنا! أنا يا ابن موسى الهارب، أنا يابن الكلب؟

هاشـــم الكيـــد هو الذي وقف بينهما. ابتعد مُهدي وهو يلعن آبدون وناس آبـــدون كـــلهم حتى جوش الكبير. لم يستثن هَكيمة ولم ينس أولوا المريض ولا معتوق اللقيط .

لـــم يـــبق له إلا أثمان. أسرع إليه. الشمس كانت قد صعدت حتى توسطت الســـماء تمامـــاً. فـــترة الظهيرة التي لا يسير تحتها إلا الشياطين، الظهيرة التي تخشـــاها وتختـــبئ مـــنها العقارب والثعابين والأبراص والسحالي، فتحتمي تحت الأحجـــار وبيـــن شقوق الجبل. الرجال المشغولون في الزراعة، يستريحون تحت ظـــلال الأشـــجار حتى تخف حدّة الشمس قليلاً. أما من لا تضطره أمور الزراعة الملّحة إلى البقاء في الحقول، فهم تحت السقائف في أحواش بيوتهم الواسعة .

دفـع مُهـدي الباب ودخل مهاجماً وقد تضاعفت ثورته من إخفاقه المتكرر وسبّ آبدون له، يصيح مُهدي منادياً..

- أثمان كُورنة. أثمان هووي.

أثمـان كـان مسـتغرقاً في النوم. هب بقميصه وسرواله الخفيفين. ضربه الرعب من كوابيس هي أصلاً مازالت تطارده فاعتدل من نومه صائحاً..

- من؟ ماذا؟ حرب القبائل يا ماجيتا؟ ماجيتا لم أخنك فلا..

وقـبل أن يتـبين ما الأمر، كان مُهدي قد سبّه وسب ناسه وبشّره بخراب تجارته وإفلاسه. وعندما وقفا متواجهين، عجوزان نحيفان قصيران أحدهما شعره أبيـض تماماً تحت العمامة، والآخر صلعته شاسعة أغلبها تحت طاقيته الواسعة. كـل يسب الآخر. دفع مُهدي أثمان فاصطدم هذا بظهره بعمود من أعمدة السقيفة الخشـبية، لا يعلم كلاهما أين كان سلاطين وكيف اقترب منهما سريعاً، بيديه معاً دفع مُهدي في جانبه دفعة قوية كادت أن تلقي به أرضاً، اضطر مُهدي أن يتقهقر بخطـوات سـريعة غير متوازنة ليحفظ نفسه من السقوط، لكنه أخيراً سقط على مؤخرته جالساً. ضحك أثمان ووضع كفه على رأس ابنه سعيداً به وبمساندته له. إلا أن سلاطين الذي كاد أن يقاربه طولاً أبعد يد أبيه في خشونة.

مُهدي هبّ أشد غضباً. لا يسب ولا يلعن. لكنه تقدم سريعاً ورفع يده وصفع سـلاطين، فـلم يـتوان سـلاطين ورفع يده هو الآخر ورد الصفعة بأقسى منها فـتزلزلت عمامـة مُهدي وكادت تقع. تقهقر مُهدي مذعوراً. باطن يده على خدّه المصـفوع وتحت أذنه الناقصة. يحملق في سلاطين ثم في والده. استدار وأسرع مهـرولاً لمّا تقدم ناحيته سلاطين. خرج من البيت يلعن سلاطين الذي هو نسخة من خاله الساحر الشرير.

سلاطين يقف في غيظ. أثمان يحاول تهدئة ابنه..

-لم صفعته يا بني؟ إنه أكبر سناً من أبيك!

- لن أسمح لمخلوق أن يضربني. كفاني ما لقيته من نُوري، أما لعن خالي هَمَرين وتشبيهي به.. فسوف أردها لمُهدي الأصفر.

بعـد صلاة الظهر تكون فُسحة للتلاميذ كلهم، يذهبون أولاً للصلاة مختارين ومجـبرين فـي الجـامع الملاصق. رجال نجع نجيبيّة غير المشغولين بالزراعة

يصـــطفون فـــي الأمـــام. خـــلفهم الأولاد كبارا وصغاراً ثم على بُعد الفتيات كباراً وصغاراً. يتسلل سلاطين قبل الصلاة أو خلالها، خلفه عصابته، ثم بجيوَة وكِسبانة وبعـــض الصـــبايا معهمـــا. الصغار يرون ويتبادلون اللكز ويكتمون الضحك. بعد الصـــلاة الشـــيخ يذهب للغذاء في بيته القريب. يستلقي هناك فترة وجيزة معطياً الفرصـــة أيضاً لتلاميذه أن يتناولوا كسرات من الخبز والبيض ثم بضع بلحات أو حبّات فاكهه ثم يلعبون قليلاً. في تلك الفُسحة يحدث الكثير. هي ذروة متعتهم في الكـــتّاب. كـــل عمـــر له لعبته. وأحلى لعبة كانت عند سلاطين، هي لعبة عسكر وحرامية. وحين التخفي يحولها من الباطن إلى لعبة عريس وعروسة.

صـــباح يـــوم دراسي، الأطفال صغاراً وكباراً يلعبون ويصيحون لحين يأتي الشيخ. الأولاد متفرقون جماعات ومازال المتأخرون يأتون فراداً وأزواجاً. البنات بجيـــوَة وكِســـبانة وبَهيتة وفوزية وبُرون. الحقائب القماش معلقة على أكتافهن. يصـــفقن وهـــن يغـــنين أغنية حب شهيرة، متجهات ناحية نخلة صَلاتو، وعندها جلسن ضاحكات. بُرون سبقت بَهيتة لتحتل أقرب مكان لجذع النخلة فتسند ظهرها وتكون في منتصف الجِلسة. وما كادت تجلس حتى صرخت وقامت تهلوس..

- آ آ آ ه. لدغني.. العقرب.. لدغني.. العقرب.. يو.. يو. أمي. أمي.

تمســـك بجانب مؤخرتها وهي تدور حول نفسها تحاول رؤية مكان الإصابة ثـــم تـــنظر لمن حولها في ذهول. صدمة المفاجأة وهلع الموت تجسدا في ملامح وجهها. تصرخ..

- سأموت.. سأموت يا يو. سأموت يا أمي .

الأولاد وصـــلوا حولهـــن. معـــتوق بكعب قدمه الحافية داس على العقرب الداكـــن الكـــبير الـــذي حاول الفرار فصحنه. بلال ألقى حقيبة بُرون بعيداً، أمسك بضـــفائرها وأجبرها أن تجلس على جانبها السليم وجذعها العلوي مرتفع. لحقت بهم نساء من أقرب البيوت لهم. شلّـــحوها وأرخوا لباسها الداخلي وهن يصرخن ويولولـــن مـــع صرخات وولولات بُرون. إحداهن نزعت طرحتها وربطت وسط بُـــرون في حزم شديد لإيقاف سريان السم لأعلى. بحد سكين شرطن البقعة التي تلّونت بلون أغمق من لون جسد البنت، تمص امرأة مكان التشريط مصاً وتبصق الدم في سرعة على الرمال. بُرون يتهدل جسدها فيضطررن لتثبيتها في وضعها.

سَـيّدة أخـــرى تعصر ليمونه في فم بُرون وتحاول إجبارها على ابتلاع القطرات اللاذعة. العرق يتصبب من وجه وعنق بُرون غزيراً. سمرتها يغزوها صفار فاتح تشوبه زرقة لون.

دُفِـنت بُــرون في نفس اليوم، لكن لم تتوقف الدراسة في الكتّاب إلا يوماً واحداً. الموت سيصيب من عليه الدور سواء كان في الكتّاب أو في ضفة النيل أو على الكثبان الرملية. أو حتى داخل بيته وهو راقد على سريره الجريدي.

أســبوع والذهول مسيطر على التلاميذ. حزنوا على بُرون، لكن الأيام مرت وعــادوا إلى الــلعب بــل والجلوس تحت نخلة صَلاتو نفسها حيث أصيبت بُرون بإصابتها القاتلة.

خيشة العجوز ارتعبت. علمت أن حفيدتها كانت ستسبق برون وتجلس أولاً وكانت ستأخذ الموت من إبرة العقرب. بتشنجاتها وصراخها وهلوستها وتوسلاتها مــنعت بَهيــتة من الكتاب. بَهيتة حُزنها حُزنين.. حزن فراق الكُتّاب والصحبة والتعــليم، وحزن قائم وحده.. بُعدها عن صوفاني نصف نهار كامل كانا يريان بعضهما فيه. خيشة أصرت على أخذ بَهيتة رغم إلحاح الشيخ عليها بترك حفيدتها موســمها هــذا على الأقل. العجوز المرعوبة من محاصرة ابتلاء الموت لذويها أصــرّت على أخذ بَهيتة، لكنها لم تستطع منع مصطفى الذي صمّم على مواصلة دراسته وتغلب على إصرار جدته. بل أمرها بعدم الذهاب معه لتوصيله كل صباح والعــودة بــه بعد اليوم الدراسي، حجّته أنه كبر وأنه في نظر أقرانه مازال طفلاً بسببها.

ثم انتهى الموسم الدراسي بدخول ذروة الصيف بطغيان حرارته، وفي لياليه التي تشتد فيها السخونة، يبيت الناس في الأحواش تحت السماء المكشوفة، على الأســرّة الجــريدية والأبراش، وأحياناً خارج البيوت نفسها حتى لا تمنع الجدران نســمة هــواء هــم في أشد الاحتياج إليها. يفترشون الرمال على جانبي الباب، بعضــهم على المصاطب الممتدة في تلاصق مع الجدار الخارجي. الخوف الوحيد يكــون من العقارب الغبية التي تصطدم بهم فيضربها الرعب فتضرب هي بإبرتها المســمومة. أمــا الثعابين فتبتعد عنهم ولا تصعد من الأخوار إليهم ولا تهبط من

الجبال عليهم إلا نادراً حين يكون الحرور ناراً تلفح الوجوه حتى في الليل. وهذا يحدث كل بضعة مواسم.

الفيضان يغمر الأراضي الزراعية، انتهوا من حصاد زراعاتهم قبل أن تغرقها المياه مقاومين متاعب الشمس الحارقة، وحصدوا البلح ولم تأتهم رياح جُنيب بمضايقاتها. فأهلا بحفلات الأعراس ولعب الأطفال والصبيان على الأطواف على حواف النهر البحيرة، وحكاوي تَعويضة لِساتين للأطفال والكبار.

الموت حيّر معتوق حيرة بالغة. مات الكبار وكاد أن يمر عليه الأمر، لكن موت بُرون شغله. صعد تل الجبّانة وجلس وسط الأجداث يستمع لهم لعلّ أحدهم يخاطبه ويشرح له. لكن لم يتحدث إليه أحد! قام مبتعداً، لكن ليس جهة الشرق حيث بيوت القرية، بل اتجه غرباً إلى درب الجِمال وخلفه صحراء ممتدة ووهاد وتلال ورُبى. يسير ويسير وسط الظلام وعلى الرمال التي بدأت في التَبرّد. عدد من السواقي تعمل في الليل. أصواتها كلها حزينة كأنها أخذت صوت ساقية خيشة النائحة.

عاد بعد العشاء بوقت طويل فوجد هَكيمة وآبدون ينتظرانه في قلق. لقد ذهبا يبحثان عنه عند كل بيت يتوقعان تواجده فيه. خشيا عليه من مكروه ألم به. تلقى الكلمات الغاضبة منهما بابتسامة فرحة، وأيضاً عندما عَرَك آبدون أذنه لم يرد إلا بهذه الابتسامة. سألته هَكيمة..

- ماذا تخبئ عنّا؟

لم يجبها. ألحت فلم يزد عن ابتسامته الفرحة. وفي وَنَستهما الليلية، قالت هَكيمة لآبدون..

- معتوق الخير يخبئ شيئاً حدث له. شيئاً أسعده.

بعد عدّة ليالٍ علمت هَكيمة هذا الحدث الذي أسعد معتوق. كانت معه ومع أولوا في بيت طلب ناسه أن يستضيفوا أمسية حكي. تَعويضة تمنّعت طويلاً أن تعود للحكي فيؤذيها أحد ممن ستأتي بسيرتهم. معتوق ومقابلاته لكل من تحكي عنهم أصابتها بالرهبة وبالرعب، لكنها مدمنة حَكي، وكل حكاويهم تتصل بمخلوقات غير إنسية، منها الطيب ومنها الشرير ومنها ما يحمل النقيضين في قلبه مثل البشر أبناء الآدمير. كل حكاويهم هكذا، حتى الحكاوي عن ملكتهم

القديمـــة المقاتلة كنداكة، يحكون أن الملائكة وكتائب من جنود أسماك ناس النهر كـــانوا معهـــا فـــي قـــتالها ضد الجحافل الآتية من بلاد الصقيع والناس الشُقْر، وبفضلهم صمدت! عمّ ستحكي إن لم تحك عن الغرائب غير الإنسانية؟! وتَعويضة لِسانين تستمتع بهذا، وبدونه وبدون مسيرات إعلان الزواج ومدح وقدح الناس لا تســتطيع أن تعيــش. وافقــت على العودة للحكي بعد أن قررت عدم الحكي عن فانالاندي امرأة النهر الشريرة، ولا عن غولة الإيركابي امرأة الجبل الشريرة التي تحب أكل لحم الأطفال.

فـــي البيت الذي ستحكي فيه، الغروب هبط. الحوش واسع وتَعويضة خلفها الســـور. الأولاد فـــي مـــراحل سنية متفاوتة مرصوصون جلوساً صفوفاً صفوفاً. الأمهات في ركن، بعض الرجال في ركن. وإذا بهَكيمة تدخل ومعها أولوا ومعتوق الخير. لم تتبينهم تَعويضة، لكنها علمت بحضورهم من أصواتهم. صاحت..

- هَكيمة هووي. جئت لي بمعتوق لكي يضايقني بتخريفاته؟ والله الحكَّاءة التي تليني بعد عمر طويل، سوف تحكي عن معتوقك هذا بأقذع مما أحكي أنا عن الإيــركابي وفانـــالاندي. اســـمع يا ولد يا معتوق، تجلس بعيداً عني حتى لا أرى وجهك وأنا أحكي.

ضـــحك الحضـــور أسعدها. لكنها تعمدت عدم الإجابة على الصوت النسائي الذي وضح لأذنيها من وسط النساء..

- وهل أنتِ ترين من أصله؟!

يستمعون لحكاوي تَعويضة لِسانين. اندمجت تَعويضة في الحكي عن امرأة جماعـــة العفاريت المؤمنين.. كَلايا شِلشِل، تلك المرأة التي تظهر في هيئة النساء النوبيات وترتدي مثل ملابسهن تماماً.. جلباب تحتي وعليه الجرجار الشفاف الذي ذيله من الخلف بالكاد يلامس الأرض. وجهها بلون البلح الناضج. أعلنت اسمها.. كَلايا. وكانت تأتي في كل الأفراح لتهنئ ناس القرية. وتأتي في كل ميتم لتعزي. ومـــا يميزها كثرة الذهب الذي ترتديه بنفس أشكال ذهب النساء في القرية. لكنه غزيـــر غزير غزير. حتى إنه كان يصطدم ببعضه البعض وكَلايا تتحرك أو وهي تجـــلس بيـــنهن وتقـــف. خاصة وهي ترقص في أفراحهن.. الذهب يتصادم معاً فيصدر صوت شلشلة. فأطلقوا عليها كَلايا شِلشِل.

الضحك ينفجر كلما قالت اسم كَلايا. امرأة من ضمن السامعات اسمها كَلايا!
تحكـــي تَعويضـــة، تبين أن كَلايا شِلشِل ليست جدة لكَلايا التي تجلس بيننا، فكَلايـــا الأصـــلية كانت جميلة جميلة. ولم تكن مثل هذه قبيحة قبيحة. كان لحمها طـــرياً ولـــم تكن جافة كالبوص الأصفر الميت. حكت وحكت كيف كانت جماعات العفـــاريت المؤمنين متداخلة مع ناس القرية المؤمنين. فالله واحد وهو رب الكل. ثـــم عـــندما حاول ناس القرية أن يعرفوا عن كَلايا شِلشِل أكثر مما هو مسموح لهم.. وكيف تعمدوا أن يتمعنوا في وجهها خاصة عينيها وكيف كانوا يتحسسون ذهـــبها بحسد وغيرة. لأن كلايا شِلشِل طيبة وتأكدوا أنها لم تؤذ أحداً من الآدمير ولـــن تؤذي منهم أحداً، تجرءوا عليها.. حاولت فتاة أن تخطف عِقداً من عُقودها الأربعيـــن. وشابان حاولا أن يتتبعاها ليعرفا كيف هو سكنها القائم فوق ربوة من ربى الجبل. غضبت كَلايا شِلشِل. وفي أمسية زفاف.. هاجت على الناس فتحولت مـــن امـــرأة طيبة جميلة.. إلى كائن بشع، أسنانها وأنيابها التي برزت في اتساع فكيها وطول أظافرها التي نبتت فوراً وصارت تماثل المنجل في شرشرته! أرعبت كـــل الذيـــن حولها لكنها أيضاً لم تؤذ أحداً منهم، ثم شقت طريقها غاضبة متجهة خلف القرية حيث الجبل الغربي والتيه الصحراوي المخيف.
الكبار يسمعون وهم يهزون رؤوسهم ويصدرون أصواتاً خفيفة موافقة من أفواههـــم المغلقة، فقد سمعوا عن كَلايا شِلشِل كثيراً. الأطفال في مراحلهم السنّية المختـــلفة يستمعون مبهوتين مرعوبين، عدا معتوق يستمع في ابتسام ورضاء. ثم ضحك ضحكة عالية! تضايقت تَعويضة من معتوق. صاحت به..
- ما الذي يضحكك يا أبله هَكيمة؟! ألا لعنة الله عليك وعلى من أتت بك.
ضـــحكت النساء والرجال الجالسين على أجناب الحجرة الواسعة. وضحكت هَكيمـــة بشـــدة. فضحك معتوق بشدة أكثر. سألته تَعويضة عمّا يضحكه وحكاية كَلايا شِلشِل ليست مضحكة وليست طُرفة؟ قال معتوق..
- كَلايا شلِـــ شِل لم تعد غا.. ضبة على ناسنا.
- وكيف علمت يا أبله؟
- رأيـــ..تها.

وجـوم ثقـل عـلى الكل. من كانت تحت الفانوس تعمل في طاقية توقفت. الـرجل الذي يكاد أن يكون مضطجعاً اعتدل. تَعويضة تخشبت في وقفتها خائفة. هَكيمة في ذهول، معتوق الخير لا يكذب. قالت تَعويضة في تهديد ووعيد..

- ابن هَكيمة هووي، هل تكذب علينا يا ابن الكلب؟
- لا.
- كَلايـا شِلشِل لم تعد تظهر من عهد جدة جدتي. هل رأيت كَلايا شِلشِل يا ولد؟
- إيْ.
- يقول إيْ! هل تريد إحالتي للجنون يا ابن هكيمة؟
- قـالـ..ت، إنها وأسرتها ذهـ.. ذهبوا لمكان آخر خلف قرية أخرى في الغرب مثـ..ل قريتنا، وإنها لم تعد غاضبة على قريتنا.
- حكَت لكَ كل هذا! هل عقدت لك مجلس وَنَسة لتحكي لك تاريخ حياتها يا كذوب عائلة هَكيمة؟!
- حَصَل.
- آي- نويـي- سـيه. يا ناس البلد. لو أصابني الجنون.. سيكون من تحـت رأس هـذا الولـد ابن الذئبة والذي تربيه لنا هَكيمة ليصيب تَعويضة في عقلها.

الحضـور فـي ضـحك بمن فيهم هَكيمة. لم يصب أحد منهم بالخوف عدا تَعويضة التي استمرت في سؤال غريمها..

- كيف رأيتها؟ ومتى؟ وما شكلها؟ وماذا ترتدي إن كنت صادقا؟
- ط.. ويـ.. لة. ط.. ويـ.. لة. ط.. ويـلة.
- انتهينا، عرفنا. وغير أنها طويلة؟
- سـ.. مـ.. ينة. قلـ.. يلاً.
- وبعد ذلك؟
- حملتني وضحكت.
- ثم.. ؟
- لعبت مع أولاد قبيلتها قليلاً.

- أيضاً ؟!
- والله.
- خيالك واسع واسع يا سليل الذئاب.
- هاها.
- ولد.. ماذا كانت ترتدي؟
- ذهب كثيــ يــ يــ ر ثم..

يحــرك معــتوق رأسه يمنة ويسرة ويمرر كفيه أمام صدره لأعلى وأسفل وهما يحتكّان ببعضهما.

- كانت عارية.
- إيْ.
- كيف عرفت؟

ضحك معتوق خجلاً.

- ســألتك يــا ولــد.. كيف عرفت أنها عارية؟ وهل أنت متأكد أنها كانت عارية؟

أشار معتوق إلى صدره علامة وجود الثديين الكبيرين العاريين.

- إسفخس عليك وعلى من أتت بك. والله لن أحكي الليلة أي شيء آخر.

هَربية تَحنّ إلى أمرُ الله الأشرم.. أرضعته مع ابنها سَيّد، تكفلت به رضيعاً ورَعــته مثله مثل ابنها. تحب أن تراه، تحب أن يزورها ويبقى معها نهاراً كاملاً، تتمــنى بقاءه معها هي وابنها، بدلاً من بقائه في بيت تَعويضة لِسانين، تَعويضة تسمح للأشرم بالذهاب كل عدة أيام ليبقى يوماً عند هَربية. وسَيّد كان يحب ذلك صــغيراً، لكــنه الآن لا يحــب حضور الأشرم. يرفض أن يأتيهما الأشرم زائراً. يتشــاجر مــع أمه ويضايقها ويحرجها أمام الأشرم. حتى ابتعد الأشرم عن البيت حزيــناً. سَيّد هَربية يتبرأ منه. يلوم أمه كيف قبلت أن تُرضع هذا الأشرم فيصير أخــاً له بالرضاع! يخجل من ذلك. يخجل من هذا المشوه. يتضايق عندما يعايره الأطفــال بأخوّته له. اضطرت هَربية أن تكبت حبها وشوقها لأمرُ الله. اضطرت لوقــف زياراتهــا للــبيت الذي يحوي أمرُ الله لتأتي به حتى لا تزعج ابنها سَيّد، وحيدها المدلّل.

أمــرُ الله بــقى بعيــداً عن هَربية. ومع مرور المواسم تعودت هَربية على نســيان أمرُ الله. وأمرُ الله جفت مشاعره الودية نحو هَربية وابنها سَيّد ، تحوّل وده نحوهما إلى مشاعر أسى.

بانتهاء الموسم الدراسي الذي ماتت فيه بُرون أصر معتوق على أن يوافقه آبدون في تركه للكتّاب. شرح له بلسانه العيي إنه أصبح غير محبٍ للكتاب، أنه لا يــتواءم مع الأولاد، ولسانه الثقيل يمنعه من مسايرة من هم أصغر وأحدث منه. يــود مخالطـــة كبار السن. ألحّ آبدون على هَكيمة أن تترك الولد يفعل ما يشاء. فوافقت مضطرة.

صَــلاتو ينظر إلى سرب الفتيات الكبيرات من تلميذاته. يضحكن ويتحاورن بصــوت عــال فـــي مصاحبة حركات الأيادي. طرحهن ساقطة عن رأسهن فبانت ضــفائرهن الممشَطَة ضفائر صغيرة كثيفة في دقة. ضفائر تتراقص حين يتمايلن وحيــن يســرعن وحيــن يتدللن. ابتسم حباً ورهبة. أجسادهن صارت أقرب إلى الأنوثـــة. أنوثـــة فجّة مازالت ظلال الطفولة الساذجة عالقة بها، ولن تمر بضعة فيضانات حتى يتزوجن.

ركّــز عيــنيه على بجيوَة. أسمنهن وأقربهن إلى النضج الجسدي، بل هي ناضــجة فعــلاً رغــم عمــرها الذي يماثل أكثر من زميلة لها. تذكّر فتاة سبقتها بمواســم عــدّة، كانت مثلها لا تهمد، تميل للأطفال شبه البالغين. جسدها الذي لم يكــن واضـــح السمنة، كان جسداً جميلاً بالنسبة لطفلة في عمرها. خشي عليها، لكنها لم تخطئ إلا بعد أن تركت الكتّاب ثم تزوجها شيخ الخفر زوجة ثانية رغماً عنها. بعدها فعلت الكثير ببجاحة. عاد ليركز تفكيره في بجيوَة.. لقد أتعبته هذه البــنت بشــقاوتها. وفي كل موسم له جلسات عديدة مع أبيها هاشم الكيد الذي يحاول منعها من الكتّاب. يقول إن قريته الصعيدية لا تعليم فيها حتى للأولاد. فما بــالك بالبنات؟ في قريته بعد سن العاشرة لا تخرج بنت من بيتها إلا نادراً، وإن خــرجت تكون مع مُحْرم وتتغطى تماماً بحِرام طويل يغطيها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها. بيديها تغلق الحِرام على وجهها وجسدها الطفولي، فلا يرى منها الــرائي غيــر خيمة تتحرك. يقول الكيد ذلك وهو يضحك لشعوره بحرج اختلاف أهلــه عــن نــاس القرية النوبية. ورغم حرجه هذا، في كل موسم يرهق الشيخ

إرهاقاً قبل أن يوافق على إرسال بجيوَة إلى الكُتّاب. وموافقة الكيد ليست لأن تقاليد القرية النوبية غير تقاليد قريته، ولا حتى لضغط الشيخ اللّحوح. لكن السبب نفس الكيد الممزقة بين اثنتين من الإناث أحبّهما غاية الحب وأضَرّهما ضرراً بليغاً.

الثانية.. زوجته الزنجية جوليه. أم ابنيه سلامة وبجيوَة. جوليه من أحبها وأحبته، لقد منع جوليه من مزاولة حياتها مثلها مثل سيّدات النوبة. أصرّ على أن يئدها وأداً داخل مفهومه الصعيدي، فلا تخرج للحياة ولا تعيشها ولا ترقص في الأعراس ولا تشارك في رقصة النائحات حين مداهمة الموت لفرد من أفراد القرية. لا تزرع معه ولا تحصد. لا تسير في جوانب القرية بجلبابها البسيط. حاول كثيراً أن يجبرها على ألا تكشف وجهها، يجبرها ألا تضحك، ألا تخاطب ذكراً وإن كان صبياً، لولا خيشة ولوم ناس القرية لفلح في تزمّته هذا. الكيد كان يثور إن غنت داخل البيت يثور إن رقصت سعيدة إعجاباً بنفسها حين تفهم شيئاً جديداً من القرية النوبية الغريبة عنها والتي لا تتقن لغتها بعد. تهبط كفه الغليظة على صدغها فتلقيها أرضاً فزعة من اللطمة القاسية ومن عنف رد الفعل. فزعة من مفهوم ذكوري لا تفهمه، وهي التي أتت مجلوبة من قرية زنجية المرأة فيها تعادل الرجل.

ورغم قسوة الكيد، توغّلت جوليه في نفسه. تيقّنت أنه من داخله شديد الطيبة عطوف. صريح ليست في نفسه ذرة من خبث. حين تمرض، حين تصاب بكفّه الثقيلة، يجالسها يربت عليها يُعد لها مشروباً لولا حياءه من دموعه، لولا إيمانه بأن الضعف ليس من شيمة الرجال لبكى لها مستغفراً إياها. فأحبته كما أحبها. كبتت رغماً عنها طاقات فِعل وحركة فطرية فيها. فورات غناء ورقص، فورات حس إنساني اجتماعي في مشاركة نساء مجتمعها الجديد حتى تساعد قلبها على نسيان قبيلتها.. قريتها التي خُطفت منها منذ مواسم بعيدة، وتحن وتشتاق إلى ناسها وبيئتها. تعبت وغلبها شوق الحنين رغم زوجها وابنيها.. حتى انفجرت ذاتها المكبوتة فأماتتها مبكراً.

ماتت جوليه امرأة صغيرة، وحَمّل هاشم الكيد نفسه مسئولية موتها. لام نفسه بعد فوات الأوان لأنه حاصرها حتى قتلها سجينة. يدرك أن القاتل قابع

داخلــه. فــي جوفــه. القاتل هو مفهومه الصلب الصلد القديم الذي هشم به أنثاه الأولى المراهقة.

أنــثاه الأولى.. أختــه التي كانت في مطلع الشباب، والتي كانت قد انتزعت مجــالاً صغيرا تتحرك فيه كبَشَر رغماً عن جبروته وطغيان موروثه القبَلي الذي تشرَب به وتشبث به تشبثا. فوقعت واقعة بلواها وبلواه وبلاء أسرته وهجْرَته.

وهاشــم الكيــد محاصَر، لا يبقى مع نفسه على أسلوب يربي ابنته بجيوَة عليه. يضغط عليها حتى لا تأخذ مجالاً للحركة الحَرة فتقع في العيب مرتكبة الخطأ الــذي هــو مــرعوب منه طوال عمره، فيضطر للإطاحة بها مثلما أطاح بأخته.. عمّــتها. يشــتد عــلى بجيوَة أحايينا منتزعا منها مجرد التفكير في مجال بسيط لــلحركة كــأي إنسان. تنهار بجيوَة الطفلة الصبية. تأتيه جوليه في منامه وفي صحوه. تسأله..

-أهي الأخرى؟ ابنتي أيضاً ستحاصرها حتى الموت؟ ستقتلها يا هاشم؟

فيرخي لها الحبل قليلاً لتنطلق حتى احتارت بجيوَة. تعودت حين يسمح لها أبوهــا بالقــليل، تعــودت أن تستغل القليل لفعل الكثير فهي لا تضمن الغد.. هل ستكون طليقة أم مسجونة!

سلامة ابنه.. لم يتحمل طغيان والده وأوامره عليه. لم يتحمل تجهمه تجاهه وغلظــته تجــاد شــقيقته بجيوَة. هاشم الكيد يدفع ابنه دفعاً للاندماج في القرية الــنوبية. لكنه يريد منه أن يفعل كل أمر حسب رغبة والده وتفكيره. يريد هاشم من ابنه سلامة أن يعيش بنفس أسلوبه.. الجديّة الشديدة، الصرامة. وسلامة مثل بجيــوَة أخذ من فطرة أمهما جوليه الكثير. وأخذ من فطرة التقاليد النوبية الكثير. هــرب ســلامة من والده.. من القرية كلها. لم يهاجر شمالاً حيث الصعيد مسقط رأس ابيــه. بل اختار الجنوب حنيناً إلى أمه التي رحلت عنه وعن أخته سريعاً ويشتاقان إليها كثيرا.

قــبل زيارة الشيخ كان الكيد في حالة تراضٍ مع بجيوَة، ونفسه تلوم مهددة له أن تقع بجيوَة في العيب. يسائل نفسه..

-ترى.. إن خرجت البنت عن طوعي فكيف سيكون عصيانها؟ وبأي طريقة ستحطم قيودي؟ إنها تعيش وسط بنات القرية النوبية التي وُلِدت فيها ولا تعلم لها

أصـــولاً غيـــرها، كيف أجبرها أن تعيش حسب القرية التي وُلِدت أنا بها؟ أأتركها تـــتحرك كما تتحرك بقية البنات هنا؟ لكن.. لكن لو واعدت صبياً عند حقول الذرة مثلما فعلت عمتها بَهية عند حقول القصب، ما العمل؟

يوافق أن تذهب إلى الكتّاب، إن في الشر خياراً. صَلاتو ذلك العجوز الأريب يُـدرك نفسية هاشم الكيد، يلمس في حديثه معه مواطن الضعف والقلق ويجعلها تدفـــع الكيـــد للموافقة. تفرح بجيوَة بالذهاب إلى الكتّاب، فبعدها عن أبيها نصف نهـــار كامل مكسب، تستريح من خشونته وغلظته عليها. لا تستطيع أن تفهم هذا الأب الجـــبار، يـــتركها أياماً تلعب وتغيب عن عينيه ثم ينقلب أياماً محاصراً لها، ينظر إليها نظرات ريبة واتهام تكاد توقف ضربات قلبها من شدة الخوف. وأحياناً ترى نظراته غاية في الحب والعطف.

الشـــيخ يخشـــى عـــليها هي وفوزية، فوزية دلالها أنثوي مترع، وبجيوَة جموحهـــا زائـــد، أنثتان وإن كانتا طفلتين. خوف ما يجوس في شعاب نفسه. لِمَ وأمهـــات تلميذاته يعملن في الحقول مع الرجال ويرقصن مع الرجال في الأفراح؟ نشـــأة الجنســـين مختلطة، بنين وبنات يلعبون معاً، بل يسبحون صغاراً في النيل معاً. يسبحون عراياً بفطرة سليمة بعيدة عن أي مسحة عيب مفتعل يفرضه عليهم الكـــبار في سنهم تلك الصغيرة، فيتعودون على بعضهم في سلاسة فطرية قوية. إذن لمـــاذا يخـــاف صَلاتو؟ هل بسبب المسئولية وهو يضغط على الناس لإرسال أطفـــالهم إليه في الكتاب؟ ربما بسبب تغير حال الأجيال وانكماش الفطرة جيلاً بعد جيل ورصده أن هذا الجيل الصاعد جيل حرون؟ أم لكل هذه الأسباب معاً؟

فـــي الحـــوش تحت ظل جدار، معتوق بلباسه الداخلي جالس بجوار هَكيمة الـــتي تفـــك ربـــاط الحجـــاب من ذراعه. فتحت الحجاب. أخذت الناب. تنظر إليه متعجبة. أمسك معتوق الناب في حنو بالغ. سألته..

-ألا تذكر شيئاً؟

- لـــ.. لا.

-أي شيء؟

-لـــ.. لا.

-لكن في ليلة دفن عسل. كانت ذئبة بجوارك! هل..

-..

يـدور ثلاثة استدارت كمالاً وجمالاً وأفلت. وقبل موسم الفيضان بدأ النهر يفيض على الأجناب ويتأهب لإغراق الأراضي الواطئة بمائه المشبع بالغرين. أعادوا بهائمهم من جزيرة أصلاد. مازالت بهائم آبدون وهَكيمة هي الأكثر عدداً والأوفر لحماً والأضخم ضروعاً. الفيضان يسرع ويسرع يسابقه الفلاحون في حصد الذرة. سباق محموم بينهم وبين المياه المتوالدة بمددها الجنوبي الهائل، بالمناجل يقطعون السيقان من أسفلها ليكوموها أكواماً. معتوق يعمل في نشاط وعشق كبيرين. ولما علت المياه في سرعة غير متوقعه سارع لمساعدة جيران حقل آبدون. الطعام يتناولونه سريعاً وغالباً وهم يعملون، والراحة بسيطة والشمس رغم جبروتها وقت الظهيرة لا تمنع المزارعين من الاستمرار في العمل. سراويل الرجال البيضاء وجلابيبهم الزرقاء، صارت لوناً واحداً، لون الطين المبلّل بالعرق. على رؤوسهم مجرد طواقي تقلّل من صَرعة الشمس. النساء طرحهن وشعرهن الكثيف تحميهن، وملابسهن صارت تحمل من الطين والعرق ما لا يقل عن جلابيب وسراويل الرجال إلا قليلاً.

العدو المائي يتوحش والشمس تتجبر. الفتاة التي تصاب بزغللة في عينيها، فوراً يجلسونها تحت الظل ويبللونها بالماء ثم تعود لبيتها تاركة كل شئ، وإلا.. الموت نتيجة لسياط الشمس التي لا ترحم ولا تبالي بمدَى حاجتهم لجمع الحصاد. وقبيل الغروب يكون غسل أجسادهم بمياه النهر نفسه في ثنيات الضفة الهادئة، أو بمياه الآبار إن كانت الأراضي بعيدة عن النهر. يصعدون إلى بيوتهم وقد وضعوا أكواماً من المحاصيل على الحمير ساحبين خلفهم الأبقار. مرهقين متلهفين على الراحة من بعد يوم معارك شاقة.

أيام ملحمية وينتهي الصراع، موسم ينتصر النهر ومواسم ينتصر الفلاحون. يتكاثر السمك، يتقافز حتى أن بعضه يثب على البر فيتقلب مختنقاً، يلتقطه الأطفال ويلقون به لمجرى النهر منقذين حياته، ويشعرون بالرضاء، فالسمك عندهم أقارب لهم في شكل مختلف. كل منهم إن أخذ، يأخذ سمكة واحدة كبيرة لتكون جزءاً من طعام الأسرة، يأكلونها ونفوسهم تعتذر لها ولموروث غير مفهوم لديهم بأن ما يفعلونه ليس تمام الصواب، رغم أن دينهم الأخير لم يُحرم أكله!

السمك الميت يتركونه حزانى لتأكله الكلاب التي تعرف موسم السمك الذي ينتظرها في موسم الفيضان، فتترك طرقات القرية وتهبط للضفة. وبعد شبع الكلاب يتبقى الكثير من السمك الذي يتعفن في أقل من بضع ساعة تحت لهب الشمس.

الأختان كِسبانة وهُوشَة تسيران على الشاطئ تراقبان السمك. جمعتا منه الكثير وأعادتاه للنهر. تصيحان فرحاً كلما قفزت سمكة كبيرة. أمسكت كِسبانة بكتف هُوشَة..

-انظري، أليس هذا معتوق اللقيط الذي يقف في النهر حتى علَت المياه إلى وسطه!

-هو والله، ألا يخاف أبداً؟

-أهبل. أيام طويلة لم أضربه ولم أسخر منه.

-كِسبانة، لا تسبيه.

-لماذا؟ بقية ناسك! ابن عمك! مزاجي أن ألعن جدود جدوده. مالك أنتِ؟

معتوق نصف عار. بعد أن يبتعد آبدون وهَكيمة، يهبط النهر قبل أن يتوجه إلى من سيذهب إليه. شاهدته كِسبانة وهُوشَة وسمعتاه ينادي وفمه على سطح النهر..

-سَـ.. مَـ.. كَ. سَـ.. مـ.. كَ.

يرفع يديه عالياً يقفز سرب من الأسماك المتنوعة لأعلى راقصة في الهواء متعاجبة بقوتها ثم تسقط في رشاقة عائدة إلى مملكة الماء. ولما قفزت سمكة كبيرة قفزة عالية وهي تتعاجب بنفسها ثم رشقت صفحة الماء برأسها في رشاقة. فرح معتوق وتقافز في النهر مهللاً..

-الـ.. له. الـ.. له.

لم يشعر بالبنتين اللتين وقفتا خلفه على الضفة التي غزتها المياه وارتفعت حتى أسفل ركبتي الفتاتين. قذفته كِسبانة بكتلة جافة من الطين أصابت ظهره. التفت ضاحكاً. هُوشَة تنظر إليه مبتسمة وكِسبانة ويداها في وسطها تنظر إليه في كبرياء وهو يقترب منهما في هدوء سعيد..

-إيه يا عَبْد أولوا وهَكيمة. ألا تخاف الفيضان؟

-لا.. لا سباتة.
-اسمي كِسباتة وليس سباتة يا أخرس.
-يضطرب كلما حادثك ياكِسباتة، فلا تقسين عليه.
دفعت كِسباتة أختها من كتفها في استهانه مما تقوله.
-سباتة، موت نا.. ريق.. لــ.. ا.
-ومن أكد لك انك لن تموت غريقاً؟
يهز معتوق كتفيه ويحرك رأسه..
-لا أعرف.
وقــف أمامهــا يــبعد سرواله التحتي المبلل عن ساقيه حتى لا يجسدهما. ضحكت كسباتة وهي تتأمل رسوخ بنيانه..
-ولد يا معتوق. لماذا لا تخلع سروالك وتسبح عارياً مثل بقية الصبية؟
هــز معــتوق رأسه خجلاً. ثم أشار بيده لهما أي انتظرا قليلاً واتجه مرة أخرى الى النـهر. صاحت كسباتة تتابعه..
-ماذا ستفعل يا ابن الكلب؟
معــتوق لــم يكــتف بالسباحة موازياً للشاطئ. بل يتوغل في عرض النهر الصــاخب. ثــم هــبط برأســه في اليم ليختفي. تراجعت البنتان للخلف وكسباتة تصرخ..
-ويْ ويْ ويْ ويْ. أغرق نفسه ابن الكلب.
-هناك. هناك.
نظــرت كسباتة حيث أشارت هوشة. معتوق يبرز إلى السطح من منتصف الــنهر. يضــحك ويلوّح لهما. ثم سبح ناحيتهما. قبل أن يصل إلى البر غطس. وغاب ثم برز برأسه ملوحاً بيد تمسك بسمكة كبيرة تتراقص. سبح إليهما يضحك. وبعــد أن ابعد سرواله عن الالتصاق بجسده. ناول السمكة لكسباتة. وما كادت تمسك بها حتى تراقصت السمكة بعنف. أمسكت بها جيداً حتى لا تهرب منها.
- سآخذها منك يا داكن السواد، فلن تلومني أمي.
-انــ.. سمكة. أنت لي هدية.

خطـوات سريعة وصل معتوق إلى نخلة جوش. أحاطها بذراعيه. لمْ تصل يداه حتى لمنتصف محيطها. عاد فارداً ذراعيه أمامه يريهما لهما..

-يدا.. ي.. طويلتـــ.. ان.

ضحكت البنتان وبادرته كِسبانة..

-يا عبيط. أكيد أمك مثلك عبيطة. كلنا ننمو وأذرعتنا تطول.

-سبانة.. سَمَكَـــ.. ة. مهــ.. ر.

-ويْ ويْ ويْ. تخطبـني؟ والسـمكة مهري! أنا.. أنا أتزوجك أنت يا لقيط! وبسمكة! ثم أنا أتمنى سِسِّي ابن العمدة يا ابن الحرام.

-لـــ.. لا.

-ولماذا لا يا فالح؟

-سبانة.. زوجـــ.. تي تا.

-زوجتك أنتَ!

-هاها.

-لمـاذا تضـحكين يا هُوشَة؟ اغلقي فمك وإلا.. قلّة أدب. معتوق.. إلهي وأنت جاهي تغرق يا معتوق يا ابن أم معتوق.

ضـربته فـي صـدره فآلمتها كفها الكبيرة. لكنها لم ترد إليه السمكة التي تتقـلب فـي يدها. ابتعدت غاضبة تتبعها أختها باسمة. ومعتوق يتابعهما بنظره ضاحكاً.

سـلاطين شـهوته تحرقه. لا يجد حلاً. لا ترضى أي فتاة بأن يحتضنها. بجيـوَة تـتركه قليلاً لكنها تمنعه أن يزيد. كِسبانة تُريده لكنها لا تسمح له حتى باحتضـانها. أمها حذرتها. مضاجعة حمارة أبيه يأنف منها ولا يمارسها إلا كلما ضـغطت عـليه شهوته وأجبرته. لم يتجاوب معه سِسِّي. يفكر.. لا يطيعه طاعة عمياء إلا اثنان من الصبيان، أمرُ الله الأشرم. وهو أقبح من أن يُضاجع ولا يظن أنه سيوافقه. وابن عمّته هكيمة.. أولوا.

عـندما حـاول معه وجد استجابة سريعة فاجأته. فتواعد معه في بيت أبيه أثمـان. وكـانت أول مـرّة يُضاجع بشراً. وأولوا كانت أول مرّة يُضاجعه ذكر.

اســتمرأ ســلاطين جســد أولوا النحيف مضطراً. وأولوا استمرأ ذكورة سلاطين وأدمنها.

وســط حديقــة موالح الصعيدي. يتناولان الغذاء. الأشجار كثيفة حولهما. الــبرتقال واليوسفي براعم كثيفة غزيرة تشرئب معلقة وسط الأغصان تكاد تنير. يحكــي هاشــم الكيد لمعتوق أصول رعاية أشجار البرتقال واليوسفي والليمون. كيفية مراعاة أشجار المانجو. كيف أن مكسبها كبير. معتوق يستمع مبتسماً. سأل الصــعيدي سؤاله التقليدي.. كيف استصلح هذه الأرض الواسعة؟ يحكي له هاشم كيــف تحــايل على النهر وحوّل المخاضة إلى أرض مستصلحة. يشرح ويسهب ومعــتوق يســتمع كأنه رجل كبير. لولا ساقه المهيضة لاستكمل استصلاح أرض جديــدة مضــاعفة، لا تقل عن المساحة التي استصلحها العمدة الكبير في الأرض العاليــة. ثم إن.. لو كان.. لو كان سلامة ابنه معه.. انحرف الحديث وصار عن ســلامة، وسلامة فقط. سبب هربه. إمكانية عودته. هاشم لا يجد حرجاً أن يبدي أمــام معتوق الخير تأثره وألمه بسبب هروب سلامة. يستطرد كثيراً شارحاً نَفس ســلامة وعقلــه وما كان يحبه. يعود معتوق للحديث عن الأرض. وهاشم يعود لــلحديث عن سلامة في شجن. يلح معتوق حتى يستجيب هاشم. ثم يعود لحديثه عن ابنه..

-آه لو كان سلامة معي. لكنه هجرني وساقي لن تساعدني.

في صبيحة اليوم التالي أسرع معتوق فرحاً وأمسك بكف هكيمة..

-ئا زَرَعت.. أرض.. مثــ.. ل أرض هاشم.

-هاها، مثل أرض هاشم! متى زرعتها، وكيف؟

-حَا.. جِــ.. ز. كَبــ يــ.. يــ.. يــ.. ير.

-هاها، وهل أنت شديد وقوي مثل هاشم الكيد؟.

-إيْ.

-ومتى ستبني الحاجز يا معتوق؟.

-بنــ.. يت. خلاص.

-وبنيته خلاص! متى؟

-قبَ.. لــ زوا.. ج . بَنــ.. يت.

-هاها. كلامك عجيب والله. وفي البيت الذي ستبنيه، ستتزوج من يا ولد؟
-سبِانة.
-بـــنت تَعويضة لِسانين! إنها ستكون بثلاثة ألسنة يا مسكين. تترك أختها هُوشَة الجميلة المؤدبة وتفكر في كِسبانة يا أهبل!
-هاها.
-فكر في هُوشَة.
-لا. سبانة.

تركها عندما سمع صوت راضية تناديه من خارج البيت ليذهب معها بحجّة أن أمّهــا نَــبْرة تريده. ولم تكن نَبْرة هي التي تُريده. راضية تُريد أن تلعب معه. تمتطي حمارة. وثب أمامها فاحتضنته راضية من الخلف. أسرعت الحمارة بهما. أوقفهما يونس المجبّراتي. مازال الشوق لاكتشاف حجاب معتوق يضني قلبه. مد معتوق يده ليصافحه مُسلِماً، لكن يونس مد يمناه فأمسك بالناب الحجاب يتحسسه مــن تحــت كــم الجلباب. بسرعة وقلق مستريب قبض معتوق على كف يونس وعصر عظامه حتى كاد أن يصرخ الرجل! ثم غمز الحمارة لتسرع بهما وراضية تضحك سعيدة بما فعله في يونس.

القمر الصيفي يصعد لعنفوانه. الفجر يزفر في هدوء فطري تداعبه غنائيات الطيــور المتــنوعة وغــرور صيحات الديكة، وهدير رزين يأتي من الأفق البعيد الواســع ليحــتوي الأصوات كلها.. صوت تدفق الماء الإفريقي في مجري النهر الأسطوري.

حجرة هَمَرين، نار الشعلتين أمام وخلف هَمَرين المقرفص أرضاً أحالت تاج رأسه الضخم وعينيه الجاحظتين إلى بشاعة مرعبة. تابعه المشوه أسفل الكائنات المحــنّطة تبرق عيناه الحولتان الضيقتان وهو مقرفص بعوده الضئيل كالنسناس. النار أمام هَمَرين مجمرة بها الفحم المشتعل الذي يبث حُمرته رغم الأنواع العديدة مــن الــبخور المــلون المنثورة فوقه تتصاعد منها الأبخرة كأنها أشباح متباينة الأجرام. هَمَرين يداه مشغولتان في تسوية دُمية الصلصال.

شَقَشَقَ الصباح. سِسِّي يتخطى البيوت محاولاً ألا يراه أحد. وصل إلى حافة النجع. مازال خفوت الرؤية يلقي عباءة غموض على الأرض الزراعية بأشجارها.

يراقب سَليمتو وهو يهبط من ناحية بيته على الربوة القصيرة متجهاً إلى المَرسَى. الـتفّ حـول صخرة دُجُر ثم هبط المَرسَى. لحظات وانطلق المركب الشراعي به. أسرع سِسِّي من بين شجرتي التوت منطلقاً يخترق الساحة ثم يهبط إلى الزراعات مخترقاً الحقول. ساقيتان تعملان بالقرب من خط سير سِسِّي الذي يتحاشى أن يراه المـزارعان الـلذان يديران الساقيتين والبقرتين، نواحهما واضح بين الأصوات الخجـلة الأخرى. اقترب سِسِّي من خور البحر. وقف متلهفاً ينظر ناحية النجع، ابتسـم وهـو يشاهد كِسبانة تخرج من نفس البيت الذي خرج منه سَليمتو. تعلو على الربوة القصيرة لتنحدر مسرعة مخترقة الأشجار والنخيل.

هَمَرين يخرج من مكمنه الحجري المتين، متدثراً بعباءة سوداء على قميصه الأحمـر الـذي امتلأ عرقاً. يسير بطيئاً يداه داخل العباءة ويسراه ممسكة بالدمية ويمـناه بورقة. بعد المستطيل الحجري ينحدر من جبل كارا إلى جانب من خور أورِّك. تابعه المشوّه يحجِل خلفه فرحاً، عُوده الضئيل يتحرك وسط جلبابه الأحمر الواسـع وعلى رأسه عمامته الصفراء. هذه أول عملية من نوعها يراها بنفسه. في الخور ذي الرمال الرطبة من ندى الليل، يعبران مسرعين. ثعبان يسرع مبتعداً مـن أمامهما فلا يعبآن به. تقدما حتى قاربا صخرة دُجُر. مركب سَليمتو ابتعدت تمامـاً. بعض الرجال هبطوا إلى الحقول لكن لا أحد قريب من الصخرة التي تحتل أقصـى جنوب نجع أورِّك حيث لا زراعة. وقفا على يمين الصخرة العالية بحيث تحجبهما عن النجع كله. أخرج هَمَرين يمناه بالورقة. وفي توتر واندماج عصبي. أخذ يقرأ كلمات غريبة. همهمات غير مفهومة إلا له وبعضها يعيها تابعه المشوّه. تلمع عينا هَمَرين بحقد بشع وتملكته رعشة شيطانية.

سِسِّـي بجوار خور البحر العريض وسط أربعة أشجار سنط متجاورات في شبه دائرة: يجلس بجوار كِسبانة سعيداً. امتدت يده لتستقر على كتفها في خجل مـنه وغضـب الرضـاء منها. يحاول سِسِّي أن يفعل مثلما يفعل سلاطين الذي اكتشـف هـذا المخبأ. يتنفسان في بطء وانسجام. أحست كِسبانة أنه بدأ ينتفض. زادت انتفاضاته. عرقه ينضح ويسيل والشمس مازالت خلف الجبل! سألت..

-ما بك يا سِسِّي؟

-لا شيء. أشعر بأني سأمرض.

-هل أنت عند وعدك؟
-طبعاً، ستكونين زوجتي يا كِسبانة.
-لــو أكـلت وعـدك عندما نكبر، والله أفضحك وسط ناس القرية. أنا لن يهمني أن أباك عمدة ولا أن أمك خفيراً. سِسِّي. رعشتك تزيد. فلتعد إلى البيت.
-أتشوّق للنيل. المياه حولي! سآخذ غطسة في النهر لأفيق من رعشتي.
-لا، الطوفان خطير.
-ليس على سِسِّي ابن العمدة يا بنت. سأبين لك أني سبّاح ماهر أفضل من رجال البلد.
-تعال هنا.. سِسِّي.

أفـلت مـنها وخرج خارج أشجار السنط الأربعة. يسير في خطوات واسعة حاسـمة وكِسبانة خلفه ترجوه الابتعاد عن النهر. ألقى طاقيته ناحيتها فتلقفتها، خـلع جلبابه وهو مستمر في السير. التفت إليها ألقى الجلباب تحت قدميها. ليس عـليه إلا سـرواله الداخلي. مياه الفيضان تغطي مساحات من الأرض الزراعية. طين لزج ثم ترتفع المياه بسرعة مع كل خطوة يخطوها حتى تصل لأعلى ركبتيه ثم لوسطه. خلع سرواله الداخلي غير مبال بأن المياه تبلّله. أبعدت كِسبانة عينيها حـتى صـدمها السروال فأخذته وواصلت محاولتها أن تمنعه عن النهر. شلحت جلـبابها وهـي تواصل محاولة إيقافه لكن عندما قاربت المياه من أسفل وسطها توقفت بجوار نخلة تستند عليها محتضنة ملابس وطاقية سِسِّي وترقبه وجِلة في استعراضـه لمهارته في السباحة. يسبح موازياً البر وبرودة الماء الخفيفة تزيده رعشة.

هَمَـرين يقـف عـلى المياه الغرينية الضحلة والتي غَزَت الضفة. العرق فيضـان مـن صلعته وجبهته وخديه السمينين، يسيل ويتساقط من ذقنه اللحيمة على رقبته الجميزية وتبلّل قميصه وقبة عباءته السوداء. يمناه تلوح في الجهات الأربع ويسراه مازالت تحت العباءة..

دفـع عـباءته السوداء من أعلى كتفيه فسالت أرضاً متكوّمة ليطفو أعلاها عـلى الميـاه الضـحلة. هَمَرين يلتف حول نفسه رافعاً يديه عالياً ووجهه لأعلى وعيـناه مركـزتان عـلى الدميّة. يدور حول نفسه بيده الخالية يخلع عن جسده

القــوي جلــبابه الفضفاض الأحمر. يتركه ينكب بجوار العباءة فيصير كائناً عارياً لحيمــاً. يتقدم ناحية النهر ذراعاه مشدودتان للخلف. يخاطب النهر بجُمل سريعة مــبهمة متودداً في ذل. ثم في غضب آمر. يلتف معطيا ظهره العاري الذي تقوّس منحنياً للنهر مبعداً الدمية بامتداد يديه. ينتصب واقفاً عائداً لمواجهة النهر راقصاً لـــه رقصـــة الأمـــواج. ثم رقصة الدوّامة. يتقدم إلى النهر جاحظ العينين في تحد واســتعلاء مـــبرزاً صــدره وامتداد كتفيه. ملامحه تحمل الغلظة والتوحش، ماداً يسراه بالدمية واليمين تشير إشارات عليها.

سِسّي بدأ يدفأ ويتشجع فانحرف إلى منتصف النهر. كِسبانة ونعير السواقي الــنائحة يضــغط على قلبها، يخيَّل إليها أن النهر يمور ويفور. أمواجه تتسارع. ضـــربت أذنيها صيحات كثيفة من أعلى. طيور غزيرة. عصافير النهار. حدآت. صقور وفي قلب السماء سرب نسور تحلق حول نفسها في دوّامة سريعة. تناديه فالتفت إليها محتجاً..

-لا تخافي عليّ. اذهبي أنتِ.

-اخرج لنذهب سوياً. سِسّي. النيل تياره شديد. والدوامات غدّارة فلا تغرّك نفسك.

-أشتاق لغطسة واحدة.

هَمَــرين ينظر إلى نقطة معينة معلقة أمامه، أشار بكامل يده إليها، قبضته مغــلقة عدا سبابته، وتصلبت يده. لحظات ثم ارتفعت وهبطت مشيرة إلى منتصف النهر. لحظات بقى متصلباً. انكمش في نفسه منحنياً بجذعه ساحباً يديه محتضنا الدُميــة بكفيــه مخبئاً إيّاها في طيّات بطنه. لحظات تشنج وإصرار. أفلتت يسراه متشنجة من حيث كانت. برزت الدُمية فزعة الوجه. رفعها لأعلى.

سِسّـــي يبتســم لكِســبانة وهو يحاول العودة من منتصف المجرى الهادر، راحت ابتسامته عندما أحس بقلق يعتريه واضطراب في قلبه.

التابع المشوّه يراقب من خلف شجرة. العرق على جسد سَيّده العاري يسيل ســيولا حــتى أســفل ساقيه، ويتساقط من أسفل ذقنه العريض. هَمَرين ينتفض وشــفتاه مذمومتان وقد كونتا قوساً مشمئزاً طرفاه لأسفل. يسراه لأعلى وللخلف دون أن يهــتز بدنه العاري البدين. تجمدت يسراه مرّة أخرى ثم اندفعت وأطاحت

بالدمية إلى عرض النهر. غطست الدُمية الصلصالية شبراً ثم قبّت ورفعت ذراعيها لأعلى وهي تتجه شمالاً مع تيار المجرى القوي وتغوص في الماء الثقيل.

سِيِّــي الرعب كسَى وجهه. كِسبانة كفّاها تضربان خديها وهي ترى سِيِّي يهبط في اليم رافعاً يديه. قبّ عالياً وصاح..

-هووي. النجدة. النجدة.

أطلقت كِسبانة صرخة المستغيث..

-إبييو -إبيو.

نادت نادبة وهي تلطم..

-يا أهل المروءة يا هووي. يا أهل المروءة يا هووي.

سِيِّــي غطس الغطسة الثانية ليقبّ على بعد أذرع تجاه الشمال.لم يصرخ، فقط يداه كأنهما تُريدان الامساك بالهواء فوقه ليثب على صفحة النهر الجاري في تدفق لا مبال بمحنته. ثم غطس الغطسة الثالثة ولم يقبّ أبداً.. أبداً.

هَمَرين عليه العباءة السوداء، مبللة ملوثة بالطين. يهرول عائداً رغم بدانته ونسناسه البشري المشوّه بجلبابه الأحمر يحمل جلباب سَيّده الأحمر. يحجل ليلحق به. وفي نفس الوقت بدأ ناس القرية كلهم بنجوعها الثلاثة يتقاطرون على شاطئ النيل الهادر.

لــم تكــد جــبهة الشمس تطل من أعلى الجبل الشرقي إلا والبر الغربي قد تــزاحم تماماً. المياه والطين تحت أقدامهم. نَبْرة توَلْول. راضية بجانبها مذهولة. النســاء صــرخاتهن تنويعات من الندب والنواح. نُوري العمدة لم تتحمله ركبتاه. جــلس فغطــت الميــاه نصفه السفلي، يحدق في الماء الأحمر. الرجال يسبحون أنصــاف عراة بحثاً عن الجثة. بعض القوارب المجدافية عند المنحنَى يراقبون. وكذلــك طوف من جذوع النخل عليه بعض كبار السن يحركونه بأياديهم المجردة ليلحقوا بأي رجل يغلبه التيار أو يرهقه التعب ليستريح عليه قليلاً.

رقصــة الــنائحات بدأت وقد تأكد الغرق على ابن العمدة. المياه المشرئبة تعــرقل أقدامهــن. يغرفن من تحتها الطين ويرفعنه على رؤوسهن. بَللن تماماً بــالطين والميــاه. يلتففن حول نَبْرة وهَكيمة، وكلما يأخذ السقوط نَبْرة يسندنها. تَعويضة تندب من قلبها، تعلم أن ابنتها كِسبانة كانت معه. لا عيب في ذلك، لكن

يرعـبها أن تصير ابنتها فأل شؤم. وهي حزينة على الولد الذي رحل في النهر فقد كان الخطيب المنتظر لابنتها الكبرى. تُعدد على سِسِّي وتذّكر من حولها بيوم تعميده في النهر وكيف أن مركبه غرق سريعاً وهذا قدَر الله المكتوب. وإن كانت كِسـبانة جالسـة القرفصـاء في المياه والطين تهتز يمنة ويسرة وتنادي سِسِّي محتضـنة ثيابـه، فـإن هُوشَـة تبكي وسط البنات وتراقب صديقتها راضية في أسَى. الأولاد يبكون صديقهم، يسيرون بجوار المجرى العميق للنهر ويهبطون فيه فتعلو المياه على خصورهم، يراقبون المياه المحمرة باحثين عن صديقهم. يصيح فيهـم الكـبار فيبـتعدون إلى الـبر قليلاً ثم يعودون ليفتشوا بأعينهم في المياه. يراقبون المخاضات لعل وعسى يجدون سِسِّي قابعاً في إحداها.

مجموعة الرجال الذين يراقبون شواطئ جزيرة أصلاد وجدوا معهم معتوق. يـبحث مثلهم، يغطس ويقب ويبكي، ثم ابتعد شمالاً. الرجال فوق الطوف صرخوا فيه بأن يأتي إلى الطوف ليستريح، أو بأن يعود إلى الضفة. يخافون عليه الغرق. لكـنه أشـار إليهم ناحية رأس الجزيرة الشمالي الذي لم يبحث أحد عنده لضعف احتمال انحراف الجثة ناحيته. يسبح إلى هناك فتبعه رجال الطوف خوفاً عليه. من بعيـد يسبح آبدون ليلحق بمعتوق وهو يلعن جنون هذا الصبي وتهوره. لحق به الطـوف جذبوه إليهم واتجهوا به إلى طرف الجزيرة الشمالي. وصل إليهم آبدون مرهقاً. صعد إلى الطوف. نظر في غضب إلى معتوق..

-مـا الذي أتي بك إلى هنا؟ يكفينا غريق واحد. ابق على الطوف ولا تهبط النهر.

أشار معتوق إلى طرف الجزيرة. وقبل أن يقفز آبدون كان معتوق قد سبق. غطسا تحت الماء الثقيل. فترة صمت والماء يهدر شمالاً ورجال الطوف يراقبون المـاء الذي يحجب بطميه من يسبحون تحته. صعد آبدون وأخذ شهيقاً قوياً وهو يـنظر حوله. لم يجد معتوق. قالوا الصبي لم يصعد بعد. وقبل أن يغطس آبدون مـرة أخرى شاهدوا معتوق على طرف الجزيرة. نصفه العلوي على الحافة وهو يشهق ويزفر في سرعة وإنهاك. أشار تحته..

-نا. نا.. نا. نا..

جدّفوا إليه وآبدون سبح مسرعاً. أتى الطوف وصاحوا في القوارب البعيدة، صوت يردد فيردد الذي بعده..

-هووي. هوووي. إنه هنا. إنه هنا.

ارتفعت أصوات النائحات. أمسكن بنَبْرة التي تشبثت بأختها هَكيمة تستنجد بهــا. حــاولت التقدم منعنها من التقدم ناحية قلب المجرى. وقفت كِسبانة تترنح كالمخمورة.

صــعدوا بسِيـّـي، أزرق الوجه منتفخ البطن يداه ممددتان لأعلى قابضتان على أعشاب مبللة وطين وعيناه جاحظتان وفمه مفتوح عن آخره وبطنه منتفخة والغرين طبقة رقيقة متشبثة بجلده. وضعوه على الطوف، أنزلوا ذراعيه بعد لأي. اتخــذوا طريقهم إلى البر حيث النائحات ونُوري العمدة الجالس أرضا على الماء غيــر مصــدق أن سِيـّـي غرق وأنهم آتون به جثة هامدة مبللة متخشبة. نسوا معتوق. حتى آبدون نساه. معتوق كان وحده في الماء يسبح حول مكان معيّن في بطء حزين. غطس وغاب طويلاً، ثم صعد برأسه ذات كومة الشعر المجعد يصيح في صوت مبحوح من البكاء..

-شَرَنْ.. شَرَنْ.. شَرَنْ.

يســبح إلى الشــاطئ. لاحظه الرجال. عاد إليه مركب. رفعوه إليهم. كانت الدميــة الصلصــالية فــي يده. يرفعها عالياً. دمية فزعة من صلصال محروق. جاحظة العينين فاغرة الفم عن آخره. يداها مرفوعتان لأعلى وبين أصابعها طين وأعشــاب مبتــلة. بطــنها منتفخة. نظروا لبعضهم ولمعتوق الذي يرتعش غضباً ويردد..

-شَرَنْ.. شَرَنْ.. شَرَنْ.

هجمت نَبْرة وهَكيمة وراضية وتَعويضة على المكان الجاف المرشوق بكثافة نخيــل والذي مددوا فيه جثة سِيّي. خلفهن بقية النساء رافعات الطرح السوداء لأعــلى صــارخات ناديات وصفوف من الرجال يصدونهن. انحنت الطفلة النحيلة راضــية، ومــرت مــن تحت أياديهم ومن بين أرجلهم وألقت بنفسها على سِيّي تحتضِــنه وتناديه. بقية النسوة كسرن الحصار. ينادين الجثة ويرجونها أن تعود إلى أبيــه المكــلوم، أن تطمــئن أمه الثكلى. إلا أن جثة سِيّي لا تجيب إلا بنزف

المياه من فمها وأنفها. امرأة في ذهول كانت من خلف الرجال وحدها، تبدو وكأنها هادئة وهي ليست كذلك، ديوانة مسكين. تراقب في غيظ هَمَرين الآتي من بعيد وهو يهرول في جلباب أبيض وخلفه المشوّه في جلبابه الأحمر وعِمّته الصفراء يحجل كالغراب.

عدد من النائحات اتجهن إلى النهر في خطوات رتيبة وانحناءات ثم يستقمن ليمسكن شيئاً ما يعلوهن لا يراه بشر ليعدن للانحناء. يتقربن من النهر يهبطن فيه حتى تعلو المياه وتغطي منتصف سيقانهن. ينحنين بجذوعهن على سطح المياه صارخات..

-إبيوو-إبيو. إبيوو-إبيو.

صرخات حادة وهن يشرن بأياديهن جنوباً وشمالاً وكأنهن يدفعن النواح الصارخ الحاد ليصل سريعاً إلى القرى فيعلموا بأن هنا في قريتهن وقعت كارثة. الصريخ لا يذهب جنوباً وشمالاً فقط. بل يندفع أماماً حيث الجبل الشرقي، يرتطم به فيعود صدى عميقاً كئيباً وينحرف جنوباً وشمالاً على سطح المياه ثم يندفع شرقاً وغرباً في الجبال ليتعمق الصدى ويتوحش ويهجم جنوباً وشمالاً ضارباً القرى بنجوعها جاثماً على مناكب البيوت بنواحه وصدى أعماق مكلومة من صريخ إبيوو-إبيوو.

نُوري العمدة مازال جالساً يضرب الأرض بيديه فتتناثر قطرات المياه الملوثة بالطين لأعلى لتعود ساقطة في أصوات مكتومة بائسة. حوله أثمان ومُهدي. اقترب هَمَرين منهم. تفادى الجانب الذي تقف له فيه ديوانة فبصقت عليه من بُعد. انضم إلى من حول نُوري فاعترى الجميع اشمئزاز. وقف هَمَرين خلف العمدة. وضع يمناه على كتفه..

-قلبي معك يا عمدة.

نُوري لا يتكلم. لا يجيب أحداً فهو لا يسمع أحداً. أبعدوا النساء. الرجال أنصاف العراة والمبللين بالمياه والطين ملطخ، دثروا جثة الصبي بجلباب، حملها آبدون على يديه. يصعد بها إلى النجع. حوله الرجال يبعدن النساء. أخذوا نُوري وساروا به خلف الجميع. لا يتكلم. يكاد يبكي ولا يبكي. ينظر لمن يحيطونه يسائلهم بعينيه وملامحه.. ماذا حدث؟ هل غرق سِسّي حقيقة؟ عجيبة!

الجمـــع الجـــنائزي وأغـــلب الـــرجال لم يضعوا عليهم جلابيبهم، مشاركين بســـراوليهم الداخلية المبللة. الطين يجف على سيقان النساء أسفل الركبة وعلى شـــعرهن الـــذي القيـــن عليه الطين بأياديهن. الجزء الأوسط من أجسادهن مبلل بالميـــاه، وجوههـــن غـــريقة بالدموع. الموكب المفجوع يتجه إلى بيت العمدة. معتوق نصف العاري مثل الرجال يمسك بالدُمية الفزعة يردد..

-شَرْ.. شَرْ.. شَرْ.

يقـــترب مـــن جمع النساء النائحات. جرى ملتفاً حولهن ودخل بين جمهرة الـــرجال. يراقب خلفية رأس هَمَرين القرعاء اللامعة. يركّز عينيه عليها ويمنع نظراته أن تنحدر من زلاقتها. يردد كلمة..

-شَرْ.. شَرْ.. شَرْ.

خطـــوات. تســـمّر هَمَرين مضطرباً لحظة واحدة. ثم عاد يسير في خطوات أسرع مدهوشاً خائفاً يسائل نفسه من؟ من الذي يترصده عالماً بجرمه. من الذي يطعنه في مؤخرة رأسه؟! اضطر للنظر خلفه صائحاً متسائلاً..

-من؟!

رأى الصـــبي يـــتقدم ناحيته وعيناه مركزتان في عينيه، التف بكامل جسده ليواجـــه معـــتوق الخيـــر ويصارعه بالنظرات ليصدّه، ليهزمه، صدمة إضافية.. صـــبي صـــغير وعيناه بكل هذه القوة! بكل هذا اليقين! مضطراً يتقهقر ومعتوق يتقدم إليه مردداً..

-شَرْ.. شَرْ.. شَرْ.

هَمَرين خائف ظهره يصطدم بمن هم خلفه عيناه تحاولان صد هجوم عيني معـــتوق الثائرتين الحانقتين فلا تستطيعان. أتى ليشمت في غريمه، أتى ليستمتع بعـــذاب نُوري ولم يأت ليقع في هذه المصيدة. انتبهت الجمهرة لما يحدث. وقف الـــبعض يراقب هَمَرين وتقهقره يتسارع حتى وصل إلى الهرولة، وكأنه يريد أن يختفي خوفاً من عيني الصبي. يحاول أن يبعد عينيه عن عيني معتوق المتجهم. ومـــا كـــاد يفعـــل حتى اشتبكت نظراته بعيني الدُمية الغريقة الفزعة التي رفعها معتوق عالياً. يتقهقر وسط دهشة الرجال. يلاحقه معتوق الخير في إصرار. أصبح بيـــنه وبين هَمَرين امتداد ذراع. وقف الجميع يراقبون إلا نُوري العمدة. هَمَرين

توقــف. قســت وتجبرت قسمات سحنته وهو ينظر في رعب وإرعاب في عين معتوق الذي يبادله صراع النظرات ويردد..

- شَرْ.. شَرْ.. شَرْ.

هَمَــرين يخور. عاد للتقهقر يتخبط في الرجال حتى تعرقل في شيء فوقع عــلى مؤخرته وارتطمت رأسه بساق العمدة الذي التفت إليهما وما زالت ملامحه محمــلة بالســذاجة الأســيانة رافضة أن تصدق حادث الغرق. معتوق يتقدم من هَمَــرين حــتى وقف على يساره منتصباً ماداً يسراه بالدمية الفزعة لأسفل ناحية وجه الساحر المنبطح أرضاً. معتوق يردد..

- نت. شَرْ. أنت شَرْ. نت. شَرْ. غرّق سِسّي. نت شَرْ.

قــام هَمَــرين وأخذ يعدو إلى خور أورك. معتوق يتنفس بصعوبة وبصوت مسموع وقد أنهكته نظرات الساحر استنزافا. نُوري ومن حوله ينظرون إليه غير مصدقين حدسهم. النسوة كن مشغولات في الندب سوياً، بلال أول من نطق..

- معتوق يقول إن هَمَرين هو الذي أغرق سِسّي.

صرخ العمدة بصوت غليظ قوي صرخة طويلة مفزعة. دفع من حوله وتقدم إلى معــتوق. أخذ منه الدُمية وهو يبكي. ينظر إلى من حوله وإلى النساء اللاتي اقتربن منهم..

- هَمَرين الشر. انتقم مني في ابني. ابني. ما ذنب ابني يا هَمَرين الشر؟ ما ذنب سِسّي يا هَمَرين الشر؟

ارتفعت صيحات الغاضبين..

- نحرقه.. نحرقه.

- الحرق. الحرق للساحر الشَر.

لــم يستطع من جَنّدهم هَمَرين سابقاً من ناس القرية أن يقفوا ضد الغضبة القوية الكاسحة المنادية بحرق الساحر. حتى هم لم يتحملوا ولم يتوقعوا أن يصل شره إلى حد قتل صبي بريء! انضمت عائلة الهَمَراب إلى كل القبيلة في الغضبة الكبرى التي اجتاحتهم، حتى ابن عم هَمَرين، ساعده الأيمن داخل القرية، كان من ضــمن الثائرين عليه. فقد خشي موجة الغضب الهادرة أن تكتسحه هو الآخر إن أبدى أي تعاطف مع ابن عمه الساحر الشرير.

- الحرق للساحر. الحرق للساحر.

نُوري يلتف حول نفسه يبكي ويزعق ويصرخ والصيحات تتعالى..

- الحرق للساحر. الحرق للساحر.

-الحرق لبيت الساحر.

أمسكوا بالعمدة. يحتضنوه حتى لا يصاب بسوء. هدأ قليلاً. صاح..

- الحرق الحرق.. هَمَرين له الحريق.

أطـاح بمن حوله في انتفاضة مفاجئة. اندفع العمدة مخترقاً الزحام متجهاً ناحيـة خـور أورِّك مشـهراً الدمية الصلصالية عالياً. من أتوا من نجعي نجيبيّة وأورِّك ركائـبهم قريـبة. لحقوا بالعمدة. أردفه أحدهم خلفه. كل راكب أخذ خلفه راكباً. الجموع الغاضبة جيش يكِر في حماسة وغل ويقترب من الخور. رجال في الأمام أغلبهم مازالوا أنصاف عراة. نسوة صارخات مبللات مولولات تتبع رجالهن والأطفـال منـثورين هنا وهناك. سلاطين يتابع الجموع عدواً بأقصى ما يستطيع ولسـانه يـردد اسم سِيِّي وبقلب واجف. عينه التقطت ابن عم هَمَرين أكثر من مـرّة وكـأن نظراته تدعوه وتحثه أن يقف مع ابن عمه.. هَمَرين! وسط الأقفية والعمـائم والطواقـي الـتي تسبقه، يحاول أن يُحصي رجال عائلة الهَمَراب، كم عددهـم؟ وهـل عـند لحظـة الإحاطة بهَمَرين، سوف ينقلبون ليكونوا في صفه ويحمونه من غضبة العمدة وبقية رجال القرية؟!

الجميـع جف من على جسده الماء ومن ملابسه. الجميع العرق الغزير بدلاً مـن الماء يبللهم. الجميع غير مبالٍ بصيحات آبدون أن الأمر يجب أن يُعد له. وهم يهبطون من حافة الخور القريب، الحمير أبطأ فلحق البعيد بالقريب. اختلطوا رجالاً ونساء وأطفالاً. يعبرون الخور الرملي ملتهب الرمال في هرولة وصيحاتهم تسبقهم..

- الحرق للساحر. الحرق للساحر.

لـم يشـعروا والزواحف تفر من طريقهم. دهسوا ثعباناً وعقارب وسحلية كبيرة.

- الحرق للساحر. الحرق لهَمَرين.

رصدوا عدداً من رجال هَمَرين يهربون ويختفون في شعاب الجبل. اطمأنت قلوب من عملت قلوبهم وتفكّرت فيما يمكن أن يكون من مقاومة هَمَرين ورجاله. الحمير بمن عليها وصلت إلى حافة الخور حيث أعلاها جبل كارا. تصعد في بطء فلحق بها مرّة أخرى بقية الحشد الإنسي فوصلوا معا فوق الحافة يقتحمون المستطيل الحجري المنبسط غير مبالين بالبيوت البسيطة المقامة هنا وهناك، هدفهم بيت الساحر. هبطوا من على ظهور الحمير. الشباب والرجال الأقوياء تصدوا بالأكتاف ضرباً في الباب الضخم. تسلق شاب الأكتاف وتخطى السور العالي، فتح الباب من الداخل. اندفعوا ناحية حجرة هَمَرين. حطموا الباب. كان في الركن البعيد يرتدي الجلباب الأحمر المحمّل بعرقه الذي أساله هذا الصباح. نفس الجلباب الذي أتاهم به من الجنوب وعليه جلد النمر. يبغي تأثيراً يرهب المهاجمين. يمسك سيفاً بيد وشعلة في يده الأخرى. أمامه ثلاثة ثعابين طويلة غليظة تزحف بالعرض مع صفوف من العقارب الضخمة فصنعت حرساً حاجزاً بينه وبين طالبيه. وقف نُوري والرجال في حيرة. كلما حاول أحدهم الالتفاف تصدى له ثعبان يفح فيضطرهم للتراجع. يصيح هَمَرين..

- ابتعدوا عن بيتي وسوف أرحل ولن تروني مرّة أخرى.

هاشم الكيد بلباسه السفلي لحق بهم، وصدره العاري القوي ممتلئ بالشعر ووجهه يشي بالبأس والغضب. يضرب الزواحف بنبّوته لكنها لا تصاب بأذى وكأنها من خيال ثقيل. لا يحمل أيٍ منهم كرباجاً ولا سيفاً ولا بندقية، حتى الخفراء نصف عرايا لا يحملون أي سلاح. صرخ العمدة وهو يرفع الدمية الغريقة عالياً..

- سِتّي.

ثم اندفع هاجماً. لم يتوقع أي من الرجال ما سيفعله نُوري فلم يتمكن أحدهم من الإمساك به. وصلت قدماه إلى الحشرات السامة. فاختفت كأنها لم تكن. تقدم ناحية هَمَرين الذي رفع يده بالسيف بكل غل وحقد مترسب متكلس في قلبه. يتأهب بضربة تشطر بقرة نصفين، لكن كان العمدة أسرع منه وقد ألقى بجسده عليه فسقطا معا. وثبوا على الساحر وأمسك بيديه من أمسك. العمدة تمكن من رقبة هَمَرين السمينة فانشب أسنانه فيها. الشباب يحاولون إبعاد العمدة عن

هَمَرين ليستطيعوا ضربه. ابتعد عنه العمدة وفي فمه قطعة من لحم الرقبة ودماء تسـيل منها ومن فمه. انكشف جسد الساحر ورقبته تنزف حُمرة الدم لتسيل على الرقـبة وأعـلى جلـبابه الأحمـر. انهال الباقون على كل قطعة في جسده ضرباً بالأيادي والأقدام. يتقلب متدحرجاً على الأرض. يرجوهم أن يثُريثوا. أن يسمعوه. يكـرر وعـده بالرحيل إلى الأبد. لم يسمعه أحد وأصلاً صوته لم يكن مسموعا. وسـرعان ما كانت حروفه آهات ألم من الضربات التي لم تترك حتى فمه وشفتيه ولسـانه. خـلع أحدهم جلبابه، مزقوه شرائح حبلية أوثقوا بها ساقي هَمَرين من فـوق عقبيه. سحبوه إلى خارج الغرفة. يتناوبون سحب الجسد الضخم من ساقيه وهو يحاول أن يرفع جذعه ليفعل شيئاً. انفلت من جُرمه وشاح جلد النمر. تشلّح جسده وأضيف لون الدماء الحمراء الطازجة على جلبابه المزركش الممزق والذي تكوّم أعلى صدره مغطياً كل رقبته الغليظة وذقنه العريضة. تصيبه الركلات من كل جـانب وهـو يُسحل ويراقب الوجوه التي تقترب منه سريعاً لتركله وتبصق على وجهـه وتسـبّه فتبعدها وجوه أخرى تسب وتلعن وتبصق. رجال ونساء وحتى الأطفـال يحـاولون الوصـول إليـه ليضربوه ويلعنوه. واقع نهايته الكابوسي لا يسـتطيع اسـتيعاب سرعته. يريد أن يلوم نَفْسَه. في داخله يريد أن يُعذب نَفْسَه بنفسِه. يريد أن يضرب نَفسَه عقاباً. يريد هنيهة لينهرها، يلعنها متهماً إياها..

- لقد تعجلْتِ يا نَفْسُ.. لقد تعجّـلت مرّة ثانية فهزمك غريمك مرّة ثانية.

يسـحلونه هـابطين بـه الخور الذى اشتدت سخونة رماله أكثر وأكثر. لا يرحمه أحد. لم يعد يحاول المقاومة. لم يعد يسترحم. وصلوا به إلى الساحة أمام بيـت العمـدة. الجميع صدرهم يحشرج ومبلل تماماً بالعرق مكسو تماماً بالغضب وغريـزة الانـتقام الحارقة وحبّات الرمال اللامعة. من يسحلونه تركوا الشرائح الحبلية فسقطت ساقاه هامدتين أرضاً. هَمَرين مغطى بالدماء والرمال وعجين لزج منهما معاً. ملابسه التي تمزقت عنه مصبوغة بالأحمر ومبرقشة بالأصفر، عورته كـادت أن تـتعرى. تمعـنوا فيه.. لا يبدي حركة إلا تنفساً ضعيفاً وطرداً أضعف لـلدماء من فمه الممزق وأنفه المهشمة ورأسه الحليقة التي صارت دموية وكأن فـروتها انـتزعت انـتزاعاً. عيـناه مغلقتان. لحظات وارتفع جفناه، لا يرى من

يحدقــون بــه. رعــب متجسد في سحنته الملوثة بالدماء والكدمات. أتاه العمدة الباكي يمد يده بالدمية الصلصالية أمام وجهه وينظر إليه في غل..

- هَمَرين. لِم قتلت ابني يا هَمَرين؟!

تَبيّن هَمَرين صوت غريمه، مالت صفحة وجهه ناحية العمدة.. ابتسم للحظة ابتسامة شامتة. فعاجلته قدم العمدة بركلة قاسية في جانبه فانتفض وشرق شرقه وغص في دمائه وتوقف عن التنفس تماماً. تقدم نُوري العمدة من هَمَرين..

- الحرق جزاؤك يا شر السحرة.

انحنى الشيخ صَلاتو ونظر إلى وجه وصدر هَمَرين..

- الحرق للساحر الحي يا عمدة. مات.

- مات! كيف؟ أريد حرقه. هذا شرعنا. الحرق للسحرة.

- ذهب للمنتقم. مات. يجب دفنه.

- اخرس يا شيخ الجهل.

لم يغضب الشيخ من نُوري المكلوم. تقدم منه يربت على كتفه..

- لو كان حياً لكنت أنا أول من يشعل فيه النار.

دفع العمدة بجسد الشيخ فكاد أن يطيح به. يصرخ فيه..

- أنــت وآبــدون السبب. أنتما من حميتماه المرّة السابقة. لو تركتموني أحرقه لما كان سِسِّي غريقاً. أنتما السبب. والآن يا صَلاتو تحاول منعي من حرقه للمرّة الثانية؟

نُــوري يــلعن الجميع بعد أن لعن صَلاتو وآبدون. يصرخ في تشنج ويقسم بأنه سيحرق الساحر وسيحرق كل من يحاول منعه. يصيح ويدفع كل من يتصدى فــي طــريقه ليصل إلى الجثة. التف الرجال عليه وتكالبوا. فخر ساقطاً يعاتبهم بصوت باكٍ..

- حرق كَبدي. أغرق وحيدي. هل نسيتم ربطه للأزواج زمان؟ نسيتم ماذا فعل بنسائنا؟ أغرق سِسِّي. ابني الوحيد يا ناس.

الشيخ صَلاتو بجانبه..

- يا نُوري. اصبر وما صبرك إلا بالله.

- وحيدي يا صَلاتو. وحيدي يا ناس.

- الله جاب. الله أخذ الله عليه العوض.
- سِسِّي. سِسِّي. ابني يا ناس. سِسِّي يا هووي.

نهض العمدة ثائراً. دفع من حوله وأسرع هابطاً إلى الحقول الغريقة. يجري كثور هائج حافي القدمين حاسر الرأس بجلباب بالغ الاتساخ متشرب بالعرق وبقع من دماء غريمه. جسده الطويل يكتسح بقايا الزرع. كلما لحق به أحدهم وأمسك به، دفعه العمدة بقوة وألقاه خلفه. يجري إلى النيل وهو يصيح باسم ابنه..

- سِسِّي. سِسِّي.

جميع الرجال ينحدرون خلفه. نَبْرة وهَكيمة وسط النساء يصرخن..

- إبيوو -إبيو. يا مصيبتنا.
- يا أهل المروّة يا هووي.
- الحقوا نُوري يا ناس. نُوري سيغرق.

تخطى نُوري المساحات المزروعة. كُتلة لحمية عظمية لا تعي كيف تسرع كيف تجأر تقودها آلام وانهيار آمال لا يحس بنارها إلا نُوري، ونُوري نفسه لم يحس بمدَى واتساع وحُرقة هذه النار إلا بعد فترة لم تطل. اقتحم غابة النخيل ومياه الفيضان التي غمرت الأرض وعلتها أشباراً تكبح سرعته مع صدره الذي لم يعد يتحمل. يضرب كل من يصل إليه في قسوة. ثم عند أشجار السنط المطلة على النيل حيث قاربت المياه ركبتيه، تعثر وسقط فيها وقام ليسقط ليقوم. يلهث وقدماه ترتفع عن مستقرها بصعوبة فتضطر كل قدم تتقدم أن تركل المياه وتنثرها ويداه متهدلتان ويسراه مازلت تمسك بالدمية. تكاثر الرجال على نُوري وأسقطوه قبل أن يصل إلى عمق النهر. شلّوا حركته. المياه غطته فصار تحتها. رفعوا جذعه لأعلى. يستنشق الهواء ويصرخ ويحاول ضربهم بيديه ورجليه ورأسه. تهشّمت الدميّة. تفتت وقد صار جالساً على مؤخرته مقاتلاً الممسكين به والمياه تكاد تصل إلى كتفيه وتتناثر عليه وعلى وجهه وتدخل صدره مع شهيقه العميق المُرْهق فيشرق ويكح وتتجحظ عيناه وهي تذرف دموع اللوعة والفقد. أتت نَبْرة. تبعدهم عنه وتنحني. هبطت على ركبتيها لتغطس فخذيها في المياه والأرض الطينية تناديه. تبيّن نُوري صوتها فارتخى جسده. تنظر إليه في حب ورحمة فأخذ جذعها إليه فمالا سوياً جانباً وبالكاد عنقاهما يعلوان على سطح الماء المضطرب.

يعــتدلان بجذعهمـــا ليميـــلا يمنة ويسرة وهما يبكيان ويتواسيان في وحيدهما يرددان كلمة واحدة معا..

- سِسِّي. سِسِّي.

النســوة عــدْن في تقدمهن الابتهالي إلى النهر. انحنين على صفحة النهر، يصرخن معا نادبات..

- إبيوو-إبيو. إبيوو. إبيو.

الصــراخ المفجــع يــنزلق بكـــامل حرقته شمالاً وجنوباً ليصل إلى القرى المجاورة. ثم يلحق به الصدى متعدد الأبعاد من أجناب الجبال، كأنه نواح مخاليق الله المستورة عن الرؤية وقد ثُكلت في أجيال من ذريتها. يضرب الصراخ العميق جــدران بيوت القرى وقلوب ناسها بارهاصات فجيعة ستنكب عليهم حالاً كجلاميد صخر من قمم جبالهم تنهد عليهم لترسخ فوق يافوخهم.

- كارثة كبرى وقعت.

كان هذا ما رددته ألسنة ناس القرى المجاورة.

انطــلقت الجمـــال الثلاثة وعدد من القوارب لإبلاغ الخبر اليقين بتفاصيله للقرى المجاورة. وبعد صلاة العشاء تحركت الجنازة والليل جاثم والفوانيس بالكاد تــنير الطريق في المقدمة. العمدة يخور باكياً والنساء لم ينقطع نواحهن. كل من رأى العمدة في حالته تيقن أن موت سِسِّي نكبة لن يتخطاها العمدة إلا ميتاً.

وقع الغرق على الصبية والصبايا زملاء وأصدقاء سِسِّي كان قاسياً، وعندما تحوطــوا القبر خلف الكبار خلال الدفن، كان أشدهم حزناً سلاطين. طُعِن طعنتين، مــوت ابن عَمّته وصديقه سِسِّي غريقاً، والقاتل خاله. والذي فضح خاله والسبب فيمــا جرى، هو معتوق اللقيط ابن الحرام، زاد حقداً على معتوق، وكلما ازدادت مأســاته بفضيحة خاله مع الأيام وانتشار سوء فعله، ازداد سلاطين كرهاً لمعتوق وكأن معتوق هو الذي قام بالسحر الشر وهو الذي أغرق سِسِّي!

أجلســوا العمــدة في المضيفة لأخذ العزاء لبعض الوقت وحتى لا يتركونه وحــده فتقتله المأساة. يتلون بعض آيات من القرآن. يذكرون بعضهم بعضاً بعدد مــن أحــاديث الرسـول صــلى الله عــليه وسلم. ثم يحكون عنه وعن الصحابة الحكايات. يجلس بجواره اثنان من ابناء عمومته وخئولته وأثمان خال الغريق.

غـــاب عـــن المضيفة والعزاء الشيخ صَلاتو وآبدون ونفر من رجال القرية وشبابها، فقد ذهبوا حيث جثة هَمَرين موارية ببعض الرمال وروث البهائم. الكل فـــي اشمئزاز من الجثة. رفضوا مجرد التفكير أن يدفنوه مع ناسهم في الجبانة. حـــتى عائـــلة الهَمَـــراب، لم يجرؤ أحد على طلب ذلك. قال البعض نتركها للذئاب والضباع والنسور. وقال البعض بحرقها. أخيراً انتهوا إلى رأى الشيخ..

- الدفـــن واجـــب. نترك من يحاسب عباده يحاسبه. ندفنه بعيداً عن القرية وعن المدقات التي يسير فيها الناس.

ربطـــوا قدميه بحبل. يسحلوه ميتاً كما سحلوه حياً. بدأت الجثة تنسلت من تحت الرمال التي أهالوها عليها وبطنها مكشوفة. الوجه بشع إن اقترب منه أحد ليـــرى. هرولوا بها هابطين الخور كامل الظلمة. ثم إلى أقصى الغرب وهناك فكّوا الحـــبل وحفـــروا حفرة عميقة. أسقطوا الجثة فيها ثم ردموها وحركوا كتلة حجر على بعد أذرع بجهد كل الرجال الموجودين حتى استقرت فوق حفرة الساحر. لم يُصلّ عليه أحد. بصقوا ودعوا الله ألا يريحه في حفرته أبداً. أن يجعلها الله حفرة من نار. عادوا والليل راح ثلثاه.

أنهوا العزاء عندما عاود الهياج العصبي العمدة فخَرَّ في إغماءة ومنها إلى نوم ثقيل يشهق فيه ويبكي.

آبـــدون أخـــذ الشـــيخ صَلاتو الذي سيبيت معه ومرّا على تل الجبانة. وما توقعـــه كـــان. معـــتوق عند قبر سِسِّي يردد آية الصمدية بلسانه العيي. يدعو له بالـــرحمة. أخـــذاه. وقبل أن يهبطوا التل قرأوا الفاتحة على موتاهم وعلى قبر أم آبدون وجدّه الولي جوش الكبير ثم قبر المنشد عسل.

قبل فجر اليوم التالي. هَكيمة في بيت نَبْرة، وأولوا في بيت خاله أثمان مع ســـلاطين الكظيـــم. العمـــدة لم يفق من نومه الكابوسي. ذهب الرجال إلى الجامع لصـــلاة الفجر وبعضهم يتوجّس ويتوقع ويخشى أن أمر جثّة الساحر لم ينته بعد. ولم يبد أحدهم ما يراوده من قلق. وبعدها قال الشيخ صَلاتو لآبدون..

- هيا معي لنري حفرة الساحر الملعون.

عـــلى حماريهما، الشيخ صَلاتو وآبدون الذي يردف معتوق خلفه. ضوء ما بعد الفجر بدأ يتغلب على قطع الليل البهيم تماماً، فكانت الرؤية مضبشة وضبشها

ينقشــع ســريعاً. هــبطوا الخور. ولما وصلوا إلى الصخرة التي دحرجوها على الحفرة رفع ثلاثتهم أياديهم إلى السماء وكبروا رهبة وعجباً.

- الله أكبر. الله أكبر.

الحماران يدوران بمن عليهما يريدان العودة والابتعاد. هبط الشيخ من فوق حماره..

- أعوذ بالله من غضب الله. قلبي حدثني بهذا.

كتــلة الحجــر قد زحزحت خطوات عن موقع الحفرة وجثة هَمَرين أخُرجت مــنها وعيــناه جاحظتان مليئتان بالرمال المجملطة بدموع دموية شديدة الحُمرة. فمه مفتوح لآخره بصورة بشعة. الثلاثة يكُبرون..

- الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

أقــبل ناس النجع وناس القرية كلها الذين كانوا قد أتوا للتعزية وباتوا في بيــوت نجــع أورك. كلهم حتى نُوري العمدة والنساء في مقدمتهن نبْرة وهَكيمة، يحوقــلون يبســملون. يــنظرون إلى رأس الميت البشعة التي سُحِبت لأعلى مع الكــتفين وقد سطع النهار وظهر على سحنتها مبلغ الآلام التي ينالها. بقية الجسد تحــت الــرمال. يســتعيذون بالله الرحيم الرحمن من غضبة الله الجبار المنتقم. ينظرون إلى الميت البشع. يتعجبون..

- مــن الذي حرك كتلة الحجر التي وضعها على قبر الساحر بضعة رجال بجهد جهيد؟ ولماذا؟

في تأفف حفروا تحت رأسه وأعلى كتفيه حتى سقطا ثم ردموا عليه وزادوا من كمية الرمال على الجثة المغضوب عليها من الله المنتقم. لا طعام إفطار، فقط جــرار مــن الميــاه تــأتيهم من النهر ومن الآبار يشربونها بشراهة لتنبثق من مســامهم عــرقاً بغــزارة. يــأخذون المياه في كفوفهم ويقذفونها على وجوههم اســتجداء لرطوبة تخفف عنهم أجيج السخونة التي تنسكب عليهم من خارجهم، وأجيــج السخونة التي تنبعث من داخلهم. زحزحوا على الجثة كتلة الحجر وأتوا بأحجــار كبيرة أخرى كلفتهم ساعات عمل وأنهار عرق تحت نار الشمس القاسية والرمال التي تعكس أشعتها كأنها مرآة مصقولة. دفنوه تحت كل هذه الأثقال وهم يتلون آيات من كتاب الله تلعن السحرة والأشرار، وآيات دعاء للرحمن أن يحميهم

ويــرفع غضبه عنهم ويخلصهم من الجثة الرجيمة. وبعد الدفن، بنفس ملابسهم المبتلة بالعرق، تيمَّم الجميع على الرمال ثم ارتدوا جلابيبهم التي سرعان ما ابتلّت بالعــرق. اســتقبلوا القبــلة وأمَامهم الشيخ صَلاتو إماماً. رفعوا أياديهم إلى قبة الســماء والشمس وحرارة الجنوب والمجهود الكبير أرهقتهم تماماً. الشيخ يدعو وهم يؤمّنون على دعاءه..

- اللهم يا حفيظ احفظنا من شرور الساحر.
- آمين.
- اللهم يا حفيظ احفظنا من الوسواس الخنّاس.
- آمين.
- من الجِنّــة والناس.
- آمين.
- اللهم يا راضي ارض عنّا وارفع غضبك ومقتك عنّـــا.
- آمين.
- اللهم يا معين خلصنا من الساحر الرجيم.
- آمين.
- يا رحيم يا رحمن ارحم عبدك سِسّي.
- آمين.
- وافرغ صبرك على ناسه يا رب العالمين.
- آمين.

اســتمر الدعـــاء وقتاً. ثم اتجهوا إلى النيل ليستحموا استعداداً لليلة الثانية لــلعزاء.ليــلة طويــلة قلقة. أحاديث وتفسيرات وتبريرات وشروحات وتخمينات متعددة عن الذي سيكون. الأطفال الصغار باتوا في أحضان كبارهم رعباً من كثرة الحديـــث عن الساحر وعن القوى الخفية التي تهيم في أجناب القرية، وتذهب إلى حفرة الساحر لتعذبه ثم تسحبه من قضيبه لتسحله تحت أرض القرية لتعيده مرّة أخرى إلى حفرته النارية وتعذبه بتعذيب جديد وترفض أن تُريحه.

أتى الفجــر بعــد لأي.صــلت القرية كلها جمعاً، متلهفين مضطربين، في رؤوســـهم وقــلوبهم شتى التوقعات. والنور لم يَسُد بعد ذهبت جموع القبيلة كلها

عند الحفرة.. صرخت النساء والأطفال، فصرخت كل الطيور فزعه وعوت الكلاب وأطــلقت كــل البهائم أصواتها في رعب. تكبير الرجال الذي يعلو لتتواصل معه تكبيرات النساء والأطفال.

الكتـــلة الكبيرة والحجارة ألقى بها بعيداً. أما الجثة فقد تناثرت عظامها بعد أن أكلها الوحش فلم يبق من الجثة إلا الوجه الملقى على الرمال، عيناه جاحظتان لأعــلى في رعب غير دنيوي. دموع حمراء طازجة تتقافز من المحجرين لتتخلل الـــرمال الملتصـــقة بالوجـــه وتشكل ستارة نارية تتشرب الدموع وتسكبها على الجانبين لتكوّنا بقعتين من الدماء.

مباحـــثات سريعة في الخور بعيداً عن الرأس. عواء العمدة وعويل النساء تضرب في الخور والجبال وتتصادم مع الأصداء المرتدة. النساء في شراذم يبكين ويـــتطوحن. تطـــوع آبـــدون للقيام بالمهمة. أسرع معتوق الخير لإحضار الجمل الســـعيد والبـــندقية وزق الميـــاه. وأســـرع شابان على حمارين لإحضار بعض احتياجات الرحلة.

رأس الســـاحر البشـــعة، دفعهـــا هاشم الكيد بنبّوته حتى أدخلها في زنبيل خـــوص. ربطوا الزنبيل بحبل طويل وربطوا الطرف الآخر في ركاب السعيد. كان السعيد باركاً فجرجر غاضباً وحاول الوقوف ليبتعد وآبدون يمنعه بصعوبة. الجَمل يرتعش وينعر رافضاً ربط حبل الزمبيل بركابه. آبدون تطوع بذلك رغم وجل قلبه واشمئزازه من تلك المهمة الذي كلف نفسه بها نيابة عن ناس القرية، وليعوض إحساســـه بـــالذنب، فاتهـــام العمـــدة له ولصَلاتو يحز في قلبه. وعقله يوافق.. الاتهام يحوي جانباً من الصحة.

تناول حاجياته التي أتى بها الشابان.. بعض الحطب الجاف والسيف. ناوله معـــتوق زق الميـــاه والبندقيّة وحزام الرصاص وإبريق جده النحاسي، فعلّق كل شيء على ركاب الجمل. نهض السعيد بقائميه الأماميين وهو يرغو ويتململ فدفع براكبه للخلف وكأنه سيطيح به ثم تلاهما بخلفيتيه فاندفع جسد آبدون للأمام وكأنه سيســـقط مـــن أعـــلى رأس الجمل جاحظة العينين فاغرة الشدقين بارزة الأنياب مزمجرة الصوت والنافثة زبداً منفوشاً يتطاير.

صاح صَلاتو..

- استعن بالله يا آبدون.

فصاح آبدون والجمل كأنه يرقص به غضباً ورفضاً لما هو فيه..

- استعنت بالقوي المتين. استعنت بالرحمن المُـعين.

يبحث عن زوجته. هَكيمة تقدمت ناحيته. تدعوله بالعودة سالماً. نغز الجمل فانطــلق مهــرولاً يزمجر مندفعاً شرقاً في خور أورّك ليختفي في دروب الجبل وشعابه. آبدون لا يعلم هذه الدروب والشعاب وأصلاً لم يرها من قبل. تذكر..

- آه لــو كــان هنا صديقي العجوز أبَيِّدْ الجلاب. لكان خير عون وخير من يرافقني.

يحــاول آبدون أن يرى معالم معينة يعلّم بها طريقه. خوفه أمره بأن يترك الرأس فوراً ويعود، لكنه كما وعد ناسه سوف يتركها بعيداً بعيداً عن القرية حتى لا تــأتى الرياح برائحته أصلاً، فلا تخيم شرور الساحر وهو ميت على القرية. ثم إنه سعيد بمهمته وبكونه من أهم ناس القبيلة. كان حلم وأمل أبيه موسى جوش القديــم، أن يكون الرجل الثاني بعد العمدة، بعدما فشل أن يكون الرجل الأول مثل جــده جوش، لكن أبيه فشل حتى في هذه. فهاجر محبطاً آسفاً إلى سُوين. آبدون يشــعر بــراحة أنــه خطوة خطوة يحقق لأبيه أمله الخائب. الجمل يخبُّ متقافزاً وآبدون باله يسرح في أموره النفسية التي تتعملق داخله..

- وحــتى إن انتزعت مكانة الرجل الثاني في قريتي، هذا لا يكفي يجب أن أبني مصطبة عالية يستعين بها ابني أولوا ليعلو بها مستقبلاً ليستقر في المركز الأول. والعموديــة يجــب أن تكون له. يتزوج راضية ليتبوأ المنصب وأحقق حلم وأمــل أبــي موسى جوش. يجب أن تكون ذريتي على جانب هام من الوقار بين ناس القبيلة وكل القبائل.

هنا انتابته غصّة عندما تذكّر حال أولوا. وجسده يرتج للأمام والخلف فوق سنام جمله السعيد المهرول بغضب..

- آه يا أولوا. يا حسرتي على ابني، حفيد جوش العظيم.

الشمس تعامدت على رأسه. تناول زق المياه وأخذ جرعتين صغيرتين فقط وبحرص. الجمل مازال يهرول في أخدود طويل انتهى بهما خلف جبال النوبة على أطــراف الصحراء الغربية اللامحدودة. استمر يعدو. آبدون نظر إلى الخلف لأول

مــرة متجنباً النظر إلى الزمبيل الحاوي رأس الساحر والذي يزحف خلف الجمل. يريد تحديد المكان الذي نفد به من الجبل حتى يعود منه. عيناه رغماً عنه لمحتا الزمبيل وهو يتدحرج على طرف الحبل الطويل.

فــي بحــر رملي منبسط على مدى الرؤية، السعيد يخطو بخطوات واسعة. وآبدون فوقه يهتز بعنف حتى بدأت نسمات ما بعد العصر وقبل الغروب. بسكّينة ضرب الحبل من ركاب جمله فانقطع وتوقفت دحرجة الزمبيل. السعيد همهم سعيداً لتحرره من غــمٍ كان مربوطاً به. يعود مسرعاً في اتجاه الشرق. لكن في نصف دائرة كبيرة حتى يبتعد عن الرأس الملعونة. سرعته لم تهدأ رغم إرهاقه وإرهاق راكبه الذي أحس بأن عظامه ستتفتت منفصلة عن بعضها من سرعة العدو وطول المســافة. يحمــد الله ويشكره لتخلصه من الرأس النجس الملعون. لم يحاول أن يهــدئ مــن سرعة الجمل حتى يلحق الطريق ويتبين المدخل قبل حلول الظلام. سلســلة الجــبال ناحيــة المدخل كانت في ميل بحيث حجبت شمس الغروب عنها فــألقت الظلال على بطن الجبل. خوف التيه ضرب قلب آبدون. خوف لعنة الرأس المــلعون أرعبه. الذئاب والضباع. أهل التيار غير المرئيين أشرار وأخيار. رفع رأسه. جبهة الشمس الدموية فرشت بحر الرمال بشفقها السائل.

بفطــرته تيقــن أنه جنوب الفتحة التي خَرج منها. مسح على عنق الجَمل المُــتْعَب وجعلــه يسير به الهوينا وعينا آبدون تفحصان وتمحصان الجبل لترى النتوء الذي أخذه علامة. تحدث إلى السعيد..

- إن الفــتحة هــنا. لكــن أين بالتحديد؟ لا أعلم. من الأفضل أن نبيت في مكاننا هذا.

بَــرك الجمــل. هــبط آبدون من فوقه. فخذاه التهبا. جلس فأحس بالأرض غريبة الملمس من طول ركوبه. أعَدّ السيف والبندقية. شرب جرعات قليلة ضئيلة مــن زق المياه. تيمم وصلى. تمدد وأسند ظهره على الجَمل، مازال الجمل يلهث تعــباً وإرهاقــاً من الشرّ الذي كان يسحبه. لهاثه السريع يدفع جذع آبدون للأمام ويعــود به للخلف. هدأ التنفس رويداً رويداً. خلع آبدون نعليه وعمامته والطاقية مــن الأفضــل عــدم إشعال نار، لا يحتاج إلى شاى أو طعام، ولا يريد لفت انتباه الوحوش إلى النار فتحوم حوله. نام وأغلق السعيد عينيه ومد رقبته على الرمال.

نـــوم آبدون قلق. خائف أن يأتيه وحش من وحوش الجب، وحش على أرجل أو ثعــبان زاحــف. لـــم ينم في الصحراء من قبل. يفكر في هَكيمة وناس القرية.. سوف يصيبهم الخوف أن يمضي عليه الليل وحده. هَكيمة ومعتوق لن يناما حتى يعود. ثم سأل نفسه..

- هل سيقلق أولوا على والده؟

نـــام. فزع على أزيز فئران وقَلْقَلة الجَمل. هبّ واقفاً حاملاً السكين. الفئران هــربت من مطاردته لكنها كانت قد ثقبت زق المياه وسكبته على الأرض فلم يبق لـــه إلا القـــليل المتبقي في الإبريق النحاسي. قبل الفجر استيقظ. يحمد الله أنه لم يسمع عواء ذئب ولا صريخ ضبع. تيمم وصلى الفجر ودعا بأن يعود قبل الظهيرة الـــتي ســـتعذبه بدون مياه كافية. ولمّا وضح الصُبح اعتلى السعيد وعاد أدراجه ينظر في بطن سلسلة الجبال يبحث عن العلامة. تبينها فصاح..

- هي.. هي والله.

فأسرع السعيد فرحاً وعبر منها إلى المُمر.

عـــندما انـــتهى آبدون من شعاب الجبل وأطل على خور أورِّك، شاهد ناسه عـــلى بضـــعة حميـــر وجملين مقبلين تجاهه. ابتسم. إنهم مجموعة للبحث عنه. شـــاهدوه والســـعيد يخبو فرحاً بنفسه وبراكبه. أطلقوا أعيرة نارية، صفوف من النســـاء كانت على حافة الخور عند النجع أطلقن زغاريد سريعة قصيرة توكيداً عـــلى وصول آبدون حياً، وهبطوا عدواً تجاه السعيد الآتي إليهم في خِوار محبّب. أحـــاطوا بـــه كبطل عاد من معركة منتصراً. هبط يحتضن الجَمْع ولما لمح هَكيمة تـــبكي عـــلى بعد خطوات منه خلف رقاب الرجال. اتجه إليها فارتمت في حضنه وهي تبكي، فقد عاد آبدون بعدما ظنوا أنه راح منهم.

وفـــي المضـــيفة، كـــان نُوري العمدة ينتظر. احتضن آبدون باكياً ثم انهار مغشياً عليه.

الجنوب النوبي على الفطرة،منهم لربهم، والشيطان يترصد. الخير في غالب طـبعهم. يزهو في ملامحهم السمراء. يبتسم مع أسنانهم البيضاء. والشر يتحايل فيتجسّد وقائعاً تفجعهم فيستسلمون ويعترفون..

- إنّنا مجرد بشر نُصيب ونُخطئ.

الطـبيعة ليسـت صامتة حولهم وإن بدت كذلك. الطبيعة كائن حي يعطي ويأخذ. النيل الريّان الهادئ طوال بزوغ وأفول أقمار عديدة، يمنح ماء الحياة لهم ولمواشـيهم وزراعاتهم. ثم ينقلب زمن أسابيع عدّة وحشاً غاضباً يهدر بفيضان خطـر يصـل إلى أعـتاب بعض من بيوتهم فيسحبها إلى القاع. والشمس بقدْر جبروتها الملهب الملتهب، بقدْر ما تضايقهم وتحرق جلودهم وتنهكهم في شهور الصـيف الطويـلة، وتجبرهم كل ظهيرة على الاعتكاف تحت الشجر في الغيطان وتحـت السقائف الجريدية الظليلة في البيوت، نفس هذه الشمس التي لا تحجبها سُـحُب، تُطهر أبدانهم وأشياءهم وتسوّي محاصيلهم مبكراً وتعطيهم الوضوح في الرؤية وصفاء السريرة. واللون الخاص.

أحـبوا مـا أعطاهم الله من طبيعة. عاشوا فيها، لم يجعلوها خارجهم، لم يعتـبروها مجـرد أشياء محيطة. لم يكرهوا الذئب الذي يترصد لهم ولمواشيهم وأحيانا ينجح ويغدر بهم. حتى الثعابين والعقارب التي دائماً ما يجدوها وقد غزت حجـرات نومهـم، يكـرهونها.. لكنهم يؤمنون أنها قضاء وقدر، كُتب عليهم أن يعايشوها فعايشوها. الزراعة تزهر لهم عطاء أحبّوه وإن ظن الغير أنها عطاءات غير كافية. النخلة لها اسم من أسمائهم، اسم من زرعها.. من أحبها.. من وُلِدَ أو مـات يوم مولدها. النخلة أم لهم بخيرها المشهود. لذا فحين تموت فواجب على الـناس أن يعـزوا صـاحبها. الرضاء يغلّفهم فكانت نفوسهم بسيطة صريحة في أغلـبها ولا تعـرف المكـائد إلا قـليلاً. ورياح جُنيب التي تهب عليهم صيفاً من صـحراء الشـرق الشاسعة وتحيطهم وتغطيهم بملايين البلايين من ذرات الرمال طيّات فوق طيّات تتدفق بلا نهاية وقد تلوّنت بالحُمرة الخفيفة التي تغالبها الصفرة

الأخـف فتصـبغ قبة السماء الصافية وتجعلها في النهار شبه غائمة. تتخلل ريح جُـنيب دوامـات هوائيـة طويلة نحيفة تصل ما بين الأرض والسماء. تتقدم في سرعة وقوة حلزونية، أحياناً تكون مخيفة تعبر مجرى النيل ثم تدخل القرية ترج أسـطح البيوت وتنزع الأشياء الخفيفة من مرقدها وتبتلعها صاعدة لتلقي بها في أحضان الجبل الغربي. ونادراً ما تأتي رياح جُنيب من الغرب لتفاجئهم قوية عفية متجـبّرة تزعزع أسطح البيوت وتسقط عدداً منها. تشفط كلباً أو قطة ثم تلقي به بعيـداً وسـط المزارع أو تمسك به أغصان الأشجار وجريد النخيل، ويكون لهم ضـحكاً وتعجباً حين يجدون كلباً بعد رياح جُنيب ينبح فوق شجرة حتى يأتي إليه ناسه وينزلوه.

أما السماء في أوقات الصفاء الشتوية، فهي شديدة الزرقة نهاراً بنفسجية مخمـلية ليـلاً. والنجوم جواهر منثورة. القمر حين يطفو عليهم من هلال نحيل رشـيق إلى هـلال سـمين إلى نصف بدر إلى بدر، وكأنه ينير في داخلهم بلونه اللجيني المرطّب للنفوس.

الجمـل اسمه السعيد. يجري سعيداً بشبابه وقوته. أرجله الطويلة القوية بأخفافها الأربعة المفلطحة الخشنة، تنفرش على الرمال في لين وترتفع في تعاقب منـتظم لتـتخطى الفراسخ في نعومة وعشق. السعيد يقطع إحدى المشاوير التي تعوّد عليها ما بين القرى وعلى ظهره صاحبه الذي يبادله حباً بحب وفخاراً بفخار ودلالاً بـدلال. ينطلق بأقصى سرعة له مزهواً بضخامته وقدرته يهمهم ويهدر، وصـاحبه فـوق سـرجه الأنيـق المثـبّت على السنام البارز ممسك باللجام بيد وبالأخـرى يحـثه بخيزرانة رفيعة حثات مشاكسة صاحب لصاحبه، ضربات على جانـبي الـبطن الضـخم وجانب العنق بالغ الطول، ضربات تدليل ورجاء تختلط بالأصوات التي تنطلق من فم آبدون تطالب بسرعة أسرع وبها نغمة فرحة. ومن أقصـى الضـفة الأخرى حيث الجبل المقابل والموازي للجبل الذي يجري أسفله السـعيد وصاحبه، يبدو الجمل العملاق حشرة صغيرة تافهة تزحف. على ظهرها حشرة أصغر وأتفه تقودها. الجمل بما عليه حصاة تتجندل وتتدحرج عرضياً أمام جـبروت الجبل الأشم بقممه القريبة والبعيدة منها ما هو صخري ومنها ما تَحنّن ولان بقمة رملية كأنها غطاء رأس يحمي من شمس ثقيلة العقاب لا ترحم.

القــرية مــا هي إلا سلالة تكاد تكون من أم واحدة. قبيلة كوّنت قرية. إلا أنها تتصارع داخلياً حتى وهي تتمسك بكونها قبيلة واحدة متحدة ويجب أن تبقى مــتحدة. الــبطون الــتي تفرعت تتصارع غالباً خفية، وحين يشتد الصراع يبين ويتجسّــد. كل عائلة تريد أن تكون هي الظاهرة.. هي القوية والعائلة الرئيسية. يحــبون كــثرة العدد وعلو الشأن. أخشى ما تخشاه كل عائلة، قلة النسل وضعف المقام بين القبيلة. لكن مهما كان الصراع فله حد لا يتعداه. وسفك الدماء معدوم. لا يفكــرون فيه أبداً. وسبب من أسباب تعاليهم على شمالهم الصعيدي، أن الدماء مسفوكة عند ناس الصعيد.

النكــبات متتالية والأفراح متوالية، يتضافران سوياً. كل شئ بقدَر. تأقلم نــاس النوب على ذلك. فما تكاد حفلات الأعراس أو حفلات سبوع ميلاد الأطفال تهدأ، حتى تأتيهم نكبة موت إنسان. كلما طفرت أعدادهم وتباهوا بأنه لن يهزمهم شيء عن قِلة، إذا بهجمةٍ وباءٍ تحصدهم. وكما بالغوا في الفرحة مخلصين مهللين مغــنين راقصــين، يــبالغون في الأسى مخلصين نادبين مغنين راقصين. وهكذا يــدورون فــي دورات الحيــاة الــتي تدور في دورات الفَلَكْ. يترصدهم شيطان ويحميهم مَلَكْ.

يتــناولون الغــذاء في صمت. حتى راضية صامتة وهي تتناول لقيمات. غرق سِسِّي سمّم حياتهم. نَبْرة توقفت من مدّة عن محاولة فتح مواضيع يتحدثون فيها لتبديد هذا الوجوم الكئيب. نوري لا يتجاوب معها. بل لم يحاول أبداً. لا يريد أن ينسى غرق وحيده. حاولت راضية أن تساعد أمها. ضحكت مرّة فضحكت معها أمها. نظرتا إلى نوري ليضحك معهما، تترجيانه بنظراتهما، وبدلاً من أن يضحك نوري، بكى بحرقة وهو يزدرد لقيماته المتضخمة. تقوم راضية لإحضار مزيد من الطعام لأبيها الذي أصبح لا يشبع سريعاً كما كان.

نَبْرة بعد أن غسلت الأواني، ذهبت لتغفو بجانب زوجها. لم تجده. وليس تحــت الســقيفة. ذهبت إلى حيث كانوا يأكلون. لم تجده. بحثت في المضيفة. في غــرفة الديواني المزيّنة. في غرفة الخزين ربما ذهب لإحضار مزيد من البلح. لم تجــده. ذهبت إلى غرفة راضية، كادت تغفو. سألتها عن أبيها. في لحظة واحدة وهمــا تــنظران في عيون بعضهما، خطر لكلتيهما.. غرفة سِسِّي. أسرعتا إليها.

أزاحــت نَــبْرة الباب برفق. كان نوري جاثياً على ركبتيه مركوناً على سرير ابنه الجــريدي. رأسه على وسادة الفقيد يبكي. جلستا على جانبيه تربتان على ظهره. نَبْرة تهمس له..

- نوري، حرام عليك.
- أنا السبب. ليت هَمَرين قتلني أنا.
- اصبر، نَبْرة تتعذب مثلك. كان وحيدي مثلما كان وحيدك.
- آه، سِسِّــي. سِسِّي. آ آ آ ه. غريق! يا نَبْرة عيناه كانتا جاحظتين. كان مرعوباً يا نَبْرة.
- نورى حرام.
- فمــه كان مشدوخاً لآخره. يستغيث بي، أنا أبوه. آ آ آ ه. يا ربي، خذني لألحق به يا ربي.
- قــم يــا نوري. ساعديني يا راضية. نوري. لا نستطيع رفعك يا نوري. انهض معنا. من أجل خاطر نَبْرة.. من أجل خاطر راضية يا نوري.
- آه يــا ربــي. وقبيلتي، لماذا لم يقفوا معي من أول الأمر لنطرده؟ لماذا تخاذلوا؟ أكان من اللازم أن يغرق سِسِّي ليهبّوا ويقتلوا الساحر؟!

عندما انكسرت حَدّة الشمس، راضية ذهبت إلى النهر لتجلب المياه، تحمل جــرّة أصــغر مما تحمله الفتيات لعجز يسراها. نَبْرة جالسة في ظل حائط بجوار غرفة الخزين. أمامها الحوش الكبير الواسع. ساقيها على الرمال بكامل امتدادهما وبيــنهما حجري الرحى. بجانبها طبق خوص عليه كوم من حبوب الذرة. أسندت ظهــرها عــلى الحائط. الحزن يغشى وجهها الجميل فلم يبق منه إلا وسامة أسى نبيل يكسوه الشحوب. هَزلَتْ وضَعفت سريعاً. طرحتها ساقطة خلف قفاها. شعرها الفاحم انفجرت فيه ينابيع من خيوط بيض متناثرة. تمسك نَبْرة بالمقبض الخشبي لقرص الرحاية العلوي. تديره في بطءٍ. تهمهم بموال حزين عن صبي غضب من نــاس البر فيذهب إلى ضفة النهر كل فجر وكل غروب يشكو لناس النهر غضبه وظلم ناسه له. وبعد مرور زمن قمر كامل، أشفق عليه ناس النهر، فأناروا بصره حــتى اســتطاع أن يــرى مدخل قرى النهر. هبط إلى النهر واستقبلوه بترحاب

وزوّجوه عروساً جميلة من بناتهم. وسعد الصبي هناك وأنجب وصارت ذريته من محبي ناس البر وأقاموا صلات أوثق بينهم.

دخل سلاطين. وقف في أول الحوش ينظر إلى عَمّته ويستمع إلى شدوها الواهي الحزين. اقترب منها..

- عَمّتي، أمي نَبْرة. ماس- كاج- نا؟

- هَمد لله، سلاطين. اجلس بجانبي يا بني.

مرّت فترة، سلاطين ما زال واقفاً ينظر إلى وجه عَمّته الحزين والتي نسيته تماماً وبدأت تغني بصوتها الخفيض حكاية عن كائنات حزينة تسكن قاع النيل، أتت هاربة من ظلم وقع عليها في أعالي النهر. فكان ملجأهم هنا، تحت طيّات وطيّات من المياه.

سلاطين جلس أمامها. بينه وبينها الرحى. مدّ يده يساعد عَمّته. ابتسمت له..

- سلاطين، ألا تتصالح مع أبيك؟

- أنا أحادثه.

- نادراً.

-..

- ولا تعمل معه.

-..

- ترك الخمور وصار تاجراً حراً. لماذا تتعالى عليه؟ أم تريده أن يعود للخمر؟!

-..

- إلى متى سيكون قلبك من الصخر يا سلاطين؟

- عَمّتي. أنا.. أنا جئت بسبب راضية.

بيد تدير الرحَى مع يده، وبالأخرى تأتي بالمزيد من الحبوب وتضعها في الفتحة العلوية ليطحنها حَجَر الرحَى بينهما. تتشاغل عن سلاطين. تعلم أن راضية لم تعد ترتاح لسلاطين. قلبها الذي ضربه الوهن والعَجز، لا يتحمل هموماً ومشاكل جديدة. لم يتركها سلاطين..

- راضية، أنا أحبها منذ كانت في بطنك. ليس لي أخت إلا هي.
- أصدقك في حُبّك لها يا سلاطين.

سحب سلاطين يده من مقبض الرحَى.

- لكــن الــذي يحيرني.. لماذا تكرهني أختي؟ لم أقصد إسقاطها من أعلى الجسر، السبب هو هذا اللقيــ..

نظرت إليه نَبْرة حتى لا يكمل سبّه لمعتوق الخير..

- ســلاطين، راضــية مثلــنا، نحــبك ونكــره تصرفات.. نكره قسوتك وعجرفتك.
-عَمّتي، أنت تحرضينها على كرهي!
- سلاطين، يا ابن أخي أثمان كورنة. يا من ربيتك في بيتي وأرضعتك من ثديــي. الهموم على كتفيّ عَمّتك أثقل من جبل فرعون. موت سِسّي وحال نوري كسراني يا سلاطين. لا تزيد من وجعي يا بني.
- لم أقصد أن أسقطها من أعلى الجسر. وليس لي ذنب أن قاتل سِسّي هو خالي، ليس لي ذنب.

توقفــت نَبْرة عن إدارة الرحَى. تمسح دموعها. سلاطين يستكمل كلامه في عصبية..

- زوجــك لا يطيق رؤيتي. وما ذنبي؟ ناس القبيلة نظراتهم تتهمني. وما ذنبي؟
- سلاطين، أنا حزينة من أجلك. معتوق الخير ابني مثلما أنت ابني. ومثلما كان سِسّي.

رفعت يدها تمسح بطرف طرحتها دموعاً غزيرة هطلت..

- سلاطين تكفيني همومي. لا تزيد حرقتي. بالله اتركني في حالي.

معــتوق الخيــر انــتابه قلق ذو مسحة فرح. عدواً.. صعد عصراً إلى تل الجبانة. أسرع إلى خور البحر وهبط فيه.. صعد الجسر، ثم إلى نجع نجيبيّة وقد تمكّــن مــنه العرق ولم يتملكه نهجان. هرول عائداً إلى نجع أورّك. ناس القرية يضــحكون عــلى تصــرفاته الطفولية. يعجبون من توتره بدون سبب. دخل بيت

هَكيمـــة. فـــي الحـــوش رقد على بطنه فوق الرمال لحظات كالميت. قام ضاحكاً وأخرج الحمارة العجوز. وثب عليها مسرعاً إلى بيت عسل صائحاً..

- يا سيـــ.. د. أحُـــ مـــ.. دْ.

يمـــر عـــلى البيوت محَييا بيديه كل من يقابله، حاثاً الركوبة العجوز على إعطـــاء أسرع ما عندها. وصل إلى طرف النجع صاعداً وبان البيت المتربع على شـــبه ربـــوة عالي.. بيت عَسل. ضَرب الباب الموارب بقدمه. أتته تَعويضة من الحوش..

- إم م م م ، معتوق الأخرس! ماذا تريد؟

- إدي أسل، حَج..

- جدك عسل حَجْ!

- إيْ.

- والله يا معتوق أمك تركتك للذئاب لأنها أوحي إليها أنك ستكون معتوهاً. كِسبانة.. هُوشَة. تعاليا.

معتوق مازال يضحك في سرور.

- اســـمعا يـــا بنات الزير البارد ماذا يقول هذا المجنون ابن المجنونة. هذا الذي يدّعي صداقة غولة الإيركابي وجنيّة الشط فانالاندي.

- إدي أسل. حَج. إدي أسل.

الأتان العجوز أسرعت بمعتوق مبتعدة. تَعويضة وكِسبانة تلعنانه وهُوشَة تضحك وتؤكد لهما قول معتوق..

- جدي عسل حَج فعلاً.

- انخبلتِ أنتِ الأخرَى يا هُوشَة؟

- أخـــتي هُوشَة ربما عندها حق. اسمعي يا أمي.. هذا المعتوه معتوق.. عنده أمور غريبة. ألم يصدقك القول في غولة الإيركابي وفانالاندي؟

- كِســـبانة.. إلهـــي لا تكســـبي طوال عمرك، لا تزيديني خوفاً من معتوق الكلب.

وصلت الركوبة العجوز بمعتوق إلى تل الجبّانة. ألقى معتوق الخير السلام وقــرأ الفاتحــة للجميع. تربع عند قبر عبد الرحيم عسل. قرأ الفاتحة وهو يربت على تراب القبر ثم قام وهو يحادثه..

- حَج مبــ.. رور. ذنب مغــ.. فور.

قــبل غــروب اليــوم الــتالي، أسرع إلى نجع المنحنى، هبط إلى النهر بملابسه. وصل إلى منتصفه. ليلة أمس هكيمة وآبدون لم يهتما بحديثه عن حَج عســل. ناس القرية بدأت تراودهم فكرة أن معتوق الخير فعلاً أبله ولا رجاء فيه. وإن لــم تكن بلاهته دائمة، فهي ترافقه كثيراً ونادراً ما تستريح منه. فمن يجري هــذا الجــري بين النجوع ويقول هذا الكلام؟! ثم ها هو يهبط النيل عند المنحنى الخطر.. وبملابسه!

يــنظر لــبعيد ثم يُصدّر أذنه شمالاً يَتَسمَع. ضحك. الأصوات بعيدة لكنها تصــل لأذنــه. عــاد إلى البر يجري ويجري. تخطى نجع نجيبيّة إلى نجع أورِّك. تخطى نجع أورِّك وصعد على نتوء بالقرب من قمة جبل فرعون ينظر شمالا.

الــبعض مــن نــاس القــرية كانوا على ضفة النهر يتابعون بعض أمور الزراعة البسيطة. توقف كل منهم ينظر شمالاً. يَتَسمّعون.. أصوات أهازيج مقبلة وهــي تنزلق لينة على سطح النهر العريض. المنحنى ينثرها بعيداً عن استقامتها فيشوشر على سلاستها خاصة بعد أن تضرب في بطون الجبل وتعود بصدَى خافت كعواء وحوش كسولة تتناوم.

معتوق الخير هبط من مكانة يسرع ويسرع ويسرع. الفرحة تتملكه تماماً. يثب فوق الصخور والنتوءات. دخل نجع أورِّك يخبط كل باب يقابله ولا ينتظر أن يخرجوا له فيبتعد لغيره صائحاً..

- سهاج. آنم. سهاج. آنم.

يقول لكل من يقابله وهو يشير شمالاً..

- سهاج. آنم. سهاج. آنم.

الــذي يضــحك عليه يضحك. والذي يتضايق منه يتضايق. والذي يلعنه يلعــنه. لكن معتوق لا يهتم بأي رد فعل سواء كان لطيفاً أم كان عنيفاً. دخل بيت

هَكيمـــة. تُطعــم الدواجن الكثيفة. دجاج وبط وأوز من مختلف الأعمار والأحجام. والحمام يطير حولها يهدل يريد حقه في ركن وحده. هَكيمة لم تره. لكنها سمعته يعلمها بوصول إسْهاج وهانْم مفكوكة. ضحكت ولم تبال.

أخـــرج الحمـــارة العجـــوز. وثـــب عليها متجهاً إلى نجع نجيبيّة ليضرب أبوابهـــم ثـــم النجع الأخير نجع المنحنى يعلمهم جميعاً بوصول إسْهاج وهانْم من الحج..

– سهاج. آنم. سهاج. آنم.

الليل مظلم تماماً فلا قمر.. النجوم تحملق فاغرة عيونها الفضيّة. مواكب صـــغيرة مـــن المطايـــا والفوانيس المنيرة منثورة وسطهم تنير الطريق الرملي. يحمـــلون الأعلام الخضراء والحمراء تتوسطها الأهِلّة والنجوم البيضاء. الزغاريد القوية تنطلق لتجيب على زغاريد بدأت في الوضوح تأتي منزلقة على سطح النيل العريض لتحتضنهم. انضمت المواكب الصغيرة في موكب واحد واسع كثيف البشر كـــثيف الأنـــوار كثيف الرايات متعدد الطبول، ثم انسالوا شمالاً في طابور ليعبروا الشـــريط الصخري الضيق الملتف والذي سمح به الجبل الغازي. ينشدون للحبيب الرحمن والحبيب المصطفى. وضربات الطبول متعددة الأحجام تدوي. اقترب سرب المـــراكب، الفوانيـــس المُنارة فيها تنير بياض أشرعتها وتظهر أعلامها مرفرفة معـــلقة فـــي الهواء كأنها فراشات حالمة ترقص في ظلام هادئ. موكب المراكب مظاهـــرة نور منبثقة من السماء الرحبة. أصواتهم تتجسّد والمراكب تتجسّد كلما اقـــتربوا. حمـــاس نـــاس القرية المنتظرين يزداد كلما اقتربت المراكب. وازاهم السرب السابح فعادوا معه متخطين المنحنى في حرصٍ منشدين حتى وصلوا إلى المرسَى الصغير.

انحـــرفت مركب ببطء من السرب حتى وصلت إلى المرسَى. وثبت إليهم هـــانْم مفكوكة ثم تخطى إسْهاج حافة المركب إلى البر حاملاً بحرص زنبيلاً ثقيلاً، ثـــم نـــاولهم رجل من المركب خرج قماش كبير به أمتعة إسْهاج وهانْم مفكوكة. عـــادت المـــركب لتنضـــم للسرب وسط تلويحات الجميع للجميع ودعوات القبول والوصول.

تعـلقت فوزيـــة برقـبة والديها لا تسمح لغيرها باحتضانهما. ثم توالت الأحضـــان لا تنتهي. ثم وضعوهما كل على جمل. أرادوا أن يزفوهما بين النجوع الثلاثة لولا صيحة الشيخ صَلاتو..

– يا ناس البلد. يا ناس الأصول. الرحمة. أخونا إسْهاج مُتعب. وهانم كما تعلمون جسدها مفكوك خلقة.

ضـــحك الجميـــع حتى هانم مفكوكة من فوق الجمل تضحك سعيدة بناسها وبمزاح الشيخ.

– نتركهما يستريحان هذه الليلة. وإن غداً لناظره قريب.

أوصـــلوهما إلى دارهما في زفة سريعة تهزج وتُبين سعادة من يحج بيت الله ويزور رسوله. إسْهاج وهانم قبل أن يدخلا بيتهما شاهدا الرسومات التي زين بهـــا جدار البيت الرئيسي المواجه للنيل.. بنتان تقفان كل على طرف الجدار وكل مـــنهما تحمل فانوساً مضيئاً.. الكعبة المشرّفة.. أعرابي يؤذن واضعاً كفيه بجوار أذنيـــه. بضـــعة جمـــال محملة بالحجيج تتجه إلى مكة. ثلاثة من الناس بملابس الإحـــرام يتجهون إلى البيت العتيق.. رجلان وسطهما امرأة.. رجل منهما يمسك عصـــاته بيـــد ويـــده الأخرى على كتف المرأة. إنهم إسْهاج وعبد الرحيم عسل وبينهما مفكوكة.

زغـــاريد انطلقت مرحبّة وهانم مفكوك تنظر ناحية جمع من الفتيات. هن مـــن قمن بالرسم. وأضافوا عبد الرحيم عسل بناءً على إلحاح من معتوق الخير. وفي الحوش الواسع حيث امتلأ عن أخره بالناس سأل إسْهاج وهو قلق..

– أين العمدة؟ وأين مُنشدنا عسل؟

أجاب آبدون..

– قال لك الشيخ صَلاتو إن غداً لناظره قريب.

– مات المنشد عبد الرحيم عسل. نعرف ذلك. الله يرحمه.

تقدم معتوق الخير. نظر إلى إسْهاج متسائلا..

– كان.. معـــ.. كما؟

ساد صمت. العيون كلها على وجه العائدين. وضع إسْهاج يده على كتف معتوق الخير..

- والله العظيـــم كنت أحس بهمهمته وهو ينشد. أحسست به معنا من أول الطواف وفي السعي.. وفي كل الشعائر.

استكملت هانم مفكوكة..

- أحسســـت به قبل إسنهاج. لكن خشيت أن يسخر مني إن قلت له إن روح المنشـــد عســـل معنا. حتى بدأ هو الكلام. كنّا في حيرة كيف سنخبركم بأنه كان معنا.

- لكن كيف عرفت يا معتوق أن جدك عسل كان معنا؟

مســـح معتوق الخير دمعتين وابتعد. سألت هانم عن العمدة، قيل لهما إنه مـــريض والســـبب غرق ابنه. لم يتطرقا أكثر من ذلك. وقبل أن تتحول الزفة إلى موقف حزين، هلّل آبدون وكبّر الشيخ صَلاتو، دفعا الجميع للخروج من الحوش، وفي البراح تولت تَعويضة قيادة زفة الحجيج. تنشد وتجيبها الجموع..

تبارك الله ع النبي مُهمد
ركَبَ وقد تألق نوره
ركَبَ وقد تألق نوره
ومعه الخلفاء الأربعة
والحسن والحسين
ركَبَ وقد تألق نوره
وصعد إلى السماء ليلحق بموعده
تبارك الله ع النبي مُهمد
ركَبَ وقد تألق نوره

وفـــي الساحة الواسعة أمام بيت إسنهاج حيث ورشة صناعة أهم مكونات المـــراكب.. اتخـــذ معتوق الخير مقدمة الزفة وهو يلوّح بعلم من الأعلام. صاح بلسان سليم مطلق نشيده الصوفي..

صَلَوات الله ما هَبّت صَبَا
لِرَسولٍ حلَّ في وادي قُبا
ودعا الناس إلى خالقهم
فأجاب البعض والبعض أبَى

تجمّــع الكــل حوله يرددون خلفه التسبيح والمديح. دخل الحاجان دارهما ومعهمــا فوزية. وعادت الزقة وقد خفت أصواتها، وكل من يصل إلى بيته يدلف إليه وامرأته تودع الموكب بزغرودة حب.

انقضـــى الفيضـــان الصيفي وجاءت مركب الكاشف وعليها مُركوس وزوج العَسْـكر وقـد فقدا أغلب أسنانهما وصار نظرهما كليلا.. ولم يفقدا عنجهيتما بعد. مُركوس بدوره صار ذا وجه هضيم وجسد يتحرك بمشقة ويكاد ينوء من ثقل عمامـــة خفيفة وجلباب رقيق. دخلوا بيت العمدة ومُركوس في حزن عميق، ذهب لحجـرة نُوري وجلس بجانبه حتى تنبه له نُوري وتبادلا الحوار القصير مع أدمع غزيــرة، ودّعــه وذهـب لنَبُرة وراضية مواسياً. مرض مُركوس واضح والحياة هربت من عينيه وسوف تهرب من جسده قريباً. ثم كانت جلسته مع مُهدي لتقدير الجباية سريعة واستطاع مُهدي أن يخفف من الجباية ويداري بعض المستحقات. وفـــي عودتـــه مـــع مُهدي والشيخ صَلاتو وآبدون، لم تكون الضحكات معهم، بل الحزن والصمت المخيمان عليهم. وخلال المسيرة على الركائب، اقترب منه مُهدي وقال له بصوت خفيض..

– لماذا تركتني أقلل من الجباية؟

– لأنني من مواسم عندما حاولت معي ذلك، سخرت منك وجعلتك تقرر على قبيلتك أكثر مما عليهم عقاباً لك. –هل علمت ذلك؟

– طبعاً.

–..

– وهذا الموسم خففت بمثلما أثقلت في ذلك الموسم. الديّان يغفر.

وقبل أن يصعد مُركوس على مركبه أبعد وجهه ثم مسح دمعتين. عاد ناظراً إليهم..

– ســيرحل نُــوري العمــدة، وأنا سوف ألحق به سريعاً، والكاشف سوف يرســل لكــم ابــني الكبير إبراهيم. لن أوصيكم عليه، فأنتم من أنتم. ولن أوصيه عليكم، فهو ولد طيب.

وعــاد الموسم الدراسي بعد صيفين حارين. سِسِّي صار عند الأطفال ذكرى تصـاحبهم كأنهـــا حلم. عادوا إلى حياتهم وخصوصياتهم وصراعاتهم ورغباتهم، لكــن بحــدّة أكــثر. سلاطين شاربه بدأ يظهر ولو على استحياء. أجساد الفتيات

الكـبيرات قاربت الاكتمال. أصر صَلاتو أن البنات الكبيرات يجب أن يستمروا في التعـليم هـذا الموسم أيضا وأكد إنه لن يأخذ أجراً من أهاليهن. هاشم الكيد أتعب الشـيخ رفضـاً أن تسـتمر ابنـته بجيوة ثم رضخ، لكنه أكد أن هذا الموسم هو الموسـم الأخير لها في هذا الكتّاب، وهكذا يقول للشيخ كل موسم. بقية العائلات وافقـت لأنـه طلب الشيخ وليس اقتناعاً بأن التعليم مفيد لبناتهن، البنات في ظن نـاس القرية يكفيهن بعض سور القرآن الكريم يصلين بها ولا ضرورة حتى لتعلم كيف تكتب تلك السور.

اضـطر الشيخ مع ازدياد الصغار الجدد أن يحدد مكاناً خاصاً بهم. ومكاناً آخـر للأكـبر قليلاً. ثم للجيل الأكبر مكانهم تحت سقيفة. لكنه رفض إلحاح هاشم الكيـد بـأن يجعل مكاناً للأولاد ومكاناً للبنات. ووقتاً لراحة الأولاد ووقتاً مخالفاً لراحة البنات كي لا يختلطوا.

بعـد صـلاة الظهر والغذاء الخفيف تكون الفُسحة. ومازالت هذه الفسحة أحـلى أوقـات الـتلاميذ بنين وبنات. مازال يجري فيها كل لعب الطفولة البريئة والألعـاب التي بدأت تتلوّن رويداً رويداً بأبخرة الغرائز المتحفزة. سلاطين نموه السـريع ومراهقته المبكرة، أتعبته وأتعبت كل من حوله من أطفال. أما الآن وقد كـبر سـلاطين وجيله على لعبة عريس وعروسه كحجة ساذجة لممارسة تشوق الطفولـة لهـذا الفعـل الغامض. فقد تركوها للأجيال الأصغر، ابتعدوا عنها. لكن سلاطين الذي تلاطمه إرهاصات الجنس من قبل موعدها، لم يترك هذه اللعبة، بل يمارسها كمراهق متعجل غير عابئ بما يتوارثه كل الأجيال.. عدم فعل العيب.

فُوزية إسْهاج التي تعشق صوت تاج وتحب إعجاب الناس المتزايد بفنه، مفطـورة عـلى حب المظاهر. أبدلت خزامها بخزام أكبر وقرطها بقرط أكبر، ولم تـنس أن تضـع قلادة ذهبية مدلاة من عنقها وهي التي لم تكتمل بعد. لم يرض سـلاطين بإعجاب فُوزية بتاج! فمن هو تاج حتى تُعجب به فُوزية؟ ثم إن فُوزية بليونـتها وطـرواتها وتأنقها، فُوزية بأنوثتها في كل لفتاتها وانعطافاتها، أخذت انتباهه. أكثر من مرّة حاول جذب أنظارها له. لم يفلح. الذي رصد رغبة سلاطين فـي فُوزية، هو بلال. ولمّا ترصّد سلاطين لفُوزية حتى انفرد بها رغماً عنها في ثـنية مـن ثنايا جانب الجبل المطل على الكتّاب، أخذها بالقوة في أحضانه وهي

تسبّه وهي تحاول التملص من ذراعيه دون جدوى. والذي أوقف سلاطين لم تكن قــوة فُوزيــة، بل وصول بلال وصوفاني وضربهما له بجريدتين. المفاجأة جعلته يبــتعد ســريعاً. ولمّــا فكر في مهاجمتهما.. خشي الفضيحة. فآثر الانسحاب والصــمت وكأن شيئاً لم يحدث. فُوزية لم تشكُ، أبلغت تاجاً فقط. هاج تاج عندما ســمع. ولمّا ذهب لمواجهة سلاطين لم يفعل إلا توجيه لوم له، وقوله إن فوزية تتــبعه هــو! فُوزيــة نسيت أن تبتسم لبلال وصوفاني شكراً لإنقاذهما لها. كانت ابتســامتها ابتســامة شماتة لسلاطين. ولم ينس سلاطين رغبته في فُوزية، ولم تنس فُوزية سفالة سلاطين ومحاولته إرغامها على الرضوخ له، لكنها نسيت أن بــلال كــان يحميهــا بمراقبته لتحركات سلاطين. تذكرت ذلك بعد مواسم طويلة، وتذكرت أن تاج كان أجبن من أن يتشاجر مع سلاطين لتعديه عليها. فكان تقاعس تــاج الحــالي وتقاعســه الآتي من أسباب تحطم إعجابها به، بل كان من أسباب احتقارها له وتوكيد إعجابها ببلال صَلاتو.

راضية التي تميل إلى معتوق أخوها في الرضاع، تعجب بحديث بلال الذي يتكــلم عن أشياء كثيرة يقرؤها في كتب جده وكتبه الخاصة. أسلوبه ساحر. يلقي أحيانــاً عــليهم أبياتاً من شعر عربي جميل وإن كانت لا تفهم مراميه كلها. بيت شعري واحد حوّره بلال ليلائم حال قريتهم فصار بيتاً مضحكاً، أحبته كثيراً خاصة بعد أن شرحه لها بلال، فصارت تسترجعه كثيراً بعدما شَبّوا وصاروا كباراً..

أحبها وتحبني ويحب أتانَها حماري

سلاطين القوي المتسلط ذو الشخصية الكاسحة، يفضل بجيوة بجسدها الذي أســرع هو الآخر في نموه. يُهمه الجسد ولا يبالي بعينيها الجميلتين ولا بشعرها المسترســل واضح النعومة. وهي تريده بشهوتها المبكرة وتريد احتكاره. تريد زوجــاً قويــاً يحميهــا من كونها ليست من أصول القبيلة. إلا أن كِسبانة تطمح وتطمع في منافستها خاصة بعد أن غرق سِسِّي. هي أطول من بجيوة وأفتح لوناً وصدرها الكبير تتعاجب به. ذلك الصدر الذي لا يتناسب مع عودها النحيل الذكري الــتكوين. فيــبدو صدرها كأنها استعارته من فتاة أخرى ريانة الجسد لتتباهى به قليلاً ثم تناست أن تعيده. لذلك تتعمد كِسبانة إظهار أعلى صدرها لسلاطين. ودائماً مــا تحــدث صويحباتهما عن أصل القبيلة وتفرع العائلات التي تحكي عنها أمها

تعويضة، قاصدة بذلك التهوين من بجيوة الصعيدية الزنجية. وحين يحرقها قلبها من بجيوة تتحدث عن جوش الولي الكبير الذي منع تجارة العبيد في القرية وحرم اقتـــناء أي عبد أو عبدة، في إشارة واضحة إلى جوليه أم بجيوة. وبجيوة تصمت غير قادرة على صد كِسبانة في هذه الأحاديث، إلا أنها تصر على احتكار سلاطين عندها، لإعجابها به من ناحية، ولتُفرغ كبتها من تحكّم أبيها من ناحية أخرى، ثم لــتحرق قــلب كِســبانةِ من ناحية ثالثة. وكما تتوقع البنات، فإن كفّة بجيوة لدى ســلاطين أرجـــح مـــن كفّـــة كِســبانة. بِجيوَة مع كل تركيزها على اللعب وعلى سلاطين.. إلا أنها تتناسى شعورها الرهيف الخَجِل كلما تقابلت وجهاً لوجه مع صـــوفاني، لا تفكـــر فيـــه أبداً كزوج ولا كحبيب في يوم ما، ولا هو فكّر فيها لا كزوجة ولا في جنس عابر ولا في أي شئ غير عادي. لكنها تخجل منه هو. هو فقــط. كـــثيراً مـــا يقـــول لهـــا بنظراته إن ما تفعله مع سلاطين عيب. يضربها الاضطراب، وحين تزيد من لهوها ويعلو صوتها وتلمح صوفاني، ينتابها الوجل.. تصمت. حتى إن حالتها هذه رصدتها زميلاتها. أحياناً تثور داخلياً على صوفاني، فمن هو؟ لا هو أخوها ولا هو من عائلتها وهي ليست لها عائلة!

بجيـــوة وإن كـــانت تعلم أن أنوثة ودلال فُوزية يلفتان انتباه سلاطين، إلا أنهـــا وكِســـبانة ســـوياً في قلبيهما رعب شديد مُتَربّع من الطفلة الصغيرة نحيلة الجســـد ذات الصـــدر الممســـوح كصـــدور الأولاد.. هُوشَة أخت كِسبانة. هُوشَة الـــرقيقة. إن ســـلاطين مســـتمر فـــي رعايتها. يعلن أنه معجب بغمازتيها اللتين تظهران وتختفيان في ناهية حدّي شفتيها خاصة عندما تبتسم خجلة. وكِسبانة ما زالـــت ســـاقطة بيـــن النقيضين.. حبها لأختها الصغرى وغيرتها الملتهبة منها. ســـلاطين لم يحاول أبداً أن يمد يده على جسد هُوشَة، وهذا ما يسعدها ويطمئنها، ليـــس لخوفها منه أو لأنه عيب، بل لأنها مرعوبة من أن يلمس أي بشر ذكر أو أنـــثى.. أن يـــلمس أو حتى تقع عيناه وهي بكامل ملابسها على ما بين فخذيها. موقعـــة خـــتانها لـــم تختف من ذاكرتها، وهاجت تلك الذكرى البشعة حين جاءها الحيـــض فبكت كثيراً وانهارت حين استخفت بها أمها وأختها، وبقيت في كل مرة تشمئز مما ينساب منها وتكره نفسها وتكره الدنيا في أيام حيضها حتى حين شبت وتزوجت وأنجبت.

فـــي ثــنـايا ســفح الجــبل، يلعبون. وكثيراً ما يفاجأ الأطفال في ركن ما بسلاطين وبجيوة معاً وأجزاء حسّاسة من جسديهما مكشوفة في أوضاع مخجلة. يجرون مبتعدين ويحكون لبعضهم لكن ما من أحد يجرؤ أن يحكي للكبار أو يشي بهما، سلاطين يرعبهم.

فـــي يــوم كان نقطة تحوّل للكتّاب ولا تنساه الأجيال التي عاصرته. أتى الشــيخ من راحته القصيرة. الأطفال صغاراً وكباراً يقفون صفوفاً حسب أعمارهم ليــتمم على تواجدهم الشيخ الحازم. يتبادلون نظرات وجلة. الشيخ وهو يتفحص تلاميذه اكتشف ببساطة غياب سلاطين وبجيوة. سأل فلم يجبه أحد.. الكل صامت. بعضـــهم يكره أن يكون واشياً، والكثير يهاب سلاطين.. سأل الشيخ مرّة أخرى. وقـــبل أن يطـــلب مـــنهم التفرق كل صف إلى مكانه رفعت كِسبانة يدها الطويلة وتكلمت حتى من قبل أن تأخذ الإذن وقبل أن يكبتها خوفها..

- في الجبل يلعبان عريس وعروسه.

بُهــت الشيخ. قول كِسبانة خطير. فلم يعد سلاطين طفلاً غريراً ولم تعد بجيــوة طفــلة ساذجة! وكِسبانة تكلمت علناً ويجب أن يتصرف فوراً. لو أخبرته ســراً لأخــذ وقــته في التفكير، لكنه الآن وكل التلاميذ يشاهدونه وينتظرون ما سيفعله وسيخبرون ذويهم، فما العمل؟

- أين هما؟

كِســبانة فـــي الأمـــام وخلفها الشيخ بخيزرانته، ويتبعهما الأطفال صغاراً وكــباراً فـــي توتــر وتشوّق لما سيكون. الشيخ يسب ويلعن بصوت عالٍ ليعطي فرصـــة للصــبيين أن يســتعدا لهجمته. الأطفال يصعدون بطن الجبل ويتخطون الفجــوات ويثبون على الصخور كالماعز وهم صامتون. اتفقوا بدون أن يصرحوا بذلــك.. لندع الشيخ يكتشفهما ولنر ما سيكون. الشيخ يخشى على بجيوة بنت هاشم الكيد أكثر من أي فتاة أخرى. يعلم نَفَس الصعيدي التي تتأذى ولا تغفر أبداً أي مساس بالأنثى. يفكر وهو يصعد..

- كيـــف سيكون العقاب في حالة إمساكهما متلبسين؟ وكيف سيحاول عمل حوار مع المتهمين في حالة رؤيتهما في موقف عادي؟ حوار يبعد الشبهة عنهما

ويـــريح الصـــعيدي فيخـــف من الأذى الذي سيحترق به. أمّا بينه وبين سلاطين وبجيوة، سيكون له موقف حازم حاسم.

كِســـبانة أشـــارت إلى المخـــبأ. صخرة ناتئة أمامها ممر ضيق يصل إلى مـــنخفض يشـــبه فجوة خفيّة لا يتبينها أحد إلا إن اقترب منها. مخبأ يصلح للعب الأطفال. سلاطين وبجيوة كانا قد سمعا صوت الشيخ، خرجا من الفجوة يهرولان في اضطراب واجتازا الممر، وقبل أن يصعدا حيث الصخرة الساترة، كان فوقهما الشـــيخ الغاضـــب وخلفه كِسبانة تبتسم في شماتة. قفز الشيخ عندهما. سلاطين وقف ثابتاً واثقاً ليدعي أن ليس في الأمر شئ مريب، لكنه بهت حين وجد بجيوة المـــنهارة نسيت أن تغطي ما كان عارياً! أدخلت بجيوة نهدها العاري داخل ثوبها والخيـــزرانة تهـــبط فـــي قسوة على جانب مؤخرتها. صرخت وهي تقفز هاربة. سلاطين كبرياؤه منعه من الهرب. الخيزرانة تهوي عليه بقسوة. الأطفال كلهم من أعلى منتشرون يراقبون. الخيزرانة تلهبه والأعين تلهبه بالمشاهدة والشفاه تهينه بالابتســـام والرضـــاء. ذكـــرى ضـــرب العمدة له انتفضت في نفسه. الغضب من الإهانـــات الـــتي تشـــبّع بها يثور داخله. اتجه في هدوء ليبتعد. جذبه الشيخ من ملابســـه. الشيخ يريد القسوة عليه علناً ليهدئ من ردود أفعال ناس القرية، ليعلم هاشـــم الكيـــد أن الشـــيخ أخذ حقه علناً لتبرد نيران هياجه الذي سيثور حتماً ، وليـــرهب الأطفال الذين يشاهدون فلا يفكر أحدهم في تكرار ما كان. جذبة الشيخ أطاحت بأعصاب سلاطين وبكبريائه فدفع الشيخ بيده فأرتطم ظهر الشيخ بالصخرة ولحقـــت بهـــا رأســـه. خرّ الشيخ متهدلاً ليتكوّم داخل الحفرة وهو يقول بصوت يتخاذل..

– أه، يا شبيه خالك.

ثم صمت.

بـــلال وثب عنده يرفع رأسه. يناديه. يناديه ويربت على خديّه. وعندما تَـــنفس الشـــيخ واطمـــأن بلال أنه حي. ترك جده في رعاية صوفاني ومصطفى ليطارد سلاطين.

بـــلال يجـــري مخترقاً نجع نجيبيّة وبعض من ناس النجع يتقاطرون إلى أســـفل الجبل حيث الشيخ مازال في إغمائه. لحق بلال بسلاطين قبل نهاية جسر

خـور الـبحر. اشـتبكا فـي معركة. غضَبْ بلال وحماسته مكّناه وأعطياه القوة لمقاومـة كتـلة جسد سلاطين الذي سرى فيه الخوف من فعلته المزدوجة.. مع بجيوَة والشيخ، ورعبه أن يُصاب الشيخ بضرر بالغ. المعركة أخذته وبدأ يسيطر عـلى جسد بلال. شلة سلاطين على الجسر خلفهما يشجعون زعيمهم. بلال سقط عـلى الجسـر. سلاطين فوقه يحاول أن يلقيه لأسفل. معتوق يشق الزحام. فيّاج حـاول أن يحجزه بجسده الطويل، فدفعه معتوق واضطره للقفز من أعلى الجسر. بـلال يكـاد أن يسقط وسلاطين يداه تعركان بلال، ويجز على أسنانه يركز قواه وومضـات مـن ابتسامة نشوة قرب انتصاره، صرخ معتوق صرخة ليس لها أي معـنى، رفـع سـلاطين رأسه ناظراً في نفس لحظة ارتطام قبضة معتوق بأعلى رأسـه، فانهار جسد سلاطين مغشياً عليه، لما أفاق أخذه زملاؤه إلى بيته وأولوا من خلفهم يسب ويلعن عبدهم اللقيط معتوق.

الشيخ جرحه بسيط. نام وقد ابيّض لونه قليلاً في شحوب يقلق.

العمدة منهار ولا حاكم يحكم القرية، لذا كل جانب يستعرض قوته بمبالغة. رجـال نجيبيّة وبعض نسائها، ذهبوا إلى نجع أورّك حيث العمدة وبيت أثمان والد سـلاطين لينهوا مع العمدة الموضوع ويأخذوا حقهم. وقبلها يجب أن يلعنوا كبار عائـلة سلاطين. أثمان حمل سيفاً صدئاً لتهديد رجال نجيبيّة وتهديد آبدون حامي حـمى معـتوق الخير. عدد من عائلة الهمَراب أخوال سلاطين أمسكوا بالكرابيج لـلدفاع عـن سلاطين وغرضهم أن يقولوا للقبيلة.. نحن مازلنا عائلة قوية ولم تكسرنا أحداث مقتل همَرين. يتزعم الهمَراب ابن عم همَرين حاملاً بندقيته التي لا تطـلق رصاصـاً ولا رملاً. مازال مغتاظاً لضياع حلم ضاع بموت همَرين. آبدون يمسـك بكرباجه في يمينه وعلى كتفه علّق البندقية، ليس ضد نجيبيّة وليس ضد أثمـان، أثمـان أطيـب من أن يتشاجر ولم يتشاجر أصلاً من قبل. حتى إن قرر الشـجار، فلن يقاتل زوج شقيقته حفيد جوش الولي. آبدون يريد تعريف الجميع اسـتعداده لـلدفاع عن معتوق الخير. أما البندقية فهي رمز ولم تُستخدم أبداً ضد إنسـان. لـم يعـد الإشـكال إشكال صبي صغير وصبية فعلا أمراً يكاد أن يكون صـبيانيا، تحـوّل الأمر إلى إشكال قبلي. العائلات وكبرياؤها وعنجهيتها. تحوّل الأمر إلى قضية جاهلية. لا يهم من المخطئ ومن المصيب. لا يهم أن الحق يجب

أن يقـــال ويُســـاند. ورغم أن الرجال هم من يتصدرون بتكشير الأنياب والتلويح بالكـــرابيج وتعليق البنادق، إلا أن النساء هن المحرضات، هن جذوات النار التي تُشـــعل ألسنة وعضلات الرجال. وهن الملتهبات أكثر بكرامة العائلة، والصارخات أن انصروا ابن العائلة ظالماً أو مظلوماً.

الجميـــع في مضيفة العمدة. زلزلة أخرى في أساسها القبلي. صياح وتهديد ووعيـــد. ثـــم هدوء بعد أن بيّنت كل عائلة من العائلات التي تمس القضية فرداً مـــنها، إنهـــا ذات كـــرامة وثقل، وإنها لن تتخلى عن فردها هذا. لم يكن جوهر الإشكال الجنسي في عقل ولا نفْس أحدهم! لا تشغلهم هذه الأمور التي هي ضعف إنســـاني خاصـــة لو كانت من صغار، لكن يفجعهم ضرب الصغير للكبير، والعلاج تَهديدُ للصغار وازورار عنهم لوقت بسيط فيرعووا.

العمدة في صدر المضيفة على الكنبة الرئيسية وقد أخذ جسده مكان ثلاثة رجـــال سمان. قبل أن يدخل عليهم كان قد قضى على أوزة كاملة مطبوخة وابتلع بضـــعة أرغفة وثلاث ربطات من الفجل والبصل الأخضر وشرب صحناً من الويكة وارتوى بكوز كركاديه، وبجانبه الآن طبق خوص مليء بالبلح يأخذ منه بالاثنين ويلقيهما في فمه، يخزنهما على جانب الفم فيتضخم الخد للخارج كأنه وَرَم كبير، يـــلوك واحـــدة بعد أخرى ويلفظ النواة بصقاً وبذلك يوفر على نفسه كثرة تحريك اليد، يرتدي سروالاً شديد الاتساع وقميصاً خفيفاً. منذ حادث غرق سِسِّي تضاعف شـــحمه. يجـــلس مـــتربعاً يداه على فخذيه والعرق يسيل من تحت عمامته ومن الجـــبهة والجـــبين، ثـــم يسيل على خديه وطيات العنق، كل خلية تضخ. القميص والســـروال التصـــقا بجســـده. صـــوت تنفسه متحشرج وعيناه ناعستان تريدان الإغفـــاء. في داخله يلعن سلاطين وناس القرية كلهم. النعاس رزح على يافوخه. ســـلوته لا يجدها إلا في الطعام الطعام، والنوم النوم النوم. ولولا أن داخله مملوء بكبرياء كونه عمدة ابن عمدة، لأغرق نفسه في طست من خمر العرقي كل يـــوم لينســـى مـــنظر سِسِّي الغريق وهيأته المتخشّبه وبطنه المنفوخة والرعب المتجسّد في قسمات وجهه.

ولمـــا سال لعابه وخيم عليه النعاس تماماً، قام إليه آبدون وثلاثة رجال. أوقفوه وساروا به يسندونه بصعوبة يدخلونه إلى البيت لينام.

مُهــدي الأصفر وإسْهاج النجار وعدد من رجال كل عائلة، لعبوا دور من يوفق الأمور ويضع الحلول الوسط. مع صيحات من يونس المجبّراتي بأن القرية كلها قبيلة واحدة وأصلها الشامخ أصل واحد، وأن كل فرع فيها يجب أن ينال حقه وتحفظ له هيبته.

قــاربوا عــلى الاتفاق، يعتذر سلاطين وأبوه أثمان كُورنة للشيخ. أثمان وافق على أن يعتذر هو بالأصالة عن نفسه ونيابة عن ابنه. يقسم أيمانات مغلظة إن ابــنه نائم يهلوس من ضربة معتوق. ثم عَرَجوا على أصل الإشكال وتحادثوا فيــه غاضبين من العيب الذي لا يجب أن يفعله أولادهم وبناتهم. وأنه يجب تهديد الفاعلين وتعنفيهما ومقاطعتهما على الأقل زمن مرور قمر كامل. ثم ينتهوا بقرار يمنع الفتيات البالغات من الذهاب إلى الكتّاب، فمن يقتنع بأن الفتيات لهن مصلحة في قراءة وكتابة؟

فــي سخونتهم القبلية واستعراض كل عائلة لقواها نسوا هاشم الصعيدي، لم يتذكروه إلا في تلك اللحظات الأخيرة، عندما ذُكِر اسم بجيوة عدّة مرّات بصفتها من شاركت في الخطأ الصغير الذي تسبب في سلسلة توابع كُبرَى!

سأل سائل..

– أين هاشم؟

ضرب آبدون بيده على أم عمامته..

– آخ، الصعيدي. لن يترك بجيوة.

المغرب يتعجل الوصول والشمس تنزلق وتقترب من الاختفاء خلف الجبل الغــربي الرابض حيث ظَهْر القرية. هاشم يخرج من باب بيته. يتعكّز على نبّوته الغــليظ. يسير الهوينى إلى المسجد. قرّر أنه يجب ضرب بجيوة، تمادت في لعبها ولهوهــا. لم تأت من الكتّاب حتى الآن! ربما ذهبت إلى نجع المنحنى حيث خيشة وحفيدتها بَهيتة. لكن.. لا. كان يجب أن تستأذنه فلا يأذن لها. ربما هناك يلامسها مصــطفى. أو غيــر مصــطفى. قطع شروده ملاحظته أن سَيّدات قابلنه وتعمدن الابتعاد عنه. ثم إن الرجال اختفوا! يعرج على نبّوته الطويل. رغم أنه في بدايات العقــد الخامس، فمازال قوياً، ولولاً سوء حال ساقه نتيجة للكسر القديم لكان في فتوّة رجل في الثلاثين.

حـــاولت بعـــض النســـوة إيقاف تَعويضة لِسانين، إلا أنها صمّمت بعد أن ملأتهـــا كِســـبانة غيظاً بحكاياتها ومبالغاتها عن بجيوة التي كادت أن تأخذ منها سِنِّـــي من قبل، ثم الآن أبعدت عنها سلاطين. اعترضت تَعويضة سير الصعيدي. وقفـــت أمامـــه فأوقفته. أبلغته بصوتها العالي وكأنها تحكي للنسوة اللاتي وقفن بعيداً يستمعن مشفقات. إحداهن حاولت الإمساك بها وأخذها بعيداً عن الكيد. لكن يـــدي تَعويضة أبعدتاها في قسوة. أبلغت الكيد بما فعلته ابنته بجيوة مع سلاطين. تحكـــي وهـــي تجسّد ما كان بتلوين الصوت وتحريك الجسد. الأعرج يستند على نبوّته الثقيل ويقف مبهوتاً وأم لِسانين لا تهدأ ولا ترحم. تصوّر له كيف كان ثدي ابنـــته مكشوفاً لسلاطين وذيل جلبابها مشلوحاً لفوق منتصفها. الأعرج الجلمودي وجهـــه النحاسي تلوّن بحُمرة الدم وشفتاه ترتعشان. غضون وجهه تزداد التصاقاً ببعضـــها. أبعـــد وجهه بعيداً عن المرأة فالتفتت لتواجهه ولسانها لا يتوقف عن الطعـــن في أوهى نقاط الصعيدي.. في مقتله. في قدس أقداسه. تستمر في الحكي ولعـــن ابنـــته. أشاح عنها ممتعضاً. لا تعلم أم لِسانين بالجحيم الذي أشعلته داخل جوفه. جحيم يستجد وينكّب على بركان قديم لم تهدأ حممه بعد ولن تهدأ. وأنّى له أن يهـــدأ الآن وقـــد استجدت حمم طازجة ثائرة تنقذف من الجوف لتندفع في كل خـــليّة من خلايا الكهل الأعرج؟ يدور حول نفسه.. لا يريد أن يصدق أن الكابوس الدمـــوي القديـــم عـــاد إليه في ابنته. ويله، ويله من تلك الحُمم. ويله من ذكرى دموية لم ولن ترحمه. يُشيح عن أم لِسانين وكأنه بذلك سيهرب من بؤرة الجحيم الجديـــد الذي ينفجر في وجهه، وبؤرة الجحيم داخله هو. يشيح عنها فتلتف إليه. صوتها العالي لا تسمعه النسوة القريبات فقط، في قلب وعقل هاشم الكيد. القرية كلها تسمعه.. بل قريته التي هجرها دون عودة في الصعيد البعيد تسمعه وتشمت فيـــه. تشمت فيه وتتذكر ما كان من بهيّة ومن تحطيمه لرأسها! الدنيا كلها تسمع فضيحة ابنته بصوت ولِسان أم لِسانين.

لـــم تهمـــد أم لِســـانين إلا بعـــد أن أخذتها إحداهن بقسوة من ضفائرها. وجذبـــتها النســـوة من ذراعيها مبتعدات بها خطوات. أفاقت تَعويضة من الحالة التشخيصية المغلولة التي استغرقتها. رأت الدموع وسمعت نهنئة الرجل التي تعلم ويعـــلم ناســـها كم هو صنديد جبار لم يتبد ضعفه مطلقاً أمام مخلوق من القرية.

بهــتت. ترتد بعيداً بظهرها لا تعي السباب الذي تكيله النساء لها ولبذاءتها. ولمّا رأتــه يــبرك على الرمال مستنداً على نبّوته ورأسه منكسرة، اندفعت قبل غيرها لتساعده فدفعها وأسقطها. النساء يساعدنه ليستكمل خطواته إلى داره. سار معهن عجــوزاً محطماً متهدلاً دموعه تهطل في ذهول. أدرك الآن لماذا تحاشاه عدد من الــناس. لاحظ أن أمراً حدث، ظنه أمر قبلي لا يريدون إشراكه فيه وهو الغريب. ســرعان ما ترك هذا التفكير، البلاء الذي حط عليه ناره هي التي تكويه، جحيمه هــي الــتي تشويه فلا جزء من العقل خالٍ ليفكر في تفاهات ولا جانب من نفس مسترخية لتعطي اهتماما لترهات لا تساوي. وما كدن يدخلن به البيت حتى نادى بصوت واهن باك..

- بَهيّة.. بَهيّة.

قــلن له أن بجيوة ليست بالدار، لكنه يسأل عن بَهيّة! أي بَهيّة؟ أجلسنه عــلى حصــير في الحوش. يدمع في هدوء. يتذكر صورة فتاة بيضاء جميلة ذات رأس يتحطم. قال للمرأة على يمينه..

- كنت أنا على حق. قتلها رحمة قبل أن تخرج ثديها وتشلّح ذيل جلبابها. ســأحطم رأسها مرّة أخرى. آه لو كانوا رجالاً بحق. لو يفهموا العار كما فهمته. كنت على حق. طبعاً.. قتل بَهيّة شرع.. قتل بهيّة شرع وواجب. النار ولا العار يا ناس. النار ولا العار يا بووي.

النســوة يــنظرن لبعضــهن. أرسلن فتاة لتخبر الرجال بالحضور فوراً. يخشين الصعيدي ويعلمن قوته. ذهوله وهلوسته أرخيا جسده.

هبّ واقفاً وهو يرفع نبوته. جأر..

- بجــ يــ يــ وة.

نفضهن من حوله فانتثرن كأنهن دجاجات مذعورة. يعرج خارجاً من الدار وهو ينادي..

- بجــ يــ يــ وة.

عاد الكهل المُحَطّم ليكون هاشم الحَجَري.. هاشم الكيد.

الشمس خلف الجبل تذهب لغروبها غير آبهة، تكسو جانب السماء فوقها ببدايات الحُمْرة الخفيفة. هاشم يخترق النجع هابطاً يهرول ونبوته لا يتكئ عليه.. عـاد نـبوته في يده إلى مهمته الحقيقية، نبوت قتال وقتل. تخونه ساقه فيسقط ليقـف ويهرول مرّة ثانية وثالثة ورابعة. يتخطى جانب النجع ويهبط علوها إلى الحقول الداكنة غامضة المظهر.

بجيوة في حديقة الموالح. في رعب من أبيها. سمعت صدى نداءاته لها فركـبها رعـب مضـاعف. حتى فاجأها وقع أقدامه تجوس بالقرب منها. أشجار الـبرتقال حيث تختبئ هي كثيفة. كتمت نشيجها مبتعدة عن مصدر الصوت. حدّد أبوهـا مكانها عندما انكسر تحتها غصن رفيع جاف. يحاصرها حتى لمح شبحها. تفلت منه لعرجته التي تعوقه. زعق فيها..

– بجيوة. بجيوة. قفي.

– أنا لم أفعل شيئاً. كذابون.

– قفـي.. سأريحك كما أرحت بَهيّة. ستلحقين بعَمّتِك. قفي لأغسل عارنا يا بنت.

تبتعد عنه. يحاول أن يسرع فيقع. يقوم ومازال يلهث من عدوه الطويل. يأمرها بالتوقف.

– قفـي. لن أتركك تعيشين. قتلك واجب يا بنت الكلب. أتركك ويقول عني ناس القرية.. الصعايدة ليسوا رجالاً ولا عندهم نخوة؟ لا، لا. نحن لسنا مثلهم يا بنت. لسنا مثلهم معدومي الغيرة. معدومي الإحساس. لا، لا.

– لم أفعل شيئاً با. خيشة. أرسلت إليها. ستشرح لك.

– لسنا مثلهم لا نعرف العار ولا نعرف الخجل. لسنا مثلهم وأنا هاشم الكيد لن أكون مثلهم.

– با، أنا مظلومة «كنّا نتحاكى فقط «سيتزوجني. كِسبانة كاذبة. تغار مني.

- اقـتربي يا بَهيّة. جزاؤك ضربة نبّوت واحدة. إنها نفس النّبوت يا بنت. ذقتيها مرّة من قبل، لكنك خرجت لي من القبر لتأخذي الثانية وسأعيدك إلى القبر للمرّة الأخيرة،

- يا، حرام عليك. أنا مظلومة.

عـرجة الكيد المزمنة، وكثافة الأشجار التي تحاوره بينها كثيفة، وما في الأرض من أغصان صغيرة ونتوءات طين تعرقله وهو يريد أن يسرع. يستند على جذوع الأشجار وعلى نبّوته المخيف.

- لمـاذا يـا رب كُـتِب عليّ أن أقتل اختي مرتين؟ قفي يا بنت لتستريحي وأستريح. آه. أين أنتَ يا سلامة؟ أين أنتَ؟ قفي يا بنت الفرطوس. لعنة الله على خلفة البنات. بجيوة. قفي.

أشـواك تنغرس في ركبته المصابة. يتساند. وبجيوة ما تزال تراوغه في كـثافة الأشجار فلا يطولها. حتى لحق به الرجال. حاولوا إمساكه، لكن الصعيدي الشـرس أطاح بهم. هددهم بنبّوته. حتى وثب عليه شاب من الخلف فلم تتحمله ساقه المصابة فسقط أرضاً على وجهه.

- يـا أولاد الكلاب. قبر يأكلكم يا عار الرجال. يا أولاد الخنازير يا عديمي الغيرة. بَهيّة قتلها حلال. قتلها حلال. اتركوني يا ناس.

وجهه فوق التراب والرجال فوقه. يزحزحهم يمنةً ويسرة. وحش جريح. يزفر أصواتاً جهورية صارخة..

- بَهيّة قتلها حلال. بَهيّة ابنتي قتلها حلال. أمي.. أمي لا تنظري إلى هكذا! أنا حَميتها من الفضيحة وحَميت نفسي يا أمي.. أمي.. سامحيني يا أمي.

خَمَدَ جسده. صوته تغير فصار ضعيفاً مشوهاً غير مفهوم. قاموا من فوقه. سـاكِن إلا مـن انتفاضات ضعيفة عاجزة. اعدلوه على ظهره برفق. كان أول ما أعلن شلله.. فمه المعوج.

كُـتِب عليه من ساعتها أن يبقى رهين سريره الجريدي وحوش بيته بقية عمـره. أصـبح ضعيفاً من بعد قوة لتتحكم فيه بجيوة. أبعدت عنه نبّوته. أبدلته بجـريدة خضراء طويلة. ويوم أوقع نفسه من السرير وزحف في تحد خارق إلى

الحوش يسبح في رماله بذراع واحدة تحتفظ بشيء من قوتها، يَسِف الرمال ويبح كالثعـــبان والدجاج يسير فوقه وحوله ويلقي عليه فضلاته في إهمال،حتى وصل إلى غــرفة المطـــبخ. دفـــع الـــباب. زحف للداخل. يرتكز على الحائط بيده شبه الســليمة. اســـتند عـــلى رف خشبي. رفع يده على امتدادها فاختل توازنه. سقط أرضـــاً وفوقـــه الرف بحاجياته. أتت بجيوة ،رأته ينظر للسكين الساقطة على بعد ذراعيـــن منه. انكمش في نفسه ثم دفع جذعه ويده السليمة كالياي لينبطح على الرمال بكامل امتداده فوصلت أصابعه على بعد شبر من السكين. يزوم. سبقته قدم بجيوة وركلت السكين بعيداً. أمسكت بأبيها لتعيده. بيده شبه السليمة قبض على حـــنجرتها يخنقها وهو يدمدم. ابتعدت عنه مجرد خطوة فاختل توازنه مرّة أخرى ليسقط على الأرض كجذع شجرة. صرخت فيه أن يهمد ويخمد، ثم ساعدته ليعود إلى محبســـه.. ســـريره. فعاد منهاراً باكياً كطفل لا حول له ولاقوة. أغلقت عليه الـــباب مـــن الخارج حتى يهدأ. تأتيه بالطعام والشراب. يأكل بعد أن تذهب بعيداً عنه وبعد أن يقرصه الجوع ويعذبه العطش. تتركه يذهب لقضاء حاجته ويعود في خطـــوات مرتعشـــة ضعيفة مسحوقة، وهي تراقبه جيداً إن حاول القيام بأي أمر طـــائش. استسلم. كل ما فيه خائر مذلول سوى عينين لم تفقدا صلابة الجرانيت. أمله الباقي في رجوع ابنه الوحيد سلامة ليغسل عارهما ويقتل بَهيّة.

حكاية هاشم الكيد

مــن مواســم عــدّة مضــت، بعد عودة أثمان كُورنة مباشرة من هجرته الجــنوبية. الكيد في حديقته يرقب أشجار البرتقال والليمون، ثم جلس في الخص البســيط الذي يشرف على الحديقة من ناحية النهر. استرعى انتباهه وقع حوافر دواب مســرعة تقــترب منه وصوت أثمان يناديه. توقفت الركائب أمامه. وبقفزة ســريعة مــن عــلى ظهر الحمار كان واقفاً أمامه. ذهل هاشم. سقط منه نبّوته وارتمى في حضن ابنه العائد. يضرب على ظهره ويدفن وجهه في عنق ابنه الذي صار يماثله طولاً وعرضاً..

- سلامة. سلامة. ولدي سلامة.

أبعده عنه وهو يمسك بذراعيه القويتين. يتمعن في الوجه الأبيض المتشرّب بالحُمرة النحاسية. صورة منه. تماماً هاشم منذ سنوات بعيدة، عدا تأثير الشمس القاســية الــتي فرشــت غلالة خفيفة من السّمار على الوجه الصبوح. لا يسمع تهنئات من حوله بسلامة وصول سلامة.

- سلامة. حمد الله على السلامة يا بني.
- أوحشتني با.
- سنين بعيد عني. لكن..

أخذه في أحضانه. لاحظ سلامة أن أباه لم يعد الرجل المرعب القاسي، لم يعــد هاشــم الكيــد حقاً. رقّ وشفّ حتى إنه يكاد يبكي. يمسك دموعه بصعوبة. سمعوا صوت بجيوة وهي تأتي من بين أشجار الموالح مهرولة تنادي..

- سلامة.. سلامة.

صــبية سوداء جميلة سمينة، شعرها الناعم ضفيرتان تتواثبان مرحاً على ظهــرها وثديان برتقالتان ترتعشان فرحاً على صدرها. قذفت بجسدها الثقيل على ســلامة فلم يرتج عود سلامة الصلب وهو يتلقى أخته في أحضانه. بجيوة تعلقت

بعـــنق أخيهـــا الطويل، لا تريد أن تتركه، والناس حولهما يبتسمون فرحاً، أفاقوا على صرخة هاشم الكيد..

- بجيوة. بنت! كفى.

ابـــتعدت عـــن أخيهـــا الذي ابتسم. أبوه هاشم الكيد لم يتغير كثيراً، حتى حضن ابنته لأخيها غير مقبول عنده.

- اذهـــبي وأعدي القدور. سأذبح الذبائح كرامة وصول سلامة. بسرعة يا بنت.

ابـــتعدت بجيوة وهي تتلفت لتتملى من أخيها الوسيم. هاشم يتقبل التهاني بوجه جامد بعد أن أفاق من المفاجأة. نظر لابنه نظرته القديمة..

- أحضر ركوبتي من الخص.

- حاضر با.

أسرع سلامة. أثمان مال على صديقه الصعيدي لائماً..

- يـــا رجل، ابنك عاد إليك رجلاً لا يقل عنك رجولة، لا تعامله هكذا،مواسم طويلة لم تره.

- أثمـــان، ابـــني لـــو سَـــقطت كل أسنانه وأبيض شعره كله وجلس حوله أحفاده،هو ابني، آمره فيلبي، فوراً، هكذا نحن.. لا نعرف الدلع الماسخ مثلكم، ولا تذيبنا النعومة التي تبللكم فتصير رجالكم كما النساء ونساءكم كما الأرانب الوليدة.

أثمان يضحك ويضرب كفاً بكف والصعيدي غلالة حزن مرت على وجهه، ثم تلتها بوادر غضب..

- ثـــم لا تـــنس أنـــه هرب مني.. وبدون إذني، هل أضحك له وأهش وأبش؟ كان واجب عليّ أن أقابله بضربة نبّوت تكسر له رأسه ليتأدب ويعلم مكانة الأب.

- هاها، الله يخرب بيت الصعايدة.

- لكن.. لا أعلم كيف نسيت هذا وأخذته في أحضاني! قريتكم هذه تقلل من رجولة الرجال.

- هاها.

- طبعكم وعاداتكم.. شئ مخجل.

زاد أثمان من ضحكه حتى كاد الصعيدي أن يترك بدايات غضبه ويضحك مع صديقه ضئيل الجسم الذي راح يلعنه ويلعن ناسه الصعايدة وهو يضرب بقبضته الضعيفة على كتف هاشم الكيد في حب. هاشم أخفى ابتسامته مازالت عالقة في شفتيه حتى لا يراها ابنه الذي يقترب بالركوبة. حاول سلامة مساعدة أبيه على امتطاء دابته. فأبعد هاشم يد ابنه في خشونة وصعد وحده ثم نظر إليه وأشار إلى نبّوته. أحضره له ابنه. وهو يلكز حمارته مبتعداً..

– معك متاع؟

– على المرسَى.

– اذهب وأحضره. ثم الحق بي في الدار.

ابتعد عنهما. أثمان وضع يده على كتف سلامة العالي ضاحكاً وهو يتابع ابتعاد حمار الكيد..

– أبوك، هذا الكيد الذي لا يلين. لك حق تهرب منه وأنت صغير. لو كنت مكانك لهربت منه من قبل أن أولد.. لكن لماذا يا سلامة عدت إليه؟ لو كنت مكانك لما عدت إليه! لكنك أبله مثل أبيك الكيد.

– هاها. أنت أقرب أصدقائه.

– قضاء وقدر. أنا حمار وأبوك جحش. لذلك نحب بعضنا. هاها.

احتضن سلامة جسد أثمان في شوق. ثم تركه ليمسح دموعه. فأخذ أثمان يمسح دموعه هو الآخر ويقول..

– الله يخرب بيتكم. صعايدة نكد. اسمع.. اذهب أنت إليه بركوبتي وسأرسل صبياً بمتاعك إلى البيت.

- لا يا عم أثمان ،أمرني با ، وإن لم أنفذ كلامه بالحرف، أنت تعرف!

لم ينتظر ناس القرية حلول المساء لحضور وليمة حفل الكرامة لتهنئة هاشم الكيد. تقاطروا على الدار.

وبعد صلاة العشاء امتلأت دار الصعيدي تماماً. رجال، نساء، أطفال. الكل يهنيء الكيد سعداء بسعادته. النساء يزغردن وهن مقبلات حاملات أزواجاً من الحمام والدجاج. بعضهن يحمل أقماع السكر. العجوز خيشة أتت على حمارتها

ومعها مصطفى وبخيتة وزمبيل مملوء بما تشارك به في الكرامة. لم تترك سلامة من حضنها بالساهل.. يناجيها..

- خيشة.. خيشة.. أمي.

ثم بدأ الإنشاد الديني، وبدأت أسراب من نساء نجعي نجيبيّة والمنحنى في العـودة إلى دورهـن بالأطفـال. ويدخل الليل العميق لتهدأ الجموع وتتفرق كلها سـعيدة إلى بيوتها بسعادة هاشم الكيد الذي أصبح منهم وعليهم. ويعتبرونه من أعمدة قريتهم ومن أهم رجالها.

خلت الدار الواسعة إلا من الأب وابنه العائد. في غرفة الديواني جالسون. بجيـوة الممتلـئة بالحيوية مع خيشة وعدد قليل من النساء يرفعن وينظفن بقايا فوضى الوليمة. تنسحب بقية النساء مرسلات الأغاريد الأخيرة في الحفل. خيشة تعـود إلى غـرفة الديواني. تبارك لهاشم وتقبّل سلامة. تعتذر بأنها عجوز هدّها التعب ويجب أن تنام. تذهب للغرفة التي أرقدت فيها مصطفى وبهيتة لتنام معهما. أتـت بجيـوة إلى أبيها تحمل بيد الشيشة ذات الإناء المعدني والبوصة الممتدة، وبـاليد الأخرى كيس مليء بالدخان، ثم تأتي بمجمرة كبيرة بها كمية من قوالح الذرة تحولت إلى جمرات نار صهباء والنار الخفيفة تتراقص منبعثة منها. أبوها على كنبة وسلامة على كنبة مجاورة له. حتى الآن لم تأت سلامة الجرأة ليجلس بجـوار أبيه. جلَسَتْ بجيوة بجوار أخيها ممسكة بذراعه تبتسم له، رغم إرهاقها تتعشم في السهر معهما. لكن أباها نظر إليها غاضباً فقامت وتركتهما..

- تصبحان على خير.

ذهبت لتنام. سلامة ما زال يهاب أباه. نظر إليه أبوه عابساً..

- ولد. اهبط نجلس على الأرض.

هـبطا واستقرا جالسين على الحصير. الأب يعد الجوزة وبدأ يزفر الدخان الكثيف. سأل ابنه..

- لماذا هربت؟

-..

- لماذا هربت؟

- كنت طفلاً.

- همم.

-..

- ستبقى؟

-..

- أجب يا ولد؟ ستبقى معي؟

- با. عندي ولدان وأمهما هناك.

كأنه مشغول بتغيير القوالح المشتعلة لكنه يداري عواصف هبّت في جوفه. عواصف متباينة متعارضة. فرح بالحفيدين اللذين لم يرهما. سعيد بأنهما أولاد ذكور وليسا إناثاً. لكنه غاضب من زواج ابنه الوحيد بدون أن يستشيره وبدون أن يحضر عُرسه ليطلق الأعيرة النارية ابتهاجاً ويلتف حوله ناس القرية يهنئون. غاضب أن ابنه لن يقيم معه. سيتركه كما هو، فرداً ليس له عزوة.

- با. أرضي هناك. أخوال أولادي عائلة قوية.

-..

- با. سامحني با.

- إذن كُتب على أن أعيش وحيداً حتى الموت.

- وبجيوة؟

- بنت!

- تعال معي أنت وبجيوة.

-..

- لا تغضب با.

- شبعت غربة يا سلامة. بنيت نفسي وشيدت مكانتي في هذه القرية. عمّرت أرضاً بوراً وتزوجت هنا. وسأدفن هنا. في الجبانة التي أخذت أمك. أنا لا أذهب حيث ابني. ابني يأتي إليّ هنا.

- وأولادي؟!

- ائت بهم. حديقتي وثمارها ونخلي يكفينا كلنا. ثم بوجودك أستطيع أن استصلح أرضاً شاسعة.

- لا أستطيع.. زوجتي. أخوال أولادي.. أرضي.. عزوتي أصبحت هناك.
- آه.

يُدخّــن.. يُدخّن. رأس سلامة محنية يراقب خطوط الحصير الملوّنة الذي يجلسان عليه. رفع رأسه..

- بـــا. لا يا با. هاشم الصعيدي لا يبكي. الكيد لا يبكي با. لا تحمّلني وزر دموعك.

لم يجبه هاشم. توقفت دموعه. يدخن ويعمّر قُمع الطين المحروق بالدخان المخـــلوط بالـــبانجو ويثـــبّت بالملقاط المعدني الجمرات. يسحب الدخان فتتوهج الجمـــرات وينفلت الدخان الأزرق الكثيف من رأس الجوزة ومن فم الكيد. تنتشر رائحـــة النـــبات المخدّر حوله. هدأت أعصابه قليلاً واسترخت. ترك الجوزة. قام ســـلامة وحمـــل كل شئ بعيداً ثم عاد للجلوس صاغراً على بعد خطوات من أبيه. صمت متوتر.

- سلامة.. لماذا لا تقترب مني؟

يقترب سلامة وقد وصله دفء قلب أبيه.

- سألتني مرّة وأنت صبي عن أصلنا وعن حكايتي. لم أجبك فألححت عليّ السؤال.
- غضبت مني ونلت منك كفاً كدت أفقد بها السمع.
- الآن سأقول لك ما لا يقال. ما لم يسمعه أحد مني أبداً حتى أمك رحمها الله، لم تعرف إلا القليل من جحيمي.

زمـــان.. مـــنذ سنين وسنين طويلة. كنت أشبهك تماماً. أصغر منك الآن بســـنوات كثيرة. كنت مغروراً بقوتي وعزوتي وعائلتي وسطوة والدي والأطيان الـــتي تمـــلكها أســـرتي. أفسح لي أبي الطريق لأكون شيئاً. لأكون فيما بعد كبير العائـــلة بفروعها التي تسيطر على القرية. فأنا ابنه الوحيد وسط ست بنات. ست بـــنات. بـــنات ستة. لن تفهم. لن تفهم يا سلامة رعب بنات ستة والضيق منهن وحســـرة الأب لأنهـــن بحضـــورهن بنات حرمنه من ستة ذكور. جهنم عندنا في الصـــعيد لهـــا باب وشباك. الباب هو الثأر. وكله دماء تنفجر بضربات السواطير والسكاكين والنبابيت والطخ بالبارود. أما الشبّاك فهو عار الحريم. والدماء أيضاً

تصـــاحبه. نحن قلب الصعيد. إن أخطأت حُرمة أو حتى التصق بها شبهة الخطأ، فالأمر بسيط ومفجع معاً. كسر الرقبة. الذبح. الخنق. الاستغناء عنها كما نستغني عـــن دجاجـــة. الخشونة والشدة والرعب من العار والقيل والقال شرعنا. مجتمع عـــنيف حاد. الصراع الشرس يكاد أن يكون أساسه. من لا يحمل النبوت المصفح بقطـــع الحديد وأسلاك النحاس مثل نبّوتي هذا، فهو حُرمة أو طفل لم يبلغ الحلم بعـــد. كـــنت أحمـــل نـــبوتي هذا الثقيل على وعد بأن أحمل البندقية بعد زواجي مباشرة.

مأساتي تسللت من الشبَاك. من عار الحريم. ونحن لسان حالنا.. النار ولا العـــار. فالـــنار تحرقنا أهون من عار يركبنا ويذلنا ويحرقنا أيضاً. فإن لطخك العـــار، تمـــوت أنت ويموت أولادك من بعدك ويبقى العار ملتصقاً بأحفاد أحفادك. يذلهم ويحني رقابهم وسط الناس. فالعار أطول من العمر يا ولدي.. وأبقى.

آه، ابتلاني الله بالعار. ومن يبتليه الله بالعار، يجب أن يغسله بالدم. يغسل عار العائلة كلها. يحاول إنقاذ حاضرها ومستقبلها لكنه لا يفلح تمام الفلاح. عار الحـــريم صـــبغة ذل ثقيـــلة كريهة لا تُمحى. القتل، إسالة الدم يُبهت تلك الصبغة المذلّة. يبهتها قليلاً فقط.

آه، ابـــتلاني الله بالعـــار. بعار الحريم. لن تفهم. لن تفهم. هنا حيث كانت تربيـــتك، الأولاد والبـــنات يلعـــبون سوياً. بل يسبحون في النيل عرايا. يدخلون الزراعات العالية سوياً. كأنهم لا يلاحظون أصلاً أنهم جنسان، ذكور وإناث! كانوا كذلـــك أيـــام كـــنت أنت صغيراً يا سلامة. عجب والله حال ناس هذه القرية التي أحببـــتها وأحبتني. النساء مكشوفات الوجه. إن صادفت إحداهن رجلاً في الطريق يـــتحدثان. بل ربما تحادثه هي قبل أن يحادثها هو! يسيران سوياً. يقولون ما دام الحديـــث والسير في العلن فلا نخشى العيب! تجد الرجل منهم يدخل أي دار وهو يصـــفق ويـــنادي سَيِّدة الدار باسمها المجرد.. يا فلانة هووي.. يا علانة هووي. كأنـــه أخوها وهو ليس أخوها ولا يحزنون! سالمة.. ديوانة.. تَعويضة.. هانم.. جوليـــه. هكذا ولا يقولون يا أم فلان حتى! وداخل البيت في الحوش يجلس على الـــبرش تحـــت السقيفة. يدخل الزوج يجده جالساً فيجلس بجواره يأكلان الفشار والبلح وتجلس الزوجة معهما أحياناً.. يا بووي. كنت أكاد أجن من هذه التصرفات

المخجلة. يقولون مادام الباب مفتوحاً فلا بأس!. عجيبة هؤلاء الناس.. دنياهم غير دنيانا. زوجتي.. أمك. جوليه. مهما كنت أضربها وأجعلها تزحف من الألم.. لا فائدة. تسير على منوالهم. سكتُ على مضض وقلة راحة. لكن منعتها من الرقص في الأفراح والرقص في المآتم. منعتها من مخالطة أي رجل في أي مكان. والرجال.. تعودوا ألا يدخلوا بيتي طالما أنا خارجه. وحتى وأنا داخل البيت. لا لزوم بأن تحضر جوليه طبق الفشار والبلح. تنادي عليّ أنا، وأنا أذهب وأتناول منها الطبق وآتي به للضيف.

ثلاث من إخوتي البنات تزوجن. وكانت بَهيّة الرابعة. طفلة جميلة تصغرني بعام واحد. أجملهن. ناصعة البياض. ريّانة الجسد. جسدها نما مسرعاً. لا أعلم لماذا! ربما لكي يقع ما وقع مني ومنها. بَهيّة كانت عيناها واسعتين عسليتين. شعرها أقرب للصفرة الذهبية ناعم كالحرير. آه يا سلامة. عَمّتك هذه من صغرها تضحك. تضحك وبصوت عالٍ وتلقي بالقفشات وتجبر أمي الوقورة على الضحك. بنت ضَحوك. تضحك وبصوت عالٍ! بل إن أبي الصارم الذي لا يبتسم، يضحك معها هي.. مع بَهيّة! كانت جريئة. من صغرها تعارضني أنا أخوها الوحيد. أمي نفسها لم تكن تعارضني بمجرد أن اشتد عودي وصرت صبياً، فأنا الرجل الثاني عندهم في الأهمية. أنا الصبي الصغير كانت مكانتي في الأسرة قبل أمي. أهميتي أنا قبل أمي. فأنا رجل وهي مجرد حُرمة. فتأتي تلك الفتاة التي تصغرني بعام كامل، وتركب رأسها مثل الرجال وتعارضني! أضربها فتعضني وتخمش وجهي بأظافرها وتصرخ صراخاً عالياً، ليس عن ضعف، بل عن شراسة. ولمّا كبرنا وصرت في الرابعة عشرة، استمرت في عنادها وجرأتها عليّ. أحياناً كانت كفوف أبي تدمي وجهها إحقاقاً لحقي كرجل. بَهيّة كانت لابن عم لنا. أبوه ابن عم أبي. ينافسني في زعامة الشباب ويتطلع ومعه أبوه أن ينال الزعامة يوماً. لم أكن ارتاح لابن عمي هذا الذي يكبرني بمجرد سنتين. يخشى على مكانته مني. هو قوي لكنه يعلم أنني سأكون الأقوى. غني ويعلم أنني الأغنى. أكبر مني ويعلم أنني سأتجاوز فارق العمر وأكون السَيّد للعائلة والسَيّد في القرية كلها.

يومـــاً دار همس أن شاباً يلاحق بَهيّة وهي به سعيدة. ولم يستطع والدي أن يحــدّد أبعـــاد هذا الهمس السام. آه.. ولمّا قرُبَ موعد زفاف بَهيّة وفي جلسة عائـــلية، أعـــلن عمي أنه غير مستعد حالياً لإتمام الزواج. صدمة. قالها علناً في المجلس. إنه تلميح واضح للإشاعة التي فاحت من ليلتها. جُرحنا. شبّ نزاع كاد يتطور لانقسام العائلة الجبارة. لو تخلى ابن عمي عن خطبة أختي، لاشتعل القيل والقال أكثر وثبَتَ على بَهيّة العيب واكتوينا بالعار حتى لو لم يكن هناك دليل. عار يقـــع علينـــا بـــلا دليل وبدون أن يواجهنا أحد ويقول هذا حصل. نحن لا نصدق. نُدافع. بَهيّة أصلاً لا تترك البيت إلا نادراً، إن خرجت فمعها أمها.

وفـــي يوم تعس. يوم ملعون. كان يوم السوق. كنّا في المقهى، مجموعة شـــباب اتخذنـــا مجلساً منفرداً نشرب الشاي والجوزة. نتحاور والسوق كاد أن ينفض مع قرب أفول النهار. أتى خطيب بَهيّة. نبوته في يده وعلى وجهه ابتسامة صـــفراء. ابن عمي حَشر جسده بيني وبين قريب لنا آخر فأفسحنا له. همس في أذني بصوت خفيض لكن بإمكان من كان بجواره أن يسمعه..

– المحروسة مع المحروس.

كـــنّا قـــبل المغـــرب مباشرة. سرت هرولة حتى لا أجري وألفت الأنظار. مقصـــدي حقولـــنا. أبحـــث هـــنا وهناك. في نهاية مدق يفصل بين حقليّ قصب شاهدتهما. أعرف بَهيّة رغم أن ملابس البنات تغطيهن تماماً. كانت كفّها في كفّه. ثم اتجهت ناحية بيتنا وانحرفتْ إلى مدق فرعي. لمحني الجبان وأنا اقترب مسرعاً فاختفى في حقل القصب. لم أعثر عليه. أسرعت إلى بيتنا. ما همس به ابن عمي فـــي أذني.. المحروسة مع المحروس. نار تشتعل أكثر وأكثر في صدري. كانا عـــلى حافـــة حقـــل القصب. ترى هل كانا داخل القصب؟ وماذا فعلا؟ هل ستتكور بطنها نتيجة لهذا وتصب على رأسنا العار؟ بَهيّة.. بَهيّة.

فُـــتح لي الباب. وبَهيّة من فتحته لي! غاصت ابتسامتها لي لما رأت الشر فـــي وجهي. دفعتها فتقهقرت فزعة. فتحت فمها رعباً ودهشة وهي ترى نبّوتي يـــثب ويُصَـــفّر ساقطاً ليرتطم برأسها. صوت انكسار الجمجمة. سَقطتْ جالسة ثم ارتمـــت على ظهرها تنتفض. مخها انفجر واختلطت شظاياه بحمرة الدم. بشعرها العاري المُصْفرْ ودمها لوّث كل شئ.. كل شئ. عيناها أكثر اتساعاً مما هي عليه.

تـــنظران إلى الســـقف نظرة جامدة. ولولَتْ أمي وأخوتي. أتى أبي.. مزق جلبابه بجذبة واحدة وهو يصرخ ثم قرفص قاعداً في وجوم.

قـــبل أن يمـــر شهر واحد هربتُ من القرية. لا تظن أني هربت من حاكم الصـــعيد، لا. فـــالدفن كان سراً كالعادة والحاكم لا يهمه إلا ضرائبه فقط. الفجيعة ســـكنت دارنـــا. أبـــي ضربه الحزن رغم أنه من صغري جرّعني قانون القرية. قانوننا. هو من أرضعني أن النار ولا العار. أبي. من جرّعني أن العار أطول من العمر. من كان يفرح كلما رأى ابنه يزداد قسوة وحزماً. ظلمتني يا بوي. يتحاشى الحديـــث معـــي. طـــوال الليل لا ينام. يسير بين الحجرات. وقع خطواته خفيف. أحسســـت به لأنني أيضاً لم أعد أنام. بَهيّة تأتيني كل ليلة محطمة الرأس وصوت انكسار الجمجمة يتوالى فيحطم أعصابي. أما أمي التي رقدت تماماً وإخوتي، فقد مزقتـــني نظـــراتهن. اشـــمئزازهن مـــني وصل حتى أن أمي تقيأت سائل معدتها الفارغـــة لمجرد أنني حاولت أن احتضنها! لم يتوقف لسان أمي عن ترديد حسبنا الله ونعـــم الوكيل. بَهيّة بريئة يا أباه. بريئة يا أباه. لا تريد أن تناديه كما كانت تـــناديه سابقاً يا أبا هاشم. لا تريد أن تضع اسمي على لسانها وأنا وحيدها على ست بنات والذي كانت تفخر به وتستكين لأوامره.

طفشت وأنا لا أملك إلا نبّوتي. قذفته في الماء وأنا مبحر جنوباً في النيل. أدخـــل قـــرية، لا أبقى فيها أكثر من أيام أو شهور. أتركها وأبتعد. وكلما توغلت جـــنوباً تملكتني الغُربة وآلامها والفزع منها. الغربة لنا مهينة يا بني. فكل منّا لا يكـــون إلا بناسه. بأهله. بعزوته. بأرضه. وهكذا. حتى وصلت الجندل الأول عند أســـوان. بقيت هناك سنة. عملت مع مزارع أسمر هو خليط من النوب وصعايدة أســـوان. طيـــب. أحبني. أحب صمتي وحزني وعملي المتواصل لا أكل ولا أمل. أشفق عليّ من صغر سني وثقل همّي الذي لم أبح به رغم محاولاته أن أحكي له مراراً وتكراراً. صعب عليه حالي وأنا خلال خلوتي سواء في العمل أو في الراحة. أو حـــتى قبل أن أنام في غرفتي المتطرفة، ليس لي من أنيس إلا موال شهير في قـــرانا الصـــعيدية، ليس موالاً للحب والغرام. هو عديد تنوح به نساؤنا على من يذهب منّا غريباً في بلاد الله. أنشد الموال المناحة بقلب واجف وصوت مرتعش..

ده قبر مين اللي البقر هدّه؟

قبر الغريب اللي تَرَك أرضه!
ده قبر مين اللي البقر داسه؟
قَبر الغريب اللي هَجَر ناسه!

آه. هكــذا يكون الغريب منّا خارج أرضه. يعيش ويموت ويُدفن بلا قيمة بعيــداً عن أرضه وناسه. عشيرته عزوته. لذلك فإن قبره تهده وتدوسه البهائم. يستهين به حتى البقر.

عَـرَض علـيّ المــزارع الطيب الزواج من ابنته. وافقــت. وقبل الدخلة زارتــني بَهيّة ضاحكة ودماغها مفلوق ومخها متجلط بشعرها الغارق في الدماء. ضــحكت لــي ســاخرة. هربت من الكوابيس وتركت أسوان. صعدت إلى القرى الــنوبية. قرية بعدها قرية. لم اترك قرية على الضفتين. أبني مع البنائين. أحفر آبارهم. أزرع أراضيهم. يعجبون بقوتي وانكبابي على العمل. يتمنون بقائي. لكن، كيــف وبَهيّة لا تتركني في حالي. أهرب جنوباً إلى قرية أخرى جديدة. حتى جئت هنا. عملت في أرض أم خيشة. كان موسم تأبير النخيل. وأنا لا أصعد النخيل. لا أستريح مع الأماكن العالية. صعدت نخلة لأتعلم صعود النخل لا أدري، لأتغلب على خوفي من العلالي لا أدري. لكي أسقط وأموت وأستريح لا أدري. سقطت من أول نخــلة وكُسرت ساقي. ليتها كانت رقبتي الغليظة التي تكسرت واسترحت وأرحت. حمــلوني وجاءوا لي بيونس المجبراتي ، كان شاباً يانعاً يتعلم من هَمَرين. صنع لــي جبيرة. رفضت أن يأخذوني إلى بيت أحدهم. فأنا هاشم الصعيدي. كيف أقبل أن أسكن بيت ناس أنا غريب عنهم والبيت به حريم! فأنا قاتل أختي لأنني ظننت أنها هي التي كانت عند حافة غابة القصب! كفها كان في كف شاب غريب! بقيت فــي الخص الذي بنيته. أخدم نفسي وأتحرك رغم تحذيرات يونس. ثلاثة شهور. مقيــم وحــدي. كــانت فرصــة أواجه فيها نفسي. كنت أقاسي وأنا أواجه نفسي بقســوة. قتــلت أجمل عماتك يا سلامة. لماذا؟ سألني عقلي مراراً وتكراراً. هل لمقولــة ابن عمي؟ لكنه منافسي ويغار مني ويريد تحطيمي. هل لأن شاباً صافح من أظنها أختي في مكان شبه مخفي؟ ولأنه هرب يكون مذنباً وصنع شيئاً بأختي؟ أقول... إنه هرب لأنه يعلم تهور هاشم وقسوته. من العقل أن يهرب. يهرب من هاشم المفتري. فعلاً يا بني كنت صبياً مفترياً. وربما مازلت. لم أصل لإجابة. هل

كنت مخطئاً؟ وإن كنت، كيف أكفر عما اقترفته يداي؟ وأبي.. هل سيصفو لي من قلبه؟ وأمي التي تفرغ معدتها الفارغة حين أقترب منها؟ وأخوتي واحتقارهن لي. لا. لن أعود. وجودي بينهم خطأ. يزيد حرقتهم من مقتل بَهيّة. بَهيّة القتيلة. بَهيّة الجميلة. إذن إلى أين الهرب؟ إلى أين؟ وإلى متى؟ أتصاعد جنوباً؟ أين أفلت من شبح بَهيّة وهي تسكن كبدي وضميري؟ قررت البقاء. خاصة أن ناس القرية كانوا يأتون لي بالطعام والشراب ويحاولون حتى غسل ملابسي وإعطائي ملابس جديدة. رفضت طبعاً. أخذت النساء والبنات وحتى الصغيرات منهن والعجائز، أخذن يتحاشينني لغلظتي وتكشيرتي التي لا تذوب. كنت أسير وقدمي مازالت تؤلمني داخل الجبيرة. كنت استعذب الألم ومازلت أعاقب نفسي بنفسي. أعاقب نفسي القاسية بألم أقسى لا يحتمل. أيامها أطلقت عليّ تَعويضة لِسانين اسم الكيد. الحجر. صرت هاشم الحجري. هاشم الكيد. ولما حلّ يونس الجبيرة، تحققت مخاوفه. أصبحت ذا عرجة مزمنة بقدمي المصابة. صنع إسْهاج عكازا لي. في البداية كان بغيضاً لأنه يذكرني بالنبوت القديم. لكن ما باليد حيلة. ولأنني صعيدي وحتى أموت سأكون ابن قريتي الصعيدية. اشتقت لحمل النبوت. فأوصيت بمن أحضر لي نبوتاً مصفحاً يشبه نبّوتي القديم كثيراً. ألقيت العكاز رغم أن السير استناداً على النبوت مرهق. لكنني.. ألم أقل لك إنني صرت أستعذب الألم؟ ثم إنني بدون نبوت أحس بأنني عارٍ! مع الأيام تكلمت لغة هؤلاء الناس وأتقنتها تماماً بمساعدة أم خيشة. أغرق نفسي وحزني في العمل وفي موّال نَبَت من حشاي. كنت أغنيه وأبكي..

سَجَرْ بلا ضَلّة مالي بيه؟

كان يُرطّب غُلبي يا سلامة. مواسم أغنّيه حتى أن مطربي القرية غنّوه بعدي وبالعربية التي أدخلوا فيها النوبية. آه. سَجَر بلا ضَلّة.. مالي بيه؟ إي يا بني، فكل القرى الغريبة عني هي شجر بلا ضلّ، الظلّ هناك، في قريتي التي ولدت بها، قريتي الأصلية، المهم يا بني، كنت أغرق نفسي في العمل الشاق حتى يكل جسدي تماماً فأنام كجذع جميزة، فلا تزورني بَهيّة ولا عائلة بَهيّة. عملت ثلاثة مواسم في أرض أم خيشة، أرضها كانت تبعد عن النهر بمسافة بعيدة، وسُبُل ريّها متعبة، ولأنها على حافة بيوت النجع فالرمال كانت تطغى عليها يوماً

بعـــد يوم. حفرت لها بئراً وصنع لها إسْهاج ساقية بها قطعة العزف تعزف نواحاً علـــيّ كمـــا أظن لا على ناس خيشة الذين ماتوا سريعاً. عاملتني خيشة كأني أخ لهـــا، اصطبرت على خشونتي. آه يا خيشة. أعدت بناء جسر خور البحر مع عدد مـــن الشـــبان. بنيـــته أعرض من سابقه وبدبش كبير حتى صار جسراً تفخر به القرية وسط قرى النوب. الذي خطط بمقدرة كان هَمَرين، والذي نفذ بمقدرة كنت أنا، والذي تقرّب مني وأحببته بعد أن أحبني هو أثمان كُورنة. أحبوني وأحببتهم، ورغـــم كل هذا الحب وإصرارهم على بقائي بينهم ومساعدتهم لي في بناء بيتي هذا، لم يفكروا في تزويجي فتاة منهم ولا أنا فكرت في الزواج أصلاً لمدة سنتين. قـــالوا لتحضـــر فتاة من قريتك الأصلية! هاها،إنهم لا يعلمون لماذا تركت قريتي. كـــنت قـــد أقسمت لهم إنني لم أفر من ثأر، لا يطالبني أحد بدم، لم أكن أكذب في هذا، لكني كذبت وقلت لهم إنني تركت قريتي لأبحث عن رزق أوسع، وصدقوني، وهـــل كنت أستطيع أن أقول لهم إنني هارب من رفض أسرتي لي؟! هل أقول لهم إنني هارب من شبح أختي بَهيَة ورأسها المفلوق وصوت انكسار جمجمتها؟ لذلك قالوا لي فلتأتِ بفتاة من قريتك، لن يعطوني فتاة من قبيلتهم. مستحيل أن أتزوج فتاة منهم. الذين لا يشعرون بالعار من دخول الغريب بيتهم ولا من حديث الغريب لأنثاهم.. يشعرون بالعيب، بالعار إن تزوجت بنت العشيرة من غريب عن سلالتهم حتى لو كان هاشم الكيد. قال لي العمدة الكبير.. أبو نُوري العمدة الحالي.. سنأتي لك بإحدى العبيد تعتقها وتتزوجها. ولأن قوافل الجلابة النخَاسين ممنوعة في هذه القـــرية بإفتاء من الولي جوش، فقد ذهبت معهم على مركب إلى قرية كوروسكو حيث ملتقى قوافل الجِمال ومرسَى القوارب الآتية من الجنوب والشمال. لا أتكلم. لا أوافـــق. ولا أعـــارض.. سيعرضـــون عليّ فتاة من عبيدهم. لم يعلموا أن في صـــدري صـــخرة تـــثقل قلـــبي، وأن بَهيَة تتجسّد أمامي ساخرة. أذني تطن فيها وسوســـة شيطانية. وقع خطوات أبي الخفيفة. المهم.. وصلنا. استقبلونا بحفاوة فـــلقد كـــان معنا العمدة نفسه. ونحن في مضيفتهم نأكل. سمعنا هرجا ومرجا في الخارج. دخل علينا رجل من أتباع عمدتهم. أخبرنا إن قافلة عبيد وصلت. ضحكوا وقالوا إني مُرزق. خرجنا. القافلة وصلت إلى ساحتهم. قاطرة جِمال. عصابة من اللصـــوص تقودها وتحرسها. بَرَكَت الجِمال. عبيد من النساء والرجال وبعض

الأطفـــال. البعض موثق بالحبال والبعض متروك لعجزه أو لضعفه. دفعني العمدة لأقـــترب. اقـــتربت. نظرت.. نساء قويات رغم الإرهاق البادي عليهن والأتربة، لمحـــت فتاة قصيرة نحيفة تعطينا ظهرها وهي تحتضن سَيِّدة كالمارد قوية البأس رغـــم كهولـــتها. تصـــل الفتاة بالكاد إلى أسفل صدرها. تنتفض وتبكي. أحسست بحالهـــا تقدمت منها. نظرتُ إليّ المرأة المارد. عيوننا تلاقت. اطمأنت لي. مَدَدت يمناي برفق على ظهر الفتاة التي ترتدي أسمالا. اقشعر بدنها. ربتت عليها المارد وهـــي تديـــرها لتواجهـــني فأرى وجهها. لم ألاحظ ولم أشعر بعيون الناس وهم صـــامتون يـــتابعون ما أفعله. تَركتْ الفتاة حضن المرأة المارد والتفتت إليّ وقد أنـــزلت يديها من على صفحة وجهها. سوداء لامعة سَمحة المنظر. تقف مطرقة في خجل. عنقها كله ومواضع من صدرها عارية. دَفَعتها المرأة المارد إليّ وهي تحدثهـــا بلين. أخذتها. وأنا أبتعد سمعت المارد تتحدث وكأنها تنصحها أو ترجو مـــني الاهتمام بالفتاة لا أدري. لغتها غريبة على الجميع. تلتفت الفتاة وهي تبتعد معـــنا. تـــلوّح باكية للمرأة المارد وتنطق بكلمات لم أتبين إلا جرس كلمة ترددها كثيراً.. بجيوة.. بجيوة.

عدنا بالفتاة الخجول. تزوجتها. كانت جوليه.. أمك يا بني. أمك.

أم خيشـــة لـــم تتركنا. كل يوم عندنا أو تأخذها عندها وأنا أذهب إليهما حين أعود من حقلي. تعلمها عاداتهم ولغتهم وتحضير طعامهم كما علمتني الكثير. حاولنا إطلاق أكثر من اسم عليها. أطلقتْ عليها أم خيشة اسم وَهِيلَة. وهو اسم إحـــدى بناتها المتوفيات، لكن أمك لم تسترح إلا لما ناديناها.. جوليه. أمك كانت جوليه في موطنها الأصلي، وكانت جوليه في قريتنا هذه. قريتنا هذه ونحن كلنا غرباء فيها.. أنا وأمك وأنتَ وبجيوة. جوليه كانت طيبة، نشطة. بلسماً لجروحي الدامية. ارتاحت معي من أول أن رأتني ساعة دفعتها المرأة المارد إليّ. تحملت سوء طبعي وعصبيتي. تحملت صمتي شبه الدائم. لم أكن أضحك إلا عندما تَسُبّني أم خيشة أمامها لأنني لا أحادث زوجتي ولا أقيم معها الوَنَسَة المعهودة عندهم. لا أضـــحك لجوليـــه وأهش وأبش. لكننا كنا أحياناً نقيم وَنَسَة بطريقتنا الخاصة أنا وهـــي.. أنا لا أعلم لغتها الأصلية وهي تعلم القليل من لغتي النوبية ولا تعلم شيئاً مـــن لغـــتي العربية. كنا نستلقي على سريرنا تحدثني هي بالساعات عن حكايتها

وعـن ناسها بالصوت والإشارة وتعبيرات الوجه، وأحيانا تقوم لترقص رقصات تحكي بها مقاطع من قصتها. وأنا أسمعها وأمنع دموعي حين تبكي هي. خاصة.. خاصـة. لا أعـلم كيـف أقول وأحكي لك يا ولدي.. خاصة عندما اختطفوها من الأحـراش الـتي خـلف قريتها، خاصة حين.. حين اغتصبوها وهي في المبنى الحَجَري الذي حولوه لسجن. سامحني لبكائي.. اغتصبوا زوجتي.. أمك. أسقطت حمـلها في الرحلة المنهكة. أقسم بالله لو أضع يدي الآن على أي تاجر شارك في قافلة العبيد التي ضمت جوليه وبجيوةَ.. لأقتلنه. مجرد احساسي بأن رجلاً اعتدى على زوجتي.. أم أولادي.. رجل شاهدها وواقعها.. أوووف. نار تلهبني وتحرقني وتؤلم جوليه وهي تحس بناري. لم أكن أريد اخبارك، لكن.. أبوك بشر ويريد أن يفضـي بآلامه الجبالية والمتراكمة جبلاً فوق جبل. لنترك هذا الأمر الذي يخزيني ويجرحني حتى الآن.

أحكي لها أيضاً عن أحاسيسي بالغربة وعذاباتي.. فكلانا غريب وكلانا وحيد إلا مـن الآخـر. أحكي لها حكايتي التي أحكيها لك.. خاصة عن بَهيّة. تعرف يا سـلامة.. بعـد مواسم بعدما تعلمت جوليه اللغة النوبية.. لم تسألني عن تفاصيل حكايـتي أبداً لأنها كانت قد عرفت مُجملها أيام كنت أحكي لها وهي لا تعرف لغة حديثي! ولا تريد أن تثير كوامن من كوامن ناري. جوليه عندما كانت تراني أعود مـن الحقل باسماً يشتد بها الفرح وتحاول التعبير عن نشوتها وحبها لي بالرقص والغـناء بلغتها الأصلية. إلا أن نظرة مني غاضبة كانت تجعلها تفيق من فرحها الـنادر. لـم تكـن تستمر في الرقص إلا إذا ساندتها أم خيشة وأمسكت بي من تلابيبي وتسبني وتلعنني وتقسم لجوليه إنها ستعلمني بالقوة كيف أعامل النساء. ورغـم كـل هذا لم أكن أسمح لجوليه بالرقص إلا نادراً، خلال وَنَستنا أنا وهي. وَنَسَـاتنا كـانت نادرة لا أعرف لماذا؟ كانت جوليه تتمناها كل ليلة.. لكن لم أكن مسـتعداً لهـذا، وكأنـني كنت ومازلت أكره الفرح.. وكأنني كنت ومازلت أخشى الفـرح وأرتعـب من الضحك! آه.. لم تكن ترقص إلا خلال وَنَساتنا أو تواجد أم خيشة بيننا، ولا غير ذلك. لم أعطها الحرية رغم علمي بعشقها للرقص والغناء.

آه، يا سلامة. سامحني إنني أبكي رغماً عني. ليس لك ذنب في دموعي يا بني. أنا الملوم. أنا المسئول عن بؤسي. كنت قاسياً غبياً كالثور مع أمك الطيبة.

كــثيراً مــا كــنت أصحو ليلاً على نهنهاتها.. تحاول كتم بكائها. تدعّي أنها تبكي ناسها الذين خُطِفتَ من بينهم. لكني أعلم أأن جزءاً من أسباب بكائها هو حصاري لها. كبتي لفيض جسدها الذي يريد أن ينطلق رقصاً وحياة مثل بقية ناس قريتها الأصلية.. وقريتنا هذه. تعلم كم أتعذب أن رجلين نالا منها ولو بالغصب. لماذا يا ربي تكون جبال آلامي من النساء وعار النساء؟

آه، لمّـا أنجبتك، لم أطلق عليك اسم أبي. ولا اسم أحد من عائلتي. فأنا أريـد أن أنســى عذابــي كأني لم أولد إلا عندما سقطت من أعلى النخلة العالية وتهشمت ساقي وصرت هاشم الكيد. ولم أطلق عليك اسماً غريباً، لأن أباك غريب هنا. سميتك سلامة. آه.. هو اسم قريب من اسم أم خيشة الأصلي.. سالمة.

انفتح بيتي للزوار. بدأت اسمح لكبار السن أن يحادثوا أم سلامة كما كنت أناديهــا أنا، وجوليه كما أصر ناس القرية على ندائها. أثمان.. ذلك الرجل الطيب القلق القصير النحيف. صار صديقاً لجوليه فلم اعترض. يضاحكها ويداعبك وأنت صــغير. كنتَ تحبه وكان يناديك هو بسلامة جوليه! هو فقط وأم خيشة. أما بقية القــرية فينادونك بسلامة الكيد. يعرفون غضبي من إلحاق اسمك باسم أمك كما يفعـلون مــع أبـنائهم أحياناً. قلت لنفسي.. لأنجب عشرة أولاد لتكون لي عِزوة وأصــنع عائلة هاشم الكيد. تكون لي عائلة كبيرة باسم هاشماب، حسب تسميات عائلاتهم الكبيرة هنا.

كــنت تــنمو أنتَ على صورتي تماماً. أم سلامة تحملك وتنظر إليك وإلى وتضــحك فتــلمع أســنانها البيضاء.. تقول.. أنتَ.. هو. هو.. أنتَ. كانت شديدة الفرح بك. كانت تدللك باسم من أسماء قبيلتها الأصلية. لكنها امتنعت لما غضبت غضباً شديداً. لا أريد لابني أن يحمل آثار اغترابه عن قريته النوبية أكثر مما هو غــريب. وكــنت أتمنى أن أنسِي ناس القرية هنا كونك من سلالة عبيد من ناحية أمــك. وكــنت أتمنى أن أبث وأثبّت فيهم أنك منهم وأنه يحق أن تتزوج مستقبلاً منهم. وفي نفس الوقت لا ينسون أصلك الصعيدي ويتشرفون به عن رضا.

كــنت أنــتَ سلوتها أكثر مني في غربتها وفراقها لأهلها. ولمّا حملت أم ســلامة مرّة أخرى. فرحت وقلت إن الأيام بدأت تصفو لي. دعوت كثيراً ألا أفقد المولــود ولا الوالــدة كما يحدث كثيراً في القرية. الحمد لله لم يحدث موت. لكن

حــزنت والله لما جاءتنا أختك. بجيوة. شاهدتها. انقبض قلبي. أم سلامة لا تفهم كيــف أغضــب لأن الله رزقنا ببنت! مع أنها تعلم حكايتي مع بَهيّة. تقول بَهيّة.. بَهيّة. جوليه أحبت بَهيّة؟ تسألني بمفرداتها البسيطة..

-لم حزين؟ لم لا حُب ابنتي؟ ولادة تاني.. ولد شاء الله.

لا تعــلم أن ابنـــتها أخذت ملامح عَمّتها بَهيّة عدا اللون الأسود الغطيس الــذي أخذته من أمها. وجهها دقيق الملامح. العيون الواسعة الشعر الناعم تماماً كشــعر بَهيّــة إلا أن لونه أسود. أمك كانت تريد أن تطلق عليها اسم من اسمين، بَهيّة.. لترطب جوفي المستعر وتصالحني على بَهيّة الأولى ببَهيّة الثانية. لكن لم يكــن قلبي يتحمل هذه المغامرة. قلبي متوجس، مرعوب أن تكون هذه الرضيعة الباكية قد أخذت طباع عَمّتها بَهيّة مثلما أخذت الكثير من ملامحها. يا رعب أبيك يا سلامة من هذا الخاطر المرعب! رضيت باسمها الثاني.. بجيوة. إنه اسم المرأة المارد التي سلمتني جولية. تعرف يا سلامة، إن أجمل ثلاثة هدايا أعطيتها لجوليه كمــا قالت لي هي.. سلامة وبجيوة ابنيها، والهدية الثالثة موافقتي على أن أمنح ابنــتي وابنتها اسم بجيوة. كم كانت تحب هذه المرأة وكم كانت المرأة تحبها. من أجل خاطر أمك ولأرضيها، ذهبت إلى كوروسكو مراراً لأتتبع رحلة بجيوة الكبيرة. مــن اشتراها، وأين استقرت؟ لم أنجح، أوصيت إن علموا بشيء أن يرسلوا لي ويبــلغوني، كم بكت أمك. كانت تحلم بأن تلتقي بها. أن تحضرها معنا في القرية، فــي بيتنا،كانت تعلم كم أحببت أنا الآخر تلك المرأة المارد الطيبة. المهم.. بجيوة الــثانية، ابنتنا، أختك، كبرت قليلاً وتشاقت بجسدها الذي أخذ يمتلئ، وإن حمدت الله أنهــا لم تكن مدمنة للضحك الكثير مثل بَهيّة، يوماً صحوت وجدت أم سلامة راحت.. ماتت. هكذا من الباب للطاق. استراحت من حصاري لها وكبتي لرغباتها فــي الــرقص والغــناء والتداخل مع نساء القرية ومع ناس القرية كلهم، عادت روحهــا لناســها، موتهــا كــان القرطوس قبل الأخير الذي نزل على رأسي أنا المتعجرف الكيد، لم أبكها بالدموع، انضم خيالها اللائم مع خيال بَهيّة وأخيلة أمي وأخوتي البنات، آه، ندم على ندم. أسى على أسى. طيّات حزن على طيّات حزن. كرهت نفسي. كرهت حياتي. كرهت القرية وناسها ولم أتداخل معهم وهم يقيمون العــزاء عــلى جوليه.. زوجتي. لا أرى من يأتي لتعزيتي، لا أرفع يدي لأصافح

الأيـــادي الـــتي جاءتني لتصافحني وتخفف عني بلوتي.. مصيبتي. العمدة الكبير كـــان يجـــلس بجانـــبي ليأخذ معي العزاء.. والشيخ صَلاتو يدفعني دفعاً لأبكي.. يحثـــني على أن أترك عيني تبكيان وأترك قلبي ينطلق ليعبر عن كارثته. لم أبك. الكيد لم يبك. وهل البكاء يمحو إحساسي بالذنب تجاه عمّتك وأمك؟! وهل البكاء يـــبدي للآخرين كم أنا تعس.. كم هي أغوار كارثتي؟ ولم ينجح أثمان كُورنة في تخفيف العبء عني. وكانت أم خيشة في بيتي تحترق في رقصة النائحات. كرهتُ سلامة وبجيوة. قسوت عليكما. يداي لا تكفان عن ضربكما رغم سنكما الصغيرة، لمـــاذا؟ لا أعـــلم؟ كرهت كل شئ حتى حبي للعمل. أهملت أرضي وحديقتي، فقط أدخـــن الجوزة بالبانجو. أم خيشة أخذتكما عندها، أمّا الكيد فقد صعب حاله على نـــاس القـــرية فكسروا تقاليدهم من أجلي، عرضوا بناتهم على هاشم الكيد، لكن الكيـــد أصـــبح وليـــس له في النساء، لقد قتلت اثنتين من أحب ناسي.. بَهية وجوليـــه. لم يعد لي أي متعة حلال أو حرام عدا التدخين وموال جديد أضفته إلى موالي السابق..

ما بين البيضة والسَمْرَة

ضَيّعتِك يا حياتي

ثـــم العودة والإغراق في العمل الشاق والنوم كجذع شجرة الجميز حتى لا تزورني خيالات الموتى اللائمين خاصة خيالي بَهيّة وجوليه، ومعهما أحيانا خيال أمـــي وهي تتقيأ ما بمعدتها الفارغة، ووقع أقدام أبي في قلب الليل والتي أسمعها وأنا أهرب من خيالي بَهيّة وجوليه، لتتحول إلى دقات قلبي المتسارعة حتى أقفز صارخاً مرعوباً.

لا تقلق من بكائي، فالدموع ترطب ناراً في حشاي لم تتبرَّد من عمر طويل يا سلامة.

آه، كـــان مـــن العقل أن تلين قسوتي مع أولادي. لكن العكس كان تماماً. أخذتكمـــا مـــن أم خيشـــة. لم تتحمل أنتَ طباعي وخشونتي وضربي المستمر لك فهربت مني، تركتني وأنتَ صبي ورحلت جنوباً فكان هروبك هو الفرطوس الأخير عـــلى أم رأســـي. لكن.. الله أعلم هل هو الأخير أم يخبئ لي القدر ما هو أخير. توقفـــت عـــن ضـــرب بجيوة أو كدت. بين نارين، أحاول إقناع نفسي.. لعبها مع

الأولاد والبنات في القرية ليس عيباً، تلعب مثلها مثل غيرها من البنات في هذه القرية التي لها تقاليدها المختلفة عن تقاليدي التي تربيت عليها في الصعيد الجواني. رغم أن جسدها كبر قبل الأوان مثل عَمّتها، أتركها تلعب وتستحم عارية مع الأطفال في النيل. لا أنطق حرفاً واحداً. فلتأخذ حريتها وحرية أمها جوليه التي لم تستمتع بها. تأتيني بَهِيّة ساخرة مني كارهة لي شامتة بي لاعنة لي.. تصرخ في.. تترك ابنتك تفعل ما تفعله وتقتلني لأنك ظننت أن كفي صافحت كف ذكر؟! سوف تأتيك وفي بطنها كف الذكر ينمو لينسل من جوفها معلناً عن فضيحتك يا هاشم. أثور على بجيوة وألقي الرعب في قلبها الصغير. أحبسها. تبكي وتتعذب وهي لا تفهم لمَ أنا متقلب؟ لمَ أنا مختلف عن كل آباء صديقاتها؟ يأتيني شبح أمها.. جوليه، تلومني باكية. تقول لي.. قتلتني سجناً وكبتاً. خنقتني قمُت حَسْرة.. فهل ستقتل ابنتي أيضاً بنفس الطريقة؟ وهكذا تمضي أيامنا.. أنا وأختك بجيوة.

آه، يا سلامة. مازال صوت كسر الجمجمة يطاردني. نهنهات جوليه المكبوتة تطاردني. والخوف على بجيوة ثعبان يزحف بين لفائف مصاريني. ينفث سموم الشك والقلق، ثم فجأة يرفع رأسه المرعبة لينهشني في قلبي.. في كبدي.

أصبحت عجوزاً. حجرياً في مظهري.. لكن حطام عجوز في داخلي. أصبحت عجوزاً وأنا مازلت أصغر من أن أكون عجوزاً. أخشى أن يكون الله غاضباً عليّ. سلامة.. ابني.. أحتاج إليك.. أحتاج لونَستك.. هل ستبقى معي؟

آه، يا سلامة.. اذهب لأبنائك. أنت تشبهني، تشبه الكيد شبهاً تاماً. لكن أنصحك.. إياك والعجرفة.. إياك وسرعة الغضب إياك وإمساك النبوت.

وكأن الحمار العالي يعلم قدْرَ نفسه. يرفض أن يسفد الحمارة العجوز. فهو يــروي ظمأه من إناث الحمير العديدات في القرية. حاول آبدون أن يدفعه إليها. رفــض. حــاولت هكيمـــة بالملاطفة وآبدون يضحك عليها. هذا الحمار المتكبّر يرفض حتى أن تقترب منه الحمارة المسكينة. يعضها. يضربها برأسه. يرفسها. فيئست منه وتجنبته في انكسار.

معــتوق لــم يعجبه موقف الحمار العالي. يذهب إليه يحدثه. يصدر نهيقاً غاضــباً واضــعا صــفحة وجهه أمام بوز الحمار العالي. ثم ينهق له في لين في تفــاهم طيب. لكن لم يستجب الحمار العالي المتكبّر. في مغرب يوم، عاد آبدون مــن الحقــل وهــو يردف معتوق خلفه. في البيت ترك معتوق ليدخل البهائم إلى حظيرتها. في الليل ساعة العشاء لم يجدوه. بحثوا عنه في الغرف المتناثرة. قال أولوا في شماتة..

- ستجدونه مع الحمارين يحدثهما!

وجدتــه هَكيمة في الحظيرة ورأسه بين رأسي الحمارين يحدثهما في ود. تــراجعت هَكيمـــة وهي تغلب ضحكتها. أتت بآبدون يسمع ويرى. أمسك آبدون بكتف معتوق. فنظر إليه وإلى هَكيمة.

- اتفقنـــ.. ا. هذا يتزوج هـــ.. ذه. هذه تلد حمـــ.. ار صغير.

محـــبوه كثيرون. كارهوه قليلون. لكنهم يزدادون كرهاً له. هو لا يبالي. يحــب الجميـــع. يسرع في مشية كأنه يهرول. لم يعد الطفل الذي يجري. غرامه يـــزيد بشرب اللبن وأكل البلح في تنويعاتهما الكثيرة. وجهه المقبل على المراهقة خَــفّ مــنه الــلحم. ازداد طوله قليلاً مقبول المُحيّا رغم وضوح تنافر ملامحه.. شـــعر جعــد كــثيف وجبهة ضيقة مسحوبة للخلف لتختبئ تحت الشعر الصوفي. حاجباه ثقيلان عيناه ضيقتان تبرقان في حُنو، أنفه الأفطس يكاد منخراه أن يملأ النصــف العــلوي من الوجه، وفمه الواسع أخذ النصف السفلي، أسنانه المتفرقة لامعة وسط حمرة فمه خلف شفتين مكتنزتين مقلوبتين والذقن قوية.

رغـــم هـــذه الملامح البعيدة عن نموذج الجمال في المنطقة، فهو شديد السماحة جذاب لناس القرية. تود النساء أن تنظر له كثيراً. تداعبه الفتيات الأكبر ليضـــحك لهن ويتحدث إليهن بلسانه العيي والذي يقارب الوضوح يوماً بعد يوم. أمـــا جســـده الربعة فعضله القوي المرن يعمل من تحت طبقة من اللحم الخفيف والجـــلد الأسود اللامع الذي ينضح بالعرق الممزوج برائحة اللبن والمسكّر بعطر البلح.

بعـــد أن اكتشـــف كل ركن في النجوع الثلاثة لقريته، ودخل أغلب البيوت وأكـــل فيهـــا البلح وشرب فيها اللبن. شغف باكتشاف المجهول الأبعد. صعد إلى ربوة مِجيد الرملية الناعمة. ثم صعد إلى منتصف جبل فرعون، الذي من بعد ثلثه الســـفحي يصعد لأعلى صلداً أملس شعابه زلقة ضيقة خطرة. وقبل القمة يصبح جـــداراً كأنه شُذّب عمداً ليمنع الخلق من ارتقائه والوصول إلى المعبد الفرعوني. لذلك لم يستطع معتوق أن يستكمل الصعود إلى قمته، ولمّا عنفته هَكيمة وقالت إن جبل فرعون لا يرتقيه إلا الذئاب والثعابين والعقارب. ضحك لها وقال..

- و.. أنـــ.. !!

بقي له الجبل الشرقي ، يوماً سيعبر له النيل وهذا سهل عليه ميسور. ثم يستكشفه بقممه كلها.

لـــم يعد نوري العمدة يخرج من الدار. جسده يترهل ويتضخم في سرعة كأنه يتورم. ثقلت خطواته فصارت في ثقل خُف جمل. يأكل ما يكفي عشرة رجال في كل وجبة، ويطلب أطباق الخوص المحملة بالبلح ليلوكها بين الوجبات. كيزان مشروبات الكركديه والينسون والحلبة والليمون يروي بها عطشه. لم يعد يستخدم دورة الميـــاه التي يصعدون إليها بعدة درجات من دَرَج بسيط. ركنها البعيد جنوباً حيـــث تـــأخذ الرياح الروائح وتبعدها عن البيت، ولكنها صارت بعيدة مرهقة له، فبـــنو له حجرة في خلفية البيت، تطل على تل الجبّانة والجبل، وخلفها الحظائر، قريبة من حجرة الحبس التي لم يحبس فيها أحداً لا هو ولا والده، بابها أمام دورة الميـــاه المخصصـــة للخفر والمحبوسين، فلا يتكبد مشواراً بعيداً كلما احتاجها.. هذه الدورة صارت تمتلئ بمخلفات العمدة قبل أن تمتلئ الدورة المخصصة للبيت كله بزواره الكثر.. وبوقت طويل!

آبــدون وأثمـــان يــزورانه دائمـــاً. بقية ناس القرية ندرت زياراتهم له لوضوح انزعاجه منهم، وإن خرج تحت إلحاح أثمان وآبدون فيخرج بعد العشاء خشية أن يراه أحد. يسير خطوات قليلة يصل بها إلى شجرتي التوت في الساحة. يســتند عــلى إحداهما، تنضح ملابسه بالعرق الغزير، صدره يتحشرج إرهاقاً ثم ينظر بعيداً حيث الخضرة والأشجار الداكنة في حلكة الليل. وبعدها المجرى المائي العــريض محصوراً في جانبه بالجبل الشرقي. المجرى الذي أخذ بدن سِسِّي فأخذ معــه قلب أبيه العمدة. ينظر حيث جانب جزيرة أصلاد. من هناك استخرجوا جثة سِسِّي. يعودون به إلى حجرته ليرتمي مرهقاً ويسأل عن الطعام.

سلاطين أوعز لعصابته بترك الكتّاب بحجّة أنهم أكبر من الذهاب كالصغار حاملين كيس قماش تافه ليضربهم عجوز شرس من أجل دروس لا تنفع. امتنعت عصــابته عــن الذهاب. أهاليهم لم يبالوا، فهم يستفيدون بهم في العمل بالحقول، ويكفيهم ما حفظوه من آيات القرآن الكريم. أما تعلّم الحِساب فهم يحاسبون مُهدي وغيره بجمع وطرح قطع الحصى أو الأغصان الصغيرة الجافة، وبهذا يتأكدون من صــحة أو خطــأ ديونهــم أو ثمن حصاد بلحهم. عدا اثنين أصابهما الغم. آبدون جــوش ومُهــدي الأصــفر. آبدون فُجع في قرار ابنه أولوا. فرغم أن ابنه عليل الجســم. ورغــم تفاهة شخصيته وطراوته الأنثوية، وما يقال عن سيرته. فإن آبدون مازال يأمل فيه أن يكون عظيماً. أن يستكمل دراسته في الأزهر وتكون له المكانة في القرية. أن يفعل ما لم يستطع لا هو آبدون ولا أبوه موسى جوش أن يفعــلاه. رغم كل الدلائل غير المبشّرة بالخير في شخص ابنه، لا حلّ له ولا ملجأ إلا أن يضع أمله في أن ينجح ويتزعم القبيلة ليمسح به دموع جده موسى جوش. أمــا مُهــدي الأصفر بقال القرية فيعلم القليل من الحساب يضبط به دفاتره. وكان يتمــنى أن يكمل ابنه فيّاج دراسته في سُوين حيث المدرسة الكبيرة ليعرف كيف يتعامل مع الحسابات المعقدة استعداداً لمد تجارتهما إلى القرى الأخرى. خاصة أن القــرية تتوسط قرى النوب تماماً. ولأنه يأمل أن يتاجر مع قرية كوروسْكو الغنية بل وينافس تجارها. هدد ابنه فيّاج. ضربه وأهانه. أغراه. لا فائدة. فيّاج لا يريد أن يكــون في موضع احتقار سلاطين وجماعته. فتحمل الضرب وصمم على عدم

الذهاب إلى الكتّاب. تَعويضة التي تبادل سلاطين الكره خاصة بعدما فضّل بجيوة على كِسبانة أطلقت على كل عصابته لقب الأفشْطفوش.. التافهين.

بجيوة امتنعت عن الذهاب إلى الكتّاب مباشرة بعد ما حدث منها. توقفت كِسبانة في الموسم التالي. لأنها من ضمن اللاتي بلغن النضوج أو كدن. وبعد طرده من الكتّاب فإن سلاطين يقابل هُوشَة دائماً، وإن لم يرها أياماً معدودات، هناك تابعه الأشرم الذي برع في التجسس ومراقبة الجميع. فرغم عرجه يعطيه تقريراً شفهياً كاملاً بكل تحركاتها بالإضافة إلى ما يجري بالقرية. أمرُ الله الأشرم صار عينه التي لا تنام.

ولهزال جسده، بعد السهرات على ربوة مِجيد يتجرعون الخمر التي عرفوها والبانجو الذي أعجبوا به. يعود أولوا متهالكاً مستنداً على أكتاف زملائه حتى باب البيت. يطرقونه ويتركونه مركوناً على الجدار ويهربون اتقاء لسباب هَكيمة. تضعه هكيمة على سريره في حجرته الخاصة التي اختار هو موقعها البعيد في الحوش، بعيداً عن معتوق. تجلس هكيمة بجانبه على السرير تلومه وتدعو له بالهداية. آبدون لا يتحرك من حجرته، ينفخ غيظاً. لقد وصلته إشاعة شذوذ ابنه من أكثر من شخص. يظن أن سَيّدة أو أكثر أبلغت هَكيمة، لكنه لم يفاتح هكيمة، ولا هي فاتحته. كل منهما يكتم الطعنة المؤلمة في قلبه، يتقلب وينفخ غيظاً وحسرة على سلالة جوش الخائبة.

ربوة مجيد، عرفها جيل سلاطين. جيل الأفشْطفوش. أكثرهم إدماناً هو أولوا. فالربوة بالنسبة لهم وله خاصة، هي الحانة التي يشربون على سطحها الخمر وهي الخن الذي يدخنون فيه البانجو. وهي الركن الذي يتهتكون فيه. فعلى الجانب البعيد منها كان البعض يضاجعونه.

في الصباح على ظهر جمله السعيد. أردف خلفه معتوق. يسحب الحمار العالي وبقرتين إلى الحقل. مرواحه بالجمل فسحة ووجاهة وتباهي، فليس للجمل عمل مُلِح يستدعي شراءه. معتوق يفضل الركوب خلف آبدون على ظهر السعيد، فالاهتزاز القوي الوقور يسعده ويعطيه إيقاعاً جديداً اكتشفه، بصوته العميق ذي بحة الشجن ولسانه الذي وضحت حروفه لكنه مازال يتهته. يتغنى بأسماء الله الحسنى..

هوَ اللهُ الّذي لا إلهَ إلا هُوَ

المَلِكُ القُدُّوسُ السّلامُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ

العَزِيزُ الجَبّارُ المُتَكَبِّرُ.

الكلاب من أقصى النجع تأتي عدواً تهز ذيولها وتنبح ولا تطارد القطط التي ظهرت من خلف الجدران. يتابعون قافلة آبدون حتى تصل لمنتصف الحقول. الثيران والأبقار تسير خلف أصحابها. أما التي سبقتهم ووصلت حقولها فترفع رؤوسها في بطء حالم. تخور. تنهق الحمير. طيور القمري تصيح.. غو.. غو.. غو. وأمم العصافير تزقزق وأسراب من الإوز المهاجر تمر بكثافة فوق الكل على بُعد بعيد. توازيها أسراب اللقلق، ومتناثرات من الطيور العابرة تكاد تكون فوق رؤوسهم تغرد. أما جماعات أبو قردان بلونها الأبيض وأجنحتها الواسعة، فتلتقط الديدان والحشرات من البساط الأخضر وكلما حازت قافلة آبدون صفوفاً منها، تطير أذرعاً لأعلى مرفرفة صائحة ثم تهبط لتستكمل النقر في الأرض لتطير صفوفاً من بعدها حين توازيها القافلة. تتشكّل أمواجاً من البياض المرفرف تتوالى على بحر سندسي أخضر. الأوز العراقي يطير ويهبط على سطح النهر والأسماك تقفز عالياً فوق المياه وتعود إلى دنياها، السواقي التي تدور بأبقارها مبكراً تصدر كل منها صوتها ذا الشجن الخاص.

بقيت هذه المواكب الفرحة حول معتوق الخير طويلاً، وبدأت تبهت رويداً رويداً مع بَهْتِ الخير من بيت هَكيمة وآبدون ونمو معتوق الخير من الطفولة إلى

الصِبا وأول الشباب. حتَى افتقدها تماماً قبل مقتله. تذكرها آبدون قبل موته بالمرض الغريب ولم يتحدث عنها مع زوجته هَكيمة خجلاً، وتذكرها معتوق الخير وتحدث مع زوجته فرحاً بها وحنيناً.

إن كانت ساقية يونس تعمل.. تكون هي أجارها وأغلظها وأعلاها صوتاً، تعمّد إسنهاج وهو يصنع قطعة الخشب الصغيرة التي تصدر الصوت، تعمّد أن يجعلها غليظة لتصدر صوتاً غليظاً جهوريّا كصوت صاحبها يونس المجبّراتي. ساقية أخرى قريبة من الدرب الذي يسيرون فيه، كانت تنتشي لها أذنا معتوق.. يحب أن يسمع لحنها الذي يشبه تماماً مواء القطة اللينة المسالمة، فيموء معها مسروراً حتى بعد أن ترك الطفولة إلى الصبيا إلى الشباب. فكل صباح يحب أن يجاريها في لحنها وموائها اللذيذ.

الخير متدفق والبركة حتى في طريقهم! ولا ينتبه لذلك أحد بوعي، لا آبدون ولا معتوق. هكيمة مبهورة. زادت من تعليق التمائم على جدران الغرف الداخلية. أحضرت من يكتب على جدار الدار من الجهة الشرقية المواجهة للنيل والمعرّضَة لأعين الناس (ومن شر حاسد إذا حسد)، رشقت مزيداً من الأطباق الخزفية، ليس في نيتها تجميل الواجهة بالمزيد من الأطباق، ولا لتعكس أطباقها ضوء القمر ليلاً هداية لكل عابر سبيل، بل فقط لترد عين الحسود.

كل صباح باكر ما تكاد هَكيمة تدخل الحوش حاملة وعاءً واسعاً عميقاً مليئاً بحبوب إفطار الحمامات، حتى يستقبلها هديل غوغو.. غو.. غو.. غوغو. تأتيها الحمامات طائرة متهللة من فوق أسطح الحجرات، وتهبط إليها الأخريات متشوقات من أعلى سور البيت ومعها بعض اليمام البري. تحاصرها بأجنحتها المتنوعة الألوان. تنثر لها هَكيمة الحبوب وهي تحمد رب الخلق. شجار سريع بين الحمامات وبعضها وبينها وبين اليمام البري. وفي نفس الوقت الدجاج الكثيف من داخل حظيرته الخاصة يكاكي وتتصايح ديوكه متعجلة إفطارها وفسحتها في الحوش الواسع.

وما تكاد تدفع باب الحظيرة الكبيرة بكتفها، ويداها حاملتان كومة ضخمة خضراء، حتى تستقبلها أصوات بهائمها.. الجمل والحمارين والبقرتين وقطعان

الخراف والماعز، الجمل السعيد بارك ينتظر أن تضع له إفطاره أمام رقبته الهائلة طــولاً وســمكاً، والبقرتان في ترو يأتيانها، والحماران أسرع قليلاً.. أما الخرفان والماعز فتكاد تُسقط هكيمة من تعجلها.

تحــلب الــبقرتين فــتملأ قدوراً ومازال في الضرع بقية. اللبن في القرى مشاع، من يمتلك بقرة حلوباً يعطي لجيرانه، وللجيران أن يأتوا طالبين المزيد في أي وقــت. بيت هكيمة وآبدون صار ملتقى الطالبين، ثم صار ملتقى طالبي اللبن الــرائب والزبد والسمن. وكلما أتت بقرة جديدة في سلسال النســـــل المتدفق، باعتها لمن يستحق بثمن زهيد، بيع في حقيقته هِبة، وأرسلت التالية ليذبحوها في مولد أحد الأولياء في القرى القريبة صدقة للآكلين فلن تستطيع الاعتناء بأكثر من البقرتين والعمل في الحقل لا يستلزم أكثر منهما. أما الحمارة العجوز فهي حامل! الماعــز والضــأن رغــم أن هكيمـــة تحلبها، إلا أن اللبن سرعان ما يعود لينفخ الضروع. الأطفال الصغار يطاردون أغنامها إن لم يجدوا معتوق أو غيره يرعاها، يطاردونهــا حــتى يضطروها للعدو ما بين خور أورّك وخور البحر، وتحت سفح الجــبل أو فــي ســاحات النجع وعلى شاطئ النيل. يمسكونها، يستلقون تحتها ويشربون اللبن الذي ينهمر حالما تلمسه الأصابع والشفاه. تبلل ملابسهم وترويهم تمامــاً. فهمــت الأغنام ما يريده الأطفال فصارت تستسلم لهم وتعطيهم اللبن من تلقاء نفسها ليخف الحِمل من ضروعها المترعة.

ازداد خــوف هكيمة من الحسد رغم ما كتبته من آيات القرآن الكريم. أتاها معتوق بتراب ملوّن من سفوح الجبل. رسمت هي العين الحارسة على جدار البيت الأمــامي، عيــن بمساحة كبيرة ذات حدقة حمراء صارخة لتُخيف كل عين ترمي شــظايا حســد إلى بيتها. لم تخجل من سخرية آبدون منها، إن ما أصابها وهي صــغيرة فجفّــف جســدها، وما أصاب ابنهما من مرض وشذوذ ما هو إلا حسد ومشاهرة. أخذت في بيع الكثير من بهائمها وطيورها حتى ترحم نفسها من تزاحم العيــون عــلى دارهــا الــتي تكدست فيها البهائم والطيور، لكن التكدّس مستمر والعيــون تترصدها والألسن تلقي بالحروف تحمل ما في جوف صاحبها الذي شع من عينيه.. عيون حسودة، وعيون رَطِبة تدعو بزيادة الخير. حروف الألسن تُنَغِّم إما خيراً وإمّا شراً، فمن قائل إنها بركة معتوق الخير، إلى قائل إنها بركة جوش

الكبير ولي القرى. والبعض يقول إن آبدون فلاح جيد وهَكيمة ربة بيت ممتازة. ولم يسلم البيت وخير البيت من العين الحاسدة والنفس الحاقدة والروح الطيبة.

آبــدون يوبــخ ابــنه كثيراً. ألمح له أكثر من مرّة بسماعه بعض الأقاويل. يسأله أولوا في تحد..

- ماذا سمعت؟

يعــلم أن أبــاه لــن ينطق لسانه في هذا الأمر المشين. لا يجرؤ آبدون أن يقول..

- إنك مخنث. إن الشباب يضاجعونك. إنك شاذ.

يبتــلع آبــدون ما يريد قوله، يخشى ضرب بنيان شخص ابنه الضعيف. لا يســتطيع القــول بما يثبِّت ما يريد نفيه من سويداء قلبه. ما لا يريد أن يصدقه.. أن أولــوا ابــن آبــدون بن موسى بن جوش.. شاذ سلبي! آبدون خلال أحاديثه وَوَنَسَــته مع ناس القرية، يعتريه القلق أن يشير أو يلمح أحدهم إلى شذوذ ابنه، رغم استحالة التشهير في القرية. لكنه يخشى.

ورغــم تعمد أولوا أن يضايق أباه، إلا أنه ينفرد بنفسه ويبكي شفقة بأبيه وحــباً لــه. ورغم تعاليه المظهري على أبيه، وتعمده تقطيب الوجه حين الحديث معه، إلا إنه يراقبه من طرف خفي. يقلده في ربط عِمامته، في انتقائه لملابسه، يقــلده في اعتزازه بنفسه لكن بدون أي مسحة ظاهرية من التواضع. يقارن بين نفســه فــي شتّى المجالات وبين والده، والده تعلم حتى وصل لبضع مواسم في أزهر القاهرة، مكانته عالية في القبيلة ولا يخزيه شيء. الذي يريحه ويجد نفسه فيه متفوقاً على أبيه.. أنه وإن كان أقصر منه وأضعف، فهو الأكثر وسامة.

اســتولى على الحمارة القديمة العجوز وهي حامل. قال إنها له. خاصته. لا يركــبها ســواه، لا آبــدون ولا هَكيمة ولا معتوق بالطبع. وافقاه. يمتطيها وهو يرتدي الجلابيب البيضاء المفرودة جيداً وفي قدميه المركوب شديد الحمرة وعلى رأسه طاقية مزركشة ناصعة ويجوب القرية متفاخراً، لسان حاله يقول.. إن كان عــند آبــدون جمــلاً خاصاً به، فأنا عندي حماراً خاصاً بي. آبدون يعلم أن أولوا يقــلده، لكنه لا يستطيع الرضا عنه ويخشى اليوم الذي يواجه فيه العيب المُهين المــتمكن في جسد ابنه. مرعوب من هذا اليوم. كان يشفق على سلاطين حينما

كان طفلاً، لكنه الآن يكره سلاطين. يمقته. يتمنى أن يفعل سلاطين مثل أبيه أثمان ويهــرب من البلد يوماً ما. تشطح به الآمال الشرّيرة فيتمنى أن يهب ناس القبيلة ويقتــلوا سلاطين مثلما هبّوا وقتلوا خاله. عندها، يستغفر آبدون ربّــه من نيته القاسية، لكنه لا يستطيع إبعاد هذه الأمنية.. لو يقتلوا سلاطين؟ ربما انكتمت هذه الأقاويل التي تفضح ابنه.

هكيمة لا تستطيع الضغط على أولوا. سيتحطم تماماً إن فقد صبر أمه عليه. تعــلم بمـــا في ابنها، لكنه ابنها. لا تشير ولا تلمح لهذا الأمر أبداً. تضغط على آبــدون ليمتــنع عــن إحراج ابنهما. تؤكد أنهما سوف يفقدانه تماماً إن واجهاه. تتيقن أن عطاء الله لهم المتمثل في معتوق الخير، له أثر رئيسي في أزمة أولوا. وأن ابنها لم يستطع حتى الآن أن يفهم أن معتوق أتى ليحمي حياته، وحين يفهم بعد وقت تأمل أن يكون قصيراً،سوف تبرأ نفسه من الكثير من آلامها. اعتقدت أن المــزيد مــن الصبر والمزيد المزيد من الحنان سوف يساعدان أولوا على تخطي آلامـــه النفسية والعيب الذي ابتلاه الله به. ولم تستطع أن تمنع نفسها من سؤال ربها..

- لماذا ابني أنا؟

استغل أولوا ضعف قلب أمه تجاهه، طلباته تكثر وأغلبها مُجاب. صار وهو مـــازال في بداية مطلع الشباب، يمتلك جلابيب تماثل ما عند والده عدداً وفخامة! العديــد من الطواقي، ثم من العمائم. في ركن حجرته التي استقل بها لنفسه أكثر من مركوب. لكنه للآن لم يطلب عباءة ذات لون بني فاتح، مثل عباءة والده. لا يريد إثبات تقليده لأبيه. وإن كان ارتداؤه العمّـــة الضخمة الفخمة مبكراً قد جلب عــليه الســخرية مــن الصغار والكبار، فهو الآن ليس في العمر الذي يسمح له بارتدائها مثله مثل أي رجل في القرية.

وضــعت الحمـــارة القديمة وليدة شهباء حلوة. قالت هكيمة سأبيعها حالماً تُفطــم. معتوق أحب الوليدة. وعندما رآها تبرطع هنا وهناك فرحة بالحياة، أطلق عــليها اسم فرهانة. حرض آبدون على ألا يبيعها. البيت أصبح فيه ثلاث ركائب غيــر الجمل السعيد، لكن تحت ضغط آبدون ومعتوق وإصرار أولوا بأن الحمارة الأم لـــه وحـــده، وافقـــت هكيمة على الإبقاء على فرهانة. ذبحت نعجة على باب

الــبيت. غمســت سطح كفيها في الدم الساخن وطبعت على خشب الباب العريض وعلى الجدار من جانبي الباب رسم كفيها " خمسة وخميسة" خمس مرّات لتكوِّن كتيبة جديدة للدفاع وإبعاد العيون الحاسدة وتصدّقت بالنعجة كلها.

التفاهم تام بين معتوق وقرهانة. لم تمر شهور قليلة حتى وضح أن قرهانة الصــغيرة ســتكون ركوبة هائلة حجماً وقوة وذكاء. أولوا لم يسترح لذلك، فكيف ســيتفاخر بامتلاك ركوبة له وحده إن كان معتوق ستكون له ركوبة وحده أيضاً، ركوبة أجمل وأقوى من ركوبته هو شخصياً! قال إنه ملّ من الحمارة الأم وسيأخذ قــرهانة لـــه. أمـــا معــتوق فله أن يستخدم الحمارة الأم ليقضي بها أعمالنا. لم يعترض والداه حتى لا يغضباه.

صباح اليوم التالي. أردف آبدون معتوق خلفه على الجمل السعيد. يسحبان خــلفهما الحمـــار العـــالي والبقرتين. قافلة تتجه إلى الحقول يودعها نباح الكلاب وتســتقبلها طيور الحقل. آبدون يضحك على حديث معتوق بأن قرهانة سترفض أولوا..

- مــتى كـــانت الركائب تبدي رأياً؟ أقصى ما تملكه البهائم، أن تحب وأن تكره في صمت.

بعــد ساعات من العمل في الأرض. اتجها إلى نخلة جوش. خلعا جلبابيهما. غطســا في النهر العفي. سبحا إلى جزيرة تايي. آبدون يضرب بساعديه ويحرك ســاقيه في براعة فيشق عرض النيل في سرعة. معتوق أطرافه تعمل من أسفل الماء. لا يظهر منه غير رأسه الأسود وشعره الأكرت الكثيف. يخيّل لمن يراه من بُعد أنه إناء غريب داكن مقلوب فبان قعره المهبّب من دخان الحطب المحترق.

آبــدون ســبقه إلى الجزيـــرة الصخرية، جلس ضاحكاً على طريقة سباحة معتوق التي لا يريد أن يبدلها. حاول معتوق أن يسرع، يقفز برأسه لأعلى وللأمام ويهبط لترتفع مؤخرته وتظهر على سطح الماء لتعود فوراً لتظهر الرأس. وصل إلى الجزيـــرة. صعد وجلس بجوار ربيبه وصدره هادئاً كأنه لم يفعل أي مجهود. وضع آبدون يده على رأس معتوق..

- هل أنت غاضب من أخيك أولوا؟

- لــــ.. ماذا؟

- لأنه سيأخذ قرهانة التي أحببتها وتفاهمت معها؟
- قر.. هانة.. ترفض.

قبل المغرب. صحي أولوا من نومه. في حوش البيت أتى بالحمارة الأم، حتى تخرج خلفها قرهانة. ترك الأم وحاول امتطاء قرهانة. تهرب منه. تدور حول أمها وحول نفسها. أولوا يصفعها بكفه. تبرطع في الحوش وتنهق غاضبة. والحمارة الأم تحاول أن تقف بين أولوا وبين ابنتها لتحميها. خرجت هكيمة من غرفة المطبخ. طالبت ابنها بترك قرهانة وشأنها والصبر عليها. رفض. حاورها. دخل معتوق الحوش آتياً من الحقل. أولوا أمسك بعنق قرهانة فجرت به تجرّه على الرمال. قاربت معتوق، وقفت عنده. أولوا صدره يتحشرج. هربت منه قرهانة وعادت تتلمس الحماية من أمها. معتوق وهكيمة يراقبان أولوا في إشفاق. غضب أولوا. هجم على قرهانة وصفعها بقوة بين عينيها. فضربته برأسها على صدره فوقع أرضاً على مؤخرته. التفت قرهانة وارتكزت على ساقيها الأماميتين. صرخت هكيمة فزعة. أولوا مقعي أرضاً يستند على ذراعيه ينظر في بلاهة ورعب إلى مؤخرة الحمارة الصغيرة. معتوق أسرع وأمسك أولوا من شعره الطويل وسحبه جانباً أسفل. رفسة قرهانة أفلتت وضربت في الهواء ثم ركضت إلى أمها المراقبة.

أتت هكيمة تعدو. احتضنت أولوا الذي بقى مستلقياً في ذهول. أقسمت هكيمة أنه لن يأخذ قرهانة لأنها ستقتله. أولوا ترك حضن أمه ووقف. نظر لمعتوق في كره صريح لا يلين. بصق على وجهه وابتعد يلعنه. هكيمة ساءها ما فعل ابنها بمعتوق. أسرعت خلفه وأمسكت به..

- إنه يحبك يا أولوا. أنقذك حالاً من رفسة قرهانة. قرهانة لم تُرَوّض للركوب بعد. جسدك الضعيف لم يكن ليتحمل تلك الرفسة.
- ولماذا ينقذني هذا العبد؟ وأنتِ.. أنتِ تحبينه أكثر مني أنا.
- لا يا أولوا.. أنا..
- أنتِ تكرهينني.
- أولوا. حرام عليك.
- اتركيني.. اتركيني. قلت لك اتركيني يا هكيمة.

هَكيمة تزداد تشبثاً بأولوا وتحتضنه باكية.

كــل أدوات معمل الخمور خزّنها أثمان. تحول محله إلى دكانة بقالة وأنواع مــن الأقمشــة والــبخور وكل ما يهم النساء من حنّة وروائح عطرية ومحلبية وزيــوت الــتدليك، تبغ وأوراق لف الدخان. شاي وبن مطحون وحبوب. آبدون تكفــل بكــل شــيء بمــزاج. لأنه صار يحب الرحلات وزيارة القرى المجاورة. ولإغاظــة مُهــدي الأصفر ومحاربته، فوق جمله ذهب لأكثر من قرية يجلب منها البضــائع، وأوصى المراكب الصاعدة إلى مدينة حلَفا بإحضار الزيوت والأعشاب المطــلوبة بالإضــافة إلى الأحجــبة. ولم ينس الأطفال.. طلب من سُوين الملبن والمصاصات السكّرية والغوايش المقلّدة للبنات الصغيرات. وقال لأثمان كورنة..

- ســوف أذهــب بنفسي لتجار سُوين وأحضر لدكانك ما لم تره عين في قريتنا هذه.

أثمــان تحمــس سعيداً بمنظر الدكان المليء والمهنة الجيدة. يقول لكل من يجيئه..

- لقد هلك مُهدي الأصفر، انتهينا.

معــه دفتر كبير يقيد فيه كل ما يبيع، ومكانته تعود وسط ناس القرية. عاد لــه زواره الذيــن ابتعدوا عنه عندما مارس العمل في الخمر. يأكلون من طعامه ويشــربون مــن أزياره بدون حرج. المال حلال وعفا الله عما سلف. أصدقاء له محــبين لحكاياته وكرمه عليهم بإعداد المشروبات الساخنة والباردة ومنح لفائف الدخــان، يلــتفون حوــله في ظل سقيفة أنشأها تطل على باب دكانه، وعدد من أشجار السيسبان سريعة النمو. هذا لأن شجرة الجميز التي زرعها بجانب دكانته لتــناطح شــجرة كافور مُهدي، لم تشب بعد. يحكي لهم عن قرى الجنوب البعيد والــبحر العظيــم المســتدير. لكنه لا يقترب من حياته الخاصة هناك. يلعب معهم السيجة على سطح الرمال الناعمة، وبقطع الزلط الملونة، وإن أتاه من يريد شراء شيء وهو مندمج في الحديث أو اللعب، فعليه أن يدخل بنفسه ويأخذ حاجته. وإن كــان يســتطيع الكــتابة، فعــليه أن يسطر حساب ما أخذه بنفسه. أو فليقم أحد الجالســين حوله بتسجيل ما بيع حتى ملّ رفاقه من هذا فتركوه يكتب هو حساب الزبائن بعد أن ينتهي من لعبه، وبالطبع أثمان ينسى وبالطبع لن يهتم بما يخسره.

أتــته التي تعطي جسدها لمُهدي مقابل ما تحتاجه من دكانه، وما تطمع فيه أيضــاً. راودته مرّة من بعد مرّة. أثمان كلما انفردت به يصيبه الاضطراب، يتمنى أن يذهـب إليها ويجرب معها، ويخشَى من الفشل الذي يتوقعه حتماً. شرب كمية مــن العَـرقى كافية لتجلب له الشجاعة. ذهب إليها ليلاً يحمل لها أكثر مما طلبت لخشــيته ممــا هـــو مقدم عليه. ولما فشل انهار عندها وبكَى ولعن ساحرة كانت زوجــته وفعــلت فيه ما يمنعه من مضاجعة غيرها. يلعن ويبكي وينشج بكلمات سريعة غير مفهومة شوهها سكره، لكن اسم المرأة التي يلعنها، صار معلوماً لمن تسمعه ساخرة شامتة ضاحكة. كما أن اسم الساحرة التي تزوجته مواسماً معلوم لســلاطين وغيــر ســلاطين ممــن سمعوه من فم أثمان وهو ليس في وعيه.. ماجيتا.

ورغم عصبة الرجال التي تحيط به أغلب النهار وشوط من الليل، وبعضهم يســتغله في أخذ بضائع بأسعار منخفضة بحجة أنهم أصدقاء، بدأ أثمان يمل من هذا العمل قبل استدارة موسم واحد. أخذ يميل لضغط سلاطين عليه أن يعود للعمل فــي الخمر. الدكان صار له مجرد محبس حبسوه فيه. يجلس طوال النهار في مكان واحد يبيع بالتجزئة أشياء أغلبها تافه تجلب عليه السأم. أراد أن يذهب مع آبدون إلى القرى لجلب البضائع، حجّة ليتحرك ويبدل من سكونه الطويل في مكان واحــد. لكن من يبقى في الدكان؟ يترك الدكان مغلقاً نصف يوم أو يوم. عارضه آبــدون بقوة. يضربه الملل والضيق أعنف وأعنف كل يوم. يأتيه الزبائن الذين امتــنعوا عن التعامل مع مُهدي. يتباطأ عليهم. المسامرة مع أصدقائه أهم عنده. تشــاجر معــه الكثير. الدفتر لا يقيد بهِ حسابات الناس إلا فيما ندر. يكره مجرد فتحه. لا يأبه بلوم آبدون وهكيمة. آبدون مع الأيام قطع الأمل فيه تماماً. توقف عن إمداده بالبضائع.

زبائــنه بعدما أصر على إهمالهم ووجدوا أرفف دكانه تخلو، تركوه وعادوا إلى دكانــة مُهدي الأصفر. فكان هذا بدوره يقسو عليهم لأنهم عادوا رغم أنفهم. يعامــلهم بجفوة ويتهمهم بِقِلة الأصل. يتحملونه غصباً عنهم. لكنهم ربحوا الكثير من دكانة أثمان. فقد باع لهم زمناً بأسعار أقل من مُهدي وأيضاً لم يقيد عليهم إلا جزءاً ضئيلاً من الدين.

أخيراً، أغلق أثمان الدكان. صار عاطلاً.. لم يعد له سوى التدخين وجلسات الوَنَسَـــة مع عصبته كل عصر بشرط أن يستمر في كرمه عليهم وإلا انفضوا من حوــله، شغل نفسه بالتنقل من مكان إلى مكان داخل القرية. الحكي مع هذا وهذه خاصة تَعويضة لِسانين التي تشعله غضباً عندما تثيره بمزاحها الثقيل وتهزأ به وتصـــر عـــلى أن يحكـــي لها عن رحلته إلى النهر المستدير والشلال العظيم. أن يعترف لها لماذا لا يتزوج؟ لماذا عزوفه عن النساء؟ وهل أصابته العنّة أم ماذا؟ ومن هي صاحبة اسم ماجيتا التي يصيح بها أحياناً وهو مفجوع مذعور؟ أما الذي كـــان يحرضه على ترك دكانة البقالة والذي أشبعه لوماً وتأنيباً على ترك صناعة العرقي وتجارتها، سلاطين.. فقد سعد سعادة بالغة.

كل صباح وكل مساء، البنات يذهبن إلى النهر لملء الجرار بالماء. والجرار المليـــئة ثقيـــلة، لكنهن يحملنها على رؤوسهن ويسرن بها في رشاقة وتوازن. تتماوج أجسادهن باعثة من تثنيها أمواجاً لطيفة. والمسافة ليست بالقريبة. يومياً يهبطن الحقول ويعملن فيها بجد. ورغم خشونة باطن كفوفهن وأقدامهن، ورغم أنهـــن أيضاً يركبن المطايا مثل الرجال ويسرعن بها، فأنوثتهن تزداد ازدهارا في قدودهـــن السمهرية. وفي عمرهن هذا المتشوق المتطلع، يبدأ جيل الشباب الأكبر منهن في الانتقاء منهن زوجات والأغلب يكون من أقرب الأقارب سواء من جهة الأب أو من جهة الأم.

أمـــا ســيئات الحـــظ منهن، وهن قِلة، فلا تتفاعل أنوثتهن مع نار الشمس لتســـتوي. ولا تنضـــج مواضع أنوثتهن مع دسم غرين النيل خلال سباحتهن فيه وشربهن منه. ولا تتفتح أزهار وجوههن مع نسائم الشمال الرطبة ولفحات هواء الجـــبل الساخنة، فلا تتثاقل ثمارهن مستوية. مثلما تتثاقل سباطات النخيل بالبلح المســـكَّر والكـــروم بعـــناقيد العنب البهية الزاهية. لا يحمل عودهن النيئ ثماراً للمانجو، ولا يعطي عرق جسدهن أريجاً أنثوياً يجذب أنوف الذكور.

لـــم يـــتخط مرحلـــته العمـــرية ويلحق بالشباب كامل النمو الأكبر منهم إلا ســـلاطين بجســـده القـــوي وذقنه التي أخذ في حلاقتها وشاربه الواضح الجلي. ساعده في النمو الأسرع استمراء أولوا واستسلامه له، ثم مداعباته لجسد بجيوَة الفائر والذي يعادله في سرعة النمو والاستعداد للولوج في عالم الأسرار الحسيّ.

ســلاطين صــفحة صدره نمت عليها شعيرات على استحياء. يجيوَة تفجر ثدياها بدون حياء. انزلقا معا إلى لسعة الجنس متعجلين.

ومن جيل سلاطين، برز فَيّاج بتطاول جسده المفاجئ. يشتد نحافة وترتفع كــتفاه على أكتاف جيله حتى صار أطولهم متخطياً الكل. وبعدها صار بائن الطول حتى بين الرجال. طويل العنق طويل الساقين ممتد الذراعين. عظامه عرضت وإن كان خفيف اللحم فاقداً للدهن. سعدت به أمه ديوانة مسكين. فقد صار ابنها صورة طبق الأصل من أبيها. وسعادتها نابعة من أن ابنها لم يأخذ من ملامح أبيه شيئاً، لم تعش لترى ابنها وقد أخذ الكثير من موهبة أبيه في التجارة، وتفوق عليه، وإن كان لم يأخذ بخله، أو تطاوله على الفتيات المراهقات.

أطفــال جـدد التحقوا بالكتّاب. الذي سيتحول مع المواسم إلى مدرسة ذات دروس ومدرســين جــدد. بــلال ومصطفى وصوفاني، هم وحدهم من رحلوا إلى مدرســة سُوين الداخلية، استعداداً للالتحاق بأزهر بر مصر فيما بعد. شعر ناس نجــع أورّك بالغيــرة، لعــنوا أولادهــم. بــلال صَلاتو من نجع نجيبيّة، مصطفى وصــوفاني مــن نجع المنحنَى. ولا ولد واحد من أورّك شرفهم باستكمال تعليمه! الســبب في رأيهم هم شلة الأفَشْطفوش. مجموعة التافهين. خاصة هذا الملعون.. سلاطين.

ولما عاد أثمان كُورنة لتجارة الخمر، جعل له اثنين من المساعدين، أحدهما كعــامل يحمــل القدور والأجولة يقوم بالغسيل وبعض أمور البيت أيضاً، والآخر يمتــلك عقــلاً يمكــنه من التصرف، مهمته الرحلات لشراء وبيع منتجات أثمان. ســلاطين يــرافقه فــي الرحلات على مراكب بحّارة قبائل الكُنوز. النقود معه هو ويتعــلم مــن التابع البيع والشراء. أصبح وهو في مطلع الشباب رجلاً مسئولاً يكســب وينفق على نفسه وعلى سهرات شلة الأفَشْطفوش بصفته زعيمهم بدون منازع. أما أثمان.. فبدأ من يومها تتقهقر مكانته بالنسبة لابنه سريعاً سريعاً حتى صار تابعاً لابنه!

أولوا لا يذهب إلى الكتّاب، ولم يَغرْ من ذهاب بلال ومصطفى وصوفاني إلى سُوين لاستكمال دراساتهم. لا يستجيب لتشجيع آبدون وتذكيره له بأن جده الشيخ موســى جــوش أزهــري أصيل، وإن أصول عائلته تزيد أهمية دينية عن عائلة

صَــلاتو نفسها، وإن جده جوش كان أعظم وأكثر أهمية من العمدة. لكن أولوا لا يتأثر، كل ما يهمه هو التأنق بالملابس وعمامته التي يرتديها بإصرار، عقله في مجالس السكر مع الأفشْطفوش وتدخين البانجو. ولم يمر موسم فيضاني واحد، إلا وصــار همّه إغراء الصبيان في أول بلوغهم ليجامعوه بعدما فقد اهتمام سلاطين به. يظن أن أمر شذوذه مكتوم محبوس بين عدد شبه محدود. حتى كانت ليلة بعد صــلاة العشاء مباشرة، جاء مرسال من عند الشيخ صَلاتو، يطلب آبدون. أخرج الحمـــارة العاليـــة. مـــتوجس أن يكون الأمر يخص أولوا. هَكيمة تنظر إلى وجه آبدون فترى ملامحه قلقة من نفس الأمر الذي يرعبها.

فـــي حجـــرة متطرفة. وحدهما، آبدون والشيخ. صَلاتو مهموم مضطرب لا يعـــلم كيـــف يـــبدأ. الفـــانوس الضـــعيف يلقي ظلالاً على وجهه. الشعر واللحية البيضـــاوان يشـــعان حزناً. آبدون تيقن أن الأمر يخص أولوا. غاص قلبه خجلاً ومهانة. فترة بدون حديث. حتى تنحنح الشيخ يساعد حنجرته التي يكاد أن يحس بها وقد تيبّست. بَيّـــن أولاً مكانة آبدون عند ناس القرية كلها والقرى المجاورة. ومكانـــة أبيـــه موســـى جوش الذي دَرَس في أزهر بر مصر. وجدّه الولي الكبير جـــوش الـــذي لم يظهر ولي مثله في كل قرى النوب. كل هذا تمهيداً لما يريد أن يفجّـــره مـــن مهانة ابنه أولوا. وآبدون يستمع للمديح بلا طرَب، فضربة الفأس سوف تقع حالاً على أم رأسه. وقد كان.. لقد اشتكى عدد من الآباء والأمهات من أولـــوا، إنـــه يحـــرض أبناءهم لفعل الفاحشة فيه. دموع جرَت على خدّي آبدون بمجـــرد أن بدأ الشيخ يسرد بأبسط الكلام وأخفه. يطامنه الشيخ بأن ما يفعله ابنه هو مجرد لعب أطفال. وأنه بقليل من الزجر سوف يعود إلى صوابه.

صـــمت الشـــيخ. فترة وأتت ابنته بصينية طعام خفيفة. لم يمد آبدون يده. الحزن المشتعل يحرقه. مقاومة من داخله. إن الشيخ هو الذي يعلن خزي أولوا. الشـــيخ الـــذي سلب المشيخة والمكانة من أبيه موسى جوش وحولها لخليط بين المشـــيخة الديـــنية والخوجـــة التعليمية. الآن يعلن فضائح حفيده أولوا. هل هي مصادفة، أم أن الشيخ صَلاتو يقصد ذلك لكي يحطم آمال آبدون ويكسر إرادته في إعـــادة المشـــيخة والولاية لعائلة جوش، بإعلانه سقوط ابنه أولوا؟ يقصد إبلاغ آبـــدون أن المكانـــة حـــتى في المستقبل ستكون لبلال حفيده ولن تعود إلى ذرية

جـوش أبـداً، وأن على آبدون التسليم بهذا. دقائق ويعود لآبدون وعيه ببعض الجوانب الأخرى.. الشيخ صَلاتو يحبه وأكيد تصدّر هو ليتكلم معه خفيّة وبهدوء ليحميـه مـن حديـث علني أو أسلوب قاسٍ ينطلق من أحد أبناء القبيلة يجرحه ويجـرح معـه زوجته هَكيمة. صَلاتو طيب. هذا كلام العقل الذي يناسب الواقع الذي يجري. لكن أنّى لآبدون أن ينس أمراً أمَرّ نفسه بمرارات عميقة، وأمَرّ نَفَس أبيـه بمـرارات أعمق وأحد وأقسى؟ ومن يقول إن العقل والواقع يستطيعان أن يتغلبا على الآلام والشائهات النفسية.

عـاد مـنهاراً إلى هَكيمة. تمدد على سرير في الحوش. لم تتركه هَكيمة. اسـتلقت بجانـبه. تمسـح دموعه تربت على صدره. تهدئه حباً فيه وخشية أن يـتوقف قلـبه ويموت كاسفاً قانطاً من ذريته. تهدئه خشية أن يؤذي ابنها أولوا حيـن يعـود. أتت له بإبريق جده النحاس ممتلئاً بالمياه الرطبة ليتوضأ ويصلي ويهـدأ، لم يستطع الوضوء فترك الإبريق ولم يستكمل وضوءه. تلقى من هَكيمة كلمات ثقيلة عن الشيخ صَلاتو. ترفض تدخله فيما لا يعنيه.

مصـيبتهما تجسّدت الآن.. الآن فقط. عليهما مواجهة الأمر. علما من قبل بما في ابنهما ، لكنهما لم يعترفا تماماً بهذا! شيء ما كان يمنعهما من قبول هذا الأمر الشائن، خاصة آبدون. فلم يواجههما أحد مواجهة تصادمية بعارهما. اليوم حدثـت المواجهة التي كانا مرعوبين منها. تجسّد العار وصار بدناً يعيش معهما الآن. يـأكل معهمـا يـنام معهمـا يأخذ مكان نومه معهما. يراه معهما كل ناس القبيلة.. شخص معلوم في كل القرية. اسمه العار.. عار ابنهما.

دخـل معـتوق البيت، رآهما. وقبل أن يتجه ناحيتهما، توجهت هَكيمة إليه مشـيرة لـه بيديها أن يقف حيث هو. أبلغته همساً أن آبدون غاضب على أولوا، ربمـا ضربه وربما صرخ أولوا. طلبت منه ألا يبقى في البيت هذه الليلة. منعته من مجرد النقاش أو السؤال عن السبب. فعاد معتوق الخير ذاهباً إلى بيت العمدة.

آبـدون مسـتلق يواجه الجدار، تضربه أمواج العار. هَكيمة وهي مستلقية بجانـبه، تربت على كتفه وتداعب شعره أن يستكين غضبه قليلاً، تضربها أمواج أمومتها خشية على ضرر يلحق بابنها من غضبة أبيه.

وعاد أولوا مخموراً. لم تستطع هَكيمة أن تمنع آبدون منه. ألقى بها كأنها وسادة لا حَول لها ولا شأن. أمسك بتلابيب أولوا. دفعه لوسط الحوش. سقط أولوا أرضاً. ركله آبدون. صرخ أولوا مستغيثاً بأمه. تأتي هكيمة لتنقذه فيقذف بها آبدون بعيداً. يرفع أولوا من الأرض فيوقفه. يبصق في وجهه ويناوله صفعات متتالية تفرقع في سكون الليل. يلعنه..

- يا مخنث. يا علِق. يا عار جوش.

يحاول أولوا الهرب وقد كاد الهلع أن يفيقه من ثِقل السُكر. ينادي أولوا أمه التي ترتمي على يد آبدون الممسكة بجلباب ابنهما، يتمزق الجلباب وتقع هَكيمة بينهما. يهرب أولوا داخل البيت. بعض الجيران سمعوا صراخ أولوا. دعوا أن يهديه الله ويرحم والديه. قرأوا الفاتحة على روح جدّه الكبير جوش الولي، مذكرين بعضهم بالمثل الشائع..

- يخلق من ظهر العالم فاسد.

أسبوع لم يخرج أولوا من بيته. رفض أن تستدعي أمه يونس ليعالج له كدماته وجرحاً في فمه. يعاني من مهانته ومن قسوة أبيه ولا يدري ماذا بعد؟ تأتيه أمه فيرفع وجهه المجروح لترى ما فعله آبدون به، يستعذب ألمها بإصاباته. لم يزره أحد. فالكل يعلم لماذا اختفى أولوا في بيته. سلاطين لم يهتز. حتى لم يشعر بخجل تحت نظرات الناس. حاول أبوه أثمان أن يحادثه. يستجوبه في رفق. نظر إليه سلاطين شذراً فابتعد أثمان عنه.

بعدها ابتعد سلاطين تماماً عن مضاجعة أولوا، ليس تسامياً أو عن هداية، استمرأ جسد بجيوَة. جسدها متفجر بالأنوثة وتعطيه الكثير عدا الإيلاج فيها. أحياناً يهيج ويصر فتتركه يفعل من خلفها. ومؤخرتها أفضل كثيراً من مؤخرة أولوا النحيفة. ميزة أولوا الوحيدة على بجيوَة أن بجيوَة تعطي سلاطين خلفها لتريحه، لا تتفاعل معه في هذا الوضع، بل هي كارهة لذلك ومضطرة لترضيه، أما أولوا فيتفاعل معه تماماً، بل إنه يتأوه كأنه امرأة تحت رجل، وفي نفس الوقت يستحلب قضيبه ليستكمل قذفه الخاص.

أولوا بعد أن ضربه أبوه ولعنه بالمخنث والعِلق، وعايره بأنه عار جوش، يريد أن يهين آبدون ويهين كل جوش. يريد ويأمل أن يمارس ما يبغيه مع كل

صـــبي وشاب يريده. يريد أن يحرق اسم جوش حرقاً. ولم يفعل ذلك. لم يستطع. توقف فترة عن ممارساته وهو يتألم من الحرمان.

آبدون لم يعد يحادث أولوا أو يلقي عليه تحية صباح أو أية تحية. يتجاهله تمامـــاً ولا يـــريد أن يـــراه. بـــدأ يكثر من رحلاته على جمله السعيد إلى القرى المجاورة. خاصة بعد ضربه لأولوا. رحلاته بعيده عن قريته وعن خزيه في ابنه. ومـــن تعـــوده على الارتكان على معتوق الخير في أمور الزراعة، لم يعد خشن الـــبدن مشـــدود القوام كما كان. مَسّه الترهل واللين سريعاً خاصة وقد عَبر فترة الشـــباب وكـــاد أن يعبر مرحلة الرجولة الفحلة. كلما لام أولوا سواء بالكلمات أو بالـــنظرات، تحاشى عيني هَكيمة التي تكاد أن تتهمه هو أيضاً بأنه مال إلى اللهو والاســـتكانة. جيـــبه دائما يحوي علبة الصفيح اللامعة وبها الدخان وورق اللف الخفيف. لقد صار مثل أثمان مدمن تدخين. والخوف أن يدمن يوماً شرب العرقي أيضاً، من هذا تخاف هكيمة. تخاف على سمعة زوجها حفيد جوش.

معـــتوق حـــبّه للاستكشاف ولهفته للغوص في الطبيعة من حوله لم تشبع. دائمـــاً يـــنظر جهـــة الجـــنوب الغربي حيث جبل فرعون. في النهار وعند بداية الصـــباح، حيث تكون الشمس على الجانب الشرقي لم تستكمل صعودها، وأشعتها على جبل فرعون أفقية حانية، فتظهر أعمدة المعبد وردية باهتة. يراقبها معتوق من ناحية الحقل. نفسه تهفو إلى الوصول إليها.

فَيّـــاج يساعد أباه. يختلس من الدكان. أبوه يعلم ذلك وكل يوم يتشاجران. لكـــن فَيّـــاج لا يعدم وسيلة يحصل بها على ما يريد. لا يقبل أن يكون أقل أهمية وسط شلة الأفَشْطَفوش عن سلاطين وأولوا. إنه فَيّاج بن مُهدي أحد أعرق وأغنى تجـــار الـــنوبة. ورغم كل ما يفعله، يشعر أنه محاصر بطغيان سلاطين. سلاطين يمـــلك القـــوة والمال وحوله أولوا والأشرم وسَيّد هَربية. ذيول له. حتى البنات بجيـــوَة وكِسبانة تتمنيان سلاطين. رغم أن سلاطين كثيرا ما يهينهما ويضربهما كمـــا ضرب كِسبانة ضرباً قاسياً بعد أن وشت به عند الشيخ صَلاتو. يستمر فَيّاج في شرح وضع سلاطين ومكانته في الشلّة وكل جيلها..

- وهُوشَة. تلك القطيطة البلهاء نظراتها دائماً حيث يكون سلاطين. الشيء الذي يغيظ ويحرق سلاطين، هو معتوق الخير. ومعتوق لا تهتم به سوى راضية.

ذلك اللقيط لا يشترك في أي تكتل ولا ينافس أحداً. إن ما يحرق سلاطين ولا يقدر عليهما هما هذان.. معتوق وراضية. معتوق أقوى منه ولا يأبه له ولا يهمه من يسـيطر عـلى الشـلة. راضية لا تحترمه، لا هو ولا أولوا ابن خالتها. سلاطين يريدها أن تهتم بأولوا، لكنها تهتم بمعتوق! والاثنان أخوتها بالرضاع!

فيّاج يحلم أحلام ظهيرة..

- إن كسـبت راضية زوجة لي، كما يُلمح لي أبي، ضربت سلاطين وأولوا بدخولي عائلة العمدة. يكون مال أبي يوماً لي وسلطة العمدة وماله أيضاً. راضية هـي الـتي تصلح لي زوجة وليست بهيتّة خيشة قريبتي. ثم أن بهيتّة تميل من زمان إلى صوفاني.

تـاج أخـذه الفن. يتأنق مثلما يتأنق سلاطين وأولوا وفيّاج. الكل يعلم أن فوزيـة تمده باحتياجاته، ومنها جلابيبه! فأبوه فقير. الطنبورة التي دفعت ثمنها فوزية لا تفارق يده، فصار تاج طنبورة. أصبح عازفاً مبدعاً بالإضافة إلى صوته الجميل. صار تاج مطرباً شهيراً بالنسبة لسنه. يوماً بعد يوم تزداد شهرته سريعاً. في ليلة عُرس، فاجأ نفسه وفاجأ الجميع بغنائه أغنية بناها على اللحن الذي ألفه وهو طفل أيام الكتّاب وأيامها غناها معه الأطفال..

كِشِبْ كِشِنْ.. كَيْ كَيْ كَيْ
كِشِبْ كِشِنْ..
كَيْ
فوزية لون البلح.. كَيْ كَيْ كَيْ
فوزية عسل انطرح..
كَيْ
فوزية مالها زيْ..
كَيْ
كِشِبْ كِشِنْ.. كَيْ كَيْ كَيْ
كِشِبْ كِشِنْ..
كَيْ

نجحت الأغنية نجاحاً لم يتوقعه. كررها في هذه الأمسية ثلاث مرّات. سعد بهـا وسـعدت بهـا فوزيـة أكثر. فاستمر في غناء أغانيه الخاصة مع الأغاني التقـليدية. يلتف الكبار والصغار في الأعراس حوله هو. ذكوراً وإناثاً. يأتيه ناس العُـرس حتى بيته يطلبون أن يكون من ضمن من يحيون أفراحهم. يرفض متعللاً بـأي سـبب، يسترضـونه، من هم في عمر أبيه، يسترضونه حتى يقبل! عيون النسـاء والبـنات عـليه هو خلال الأغاني التي يقلد فيها المطربين الكبار. فرح بنفسـه. سـعد بها. تباهى بفنه. بدأ يزيد من دلاله على طالبيه حتى يَعِدُونه بأن يُعِـدّوا لـه عشاءه الخاص ومشروباته. لا يهمه ولا يهمهم نوع الطعام والشراب المعـد، بل يهمه أن تكون له خصوصية في المعاملة مثله مثل المطربين الكبار. غـرق فـي مـناخ فني عشقه. لفافات الدخان دائماً بين أصابعه أو بين شفتيه. زجاجـة الخمـر هـي الصـديق الصدوق الذي يسامره كل ليلة. إنه الفنان تاج طنـبورة! حـبّه الشـديد لشرب الخمر نهاراً وليلاً وأغانيه التي يتغنى فيها بحبه لفوزية ويحددها بالاسم مرّة وبكناية أبيها النجار مرّة، ساعدت على ذياع صيته، يضـع كلمات موحية يلحنها ويغنيها. مثلث ساحر يحويه.. الخمر وعشقه لفوزية والتصاقه بالطنبورة. من لم يره ويسمعه في القرى النوبية يتشوق لحضور إحدى حفـلات الأعـراس التي يغني فيها. أو حتى الجلسات الخاصة التي يشدو فيها. جلسـات السُّكْر ومزاج البانجو. وكلما زادت شهرته وتكاثف التفاف الناس حوله، زاد انغماسـه فـي مـناخه الخاص الذي استعمر عقله ووجدانه، فلم يتحرر ممّا استعمره بعد ذلك حتى انهارت صحته وانهار، ثم فقد حب فوزية له وأخيراً فقدها كلياً إبّان مرض الموت.

أمرُ الله الأشرم، غدا تابعاً وخادماً لسلاطين، في البيت وفي العمل. في البيت ينظف ويقوم بالطبخ أحياناً لسلاطين وأبيه أثمان ومن يعملان معه. يساعد العامل في حمل ووضع متطلبات الخمر. يحب ذلك ويحب أن يكون مع أثمان كُورنة. مع سـلاطين فـي جلسـات الشراب وتدخين البانجو، أمرُ الله عليه إعداد كل شيء لسَـيّده، زميـل الكـتّاب السابق. لا يفارقه إلا حين يسافر سلاطين، يتركه ليكون جاسوسـه فيـراقب كـل ما يجري في نجوع القرية الثلاث. خاصة معتوق الخير وراضـية. أمرالله لا يكل ولا يمل في عمله. ولا يحب أن يمتطي الحمير ولا غير

الحميـــر. يفضـــل السير على قدميه وإحداهما شبه عرجاء، يعاند عجزه بإصرار. رغـــم أنها حقيقة تؤلمه حين المشي على رمال لينة، ولو مشي مشاوير طويلة! ممـــا جعله يفاخر بنفسه. أحب البقاء في بيت أثمان كُورنة. وفي الأوقات الهادئة يجـــلس مع أثمان ليسمع منه عن أمه الشرماء. يعد له زجاجته. وإن أعاد أثمان وازاد فـــي نفـــس ما قاله سابقاً لأمرُ الله، فإن الأشرم يصغي في اهتمام وشوق. أحب أثمان لأن أثمان أحب أمّه الشرماء وكان يدافع عنها.

بمجـــرد أن ينتهي العام الدراسي في سُوين، يهرع الطلبة النوبيون عائدين بالمراكب الشراعية إلى قراهم المنثورة على جانبي نهر النيل. تصل المراكب ليلاً أو نهاراً إلى القرى. يسرع الطلبة هابطين متشوقين. الزملاء الثلاثة يعودون إلى قريتهم، بلال ومصطفى وصوفاني. يرتدون الزي الديني فالمدرسة أساسها الدين، الجُبّة والعِمامة الصغيرة. وفي ليال ثلاث متعاقبة، ناس القرية يتوجهون أولاً إلى مضـــيفة نجـــع نجيبيّة، حيث وليمة كرامة وصول بلال ونجاحه. ثم الليلة التالية، يذهـــبون إلى مضيفة قرية المنحنَى وليمة كرامة وصول مصطفى ونجاحه. وفي نفـــس المضيفة في الليلة الثالثة يكون حفل صوفاني. يصر ناس القرية أن يبقى الثلاثة بالملابس الأزهرية عدّة أيام فخراً بهم وتيهاً.

والـــثلاثة كـــل يحمـــل وجعـــه. بـــلال رغم احترام ناس القرية الشديد له، وتوقعـــاتهم أنـــه سيخلف جده في مكانته الدينية والدنيوية مستمراً كشيخ للقرية وخوجتها المُعلم، ورجل من أعمدتها، إلا أنه في داخله مكلوم، ميله لفُوزية يشتد وينقلب إلى حب عميق. يرى منها حب التبرج الساذج وإبراز أنوثتها، يفهم فيها ســـطحيتها وعقلها الطفولي المدلل، يزداد قلبه حباً لها كلما وجد عقله فيها عيباً إضـــافياً. تفرح به فُوزية كصديق وزميل الطفولة لا أكثر ولا أقل. تعرف أن بلال يحـــبها. لكـــنه يكابر في إظهار عاطفته. إنه حفيد الشيخ صَلاتو. إسْهاج وهاشم مفكوكة، يرحبان به في مبالغة، فهو أفضل زوج يرتجي لابنتهما.

بـــلال يســـمع الأغـــاني الـــتي يغنيها تاج طنبورة لفُوزية، بل أحياناً في الأعراس، يضطر أن يستمر في الرقص الجماعي مع عشيرته على دقات الدفوف ورنّـــات الطنبورة والأغنية تتغنى بمن يحبها، وبصوت تاج طنبورة. إن هذا التاج يجرح كرامته. ينظر بلال إليه ملياً يجابه نفسه بنفسه..

- إنــه لـلحق به ما يجذب الفتيات.. صوت جميل وألحان رائعة. أغنيات شــعر، لا يعرف من أين يأتي بها. ومسحة الطيش واللامبالاة اللتان تتخللان كل تصرفاته تعجب بها الفتيات الصغيرات. بل والكبيرات منهن وأكثر المتزوجات.

بلال يجد الأذن التي تسمع من جنسهن عند راضية. يزورها. نبْرة تتشاغل عـنهما. يـبقى فــي حــوش العمدة وقد نزل أهلاً. يقص عليها قصص الغزوات والمواقع والأبطال، والخلفاء وعصورهم الزاهية، أمثال معاوية وهارون الرشيد. يــلقي عليها بعض الشعر العربي ويشرح لها ما يستخفي على فهمها وهو كثير. وفي أيامها هذه كان أحب ما تحب أن تسمعه من بلال قوله..

إذا كان ذنبي أن حبك سيّدي

فكل ليالي العاشقين ذنوب

أتوب إلى ربي وأني لمرة

يسامحني ربي

إليك أتوب

الصداقة والود تجمعه مع راضية. وراضية تُسائل نفسها عن مشاعرها ولا تجــد بــراً تســتقر عليه. لكن نبْرة لها نظرة أخرى، نظرة كل أم وتفكير كل أم.. من أفضل عريس لابنتها؟ وتظن نبْرة أنه بلال.

مصــطفى خيشة يعود إلى القرية في حماسة تفتر مرّة بعد مرّة. كل أحلامه فــي الشــمال. فــي المدن الكبيرة. في القاهرة حيث الزحام والأسواق ودرجات الوظائف المهيبة والنجاح والمال.. والنساء البيض. يلوم نفسه ويجادلها..

- ماذا يبقيني طوال العمر في قرية بسيطة لا حس لها ولا خبر؟ هل لمجرد إسعاد خيشة العجوز وتنفيذ ما في عقلها من سذاجة؟ أحفاد يحملون اسم العائلة؟ أي عائــلة؟ أهــي عائلة والي مصر قاطن قلعة الجبل؟ أم عائلة الباب العالي في الآســتانة؟ أم تظن عائلتها من أهل البيت؟ خيشة بلهاء، ولن أضيع عمري وراء تخاريفها. لي أحلامي. لي نفسي ولا يهمني اسم عائلة خيشة التي لا قيمة لها لا في التاريخ ولا في الجغرافيا.

صــوفاني مع مصطفى ثنائي متفاهم. مصطفى لا يهمه أن صوفاني يرغب في أخته بهيّة كزوجة. لو تزوجها كان بها، ولو يتزوجها.. الأمر لا يخصه. دائماً

صـــوفاني في بيت خيشة يجالس مصطفى ومعهما تكون بَهيتَة. يستمع صوفاني إلى مصـــطفى وهو يكرر مرّة بعد مرّة عن تهويماته وآماله وما سيفعله مستقبلاً فــي القاهرة وكيف سيكون من رجالها البارزين. وإن كان مصطفى خارج البيت، فتكون الونَسَة الخاصة مع من يرغب حقا في الحديث معها وحدها.. بَهيتَة. مراد القلب ومبتغى الأمل.

خيشـــة لا ترتاح لتردد صوفاني على بيتها. مصطفى تيس شارد، وربما لن يبقى لها إلا تلك النعجة.. بَهيتَة. ولن تسمح بأن يعتلي تلك النعجة إلا تيس يحمل اســم العائلة، حتى لا تذوب ذريتها تحت اسم عائلة أخرى. لكن.. من يكون ذلك التيس الذي يناسب نعجتها بهيتَة عمراً ويحمل اسم نفس العائلة؟ لا أحد في نجع المنحـنى، ولا نجـع نجيـبيّة بالطبع، إنها تعلم جيداً أنه في نجع أورك، حيث لا تنقطع عن زيارة والديه كلما زارت هاشم الكيد. قيّاج.. قيّاج مُهدي.

العمل في الحقول متوتر سريع. النيل يرغي ويزبد ويتصاعد سريعاً، كجمل بَرَك أرضاً منذ زمن ثم تململ هائجاً يجرجر رافعاً رأسه على عنقه العالية ثم كتلة جســده الصــفراء المحمرة تعلو وتعلو. مجاميع الرجال والنساء في كل مساحة زراعيــة مــتجاورة، تعمــل سوياً في حقل بعد حقل يجمعون المحاصيل ويخلون الأرض من كل ما هو نافع. فالمياه الغرينية ستعلوها خلال أيام.

صــوفاني يعمل جاهداً ليخفف العبء عن أبيه العجوز. وعند الغروب صعد إلى بيــته. بــدّل ملابســه وامتطى ركوبته قاصداً بيت خيشة. خيشة ممددة على حصير خارج باب بيتها. وما كاد صوفاني يلقي السلام حتى هبّت فيه كالنار..

- ألا تجــد مــن تجالسه يا ولد حتى تضايقنا كل يوم؟ ألا تعلم طريق بيتكم فتأتيــنا نحن يا ولد؟ أم تظن أننا بقية ناسك؟ أم أن بهيتَة التي تجالسها كل يوم تظن أنها أختك؟ أتكون زوجتك ونحن لا ندري؟ حاشا وكلاً.

صــوتها كان عالياً بما يكفي أن يسمعه ناس أقرب البيوت ويأتي بامرأتين. وحضرت بهيتَة نفسها بعد تهجّمات جدتها على من تحبه ويحبها.

عــاد صوفاني بحماره وقد غمره الحرج. بهيتَة دخلت البيت وهي تلعن في ســرّها العائلة وأصل العائلة التي تبعد عنها صوفاني. خيشة لم تصمت، استمرت في سباب جيل الشباب كله.

وفي نفس تلك الليلة، ذهبت بهيتّة إلى بيت صوفاني. كان داخل الحوش ولم يخـــرج ليجـــالس أصدقاءه. رحب ناس البيت بالفتاة التي يهواها ابنهم. تركوهما يجلســـان وسط الحوش وحدهما، جدة صوفاني العجوز مضطجعة على وسادة في ركـــن بعيد. هي أقرب الناس إليهما وأعمقهم إحساساً بالحب الذي يجمعهما. هي التي تتلاعن مع خيشة كل بضعة أيام لتثنيها عن غيها. ورغم لعناتها لخيشة، إلا أن بهيتّة تحبها. وبعدما يترك صوفاني القرية كلها مهاجراً، كثيراً ما جالست جدة صوفاني لتبكي على كتفها وتصرح بكل ما لديها من حب واشتياق لصوفاني.

تحدثت بهيتّة مع صوفاني في لين واعتذار لتلطف من حرجه. أفهمته وهو يعرف من قبل أن خيشة تريد ذرية من حفيديها تحمل اسم العائلة وليس اسم أي عائلة أخرى. ولما ارتاح قلقه قليلاً نظر في عيني بهيتة..

- لن أتزوج غيرك يا بهيتّة.

- وأنا، لن أتزوج غيرك يا صوفاني.

والـــتي تـــريحه بـــنظراتها وتقديـــرها، بجيوَة. يزور أباها المشلول مرّة.. مرتين. عند المجيء وقبل الرحيل. لا يبقى طويلاً. نظرات بجيوَة ترضيه بتقديرها ونظراته لها طيبة. لكنها لائمة. ولومه لها يؤثر فيها وإن كانت لا تملك البعد عمّا تفعلـــه. ولـــوم الغيـــر لا يهمها كثيراً. وقبل رحيله هذه المرة، لم يستكف باللوم الصامت..

- بجيوَة، ما تفعلينه مع سلاطين، أمر لا يصح.

سَـــيّد هَربية الذي يقارب معتوق وبجيوَة سواداً، وكان يماثل سلاطين جسداً وإن كان لا يماثله في القوة ولا في الذكاء، الآن صار أكثف شحماً وترهلت بطنه قـــليلاً. أمـــه دائمة الثورة عليه. تقول إن ابنها أبله مثل أبيه. وهو يقول إن أمه وَليّـــة مخـــرفة. ورغم استمرار الشجار بينهما، فإن الحب الذي يجمعهما عميق عميـــق. تعمل معه كتفاً بكتف في الأرض. دائماً يسبقها ويمتطي الحمار بعد يوم العمـــل ليســـرع بـــه إلى نجع أورّك، تاركاً لها بعض المحاصيل وصواني الطعام الخـــوص، لتحملها هي وتعود إلى البيت على قدميها. تسبّه بصوتها الحاد العالي. تندب حظها في ابنها الأبله الذي لا يشفق على أمه الوحيدة. يضحك من يسمعها. يعلمون أن سَيّد هَربية إن توجَع بآهة واحدة، تكاد بطن هَربية أن تلفظ مصارينها

خوفــاً عليه. يسير سَيّد هَربية حافياً، لم يعد أحد من زملاء الكتّاب القدامى يسير حافياً سواه هو ومعتوق.

يذهبَ قبل أن يرزح سواد الليل على الطريق إلى نجع أورك. يدخل أي بيت مــن بيوت أصدقائه ليأكل ثم يذهب ليزور هاشم الكيد مرّة كل عدّة أيام. حاول أن يــتولى مسئولية حديقة الكيد، لكن طلبه رُفض لحداثة سنة ولعدم خبرته بالموالح وتــولى غيــره العناية بالحديقة. أراد أن يجعل العناية بالحديقة سبباً للتقرب من بجيــوَة ودخــول بيت الكيد، رغبته في التقرب من بجيوَة معروفة. يذوب رغبة فيهــا. كــلما رأى صدرها يرتج أو مؤخرتها تتقلب، تبرق عيناه ويبتلع ريقه ثم يتنحــنح ليبتــلع ريقــه ثانية. وبجيوَة تعلم كم يتلهف هذا الأخرق على جسدها. أبلغوها، وسمعته بنفسها مرّة وهو يطلقها بين أصدقائه..

- بجيوَة، أنا قتيل بطنك!

تتعمد تعذيبه ببعض حركاتها وتجنّه بضحكاتها المصهللة. فلا يجد إلا أولوا يفــرغ فيــه رغبته. وكل مضاجعة مع أولوا يعيد ويزيد عليه بألا يفشي سرهما لأحــد! أولــوا يحــتقره، لكنه يحتاجه كما يحتاج سَيّد هَربية إليه. أولوا يحب ســلاطين ويتمنى أن يبقى سلاطين عاشقاً له ولا يضطره أن يستسلم لأمثال سَيّد هَربية. لكن سلاطين ابتعد عنه ويطفئ رغبته في بجيوَة. و سَيّد هَربية يشتهي بجيــوَة ولا تعطيه بجيوَة إلا هياجاً وضحكا ساخراً يتلقاه ضحكاً جنسياً فيأتي إلى أولــوا! بجيــوَة لا تحــب سَيّد هَربية، ولا حتى تستلطفه. لكنه بالنسبة لها خط الــرجعة. الاحــتياطي. الأمــان في قرية مازالت طبقية. وهي ليست من سلالة القبيــلة. أبوهــا صعيدي غريب لا تعلم حتى من أي البلاد أتى ولا هو يرغب في إعلان ذلك. وأمها جوليه، مجرد عبدة اشتراها أبوها واعتقها ثم تزوجها. إذن هي من طبقة أدنى من بنات القبيلة. وما فعلته وتفعله مع سلاطين انتشر. من سيفكر في الزواج بها؟ هي تريد وتحب وتعشق سلاطين، لكن.. هل سيرضى سلاطين بها زوجــة، خاصة أنه كشفها وساح في كل تفاصيل جسدها؟ وهو أيضاً مجروح في عائلــته، خالــه الساحر الشرير هَمَرين. هل سيرضى بها سلاطين زوجة حتى لو كــان أبوه صانع وبائع خمور، وهو نفسه انغمس في هذه التجارة المحرّمة؟ هو صلب القبيلة وكفى. لن يفكر فيها إلا أرمل أو رجل خائب يريد امرأة والسلام. أو

عجوز يريد من تعتني بشيخوخته. إذن.. سَيّد هَربية عليه الانتظار، ربما كان هو بر الأمان. إنه ذكَر شاب والسلام.

صــحيح أن الحيـــاة فـــي القرية لم تعد بالغة الرتابة مثلما كانت من أزمان مضـــت. لـــم تعد التقاليد والأعراف بنفس الصلابة. صارت في القرية قوَى تعمل وتؤثـــر حـــتى عـــلى قوَى العمدة التقليدية. مُهدي الأصفر بماله وتشعب تجارته وأتباعه الظاهرين والمتخفين. الشيخ بفتاويه وفاعليته النشطة. بل النجوع صارت أميـــل لتكون لها استقلاليتها الخاصة وإن كانت داخل القرية القبيلة وتتبع العمدة المتلفع بشحمه والغارق في حزنه والقابع في نجع أورك.

ومـــن أيـــام العمـــدة الكبير والد نُوري العمدة، والعمودية قاربت أن تكون وظيفـــة شـــرفية. أهـــم أعمالها البسيطة هي حل المنازعات على حدود الأراضي المـــتاخمة. فبعد كل فيضان موسمي تغمر المياه مساحات من الأراضي الزراعية، وأحيانـــا تقوم المنازعات على حدود الأراضي المتداخلة. يحلها العمدة مع بعض الكـــبار المساعدين له. والعمدة يحل أيضاً المشاجرات التي يسببها الصغار غالباً، ثـــم اخـــتلافات الميـــراث التي يحضرها ويحلها معه الشيخ المقيم. ولو تشاحنت العـــائلات المكونة للقبيلة، يكون هذا أهم دور للعمدة وبضعة رجال مشهور عنهم الحيـــاد مـــثل الشيخ صَلاتو. وكل عمدة تحت تصرفه ثلاثة من الخفر. إن أخذت الحميـــة الـــرجال وتشاجروا وتضاربوا، فعلى الخفراء الإمساك بهم وحبسهم في حجرة بدون نوافذ في آخر بيت العمدة. لها بابين، باب خاص للخارج وباب لداخل الحـــوش حيـــث جوارهـــا دورة المياه التي صار يستخدمها العمدة! وبعدها بقليل الغـــرفة التي اختارها العمدة ليبقى فيها بعيداً عن قلب الحوش ونائياً عن الغرف ذات الحركة حيث أغلب الأقارب والزائرين يدخلوها.

وإن جاوز شاب الحدود، يعلقه خفير في الفلقة ويقوم أحد رجال عائلة نفس الشاب بضربه بجريد النخل، تحت بصر ناس البلد حتى يكون عِبرة. الآن في عهد نُـــوري العمدة وقبل مرضه أصبح عليه أن يحسب حساب عائلة أي فرد يُفكر في عقابه ومبلغ قدرها داخل القرية. غصباً عنه يجب أن يفكر في ذلك. فالقوى داخل القبيـــلة تعددت ولم تعد متماسكة كما في عهد والده العمدة الكبير. بالإضافة إلى أن أســـراً فـــي نفس عائلته تحسده على العمودية ومازالت ترى أن منها من هو

أفضـــل من نُوري وأحق منه بالعمودية. وعلمه أبوه أن يراعي ذلك، وشدّد عليه أن يحسب حساباته في كل أمر، حتى لا تغلبه هذه القوى وتضيع منه العمودية.

والعمـــدة هو كبير القبيلة الرسمي وإن لم يعد هو وحده. يتصدر الاحتفالات والأعــراس واستقبالات ناس القرى المجاورة واستضافة الغرباء والعابرين. وفي عهــد العمدة نُوري، الشيخ الجليل أخذ الكثير من سطوة العمدة، والتاجر الأريب تأثيــره الخفــي يــزاحم تأثيــر العمدة الرسمي وتأثير الشيخ الديني. وبعد واقعة هَمَرين، وسقوط العمدة في مناحته على فقيده، وكلما حاصره الشحم أكثر، وكلما ابــتعد عــن الوعي عن حال قريته، يتجسد السؤال الصعب، وتَوجّست القرية من الإجابــة الأصــعب. لُعاب الكثيرين يسيل على المنصب. رجال يشتهون العمودية ونســاء يشتهين أن ينالها رجالهن. والقوى التقليدية في القرية والقوى البازغة حديثاً، كل يشحذ أسلحته ليثب على المنصب عندما يرحل نُوري؟

سِسِّي الذي كان أقرب للعمودية مات. إذن من؟ هل يكون من يتزوج ابنته راضية، حتى لو كان أولوا الشاذ الخائب؟ أم يكون آبدون حفيد الولي جوش الكبير وفــي نفس الوقت والد هذا الشاذ الخائب؟ وإن عاش نُوري مريضاً مواسم عدّة، هــل يــأخذ العمودية بلال صَلاتو بعد استكمال دراسته فتنتقل العمودية لأول مرّة إلى نجــع نجيــبيّة الفقير؟ أم يفعل مُهدي الأصفر أفاعيله ويرفع ابنه فيّاج إليها فيجمع في ذريته المال والسلطة؟ أم ماذا سيكون؟

كـــل بضـــعة أيام، يتعمد سلاطين دخول حقل سَليمتو وتَعويضة، يتحدث مع هُوشَة إن كانت أمها بعيدة. تَعويضة لِسانين تكره سلاطين، خاصة بعد أن ضرب ابنـــتها كِسبانة. يبادلها سلاطين كرهاً بكره، خاصة أنها أطلقت عليه نعتاً جديداً.. سلاطين شرّين. وكالعادة تَقبّل منها ناس القرية هذا النعت وصار البعض ينادونه بـــه. كِســـبانة لا تهمه، فلن تجرؤ على إهانته بكلمات مباشرة. تضطر كِسبانة أن تبتعد عنهما. سلاطين لا ينظر إلى هُوشَة كما نظر إلى غيرها، فهو يسعد بالحديث معهـــا، يـــراقب جانبي خديها حيث الغمازتين اللتين تعجبانه كثيراً، خاصة عندما تبتســـم هُوشَة فتكون الغمازتان أعمق غوراً وجاذبية له مع براءة وجهها البسيط وعينيها الطفوليتين. تأخذه تيارات من الرقة والشعور بالهدوء والرضا بجانب تلك البـــنت، التي للآن لم يبرز في صدرها سوى حبتي ليمون صغيرتين، وجسدها لا يعطـــي أي إغـــراء. يـــتركها ويذهب إلى حال سبيله. تعلم هُوشَة كم يميل إليها ســـلاطين وتعلم تماماً أنه يشتهي جسد بجيوَة، لكنها حتى الآن لا تهتم ولا تغار! ويعلم هو كم تميل إليه تلك البنت الساذجة وتأتمنه.

نَبْرَة رفضت من قبل في إباء وخجل أي معونة غذائية من بيت أختها، لكن نُـــوري معدته صارت أكثر شراسة ولا تتوقف عن الاتساع والهضم وطلب كميات إضـــافية مـــن الطعام خاصة اللحوم. صار في بيتها ذبح الدواجن في كل الأوقات نهـــاراً وليـــلاً، حـــتى اخـــتفت أسراب الحمام وتجمعات الدجاج. تناقصت الماعز والخراف ولم تعد لهم إلا بقرة واحدة لا تفي بما هو مطلوب منها من لبن، فاختفى فيض اللبن ولم يعد عندهم طبق ثريد اللبن إلا نادراً. طحن الغلال مستمر، السّحْب مـــن رصيد البلح صار نزفاً ففرغت الصوامع الطينية إلا من الهواء، جرار السمن خـــلت ســـمنها وصـــارت جـــراراً بهـــا رائحة السمن. حقلهم بالكاد يكفيهم من الخضـــروات، حديقتهم ثمارها من البرتقال والمانجو صارت معدة نُوري تهضمه وريـــع الـــباقي أكـــثر من نصفه مرتبات للخفراء، ولواجبات الضيافة خاصة في

المناسـبات. فالعموديـة شـرف مكـلّف، وإن كانت قادرة على جلب أرباح غير مـنظورة لمن يريد استغلالها استغلالاً سيئاً. ونُوري مثل والده.. لن يتدنى، و' نَبْرَة تقبل هذا. معدته تلتهم كل ما يُزرع بشراهة. صار يشتكي أن زوجته وابنته لا تعـدّان الوجـبات المحبّـبة إليه. يشك أنهما تبخلان عليه، لا يدرك أن خيرات أرضـه ومواشـيه لـم تعد تكفيه هو ومتطلبات العمودية والأسرة. ولأن السمن واللبن والحبوب، والدواجن والبيض في القرية مباحة، يتبادلونها مَنْ عِنده يعطي لأي بيـت يحتاج، فلا بيع ولا شراء لها، وعار أن يبيع بيت لآخر، والحرج ينتاب الكـثير من البيوت حول بيت العمدة.. إن مجرد إرسال لبن أو بيض أو لحوم أو حـبوب أو ثمـار إلى بيت العمدة، أمر محرج لهم ولبيت العمدة، وسيعتبر وكأنه مساعدة وليس أخذًا وعطاء مثلما يكون بين بقيّة البيوت.

ومـا يزيد نُوري حزنا وخزياً، عدم استطاعته الذهاب إلى دورة المياه ثلاث مـرات يوميـاً، رغم مساعدة الخفراء له. اضطرت نَبْرَة أن تطلب من إسْهاج أن يصنع حافة مستديرة من الخشب لتلبّسها على حافة وعاء ضخم فيستخدمه العمدة كقصريه يقضي فيها حاجته داخل الغرفة، ثم عليها هي وراضية غالباً تفريغ هذا الحمـل الثقيل الكريه في دورة المياه القريبة. وكثيراً ما كان الخفر أو معتوق مع أحـد الخفـر يقومـان بهذه المهمة الثقيلة. معدة نُوري وكأنها لا تهضم، وكأنها مجـرد استراحة قصيرة تبقى فيها الأطعمة فترة التقاط أنفاس ثم تتسرب منزلقة إلى ما بعدها وإلى ما بعدها ثم تطلب طعاماً ثقيلاً ضخماً غير ما تسرّب.

نَـبْرَة في حيرة، في ورطة، احتياجات بطن نُوري ليست كأي احتياجات! تأتي لها هَكيمة يوما بعد يوم بجرة متوسطة من اللبن وبضع دواجن وكيس بيض وغيـره. تأتي لها ديوانة مسكين التي لا تترك بيتها حتى في الملمات! وغيرهما. لكـن بطن نُوري بئر لا يمتلئ، بئر بلا قاع. اضطرت نَبْرَة أن توصي مُهدي بأن يشـتري لها السمن والذرة وغيرها من تجار الصعيد. ستدفع من بلح نخيلها في الموسـم، تشتري بالأجل مثلها مثل أي سَيّدة متوسطة الحال من نساء القرية! كم شـعرت بالخجل وهي تتفق مع مُهدي مساء يوم بعيداً عن الناس. كم حملت من

مهانـــة، إنهـــا زوجة من لا يزال عمدة القرية. بيت نُوري الذي كان مليئاً بالخير صـــار يحـــتاج للمساعدة. عادت إلى بيتها والخوف من الفقر والفضح بين ناس القرية يرعبها.

هَكيمـــة لـــم تكـــن غافلة عن حال أختها. وإن كانت تذهب إليها كل يومين بالشـــيء اليســير فإنها كانت تخشى من حرج أختها. من قبل عرضت أن يتكفل بيـــتها بكـــل مؤونة بيت أختها، بينت لنَبْرَة إن هذا مؤقت حتى يشفى الله زوجها، رفضت نَبْرَة رفض المحرج، فبقيت هَكيمة تنتظر يوماً تنفذ ما أعدت له.

معتوق الخير يساعد هَكيمة، باللبن الغزير الذي يفيض عن احتياجات بيتها وعـــن احـــتياجات جيـــرانها، تصـــنع السمن والزبد والقشطة، يبيع آبدونمباشرة لمـــراكب الصعايدة والكنوز مع أحمال من البلح، رغم استمرار مُهدي في ادعائه بـــأن مـــا يفعلـــه آبدونعيب وخيانة لقبيلته ونظامها الذي أقره جوش الكبير، جد آبدوننفســـه، لكـــن آبدونـــرفض ضغوط مُهدي. هاشم الكيد يفعل ذلك، واستمرت بجيوَةابنته في البيع للتجار مباشرة.

وفي ليلة بعد أن صلت القرية صلاة العشاء، وانتهى من أقاموا ونَستَهم من الكـــلام والضـــحك، واستكفى من يتضاجعون وخَمدوا ليناموا في استرخاء راضٍ، ولـــم يبق ساهراً إلا بعض من الشباب على ربوة مِجيد يسكرون من العرقي الذي لـــم ينضب ولن، خرجت قافلة من بيت آبدون. حماران محمّلان بأثقال من السمن والزبد والبلح والحبوب والخضروات الطازجة وبعض اللحوم المقددة. يقود معتوق الخير القافلة وهَكيمة تراعي الأحمال من السقوط. سارت القافلة بين بيوت القرية في هدوء مبتعدة عن أعين سكارى ربوة مِجيد حتى وصلت إلى بيت نُوري العمدة المتصدر للساحة الواسعة.

في الحوش وهما يأخذان ما أتيا به إلى داخل غرفة الخزين، بكت نَبْرَة في هدوء. دخل معتوق غرفة نُوري. جالس في ركنه نائم يشخر. فانوس صغير معلّق ينير شيئاً من ظلام الغرفة. انتفخ جسده أكثر وأكثر. ربت معتوق على كتفه. فتح جفنيه في تثاقل ووخم، نظر إلى معتوق والعرق يشر من جسده مدراراً. تَمعّن في الوجه الذي يحبه..

- ولد يا معتوق. يا معتوق الخير. أنا جوعان.

أتى لـــه معتوق بطبق خوصي ملىء بالبلح، أفرغ بعضه في حجر نُوري الـــذي ابتســـم لـــه ممتـــناً وهو يلتقط بلحتين ويلوك واحدة ويلفظ نواتها بصوت مسموع مع لعابه الذي يسيل مع عرقه على ذقنه الغائرة وسط الدهن. قام معتوق وفتح النافذة.

لـــم يـــرض معـــتوق أن يحادث العمدة ليقلل من طعامه حسبما طلبت منه راضـــية، لن يستجيب العمدة. هكذا يقول كما تقول نَبْرَة.. إنه مريض، يغرق في الطعام كما غرق سِسِّيفي النهر، إنه ينتحر.

في سكون الليل، وبدون أية مقدمات يتوقع منها الناس ما سيكون، حدث ما أفـــزعهم جميعاً. أنين تمزقات حادة سريعة تبعها فوراً نباح الكلاب وعواء الذئاب وقهقهـــات الضـــباع، ثـــم فرقعة عالية كأنها ضربة كرباج سوداني هائل، بعدها صرخات الطيور التي فزعت من نومها والتي فزعت في تجوالها.

خـــرج نـــاس القـــرية من بيوتهم حاملين الفوانيس لتضيء لهم، يسائلون بعضهم بعضاً..

- ما هذا الصوت؟

- ما هذا الأنين المفزع؟!

الـــتفوا جماعـــات. شاهد ناس كل نجع فوانيس النجعين الآخرين، امتطوا المطايـــا واتجهـــوا كلهم إلى ناحية مصدر الصوت.. أرض آبدون. نباح الكلاب مـــازال يتعالى، نقيق الضفادع وصرير الجنادب عاد إلى رتابته بعد توقف قصير، صوصوة العصافير من قمم الأشجار مازالت فزعة، النساء يمسكن بأيادي الأطفال خوفاً عليهم من الاقتراب من النهر المظلم.

وجـــدوا نخلة جوش الكبير العتيدة قد سقطت. أطلقت هذه الصرخات وهي تهوي، ثم الطرقعة الحادة وهي تضرب صفحة النهر العريض بجريدها وسباطاتها والجـــزء الأطول من امتداد جذعها. لقد نحر النهر الجانب الذي تقف عنده النخلة

العجـــوز فســـقطت في اتجاه المجرى المتدفق. ثلثها الأدنى ظاهر كأنه جسر إلى الغمـــوض. ثلـــثاها العـــلويان بجريدها وسباطاتها المثقلة بالبلح الذي لم يحصد، مغموران في النهر.

النســـاء دموعهـــن أقـــرب من الرجال، إحساسهن بفقد شيء عزيز غال وتاريخ حبيب أعمق لديهن، تنهمر دموعهن ولا تتوقف، تجمعن سوياً في حلقات لبدء طقس رقصة النائحات الحزينة، إلا أن الشيخ وبعض الرجال منعوهن بأقسى الكـــلام. تفـــرقت النساء عن بعضهن وهن يعددن بكائيات تتلو مآثر الولي جوش الكـــبير الـــذي رفض بناء مقام له أو لغيره فحرمهم من وجود مقام يتبركون به، صـــارت رقصة نائحات فردية وإن كان يجمع الكل حالة الفقد والضياع، والمكان حيث جثة النخلة والنيل المظلم الخامد غير المبالي.

أتـــي الرجال بالحبال، سوياً سحبوا النخلة العظيمة من المجرى. لم ينتظروا نـــور الصبح فالنخلة نخلة جوش. ساعة زمن وكانت النخلة ممددة على الضفة. خيوط ضوء ضئيلة من فوق الجبل الشرقي. ناس القرية خارج مساكنهم. الأطفال ناموا بالقرب من أمهاتهم المتجمعات حلقات وثنائيات وثلاثيات. الجميع وافق على اقتراح الشيخ..

– صلاة الفجر هنا.

توضـــئوا مـــن المجرى بحذر. رجال ونساء. أذن مؤذنهم. الشيخ يعطي وجهه تجاه الشرق حيث قبلة المسلمين. خلفه صفوف الرجال ثم النساء. حتى من لا يصلون دخلوا صفوف الصلاة. الله أكبر..

بعدها قال صَلاتو بصوت عال ليسمعه الجميع..

– اتفقـــت مع آبدون، نخلة جوش من غَرسْ الولي جوش الكبير. وجوش ولـــي القرية كلها. ونخلته المباركة حق للقرية كلها. بركتها يجب أن تعم كل بيت وهـــي ميـــتةكما كـــان خيرها يعم ناس القرية كلها وهي حيّة. جذعها يقسم على النجوع الثلاثة ليكون من ضمن سقيفة سقف جامعها. وبلحها يقسم على النجوع. وكل نجع يوزع على ناسه. وكل بيت يخلط بلح جوش مع بقية البلح ويصنع عسل

البــلح، بــركة. ولا ننسى الدعاء لذرية جوش، فقد وافق آبدون الكريم فهو كما عهدناه دائماً.. كريم مُحب لقبيلته.

عصــر اليوم التالي، معتوق الخير يعمل في أحواض الخضروات. يقتلعها و يكومهــا أكواماً أكواماً. آبدونالأسيان يجلس على بعد قليل من مكان نخلة جوش الــتي ســقطت. ينظر إلى المكان وعقله المبهوت سارح.. العائلة، الأسرة، جده الولي وأبوه موسى المحبط وابنه الشاذ.. وَجَع قلبه الدائم أولوا، عمره الذي كاد يغرب ولم يحقق في قبيلته المكانة التي يأملها. وكيف لأولوا، كيف لهذا الشاذ أن يكون ولياً ينال احترام الجميع؟!

قطــع ســرحانه وقع حوافر حمار مقبل، الشيخ صَلاتو يهبط من على ظهر حمــاره حــاملاً فسيلة نخل. أشار له معتوق بالسلام من بعيد. هبّ آبدون ليلقى الشــيخ. هبط صَلاتو من على ظهر حماره في بساطة وهو حامل للفسيلة ومحيياً آبدون..

- ماس- كاج- نا.
- همد لله.
- أتيت لك بفسيلة نخل جيدة من عندي. تُزرع مكان نخلة جوش.
- سبقتني يا شيخنا يا بركة.

آبدونفي حرج. كان يأمل أن يأتي هو بالفسيلة ويزرعها وحده تفاؤلاً بأن مَجد جده سيستمر. اضطر أن يقول..

- هيّاً يا شيخ صَلاتو نزرعها سوياً.
- لا.
- ..
- ليس أنتَ من تزرعها يا آبدون.
- ..
- ولا أنا. هذا الولد الغارق في العمل، هو من يزرعها.

. نــادى صَــلاتو معتوق فأتى مسرعاً باسماً والعرق قد بلّل جلبابه الأزرق تماماً. أعطاه الشيخ الفسيلة..

- اغرزها بيديك يا معتوق الخير.

تـــركاه يعمـــل وحـــده وابتعدا. سأل آبدونولم يستطع أن يخفي ضيقه أن الفسيلة ليست منه، وليس هو من يقوم بغرسها في موقع نخلة جده.

- ولماذا هو يا شيخ صَلاتو؟

- تسألني أنا يا آبدون ؟

وقفـــا يتابعان معتوق وهو ينظف الفجوة التي كانت لنخلة جوش من بقايا جذرها القديم. يعدل الفجوة الواسعة. ثم يضع الفسيلة مسمياً باسم الله في صوت عـــالٍ. ثم يعيد التراب المخلط بالطين مثبتاً الفسيلة. يبتعد عنها ناظراً إليها وهي مشرئبة في سرور. أخذ يسبّح تمجيداً للعاطي العظيم، فانضم الشيخ وآبدونيرددان معه..

يا ذا العُلَى والمُلْكِ والمَلَكوتِ

والكبريا والعزِّ والجَبَروتِ

أنتَ المَليكُ وأنتَ ديّان الوَرَى

أنتَ العظيم القَدر والرَّهبوتِ

يا ذا العَطى..

رغـــم رضاء آبدونبأن زارع النخلة هو ربيبه معتوق الخير، إلا أن أمواج مـــن الحـــزن أخذتـــه. ليلاً مع هَكيمة في وَنَستهما المعتادة، كانت الوَنَسَة حزينة قاتمـــة. حكى لها ما كان من صَلاتو، بين كيف كان يأمل أن يزرعها هو أو ابنه أولوا. تعلم هَكيمة أن زوجها مازال يأمل في عودة الولاية إلى سلالة أسرته هو.. إلى ابنه، ابنهما. وإن كان آبدون لا يشك في مقاصد صَلاتو، إلا أن هَكيمة شكّكت في الشيخ. غضبت ولامت آبدونعلى حسن نيته. فهو لا يريد أن يفهم سبب تصدي صَلاتو لموضوع شذوذ ابنهما، تؤكد أنه يفكر في تنصيب حفيده بلال شيخاً وفقيها يومـــا مـــا. وربمـــا يطمح أن يأخذ العمودية! تلوم زوجها وتلوم. أنه كان الأولى

بـــزرع النخـــلة الجديدة، وأنه كالعادة بطيء الحركة وأنه كان عليه الإسراع من صباح سقوط نخلة جوش القديمة.

الشـــمس من جبروت شعاعها تبدو كأنها عدّة شموس مضغمة في شمس واحـــدة عظيمـــة. الجـــبل الجاثم فوق القرى يغلب عليه درجات من اللون البني والـــلون الرصاصي الداكن وبعضه جرانيت أسود. أما الأصفر الفاقع، فما هو إلا كثـــبان رمـــلية غزيرة تفترش بعض أجزائه لتشكّل كسوة حريرية وكأنها وضعت عمداً لتخفف من قسوة وصلابة الجبل. سلسلة جبال متنوعة الأشكال تستقبل نار الشـــمس، تمتصها ثم تبثها شلالات منهمرة على القرى التي تبدو بيوتها الواسعة ضئيلة قزمة مثل بضع حصوات ملونة نُثرت على سفوحها.

فـــي الـــنهار، الضوء باهر يُبدي كل شئ بوضوح ويحدد أبعاده وخطوطه تماماً. وضوح صريح مكشوف ظاهر.. ثنايا الجبل وشعابه.. الأخوار المنثنية.. شـــريط الـــزرع العـــريض بنخيله وأشجاره المتنوعة والنباتات شديدة الاخضرار ورائحـــة الـــزرع والـــثمار والخضروات مع التراب المتشرب بالمياه تفوح. النيل ووشيش مويجاته وطوله وعرضه وعمقه المائي ذو الدسم، يمتص شعاع الشمس وضـــوءه فتصـــفو مياهه من قرب وتكاد العين ترى مخلوقاته تسبح فيه مسرعة وبطيئة، مستيقظة وناعسة. أما من بعيد، فالنيل أزرق زرقة السماء الصافية.

حيـــن تغيـــب الشـــمس وينشر الليل طرحته السوداء، ينقلب الكون غير الكون، فدُنيا النهار الشمسية غير دُنيا الليل النجومية القمرية، صلابة الموجودات الطبيعية الهائلة تتحول إلى رقة الرقة وهمس الهمس. الجبال الرواسي تشف حتى تـــتحول فـــي أعين الرائي إلى هيئات مسامية داكنة لو قذفتها بحجر يغوص في باطنها الطري ويطرطش منها ذرّات هي بين السائل والغازي.

• الـــنخيل الشـــبحي تراه فتتعجب وتسائل نفسك.. هل هذه السيقان الرقيقة تتحمل سباطات البلح والتي نعرف ثقلها فضلاً عن صعود الناس عليها؟ والنيل ما هو إلا تنفس الكون العلوي، تنفس هادئ تثاقل متهاديا حتى سال ماء مُسكّراً في إناء ممدود يتدفق من جنة الرحمن لتروي ملائكة ومخلوقات نورانية ليس لها أي صلة برغبات وفورات وشطحات النهار الحياتية.

خلف البيوت والنجوع يكون الجبل الغربي، صلد، لا ينبت عليه إلا ندرة من الهيش والكثير من النتوءات. لا يعطي إلا الرعب المتمثل في الذئاب المتسللة والضباع، زواحف سامة وغير سامة، عقارب جبانة تلدغ أي متحرك يمر بجانبها أو تمر هي بجانبه حتى لو كانت ورقة شجر جافة ألقاها الهواء عليها.

لكن بين النجوع كثبان رملية ناعمة، أهمها وأجملها ربوة مِجيد الرملية ذات الأساس الصخري والسطح المستوي المبطّن بالرمل الناعم. ومن يجلس أعلاها يرى على يمينه نجع أورك واضحاً ثم تل الجبانة وبعدها جبل فرعون المتوّج بأعمدة المعبد القديم. خور البحر إلى الأمام وجسره الذي جدّده هَمَرين وهاشم الكيد.. قوي أنيق واضح. على اليسار نجع نجيبيّة يليه خور المنحنى الصغير ونجع المنحنى البعيد ثم كَسْرة النيل الحادة. في الأمام بعد خور البحر، بحر النيل ذاته وجزيرتا أصلاد الخضراء وتايي الصخرية الضيقة ثم الجبل الشرقي بقمته العالية التي أخذت شكل شاهد قبر وستكتشف بها بقايا جثة أثمان كُورنة. وسُمي الجبل الشرقي بعد ذلك بجبل أثمان.

ربوة مِجيد، المكان المفضل للشباب الطائش. في الفترة من بعد العصر حين تنكسر حدّة الشمس لما بعد العِشاء، يتوافدون فراداً وثنائيات ليفترشوا الرمال التي تهجر سخونة الشمس وتتبرّد. مكان مفضل لمراقبة القرية من علٍ والتمتع بالمنظر الجميل دون أن يشاهدهم أحد. يسكرون، يدخنون مُخدر البانجو ويغنون ويرقصون. تَسْبَح أصواتهم وضحكاتهم مبحرة فوق بيوت القرية لينة غير مزعجة. تعبرها إلى الجبل الشرقي على الضفة الأخرى للنيل، ثم تعود صدى ألين وأشف وأحلى.

الشباب الصغير والذي دخل طور الرجولة بزواجه، هجر الربوة السعيدة مستعلياً عليها ليهتموا بمسئولياتهم المستجدة وليبيّنوا للجميع أنهم شبّوا حتى على مرحلة الربوة المحسوبة بالطيش والفراغ. اتخذ من بقى منهم ركناً معهوداً بعيداً عن المستجدين. يتسامرون وحدهم ويشربون وحدهم إلا إذا سَخَن طنبورقفي غنائه فينضمون له مرددين راقصين. لكن لم يستطيعوا البقاء طويلاً وهم يرون تلك المجموعة الجديدة الناشئة التي تحتل الربوة وقطعاً سوف

يــزيحونهم ولــن يقبلوهم معهم، فابتعدوا آسفين عن الربوة المحبوبة. لقد جاء الدور على شلة الأقشطفوش ليحتلوا ربوة مِجيد بكاملها، يقودهم سلاطين. الأشرم يحمــل زجاجة العرقي وبداخل جيبه علبة الصفيح محشوة بالبانجو بالإضافة إلى علبتين خاصتين بلفائف التدخين.

يســكرون أو يتخدرون أو يمارسون الاثنين معاً. تاج طنبورقيعزف ويغني. ويــرددون معه أغاني الحب واسم فوزية محشور في معظمها، أو كنيتها.. بنت الــنجار. ثــم يقومــون راقصينوقد انضم إليهم من بقي من الشباب الأكبر. وكأن الربوة تقام عليها ليلة عُرس كاملة. وتلك الليلة كانت مولد أغنية من أشهر أغاني طنبورةعن فوزيةوأبيها نجار السواقي..

فوزية..

الفيضان يفيض بالمياه فيغمر الأرض

والسواقي ترفع المياه وتسقي الزرع

أما سواقي أبيك فتسقي المحبين

عصير الفاكهة

وو.. فوزية

وو.. فوزية

نــاس القرية وهم يستمعون إلى أصواتهم الهابطة إليهم وصداها الآتي من الشرق، يدعون لهم بالهداية والبعض يقول..

-هــذه الــربوة هــي الــتي تفسد شبابنا الصغير دائماً، وتبعده عن ارتياد المســجد. لكن هذا الجيل، جيل الأقشْطفوش، أسوأ جيل رأيناه. وكله من سلاطين أثمان. سلاطين شرّين.

عصــراً حين بدأت شلالات الشمس في الانكسار التدريجي دخل معتوق من باب بيتها صائحاً..

- ثعو.. ضة هووي. ثعو.. ضة هووي.

أتت تَعويضة وقد نقشت تكشيرة وغضباً على وجهها..

- إم م م م. مــاذا تــريد يا ولد يا أسود؟ هل قابلت مخلوقاً من المخلوقات غير المرئية؟ هل غطست وزرت قرى ناس النهر وتجوّلت في القاع معهم وأقاموا معك الونّسات؟

- هاها، هاها.

- هاهــا، هاها. تضحك يا من وضعت الرعب في قلبي. يا ابن الذئبة؟ ماذا تــريد؟ تخطب كِسبانة؟ هي في الحقل تعمل وحدها تاركة أختها اللينة تجلس في الظل. اذهب إليها واخطبها حتى تفتح رأسك بحجر.

- عباءة جــ.. دي أسل.

لحقــت بهمــا هُوشَة باسمة. تَعويضة وضعت يديها في وسطها وتمايلت عجباً..

- ولماذا تريد العباءة يا وجه النحس؟

- أريــ.. دها.

- يا سلام!. وهل أنت يا عبد هَكيمة، لك في ميراث عسل؟

- لا. اشتــ.. يرها.

- هاها. بكم؟

تدخلت هُوشَة..

- أعطه العباءة يا أمي.

- اقفــلي فمــك يا بنت الزير. اسمع يا ولد. احضر لنا كبشاً كبيراً. أعطيك العباءة.

ابتسم معتوق وخرج مسرعاً. هُوشَة غاضبة..

- لماذا لا تعطينه العباءة بدون مقابل؟ إنها قديمة ومرقعة!

- اخرسي يا بلهاء. منذ متى ونحن نُشحذ الشحاذين؟

- معتوق الخير ليس شحاذاً.

- آه، طبعاً. أصبح بيت هَكيمة مليئاً بالأغنام والماعز، وحوش البيت ليس مفروشاً بالرمل.. بل بالدجاج والبط والاوز، وسقف البيت مبنى بأسراب الحمام. عَندهم جَمل يتدلل به آبدونابن الهارب موسى جوش، وثلاثة من الحمير. وبقر لا

أســتطيع حصــره. إنها تضحي في العيد ببقرة! طبعاً.. ألا تستغل معرفة معتوق بفانــالاندي والإيــركابي وكَلايا شِلشِل؟! تتعامل مع الجن والعفاريت والعياذ بالله ليملئوا بيتها بالخير. حظ. حظ هَكيمة بوصة أن يأتيها معتوق لحد بيتها من دون بيوت القرية كلها. أما حظي أنا.. آه، شرماء وأشرم. زوج بارد وولد هارب من أمــه لأنه أبرد من أبيه. حظي أنا بنت لِسانها سليط كأمها.. ثم أنتِ.. أنتِ آخر العنقود، يا هُوشَة يا عبيطة.

– أنــتِ تحســدين الخيــر عــند الــناس. تحسدين هَكيمة. أنتِ حسودة يا تَعويضة.

– من؟ أنا؟ أنا؟! أنا حسودة؟ وابنتي تقول لأمها أنتِ حسودة؟ ذريتي خائبة يــا ربــي. كل هذا لأني لا أريد أن أشحذ العبد مِلكاً من أملاكنا؟ ابعدي عن عيني حالاً يا بنت الكلب وإلا..

رأت هُوشَة الشر في وجه أمها فابتعدت فوراً تاركة أمها تنظر إلى السماء تدعو في غضب..

– لمــاذا أعطيتني يا رب ابنة جميلة وعبيطة. أليست كِسبانة أفضل، قليلة الجمال لكن واعية. تفهم. تأخذ حقها بلسانها ولا يلين قلبها.

لم يمر وقت طويل، دخل معتوق بيت تَعويضة. نادى..

– تَعو.. ضة هووي.

صــوت ثغاء ملأ الحوش. ظهرت هُوشَة أولاً. رأت معتوق يحمل خروفاً صــغيراً خــلف قفاه وبيسراه يمسك بأرجلها مضمومة أمام رقبته، ويمناه تمسك بقــرن كــبش كبير يقف وراءه. أتت تَعويضة. دفعت هُوشَة إلى الخلف وضحكت سعيدة لمعتوق وعيناها تقدّران قيمة الذي أتى به..

– من؟ معتوق! ابني معتوق الخير. أتيت بكبش وضأن أيضاً؟ يا لك من ابن طيب. لم يكن هناك داع لكل هذه التكلفة. هات هات.

– عباءة جــ.. دي أسل.

– سأحضــرها لــك يا ولد. ألا تأتمني يا ابن الكلب؟ هُوشَة. لا تقفي هكذا كالماعز البلهاء. اذهبي واحضري لأخيك معتوق الخير عباءة جدكما عسل.

وهَكيمـــة آتيـــة من بيت نَبْرَة. معتوق ينتظرها جالساً على مصطبة البيت والعباءة حول جسده رغم الحر الواضح.

– معتوق! أليست هذه العباءة عباءة عسل؟

– إيْ.

– لكن تَعويضة لا تستغني حتى عن فردة مركوب قديم!

– أعطيتها الـــ.. كبش الكـــ.. بير ونعجة صغيرة من عند.. نا.

خبطت بيديها على أعلى صدرها..

– ويْ ويْ ويْ. الكبش الكبير! ضحكت عليك. العباءة لا تساوي.

دفن معتوق وجهه في صدر العباءة ثم رفعها سعيداً ناظراً لهَكيمة..

– رائحة جـــ.. دي أسل.

– إيْ. رحمه الله.

شـــبت فـــرهانة فـــي قوة فامتطاها معتوق بدون بردعة، تبرطع به بين النجوع، تهبط به الأخوار وتصعد به التباب الصلدة. والكثبان الرملية الناعمة في عـــنفوان وتيـــه بصـــباها وفـــتوتها. بياضها ناصع، ذكية، لا يسبقها حمار عفي بسهولة.

قـــلّ أن يفـــارق معـــتوق فَرهانة لوقت طويل، وأحيانا إن أطال جلسته بين الناس تأتي إليه فَرهانة تدفعه برأسها في غضب من تغار، يضحك عليهما الناس. تَعويضة لِسانين قالت..

– والله أنا أخشى يوماً يتزوج فيه معتوق من حمارته فرهانة!

الـــليالي القمرية خاصة، يأخذها معتوق في جولات طويلة، في هدوء تارة وفـــي ســـرعة تارة. فَرحان ببعضهما. وقبل عودتهما ينشد معتوق أشعار حبيبه الراحل عبد الرحيم عسل وبعض قصائد من المديح الميرغني السوداني..

مرحباً يا نور عيني مرحباً

مرحباً جدّ الحُسَيْني مرحباً

أنتَ نور فوق نور مرحباً

عــلى ربوة مِجيد الحريرية، زجاجتا عَرَقي وسط عصبة الأفشنطفوش. تاج وبن هَربيّة يتجرعان بشراهة. تاج يعزف على الطنبورةمغنياً مواويل أسمر اللونا، واصفاً محبوبته فُوزية. وبدون أيّة مقدمات يقف سَيّد هَربيّة صائحاً موجهاً نفسه ناحية الغرب حتى لا يسمعه مستيقظ من نجع أورِك ويصيح..

- يــا دين النبي. يا دين مُحمد. حرام عليكِ يا بجيوَة، حرام عليك حرماني هــذا يا الله. اقتلني غريقاً، اقتلني بين أنياب أجرب ضبع ذكر. لكن.. هبني ليلة مــع بجيــوَة. يــا هووي يا بووي. يا أمي يا هَربية ابنك في حرب مع ثديي هذه البنت.. وركها.. بطنها.. ابنك مات خلاص يا هَربية. يا هووووي.

يمر الوقت بين سماع أغاني طنبورةوبين النكات والسخرية من ناس القرية ومــن سَــيّد هَــربيّة ولا يستثنون الأشرم. وقبل أن تنفض جِلستهم، انتصب سَيّد هَــربيّة على ركبتيه في حماس يناسب سُكرُه وما تذكّره فجأة ويريد أن يفضي به فجأة..

- اسمعوا يا أولاد. سمعت أمس من هَربيّة كلاماً فارغاً سأحكيه لكم.

ضحك فيّاج..

- قــل يا ابن هَربيّة. والله يا ناس لم نسمع عن عائلة كل أفرادها عُبط أبداً إلا عائلة هذا الولد سَيّد.

- الله يسامحك.

- أنتم يا عائلة العُبط عار قبيلتنا وسط قبائل النوبة كلها.

- الله يســامحك مــرّة أخــرى يــا ابن مُهدي الأصفر. البخيل. الرمّة. الله يسامحك. ثم أن أمك ديوانة مسكين أصبحت نصف عبيطة.

تدخل أولوا..

- ماذا قالت هَربيّة؟

- ثــم إن أبي سليمان كان حداداً عظيماً. كان يرى الشياطين داخل النيران وهو يصهر الحديد. كان يراهم يتضاجعون. بل إنه عشق امرأة منهم! تصوروا؟

- اسمع يا سَيّد يا عبيط، لا نريد أن نسمع حكايات أبيك سليمان العبيط.

- إيْ. صحيح يا سَيّد، المهم الآن أن نسمع حكاية أمك العبيطة.

– إذن، اسمعوا. أمي قالت حكاية حصلت من قبل ميلادنا. تصوروا أن هذه الولّيّة تقول إن أبي ومعه أثمان كُورنة رحمهما الله..

– خالي أثمان لم يمت يا ولد!

– سـيموت خالك يا أولوا. سيموت. هل خالك أثمان كُورنـة مُخلّد؟ سلاطين لـم يغضب رغم أن أثمان كُورنة أبوه خَبْطْ لزُقْ. أبوه شقيق. لماذا تعترض أنت؟ المهم.. قالت أمي إن أبي سليمان وأثمان لا رحمهما الله.

– هاها.

– ذهبا أكثر من ليلة سوياً إلى وادي التيّار للبحث عن كنز مخبوء.

اعـتدل سلاطين من اضطجاعه وانتبه الجميع رغم أن السكر ران عليهم. حتى تاج طنبورة الذي سكر تماماً تنبّه.

– وتقول أمي المخرّفة، إنهما حدّدا المكان وحفرا فيه أذرعاً لأسفل..

ترك سلاطين كأسه متلهفاً..

– ثم..

– خافا ولم يستكملا الحفر عندما وجدا ثلاثة ثعابين كوبرا محنّطة، ووجوه حـراس الكنز تشع أنواراً لامعة وتنظر إليهما من حولهماومن بين الرمال.. هه.. جبـناء. مـن أنجـبونا جبناء يا أولاد. اتفق ناس القبيلة كلهم.. أن يكتموا هذه الحكايـة. فالعـار الذي قاما به وعلمت به القبيلة بعد ذلك، لم يفعله أحد في قرى الـنوب كـلها. أصـل الكـنز كـان كنز لملك نوبي عظيم. جسده أطول من جَمل آبدونجوش. ووزنه أثقل من جسد عمدتنا نُوري. والكنز في مقبرة الملك! حفروا في المقبرة. إم م م. من أنجبونا عار علينا يا أولاد. لكن.. لكن لأن أبي متزوج مـن أمـي، حكي لها بعض التفاصيل التي لم يعرفها بقية الناس. أصلاً أبي كما يقال.. كان لسانه سايب.

سأل فيّاج بتوتر واضح..

– هل حفرا في مكان الكنز نفسه؟

– إيْ. إيْ. فـي المقـبرة نفسـها. أصل الحكاية أن أثمان كان يشجع أبي ويغريه ليسكَر معه، تماماً مثلما يفعل ابنه سلاطين معي فيشجعني أن أسكر معه.

وهل أنا وأبي رحمنا الله نحب أو نريد أن نسكر؟ أبداً. لكن إغراء الشياطين المرجومين من أمثال سلاطين وأبيه أثمان..

- خلّينا في المقبرة يا ولد.

استمر الحديث ساعة زمن عن هذا الأمر، رغم أن سلاطين حاول مرّات أن يكتم هذا الموضوع وأن يحوّره إلى موضوع آخر. فيّاج كان متحمساً وأصرّ على بقاء موضوع كنز الأسلاف الموتى حياً. وليجعل بقية الشلّة متحمسة معه رغم برود سلاطين، أبلغهم ما قاله أبوه مُهدي عن الكنوز الهائلة التي كانت تدفن مع الأسلاف خاصة الملوك منهم، وأنه لولا حُرمانية نبش القبور وكراهية فعل ما هو عيب، لما تركها ناس القرى. تصوروا، أنهم كلما وجدوا جثّة محنّطة، أو بروز شئ من القدماء.. أهالوا عليه التراب وهم يترحمون عليهم؟ هل في هذه المقابر دهب وجواهر و.. وغيره؟

- طبعاً. لكن.. حرام.

تحمس الجميع لسماع بقية حكاية سَيّد هَربيّة، عدا سلاطين واتفقوا على الذهاب الليلة التالية إلى وادي التيّار للبحث عن المقبرة واستخراج الكنز. سلاطين هو الوحيد الصامت غير المبالي. ضحك سَيّد هَربيّة وهو يرش قبضة من الرمال على قفا أمرُ الله الأشرم ثم يضرب بقبضتيه على الرمال..

- هاها، سلاطين ابن الحرام. صامت. وربما يفكر في الذهاب بمفرده.

فأكمل فيّاج مُهدي..

- إنه ضامن من سيحكي له الموضوع بالتفصيل.. أبوه أثمان كُورنة رفيق سليمان الحداد في نبش المقبرة.

عاد سلاطين إلى داره. أمسك بتلابيب أبيه غاضباً ففزع هذا من نومه. لم يقبل منه سلاطين أي شفاعة أو أيْ عذر. كيف لم يبلغه بهذا الأمر من مدة سابقة!. دفعه بقوة ليلقيه على سريره. سفّه ندمه لإقدامه على فعل ما هو عيب. سخر من جبنه تجاه بضع طريشات محنّطة وعدد من الوجوه الميتة. قال أثمان ما قالته هَربيّة لابنها. الكنز في مقبرة مكانها في جنوب صخرة عمودية بطول ثلاثة

أذرع تشـرئب فـي وادي التيّار المرعب. لكن مع ضغط ابنه عليه حكى له أصل الحكاية..

– كنّا شباباً. لم نكن قد استكملنا موسمنا السادس عشر. كنت قد مللت من هَمَريـنونُوري ومشـاكلهما. ازدادت صداقتي مع سليمان الحداد، نشرب العرقي سوياً. وحين جاءت المركب التي تحمل الخواجة الإنجليزي والذي كان يتخفى في ملابـس نـاس الصـعيد.. كان معه رجلان من الصعيد، أحدهما صاحب المركب الشـراعي الصغير. بقوا في القرية.. في نجع المنحنَى حتى يبتعدوا عن العمدة وعـن المكان الذي كانوا يقصدونه. قالوا إنهم يبحثون عن نوع من زينة النساء الذهـبية. يـريدون الشـراء. الخواجـة يدعي أن لسانه عيي ولذلك كلامه ثقيل ومشـوّه. لونـه واضـح الـبياض وعيناه باهتان، طبعاً عرفت أنا وسليمان أنه خواجـه، لكـن بعد فترة، حين سكروا معنا أكثر من ليلة وتحدث الخواجة بلغة لا نعـرفها وصعيدي منهما يعرف بعضاً منها. فاتحونا أنهم يريدون مكانا خفياً خلف نجـع أورّك. لـم يكونوا يعرفون اسمه، لكن من وصفه قلنا لهم.. وادي التيار. طلـبوا مني أن أستضيفهم في النجع. عشّمونا بريالات فضية، فقلنا سوف نشرب العرقي كما نشتهي ويشتري كلُ منا مركوبين، وسليمان قال إنه سوف يأتي بكور جديد يحتاجه. أتوا ليمكثوا في مضيفة أورّك.

وليـلة تسللنا إلى الوادي. كلنا.. نحن الخمسة. توصلنا فعلاً إلى المقبرة. وحفـرنا فيها، الخواجة الذي معنا، يتلفظ بكلمات أجنبية وهو شديد التوتر، حفرنا حـتى وصـلنا لـلقرار. أفزعتنا ثعابين الكوبرا المحنطة، لكن الخواجة التقط ما صـادفناه مـنها وكأنها شئ ثمين! ثم الباب المفاجأة. الغريب أنهم تركوا سليمان وحـده فـي الحفـرة عندما اكتشفنا الباب.. هل تعلم لماذا؟ ونحن أيضاً لم نعلم السبب حتى خرجت علينا رائحة غريبة عطنة ضايقتنا، وكان الصعيديان والخواجة قـد ابتعدوا أكثر والخواجة أغلق أنفه بمنديل، انبعاث الرائحة الغريبة التي تشبه قليلاً رائحة عَطَن الثوم، أصابت سليمان القوي الذي تُرك يعمل على إسقاط الباب وحـده، أصـابته بالغثيان وكاد يسقط لولا تماسكه ومحاولته الخروج ورفعي له خـارج الحفـرة بمساعدة الخواجة. تقيأ ما في بطنه وبعدها بدأ يفيق. كدنا نفتح

المقـبرة.. لكن الفجر بدأ يشقشق علينا. فبدأوا يخافون. خوفهم من ناس القرية وارتيابهم فيهم. صراحة كنت أنا وسليمان الحداد أكثر خوفاً، إن ما نفعله فضيحة. فقـررنا وقف العمل. الصعيديان كانا في ثورة، كادا يضربانني أنا وسليمان. كان الحداد قوياً مثلهما. أنا ضعيف. لكن كان مع الصعيديين سكاكين، والخواجة لمحنا بندقية قصيرة مربوطة في وسطه تحت جلبابه. كان رأي الصعيديين أن نستمر في الحفـر ثم نستخرج الذهب ونعود فوراً إلى المركب. حتى لو اكتشف ناس القرية اخـتفاءنا وشاهدوا عودتنا بما نحمل، فلا يهمنا.. وإن اعترضوا طريقنا.. معنا النـبابيت والسـكاكين.. والسـلاح الـناري مع الخواجة. أما عني أنا وسليمان الحـداد.. فعليـنا أن نهرب معهم، والخير كثير ونبني حياتنا بنصيبنا بعيداً عن قريتنا وقرى النوب كلها! لم نوافق. الخواجة يهدئ من الصعيديين اللذين كادا أن يفـتكا بـنا لـولا أنهم يحتاجوننا في البحث عن مقبرة أخرى موجودة في أوراق الخواجة. أقنعهما الخواجة بأن نستمر في الحفر الليلة التالية.

عدنا في الصباح الباكر. لم يكتشف أحد ما كان منّا. معروف أننا ننام مع الضيوف في المضيفة. ولما جاءت لنا فتاة صغيرة بصينية الإفطار.. كنا نائمين. تـركت لنا الطعام وانصرفت. في الظهيرة تركناهم أنا والحداد بحجة المرور على بيوتـنا والعـودة في المغرب، وهم ذهبوا للمركب ليبقوا هناك قليلاً. أسرعنا إلى العمدة الكبير وسليمان مازال يشعر بالمرض، وأبلغناه بأن هؤلاء الضيوف ما هم إلا لصوص مقابر. وأنهم أجبرونا تحت تهديد السلاح على الحفر معهم في مقبرة ملك قديم يتوقعون أن يجدوا فيها ذهباً كثيفاً. وأنهم طلبوا منّا الهرب معهم بعدما نسـتخرج الذهـب من هذه المقبرة ومقبرة أخرى لم يبلغاننا عن مكانها. هنا ثار العمـدة. طلب شيخ الخفر والخفراء. واستجمع الرجال من النجوع الثلاثة بهدوء. لكن الخواجة والصعيديين لاحظوا. وهجمنا على مركبهم. ومن بعيد أطلقنا البنادق ناحيـتهم. ارتعبوا. رحلوا بالمركب شمالاً. نواصل إطلاق البنادق عليهم لإرعابهم فلا يفكرون في العودة.

ومـن هـناك ذهبـنا كلنا إلى وادي التيّار وردمنا ما كنّا حفرناه. لم يتركنا العمـدة ولا الشـيخ صَلاتو الذي يكبرنا بمواسم قليلة. العمدة غاضب على أننا لم

نصـــارحه من أول الموضوع. والشيخ غاضب، نبش قبور الموتى حرام. والناس غاضبة من العيب الذي وقعنا فيه والعار الذي كدنا أن نتسبب فيه للقرية وللقبيلة. كـــان عذرنـــا القوي هو حداثة سننا وتهديد الغرباء. كنا مجرد صبية في بدايات الشباب. وندمنا ندماً عميقاً.

حـــتى الفجـــر لم ينم سلاطين. يلعن أباه وسَيّد هَربيّة. لو قال له أبوه من قـــبل، لذهـــب بمفـــرده. ولو قال له سَيّد هَربيّة وحده لذهبا معاً ينبشان المقبرة ويـــأخذان مـــا يجدانه، ثم بعد ذلك يستغفل سَيّد هَربيّة في حقه. لكن انتهى الأمر ويجب أن لا يتخلف عن أصدقائه وإلا سبقوه. نام بعد أن أضمر أمراً.

الليـــلة التالية، لا قمر، النجوم مبعثرة في قبة السماء تبرق في استرخاء ممـــل. نـــامت القـــرية مـــن بعد العشاء وخفوت أحاديث الونّسات واسترخاء من يتلاحمون من ذكور وإناث. نباح الكلاب اشتد في عصبية لتخيف ذئبين تسللا من شعاب الجبل الغربي وهبطا مجرى النهر ليرويا ظمأهما، لم يعر الذئبان أي انتباه للكلاب. زاما في استهانة، فالمجرى يفصل بين العدوين. تسللت شلة الأفَشْطفوش مـــن بيوتهـــم. اجـــتمعوا أسفل تل الجبانة عدا سَيّد هَربيّة والأشرم. فترة لم تطل وشـــاهدوا الشـــبحين مقبـــلين. لعنوا سَيّد هَربيّة الذي يخشى أن يأتي ليلاً وحده فاضطروا أن يرسلوا له الأشرم.

فـــي صـــمت اتجهـــوا غرباً من جانب تل الجبانة. يصعدون دروب الجبل الضـــيقة خلف سلاطين. أمرُ الله يحمل فأساً ويعرج، فَيّاج أعطى الزنبيل الخوص لسَـــيّد هَـــربيّة فوضـــعه هـــذا على رأسه بحيث يتدلى على ظهره ويترك وجهه مكشـــوفاً وســـار وســـطهم وهو يرتعش خوفاً. رفرفة أجنحة البوم الخافتة فوق رؤوسهم، ومن بعد نسبي على يسارهم يعوي ضبع جائع عواء كأنه قهقهة سكير يـــتوعد. الضبع يخشى الاقتراب منهم. خَرْوَشَة حصوات من تحت أرجلهم. الظلام الحـــالك المطـــبق عـــليهم يبث التوجس والرعب. سَيّد هَربيّة جسده يفصد العرق غزيراً. مال على رأس السائر أمامه..

- أنا والله العظيم لا يهمني شئ في هذه الدنيا كلها، لكن صراحة.. أخاف من ثعبان الطريشة العمياء.

- هُس هُس.
- لدغتها.. قل يا رحمن يا رحيم.
استدار سلاطين من أمام الصف..
- ولا كلمة يا كلب.
أولوا هو الذي أمام سَيّد هَربيّة. يداري رعبه. التفت إلى سَيّد هَربيّة..
- لا تكن جباناً.
- إيْ. أصـــل أنا حافي القدمين وأنت ترتدي مركوباً سميكاً. البركة في أمك هَكيمة وتدليلها لك.
توقف سلاطين. عاد إلى سَيّد هَربيّة وأمسك به من عنقه ورجّه حتى سقط الزنبيل من على رأسه..
- حرف آخر تنطقه أسقفك الرمال التي تحت قدميك الجربانتين.
تخطّـوا الشِعاب. هبطوا وهم يثبون على الصخور. وصلوا إلى أول الممر الـــذي يشق أجناب الجبل برمال ناعمة ناصعة البياض نهاراً. يسميه ناس القرية أخدود التيّار، رعباً منه ومن ساكنيه من المخلوقات الخفيّة، العفاريت والشياطين. عـــبروه عدواً في دقائق. وفي نهايته وقفوا صفاً بجوار بعضهم، يواجهون وادي الـــتيّار. ســـاحة مستديرة بنفس الرمال البيضاء الناعمة، وفي الظلام تبدو أشبه بـــبحيرة رماديـــة ســـاكنة، حولها الجبل كأنه جدران تحيطها في أشكال مرعبة. حوقـــلوا وبســـملوا في رهبة. أمامهم جبّانة الأسلاف القدامى. أيام الممالك حيث تهيم الأرواح العظيمة المؤمنة منها والمعذّبة. الجبّانة التي تحميها حيّات الكوبرا وأشـــباح الســـحر الـــزنجي ولعنة الفراعين. أولوا هرب منه مظهره الجامد الذي يستر به جُبنه فارتعش. سَيّد هَربيّة أسنانه تصطك..
- سلاطين، وحياة أمي هذا الوادي ملئ بالأشباح.
- لا أشباح ولا أرواح. أنت جبان.
تقـــدم ســـلاطين وسار على الرمال المستوية الباردة فتبعه الآخرون. الكل يـــبحث عن الصخرة التي تبرز وسط الرمال بطول ثلاثة أذرع. وجدوها بصعوبة. كانت تختفي بلونها المشابه للون الرمال حولها. جنوبها أشار فيّاج..

- هنا.

أخذ الفأس من أمرُ الله. بدأ يزيح الرمال حتى حدّد جوانب المقبرة الحجرية. سَيّد هَربيّة وأولوا مازالا في هلع، يراقبان المكان حولهما خائفين، الظلام يخلق لهما خيالات هلامية تسبح في الجو وتتسحب على الرمال لتنقض عليهما.

الأشرم هبط مع فيّاج، يعبئ الرمال في الزنبيل ويرفعه. سَيّد هَربيّة وأولوا يأخذانه ويلقيانه على بعد خطوات. يذهبان في بطء ثم يرتدان مسرعين. نزل سلاطين بدلاً من فيّاج ثم تاج بدلا من الأشرم. وهكذا تبادلا المجهود. وكلّما وضحت معالم المقبرة تأكدوا أنهم ملاقون ما يتمنونه. العرق بلّل أجسادهم. وعندما وصل الحفر إلى عمق خصرهم، سَيّد هَربيّة ازداد خوفه من خطواته القليلة بعيداً لإفراغ الزنبيل المليء بالرمال. اختار أن يهبط ليحفر حتى يهرب من الأشباح التي تتهدده بالخطف كما تراءى له. خبطتان بفأسه والثالثة اصطدمت بحجر. انحنى يزيح الرمال بيده حسبما أمره سلاطين، في نفس لحظة عبور بومة تنعق فوقهم، مرّت أصابعه على ثعبان قصير، صرخ وهو يحاول القفز خارج الحفرة..

- هَربيّة هووي. الحقيني.

ركبتاه على حافة الحفرة الرملية فانهارت تحت ثقله وضغطه المفاجئ. وقع على ظهره في الحفرة وفوقه تنهار الرمال. صرخ صرخة ممتدة وهو يعود للقفز خارج الحفرة..

- هَربيّة هوووي. الحقيني.

الجميع في ذهول مما يفعله سَيّد. وعندما ارتد صدى صراخه أعمق وأقوى في ترددات متنوعة، انتابت سَيّد هَربيّة نوبة تشنج. يرتعش رعشات سريعة. يأخذ شهيقه بالكاد. ثم تصلب جسده وهو يردد..

- طريشة عمياء. طريشة عمياء. شياطين. أرواح الأسلاف. رُحْت في داهيةِ يا سَيّد. يا حسرة هَربيّة عليك يا وَلد.

أولــوا تســمّر كالمسخوط تمثالاً. سلاطين وفيّاج وتاج حول سَيّد هَربيّة يهدئونه. يقولون له ألا طريشة تعيش في هذا العمق، إنها إن وجدت فهي ميتة.. محــنّطة. حمله سلاطين وأرقده أرضاً كأنه جذع نخلة متصلبة. الأشرم وضع فمه على أذن سَيّد هَربيّة وصاح فيها..

- الله أكبر. الله أكبر. صلينا على النبي المختار.

لم يهدأ سَيّد. يصيح..

- هَربيّة هووي. هَربيّة هووي. الحقيني يا وَلية.

فَيّاج يصفع سَيّد هَربيّة ليخرجه من حالته، لكنه أغمى عليه. تذكروا أنهم لــم يأتوا معهم بمياه! التقط سلاطين الفأس. تمدد على بطنه. رأسه وكتفاه تطلان عــلى الحفــرة المظلمة تماماً. بالفأس أخذ يكوّم الرمال التي أسقطها سَيّد هَربيّة جانــباً ثم هبط حذراً يضرب بالفأس في الأرض ليقطع أي ثعبان إن وُجِدَ. ثم أخذ يتحسس. وجد الكوبرا المحنطة وقد فصلتها ضربات الفأس نصفين. ابتسم لنفسه ثم وقف داخل الحفرة. قال..

- لا أعــلم ماذا ستكون حالة ابن هَربيّة. لكن.. لنتركه، أمامنا الكثير من العمل.

اقترب فَيّاج من سلاطين..

- لا. سَيّد حالته صعبة. وربما.. ربما تزداد.

تــركوا أدواتهم. سلاطين يبتسم في الظلام، يسحب أولوا الذي من رعبه يســير بالكــاد. تــاج وفَيّاج من الجانبين يسندان سَيّد هَربيّة الذي عاد للهذيان، ويقســم لهم أنه مات خلاص. أمرُ الله الأشرم من خلف سَيّد هَربيّة يقرأ آيات من القرآن حتى دخلوا أخدود الأشباح. توقف سلاطين ونظر إلى فَيّاج وتاج..

- يجــب أن يفيــق سَيّد هَربيّة هنا حتى لا يصرخ في أية لحظة ويفضحنا وسط ناس البلد. اتركاه.

مــا كــاد فَيّــاج وتاج يتركان سَيّد حتى سقط على ركبتيه، ثم مال للأمام ساقطاً ليستند على كفيّه فصار كالبقرة..

- أنــا مت نهائياً. اندبي عليّ يا هَربيّة. خسارة ابنك سَيّد سيذهب إلى أبيه سليمان مبكراً.

ركلــه سلاطين على مؤخرته فوقع على وجهه. جثم سلاطين على ظهره وانهال صفعاً على قفاه وجانبي وجهه حتى صاح سَيّد..

- لعن الله أباك أثمان الأقرع يا سلاطين. اتركني وسأصمت.

نهض سلاطين من على ظهر سَيّد وأمره..

- قم وسر وحدك. قم.

لمّا دخلوا القرية التي رسخ عليها سلطان النوم إلا من بضعة كلاب تتحرك وتربض في كسل وتتثاءب لتجري فجأة خطوات لتعود للتثاؤب. الكلاب تنظر إليهم متعجــبة فتنبح نباحاً عارضاً يقول لثلة المتحركين.. نحن نعرفكم.. أنتم منّا ولم ننــبح عــليكم إلا لنقول ذلك. المتسللون اتجهوا إلى بيت سلاطين، دخل سلاطين وأمــرُ الله الأشــرم وهما يسندان أولوا. أرقداه وعادا. ساروا جمعاً لإيصال سَيّد هَــربيّة إلى بيــته فــي نجع المنحنى البعيد. سَيّد هَربيّة مازالت ساقاه ترتعشان، يتحاشى النظر إلى صفحة النيل على يمينهم، قال..

- كــان من الأفضل أن نأتي من ناحية ربوة مِجيد، بعيداً عن مجرى النيل. مخلوقات النهر تخطفنا يا أولاد. خاصة أننا أتينا فعلاً مُشيناً بعبثنا في المقبرة.

الكل يلعنه في غيظ منه..

- اسكت يا عبيط.

- يا ابن الكلب، اخرس.

- كنّا سنصل إلى الذهب لولاك يا ابن العبيطين.

- حتى أنتَ تشتمني يا تاج يا جربان؟

اخترقوا بضعة منحنيات بدون أن يهتموا بنباح الكلاب السريع. ولمّا اقتربوا مــن دار هَربيّة، صمتوا تماماً. عند الباب تركوه. دفع الباب، لم ينفتح. دخلوا في حوار هامس. أكد سَيّد هَربيّة..

- لقدَ تركتُ الباب مفتوحاً!

- لكنه مغلق.

- لكني تركته مفتوحاً!
- نطرق الباب ونترك سَيّد يواجه هَربيّة.
- لا، إن رأته هَربيّة هكذا سوف تقيم القرية علينا.
- إذن..

دفعوا سَيّد هَربيّة ليصعد معهم على المصطبة الخارجية للبيت.

- وبدون صوت. سَيّد والله إن نطقت حرفاً أو صرخت سأقتلك لتموت بحق وحقيق.
- أهذا تهديد يا سلاطين؟
- إيْ. تهديد يا ابن الكلب. تهديد ووعيد. اشلح جلبابك.
- ماذا؟!
- ارفع جلبابك داهية تشيلك.
- وهل أنا أولوا؟

بعـد أن كـتم عدد منهم ضحكهم، ولكز سلاطين جانب سَيّد هَربية برفق خشية صريخه، انحنى سلاطين ومن بين ساقي سَيّد، أدخل رأسه وحمله ببساطة عـلى كـتفيه رغم أن جسد سَيّد لا يقل ثقلاً عن جسده. جلباب سَيّد هَربيّة يغطي رأس سلاطين. امتطى تاج وفيّاج السور. أخذا بتلابيب سَيّد وسحباه ومدداه على أعـلى السـور ليهبط في الداخل، انزلقت يده فهوى نصفه العلوي لأسفل وساقاه مازالـتا أعلى السور وفيّاج وتاج لم يستطيعا التشبث بهما لفترة كافية ليعدل سَيّد نفسه، أرعبه خوف السقوط على أم رأسه، همس مرتعشاً..

- أنا مُت خلاص.

يفلت من ساعد تاج فمال جسده بميل أكثر فصاح بصوت أعلى..

- إبيوو- إبيو. هَربيّة هووي. سَيّد في خطر يا وَليّة.

توتـرت أعصابهما فدفعا ساقيه دفعة قوية ليسقط سَيّد داخل الحوش آخذاً معـه عددا من الطوب الذي انتزعه جسده من أعلى السور مع كميات من الطين الملاطي. سَيّد مكوّم على الأرض يصرخ وينادي أمه هَربيّة. زملاؤه أسرعوا بعيداً من ناحية الجبل إلى نجعهم يلعنون سَيّد وأمه هَربيّة التي سمعوا صراخها الحاد.

تداولوا سريعاً قلقين أن يفشي سَيّد سرهم لأمه وهذه ستبلغ الجميع. ثم ذهب كل إلى بيته.

سلاطين اقتحم حجرة أبيه. أيقظه بخشونة ففزع أثمان..

– من؟ من؟ حرب القبائل يا ماجيتا؟

– اسمع يا.

– ماجيتا! أين بنتانا يا ماجيتا؟ من؟ سلاطين!

– اترك ماجيتا هذه وبنتيكما، ستأتي معي. سنذهب سوياً إلى وادي التيار.

– سوياً! بمعنى؟

– ستذهب معي.

– لماذا؟

– لذلك.

– أبداً.

– ستذهب معي.

– لماذا؟

– اسمع، أنا أستكمل عملك القديم. لا تتخلى عني.

– سلاطين. أنا وسليمان الحداد ركَبَنا الرعب وتيقنا هناك أن لعنة ما ستصيبنا.

– ستذهب معي.

– ركَبَني الخبال من دخول وادي التيّار ومات الحدّاد بمرض غريب بعد أن فقد عقله. قيء وسخونة ورعشة وهلاوس، أب ب ب ب. تعذّب المسكين.

– ستذهب معي.

– سلاطين.. أهل التيّار هم أهل الشياطين. الشياطين والأرواح الشريرة.

– قلت ستذهب معي.

– والمقابر ملعونة بلعنة الفراعين وسحر قبائل السود.. إب ب ب. بلاء على بلاء. تعرف. سليمان مات بعد أن جُنّ. وأنا كما تعرف نصف مجنون. كله بسبب نبشنا للمقبرة ووصولنا لبابها. رائحة منها سامة. صار أبوك ملعوناً..

- لن تهرب من الذهاب معي.

- أنـــا أذهب إلى ساحة الجِن والعفاريت؟ أعبر أخدود الأشباح مرّة أخرى؟ لا. لا. حــرام عليك يا سلاطين. أبوك عجوز. أتريد موتي يا بني؟ أنا أبوك وأمك ماتت.

- يا. لا تخف.

- مستحيل. أنا عجوز. جسدي ضعيف. ليس لي عافية بتاتاً. لن أنفعك.

- سترافقني. وسأقوم أنا بالعمل.

- حارس المقبرة جبّار عتيد.. أنا مرعوب حتى من قبل أن أذهب.

- جبان.

- الله يســـامحك. ولك أن تعلم.. دخول مقابر الأسلاف لعنة لا يفلت منها داخل.

- وستذهب معي رغم ذلك.

- سلاطين، لا تُغضب أباكَ. أموت وأنا ألعنك فلا تكسب أبداً.

- العــن كمــا تشــاء. أنا أحتاج إليك معي. لن يشاركني مخلوق في كنوز المقبرة. ستأتي معي. لن تهرب وتتركني كما هربت وأنا صغير. والآن.. نم.

صرخات سَيّد تعالت بعد أن سقط. تلتها صرخات هَربيّة عندما فزعت على صرخات ابنها ثم تعالت صرخاتها أعلى وأعلى عندما صدق حدسها ورأته مكوماً عــلى الأرض. لكن ثلة الأقشْطقوش لم يعطوا الصرخات حقّها، سَيّد هوّال بطبعه. كــثير الصياح جبان، وكذلك أمه. لكن سَيّد سقطته كانت خطرة، سقط على جذعه فانشرخ له ضلع ورُضّت ثلاثة.

هَــربيّة كانت سريعة التصرف، خفّضت من علو وحدّة صراخها، لا تريد زحام الناس حولها، تريد جيرانها فقط، الزحام الكثيف سوف يربك سرعة الحركة

وسرعة جبر عظام ابنها. أتوها فأرسلت فوراً إلى يونس المجبّراتي فأتى والفجر ينبــلج. سَيّد ممدد على ظهره حيث هو، وقبل أن يأمر بإحضار كبش كانت مأمأة الكبش تصدر من خلفه وهم يطرحونه أرضاً ويذبحونه.

عَرّوا جذع سَيّد وهو يبكي ولعن أمهات من ألقوه كل واحدة باسمها حتى مــن مـــتن منهن. عدّة رجال أمسكوا بأطراف سَيّد حتى يستطيع يونس تحسّس أضــلعه وتحديد أي كسر أو شرخ. يضغط على قفصه الصدري بقوة معقولة غير آبـــه بلعــنات سَــيّد التي تنصب على أم يونس ثم توسلاته بأن يترفق به، يجأر بالصراخ وهَربيّة تصرخ الآن بأعلى صوت لديها..

- إبيوو- إبيو. إبيوو سَيّد إبيو.

وعــندما أغــمى على سَيّد، تحوّل صراخها إلى يونس الذي نزع ملابس ابنها وألقاها..

- إبيوو- إبيو. إبيوو يونس إبيو.

أتــوا بجلد الكبش المسلوخ ومازالت بقية دماء عالقة به. لفّوه حول جذع سَــيّد، شدّوه تماماً وقام يونس بخياطته على الجسد العاري السمين، ثم لفوا سَيّد بحرام ثقيل. وضعوه برفق على سرير جريدي صغير، خرجوا به كأنه ميت وندب وتعديد هَربيّة لا ينقطع.

أمــام الــبيت بــزاوية، أعــدت حفرة بسيطة مستطيلة وأشعلت فيها النار فســخنت. بمجرد أن اقترب محفل سَيّد هَربيّة أطفأوا النار وأبعدوا بقايا الأخشاب وأرقدوا سَيّد في الحفرة على ظهره في عناية ودِقة، تحت رأسه وسادة عالية منْ ملابــس قديمة ثم أهالوا عليه الرمال الدافئة عدا وجهه. تحول سَيّد من الإغماء إلى النوم. انفض الجمع تاركين حوله أمه وبعض قريباتها وجيرانها، والفجر بدأت الديكة تأمره بالسفور.

في الصباح الباكر كان ما جرى لسَيّد هَربيّة قد انتشر في القرية كلها، لكن لا أحد يعلم مغامرة الذهاب إلى المقبرة حيث كنز القبر القديم وعار نبشه، والذي طــاردوا بسببه الخواجة الإنجليزي والصعيديين منذ مواسم طويلة. أفواج تذهب إلى أمه مواسية وتعود المريض مشروخ الضلع مرضوض الأضلع.

الأفشْطفوش في قلق.. هل تكلم ابن هَربيّة وأبلغ أمه بتسللهم إلى المقبرة؟ يخـــافون الفضيحة من هذا الفعل الشائن. سلاطين لا يخشى لوم ناسه، يخشى أن يســبقه أحد. أن يضيع عليه ما يرجوه من ذهب المقبرة ولتذهب حُرمة الأسلاف في ستين داهية.

كــلهم عــلى الــركائب متجهين إلى نجع المنحنى. حتى أمرُ الله الأشرم، اضــطر أن يمــتطي حماراً تحت ضغط سلاطين. الشمس بالكاد صعدت فوق قمم الجــبل الشــرق، وكلهم صاروا من ذوي العمائم كشباب قارب الرجولة، يتوقعون انضمام تاج طنبورةإليهم هناك.

زحـــام حول سَيّد هَربيّة، تركوا الركائب على مقربة، اندسوا يتلصصون. هَــربيّة شــاهدت قيّاج، طويل وسط الناس، ثم بحثت فرأت وجه سلاطين. قامت تصــرخ وتلعنهم وتهجم عليهم، أمسكت النسوة بها. لعناتها على سلاطين خاصة، إنـــه شرّين ابن أخت الشرير الساحر هَمَرين. تألم سلاطين. خرجوا. اتجهوا إلى بيـــت تـــاج طنـــبورة، نائم! أيقظوه وبقوا عنده لحين ينفض الزحام من حول ابن هَربيّة.

والشـــمس تنفلت من خلف الجبل الشرقي ولم تقذف بعد أشد السعير إلى الأرض، عـــادوا. صـــدق ظنهم، لم يعد حول سَيّد زحام من الناس. هَربيّة وامرأة واحدة فقط جالستان تحت سقيفة بسيطة من الحصر لحمايتهن. طرف الظل يغطي بالكـــاد رأس سَيّد. أما الحفرة التي غُمِر فيها جسد سَيّد تحت الرمال، فهي بعيدة عـــن ظـــل ســـقيفة الحصر ليمتص الجسد المريض لظاها الذي تستمده من لظى الشـــمس. ولمّـــا اقتربوا سبقتهم امرأة تحمل إفطار سَيّد على الصينية الخوص. زحـــزحت هَربيّة مقعدتها واقتربت من رأس سَيّد. وضعت صينية الطعام بجانبها، تُطعـــم ابـــنها، بالمـــلعقة تناوله شوربة ساخنة. تقدم الأفشْطفوش منهم. جلسوا. هَربيّة تنظر إليهم في غضب حاد..

- انتظروا قليلاً. ينهي سَيّد طعامه وسوف ألتفت إليكم. سوف أحثوا الرمال فوق رؤوسكم يا أولاد الكلاب.

ابتلع سَيّد ما في فمه ونظر لأمه مهدداً..

- يــو. أمي. أصدقائي أولاد كلاب فعلاً. لكن لو أغضبتيهم سوف أقوم من مقــبرتي هــذه والعلاج يفشل وتتكعبل عظامي مع عروقي وأصير أعرج مثل هذا الأشرم ومشلولاً مثل هاشم الكيد.

- إبيــوو- إبيو. لا. لا. لن أتحدث إلى أولاد الكلاب من أصله، لن ألعن أم أي منهم رغم أن أمهاتهم أنجاس ملعونات. لن ألعنهم، لكن ابق مكانك ولا تحرك عضلة من جسمك عدا فمك يا بني. ابق ساكناً يا ابن سليمان.

ضــحك سَــيّد فــترك الأفَشْطفوش توترهم وضحكوا. يستكمل تناول قطع صــغيرة مــن اللحم المسلوق من يدي أمه. ثم عاد لشرب الحساء حتى ارتوى. قــامت المرأتين. ظل السقيفة الخفيفة ينسحب بعيداً عن رأس سَيّد. خلعت هَربيّة طرحتها معرية شعرها المحنّى بالحِنّة الحمراء. طوتها ووضعتها على وجه ابنها لــتحميه من لظى الشمس المنعكسة من الرمال والجبل البعيد. تركت طيّة خفيفة على الفم والذقن. قامت قائلة..

- اســمعوا يــا أولادي، أنا وهذه لم ننم من ليلة أمس وحتى الآن. سوف ندخل لنستلقى قليلاً نريح جسدينا العجوزاين، ومن استطاعت منّا أن تغمض جفناً لتغمضه، ابقوا واقطعوا الوقت مع صاحبكم، ساعدوه يتحمل عذاب النار التي هو فيهــا، شجعوه ألا يحرّك جسده مساحة قصاصة ظفر. أفهمتم يا أولاد الملاعين؟ وقــبل ذهابكم ليحضر أحدكم لإيقاظي فآتي بجوار سَيّد الذي كسرتموه.. فهمتم يا أفَشْــطفوش يــا أنجاس؟ وأنت يا سَيّد، تحمّل النار التي سوف تتخللك حتى أذان الظهر، سوف يأتي لك المجبّراتيقبل الصلاة لينتشلك.

نظرت لأمرُ الله..

- أنت يا ولد يا أشرم، تعال هنا.

اقترب منها الأشرم فأخذته في حضنها تقبله..

- كيف حالك يا بني؟

- هَمد لله.

- وأخيراً يا أمرُ الله التصقت بأبي شرّين؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ابتعدت المرأتان ولسان هَربيّة لا يكف عن لعن الأقشْطفوش بما فيهم أمرُ الله.

سَيّد بدأ الحديث..

– هل آخر الصداقة معكم يا أنذال، أن تلقوا بي هكذا فينكسر لي أحد عشر ضلعاً من ضلوعي وينشرخ لي أربعة عشر آخرين؟

– كم؟

– وقدمي التوت. هل من الصداقة أن تبدّل عظامي مكانها بسبب إلقائكم لي يا أولاد البقر؟

– أنت كاذب يا ابن هَربيّة.

– أولوا هَكيمة. أنا لا أكذب يا طري.

– قلت لأمك عن رحلة الأمس السرية؟

– وهل أنا فتّان يا ابن ديوانة مسكين؟ يا ابن مُهدي بخيل الدنيا والآخرة؟

– أفضل شئ أن طرحة أمك تحمينا من رؤية وجهك.

– سامحك الله يا سلاطين. لكن الطرحة أيضاً تحميني من رؤية وجهك.

– ألا تضايقك رائحة الطرحة القذرة؟

– قذرة! اترك أحداً غيرك يقول هذا يا طنبورة! رائحة عرق أمك تفوح من جَندل سُوين حتى جَندل حَلفا.

– سنذهب الليلة لاستكمال العمل. تأتي معنا؟

– ماذا؟

– تأتي معنا؟

– أعـد الكلام يا فيّاج ! كلمة واحدة عن المقبرة أقوم من مقبرتي وأصرخ آتياً بأمي تضع الرمال على عمائمكم. لعنة الله على القابلة التي سحبتكم من فروج أمهاتكم.

– إذن نذهب بدونك.

– اذهبوا. لن تعودوا إن شاء الله. سوف ينتقم لي الله منكم.

– وإن وجدنا شيئاً، هل نحفظ لك نصيبك؟

طبعاً. هذا حقي. لكن، أنا لي نصيبان، نصيب لي ونصيب لتعويض إصابتي وتكاليف العلاج. وهل يونس المجبّراتي عالجني هكذا بدون مقابل؟ إنه لا يقل بخلاً عن صديقه مُهدي الأصفر! والكبش المذبوح، أليس تكلفة على هَربيّة الفقيرة؟

- الله فدى سَيّدنا إسماعيل بكبش، وأمك فدتك أيضاً بكبش.

- والله مقامك عندنا كبير يا سَيّد.

- طبعاً، وهل هذا يحتاج إلى توكيد؟

- وعند أمه هَربيّة أكبر.

- طبعاً، وإلا ما فدت بقرة بكبش.

يضـــحكون عليه وهو يضحك عليهم ويلعنهم، بعد أن اطمأنوا أنه لم يش بهم، صرخ فيهم..

- كَـــفَى. كَـــفَى. مـــن الضـــحك جسدي يهتز ويونس لعنه الله حذرني من الحركة. سوف أبقى هكذا حتى أذان الظهر. إيـــ يـــ ف. ابعدوا عني.

قاموا للذهاب. فقال..

- تعرفون ما فائدة رقدتي هذه؟

- ماذا؟

- أنـــني أتبول بدون أن أذهب إلى حجرة الصرف. ولا أحتاج إلى استنجاء أيضاً.

- مقزز.

- سيكون مقززاً فعلاً حين يضطر لما هو أكثر من التبول.

- هاها. ابقوا قليلاً.

- لا. لقد قلت لنا من قليل كَفَى وطردتنا كأننا جالسون في بيت أبيك.

- رجعت في كلامي.

- لا. إن كنت أنت طفلاً نحن كبار وكلمتنا واحدة.

- إذن، روحوا في داهية. ليذهب أحدكم لإيقاظ هَربيّة.

أجابه سلاطين..

- لا، لا نستطيع. يدخل أحدنا على أمك وهي نائمة! تكون مشلحة الجلباب فيرى أفخاذها. يثور يقفز عليها.. فضيحة.

- أنا أجامع حمارتي ولا أقترب من هَربيّة هذه.

- اخرس. كلكم سفلة.

- ثم.. الأفضل أن نتركها في نومها. المسكينة لم تنم من أمس وكأن ابنها هذا من بني آدم.

- فعلاً، لنتركها تستريح.

- لكن يا أولاد أنا لا أريد أن أبقى في مقبرتي وحدي. ربما أحتاج إلى شيء.. إلى..

- كن رحيماً بأمك واتركها تنام.

قال فَيّاج هذا وانحنى على وجه سَيِّد ورفع الطرحة وألقاها بعيداً. اضطر سَيِّد لإغماض عينيه بقوة. شعاع الشمس يسقط عليه.

- فَيّاج. فَيّاج. فَيّاج. أعد الطرحة على وجهي يا فَيّاج. الشمس ستحرق وجهي في لحظتين يا ولد. عيب يا ابن ديوانة الطيبة. تاج طنبورقيا ابن نجعي يا فنان يا عظيم. أعد الطرحة على وجهي. لا أريد أن أحرك جسدي يا أولاد، تَنْحل الجبيرة يفشل العلاج أصير مشوهاً في سيرى مثل الأشرم يا ناس. إذن، نادوا هَربيّة لتجيئني. أمرُ الله يا أخي في الرضاع، أوقظ أمك هَربيّة، فمهما صرخت لن يسمح صراخي أحد ولا حتى هَربيّة. ستحرقني الشمس يا عباد الله.

ذهبوا مسرعين ضاحكين، امتطوا مطاياهم ونغزوها فأسرعت بهم وسَيِّد هَربيّة يلعنهم ويصرخ ولا يسمعه أحد. فترة.. عاد إليه أمرُ الله ليعيد الطرحة إلى وجهه. وجده يبكي والشمس بدأت تحرق وجهه. تقبّل منه الأشرم لعنات عليه بدون أن يعرفه حتى ضحك أمرُ الله بخنفته فعرفه سَيِّد. لعن الأشرم الأخنف ولعن كل شلّة الأفشْطفوش وعائلات الأفشْطفوش. ذهب أمرُ الله ليأتي بهَربيّة. خطوات وتخطى المسافة القريبة من باب البيت، الحوش الواسع. انضمت ثالثة لهَربيّة

والتي معها، النساء الثلاث مستلقيات تحت السقيفة المظللة بجوار الأزيار الباردة. هَــربيّة ناظــرة للسماء تدعو الله أن يشفي ابنها وحيدها. وعلى جانبيها جارتيها اللتان نامتا إرهاقاً.

قــبل أن يفــترقوا، أبلغهم سلاطين أن موضوع المقبرة يجب تأجيله إلى البدر القادم في تمامه، لكي يروا الطريق ويروا ما في الرمال. ولمّا عارضه فيّاج، قال سلاطين..

– البدر القادم بعده عنّا حوالي أسبوعين، ويكون سَيّد قد شفي. عيب علينا وعار أن نتركه بعد أن أرشدنا. وأنت يا فيّاج من طلب منّا أن نترك الحفر عندما هلوَس سَيّد، أم نسيت؟ البدر القادم موعدنا.

وفي نفس تلك الليلة، تجمعوا على سطح ربوة مَجِيدٍ. خمر وغناء وحَكْي عمّــا سيفعلونه عند تمام القمر القادم بدراً. فيّاج يراقب وجه سلاطين محاولاً أن يستشــف ما في أغواره، لم يجد كلمة واحدة تؤكد شكوكه. لكنه لا يستطيع تثبيت الثقة في سلاطين.

الليلة التالية، فرغ ظلامها أكثر من نصفها. لم يتحرك سلاطين إلا بعد أن اطمــئن.. حــتى لو فيّاج راقبه فلن يبقى مستيقظاً للآن. اليأس المطمئن سوف يعود به لينام. برز من باب البيت أولاً.. ثم والده بعده مَحْنِي الظهر يتمتم بأدعية تحفظهمــا من شر ناس التيّار. مسرعان، طويل في الأمام وخلفه مباشرة قصير يحني ظهره يحاول ألا يتخلف كثيراً عن الطويل.

أشــعل سلاطين الفانوس قبل أن يدخلا وادي التيار، فزاد نوره الأصفر من كآبة الوادي ورعبه. تصلّب أثمان وهو ينهج ويمسك بكف ابنه في ضراعة..

– سلاطين، أبوك نصف مخبول. سيصير مخبولاً تماماً بسببك.

– لا يهم.

اســتمرا فــي السير الوَجِل.. شاب متوتر والخوف غلالة خفيفة تعابثه، وأبــوه جــبال خــوف تجثم على صدره وقبضات رعب تعصر قلبه. شاب يتخطى غلالة الخوف ويفكر في كيفية استغلال الكنز الذي سوف يعثر عليه. وجود الكنز واقع في عقله، واستخراجه واقع في عقله. الذي يشغله.. كيفيه استغلاله؟ كيف

يكون بالكنز أهم رجل في القرية.. في القبيلة. كيف سينتقم ممن عاداه ويراضي من راضاه. والده القصير النحيل المتوتر الخوف لا يترك له إلا تفكير يزيده خوفاً.. هل انتقام ماجيتا سوف يحلّ عليه هنا؟ هل موت سليمان الحداد بمرض غريب، سببه فعلاً تنفسه رائحة الثوم العطنة التي انبعثت ثقيلة خلال محاولته فتح الباب الحجري. إن ضعف جسده المرّة السابقة جعل الأغراب يهملونه بعيداً عند فتح المقبرة، لكن هذه هي المرّة الثانية، مع ابنه.. ولا يرحمه ابنه ولا حتى يفكر في ضعف بنيته وضرب كِبَر السن له.

عند المقبرة، ألقى بطاقيته جانباً. خلع جلبابه بعنف وألقاه على الطاقية. بقي بالقميص واللباس الداخليين الخفيفين. أثمان بنفس ملابسه حتى لم يبعد طاقيته عن رأسه الصلعاء. وثب سلاطين داخل الحفرة، ألقى بجزئي الكوبرا المحنطة خارج الحفرة. يملأ الزنبيل بالرمال ويرفعه لأبيه فيأخذه أثمان ويفرغه بعيداً. لم تكن كمية الرمال كثيفة. بكفيه يجمع بقية الرمال على سطح الصخر الذي وصل إليه سريعاً. يحاول تحديد المدخل. طلب الفانوس. أناره. يبحث بنوره في القاع الصخري. فشل.. يحاول تحديد أي علامة تدله. بدأ يغضب من فشله وعدم فهمه. أثمان يقف على حافة الحفرة..

- الباب على يمينك.

هبّ واقفاً ناظراً لأبيه في دهشة. التف ليمينه.يد تحمل الفانوس وكف اليد اليمنى تكحت الرمال المتماسكة في هشاشة. تنهار ببساطة لتكشف حدود الباب. ابتسم سلاطين لوالده شاكراً معونته..

- وصلنا إلى الباب. الباب. هو الباب. لأول مرة تكون ذا نفع لي يا با.

- ليست أول مرّة.

- لكن.. أين هي الرائحة التي أصابت سليمان الحدّاد والصعيديين بالغثيان؟

- كانت رائحة خفيفة. حاول أن تشمها؟

- لا رائحة.

- كانت.. كانت والله يا سلاطين. الليل يكاد ينتهي، هيّا نعود للبيت يا بني.

- ونعود إلى هنا ليلة الغد.. مبكرين.

عادا إلى الدار. لا يصدران أي صوت. سلاطين من رأيه أنه حتى الأشرم يجب ألا يعلم بما يفعل. لكنّه عرف بعد مواسم عديدة وتقلبات كثيرة أن الأشرم كان يراقبه هو وأباه وأنه كان يعلم كل شئ.. وبالتفصيل! كاشفه أمرُ الله الأشرم عندما وصل الأمر للتحدي من بعد خنوع، عندما تصاعد العداء حتى وصل إلى حد الجلْد البشع، ثم الترصد وتصفية كل الحساب.

ليلة تالية على ربوة مِجيد. لا تغير عن الأولى سوى أن قيّاج شكّه خفَّ قليلاً. وقبل منتصف الليل كان التحرك إلى المقبرة. سلاطين يحمل وَصلة مشقوقة من جذع نخلة وعود حديد قصير. أبوه يحمل بضع زنابيل داخل بعضها. وثب سلاطين داخل الحفرة، بعود الحديد ووصلة جذع النخلة، يزحزح الباب الجرانيتي القصير العمودي، عود الحديد وتد، وفلق النخيل يمنع ارتداد الباب كلما زحزحه سلاطين. يزوم سلاطين. لا يرتدي إلا قميصه ولباسه الطويل حافي القدمين عاري الرأس. العرق بلّله رغم نسمات ما بعد قلب الليل. يصيح سلاطين في صوت مغلول.. هووب، ثم صوت مكتوم والباب الحجري ينخلع من جدار المقبرة ويسقط داخل الحفرة الرملية، فيهيلها ويستقر مائلاً كاد من أسفله أن يسحق قدمي سلاطين لولاً وثبته خطوة لآخر الحفرة، أثمان شهق فزعاً على ابنه. الباب حاجز حجري لا يزيد طوله عن ثلاث أذرع وسمكه لا يزيد عن إصبعين.

مدخل المقبرة الحقيقي فوهة سوداء تهب منها روائح قديمة من مئات المواسم المتكومة بداخلها. أحس سلاطين بالرائحة، ظن أن فم المقبرة يتراقص، صرخ فيه أثمان..

- اقفز بعيد. اقفز يا ولد.

وثب سلاطين فوق الباب وصعد للسطح ملقيا بنفسه بعيداً يستنشق الهواء النقي، أثمان ينحني عليه محاولاً سحبه من أعلى ذراعه..

- ازحف بعيداً، ازحف بعيداً.

سلاطين يزحف بعيداً وهو يسعل ويبصق، انقلب على ظهره وبجانبه أثمان يجلس ناظراً إليه في قلق وهو يربت على كتفه في حب. فترة صمت.

- رائحة ثقيلة، لولا وثوبي مسرعاً لأغمى عليّ.
- قلت لك ولم تصدق.
- آه.
- استرح قليلاً.

رفـــع سلاطين جذعه. يصرخ ويفرغ بقايا عشائه على الرمال. عاد للتمدد على ظهره وهو يلهث. بقيا ساكنين فترة. قام سلاطين..

- هيّا للعمل.
- كفانا يا سلاطين. سينتقمون منّا يا بني. ثم الهواء القاتل.
- لا بد أن الهواء الفاسد قد صعد بعيداً. هيَا للعمل.

هبط سلاطين إلى الحفرة. تناول الفانوس من أبيه. أناره. اقترب من فتحة الــباب وهــو يتشمم، الرائحة خفّت زناختها. ركع على ركبتيه. مد يده بالفانوس المنير.. فإذا بالفتيل ينطفئ!

- با. الهواء مازال فاسداً، سنعود غداً. وأدعو الله أن يعمي دماغ فيّاج، فلا يفكر في الحضور إلى هنا.

مــر نهار اليوم التالي عادياً. أثمان في عمله مضطرب، حديثه أكثر توتراً عــن كل يوم. وكما أمره ابنه، لم يقترب من تَعويضة لِسانين ولا أيٍّ من أختيه. يخشــى سلاطين أن يظهر منه ما يدفع الناس للتساؤل. أمّا سلاطين فقد تعمد أن يصــحو فــي موعــده، قــبل الظهر. يتناول الإفطار مع أمرُ الله. يظهر مع شلة الأفشَــطفوش مـــنذ العصر. ثم السهر معهم على ربوة مِجيد سهراتهم العادية. لا يــتعمد إنهاء السهرة، رغم تشوقه وتوتره. بل يتكاسل في القيام وفي السير إلى داره. وفــي الدار يترك أمرُ الله لينام، ثم يندفع لما ينتويه ويصر عليه. أخذ أباه معه وزق مياه كان في أشد الاحتياج إليه حين أصابه الغثيان ليلة أمس.

بملابســـه الداخــلية الخفيفة التفّ سلاطين حول الباب المنهار، مد يمناه بالفـــانوس ناحيـــة الفـــتحة.. الفانوس لم ينطفئ، أعاده لوالده، تمدد على بطنه وســـاقيه ناحيـــة فوهـــة المقبرة، يهبط ببطء، لم يبق من جسده إلا كتفيه ورأسه المليء بالرمال، مد يمينه وتناول الفانوس من أبيه، نظر لأسفل.. ابتسم، مجرد

شبر بينه وبين القاع، ترك جسده ينزلق داخل الجوف الموحش، اختفى. أثمان لا تــلمح عيــناه شــيئاً إلا أضواء الفانوس تتراقص فتشكّل أشكالاً شيطانية. خرير الرمال يملأ المكان وهي تنسال كالماء الجاري داخل جوف المقبرة.

داخــل المقــبرة.. ضــوء الفانوس أظهر الممر، بضعة أذرع ثم ينتهي مسدوداً. احتار سلاطين، لكنه وجد مدخلاً على يمينه أسفل، اضطر أن ينحني مرّة أخــرى. يــركع ثم يحبو على أربع فيدخل بهواً صغيراً، حرارة عالية وعَرق من خلايــاه ينهمر ويبلل الملابس الخفيفة ويرطب الأرض الصلدة. الجدران منقوشة برســوم ملونة باهرة لأرباب وملوك سمارهم غرين نيلي. على جانب البهو هيكل عظمــي ممدد لإنسان ضخم، وفي وسطه خنجر مائل ومسنود على عظمه ضلع، مكان القلب تماماً. حوله أباريق فخار مختلفة الأشكال مازالت تلمع. أدخل أصابعه في فتحة إحداها، مليئة بالحبوب، ملأه الغضب. مسح بظهر يده العرق الذي يهبط مــن مقــدم رأســه متخــللاً الشعر ليتجمع مع العرق السائل من الجبهة فيغرق الحاجبين وينحدر من بينهما على جسر الأنف ثم على الشفتين، قطرات منه تدخل الفــم مــع شــهيق سريع متوتر فيبتلعها بملحها وحبيبات رملها والباقي يواصل انحــداره عــلى الذقن ويتساقط بعضها قطرات ويستمر بعضها متدفقاً متجدداً من الينابيع التي تقابلها لتصير جداول مكروبة متدفقة على العنق. لا تمر عليه دقائق قليلة إلا ويعود لمسح العرق الذي لا يكف عن التدفق بغزارة.

رفــع الفــانوس.. باب في الجهة المقابلة، زحف مسرعاً على قدميه وبيد واحــدة والأخــرى تــرفع الفانوس. غرفة أبهى من السابقة بنقوش أدق. أناس مــتوّجين فــي ملابس تليدة، أمامهم مخلوقات تجمع بين جسد البشر ووجوه بن آوي والتماســيح والــبقر والقرود ،أبو قردان. وجد هيكلاً عظمياً آخر ملقي على بقايــا ســرير خشــبي مهشم بفعل الزمن وصار كله على الأرض، رفع الفانوس واقترب.. ضحك واقترب أكثر.. ضحك سلاطين وقد شاهد تاجاً ذهبياً على رأس الجمجمــة، التقطه سريعاً. ينظر فيه مدققاً وقد قرّب منه الفانوس، ابتسامة رضا، عاد إلى الهيكل، أبعد قطع قماش تحولّت إلى ما يشبه نسيج العنكبوت. حوله قلائد

ذهـبية بفصوص من أحجار كريمة ملونة. خرج زاحفاً في سرعة. وعند الفتحة الكبرى أخرج الفانوس ثم أطل برأسه صائحاً..

- با. با. ذهب وفضة وجواهر!

عـاد سـلاطين إلى الداخل وقد انتعش قليلاً بالهواء النقي. أنعشت أثمان الفرحة، وهو ينتزع جلبابه انسلت الطاقية مع الجلباب. ألقاهما جانباً، انبطح على بطـنه، يهبط بساقيه مسرعاً فرحاً خلفه شلالات من الرمال أثارت غباراً. يزحف كالـبرص خلف ضوء الفانوس الذي يتقدم به ابنه، توقف وقد رأى سلاطين يضع الفـانوس عـلى صـدر هيكل عظمي ويقوم بنزع أساوره الذهبية والفضية. نظر سلاطين إلى أبيه..

-هيّا با. هيّا ساعدني.

- أعوذ باللهِ.

قال أثمان هذا وبدأ في انتزاع الخواتم الذهبية من أصابع الهيكل العظمي. بحثوا في الأجناب وهم يواصلون الزحف. صرخ أثمان فكانت صرخته مدويّة في المكـان الضـيق المكـتوم بجدران حجرية مصقولة وسقف خفيض. أثمان دخل الـرعب قلبه فحاول الوقوف ليهرب، ارتطم رأسه الأصلع بالسقف الواطئ فسقط عـلى مؤخـرته ثم مال نصفه العلوي مغمياً عليه منحنياً على نصفه السفلي في وضـع صـعب، لا يشـعر بالدماء التي تنسال بسهولة على صلعته لتتقاطر على حجـره. سـلاطين مـد فـانوس ونظر حيث كان ينظر أبوه، كوبرا ضخمة ثلثها منتصب وعنقها للخلف، عيناها تعكسان ضوء الفانوسه في شرر وأنيابها مشرعة لـلدغ. كاد قلب سلاطين أن يتوقف، لحظات وكأنه شُلّ. أخذ شهيقه حين تبيّن له أنها كوبرا محنّطة. ضرب سلاطين عنق الكوبرا بسيف يده فأطاح بها. عاد لجمع مـا حولـه مـن مقتنيات ومازالت أعصابه مهزوزة. درع مستدير مغلف بالجلد المتهرئ، سكين كبيرة بمقبض عاجي وسكين آخر صغير بمقبض فضي، وخلاخيل ذهـبية وفضية، منجل ثقيل مقبضه مرصع بحجرين كريمين، أمشاط عاج، مرآة صـغيرة فـي برواز من الفضة، أدوات برونز، طائر ذهبي برأس إنسان، تمساح

يقف على ساقيه الخلفيتين مستنداً على نُصُب منقوش، رمح طويل، تماثيل لآلهة قديمة، مبخرة فضية، جعارين من الأحجار الكريمة.

يــزحف ليــراجع إن كان قد نسي شيئاً. بجوار الهيكل العظمي الملكي.. بــروز شــبه مستدير، قرّب الفانوس، ظهر لمعان هادئ من تحت أتربة خفيفة، بأصابعه يبعد يزيح الأتربة.. وجه يَبْرق، قلق وخوف انتابا سلاطين، جلس وحمل الشــيء.. قناع خشبي يماثل وجهاً آدمياً شكلاً وحجماً! ينظر إليه.. القناع أيضاً ينظر إليه نظرة باردة لا تحمل أية معنى. ابتسم سلاطين. القناع مُبهر بدقة صنعه وألوانه.

كــوّم ســلاطين كــل ما جمعه. زحف بالفانوس خارجاً. تناول الزنابيل من خــارج الحفــرة، استنشــق الهواء الطّلق بعمق، عاد يزحف وهو يدفع الزنابيل أمامه. أثمان أفاق قليلاً. سلاطين آتٍ من خلفه. ضوء الفانوس ينير رأس الكوبرا المفزع الملقاة على جانبها بجواره. رفع أثمان جذعه، وجد رأس الكوبرا تنتظره فانقلب على ظهره وعاد للإغماء.

خــلال العــودة، أثمــان يســير بالكاد حاملاً حِملاً خفيفاً. سلاطين يحمل زنبيــلين. وكــان طريق العودة طويلاً شاقاً على أثمان المتلهف للاستلقاء. وكان طويــلاً ممــلاً على سلاطين المتلهف على الوصول للبيت ووضع ما حمله ليعود للمقبرة ويستكمل أخذ كنزه. عاد مرتين للمقبرة. أخذ كل شئ وجده تاركاً التماثيل الصغيرة الحجرية معدومة القيمة. سحب الرمال من تحت الباب المائل ومن جانب الحفرة المقابل الذي يستند عليه، حتى ازداد ميل الباب وكاد أن يكون مستلقياً. لا وقت ليستكمل إخفاءه فالفجر قارب الوصول. أخذ الأدوات كلها. وفي توتره الفرح نسي عود الحديد.

فــي حجــرته ألــقى الزنبيــلين. نثر الثروة على السرير الجريدي. يداه تتحســسـان الذهــب والأحجار الكريمة. يمسك بالسكين الكبيرة ومقبضها العاجي، الدرع، الرمح، المنجل.. ثقيل دقيق الصنع، سلاحه متين رغم الصدأ الذي يعلوه، حملــه بيــد ومــرر باطن كفه الثانية على سلاحه.. حاد. مسّت جسده قشعريرة أربكــته. تــرك المنجل. ثم ارتدى التاج الذهبي.. يسير في خيلاء.. دخل عليه

أبـــوه.. الدمـــاء المتجـــلطة تملأ صلعته إثر خبطتيها في سقف المقبرة. الإعياء واضـــح عـــليه، لكـــنه فرح.. فرح بالثروة، فرح بابنه الذي سيسعد بعد تعاسة طفولته بسببه هو، بسبب أبيه الذي هرب إلى قرى الأدغال.

ســـلاطين وقف أمام أبيه متباهياً والتاج على رأسه، الخواتم في أصابعه والأســـاور الذهـــبية في يديه. السكين في يد والرمح في الأخرى. قميصه العرق والرمال جعلاه داكناً شديد الاتساخ. رأسه معفرة تحت التاج. وجهه متسخ. جفناه محمـــلان بالـــرمال. قدماه حافيتان. لكنه لا يبالي. ينظر في المرآة الصغيرة التي اســـتولى عـــليها من المقبرة. يتركها ليمشي جيئة وذهاباً في الحجرة. أسرع إلى الســـرير.. من بُعد خطوات ينظر حيث القناع الخشبي. اقترب. حمله. يتمعن فيه بإعجـــاب. وضعه على صندوق السحارة المتربع على جانب مضيء من الحجرة، وأخذ خطوات للخلف يتمعن في الوجه من كل ناحية. نظرات عيني الوجه تتابعانه أيـــنما تحـــرك بنظراتها التي أحس أنها صارت ساخرة. تحسّس التاج على رأسه والخواتـــم والمشـــغولات الذهـــبية التي كدسها على جسده. ضحك.. لا يمكن أن يسخر منه قناع!

القناع ألوانه شديدة الوضوح، يغلب عليها اللون البني، أما الأسود فشعر جعـــد وحدقـــتا عينين وحاجبان وهُدُب. يتعجب سلاطين.. كيف أن شفتي الوجه الورديـــتين منفرجـــتان وصـــارتا تعطيان مع الأسنان البيضاء بسمة تحمل معنى الوعيـــد! اضـــطرب قلبه. اقترب منه أثمان. ينظر إليه سلاطين.. لقد صار أباه عجـــوزاً متهالكاً! التعب حلّ في عينيه والتجاعيد تكاثفت في جبهته وتحت عينيه. صـــلعته بائســـة خاصـــة والدماء حمراء تلطخها. أبوه قتيل أتي من المقبرة التي فـــتحاها! يقترب منه أثمان متهدل الأكتاف مضطرب الخطو كأنه سيقع. ينظر إليه في حب أبوي وخوف عميق..

– أنا أخاف من هذا القناع. إنه حارس المقبرة. ولن يتركنا بما سرقناه.

– أولاً إننا لم نسرق. هم أجدادنا ونحن ورثتهم. ثم.. أنا لا أخاف من قناع زينة.

– أنا.. أنا خائف.

- لا تخـف من خشب تم تشكيله بألوان ليماثل ملك أو أمير ما. إنه مجرد جماد.

أثمـان يتحرك خطوة لهذا الجانب ثم خطوة للجانب المعاكس وهو يراقب القناع..

- إن القـناع ينظر إلى أنا ويتركك. لأنني أنا الذي قلت لك وأفشيت السر. إنه ينظر إلى لأنه سينتقم مني أنا. أنا أموت وأنت تكسب المسروقات يا بني؟

- القناع ينظر لي أنا أيضاً. القناع ينظر لكل الأجناب. لا تكن جبانا با.

تقـدم سـلاطين من القناع وبإصبعه دفعه ناحيته فسقط على وجهه. قال لأبيه..

- هاهـا. لقد سقط على وجهه لا حول له ولا قوة. سامع با. من الليلة أنا أغنى رجل في القرية. بل في القرى كلها.. كلها. أنا الآن مهمتي كبيرة. سلطتي يجب أن تكون بقدر ثروتي. يجب أن أكون أعظم رجل يعيش على النيل كله. با.. مـا رأيـك يا با؟ سأحقق حلمي وأتكبر على كل كبراء القرى. سأحقق كل أحلام خالي.. هَمَرين.

القـلق زاد عـلى سحنة أثمان من سماع اسم هَمَرينلأول مرة على لسان ابنه. تقدم من السرير وارتمي عليه راقداً على ظهره. سلاطين اقترب منه ناظراً إليه في تهديد.

- تعرف مشاريع خالي هَمَرين ؟
- طبعاً. طبعاً.
- ولن تفتح فمك بكلمة عن الكنز.
- طبعاً. طبعاً.
- لأي مخلوق. فاهم؟
- طبعاً. طبعاً.
- ولا تَعويضة لِسانين.
- ولا لتَعويضة لِسانين. طبعاً. طبعاً.

– والآن، قارب الصبح على الانتشار. يجب أن تنام. وأنا أيضاً. قبل أن يصحو الأشرم.

خلع سلاطين الذهب. ذهب ليستحم. وخلال إلقاء كيزان المياه على جسده تذكر عود الحديد. لقد نسيه. توقفت يده. ثم عادت للعمل. أثمان ذهب للاستحمام بعد ابنه. يذيب الدماء المتجلطة من جرحه ببطء، فيذوب مسحوق البن الذي كبس به الجرح حال وصوله. الجرح يؤلمه، لكن ما يؤلمه أكثر يحادث به نفسه..

– إنه لم يهتم بأن أباه مجروح. لم يقل لي سلامتك. جثّه الذهب الذي وجدناه. فقط نظر إلى ممتناً حين أبلغته بمكان باب المقبرة، ثم نسي. لم يتذكر إلا خاله هَمَرين.. وخطط خاله هَمَرين الساحر! مصيبة.. أحلام ابني سلاطين هي هي أحلام هَمَرين خاله! لقد سمعت من هَمَرين زمان ونحن صغار هذه الأحلام! سمعتها بأذني.. صحيح.. صحيح المثل.. الثلثين للخال! لو كنت أنا عاقلاً لما تزوجت أخت هَمَرين وجعلت الساحر هو خال ابني.

كِسبانة وهُوشَة ترعيان بضعة أغنام بينهما كبش هَكيمة الذي أتى به معتوق الخير نظير عباءة عسل. صاعدات بها إلى بيوت نجع أورّك. كِسبانة توترها زائد في جوفها..

– غرَق سِيّي، من سيتزوجني؟ من؟ فلا جمال سوى صدر بارز. لا أولاد أعمام أشقاء ولا أولاد أخوال أشقاء يضطر أحدهم للزواج بي. الشباب يخاف من أمي لِسانين. كل من الشباب الأكبر مني ينوي الزواج من بنت أخرى، وسلاطين سوف يفضحني باختياره لأختي الصغرى تاركاً إياي، معلناً للقرية إنني قبيحة ولا تستحق الزواج! زواج هُوشَة الأصغر مني سيعرّيني أمام ناس البلد.

الهواجس تأخذ كِسبانة، وهي ما بين حبها لأختها وما بين غيرتها منها.. محتارة، حبها لأختها عميق، وغيرتها منها لاسعة. والبنت هُوشَة بطيبتها وهدوئها تمتص ثورات كِسبانة ولا تعطيها فرصتها لتنفيس نيران غيرتها في معارك بينهما تفتعل لها كِسبانة أوهى الأسباب.

حافيتان تصعدان كثبان الرمال تحت شمس المغارب، وقبل أن تصلا أعلى الربوة التي تستقر عليها بيوت النجع راسخة، سمعتا نداء معتوق..

- كِســـ.. بانة. كِســـ.. بانة هووي.

وقفـــتا، التفتا. معتوق كان مقبلاً فوق ظهر فَرهانة العاري كالعادة من أي بـــردعة، وجهـــه الأسود فرح. بيمناه يلوّح بزنبيل، بيسراه يضرب على مؤخرة فـــرهانة لـــتزيد من سرعتها. ابتسمت هُوشَة لمرأى معتوق الخير، رفعت يديها الاثنـــتين تـــلوّح لـــه ولفـــرهانة. كِسبانة وكأنها وجدت شيئاً تلقي عليه غضبها وحرقـــتها، وكما تفعل أمها وضعت قبضتيها في وسطها وزمّت شفيتها ثم زامت من زورها..

- لقد أتيت لوعدك يا لقيط الذئب.

وصـــلت فرهانة على بعد خطوتين من الفتاتين ووقفت، وثب معتوق من عـــلى ظهـــرها، جلبابه مبلول من مياه النيل، ومن شعره الأكرت تتساقط قطرات لتبلل صفحة وجهه الباسم. رفع يمناه بالزنبيل..

- كِســـ.. بانة. سمكـــ.. ة لكِ مهر.

كِســـبانة عقلها وجوفها ولِسانها انطلقوا إلى العمل وقد انفجرت فيها كل تفاصـــيل غلّها وغلبها وحسرتها. رعبها أن تكون عانساً. رعبها من الغيرة التي تحـــرق جوفها من أختها غصباً عنها، ثم يأتي اللقيط، هذا العبد المعتوق، الغريب عن نسب القبيلة، شديد السواد مشوه اللسان.. يأتي إليها مصراً على خطبتها.. وبســـمكة! فـــأل سيئ. لن تجد شاباً يشرفها بالزواج منها.. إذن، فليتقدم من لا يُشرّف.. هذا المعتوق.

بيسراه أخرج السمكة. كبيرة ومازالت ترقص حيّة، في نفس تلك اللحظة، كـــانت كِســـبانة تنحـــني وتغـــرف بيديها الرمال وتقذف بها معتوق الذي أخذته المفاجـــأة، يتحرك جانباً ليتفادى تكرار قذف الرمال عليه، فَرهانة ابتعدت، هُوشَة أمســـكت بيـــد كِســـبانة، أخذت كِسبانة بشعر هُوشَة وجذبتها لأسفل جذبة واحدة شديدة فسقطت هُوشَة تحت أقدام معتوق. توالت هبّات الرمال تسقط عليهما، ومع ذرّات الرمال ولعنات لا تقل عدداً عنها، لقيط.. ابن زنى.. أسود الكلب.. ربيب الذئبة.. عَبدَ هكيمة.. حمار آبدون.

معـــتوق أعطى ظهره للرمال الساقطة ووضع هُوشَة أمامه ليحميها، أعاد السمكة داخل الزنبيل. أنهضَ هُوشَة. كِسبانة تبتعد ولعناتها لا تتوقف.

أســرعت هُوشَة وجمعت أغنامها القليلة المتفرقة ثم جاءت إلى معتوق. أخذت تمسح الرمال من على شعره وهي تبتسم له. ضحك لها معتوق..

– معـــ.. لش. لا.. لا.. تغـــ.. ضبي.

ضحكت هُوشَة..

– معتوق الخير. المفروض أنت الذي يغضب. كِسبانة أنا أتحملها، أختي.

– و.. زوجتي.

عادت هُوشَة للضحك سعيدة به متعجبة..

– زوجتك؟ خلاص.. تزوجتها أيضاً يا معتوق؟

– إيْ.

– هاها. لكن لِسانك ناقص. ولسانها طويل.

– مثـــ.. ل أمها.

– هاها.

– هاها.

– أعطني السمكة.

– خذي.

– أمي ستلعنك، لكنها ستأخذ السمكة.

– أعـــ.. رف.

– خذ الزنبيل.

– لا، خذيها بالـــ.. بالزنبيل.

– أنت طيب يا معتوق الخير.

أتت قرهانة صاعدة بعد أن اطمأنت.

– هُوشَـــة. اركـــبي فـــر.. هانة. توصـــ.. لك. ستـــ.. عود. وقولي لأمك، سمـــ.. كة رضا، لا سمـــ.. كة صيد.

دخلت كِسبانة دارها باكية تنادي..

- يو، أمي. يو، أمي. تَعويضة لِسانين هووي.

أتتها تَعويضة فإذا بكِسبانة أمامها والدموع قد بللت وجهها تماماً، ووضح عليها الحزن والانكسار. أسرعا إلى بعضهما، ارتمت كِسبانة في حضن أمها، كتف تَعويضة أعلى من كتف كِسبانة قليلاً. تسألها في لهفة..

- كِسبانة، ماذا جرى؟ هُوشَة بخير؟ أين هُوشَة؟

- ليست هُوشَة، أنا.

- أنتِ!

- أنا كِسبانة الغلبانة. أنا كِسبانة المهانة. ابنتك الكبيرة يا تَعويضة.

أجلستها تَعويضة. تحكي كِسبانة والدموع لا تتوقف ولا نهنهاتها تنضب. لقد كانت كِسبانة في أضعف حالاتها. تَعويضة تعلم أن غضب ابنتها ليس أصله تقدم معتوق لخطبتها، وبسمكة. إن حرقتها الأصلية سببها موت سِسِّيوالآمال الكبيرة التي عقدتها عليه. حرقتها خوف العنوسة والغيرة المكتومة من أختها، لكنها مثلها مثل أمها لم تجد شيئاً لتصرف بها غُلبها إلا الشجار مع أي سبب عارض، فكان شجارها مع معتوق.

وصلت هُوشَة، وعند الباب الجانبي القريب من الحظيرة، هبطت من ظهر فرهانة ومعها الزنبيل. صرَفَت فرهانة وأدخلت المواشي ثم دخلت هي الحوش. أمها تعطي كِسبانة كوز ماء بارد. رأت كِسبانة الزنبيل في يد هُوشَة، صرخت..

- يو، أمي. انظري. ابنتك هُوشَة أخذت من معتوق زنبيله وبه السمكة، إنها تشجعه، تريد أن تشمت في وتفضحني يا يو. تريدني أن أتزوج معتوق ليخلو لها البراح وتتزوج من يُدور عليها وتَدور عليه.

وقبل أن تلعن تَعويضة ابنتها هُوشَة، كانت هُوشَة قد أخرجت السمكة الكبيرة والتي مازالت تتلوى..

- انظري يا يو. أليست سمكة كبيرة تكفي عشاءنا؟ معتوق يقول إنها أتت برضاها ولم يصطدها. أليست خسارة أن نرفضها وأنت لا يهمك إن كان رضاء أم صيد؟ وأبي لا يسأل فينا بالسمك ولا باللحم ولا بأي شيء.

- فعــلاً، لــك حق يا هُوشَة. أول مرّة في حياتك تعرفين المصلحة! ضعي السمكة في حجرة الطبخ. علقيها بعيداً عن فم و مخالب القطط يا بنت الزير البارد الـبخيل. كِسـبانة.. امســحي دموعك. أنا ذاهبة الآن أشعلها معركة كبرى مع هكيمة. ألعنها وألعن من أنجباها، وألعن زوجها الذي دللها، ألعن أباه الذي طرده الغرور من بلدنا. وأيضاً ألعن جده جوش الكبير. أتظنان أنتِ وهُوشَة أنني أخشى من لَعْن جوش الكبير ذات نفسه؟! والله تَعويضة لِسانين تلعن سنسفيله. كِسبانة، امسحي دموعك. اهدئي يا بنت الخروف. خلاص.

هُوشَة تداري ضحكها. رأتها تَعويضة. أخذتها بعيداً من شعرها في إصرار ونظرات تهديد..

- امــنعي الضــحك. كِسبانة في حالة غُلب، وإن رأتك أو سمعتك تضحكين فسوف تقوم وتضربك بالمركوب.

خــرجت تَعويضة من البيت حافية عارية الشعر، تسير هرولة وقد نحتت الغضــب العــنيف عــلى سحنتها، وبمجرد أن وصلت رأس شارعها حتى أطلقت صرخة عالية..

- إبيوو- إبيو. إبيوو- إبيو.

ثــم واصلت هرولتها. خرج الناس من البيوت ليتبينوا أي مصيبة وقعت. شــاهدوا تَعويضة في هيأتها الغاضبة المتحفزة وهرولتها هذه.. ضحكوا من بعد هلع، إنها متجهة إلى حيث ستقيم حفل شجار مع أحد سكان النجع.

الأطفــال يلاحقونها ضاحكين آملين في مشاهدة معركة لطيفة طريفة من معــارك تَعويضة لِسانين. سيتسلون قبل أن يهبط الظلام. البعض من ناس القرية يصــعد على الدواب وعلى الأقدام من الحقول، وصلهم صراخ إبيوو- إبيو، فقالوا إن أحدهــم قد مات أو أصيب إصابة خطيرة. لدغة عقرب أو نهشة ثعبان. لكن ما برّد خوفهم، أن الصراخ لم يستمر. إذا ليس الأمر خطيراً.

تسألها النساء وهن على أبواب بيوتهن..

- تَعويضة هووي، إلى أين؟ مع من؟ الطيّب أحسن.

لا تــبالي بهــن. أغلبهن ورغم أنوفهن سوف يتبعنها ليشاهدن المعركة ضــاحكات مثــلهن مثل الأطفال. وعندما قاربت بيت هَكيمة وقفت تَعويضة رافعة يديها عالياً صارخة..

- إبيوو- إبيو. إبيوو هَكيمة إبيو.

إذن المعركة ستكون مع هَكيمة.

اســتكملت تَعويضة خطواتها حتى وقفت أمام باب بيت هَكيمة، لكن على بعد العديد من الخطوات.. صاحت..

- هَكيمة. هَكيمة هووي. هَكيمة بوصة. اخرجي لي يا بنت كُورنة. دعيني أرى وجهــك يــا أخت أثمان الخمّار. تعالي يا سلالة لا تُشرّف حتى السحالي. يا ملعونة..

خــرجت هَكيمــة وتوقفــت خــارج باب دارها متعجبة. تقدمت امرأة من تَعويضة لِسانين..

- تَعويضة ، لماذا تسبي هَكيمة كُورنة؟

تَعويضة لا تنظر لمن تسألها، تنظر لهَكيمة وتجيب..

- لمــاذا! وتقوليــن لــي لماذا؟ ابنها هذا اللقيط العبد يفضح ابنتي الحرّة كِســبانة ابنة تَعويضة! تَعويضة بنت سَبَلْطة سليلة عائلة عزيزاب! تَعويضة بنت محمود تانا سَيّد القبائل.

تــنظر تَعويضــة إلى الذين كوّنوا حلقة كبيرة مثل حلقة مشاهدة عروض الغجر، تشير تَعويضة إليهم لتشهدهم على منطقها..

- كِسبانة بنت مالك المركب الشراعي الأكبر في القرية. المركب الذي رسَى فــي كــل القــرى من سُوين حتى حَلفا! المركب الذي بدونه تحتار القرية ويبور بــلحها. كِســبانة أخت زجِرْ صاحب المركب. كِسبانة بنت الحَسَب والنّسَب يهينها معــتوق العــبد اللقيط ويتقدم كل يوم قاطعاً عليها الطريق ويخطبها.. وبسمكة! مجــرد سمكة ومهما كانت كبيرة. لا.. لا. لا يا ناس القبيلة. نحن عائلة لا ترضى بالإهانة. نحن نضرب بالكرباج من يهيننا. نحن نضرب بالنبوت مثل ناس الصعيد. نحن شوكتنا حامية.

ثم أخذت تَعويضة تتحرك بخطوات راقصة هنا وهناك، ومع غاية كل كلمة تقولها تتشكل خطواتها وجسدها. ثم طوّرت معركتها فأخذت تطلق لعناتها وسبابها وتباهيها في جمل غنائية. غضبت هكيمة من سباب تَعويضة لمعتوق. تقدمت لتَسُب تَعويضة، أمسكت بها جارة لها..

- اتركيها يا هَكيمة، بعض الوقت وسوف تتعب وتأتي إليك تسترضيك.

لم تتوقف تَعويضة، انصرف الرجال إلى صلاة المغرب ضاحكين لاعنين نقص عقل النساء. يتساءلون.. متى ستهرم هذه الولَيّة العجوز وتتوقف عن هذه المعارك التي تبدعها والتي لا تنتهي؟

المساحة بين تَعويضة وباب بيت هَكيمة حيث تقف هَكيمة ومن معها خالية. مازال زحام الأطفال وبعض النساء متحوطين في شبه الدائرة. فجأة دخل هذه المساحة الخالية معتوق وهو على ظهر فرهَانة. اتجه بفرهانة ناحية تَعويضة التي ما كادت تتبينه حتى صاحت..

- العبد وصل. اللقيط جاء. معتوق هَكيمة وآبدون الذي لا يشرف لا هَكيمة ولا آبدون. أتى لموته. تعال يا ابن المرأة التي لا نعرفها. ولا تعرفها أنت نفسك.

هجمت عليه لتمسك به. راوغتها فرهانة ومعتوق من فوقها يقودها ويضحك. تَعويضة تهجم وفرهانة تجري منها داخل الدائرة. ازداد ضحك المتفرجين خاصة الأطفال. اللعبة ازدادت حلاوة. تعثرت تَعويضة فكادت تقع. ضحكت هَكيمة. توقفت تَعويضة عن المطاردة وهي تلهث. التفتت مرّة أخرى ناحية هَكيمة. وعادت إلى سبابها. معتوق على ظهر فرهانة يشاكسها لكي تطارده. لكنها لم تحاول. فقط زادت من لعناتها وقد أغاظها انقلاب الجمع المشاهد ليضحك عليها هي. حتى دخلت امرأة طويلة هزيلة إلى المساحة التي بين تَعويضة وباب هَكيمة. ديوانة مسكين وكفاها مضمومان على شيء ما. تسير في هدوء وبساطة متجهة ناحية تَعويضة. وجهها لا يحمل أي تعبير. توقفت تَعويضة عن الحركة والسباب. تبربش بعينيها لتتبين كنه القادمة. فالليل بدأ يسكب سواده وهي لم تعد عيناها تتبينان بسهولة. امتنع المشاهدون عن الضحك. أسرعت هَكيمة إلى ديوانة لتمنعها لكن ديوانة كانت قد قاربت تَعويضة ووقفت أمامها تماماً. تبينتها

تَعويضــة. رفعت ديوانة يديها في هدوء وأفرغت قبضتين من الرمال على رأس تَعويضة العاري. ثم استدارت مستكينة ليدي هَكيمة التي ابتعدت بها. تَعويضة في مكانهــا وكأنهــا سُــخطت حجــراً. حتى عاد الأطفال إلى الضحك الزاعق. أخذت تَعويضة تمسح الرمال من شعرها الأكرت وفمها مغلق صامت تماماً.

وَضَــعت الصينية الخوص على فخذي أبيها. يسند ظهره على الحائط. نظر إلى الطعام، امتعض وأشاح بوجهه بعيداً. جَلَسَت راضية بجانبه. الملاءة التي يلف بهــا نصــفه العــلوي تهدلت على وسطه فانكشف صدره، أضخم من صدر سَيّدة سمينة مُرضِعة، إلا أنها مشعره.

– با، حرام عليك. أنا أقلل لك كمية الطعام حرصاً على صحتك.

–..

– ألا تحادثني با؟ ساعدني لتشفى با. لأجل خاطري. أنا ابنتك راضية. لأجل خاطــري. اسمع نصيحتنا وتحمل لزمن قمر واحد وسترى النتيجة، اتفقنا؟ سيعود لك جسدك الرشيق، تخرج على الركوبة وتباشر عموديتك.. لماذا الدموع با؟ إذن سأضــيف القليل من الطعام. لكن لن أعطيك أكثر من رغيفين ودجاجة وحزمتين من الخضروات في الفطور.. لا توافق؟ وطبق من البلح.. وكوز لبن. ألا يكفيك كل ذلك؟!.حرام با.. حرام.

قــرّبتِ راضــية الطبق الفخار وبه الماء وقطعة القماش النظيفة. رفعت القماشة وعصرتها قليلاً وابتدأت تمسح رقبة أبيها الضخمة لتتقرّب منه..

– نحن نحبك با. كُل.. كُل هذا الطعام وسيكفيك.

وفــي غضــب غيــر منتظر، رفع نُوري يسراه وقذف بالصينية بعيداً بما عــليها ففــزعت راضــية، أطاح بها نُوري بيمناه فسقطت على ظهرها وتدحرج الطبق الفخاري وانسكب الماء، راضية وهي ملقاة تنظر إلى وجه أبيها في ذهول. يغمــض عينيه ضاماً جفنيه في تشنج وقد تقطب لحم وجهه السمين وانفرج فمه وصاح في ثورة..

– عاا‌ا عاا.

أســرعت راضية خارجة. أتت مع أمها، لم تستطيعا تهدئته. مازال يخور عاا عاا. وجودهما حوله وتوسلاتهما له زاده غضباً وثورة. أبعدهما وقام يهرول مــا بيــن الجدران كالثور ولا يتوقف عن النعير، سقطت من على أكتافه الملاءة العليا، لم يعد عليه إلا الملاءة المربوطة حول نصفه الأسفل المنبعج بحبل، تتعلق نَبْرَة بذراعه لكنه يدفعها بعيداً فتسقط واهنة لتقوم مرّة أخرى لتتعلق به فيسقطها المــرّة تــلو المرّة. دخل الخفير الذي أتى على صراخه العالي، يمسك به فيطيح بالخفيــر في غضبته. ابتعد الخفير ووقف بجوار نَبْرَة وراضية في أجناب الحجرة المتوسطة السعة. نُوري أرهقته الهرولة جيئة وذهابا. يخور ناظراً للأرض حيث آثار الإدام والماء. صدره ينهج وعرقه غزير برائحة ثقيلة. تقطعت أنفاسه تماماً. تقدم منه الخفير لإعادته لمكانه. نفر منه يتقهقر إلى الخلف. زلّت قدمه على الإدام المســكوب فســقط أرضاً وارتطم كتفه بأسفل الحائط الطيني فانهد جزء كبير منه وبرزت كتف نُوري العمدة إلى خارج الغرفة.

وقت قصير وأتى آبدونومعتوق من الحقل، جاء يونس يدهن كتفه بالدهان ويطمئن ناسه بأن كتف العمدة لم يصبه أي كسر أو شرخ، مجرد رضوض. أثمان كُورنـــة وصل متأخراً، الإرهاق واضح عليه. رفع أثمان عمامته وطاقيته، يتعمد جذب أنظار الحضور، يظهر صلعته وكلها خدوش تحيط بجرح قطعي كبير.. قال في وهن..

سيأخذني ابني البار سلاطين إلى سُوين ليعالجني في الإسبتالية هناك.

ذهــب الجميع إلى ظل السقيفة، بقيت نبرة وآبدون ومعتوق، غسلوا العمدة مــترفقين بكــتفه المصابة ثم أبدلوا له الملاءتين. مددوه على حشيته. يبكي في تهدّل واسترخاء مُتعب وهو يردد في ضعف اسم ابنه..

– سِسِّي. سِسِّي.

لا يتحدث مع أحد.

الصيف حار والقيلولة جهنم الحمراء. الشمس ترعب وترهب كل حي وقتها. ناس القرية اختبئوا من قيظها. حين هبط الفلاحون إلى حقولهم، أخذوا معهم طعامهم البسيط حتى لا تضطر النساء والبنات إلى قطع مشاوير إحضار الغذاء لهم في هذه الشمس المُمْرِضة.

تحت ظلال الأشجار والخِصاص يأكلون ثم يرقدون ساعة. تخفيفاً من السخونة التي لفحتهم واستعداداً للعودة إلى العمل ونيل السخونة التي ستلفحهم. لا يضطرون إلى العمل المتواصل إلا أيام فيضان النهر حيث يقام السباق بينهم وبينه.. أيهما ينتصر.. الفلاحون فيحصدون كل محاصيلهم قبل أن تغرق الحقول، أم هو.. ذلك المارد المائي الذي أحيانا ما ينتصر عليهم ويقضم حصادهم أو قطاعات منها.

في البيوت يستلقي الناس في الأحواش تحت السقائف. النجوع خالية تماماً مثلما هي خالية في منتصف الليل إلا من عبور عرضي لإنسي يسرع هارباً ليصل إلى بيته حتى لو كان فوق حماره، أو كلب يلهث وسرعان ما يحيد إلى ظل حائط فيجلس دون أي نباح. تقول العجائز للأطفال إن الشوارع في هذا الوقت لا يسير فيها إلا الشياطين، والنهر كذلك.. يمتلئ بالشياطين الذين يستحمون وحدهم في هذا الوقت من اليوم. يبثون الرعب في قلوب الصغار ليمتنعوا عن الخروج في هذا اللهيب القاتل. يخيفونهم من الاقتراب من النيل، فإن طغى عليهم النهر ربما لن يسمع استغاثاتهم أحد، فالناس ما بين مستلق في نعاس أو نائم.

السماء وقتها تصير بيضاء اللون مبهرة خالية من أي شائبة سحابية، لا تستطيع الأعين أن ترتفع إلى كبدها حيث نار الشمس. ربما طار نسر أو اثنان على الجبل سريعاً ثم اختفيا، ربما حلقت حدأة قريباً من الأرض لتختبئ سريعاً. العصافير في الأغصان، تسرع منها منطلقة تلتقط شيئاً لتعود سريعاً تختبئ بين أغصانها. أبو قردان وأبو منجل يلتقطون الديدان والحشرات من بين الزراعات القصيرة ثم يدخلون بين الزراعات الأكثر طولاً منها هرباً من القيظ. الأسماك في

النهر تفقد اتزانها، تصعد للسطح وكأنها مخمورة فتلتقطها مناقير الأوز والبط الضخم بسهولة وهي ترطب نفسها في كل حين وحين برشق رؤوسها ورقابها تحت سطح النهر، وضرب السطح بأجنحتها وهي تصيح غاضِبَة على كل هذه الحرارة.

الحشرات والزواحف السامة وغير السامة كلها تستكين مختبئة، ونادراً ما يُشاهد عقرب إلا وهو ملهوف للاختباء تحت أقرب صخرة أو يلتقي بحجر فيندس خلف جانبه الظليل. وإن لَمِح ثعبان، فزحفه وثبات سريعة ليرحم باطنه من الرمال المشتعلة كالجمر من تحته.

بجيوَة خارجة من دارها. تسير كأنها ستدخل بيت ما وتسرقه. قلقها وتوترها يبدوان على وجهها، تنوي شيئاً. لحظات والعرق بللها من تحت طرحتها التي تحمي رأسها من الشمس، جلبابها بالكاد يتماشى مع جسدها، فوضح مالها من صدر ناهد وخصر ضيق وردف بارزعريض. تتجه ناحية دكان مُهدي الأصفر، عرف عنه نوم القيلولة في الداخل تاركاً لابنه فيّاج أن يتمدد على حصير تحت السقيفة التي تظلل مقدمة الدكان، على بعد خطوات من شجرة الكافور الخالية من المستظلين بها في مثل هذا الوقت وهذا الحرور.

وقفت بجيوَة على مدخل الدكان. فيّاج ليس في مكانه. نادت..

- فيّاج.. فيّاج.

وجدت الذي أتاها هو مُهدي.

- بجيوَة! إيه؟ ماس-كاج نا؟

- همد لله.

- أبوكِ ماس -كاج -مي؟

- بخير.

- الشمس جعلتك تبخّين العرق. أنا مشغول في المخزن الصغير، تعال أعطيك منه ما تريدين. هيا.

- لا، أريد فقط..

- يـــا بنت ادخلي أنا مشغول. المخزن الصغير خلف الدكان مباشرة، أنا لم يأتـــني نـــوم وفيّاج أرسلته من الصباح إلى نجع المنحنَى، ولم يعد حتى الآن هذا الكسول. ادخلي.. ادخلي.

دخـــلت بجيوةَ. رطوبة محبّبة في الداخل. وما كادت تتخطى مساحة الدكان الواسعة، حتى أتاها العجوز من الخلف، أمسك بها من وسطها يضمها إلى جسده. فوجـــئت لحظات. فمه على رقبتها يقبلها وينفث فيه زفير مشتعل، وكف من كفيّه يعبث بصدرها.

صاحت..

- آي -نوبي -سيه.

- لا تخافي يا بنت. سأعطيك كل ما تريدين.

ارتدت بجسدها للخلف فضربت جسد مُهدي على الحائط ثم تقدمت إلى الأمام لـــتطوح بـــه بعيداً فيسقط أرضاً على الرمال. أسرعت خارجة تتخطى قلب الدكان ومنه إلى الشارع. تجرى. لا يراها أحد إلا كلب ينظر إليها في بلاهة.

أخرج مُهدي رأسه من حافة باب دكانه يراقب الشارع. لا أحد يتابعها وهي تجرى. مؤخرتها ترتج ،ضرب جبهته على الحائط الطيني صارخاً..

- آ خ خ خ خ.

بقـــدر مـــا يـــنزلق آبدون في حياة الرخاوة والطراوة، بقدر ما كان معتوق الخيـــر لا يكلّ ولا يملّ من العمل. آبدون كاد أن يترك له كل أمور الزراعة تماماً. حين يجتمع رجال الحقول المتجاورة للعمل الجماعي، من تجهيز الأرض ثم للبذر، يكـــون معـــتوق فقط معهم، وحين الحصاد، يكون معتوق هو الذي معهم، وحين الـــري، يـــروي معتوق الحقل بشادوف بسيط وهو ينشد المديح والتسبيح للإله، يقبض على عامود الشادوف الخشبي والحبل يتدلى بالدلو إلى مياه النهر الجارية ليمتلئ، يترك الثقل في نهاية العامود يرفع المياه ثم يمسك هو بحافة الدلو ليفرغ ماءه، مبتسماً لصوت انسكاب المياه. كل دور يبتسم لهذا الصوت كأنه صوت جديد . يـــنهي معـــتوق عمله سريعاً. لا يمانع إن طلب منه أحد المساعدة يتقدم وحده ليساعد عجوزاً أو امرأة تنقل غرضاً أو لها عمل إضافي.

وأولوا أصلاً لا يعمل لا في الزراعة ولا في غير الزراعة. آبدون فقد الأمل تماماً في ابنه أولوا، لن يأخذ أولوا دوراً متصاعداً في القبيلة، بالعكس انه يهبط باسم العائلة إلى أسفل السافلين، مازال في غيّه تاركاً الشباب يركبونه كأنه أنثى. العبء الأساسي، عبء العائلة عليه هو.. آبدون. يجب أن يبني هو في عمره الباقي مكانة العائلة. وربما كان من ذرية أولوا من يقوم بالباقي هذا إن استطاع أن يُنسي الناس شذوذ أبيه أولوا. عقل وقلب آبدون يقولان أن هذا الأمل أمر مستحيل. نَفْسه المتعَبة رفضت هذه الاستحالة. إن قبَلها آبدون مستسلماً لها، فليس له بعد ذلك إلا الانهيار. ومع توالي الأيام تُسَوّل له نفسه الأخذ بالمظهر أكثر وأكثر، وكأن المظهر سيُغني عن المخبر. أحب الاسم الذي ينادونه به أحياناً.. الوجيه. يأمل أن يرسخ هذا النعت الطيب به، لكنه لم يرسخ. في كل الجلسات والوَنَسَات مع أفراد القبيلة يحاول أن يبث فيهم بآرائه وأفكاره وعطاياه، إنه من كبار رجال القرى النوبية، وإنه أتى لعائلته بمكانتها المبتغاة. زاد من رحلاته إلى القرى المجاورة، تلبّس دوره أكثر وأكثر.. إنه حفيد جوش الولي الجليل،وإنه فعلاً صار بنجاح زراعته عيناً من أعيان القرى، يزور ويزار، يتصدر المجالس والموالد والمناسبات الاجتماعية والدينية مع العمد والمشايخ والتجار الكبار كتفاً بكتف.

يتعجب معتوق الخير من غياب آبدون كثيراً، يشتاق لآبدون، يريد أن يسبح في النهر معه، يضاحكه، يسمع منه ويُسمعه ما يشاهده من غرائب. لكن آبدون لا يبقى معه. هَكيمة تلوم آبدون. يقول مبرراً غيابه إن له دور في مشاكل القرى وإنها يجب أن تفخر بذلك، لها أن تفخر بزوجها، لكن هكيمة تعلم ما بداخله.. تعلم بتَشَرّبه من أسى أبيه الذي لم يفلح في أن يكون ولياً ذا شأن، تعلم أنه يهرب من ابنه.. يهرب من أولوا المفضوح في القبيلة.

مرّ على معتوق الخير قمر كامل وهو يعمل كل يوم في الأرض الجديدة التي تلي أرض هاشم الكيد، ناحية نهر النيل والمحصورة في ضلع خور البحر. وإن وضح أنها تكاد أن تكون مقسّمة إلى قسمين، القسم البعيد عن النهر شبه رملي، وإن أكد هاشم الكيد إنها كانت مزروعة في زمن قديم من الأزمنة، وإنها تصلح

لـتكون حديقـة موالح، ثم القسم الثاني السَبَخي، والذي إن رُدِمَت أرضه بالطين وسـوّيت، سوف تكون أرضاً زراعية ممتازة. بالحاجز الذي ينتوي بناءه، سوف يسـمح لمياه الفيضان أن تدخل الأرض القريبة السَبَخية، ثم تنسحب كميات منها مـع انخفـاض الفيضان، وكميات منها تتصاعد بخاراً إلى السماء، فيبقى الغرين الطيـني الغني فيستصلح بسهولة هذا القطاع، عدا هذا التل الذي يعلو نشازاً علو شـجرة سنط. وسوف يكون ريّ هذا القسم سهلا لأن النهر على حدّها. الإشكال.. كيف سيستطيع ري القسم البعيد والذي سيكون حديقة موالح؟ هل سيحفر بئراً أم ساقية على شط النهر يأخذ منها المياه إلى الحديقة أفضل؟

عـند الأرض القريبة من النهر يفعل كما فعل العمدة الكبير قديماً والكيد من بعـده، بعـد العشاء ودخول قرهانة حظيرتها، يتجه ومعه معوله إلى مكان ما في الجـبل الغـربي الرابض خلف القرية، مكان حَدّده له الكيد، يكسر قطعاً بارزة من الصـخور ويدحـرجها لتسقط عند سفح الجبل، يتكوّم تلّ صغير من الأحجار غير المشـذبة. وفـي النهار بعد انتهاء عمله في الحقل، يذهب على ظهر قرهانة إلى حيـث تـلّ الأحجار الصغير. يقوم برحلات ما بين تلّ الحجارة وأقرب مكان حيث سـيبني حاجـزه، كـل رحلة بحجرين على جانبي ظهر قرهانة حيث شبكتين من الحـبال تتدليان. لا يساعده أحد. طالبه آبدون بترك هذه الفكرة الخرافية فالأرض سـبخة، ثـم إن الخير كثير ويفيض، يرفض معتوق، يقول آبدون إن هذه الأرض الـتي ينوي استصلاحها مستواها منخفض حتى عن أرض الكيد التي استصلحها زمان، إنها تكاد أن تكون خوراً صغيراً تتعرض لتيار النهر القوي فالماء ينحرف من ناحيتها ليدخل خور البحر أيام الفيضان، معتوق يضحك في خجل رافضاً حديث آبدون.

قـرهانة تنتشـي بالعمل معه، فرحة به تماماً. عملهما المضني يشعران به لهـواً ممـتعاً. قـرهانة تنهق وتُقطِّع في صوت نهيقها كأنها تريد الكلام، ومعـتوق يحاورهـا ويشـرح لها عمله يحكي لها عن مشاريعه المقبلة. وأحياناً يداعبها حباً فينهق لها تشجيعاً وتقرباً. من يسمعهما من بعيد لا يفرق بين نهيق ونهيق.

تَعويضةلســانين قابلــتهما ومعهــا بضعة نساء. معتوق فوق قرهانة التي تســرع مــنحدرة على الرمال الهابطة بين الحقول وخور البحر. يُربت على رقبة قرهانة يطلب منها أن تتمهل ضاحكاً..

-قرْ.. هانة يا قرْ.. هانة.. أنت طيـــ.. بة ياقر.. هانة.

لما قاربا مجموعة النساء، قالت تَعويضة في سخرية..

-معــتوق، معتوق يا صديق مخلوقة المياه فانالاندي، وقريب غولة الجبل الإيركابي.. أراك تحب أختك قرهانة يا معتوق.

توقف معتوق بقرهانة ضاحكا..

-نعم.. أختـــ.. ي. هاها.

رفضــت قــرهانة الوقوف طويلاً. اتجهت إلى الحقول، النساء يضحكن من اعتراف معتوق بأن قرهانة أخته. تَعويضة لا تميل لمعتوق وينتابها الامتعاض من الحديــث الذي يدور في القرية أن معتوق ذلك العبد يريد كِسبانة بنتها زوجة له! وفــي نفــس الوقــت تخشــى تداخلــه مــع الكائــنات غيــر المــرئية. قــالت تَعويضةلرفيقاتها..

- ماذا تنتظرن من الذي رضع من ذئبة؟

قــبل أن يســتكملن ســيرهن هابطات إلى خور البحر، أتاهن صوت غناء معتوق الخير..

قرهانة دي أختــي

يا ناس

كِسبانة دي بَختي

يا هووي.

انفجــرت النساء ضاحكات وتَعويضة تقف مشدوهة. ثم أخذت تلطم خديها وتَسُــب معتوق بصوتها العالي ناعتة إياه بعبد هَكيمة اللقيط.. ابن الذئبة والكلب، صديق الجن والعفاريت.

فــي العِشــاء كان معتوق في بيت نَبْرة، يتعشَى مع الأسرة ويضحك سعيداً بهم. راضية تنظر إليه معجبة..

- معتوق.. كم أنت جميل.

أسبوعان كاملان غاب سلاطين عن شلّة الأفشْطفوش. يأتيهم تابعه الأشرم فــي ليالٍ متفق عليها بزجاجة من خمر سلاطين، يسكرون على رَبوَة مِجيد. يغني طنــبورة ويصفق الباقون يرددون مقاطع الأغنية وهم مخمورون.. أولوا وفيّاج، وانضــم إليهم سَيّد هَربيّة قبل وصول سلاطين بيوم واحد. ومازال صدره يتوجع وإن كانت شروخه قد التأمت. أما الأشرم فهو لا يشرب إلا أقل القليل، وكأنه يبلل فمــه لينال رائحة الخمر، يندمج معهم في مرحهم ولهوهم كأنه تشرّب من مناخ الســكر السائد، لكنه دائماً واعٍ بكل شي، يرصد كل حرف ليحكي لسلاطين، وحتى في وجود سلاطين، يراقب ويسجل في ذاكرته لينبه سلاطين لكل ما فاته.

فيّاج قلق، يخاطب نفسه في حيره..

- مــا الداعــي لسفر سلاطين لمعالجة أبيه أثمان في سُوين؟ وما ضرورة الإسبتالية؟ تعودنا في قريتنا أن يعالجنا يونس المجبّراتي، حتى لو كانت جروحنا خطيرة، لقد نجح يونس في علاج شروخ أضلع سَيّد هَربيّة. يقولون إن فلق نخيل مــن ســقيفتهم قــد ســقط عــلى أم رأسه الأصلع، كيف! إن رأسه مصابة فعلاً ومشــدوخة حســبما عرضها أثمان نفسه على الكثير من ناس القرية، لكن عظام الــرأس ســليمة! ربمــا كان هناك فلق صغير خفيف. لكن إن كانت الرأس غير مكسورة، فلم السفر إلى سُوين؟

بانــتهاء سهرة الليلة الأخيرة، انصرف فيّاج منتشياً غير مبال بأولوا. سَيّد هَــربيّة وتــاج هما المتكفلان بتوصيل أولوا وهو سكران، يخرف ويسب معتوق والذي وجد معتوق والتي أرضعت معتوق والذي رضى بوجود معتوق في البيت. الأشــرم يتابعهم من بعيد حتى يطمئن على توصيل ابن عَمّة سلاطين. ثم ينضم إليهما لتوصيلهما حتى نجعهما، فكثيراً ما يفضل تاج طنبورة السير وحده رافضاً أن يــردفه سَيّد هَربيّة خلفه على حمارته، يدندن تاج بإرهاصات مقطع من أغنية جديــدة، ممــا يضــايق ويصــيب ابن هَربيّة بالعصبية ويبدد من رأسه انسجامه وانســطاله الــذي نالــه في جلسة ربوة مِجيد!لذا يصر على أن يرافقهما الأشرم ليحادثه طوال الطريق ويجد فيه أنيساً يُبعد عنه الخوف الذي يحتل قلبه، ثم على

الأشـــرم أن يعــود وحيداً في سكون الليل يُفكر ويتخيل نفسه وقد صار سلاطين فالطريق هادئ جميل يساعده على أن يعيش مع خياله وآماله في وئام.

وعندما وصلوا بأولوا إلى بيته، انسحب تاج إلى الخلف، سَيّد هَربيّة يتوج من ضلوعه ويلعن أولوا وهو ممسكاً به من تحت إبطه حتى لا يسقط.يطرق الباد وســـريعاً يـــترك أولــوا الذي لا يقوى على الوقوف. إذا بهَكيمة وقد فتحت الباد وخـــرجت تحمل فردة مركوبها. وبدون أي كلام، هبطت بالمركوب على أم رأس سَــيّد هَربيّة الذي ترك أولوا يسقط على المصطبة وأسرع هارباً وهَكيمة تلاحق ضرباً بالمركوب وسباً..

-يا أفَشْطفوش يا أنجاس. كلكم بصحة البغال ماعدا ابني، سيموت بسببك يا سكارى يا مساطيل.

سَيّد هَربيّة المركوب ينهال على رأسه ضربة بعد ضربة، يأخذ خطوات بعيد عــن المـــركوب الذي لا يتوقف عن خبط رأسه، يحاول الهرولة لكن الخمر الت تجرعها تجعله يتحرك متطوحاً، وفي نفس الوقت يخاف انفكاك أضلعه. يستعطف هَكيمة لتتركه..

- ومـــا ذنبي أنا يا هَكيمة! أنا وجدته سكران والله. هل هذا ذنبي! أضلع مكسورة يا هَكيمة.

عادت هَكيمة إلى أولوا، يحاول أن يقف وحده، لكنه لا يستطيع. أتى آبدون حمله على كتفه في سهولة كثِقل مادي تافه، وفي نفس الوقت ثقل وجداني كثيف هَكيمـــة تسير وراءهما وهي تسب شلّة الأفَشْطفوش الفاشلين الذين خربوا أخلاق ابنها ويهدرون صحته.

سَيّد هَربيّة على حماره، يسير بجواره الأشرم على قدميه كعادته، وخلفهم تاج طنبورة على قدميه لأن عائلته لا تقتني حماراً عن فقر واضح. طنبورة يفكر فـــي أغـــنية وهو في غاية الانسجام. متعة كبيرة أن يسير ليلاً يدندن. يبتعد عن سَـــيّد والأشرم فهما يعلمان أنه يحب السير وحده حين يأتيه إلهام يبث فيه الجديد الممتع. عندما يصحو تاج في اليوم التالي والصداع يغالبه ويزعجه، يخيل له أنا نسى كل ما خطر له ليلاً وهو سكران يسير على النيل، ويجمع من الفضاء الرحب

أشهى المقاطع كلمات ولحناً. لكنه بعد أيام وهو يغني تعود إليه أغنياته فجأة تامة الخلق تامة الحسن فيقولها وكأنها من وحي الخاطر.

سَيِّد يسب الأشرم اللئيم الذي يبقى بعيداً حين توصيل أولوا، ويلعن تاج الذي يغدر به دائماً تاركاً إياه مع أولوا، فيأخذ هو ضربات مركوب هَكيمة، ثم يدّعي الغضب ويقول..

- إبيو-إبيو. مركوبها نعله متحجّر مثل قطعة صخر. تعرف.. والله يا أمرُ الله لولا أني صديق ابنها أولوا، لكنت اعتبرت ضربها لي بالمركوب على رأسي.. إهانة. وأنا عندما أهان.. أنت تعرف.

- أعرف أعرف.

- لا تكفيني أرواح نجع بحاله.

- إيْ.

- ضرب نار. ضرب كرابيج. ضرب نبابيت بما لا يستطيعه هاشم الكيد نفسه. إيْ، فهكذا ربّتني هَربيّة. أنت تعرفها، أليست أمك بالرضاع؟ ألست أنت أخي بالرضاع يا أمرُ الله؟

- أعرف، وأعرف أنك لا تعترف بأني أخوك في الرضاع إلا وأنت سكران.

- كيف! كيف تقول هذا؟ أنت أخي ومن يعارض في ذلك واقعته نيلة. اسمع.. أنا أدعوك كل مرّة تسير معي أن تركب معي على ظهر حماري، أنت ترفض. لو لم تكن أخي، هل كنت سأعرض عليك ذلك وأنت مجرد أشرم قبيح لا تساوي؟ ثم أنت الذي يرفض لماذا، هل تتكبر عليّ يا ولد؟

- قلت لك مائة مرّة أنا أحب السير على قدمي.

- وأنت أعرج!

- وأنا أعرج، ساقي أقوى من ساق أي منكم.

- عجيبة!

مازال سَيّد هَربيّة في سكر بيّن. صاح به أمرُ الله..

- احترس يا ابن هَربيّة.

تعــثر الحمـــار فـــي حفرة ثم وازن نفسه، لكن راكبه المخمور الثقيل سقط أرضـــاً. صــرخ فزعاً ثم اعتدل جالساً ممسكاً بضلوعه المتألمة لاعناً هَكيمة وكل عائــلة هكيمـــة وســلاطين قريبهما ثم قفى بالأشرم الذي لا هو أخوه ولا يعرفه. مقســماً أنه لن يأتي ليشرب المنكر مع شلة التوافه الأفشْطفوش الأنجاس، ويترك أمه الطيبة بعد ذلك أبداً.

لم تكن تكلفة الحج بسيطة. أخذت من تحويشة عُمر إسْهاج الكثير، بل كادت أن تفلســه. بالإضــافة إلــي موسم وأكثر وهو لا يعمل. قَلِقٌ هو. زوجته هانَم مَفكوكة لا تحمل هم الغد، تؤكد لزوجها أن الغد طيب لابنتهما فُوزية، فالبنت مال وجمـــال، حَسَــب ونَسَب. لا تعير اهتماماً لتأكيد إسْهاج لها بأن مدخراته صُرفت. هـــانم سعادتها أن تستمتع ابنتها الوحيدة بحياتها الآنية. إن ساءلت نَفسَها يوماً.. ماذا سيتركان من ميراث لها؟ فالسؤال لا يكاد يتجسّد حتى يختفي. إسْهاج يسائل نفسه دائماً..

- مـــاذا ســيتركان لفُوزية؟ مجرد البيت وبضعة قراريط وعدد من النخيل! صحيح أن هذا يكفي، لكنه لا يقارن بما يحلم به لفُوزية.

إسْــهاج، الـــزمن أوهـــن ساعده وسحب الكثير من عافيته. مازال يجد من يســاعده مـــن الشباب المتلهفين لتعلم صنعة المراكب والسواقي منه. لكن لم يعد يأتيـــه عمـــل مثــلما كان أيام شبابه الأول ورجولته المُعطية. زبائنه الذين كانوا يأتونـــه حـــتى من القرى البعيدة، يذهبون إلى غيره، يذهبون لتلاميذه من القرى الأخرى الذين تعلموا منه منذ مواسم طويلة وصاروا ينافسونه. مازال إسْهاج هو الأفضل، لكن لشيخوخته وضعف عافيته أصبح واضح البطء. الرزق تضاءل كثيراً عن ذي قبل. وفُوزية تعودت على البذخ وكثرة الطلبات ولن تتنازل عمّا تعودته. ملابسها تبدلها بالجديد وتعطي القديم من قبل أن يبلى إلى صويحباتها وقريباتها. زجاجــات العطــر السودانية لا تخلو منها سحّارتها المزركشة. مصاغها الذهبي تكــاثف، الخُــزام الدائــري المفلطح الكبير مشبوك في فتحة الأنف، زامله خُزام

كالــزرار مشبوك في الفتحة الأخرى، والقرط الذهبي متدل بثقله من أسفل الأذنين لما يقرب الترقوة، ليبدي طول عنقها! تدللت هذه البنت كثيراً.

مَكْوكَــة ســعيدة بدلال ابنتها. فُوزية كل حديثها يجب أن تصاحبه حركات كـتفيها ويديهــا ونظرات عينيها المعبرة. تقصعات دلال تلفت النظر تصدر منها كطبع صار مطبوعاً فيها مترسخاً. في البيت تغني وترقص وهي تعمل فَتَسْعَد بهذا أمهــا أكــثر وهــي تشاهد أنوثة ابنتها المتفجرة. وكلما زادت فُوزية من طلباتها وغضــب أبيهــا واتهم أمها بغلوها في تدليل فُوزية، تدعي هانم أنها تقف للفتاة بالمرصاد لتتعقل. لكن داخلها راض أعمق الرضا بابنتها وما تفعله. سعيدة بفُوزية التي تحس بأنوثتها بعمق أكثر من صويحباتها ومن هن في عمرها. هانم مَكْوكَة تضغط على زوجها المنهك ليستجيب لكل طلبات ابنتهما الوحيدة.

ما أخافهما، وما جعل هانم مَكْوكة تفيق من سباتها واطمئنانها الساذج، هو موضــوع زواج فُوزيــة. ميل فُوزية لتاج طنبورة زاد عن حدّة وتحول من لعب أطفــال إلى المدَى الخطر. يشعران أن بلال صَلاتو يريدها، لكن تلك المدلّلة الغبية لا تقابلــه بـدفء الرضا، بل ببرود مُغطى تحت ضيافة مَظهرية. كَرِه بلال زيارة بيتهما. تحمّل الكثير من برودها معه، لكن حين ذهب إلى سُوين ثم أزهر القاهرة، ويعــود في إجازاته الصيفية، لم يعد يدخل بيت إسْهاج، لم يعد يمر عليهما لمجرد السلام. فُوزية تعمدت البرود تجاهه رغم احترامها وتقديرها لشخصيته، هذا حتى تمــنعه أن يـتقدم لهــا رســمياً مع جدّه فتتعقد الأمور وتتورط هي. تعمدت ذلك وضميرها يؤنبها وأمها تنغزها بلسانها وأبوها يسبها بنظراته.

انشغل أبوابها يتساءلان.. إذن فمن يصلح لها؟ من يليق بفُوزية؟ ليس في القــرية من هو أفضل من بلال. المصيبة أن الفتاة متعلقة بهذا الفتى السكّير تاج طنــبورة! تــاج المستهتر، الذي بدأ بكل وقاحة يطالب بمقابل مادي ليحي حفلات الأعراس! عيب كبير، عيب مهين. قبل على نفسه أن يكون مطرباً محترفاً وتكون حفلات الزفاف مورد رزق، يمد يده بدون خجل ليأخذ ريالات فضية مقابل الغناء! الغــناء والرقص مشاركة طقسية وواجب اجتماعي. كيف يأخذ مقابله نقوداً؟ إنها

شـــحاذة. تدني. إنه شغل العَبيد الذين يفعلون ذلك في القرى الأخرى. من يتدنى لهذا الدرك، لا يأتمنه إسْهاج ولا تأتمنه هانم على ابنتهما.

فوزيـــة تعيش في شبه حلم خيالي، أغاني تاج طنبورة اللذيذة وتشبيبه بها يحمـــلها عـــلى كِليم ناعم مزخرف يطير بها فوق.. فوق، بعيداً عن واقع القرية وناســـها. أغانيه التي يغنيها عنها في أعراس القرية وفي أعراس القرى النوبية القريبة، والجموع يرددون معه عن فوزية الجميلة، ثم تذهب أغانيه تجوب القرى الـــبعيدة ليغـــنيها غيره من المطربين ومعهم جموع أكثر، ستصير أسطورة جمال يسأل عنها الناس ويأتون ليروا فوزية الجميلة حبيبة تاج طنبورة. تدغدغ الأحلام قـــلب فوزية الهائم. تغدق على تاج طنبورة الجلابيب والعمائم المزهّرة والطواقي والمـــراكيب الحمـــراء، تعطيه زجاجات الروائح الطيبة ومعها حُبّها لمن يزخرف أمانيهـــا. فـــي صـــميمها تظن أنها تحبه لشخصه ولا تدري عن غموض أهواء ورغبات وشهوات الإناث شيئاً.

وطنـــبورة لا يـــرفض هداياها مثلما كان لا يرفض هداياها وهم صغار. لقد انســـاق إليها بفقره ثم بحبه لحبها له. وأيضاً لأنها أعطت فنه مذاق الحب وصارا ثنائياً شهيراً. لم يفكر في إهدائها شيئاً، ألا تكفيها أغانيه الرائعة؟

لـــم يغضب أحد لإعلانه اسم محبوبته، فهذا شيء مألوف. ولم تعطه فوزية مـــن جســـدها شيئاً رغم محاولته أن يطول منها أحضاناً وتلامس شفاه، وهذا ما ألهـــب خياله الفني الفاسق المجنّح، فأبدع وقصّ مواقف غرامية بينهما غنّى عن طـــراوة جســـدها المتضـــمخ بـــالعطور والزيوت المعطّرة، عن قبلاتها السُكّرية المسْكِرة، فكأن أول مطرب يخرج عن الغزل العفيف، إلى الوصف الحسي للحبيبة، فـــنال رفض الكثيرين وغضبهم بل وسخطهم خاصة إسْهاج وصَلاتو. من يستمع لأغانيـــه في وصف هذا العناق ينتشي أيضاً من توفيق طنبورة في الكلمة المعبّرة الشاعرة، واللحن الجميل وصوته الصافي المنساب في تدفق أخّاذ. كل أنثى تنتشي وهي تعيش حالة المحبوْبة المرغوبة بشدّة. وكل ذكر يتصور نفسه الحبيب ومن في باله وتشغل فؤاده هي المحبوبة التى يغني لها بلسان طنبورة.

ولا تتصـــور فوزية نفسها إلا زوجة لتاج، حبيبها تاج طنبورة، الذي طارت شـــهرته في زمن وجيز إلى كثير من القرى رغم صغر سنه. يقول لها أبوها إنه سِـــكّير مستهتر، قبل على نفسه أخذ مقابل مادي من أصحاب الأفراح، قذر النفس قـــذر الـــبدن. لكـــن أذنيها لا تسمعان، عينيها لا تريان وعقلها لا يوازن الأمور. خيالهـــا العُـــذري يسبح في سماء القرى النوبية لا يلامس واقع الحياة، فرفضت تقرّب بلال منها..

- ومن يكون بلال حتى لو حصل على الشهادة الكبيرة، ومن الأزهر نفسه؟ فليبتعد عني.

لذلـــك، عـــندما أتى والـــد تاج ومعه عَمّه وجالس إسْهاج طالباً الكلام على فوزيـــة ليصـــير معلوماً في القرية أنها لابنه، قابلهما إسْهاج مقابلة باردة، وقال بصريح العبارة..

- فوزية لن تكون لابنكما أبداً.

اشـــتعلت الـــنيران بيـــن فوزية وبين أبيها. تبكي ليلاً ونهاراً. امتنعت عن الطعام، تأكل أقل القليل من فرصة الجوع وتحت إلحاح أمها. تركت فوزية شعرها مهوشاً،احتجبت في حجرتها، رفضت محادثة أبيها.

ومـــا أغـــاظ إسْـــهاج، أن ما حدث ألهب فن طنبورة، فأخرج أغاني عديدة متتابعة حول موضوع واحد.. اللوعة والحرمان والصبر، غنّاها على رَبوَة مِجيد وفي جلسات المزاج في أعراس بالقرى القريبة. صَوّر في أغانيه هذه حال فوزية وهـــزالها بسبب تجبر أبيها. وغنى خلفه ناس النوب أغانيه التي تحرك الصخر. ازداد إسْهاج كرهاً لتاج وصار يسأل نفسه..

- ما العمل مع هذا الطنبورة؟

ولمـــا مـــرّ قمران على سماء القرية الصافية، وحال فوزيةكما هو حتى أن جســـدها هـــزل وبرزت وجنتاها، بدأ إسْهاج يراجع نفسه مضطراً حتى أتى أثمان كُورنة بإغرائه.

وصـــل من الشمال مركبان عليهما طاقم ملاحين من قبائل الكنوز. محملان بالأقمشـــة القطـــنية وجِرار العسل الأسود وعلب خشبية تحوي الحلاوة الطحينية

والسـكرية. أجولـة الصابون المعطر ومراكيب أنيقة رخيصة. أسرع الناس إلى صـخرة دُجُـر والميـناء. الـبعض للفرجة والبعض للشراء، والبعض للمقايضة البسـيطة الساذجة. مُهدي الأصفر يتلمظ لعقد صفقة ويتلهف لمعرفة صاحب كل هـذه البضـائع. لكـن الـبحارة الكُنوز رفضوا البيع وقالوا إن حمولة المركبين مقصـدها عند الجندل الثاني حيث مدينة حَلفا وذلك حسبما يريد صاحبهما. غضب مُهدي هو ومن حوله، سألوا..

- إذن، لماذا رسوتم في مرسانا؟
- لأن صاحب المركبين من عندكم.
- ماذا؟
- من عندنا؟
- أنتم مخطئون.
- من؟
- إن كان ليس مُهدي تاجرنا، فمن يكون؟
- سلاطين أثمان.

صدمة. صدمة وليست مفاجأة. ضرب مُهدي كفاً بكف.

أثمـان يهـبط على حماره ناحية المَرسَى وعمامته قد تضخمت على رأسه الصلعاء المصابة. لم يحادث أحداً. هبط من على حماره ليخترق الجموع المذهولة وصـعد عـلى السقالة وهبط في قلب المركب الأول. وبعد أن ألقى على البحارة السلام. صاح بصوت عال يخاطب الريس الكبير..

- هل عرضت بعض حمولتكم على ناس قريتي؟
- إيْ، ولم نبع لهم شيئاً كما أمر ابنك.

رحل المركبان، في دار أثمان احتشد الناس، ظاهرياً للتهنئة، لكن في الأصل يـريدون معرفة كيف؟! ومن أين أتى هذا الشاب الغض سلاطين بقيمة المركبين؟ مـن أيـن لـه بقيمة المركبين فضلاً عن الشحنة الغالية. أثمان لم يشف غليلهم بقوله..

- إنـــه مـــال كـــنت قد كسبته خلال رحلتي الطويلة جنوباً في قرى البحر المســتدير والشـــلال العظيم. احتفظت به إلى أن كبر سلاطين وصار رجلاً يعتمد عليه.

لم يصدقه أحد. وصدقوا إشاعة كانت قد أطلقتها هَربيّة تفيد بأن شلّة توافه الأفشْطفوش توصلوا إلى اكتشاف وفتح مقابر ملوك الأسلاف، نفس المقبرة التي كاد يفتحها سليمان وأثمان زمان. ثم أكد الأفشْطفوش أنفسهم تلك الإشاعة.

إذن.. لــم تكــن رحلة أثمان وسلاطين لعلاج صلعة أثمان المجروحة، لكن لشـــراء المركبين وحمولتهما! إنه سلاطين الذي خطط لذلك، فأثمان نعرفه طوال عمره ساذج ملتاث.

لــم تســتطع شلّة الأفشْطفوش أن تفعل شيئاً، التفوا حول أنفسهم ينتظرون وصــول فيّــاج مــن قــرية أبي سنبل التي أرسله مُهدي إليها في إحدى مهامه الــتجارية. عــاد فيّــاج وقد وصلته حيث هو إشاعات سلاطين وعار قبيلته التي تصـــرفت تصـــرف الضباع وناس الصعيد ونَبَشت مقابر الأسلاف، صَدَمته صحّة الإشاعة كما صَدَمته من قبل الإشاعة نفسها.

في البيت، غرفة ليس بها إلا فيّاج وأبوه. يتفاهمان، يتصايحان ويتشنّجان. لا يهاجمـــه مُهدي على ما أتى به فيّاج من بضاعة هزيلة وحسابات خائبة مثلما يهاجمـــه كل مرّة، بل عما جرى في المقابر وكيف لم يبلغه فيّاج بتجديد موضوع المقــبرة القديـــم، ومـــا أعلـــنه سَـــيّد هَربية من معلومات، حتى يفكر ويجد حلاً للاستيلاء على المقبرة قبل أن يحفرها سلاطين. يعاير ابنه بأن سلاطين أذكى منه وأحكـــم، أنه أخبر أباه ومعا استوليا على ذهب المقبرة، ثم يهدآن قليلاً ليتكلما في تعقل رغماً عنهما..

- وما العمل؟

- لن نترك سلاطين يفوز بالغنيمة وحده؟

بعد الغروب، على رَبوة مِجيد، تنتظر العصبة. صعد إليهم فيّاج وهو يلهث. ينتظر الجميع والغضب يسيطر عليهم. قبل أن يحادثه أحد لعنهم فيّاج..

- يـــا أولاد البقر. قلت لكم إنه خائن من زمان.خبيث، لا داعي لأن ننتظر قمـــراً يمـــر كما اقترح علينا، لكن.. لكن وافقتموه. الآن ماذا تنتظرون؟ هيا إلى المقبرة.. حالاً.

القمر لم يكن في تمامه، سراج يضيء القرى بشعاع باهت. تتواثب العُصبة فـــي أخـــدود الأشباح. يسرعون وكأن كل شيء واضح أمامهم وتحتهم. الغضب والـــتوتر والحمـــاس تغلب على خوف سَيّد هَربيّة وجُبن أولوا. وصلوا إلى وادي الـــتيّار. النُصب المنتصب بطول ثلاثة أذرع. الحفرة.. ألقوا بمراكيبهم وبعمائمهم وجلابيبهم الخارجية على جانب. في سرعة ينزحون الرمال بأياديهم، عمل مرهق مبدد للجهد والوقت. وصلوا إلى عمق بسيط.. عود الحديد، لم يكن موجوداً حين كـــانوا هنا معاً. لقد جاء سلاطين وفتح المقبرة فعلاً. حفروا أكثر وأعمق ينثرون الرمال بكفوفهم خارج الحفرة غير آبهين بالعرق الذي يهطل منهم مدراراً والرمال التي انتثرت على أجسادهم المبتلة. باب المقبرة مائل وقد فُتِح ولم يُغلق جيداً. معاً يدفعونه بمساعدة قضيب الحديد، حتى ألقوه جانباً. الرمال تسربت وأغلقت الممر الأول تماماً، صرخ فيّاج في حقد وكره وغضب..

- سلاطين يا ابن الشياطين.

وثـــب خارج الحفرة يروح ويجيء في الظلام، يركل الرمال ويبصق عليها. عاد مواجهاً أمرُ الله الأشرم وأولوا..

- أنتما عيناه وتابعاه. خائنان مثله. كنتما معه هنا وسرقتم مقبرتنا معاً.

أمسك بتلابيب أمرُ الله وجذبه بقوّة ثم دفعه ناحية المقبرة فتجندل جسد أمرُ الله القصير فيها. التفت فيّاج إلى أولوا الذي أخذ في التقهقر..

- فيّـــاج، أقسم بالله لست شريكاً لسلاطين الخائن. لم أكن معه صدقني. أنا معكم.

وثب فيّاج عليه. أسقطه أرضاً وبرك على صدره يكيل الضربات على وجهه وأولـــوا يصرخ وصدى صوته يرعد في المكان المظلم. سَيّد هَربيّة وتاج طنبورة أبعـــدا فيّـــاج من على صدر أولوا الباكي. يحاول فيّاج التملّص من ماسكيه وهو يواصل سب أولوا..

- كيف وثقنا فيك وأنت العِلق؟ كيف رضينا أن يكون عِلق مثلك معنا؟

بعدهـا هدأ فيّاج. الصمت ران على الجميع بعد كلمات فيّاج الجارحة. الكل يعرف بما في أولوا. بل فيهم من يضاجعه. لكن معايرة الناس وسبّهم! نعت أولوا بـ.. العِلق. لم يتعودوه. وصدمة تصديق ورسوخ أن أولوا فعلاً عِلق!

أولوا ضربه الخِزي. جلس مكانه يبكي وجسده يرتعش. وجلس فيّاج صامتاً كظيمـاً. فـترة.. الرمال تحتهم باردة بعكس أجسادهم الحارة وجوفهم المشتعل. قالوا نرجع نهاراً فلن نستطيع الدخول في المقبرة بدون فانوس. رفض فيّاج..

- ساعتان أو ثلاثة ويظهر النهار. سنبقى هنا.

قبل الفجر هبطت عليهم رطوبة الصحراء إلا أنها زالت سريعاً من بعد بزوغ الشـمس قـبل تنفس الصباح. خلعوا جلابيبهم مرّة أخرى ونزعوا عمائمهم التي أحاطوا بها أعناقهم. هبطوا إلى الحفرة. ضوء باهت ضعيف لا يكاد يوضح شيئاً. فيّـاج خلفه تاج ثم أمرُ الله. بقى أولوا وسَيّد هَربيّة خارج الحفرة. صاح أمرُ الله طالـباً جلـباباً. فـألقى إليـه سَـيّد هَربيّة بجلباب. يعبئان بأياديهم حمولة رمال ويـرفعونه لأعـلى حيـث أولوا وسَيّد. فيتناولان الجلباب ليفرغانه بعيداً. تمزق الجلـباب. فأخذوا آخر. لم يكن الأمر سهلاً، خاصة وهم يتوغلون في الممر الأول المكـدّس بالـرمال والظـلام. داخل المقبرة يشعلون النار في قطع الجلباب الذي معهـم. الدخان يدمع أعينهم والسعال يمزق رئاتهم. علّت الشمس. اضطر من في داخـل المقبرة لخلع قمصانهم من الجو الخانق، صاروا بسراويلهم الداخلية فقط. خـرجوا من الحفرة والشمس ترسل شواظها، لكن شواظ غِلّ فيّاج وتاج أحَرّ، هَمّ وحَسْـرَة. فيّاج يحمل خاتماً صغيراً من الذهب بفص كريم. رفعه أمام أولوا وسَيّد هَـربيّة.. -لـم يترك الكلب إلا هذا الخاتم. اللص. جَرّد الجثتين تماماً وأفرغ كل شيء. سنأخذ حقنا منه أو.. نقتله.

القريةكـلها فـي توتر لغياب هؤلاء الخمسة، رغم توقع ذهابهم إلى وادي التيّار. الجميع تجمعوا في ساحة نجع أورّك حول شجرتي التوت. الرجال يهدئون النسـاء وهـم يسـتكملون ما سيحتاجونه في بحثهم عن الفتيان. المطايا القوية والبـنادق. هكيمـة تصيح في الرجال تتعجلهم للخروج الفوري. تتهمهم بالجبن

والكسل وقِلّة الحيلة. لا تبالي بتهدئة آبدون لها، تخشى على هزال ابنها الذي لن يتحمل لا شدّة برد الليل ولا شدّة حر النهار. هَربيّة لا تتكلم، فقط تندب ابنها. أمّا ديوانة فتمسح دموعها صامتة.

سَيّد هَربيّة كان أول من تَبين صوت عويل النساء، خاصة عويل أمّه هَربيّة وناسهم. ناس القرية شاهدوا الفِتية يهبطون عدواً إليهم من الجبل خلف تل الجبّانة. اثنان منهم بملابسهما الداخلية فقط، الأشرم وتاج. هلّل ناس القرية وأسرعت أمهاتهم مهرولات ناحيتهم. نداءات العائدين سبقتهم صارخة..

- سلاطين سرق المقبرة.

- سلاطين سرق المقبرة.

- اللص.

- الخائن.

أولوا يبكي في حضن هَكيمة. تاج في حضن أمه. سَيّد هَربيّة يبعد أمه عنّه وهو يلعن سلاطين اللص، يدفع أمّه التي تريد أن تتشبث بعنقه لتحتضنه وتشمّه. يبعدها سَيّد ليحكي للناس حكاية المقبرة. انفلت فَيّاج من أحضان ديوانة مسكين. رفض الحديث مع الرجال. سَيّد يتولى ذلك في حماس مبرزاً أهمية دوره. وكلما تعلقت هَربيّة بعنقه صاح فيها مؤنبا فالوقت ليس وقت العواطف. ديوانة ابتعدت عن الجموع وتابعت ابنها. قلبها يشعر بمدى ألم فَيّاج ومدى النار التي في صدره. هزيلة نحيلة تلهث حافية مسرعة على الرمال الساخنة.

وفي خضم كل هذا الضجيج، نَبْرَة وراضية وسط ناس القرية الذين لم يتخلف منهم إلا النادر. لم يتبين أحد صوت خوار نُوري العمدة الباكي، في قلبه تداخل عويل النساء بعويلهن يوم غرق ابنه سِسّي. فَيّاج قبل أن تصل ديوانة إلى البيت، كان قد خرج وقد أمسك كرباجاً، يهرول إلى بيت أثمان كُورنة. لم تلحق به ديوانة فنادت بصوت عالٍ قدر استطاعتها..

- يا أهل المروءة يا هووي. يا أهل المروءة يا هووي. الحقوا فَيّاج. فَيّاج سيقتل سلاطين.

أثمـــان كُورنة يقف عند باب بيته. يجلس قليلاً ثم يقف مشرئباً ناظراً حينا حيث الساحة، معطياً أذنه حيناً أخرى ليستمع لصيحات الناس. حافي القدمين على رأسه طاقية تغطي جرحه، وعلى جسده قميص خفيف. لم تأته الجرأة للذهاب إلى الســاحة، يعلم أن الغضب سينصب عليه هو بدلاً من سلاطين. يخشى من نظرات ناسه وغضب ولوم أختيه. يخاف من سلاطة لسان الشيخ.

لمـــح فيّـــاج مقبلاً ناحيته مهرولاً والكرباج في يده. دخل بيته وأغلق خلفه الـــباب، عَبَر الحوش ودخل آخر حجرة في البيت وأغلق على نفسه وبقى يسترق الســمع.. فيّـــاج يـــلعن ســـلاطين ويضرب الباب بكتفه. أصوات وصول الناس وإمساكهم لفيّاج ونزع الكرباج من يده بصعوبة. صرخات النساء. ثم لعنات شلّة الأفشْطفوش، حتى أولوا يلعن سلاطين ومن أنجبا سلاطين!أيمان مغلظة من فيّاج بعد أن نزعوا منه كرباجه بأنه سيقتل سلاطين. سيقتل سلاطين شرّين لا محالة.

هَكيمـــة أخذت أولوا إلى الدار. لم يقاوم. متعب منهك. ركب الحمار العالي وهَكيمـــة بجانـــبه وآبـــدون وهو بين الرجال يتابع ركبهما في إشفاق على ابنه وزوجته، وعلى نفسه.

أخذته إلى غرفة الاستحمام كأنه مازال طفلاً، نزعت عنه ملابسه وهو يسب ســـلاطين، ســكبت عليه أكواز من المياه غسلته ثم جففته، وضعت عليه ملابس نظيفة، ثم أخذته إلى حجرته. جلس على السرير يلعن ويتوعد ثم رفع وجهه إلى هَكيمة..

- سلاطين ابن أخيك خائن، سرق المقبرة وحده. خائن خائن. أنا ابن عَمّتُه ويدعى أنى أخوه، خانني.

- قلـــنا لك مراراً إنه شَر وشرّين. ابتعد عنه، لكنك أنت الذي كنت ترفض وتلتصق به حتى جذبك للسُكر والتخدير.. و.. وأساء إليك ولوث سمعتك.

صـــمت أولـــوا. الحَـــرج أغرقه فلم تفته ملاحظة أمه بتلوّث سمعته. ألقى بجســـده عـــلى الســـرير مبعداً وجهه عن أمّه ناظراً للحائط. نَغزة أمّه له كسرت تـــراكمات الغضب الحقيقية والكاذبة التي أغرق نفسه فيها لينسى آلام جَهر فيّاج ونعـــته لـــه بأنه عِلق. آذاه فيّاج أكثر مما يظن. وقع هذا النعت المؤلم عليه مع

الأيام صار أقسى من ليلة ضربه فيها أبوه ضرباً مبرحاً. على الأقل أبوه يتألم حباً فيه، أما فيّاج.. يعايره، يُخزيه، يطعنه في مقتل.

هَب أولوا بجذعه من رَقدته، يضرب على جانبي رأسه بقبضتيه، ساحت دموعه. أمه تربت على كتفه أن يهدأ. صاح..

- سأقتله. سأقتلهما معاً.

لم تفهم هَكيمة من اللذين يقصدهما. قالت..

- سأعد لك طعاماً فأنت لم تأكل منذ أمس.

ألقى بنفسه مرّة أخرى. مستلقياً على جانبه ناظراً بعيداً عن أمه، يُغمض جفنه. تهزه هكيمة ليبقى مستيقظاً حتى تأتيه بالطعام. لكنه كان قد غرق في الهمهمة.

فيّاج بعد أن أرجعه ناس القرية إلى داره والغروب مقبل، انتظر صامتاً، رفض الاستحمام أو الطعام. هَبّ هَبّة مفاجئة وأسرع إلى حجرة المطبخ وتناول سكيناً وأسرع به خارجاً، إلا أن الرجال أمسكوا به قبل أن يعبر حوش البيت. انتزعوا منه السكين وأعادوه وبعضهم يلعنه ويلعن جيله الأقشْطفوش كله. ادعى الهدوء في حجرته حتى اطمأنت أمه وتركته. تصاعد أذان المغرب. انتظر قليلاً ليطمئن أن الرجال مشغولين بالصلاة ولا يوجد أحد عند دكان أبيه. تسلل إلى المطبخ ليلتقط سكيناً. أمه خبأت كل آلة حادة. أسرع إلى حجرة أخرى وتناول المنجل.

بين بيوت النجع يجرى. يحاول البعض اللحاق به. باب بيت أثمان كُورنة موارب، دفعه بقدمه. إلى حجرة سلاطين، الباب مفتوح لكن الحجرة خالية. حجرة الأشرم خالية، كل الحجرات خالية. حجرات الخمور مقفلة بإحكام، وقبل أن يخرج كان الرجال قد أمسكوا به مرّة أخرى وهو يتوعد سلاطين الجبان، إنه لن يستطيع الاختباء إلى الأبد.

بعد صلاة العشاء ذهب آبدون إلى بيته، كانت وَنسة حزينة بينه وبين هَكيمة. حال ابنهما المتردي. سيطرة سلاطين عليه، ثم هَكيمة تتهيب ما فعله ويفعله سلاطين، وإنه بحقده الناري وامتلاكه المال، ربما كان نجم شؤم ظَهَر على

القبيــلة. آبدون لم يوافقها، إن سلاطين مجرد صبي. حتى وإن سرق بعض قطع الذهب من مقبرة الأسلاف، وألقى عاراً على رأس القبيلة كلها، فسوف يفشل في التجارة ويخسر ما سرقه. سلاطين ليس على قدرة كبيرة بحيث يؤثر على القرية.

الــليل، الأشــرم وأولــوا يهبطان خفية إلى النيل. مركب صغير بمجدافين يســتخدمهما الأشــرم، تتجه المركب إلى جزيرة أصلاد. سلاطين وسط الأحراش العاليــة. هــبطا إليــه، لم يرض أولوا أن يمد يده إلى يد سلاطين المبسوطة إليه للمصافحة. سار خلفه. الأبقار والماشية في استرخاء تنظر إلى أشباحهم في عجب أبلــه. فليس هذا هو موعد أخذهم إلى القرية، ثم تعود ناظرة بعيداً لتجتر طعامها الوفير في هدوء. إلا بعض الماعز الصغيرة تقفز حول المكان لاعبة.

- أنا بريء منك. أنت لست ابن خالي ولا أنا ابن عَمّتك.

-..

- تأخذ كِنز المقبرة وحدك؟، تخون ابن عَمّتك؟

- حقك محفوظ.

- كذّاب.

- قلت لك حقك محفوظ.

- وكم يكون حقي؟

- أكثر مما تتصور، وأكثر مما تستحق.

- كم؟

- قلادة ذهب.. هي شبكة زواج.

-شبكة زواج؟ زواج من؟

- قلادة ذهب.. تقدمها لتتزوج راضية.

- سلاطين!. لا يهمني الذهب. فقط أتزوج راضية.

- عرفت يا أولوا أنني لا أخون ابن عَمّتي؟

ارتمى أولوا محتضناً لسلاطين فرحاً..

- راضية لي. أنا أتزوج راضية؟ لكن.. كيف ترضى بي راضية؟

- هذا شغلي أنا.

جلسا. الأشرم يبتسم في خبث وهو يبتعد ويترك لهما الخلوة. يدخنان. يشرح له سلاطين جانباً مما فعله لكنه لم يقل له عن كل مقتنيات المقبرة. ولما اقترب منه أولوا ليتمسح به، أبعده بلطف لكن في حزم..

- أولوا، يجب أن تترك لعب الأطفال هذا.
- ماذا؟ لكنك أنتَ الذي علمتني لعب الأطفال هذا!
- ليس أنا. بل أنت الذي تستمرئ هذه اللعبة.
- وأنت؟
- كَبرنا يا أولوا. ستكون لك راضية. وأنا ستكون لي هُوشَة.

بقيا جالسين في صمت، سلاطين لا يعلم كيف يبرر للأشرم أنه لم يعرّفه بذهابه للمقبرة. أمرُ الله يحس من أيام بما فيه سلاطين من حرج، لكنه ينتظر حتى يفتح موضوع فتح المقبرة. نظر لسلاطين فوجده ينظر إليه، تلاقت عيونهما، ابتسم سلاطين في حرج..

- أمرُ الله، أنت لست غبياً، لا تغضب، فقد كنت أخشَى.. أنا لا أتشكك فيك، لكن.. كنت في حالة خوف حتى أني هددت أثمان وقسوت عليه. لقد ذهبت للتنقيب عن المقبرة مع أثمان فقط وتركتك. هل أنت غاضب؟

- أبداً.
- لكنك سوف تأخذ حقك وزيادة.
- ..
- كم تريد؟
- أنا لا أحدد، لك أنت أن تقدر.
- تقديري لك كبير، فأنت ساعدي الأيمن.

تكوّنت في القرية أكثر من حلقة وأكثر من تجمع يتباحثون ليلاً ونهاراً فيما حصل. الأشرم لم يشعر به أحد وهو يندس في تجمع ليلي رجالي، حول شجرة الكافور المنتصبة قبالة دكانة مُهدي الأصفر. فيّاج جالس وظهره على جذع الشجرة. رجل يهدئه ليترك تهوره. رجل يهدده بأن تهديده بالقتل أمر خطير، ولو كان العمدة في حال تسمح بالحساب لكان حساب فيّاج قاسياً. مُهدي يؤيد ابنه في

تهديـــده لسلاطين ويدّعي أن الدين الحنيف يشرّع بذلك! ترك الأشرم الجمع ليسير وحده في الظلام الهادئ سعيداً.

أثمـــان كُورنة ذهب إلى بيت العمدة ليبقى هناك حتى ينتهي تهديد القتل. وخفير يبيت معه في نفس الحجرة. تجالسه أختاه، تشبعانه لوماً وتأنيباً. لم تتركا لـــه أمرا شائناً إلا وأشبعتاه نغزاً به، لم تتركا له هروبه الدائم، عمله في الخمور، تبعيـــته لســـلاطين، ثـــم نـــبش مقابر الأسلاف وجلبه العار على أسرته وعائلته وقبيلـــته. حرّضاه على الزواج والاستقلال عن ابنه الذي سيورده موارد الهلاك. حاولا أن يعرفا منه أمر المقبرة، لكنه أصر على الإنكار رغم أنهما تعلمان بنفسية أخيهما أثمان ومتأكدتان أنه يعلم كل شيء عن المقبرة وما جرى، لكنه يرفض أن يبوح خوفاً من ابنه!

بعـــد صلاة العشاء، أتى آبدون ليأخذ هكيمة. انضم إليهما في تقريع أثمان الذي لا يدخل جامعاً ليشارك في الصلاة إلا في النادر. ثم تركاه لينام.

آبـــدون وهكيمة يدخلان دارهما، وجدا ابنهما مستلقياً تحت السقيفة واضعاً ســـاقاً فوق ساق يدخن سيجارة بانجو. ضحك لهما ولم يعتدل من رقدته ولم يأبه بوالده الذي ينظر إليه ممتعضاً. سألته هَكيمة..

- أولـــوا! أين كنت؟ فيّاج يشك فيك. كان يهدد بقتلك أنت الآخر. أين كنت وأنـــت مازلت مجهداً من ليلة أمس؟ أولوا.. لماذا كل هذه السعادة التي أنت فيها من بعد ضيق؟ كنت تعيساً حتى ساعات!

- سأتزوج راضية.

تركهما آبدون إلى حجرته. هَكيمة جلست بجانب ابنها..

- من الذي قال هذا؟

- أنا.

- وهي؟

- ستوافق.

- بعيداً عن شنبك الذي لم ينبُتُ بعد.

ذهبت تلحق بزوجها وضحكات المسطول تلاحقها.

مرّ النهار التالي ومازالت البلبلة تجثم على القرية والتوتر يسود فيها. فيّاج محاصـر بأمـه وأقاربه. مُهدي لا حديث له إلا حق ابنه. بعض الرجال والنساء اسـتهواهم رأي تَعويضة في أن كل ثروة سلاطين التي سلبها من ذهب المقبرة، هي مشاع للجميع. الشيخ صَلاتو قال..

- كـل المال حرام في حرام. ونبش القبور عمل شائن لم يحدث في القرى النوبية من قبل، فللموتى حُرمة. وإنه من الخطأ تشييع الحرام على الجميع.

آبـدون وإسْهاج التزما الصمت. أثمان كُورنة لم يغادر بيت العمدة من وقت تصاعد الأحداث حسبما أشار عليه سلاطين.

اثـنان فقـط لـم يشغل بالهما ما يجرى من أحداث جسام بخصوص خبيئة المقـبرة، هاشـم الكيد المعزول بشلله، ومعتوق الخير المشغول بعمله في تكسير الأحجـار وجمعهـا عـلى حدود أرضه التي انتوى استصلاحها. لا تنساه هَكيمة بالطعـام حيث يعمل. يوماً واحداً نسيته فلم يهتم، يوم غاب أولوا في وادي التيّار وقـد قضـي ليلته هناك فكادت هَكيمة أن يتوقف قلبها هلعاً عليه فنسيت معتوق الذي انضم لها ولآبدون قلقاً على أولوا.

راضـية تذهب إليه مرّة كل يومين أو ثلاثة حيث يعمل، هو يأتي إلى دارها دائمـاً ليحادث أباها وأمها، لكنها تستعذب الذهاب إليه، لتكون وحدها معه إلا من مشـاركة فَرهانة التي تعودت عليها. تحادث معتوق بفرح وتستريح معه وتفرح بفَرهانة، ثم تعود تحادث نفسها..

- معـتوق هَكيمـة، مجهول الأب والأم، لقيط.. وربما يكون ابن زنى كما يقولون.. حكاية الذئبة وعدم معقوليتها. وفوق كل ذلك رضع من صدر أمي تَبْرَة مـراراً وتكراراً فصار أخي بالرضاع، إذن، لماذا صار شعوري يتلوّن بلون جديد ساخن في الشهور الأخيرة؟

بعـد أن أغلق الحظيرة على بقرتهم وقطيع الضأن والماعز، تناول قضمات سـريعة من رغيف لدن ثم أخذ الحمار في هدوء. أحسّت به أمّه هَربيّة. أسرعت إليـه. لحقـت بـه وهـو خارج الدار. تسير بجانبه والليل قد هبط سواده تماماً. وبصوتها الحاد تزعج الجيران..

- ستخرج هذه الليلة أيضا؟ ابق معي يا بني. على الأقل حتى ينتهي إشكال فيّاج وسلاطين؟ ستذهب لتبحث عن سلاطين مثلهم! أنت لست كفئاً له. إنه شرّاني وداهية ضحك عليكم كلكم. ابق معي يا ولد، ابق.

امتطي سَيّد هَربيّة الحمار فأسرع به وأمه مازالت تطارده..

- اسمع كلام أمك يا يتيم الأب. طول النهار في الحقل، طول الليل خارج دارك في نجع أورك، تسكر وتتخدّر على ربوة مِجيد مع شلّة الأفْشْطفوش الفاسدين! تأتى لتنام سكران في حجرة وحدك بعيداً عن أمك. أعيش وحدي. أنام وحدي يا سَيّد.

الحمار سيره أسرع من هَربيّة التي تحاول مجاراته وهي تحادث ابنها، فبدأت المسافة تتسع بينهما. توقفت ومازالت تحادثه. صوتها زاد علواً ليلحق بالمبتعد..

- لا تذهب وإلا أضروك معهم يا سَيّد. لا تتركني أنام وحدي يا ولد. إذن.. والله لو تأخرت ليلاً سأذهب وأنام في الحظيرة مع البقرة والماعز والخراف.

ولأن سَيّد هَربيّة خوفه وهلاوسة وخيالاته التي ترعبه أكثر من غيرها، هي ثعبان الطريشة، فقد وجه حماره ليهبط إلى ضفة النهر. وخوفه من العفاريت والطرّيشات أشد من خوفه من مخلوقات النهر بما فيهم فانالاندي الطويلة التي ثدياها يتدليان حتى عانتها وتمسك بالإنسي وتمصه من أنفه. وربما يقابل الأشرم آتياً من طريق ضفة النهر.

النهر على يساره يتدفق في وشوشة، هامات صفوف النخيل وبعض الأشجار تتشكّل مرعبة على يمينه بين الحقول، وأجمات نباتات الحَلفا البرية والسيسبان، تثب فجأة بدكنتها الأشد من سواد الليل على جانبه الأيسر، لتخفي مسطحات مياه النهر المنساب في عدم مبالاة، والذي لغياب القمر لا تُرى منه إلا بقع تعكس النجوم شديدة اللمعان. سَيّد هَربيّة يلعن في سرّه الأشرم الذي انشغل عنه ولم يأت ليصحبه في هذا المشوار المخيف، وليطمئن نفسه وليبين للمخلوقات الخفية أنه غير خائف منها، بل إنه حقيقة يستهين بها، أخذ يغني موالاً لتاج طنبورة يعدد مزايا فُوزيّته، وفي المقطع الثاني من الموال بدّل اسم فُوزية ببجيوَة!

نقيق الضفادع كثيف وصرير الجنادب حاد مزعج، يزعجان موّاله ويزعجان نفسه الخائفة. عيناه تحومان وتراقبان كل ما حوله وهو مستمر في الغناء.

قـــبل أن يصـــل لخور المنحنى، برز الشبح القصير، أبيض هلامي. الحمار نفســـه مـــن المفاجـــأة ثبت في مكانه. سَيّد هَربيّة شَعر أن شعر رأسه من تحت عمامـــته انتصب. هبط بجذعه للأمام وأخفى رأسه خلف عنق الحمار الذي ارتفع عالياً.. صاح..

- عفـــريت.. عفريت. أشرار النهر. اصرفهم يارب وسأخرج زكاة الموسم الماضي، والله العظيم سأعطي زكاة الموسم الماضي. أعوذ بالله من أشرار النهر. أنـــا يتيم يا عفريت الكلب وأمي هَربيّة ليس لها غيري، وزوجها الذي هو أبي.. مات.

ســـمكة كـــبيرة ناورت على سطح الماء فأحدثت صوتاً. أرسل سَيّد هَربيّة نظرة سريعة وهو مازال محني الجذع منكفئ الوجه، شاهد الشبح الثاني الأبيض الضخم يصعد إليه من الماء!

- عفـــريت ثـــاني. فانالاندي! رحت في داهية يا ابن هَربيّة. اصرفه يارب سأصـــلي وأصـــوم يـــا ربي، صدقني، والله العظيم ثلاثة سأصلي لك وأصوم لك. صدقني يارب فقد أقسمت بالله.

- ابن هَربيّة هووي.

صدمه نداء اسمه. نظر إلى الشبح القصير الذي يناديه مقترباً..

- ويعرفان اسمي! إنه كمين محكم من العفاريت! إبيوو-إبيو. إب ب ب. هـــ يـــ ي. الأشرم بن الشرماء! والثاني سلاطين.

عاد أمرُ الله هابطاً إلى القارب الرابض عند الضفة. واقترب منه سلاطين..

- أريدك يا ابن هَربيّة.

- أنـــا،أنا كنت أعرف أنكما سلاطين وأمرُ الله. إيْ والله. لكن.. قلت أدعّي الخوف لأضحككما. هاها.

- اصمت وبطل عبطك.

- آه.. ســابت رُكَبْ الحمار من الخوف.. ثم.. ثم أين كنت مختبئاً يا ولد؟ أيــن اختفيت يا ابن الشيطان نفسه؟ اسمع.. فيّاج سيذبحك لو رآك. معه منجل، مــنجل يا هووي. اسمع.. ضربة واحدة هكذا من تحت رقبتك.. تالالاك.. رأسك تسقط تاراراك، مثل رأس الكبش الذي يذبحه رجل غشيم.

- اصمت واسمعني.

- هيـــ يـــ يـــ ي، يا سلاام. سرقت المقبرة وحدك يا ولد يا مفتري؟ أين حقـــي؟ والله العظيم يا سلاطين إن لم تدفع لي حقي على أقله ريال ونصف ريال، بل ريالين. واقعتك سوداء، أسود من الليل الذي يحيط بنا ويرعب قلبك.. آهــه!

- قــلت اصــمت واسمع. انزل. انزل من على ظهر حمارك يا حمار عندما تتحدث معي.. انزل.

- لا تدفعني. نزلت. ماذا تريد؟ ثم لا تدفعني بعد ذلك، أنا نزلت بمزاجي.

- ما رأيك في بجيوَة؟

- بجيــوَة! يــا بووي. يا هوووي. صدرها. إبيوو إبيو. مؤخرتها جهنم السوداء. ساقاها.. أنا قتيل بطنك يا بجيوَة. ويا خراب بيتِك يا هَربيّة.

- صوتك عال مثل صوت أمك.

- سلاطين. لا تتحدث عن بجيوَة ، عقلي يطير. و.. و.. أوو.

- تعجبك؟

- تعجبني! ألا تفهم يا ملعون؟

- تتزوجها؟

- هــه!

- تتزوجها؟

- هــه!.

- غبي. تتزوجها؟

- آخ خ خ خ. بطنها! آخ خ خ خ.

- وفي موسم الزواج المقبل بجيوَة تكون لك.

- هــه!

- والله يا ابن الكلب إن لم تترك عبطك لأضربك علقة وأغرقك في النيل.
-أتزوجها؟!
- إيْ.
- كيف؟
- مثلما يتزوج الرجال النساء.
- لكنــنا.. لكــن موسم زواج جيلنا لم يأت بعد. تخيّل، يقولون إننا مازلنا صبياناً صغاراً. تخيّل؟
- إذن لا تريد بجيوَة ؟
- مصاريف العُرس؟
- نصيبك من المقبرة، ثلاثة ريالات.
- صحيح؟ ثلاثة.. وأتزوجها!
- تسكن بيتها.
- وبجيوَة ؟
- موافقة.
- إبيوو -إبيو.
- اخفض صوتك يا ولد.
- يا دين النبي.
- سَيّد هَربيّة!
- بجيوَة.. بجيوَة.. بجيوَة لي!
- إيْ.
- بصدرها..
- كلها.
- سلاطين!
- والله العظيم أنا صادق.
- أفــ فــ فــ.
- حلال عليك يا ابن هَربيّة.

- لكن؟

- ماذا؟

- وأنت؟

- ومالي أنا!

- وهي؟

- ماذا تقصد يا كلب نجع المنحنى؟

- ألا تهواها؟

- أنا! أبداً.

- ألا يوجد بينكما.. يعني.. يعني.

- ماذا؟

- فـ يـ يـ ك فـ يـ يـ ك.

- عيب يا سيّد.

- آهّاااا.

- أنا صادق يا صديقي. صدقني. إليك سر لا يعلمه إلا الله.

- قل.

- تكتم السر؟

- في بئر العمدة.

- أنا أريد هُوشَة.

- هيء هيء. كلنا نعرف.

- سأتزوجها.

- آهاااا.

- هُوشَة ستكون زوجتي.

- سلاطين!

- لماذا تنظر لي هكذا؟

- فهمــت الأمر. تريد أن تتخلص من بجيوَة. شفت.. أنا فاهم كل الأمور يا خبيث.

- ليكن.

- وبعــد أن تتزوج هُوشَة، ترجع في كلامك وتلف على زوجتي بجيوَة. أنا أفهمك يا نَجِسْ.

- عيب.

- عيب! تشتهي زوجتي يا ابن الكلب؟

-قلت عيب.

-وتعــرف العيب يا بائع الخمور وابن بائع الخمور! يا لص المقبرة يا ابن أثمان الأقرع.

-ولد.

-ولد في عينك.

-موافق أم لا؟

-طبعاً.. مو.. موافق.

-في الهلال القادم تكون قد أقنعت المخرّفة أمك.

-إبيوو -إبيوو. إبيوو سَيّد هَربيّة وبجيوَتكيد إبيو.

سَـيّد هَــربيّة يمتطي حماره ويعود إلى نجع المنحنَى ليجد أمه قد وضعت حشية في الحظيرة وتمددت لتنام عليها منفذة تهديدها، ولتؤثر عليه فلا يذهب إلى حيــث ســلاطين في هذه الأيام الخطرة. أمرُ الله الأشرم من بعد حديث قصير مع سلاطين، اتجه هو الآخر إلى نجع المنحنَى ليقصد بيت تاج طنبورة، واتجه القارب الصــغير وعــليه ســلاطين شــمالاً إلى نجع أورك. دخل في ثنية تداريها الحَلفا والسيسبان. توقف في هدوء على الضفة. هبط منه سلاطين وتسلل إلى بيته.

ســلاطين فــي حجــرة الديواني الكبيرة وضوء الفانوس خافت. دخل تاج طنــبورة هائجاً، تقدم ناحية سلاطين الجالس على كنبة في هدوء. وقبل أن يصل إليــه توقــف تــاج وهو ينظر إلى الجالس في تحد وتهديد. ثم دخل الأشرم. قال طنبورة..

-خنتنا يا سلاطين.

-إيْ.

-حقنا وإلا قتلك فيّاج ونحن معه.

-اجلس.

نظر تاج إلى قارورة الخمر والكوبين..

-سرقت المقبرة وخدعتنا.

-اجلس.

-جلست. حقنا. كلنا اتفقنا على أن نأخذ حقنا منك تماماً وإلا قتلناك.

-لا تستطيعون قتلي. وستأخذون حقكم.

-متى؟

-حقك الآن.

-وأصحابنا؟

-ليس لك شأن بهم.

-لكننا اتفقنا أن نتوحد ضدك.

-أمرُ الله أخذ حقه.

-هذا كلبك.

لم يتأثر الجالس على كَنبة قريباً منهما.

-أولوا أخذ حقه.

-ابـــن عمـــتك وتابعك وأشياء أخرى بينك وبينه في السرّ، نعلمها وتعلمها القرية. لكن.. كم؟

-ثلاثة ريالات فضيّة.

-لص. لن أرضى بأقل من خمسة.

-إذن، نصيبك زواجك من فوزية.

-ممّن؟!

-وافقت يا تاج؟

-فوزية! إسنهاج رفضني.

-كنت فقيراً. ولا تملك إلا أغانيك.

-لكن..

-أبــي ســوف يدفع بالنيابة عنك مهر الزواج قلادة ذهب. وعليك أن تعد إسْــهاج بأنك ستترك الكسب من الغناء في الأعراس وتعمل في الحقل وشيء من الكــلام الطيب، و.. وقطرات دموع. وأنا أملك ما ألوي به ذراع إسْهاج فيوافق. رغم كونك يا تاج طنبورة سِكّير تافه.

-سترفض عائلتي الذهاب مرّة أخرى لخطبة فُوزية.

-أثمان كُورنة سيتولى هذا الأمر أولاً. ثم تذهب عائلتك.

قــبل الفجــر،عاد تاج إلى داره يدندن بصوت خفيف وهو في القارب مع الأشرم وتنتابه الزغطة، حتى وصلا قدام نجعه. يضحك ضحكاً خافتاً ويغني ويعود للضحك ثم يضع إصبعه أمام شفتيه محذراً أمرُ الله من إصدار أي صوت..

-هُس. هُس.

أمرُ الله يضحك له ثم يصفعه بقسوة على قفاه. يفاجأ تاج، لكنه يضحك مع ضــحك أمرُ الله. وأمرُ الله يخلص ثأره من سب تاج له خلال جلسته مع سلاطين. يعود لصفعه ويضحك.

تسلل سلاطين إلى جزيرة أصلاد.

حديــث القــرية كلها عن مقبرة الأسلاف التي فضحها سلاطين، كما فضح قريــته بمــا ســيتقوّل نــاس النوب كلهم عليها. يتحسرون على سمعة القبيلة.. يتحســرون على الأخلاقيات التي انهارت.. قديماً لم يفكر مخلوق منهم في نبش مقبرة، بل عندما تنكشف واحدة من تلقاء نفسها، يقوم ناس القرية بتغطيتها وهم يدعــون لهم بالرحمة، سواء كانوا رفاتاً من عهد ملوك قبل الديانات أم كانوا من أجدادهــم المسيحيين. لكن.. منذ مواسم لم تعد بعيدة بعداً واسعاً.. بدأ الانهيار مــع سفر الرجال إلى الشمال مرّة وإلى الجنوب مرّة تقليدا للرحالة سيدين وتحت حجّــة الــتجارة. فدخل القرية الطمع وغزا السحر القبيلة. كاد سليمان وأثمان أن ينزلقا لهذا العيب المشين.. نبش المقابر، لكنهما أفاقا وعادا للصواب ولأخلاقيات القبيلة. الآن سلاطين الصبي مع أبيه أثمان العجوز لا يردعهما لا سَلَف ولا خَلَف.

لعنات عليه في كل تجمّع، سباب فيه وفي خاله هَمَرين في كل وقت، في كل صــلاة دعــوات عليه أن ينتقم الله منه. دعوات من أعلى منبر الجامع كل جمعة

تنصب على أم رأس سلاطين ورجاء إلى الله الرحمن ألاّ يمحوا القرية بسبب فِعلة فــرد فاسد فاسق فيها، والمصلون يؤمنون على الدعوات بحرقة الإيمان وحرقة الغيرة والحسد.

بضــعة أيام مرّت، فيّاج صباحاً أمام دكان أبيه، لمح شبح أثمان كُورنة من بعيــد مــتجهاً إلى بيته، لقد عاد إذن المختبئ في بيت العمدة! أنهي شيئاً سريعاً وســار مــتجهاً إلى بيــت أثمان. دخل الحوش. كان أثمان قد خلع جلبابه والقاه بجانــبه تحت السقيفة. يتجرع كوز ماء. رأى شبح فيّاج واقفاً أمامه. ترك الكوز. وجلس مضجعاً..

- ماذا تريد يا ولد؟
- أين سلاطين؟
- تجده على المَرسَى.

توجــه فيّــاج إلى بيت آبدون. هَكيمة تلقى بحفنات من الذرة إلى الدواجن الكــثيــف في حوشها. سألها عن أولوا ولم ينتظر إجابة، اتجه إلى حجرة أولوا. هَكيمة تركت ما بيدها ولحقت به. فيّاج يهز أولوا ففزع..

- ماذا؟ ماذا؟ فيّاج!
- ظَهَر سلاطين.
- اتركني أستكمل نومي.
- هيا نذهب إليه ونأخذ حقنا بالتهديد.
- لا أريد شيئاً من سلاطين.
- أولوا! آهاااا. ابن خالك واتفقت معه. حقير.
- فيّاج، لا تســب.
- على كل حال، نحن أربعة وسنأخذ حقنا منكما.

خرج فيّاج ولم يعط أي اهتمام لهَكيمة التي سمعت كل ما دار. تقدمت هَكيمة من ابنها الذي انقلب على بطنه معطياً ظهره لأمه كي لا تحادثه..

- أولوا، كيف نبشت معهما المقبرة؟ كيف تجرؤ على فعل ذلك؟
- لم أنبش.

- سلاطين شرّين سيقودكم إلى داهيّة.

-..

- أهو الذي عَشَّمك بالزواج من راضية؟

عــاد فيّـــاج إلى داره. ناس النجع تراقبه، شاهدوا سلاطين ويخشون تهور فيّـــاج وتنفيذه لتهديده. أخذ حماره وامتطاه مسرعاً إلى نجع المنحنَى. في الحقول شاهد سَيّد هَربيّة وهو يغني ويعمل في حقله مبتهجاً. اقترب منادياً..

- سَيّد هَربيّة. سَيّد هَربيّة هووّوي.

- من؟ فيّاج الأصفر مرحباً.

اقترب فيّاج منه..

- ظَهَر وبان سلاطين.

- إيْ.

- نذهب ونفضحه. نضربه ونمرغه في الرمال.

- لماذا؟

- لماذا! خاننا وأخذ الذهب.

- أعطاني حقي.

- أعطاك حقك! وحقي؟

- اذهب وخذه.

- آه، كم أخذت يا ابن هَربيّة؟

- ثلاثة فضة.

-فقط؟!

- لا، هــل أنـــا عبيط؟ وجانباً من مصاريف زوا.. أخذت حقي وخلاص يا فيّاج.

- عبيط ابن عبيط. المقبرة كانت مليئة بالذهب يا ابن هَربيّة. ذهب. ذهب. أثمان أبوه اشترى مركبين. هل تعرف كم ثمن المركب الواحد؟

- لا.

- غبي.

- الله يسامحك. والله لو لم تكن ضيفاً في أرضي كنت تصرفت معك تصرفاً آخر.

هبط فيّاج من على ظهر الحمار مكوراً قبضتيه ممتلئ بالغيظ والشر..

-وماذا كنت ستفعل يا أيها المتخلف؟

- كنت.. كنت سأغفر لك.

- والآن. هل ستأتي معنا؟

- لا.

- جبان.. عبيط ابن عبيط. ابن عبيطة.

قالوا لفيّاج الغاضب وهم أشد غضباً منه، إن تاج طنبورة نائم من سُكر ليلة أمس. وأنه ولد تالف مثلك ومثل كل عصبة الأفَشْطفوش التالفة. ورغم ذلك دخل فيّاج على تاج. مازالت رائحة العرقي تنبعث من فمه. أيقظه بصعوبة. لكن طنبورة مازال ثقيل الجفنين ضبابي الوعي. سمع منه فيّاج جملة واحدة كانت كافية..

- أخذت حقي من سلاطين صديقي.

أسرع على حماره إلى المَرسَى. وعند صخرة دُجُر المطلة على مرسَى القرية، كان سلاطين واقفاً وأمرُ الله يخطط بالجير خطوطاً على الصخرة. عدد من الرجال أتوا مسرعين ليحولوا بين الخصمين. شابان ضخمان قويان دخلا بين فيّاج وبين سلاطين. كأنهما كانا ينتظران حضوره. فيّاج اقترب من اليأس فهدأ مرغماً. سلاطين في هدوء الواثق. أشار للشابين فتركاهما يتواجهان. الرجال وقفوا حولهما يتابعون.. شابان طويلان عريضان في مقتبل العمر يكبران سلاطين بعدة مواسم فيضانية، ذوا عقلين مسطحين وليس لهما أي قيمة في قريتهما النوبية القريبة. لا ولاء لهما إلا لسيدهما سلاطين الذي أبقاهما في بيته حتى يبني لهما ولمن ستتزوجانهما بيتين خاصين قريباً من بيته ليحميانه. فيّاج الأسمر الطويل عريض العظام.. قوي رغم غلبة النحافة عليه، سلاطين الربعة العريض الكتفين مائل للامتلاء.. ذو قوة واضحة. نظر سلاطين إلى الجمع..

- لا تخشوا شيئاً، سنتفاهم معا ولن يقع عراك بيننا.

فــترة محاورات هادئة مع الرجال ثم انصرفوا مطمئنين للهدوء البادي على سُمرة فيّاج وبرود سلاطين. تواجه الخصمان..

- سلاطين.. نبشت المقبرة وحدك ؟

- صحيح.

- وحقنا؟

- أولاً. يجب أن تعرف أنه لم تكن عصبة الأفشْطفوش تستطيع تحديد مكان المقــبرة دونـــي. إذن من الظلم أن تأخذوا نصيباً يعادل نصيبي. وأنا أعطيت كل مــنهم حقه. أما أنت.. فقد وجدت الخاتم واحتفظت به معك يا فيّاج! أليس كذلك؟ إنه نصيبك وزيادة. فلا تطالبني بشيء.

- سلاطين. أنت حقير. لا تستهين بفيّاج مُهدي وإلا قتلتك.

- أنــت لا تســتطيع قتل دجاجة. فأنا أعرفك وأعرف أن كل ما فعلته الأيام السابقة مجرد حركات. كرباج.. سكين.. منجل. ادعاء خائب.

- إذن لماذا هربت؟

- لم أهرب. كنت أخطط لأجعلك وحيداً أمامي فتهدأ.

- لن أهدأ.

- معــك الخـــاتم. تعال إلى داري من بعد العشاء. سأعطيك شيئاً.. كعامل حفر.

- تتعمد إهانتي يا سلاطين!

- حتى تتعلم ألا تحاول تهديد سلاطين أبداً.

- لن أجعلك تهنأ بمسروقاتك وخيانتك.

ابــتعد فيّاج. ضحك سلاطين فتوقف أمرُ الله الأشرم عن التخطيط ليشاركه الضحك.

أنهى إسْهاج عمل يومه البسيط. صلى المغرب في جامع النجع وجلس على مصــطبة الــبيت الخارجية مع هاشم مَفْكوكَة. لا يتحادثان. المجادلة أرهقتهما ولم يرســيا على حل يريحهما. توقفت أمامهما ركوبة أثمان كُورنة. هبط منها واتجه ليدخل بها إلى بيت إسْهاج قائلاً..

- ســـلام عــليكم. هيـــا إلى الداخل، فعندي حديث مهم يا ناس. في حجرة الديوانـــي الواسعة والمزينة جدرانها بالكثير من الأطباق الخوصية الملونة، أمام أثمان كُورنة صينية البلح والفشار وكوب القهوة، وقد ألقى عمامته بجانبه فبانت رأسه الصلعاء المشوهة بالجروح. عليه عباءة خفيفة أنيقة.

- زيارة طيبة يا أثمان .لم تزرنا من مواسم يا رجل.

- إيْ. اسمع يا إسْهاج. أنا مشغول جداً جداً. وليس عندي وقت.

- إيْ. الله يبارك فيما تملكته. لم تعد أثمان كُورنة المفلس.

- هاها. اسمع.. مركبان.

- ماذا؟

- مركبان. بدلاً من تكليف نجارين قرية كوروسكو. أنت أولى.

- مركبان! مرّة واحدة!

- موافق؟

- موافق.

- اتفقنا.

بصوت خفيض نادى أثمان..

- يا هانم.. هانم مَفْكوكَة هووي.

ضحك إسْهاج عندما دخلت هانم غاضبة، فإنها كالعادة كانت تسترق السمع.

- والله يـــا أثمـــان أنـــت لا تستريح إلا إذا لعَنَتك كل من تقابلها. تَعويضة لِسانين جعلتك مدمناً في تلقى السّباب. تناديني مَفْكوكَة وأنت في داري؟

فـــي هـــدوء أخرج أثمان قلادة الهلال الذهبية، رفعها لأعلى وعينا مَفْكوكَة تتابعها في شبق.

-هانم مَفْكوكَة، هذا مقدم ثمن المركبين.

بعد حديث ضاحك اتخذ أثمان هيئة الرجل الوقور المهم..

-لي طلب عندكما.

-اطلب يا أثمان اطلب. أنا وإسْهاج ننفذ كل طلباتك.

-بهرك ياهانم بحليّة الهلال؟ نساء ناقصات عقل ودين.

-هــو رجــاء مني، رجاء من أثمان وليس طلباً. بل أقول إنه طلب مرتبط بالمركبين.. هه.

توتر إسْهاج في عدم رضا هزت مَفْكوكَة رأسها موافقة. وقف أثمان.

-تــاج طنبورة.. أنا وكيله. بعد المركبين، عندنا مراكب أخرى سنحتاجها، سوف يأتي لك من يساعدك ، هاها. وكل عملية يا إسْهاج لها ثمنها وزيادة. وأنت يــا هانم مَفْكوكَة.. حلية قرص الرحمن التي ستتزوج بها فُوزية من طنبورة هي عــربون المركب الثالثة.. السلام عليكم. لكن يا مَفْكوكَة.. تحجين بيت الله، ولم تمنعي نفسك من التنصت والتجسس على ضيوفكم؟ اخص.

- وهل لو جلست معكما أسمع وأتكلم، كنت ستمنعني يا أثمان؟

- أبداً.

- أليست فُوزية ابنتي ولي رأي في زواجها؟

- طبعا .لكن لماذا تجلسين خارج الحجرة وتتنصتين على من بالداخل؟

- مزاج عندي يا أثمان .تعترض؟

- أبداً .

مرّت الليلة وقد أنهكت مَفْكوكَة زوجها جدلاً ليوافق على زواج طنبورة من ابنــتها. ولمــا جاءت فُوزيةفي الصباح وجلست وسطهما حزينة كما أوحت إليها أمها. ينظر إسْهاج إليها ويراقب مدى حزنها وهزالها..

- أقسم برب الكعبة التي زرتها مع أمك، إن أمك طلبت منك الحضور ورسم هذا الحزن على وجهك. لكن.. انتهينا.. أنا موافق.

لــم يمض يومان إلا وتحولت الساحة المتوسطة أمام دار إسْهاج إلى ورشة نحل، أتى ثلاثة مساعدين لإسْهاج ليعملوا في صناعة المركبين. يأتون بالأخشاب وتحــت إشراف معلمهم العجوز بدءوا في نشر الخشب وتجهيز العوارض. العمل ســيبدأ هنا، ثم ينتقل إلى الضفة بجوار ميناء دُجُرْ. إسْهاج تحمس للعمل متخطياً إحساسه بتقدم العمر .

دار الحديث علناً في انفعال..

- لماذا لا نذهب نحن أيضاً ونبحث عن مقبرة؟

- أم نترك سلاطين يكتشف كل موسم مقبرة ويستولي عليها لنفسه؟
- إن ما جناه سلاطين من المقبرة كثير كثير كثير.
- ذهب ذهب ذهب.

عـارض البعض لحرمة مقابر الموتى، ولأنهم أسلافهم، لكن بعد ذلك، استمرت الحوارات خفية، كل جماعة قرابية أو صداقية يخططون سراً، لكنهم يهابون العار إن انكشف أمرهم. يخشون ممر الأشباح، مرعوبين من ولوج وادي التيّار رغم أن بعض شبابهم الصغير ولجوه مرّات. أصبحوا يراقبون بعضهم، فكل مجموعة تريد الذهاب والنبش وتخشى عار الفضيحة، تتوجس أن يسبقها أحد، حتى في نجع نجيبيّة حيث المُعارض الأول لنبش القبور، لاعن فعلة سلاطين، الشيخ صَلاتو، كانت مجموعتان من نجعه تخططان للذهاب والنبش!

مُهدي وقيّاج ذهبا خفيّة يسترهما الظلام ولم يلحظهما أحد. مُهدي عِشقه للمال وعبوديته لمعبوده الذهب وحُلمه أن تسود تجارته كل خط النيل بدلاً من محدوديتها في قريته الصغيرة، كانوا أقوى من خوفه ورهبته ورعبه. كانوا أقوى من تَديّنه وحُرمانية نبش القبور. ذهبا ليلتين خلسة، في الليلة الثانية وهما ينقبان حول الشاهد الذي يبرز ثلاثة أذرع، دهمتهما مجموعة أخرى. رعب مُهدي من دخول أشباح تلك المجموعة المفاجئ وكان أخف وطأة من رعبه أن البعض جاء ليشاركه غنيمة يأملها لأنه الأحق بها. أمّا الحَرَج من فعل النّبش، فمُهدي لم يشعر بحرج إلا دقائق ولن يشعر بعد ذلك.

في الليلة التي تلتها، تضاعفت المجاميع وتضاعف العدد رغماً عن أنف مُهدي وولده، والليلة التي تلي هذه، كان ممر الأشباح قد أضيء من بعد العشاء من كثرة المشاعل والفوانيس التي تحملها قوافل البحث المتلهفة وهي تعبره علناً في حماسة وشَرَه. ليالٍ ثم أتوا ممتطين حميرهم! حتى النساء كن وسط الرجال. أما ساحة وادي التيّار فقد أنيرت بالمشاعل وأكوام مخلفات الحمير الجافة التي أشعلوا فيها النار، فصارت قناديل مقعية تضيء طول الليل. الساحة والممر فقدا هيبتهما ورعبهما، حتى أنه بعد الليلة الخامسة اصطحبت بعض السيدات أطفالهن. صار الأمر سباقاً مهووساً لنبش القبور واستخراج الذهب والأحجار الكريمة.

الحفر في كل مكان. زحام زحام. نسوا ما استحلبوه عن أخلاق القدامى وحُرمانية نــبش المقابر ولعنهم لسلاطين وأبي سلاطين وخال سلاطين، نسوا كيف كان من ســبقهم إن تعثّر في مقبرة قديمة فعليه أن يعيد ردمها ويستغفر لمن دُفن فيها أيّا كان دينه وقتها. فقسَمُوا الساحة إلى عدّة أقسام بعد مشاجرات وتضارب. لكل نجع مــن نجــوع القبيــلة مساحة معلومة وكل حسب حظه. صارت الساحة أزحم من ســاحات الأعــراس وأشــد حيوية. المشاعل والفوانيس وقناديل مخلفات الحمير الجافــة أنارتــه تمامــاً. لكن الزحام ليس زحام تآلف وتكاتف وفنون مثل زحام الأعراس ورقصات النائحات، هذا زحام صراع أناني. الأطفال وجدوها فرصة للعب بعــد زيــادة أعدادهــم، لعبهم جماعي إلا من بلغوا سناً بإمكانها مساعدة ناسهم. تعالت أصواتهم حسب أنواع ألعابهم فصارت أصواتهم أعلى من صوت ذويهم، من يــتعب مــنهم يــنام ليقــوم بعد وقت قليل مستأنفاً اللعب. كل نجع يتجسس على الآخــرين. الــليل بطولــه سهر وحفر وتشنجات وإحباطات وسخرية من النفس وشماتة في الغير.

عــثروا فــي القطــاع المخصــص لنجع نجيبيّة على مدخل، فهاجوا كلهم وتضــاربوا واتفقــوا إن ما سيستخرجونه للكل، اتفقوا على ذلك رغم احتجاجات نــاس نجع نجيبيّة. وقبل الفجر كان المدخل كاذباً لم يقودهم إلا إلى الحسرة ولعن بعضهم بعضاً وبعض القهقهات المحبطة الخجلى.

فــي الليلة التي تليها، وعندما جاءت مجموعة من شباب القرية المجاورة عــلى حميــرهم ومعهــم فوانيسهم وطعامهم وشرابهم، وأيضاً كرابيجهم وبندقية تحســباً لوحــوش الطــريق، أصــاب الباحــثون النابشون بعض الخجل من هذه الفضــيحة. ثــم تداركهم خوف هو أشد عليهم من الخجل.. ماذا لو وجدت هذه المجموعــة الــتي لا تنــتمي لقبيلتهم كنزاً خبيئة في مقبرة؟ طردوا جيرانهم شرّ طرده.

الرجوع في ميقات الفجر. وفي الصباح افتقدت الحقول الكثير من زارعيها.

اســتمر الحال على ذلك حتى اليوم التاسع. لا تأبه الجموع الزاحفة لا للوم الشــيخ صَــلاتو ولا لغضب القلّة القليلة التي ثارت على نبش قبور الأسلاف. ولا

لمــن غضــب لإهانـــة القبيلة وسط بقية القبائل. استمر الحال حتى نهشت حيّة الطريشـــة طفـــلاً. مات منهم قبل أن يفكروا في إسعافه! لم يقتلوا الحيّة لأنهم لم يجدوها وسط كل هذا الزحام الذي ضربه الفزع. أسرعت الأمهات بحمل أطفالهن خوفـــاً. فتـــلقت أم نهشة وسقطت على ظهرها تولول وابنها فوقها حتى لا تتركه أرضـــاً وتصـــيبه الطريشة. أسرع الجميع هاربين حاملين جثة القتيلين. تزاحموا خـــلال عودتهم في ممر الأشباح. سقط من سقط، انكسرت عظام من انكسر. كاد طفلان وسيدة أن يُقتلوا دهساً بالأقدام. تضارب الجميع ضد الجميع، أصابت شعلة جلـــباب رجـــل فأصيب بحروق وكاد أن يضيع محروقاً، فكانت هذه آخر ليلة من ليالي حُمّى نبش القبور،وسُجلت في تاريخهم الشفاهي بموسم نبش القبور، موسم الخزي.

ليـــالي العزاء السبع في نجعين.. نجع نجيبية، نجع الطفل، ونجع المنحنى نجـــع الأم الـــتي لم تترك طفلها ليلحق بها. راحا ضحية سعار ليالي نبش القبور. ناس القرية يذهبون إلى ناس القتيلين.. جماعات تتجه إلى نجع لتُعزي وتُعَدّد ثم إلى الآخـــر لتعزي وتُعَدّد. وفي كل مضيفة حيث يجلس الرجال، وحديث عن الذي أصاب الناس. ضيق ظاهري من الهَوَس الذي أصابهم، والعار الذي انصب عليهم للأبـــد. وضيق خفي من عدم عثورهم على مقبرة واحدة! الغيرة والحسد يبدوان عيانـــاً بياناً من سلاطين شريّن الذي فاز بالمقبرة الوحيدة التي اكتشفت. والشيخ صَـــلاتو يعـــظ ويعـــظ أن يتعظ ناسه ويحسوا بخطيئتهم في نبشهم حرمات قبور أســـلافهم واستعدادهم لسرقتها. يمصمص السامعون شفاههم في فهم ويقين من صـــواب حديـــث شـــيخهم العجوز، لكن شهوة الدنيا تعود بهم إلى ما كانوا عليه فيتحدثون عن أملهم الخائب وعن أحقيتهم في ذهب الأسلاف!

قـــام الشـــيخ معزياً. ثم انصرف وهو يبعد عينيه عن ناسه الغاضب عليهم وهو يتمتم بآية من القرآن..

- وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.

وفـــي مكان عزاء النساء، داخل حوش البيت، كانت تَعويضةتتزعم النحيب والحَســـرة على الذي مات والذهب الذي لم يعثروا عليه معاً. فقد كانت مع ابنتها

كِسبانة وسط النساء الباحثات المنقّبات. تلعن سلاطين شرّين ثم تنهنه على الطفل المنهوش.

أمـــا مُهــدي، فظــلت شجرة الكافور المنتصبة أمام دكانه ملتقى الحاسدين الشـــرهين لأيام طويلة، ولا حديث لهم إلا عن ذهب المقابر وإصرار على العودة يومـــاً للـــبحث والتنقيب، وإصرار على أحقيتهم في المشراكة فيما وجده سلاطين شرّين.

الجـــبل ليس بالسهولة والبساطة كما يتراءى من بعيد. الجبل عالم مستقل يزخر بهيئات متناقضة ومتناسقة. جُرم هائل شاسع زاخر مرتفع يحوي مرتفعات ومنخفضـــات، تكويـــنات بيضـــاوية وتكوينات مربّعة ومستطيلة وغيرها غريبة الأشـــكال، تتخلله وديان رملية ناعمة وصخور نارية تشقّه أخاديد متعرجة وجباه ملســـاء مـــتعجرفة، أعشـــاب وأشـــجار برية تبهر وتجلب العجب. كائناته الحيّة عديـــدة.. ثعـــابين تزحف على بطونها وعقارب تهرول في غباء وسحالي تسرع عـــلى أرجـــل قصيرة ثم تَتَسَمَّر كأنها نتوءات صخرية، خنافس وجعارين سوداء ورماديـــة، ذئاب هائجة وضباع بشعة، وعصابات ابن آوى السمجة، أوكار نسور وصـــقور وحـــدآت، حشـــرات قبيحة وحشرات مقبولة الشكل، أعشاب لم تُكتشف فوائدهـــا وأعشاب علاج نادرة وغيرها ذات مرارة، وأعشاب سُميّة رغم سذاجة شـــكلها. الجـــبل طود راسخ. الجبل وتد تحمله الأرض ويمسك هو بها أن تَميد. يتلقى أشعة الشمس الطاغية بثبات ويعكس منها شلالات نار طاغية على السفوح من حولها. يتشرب طوفانات من نارها لتتحول صخوره إلى أتون ناري. وفي ليل الشتاء ترزح عليه برودة مفجعة تتسلل إلى عظام الكائنات الحية فيه وتؤذي نُخاع من له نُخاع.

في الجبل قلّما يتلطف مناخ.

هـــنا.. هـــنا في هذا الجو الذي ظاهره القسوة، إن أحبه إنسان صَفى قلبه وسَـــمَت روحه واطمأنت. هنا عاش وسَعَد نسّاك ورهبان قبط النوب وقبط مصر وعلى سفوحه سار قدّيسون وقدّيسات، وأولياء اتبعوا رسالة محمد. كما عاش هنا وســـعد في مطلع التاريخ، ملكات النوب وكل منهن تحمل لقب كِنداكة، منهن من

كـانت فـترة حكمها سلماً ومن كانت فترة حكمها حرباً. منهن من كانت حروبها بسـيطة مؤقـتة. ومنهن من حاربت الإمبراطورية الرومانية وهَزَمَتْ كتائبها ثم انهزمت منها ليتصالحا. وفراعنة نوب ذكور وغير نوب أمهاتهم نوبيات. سادوا وكـانت فيلة جزيرتهم المقدسة، عبدوا الله الواحد وصوروا أولياءه الصالحين في صـورة آلهة فرعية، خاصة إيزيس التي كانوا يحجّون إليها كل موسم، يطوفون بتمـثال لهـا حول أرجاء الجزيرة. بنو معابدهم حول نيلهم النوبي وعلى جبالهم الـنوبية. والكـل يتقرب إلى الله بطريقته ويسجد له. نوب تداخلت فطرتهم في فطرة بيئتهم فكانوا عبيداً وعبّاداً للخالق العظيم في انسجام نادر.

بعـد أن توقفـت ليالي الأفشنطفوش على سطح رَبْوَة مِجيد، صار سلاطين يسهر كل ليلة في حوش بيته الواسع ومعه أولوا وسَيِّد هَربيّة وطنبورة. الأشرم يعد لهم كل ما يحتاجونه من طعام وشراب.

ناس البيت نيام، يعود أولوا على ظهر حمارته والأشرم يسير آخذا بزمامها. ينزله عند باب البيت. يطرق الباب وينادى على هكيمة، وقبل أن تفتح الباب يكون الأشرم مسرعاً بعرجته ليغوص في ظلام الليل.

ألقـته هَكيمـة على سريره لينام كالميت. لا تستطيع أن تدعو بالشَرّ على سلاطين، لا تستطيع أن تنسى أنه ابن أخيها. والأشرم ما هو إلا تابع لأبي شرّين، وهو أيضاً ابن صديقتها المتوفاة.. الشرماء.

بعـد أن نـامت هَكيمـة، خرج معتوق، يسير جنوباً فتخطى البيوت. يعبر الساحة بجوار شجرتي التوت. بيت العمدة على يمينه من بعيد. يهبط خور أورَك وهـو يقـرأ سوراً من القرآن الكريم. لا يعكّر صَفوه خشية زواحف هذا الخور. يصعد حافة الخور من عند نهايته. يعبر درب الجمال القديم ثم يبدأ في صعود جبل فرعون المتوّج بالمعبد التليد ذي الأعمدة والذي أطلقوا عليه تاج فرعون. بعد أن يـتمكن بسهولة معقولة من صعود نصف الجبل، بعدها تبدأ الصعوبة. الجبل يكاد أن يكـون حائطياً أملس. يلتف معتوق من منحنيات كان قد اكتشفها من قبل حتى وجـد الممر الصاعد لأعلى والذي لسبب لا يفهمه غمرته صخور ألقاها من ألقاها ليفسد الممر المريح لمن يصعده. يصعد معتوق بقدميه الحافيتين الخشنتين. يصعد

ويصـــعد حتى يصل إلى التاج الفرعوني المهيب. ينظر إلى الأعمدة الراسخة وقد سقطت بعض من كتل الأسقف ومازالت بضعة كتل باقية في شموخ. يتفقد الأعمدة المنتصـــبة ثم يعطيها ظهره ناظراً لأسفل. القرية غافية.. منحنى النيل الحاد مع انحـــناءة سلســـلة الجبال عند نجع المنحنى.. ثم يظهر سطح النيل العريض في أقصى الشمال وقد تلألأت عليه انعكاسات النجوم المحدقة.

يـــرفع رأسه لأعلى، صفاء قدسي. الليل في قبة السماء مخمل أسود. سواد حالك آسر. عيون النجوم اللامعة منثورة. هلال القمر كالنحاس الأحمر ظهر فوق أفق الصحراء المترامية. مخلوق ناطق برمزه. عند عامود من أعمدة المعبد جلس مستنداً بظهره عليه. يرفع معتوق عينيه. يتأمل مواقع النجوم في خلاء السماء.. تـــتحرك ببطء غير منظور، تتحدث بعظمة بارئها، تقول وتقول له بلغة يتشبع بها فؤاده ويطرب. الهلال يتصاعد ليتحوّل إلي لون النحاس الأصفر. يتعجب معتوق..

- سبـــ.. حان الله. لماذا يتـــ.. صارع البشر؟

كـــل بضـــعة مواســـم قـــد تطول أو تقصر، يأتي موسم من مواسم مرض السُخونة، تتسبب فيه بعوضة كريهة تظهر وتتكاثف حين كل فيضان عال، عندما تســـيح ميـــاه الـــنيل على الضفتين وتصنع بركاً ما بين العميق والضحل. يعشش البعوض في ثنايا نباتات الحَلفاء وأشجار السيسبان خاصة المنتشرة على ضفاف الـــنيل. وتـــأتي السُخونة أحياناً بأسباب غير هذه الحشرة الضئيلة الخطرة، وفي مواسم غير موسم الفيضان. تحصد الكثير من ناس القرية خاصة الأطفال. تتخلخل كـــثافة الـــناس، ولكن الأعمار عموماً ممتدة، والمناخ الحار القائظ يساعد الفتيات عـــلى البلوغ المبكر، يأخذهن الفتيان زوجات فائرات. تأوهاتهن تتصاعد ليلاً من كـــل بيـــت، ومـــن كل بيت تتحول التأوهات الشبقة إلى صرخات ألم وهن يحزقن دافعـــات ثمـــرات بطونهـــن أطفالاً رضّعاً سُمْراً تتلقفهم الأحضان فرحة بهم، فهم فيضـــانات نسْـلِيّة تـــتدفق الحياة بهم ولهم. وفي نفس الوقت هم عودة الأسلاف القـــدامى إليهـــم. ثـــم تتصاعد الزغاريد لتبدأ طقوس استقبال كل مولود، طقوس مرتـــبطة بالنيل المعطاء وحبوب الغلّة، وبعد سبعة أيام يصعد الأب إلى سطح بيته ليعلن للجهات الأربعة اسم مولوده الذي رزقه به الرزّاق.

وأغلب ناس القرية نحاف، والممتلئ منهم لا يزيد شحمه عن الحد المعقول إلا فيمـــا ندر. ولهذا السبب كانت ديوانة مسكين قبل أن يطعنها هَمَرين الساحر، ملفـــتة للـــنظر، وأعجبت مُهدي كثيراً لوفرة لحمها وقد قاربت أن تكون مترهلة. وحين يدخل النوبي منهم في مرحلة الشيخوخة التي تطول به، غالباً ما يفقد اللحم الزائد ليصير أقرب إلى النحافة. يصير كشجر النخيل.. رشيقاً مُعمّراً.

خيشـــة بعد أن ترجو حفيدتها بهيتّة البقاء في الدار وعدم الخروج، تخرج هـــي على ظهر حمارها لزيارة المشلول هاشم الكيد، لا تريد لبهيتّة الذهاب معها. يتصـــارع بداخلها نقيضان.. حبها لبجيوَةابنة الكيد، وكراهة أن تخالطها بهيتّة. ســـمعة بجيوَة ساءت تماماً. صحيح أنها تحب بجيوَة.. هي خيشة التي استقبلتها أول مـــا خـــرجت من بطن أمها جولية. تحبها حقاً، لكن حبها لبهيتّة أشد وأشد، وواجبها تجاه عائلتها التي تكاد تبيد أشد وأشد. وبجيوَةفقدت خُلقها وفقدت احترام نـــاس القـــرية لها بتحديها لهم. تصرّ بجيوَة على ما تفعله. لا.. لن تترك بهيتّة تجالســـها ولـــو لنهار واحد، ستذهب وحدها في كل زيارة للكيد. لكنها تخشى أن تترك بهيتّة نهاراً كاملاً وحدها. إذن.. تقلل من زياراتها للكيد. من أيام قبل عزمها على زيارة الكيد، وخيشة ترجو حفيدتها وتجعلها تقسم بكل مقدس أنها لن تخرج من البيت، ثم تعود لتلح على حفيدتها..

-لا تشـــعلي الـــنار وحدك. كل شيء جاهز ولا داعي لخطر الحريق. ابقىْ دائماً على ظهر السرير ولا تسيري في الحوش حافية. ليس لك شأن بإفراغ المياه المتســـاقطة مـــن أســـفل الأزيار في الأواني الفخارية تحتها، ربما كان ثعبان قد استكان هناك في الرطوبة التي يحبها. ولا..

تـــثور بهيتّة على جدتها، وتكرر صارخة إنها لم تعد طفلة، وإن لم تتركها وشـــأنها فســـوف تترك البيت وتهبط الأخوار وحدها وبدون حمار وحافية أيضاً.. وإنها سوف تسبح في النيل عنداً فيها. إلى آخر هذه التهديدات التي ترعب جدتها خيشـــة. العجـــوز المرعوبة من موت ذريتها تسترضي بهيتّة بدموعها ورجائها، حتي توافق بهيتّة مرّة أخرى أن تبقى في البيت ساكنة حتى تعود هي من زيارتها للكيد. بهيتّة تحس بجدتها ومدى ما تعانيه من حسرة وحزن على ضمور أسرتها

وخوفهـا مـن ضياع اسم العائلة من ذريتها للأبد. توافق ظاهرياً على أوامرها، وخفية تتصرف مثلها مثل أي فتاة.

علـى ركوبـتها، تدخل خيشة نجع أورك، وقبل أن تدخل بيت الكيد، تزور بيتين فقط في النجع،بيت العمدة فتطمئن عليه من نبْرَة، ثم بيت مُهدي.تتحدث معه قـليلاً مُصـرّة عـلى تعطيله حتى لو كان مشغولاً مع زبائنه أو حساباته. وتدخل لتـتحدث مـع ديوانة مسكين كثيراً. تسأل عن قيّاج، وإن وجدته تحتضنه وتقبله وتدعـو لـه. تبتسـم ديوانـة لها حبّا وشفقة، وفي نفس الوقت تعلن موافقتها بابتسـامتها، فهـي تعـرف ما تريده خيشة.. قيّاج. أما مُهدي فليس في باله لا خيشة ولا بهيتَة.

دخـلت خيشـة على الكيد، يراها فيبكي. تطعمه. تسقيه. تحكي له عن أيام زمان أيام شبابه. وجوليه زوجته المتوفاة، يعود للبكاء فتبكي معه. تتوقف فيحثها عـلى الحكي ليَبكي. تسنده ويخرجان ليجلسا تحت السقيفة. يتساند على الجريدة السـميكة بيـده السـليمة وخيشة من الناحية الأخرى تتأبطه. وحين تأتي بجيوَة لتجالسهما يثور الكيد ويطردها مهدداً بالجريدة. فتبتعد الفتاة محبطة.

يحـاول الكيـد أن يحادثها، لكن لسانه العيي ثقيل كالرصاص، يتوتر أكثر، يحـاول بالإشـارة، والإشارة عاجزة. ليس له إلا أن يترك خيشة تتحدث وحدها. يفـتقد مصـطفى وبهيتَة ويحدس أن خيشة لا تأتي بهما حتى لا يختلطان بابنته بجيـوَة. تقسم له العجوز بأن الوضع ليس هكذا، ثم تضع الأعذار وهو يبكي لأنه يعرف أنها كاذبة حتى لو أقسمت لترضيه. يغفو في الظهيرة وقد ارتخت تجعدات وجهه وينطق بهمهمات أسماء بهيّة وبجيوَتوسلامة وجوليه.. وأبيه وأمه.

قـبل المغرب تعيده إلى حجرته، تودعه بالأحضان. وطوال مشوار عودتها إلى نجعها، لا تستطيع أن تمنع دموعها على من اتخذها أختاً واتخذته أخاً.

شجّع كل من الابنين أباه، زجرْ يدفع سَليمتو دفعاً ليتقارب مع أثمان كُورنة بعـد أن حادثه سلاطين عن الرحلات النهرية التي يزمع الاتفاق عليها. وسلاطين يأمـر أبـاه بمصادقة سَليمتو وقد أفهمه من سابق موضوع هُوشَة. أثمان يقسم لسلاطين أن تَعويضة لِسانين لا يمكن أن توافق على زواج ابنتها من أبي شرّين!

ولا يمكـــن أن توافق على زواج الصغيرة قبل الكبيرة، خاصة أنها تخاف فعلاً من ابنتها الكبيرة كِسبانة والتي لا تقل شراسة عن أمها.

تقـــارب الـــلذان لـــم يـــتقاربا طوال فترات طفولتهما وشبابهما ورجولتهما. وكهولتهما، لكنهما تقاربا في الشيخوخة. أثمان كُورنة وسَليمتو الزير البارد الذي يكبره بثلاثة مواسم.

وضـــوء النهار قارب الذبول، عَبَر أثمان على السّقالة ووثب بداخل المركب الرابضـــة على الضفة وفي يده زنبيل. جلس في مؤخرة المركب العريضة بجوار سَـــليمتو. المركب تهتز في وقار. فتح الزنبيل.. أرغفة وعيدان جرجير وخس، وزجاجـــة عـــرقي ممـــتازة. طبق فخاري مازال ساخناً بما يحويه من قطع كبدة خـــروف محمرة بالسمن. ابتسم سَليمتو. قام، سحب السقالة وترك المركب تبتعد عـــن المَرسَى ثم ألقى المرساة وهي في الثلث القريب من ضفة النيل. طرطشات المياه ودوامات صغيرة دقيقة يصنعها السمك في معاركه ولعبه.

وهمـــا يأكلان ويشربان، أثمان مندهش.. يومان فقط كانا كافيين ليتصاحب مع سَليمتو! وهاهما يأكلان ويشربان ويسكران معا في وقار، وكل منهما يتظاهر بأنـــه الأصلب ولن يسكر سريعاً من مجرد قارورة عرقي. في تلك الجلسة، طلب أثمـــان يد هُوشَة ابنة سَليمتو لسلاطين. وافق سَليمتو خاصة بعد أن وعده أثمان بالمـــال الوفير نتيجة الرحلات التي سيقوم بها بمركبه لحساب تجارة أثمان وابنه ســـلاطين. لـــم يفكـــر سَليمتو في العواقب نتيجة موافقته كما لم يفكر حين أغراه هَمَرين سابقاً.

توغـــل الـــليل، أصبحت القرية ساكنة تماماً. لم يسمع فيها إلا نباح كلب أو عواء من بعيد. عادا إلى المَرسَى. صعدا إلى النجع. أثمان إلى بيته وسَليمتو إلى بيـــته. افترقا. أثمان تعّود على السكر الثقيل. يعلم تضاريس القرية وهو مخمور أكثر مما يكون واعياً. سَليمتو لم يسكر بهذا الشكل من قبل. عبّ الخمر عباً لأنها عـــلى حساب غيره. ولأنها خمر ممتازة. يصعد دروب القرية، المكان صار غير المكـــان والـــنجع غيـــر النجع. إنه أشَف وأرق والرمال أقل كثافة. لكن ساقيه لا تـــتآلفان مع منخفضات ومرتفعات الطريق التي تفاجئه فيسقط على الرمال. عَبس

مــرّة ومــرتين ثم ضحك بعد ذلك. ولما تعثر في حَجَر، ترك فردة مركوبه وهو البخيل.

الكـــلاب تعــرف ناس القرية كلهم. تحب البعض وتكره البعض. كانت تتخذ موقــف الجفاء من سَليمتو، فهي تكرهه. لكن هذه الليلة أحسّــت أنه تبدّل فأقبلت عــليه وداعبــته فداعــبها. فرحوا به، وكلما سقط قفزوا عليه وبعثروا عمامته. لحســوا وجهـــه وقفاه وهو في سرور بهم بالغ. قبض أحدهم على طرف العمامة وأســرع بها، لحق سَليمتو بالطرف الآخر وهو يتطوح. يجذب هو فيجذب الكلب المتشــبث بأســنانه بطرفها البعيد. سَليمتو يلعنه في مزاح والكلاب تنبح وتتقافز حوله. انتصر الكلب. ضحك سَليمتووهو يبحث عن طاقيته. التقطها وقذفها للكلب الذي انتزع العمامة..

- خذ الطاقية أيضاً، لتتعَمّم بعمامة كاملة يا ولَد.

عندما وصل إلى داره كان حاسر الرأس حافياً. في يده فردة مركوبه. ضرب الــباب به. تَعويضة كانت قلقة فهذه أول مرّة يغيب سَليمتو طويلاً بدون أن يكون في إحدى رحلاته. أسرعت إلى الباب لكنها توقفت وقررت أن تتركه قليلاً ليتأدب ولا يتأخر مرّة أخرى. ملّ سَليمتو.. ضرب الباب عدة ضربات بالمركوب ضربات أشـــد. الكــلاب نبحت في جوقة لتسانده ففزعت تَعويضة. سَليمتو تقهقر خطوات موجهـــاً كــتفه إلى الباب، هجم ليكسره وتَعويضةتجذب ترباس الباب، فإذا بالباب يصــدمها وينقذف بها إلى الخلف ويلقيها على مؤخرتها فبقيت لحظات في ذهول. سَــليمتو يدخل وهو يتحسس كتفه في زهو. جلس بجوار تَعويضة التي تتحسس صدرها الموجوع. دخلت الكلاب تقفز على سَليمتو سعيدة به. هبّت تَعويضة تلعن الكـــلاب بـــأولاد الكلاب فأسرعوا هاربين. أغلقت الباب خلفها. عادت إلى سَليمتو وألم صدرها زادها غضباً. سبقتها بنتاهما. حملاه حملاً وهو يضحك لهما.

فـــي الصـــباح استيقظ والصداع يضرب داخل رأسه. تذكر ليلة أمس. يلوم نفســـه كيـــف وافق على زواج هُوشَة من سلاطين أثمان! وكِسبانة ماذا ستفعل؟ مكاسبه المرجوة شجعته لمواجهة امرأته الشرسة.. لكنها حين أتت له.. انكتم.

قبل الذهاب إلى سهرة كل ليلة، ذهب أولوا إلى بيت نَبْرَة. وجدها جالسة على عتبة غرفة المطبخ. تمسح جبينها العرقان بكم جلبابها، مُتْعَبة من بعد أن أعدت وجبة طعام لنُوري وأرسلتها مع راضية. اقترب منها..

- ماس-كاج-رو.

- همد لله. هكيمة ماس-كاج-نا؟

- أمي بخير.

- أوووف. حر.

- كنتِ أمام النار؟

- إيْ. أعوذ بالله من نار جهنم يا رب.

- أين راضية؟

- ذهبت بالطعام لأبيها.

- صحتها لا تعجبني. ودائماً حزينة.

نظرت إليه نَبْرَة متعجبة. إنه لا يهتم بحال أحد. لماذا هذه المرّة يسأل عن صحة راضية؟ وكيف لاحظ أنها حزينة؟ إن الحزن يعلو راضية منذ زمن.

- لو كنت تزور نُوري وترى حاله، لعذرتها.

- أنا، أنا أخشى أن أضايقه.

- فعلاً، هو لا يحب كثرة الزيارات.

- لكن راضية..

- ماذا عن راضية؟

- لماذا لا تحب الحديث معي؟، وإن تحدثت معها أجابتني بعدم اهتمام؟

- أنسيت انك كنت دائماً ضدها وأنتما صغار؟

- ذلك لأنها تفضل صحبة معتوق وتهملني وأنا ابن خالتها.

- معتوق الخير يحبها، ولا تنسى أنهما أخوان بالرضاع.

-وهي.. لا يجب أن تنسى أنه عبد.

- أولوا، بالله عليك. يكفيني ما بي.

- كلكم لا تحبون حديثي. حتى هكيمة وآبدون. خلاص.

قــام. نفض جلبابه من الرمال. لكنه لم يتجه إلى الخروج، بل أخذ خطوات ناحية حجرة نُوري البعيدة.

- سأزور عمي نُوري.

- إنه يتناول طعامه الآن. انتظر قليلاً.

تقــوم نَبْرَة لتمسك به، قيامها كان بطيئاً. أولوا كان قد عبر الحوش الطويل العــريض، ثم دفع باب الحجرة ودخل. الحجرة منارة بفانوس واحد صغير فالظلام يريح نُوري.

- ماس -كاج -رو.

نُــوري العمــدة مستند على الحائط بظهره، رجلاه ممدتان أمامه، وعليهما الصينية الخوصية الكبيرة تحوي الأطباق الفخارية الساخنة مترعة بالطعام. تجلس راضــية بجانبه تساعده في تناول طعامه. نظر نُوري إلى القادم وإن كان قد تبين صــوته وعــرفه. دخل أولوا. رائحة عرق نُوري ضربت أنفه. رغم ذلك من أجل خاطــر راضــية اســتكمل الدخول. جلس على الجانب الآخر من نُوري. استرعى نظــراته صدر نُوري الضخم والمتهدل في بشاعة. بان على وجهه التقزز. نُوري رصد نظرات أولوا. راضية قالت في غضب..

- لماذا جئت؟

- ها! تطردينى يا راضية؟

- اذهب وانتظر مع خالتك قليلاً؟

دخلت نَبْرَة عليهم. أولوا في غضب وجه حديثه إليها..

- خالتي، أسمعت؟ راضية تطردني وأنا جئت لأرى أباها وأسلم عليه!

- أبي لا يحب دخول أحد عليه وهو يــ.. وهو مشغول.

- ولا حتى أنا؟

- ولا أنت.

- تطردينى يا راضية؟

نَبْرَة مالت على أولوا وأمسكت بكتفه في رفق..

- تعال معي يا بني.

نظـــر أولـــوا إلى نُوري. فم نُوري مكبوس بالطعام نصف الممضوغ. وجد نُوري نظرات أولوا المتقززة تراقبه. تفل نُوري الطعام الذي يملأ فمه بقوة فأغرق وجه أولوا. ذهل أولوا كما ذهلت نَبْرَة وراضية. هبّ أولوا واقفاً يمسح وجهه بكم جلــبابه فـــي قـــرف. انهمرت الضحكات من راضية فرحة بما فعله أبوها بأولوا، فابتسم نُوري راضياً عمّا فعله ثم أخذ يضحك لضحك ابنته، فكانت أول مرّة يضحك منذ موت ابنه سِسِّي غريقاً، وكانت آخر مرّة يضحك أيضاً قبل أن يموت هو.

هـــرب أولوا من الحجرة وهو يلعنهم جميعاً وهو عائد لبيته مهرولاً ليبدل ملابسه ويشكو لهكيمة.

وفي تلك الليلة شرب الكثير من العرقي، دخن أضعاف ما يدخنه من البانجو حـــتى أوقفـــه سلاطين عن الاستمرار بالقوة. وعندما سَكَر حكى باكياً لمن حوله كيف أهانه نُوري العمدة وبصق الطعام في وجه، وكيف طردته راضية ولم تدافع عـــنه نَـــبْرَة، وكيف ضحكت راضية فضحك نُوري، فضحك رفاقه السامعون عدا سلاطين والأشرم.

أخـــذه الأشـــرم ليوصله لداره كالمعتاد. دفع باب البيت فانفتح. دخل أولوا وحده يترنح. أحسا بوصوله. اعتدلت هكيمة لتذهب إليه. قال آبدون..

- بكاء كل ليلة يا هكيمة.

-..

- اتركيه يفعل ما بدا له.

- إلى متى يا آبدون؟

- إلى أن يهديه الله. فعلنا ما بيدنا. ضَربته. أهنته. لا فائدة.

- لن ينصلح حاله طالما يصاحب سلاطين شرّين.

ســحبت يدهـــا من يد زوجها. ذهبت إلى حجرة أولوا. أولوا يلقى بعمامته ومركوبه ويرتمي بملابسه على السرير. لمح أمه تقترب منه فأشاح بوجهه ناحية الحـــائط. جلست هكيمةبجواره. ورغم انه أغلق عينيه الحمراوين من السكر حتى تتركه أمّه، وضعت يدها على كتفه..

- ابني.

- لست ابنك يا هكيمة.

- أولوا! ماذا تقول؟

وهو مازال مغمض العينين أشار بإصبعه ناحية حجرة معتوق..

- ابنك هناك.

من بكاء هكيمة في الحوش المظلم، أتاها معتوق يربت عليها وآبدون ينظر إليهما من عتبة حجرته. نظرت هكيمة لمعتوق. لا تدري.. هل هي تحبه لأنه سبب من أسباب أبقت على حياة ابنها أولوا، لأنه جلب الخير للبيت الفقير، منحها عافية الأنوثة والاطمئنان على زواجها. أم تكرهه لأنه ربما يكون السبب الأساسي في نفور أولوا منها، وهو السبب في سقوط وحيدها في خمرة العرقي ودخان البانجو؟ وتحقير نفسه بأن يكون مطيّة للمراهقين من أترابه. تركته وذهبت إلى آبدون ترتمي على صدره وتبكي وتصارحه بما كانت تفكر فيه..

- آبدون.. ربما كنت على حق حين قلت.. نترك معتوق يعيش في بيت آخر.

- هذا كان منذ البداية.. الآن، لم يعد الأمر يجدي.

- معك حق.. لن نربح إلا إبعاد ابننا معتوق، ولن يعود لنا رضا نفس أولوا.

في الصباح الباكر، بعد أن خرج آبدون ومعتوق، وأطعمت كل دواجن وحيوانات البيت، تركت هكيمة أولوا نائماً وأسرعت إلى بيت أخيها. دقت الباب في قوة وتواصل. فهذا البيت من البيوت القليلة التي لا يستيقظ ناسها مبكراً. فأثمان وابنه سلاطين يسهران كثيراً ولا يحتاجان للذهاب إلى الحقل مبكراً، ليسا مزارعين. دقت في عنف حتى فتح أثمان وهو يفرك عينيه..

- هَكيمة! ما جاء بك في الفجر؟

- فجر! فجر يا أثمان؟ نحن في الصبح وكل الرجال ذهبوا لأرزاقهم.

في الحجرة، أثمان تمدد على سريره في كسل يكاد يعود إلى نومه. هكيمة تنظر لأخيها، تكبت غضبها عليه، فهو الذي حمل همّها يوماً وفعل كل ما يستطيع لتزويجها. هو الذي وهب البيت لآبدون وترك له أرضه يزرعها بمشاركة رمزية

في الحصاد تشجيعاً له فيتزوجها وهي التي كان يعافها الرجال. أفاق أثمان من شروده. اتكأ على ذراعه ونظر إليها..

- هه، الحكاية يا هَكيمة؟

- سلاطين ابنك.

- وما به؟

- أريده أن يبعد عن ابني أولوا.

- إ ب ب ب!

- يبعد عن وحيدي.

- سلاطين ابن خاله يا هَكيمة! أم أنا لم أعد أخوك؟

- سيطر سلاطين على أولوا تماماً. يسكره معه ويدخن البانجو معه. أثمان، أخي. أولوا ضعيف. سيموت إن لم يكف عن هذا ويبعد عن طريق سلاطين. سيموت.

- أعوذ بالله.

قام. خرج من الحجرة وترك أخته تبكي. عاد بعد قليل وخلفه سلاطين والنوم في عينيه.

- اجلس يا بني. عَمتك تشكو منك.

- وماذا فعلت لعمتي؟

- هي تجيبك.

- سلاطين، تدخل على عمتك ولا تقول حتى صباح الخير؟

- صباح الخير.

- صباح الخير يا سلاطين. ابعد عن ابني يا سلاطين. أفسدت أولوا. طعنت سمعته وسمعة أبيه وأمه. ابعد عنه.

الغضب كسي وجه سلاطين والقلق وجه أثمان. اتجه سلاطين إلى الباب ليخرج ثم استدار عنده..

- أنا لا أرغمه على صداقتي، لا أرغمه على السهر معي. ثم إنه ابن عمتي، ابن أخت أثمان، أخيك.

- ابعد عنه لمصلحته.

- ابقيه أنتِ عندك. أنتِ وأبوه تعذبانه بإهمالكما له واهتمامكما باللقيط الغريب.

- معتوق ليس له ضلع في تعب نفس ابني، معتوق هو الذي..

- وكأن معتوق هو ابنك يا هكيمة! لا توقظيني مبكراً بعد ذلك.

خرج سلاطين لينظر أثمان في أسى وقلة حيلة إلى أخته الباكية.

التخمينات كثيرة، يقال إنه يحتفظ بصندوق خشبي يحوي ثروته الذهبية والفضية. يقال إنه ليس صندوقاً، بل هو سحّارة كبيرة تكاد تضيق بما جمعه من ثروة.أطلقت عليه لِسانين اسم مُهدي الأصفر، فالذهب مبتغاه، دينه ودنياه. له فرعان لدكانه، فرع في نجيبيّة والثاني في المنحنى. بيتان يعطي رجليهما البضاعة البسيطة فيبيعانها ويحاسبهما كل أسبوع. وكل فترة يفتعل شجاراً ليبدلهما حتى لا يتعودا على أصول المتاجرة. يمد من عمر المعاملة مع من يجده غير طموح متراخ العقل، لكن إن أحس أنه بدأ ينتبه إلى أهمية أن يكون مستقلاً، يبدّله حالاً، وإن تجرأ وقام أحد بفتح دكان خاص به للتجارة منافساً لمُهدي، يحتج بفتوى الولي جوش الذي أوصى بأن يتاجروا جملة واحدة مع الغير. ويسحب هذه الفتوى على التجارة الداخلية في القرية. إن التاجر فيهم يجب أن يكون تاجراً واحدا فقط.. مُهدي، ولا يأبه بشرح الشيخ صَلاتو الذي يوضح أن المقصود بفتوى جوش هو المعاملة المتحدة مع التجار الأغراب، لعدم تمكينهم من ضرب ناس القرية بعضهم ببعض متنافسين فتبخس قيمة محصولاتهم، خاصة البلح. لكن مُهدي لا يرضى بشروحات صَلاتو. يقول ويردد مقولته..

-وهل صَلاتو مثل جوش؟ حاشاً وكلاً. جوش الذي كان يطير بدون أجنحة ويعبر النيل بدون مَركب أو طوف، نساوي به أمثال صَلاتو؟ إن من يفكر في ذلك مجرد تفكير.. يكاد أن يكون كافراً.

يحارب كُلّ من ينافسه قبل أن يستفحل أمره، يخفض أسعار بضاعته مؤقتاً ويحرض الموردين ويهددهم حتى يمتنعوا عن المعاملة مع المنافس، فيهدمه ويجعله عبرة لكل من يفكر في منافسة مُهدي لوقت طويل. يحلم بأن يمتد نشاطه

إلى بعـض القرى الأخرى وبعدها على قرى النيل، لكن العصبية القبلية في القرى النوبية ترفض أن يأتي لها تاجر من قرية أخرى لينافس تجّارها، حتى القرية التي زوج ابنـته فيهـا لابـن رجـل من أهم رجالها، أيضاً رفضته تاجراً فيها وفشل تخطيطه البعيد. يحلم بأن تكون له تجارة في قرية كوروسْكو حيث الميناء الأهم فـي المـنطقة، أن يغـزو سُوين وحلفا حيث الجندل الأول والثاني والتجارة مع الجنوب والشمال.

وعـندما بدأ ظهور سلاطين بثروته الطارئة المتدفقة، بهت.. فقد توازنه. يهاجمـه هو وأباه أثمان كُورنة ويؤلب عليهما ناس القرية بمساعدة تابعه يونس المجبّراتي. يرعب ناس القبيلة بأن سلاطين شرّين سيسيطر عليهم ويا ويل الكل يوم أن يسيطر عليهم. إنه ابن أخت هَمَرين، سوف ينتقم من القبيلة لخاله أيضاً.

كـل ليلة يشبع ابنه فيّاج تقريعاً ولعنا،كيف يتفوق عليه سلاطين وينال كل هـذا المال؟ ورغم كراهيته لسلاطين، تمني في سريرة نفسه لو أن سلاطين هذا ابـنه هو.. إذن، لآلت ثروته إلى أبيه، إليه هو.. وبالأموال التي كانت ستؤول إليـه.. كان سينفذ رُؤآه التجارية ويغزو كوروسْكو وجندلا حلفا وسُوين. غضبه وحسده طمرا عقله، فلم يعد يفكر واقعياً كيف يتعامل مع سلاطين وثروته؟ رفض تماماً أن يتفاهم مع أثمان كُورنة عندما أرسله سلاطين إليه.

ولمـا مرضـت ديوانـة، وبـدأ جسدها ينهار سريعاً فاقداً شحمه ثم لحمه ورغبـته الجنسـية تمامـاً، فلم تعد له أنثاه التي كان يعشق فيها جسدها بطوله وعرضه ووفرة مواضع الأنوثة فيها، وصاحب هذا احتقار ديوانة أصلاً له لموقفه اللامبالي في مواقعة هَمَرين لها، أوجعه الجوع الجنسي، أوْجَد أخرى له في السر، امـرأة أقـرب إلى القُـبح إلا من جسد تخطى مرحلة الطمث بالكاد. لا تهتم بمن يمـتطيها. كل هَمّها أن تتكسب بعض البضائع من العجوز مُهدي. تأتيه في وقت القيـلولة، تدخـل المخزن فيفعل بها ما يسمح به المكان والزمان. وأحيانا يذهب إليهـا ليلاً متسللاً مثل اللصوص. وكل ما يضايقه ويغضبه من هذه العلاقة، ليس أنـه يـزني وهذا حرام، أو حتى خشية الفضيحة وسط ناس القبيلة وهو العجوز المـتزوج والأب والجد، ما يضايقه ويغضبه أنه يضطر اضطرارا إلى شطب ديون

تــلك المــرأة من دفتره! وما يحرق كبده جشع هذه المرأة إن هي أخذت قطعتي صابون أو طلبت وأصرت على أخذ وزن من الحلاوة وقمعين من السكر الجلاّب، ووعد قطعه على نفسِه مضطراً، بأنه سوف يعطيها في الشتاء القادم شال صوف أحمــر! وإلا.. لن تستسلم له. يتهمها بالاستغلال وقلة الأصل واللصوصية، لكنه مضــطر للاستســلام لها وإعطائها ما تريده ليُفرغ فيها هَمّه المَنوي. لكن.. هذا عنده أهون من الزواج وتكاليفه وإطعام من ستكون زوجته طول حياتها. وتكاليف الــزفاف وزيــارات ناسها وربما أنجب منها فتأتي له بأفواه تريد الطعام وأجساد تــريد الكساء،ثم يرثون ثروته مشاركين فَيّاج أمله في تحقيق حلمه. أوووف. إنه لولا حب يترقرق في قلبه لابنته، لمنع عنها ميراثه فيترك أكبر رصيد لابنه فَيّاج الــذي رغــم لعــنه لــه وتسفيهه إياه، يوقن أنه سيستطيع يوماً استكمال رؤيته التجارية الشاسعة.

عــاد أثمــان كُورنة، لم يستطع أن يستميل مُهدي الأصفر إليه وإلى ابنه. مُهدي سخر منه واستهان به. عاد إلى داره وأخذ يشرب العرقي وأذان المغرب لم يصعد بعد. يصب ويشرب. لا يستطعم المشروب، مجرد ابتلاع. يحاور نفسه..

-لمــاذا صــرت مهاناً وسط قبيلتي؟ لأني أصنع الخمر وأبيعها؟ يلقبونني بصــانع الخمــور.. بــائع الخمور والكثير منهم يشربونها! حتى مُهدي ويونس وغيــرهما يشــربونها ســراً. أذهب إلى مُهدي الخسيس، فيرفض التعاون معي وينعتني بالنجس! مُهدي الذي من بخله يستطيع أن يحلب النملة، يهينني؟ وآبدون الــذي زوجــته من أختي هَكيمة وهو فقير مشرد.. الآن يتحاشاني! نَبْرَة، أختي تــرفض طعــامي وتهينني ابنتها راضية بقولها قولاً صريحاً.. لن نأكل من ربح خَمْرك! أنا مُهان طوال عمري حتى لو لم أتعامل مع الخمرة.. مهان.

لمِــــا بعد العشاء يشرب ويبكي. سرد لابنه سلاطين حاله فابتسم سخرية منه وقال له..

-قَرُب اليوم الذي سيخشاك فيه كل فرد في القبيلة.

الأشــرم يؤكد لسلاطين إن فَيّاج فعلاً خارج القرية في مهمة تجارية، وإن مُهــدي وحــده. ذهــب سلاطين والليل أخذ في الإيغال. مُهدي وحده جالس على

الـرمال بجـوار بـاب منزله، أمامه عدد من الحصى يؤدي بها حسابات مؤقتة تشغله..

- ماس -كاج -نا، عم مُهدي؟

- من! الولد شرّين؟ كيف أكون بخير وأنت أمامي؟ سترك يا رب.

جلس بجوار مُهدي.

لـم يدخل سلاطين في أمور فرعية مع مُهدي، بل اندفع إلى أساس ما أتى إليه..

-عـندي مركبان وبعد مرور قمر واحد سيصلني مركب ثالث، إسْهاج أتى بالمسـاعدين أكـثر لبـناء مركبين آخرين لي. بمعني.. إن تجارة قريتنا والقرى المجاورة ستكون في يدي أنا..

-تحلم يا ابن أثمان النجس.

-مُهـدي.. أكـثر مـن عندهم نخيل كثيف وحصاد غزير هم ناس العمدة وناس هَكيمة وبجيوَة. وهم يبيعون ويشترون من مراكب الكنوز والصعايدة لأنهم ليسـوا بحاجـة للشـراء مـنك بالأجل بضمان حصاد بلحهم. تضحك يا مُهدي؟ اضحك.. أنا أعلم أن عمتي نَبْرَة أرسلت للشراء منك بالأجل ووعدتك بالسداد من حصـاد بـلحها، قـالت لك لن تتعامل مع مراكب الغرباء مباشرة. شراهة زوجها الـبقرة اضـطرتها لذلـك، لكن يا مُهدي، هذا مؤقت، فإلى متى سيعيش زوجها البقرة؟ ومتى مات.. لن تتعامل مع مُهدي ثعبان القرية السام.

-ولد.

-ما رأيك؟ سأجعل بجيوَة تبيع لك. وأولوا يضغط على هَكيمة لتتعامل معك ولـو جـزئياً. إذن كل ناس البلد سيتعاملون معك أنت. وأنا سأشتري منك لوازم العـرقي بأسـعار أعـلى من الغير. وبهذا نُبطل عادة البيع والشراء مباشرة مع الغرباء عن القبيلة، وننفذ وصية جوش الولي بتفسيراتك الخاصة. تزداد مكاسبك يا مُهدي مكاسب مضاعفة. أهذا أفضل أم.. أم أعيد فتح دكان التجارة الذي فشل فيـه أثمان وأعطيه للأشرم ينافسك؟ لن أنافسك أنا بشخصي، بل بالأشرم. سأملأ دكانه بضاعة وأجعل الأشرم يبيع بأسعار أقل منك. وفي نجع المنحنى سأجعل سَيّد

هَربيّة هو من ينافسك. وفي نجيبيّة سأختار أتفه الشبّان ليحاربك بدكانة صغيرة، أنـــا لا يهمـــني. سيكون عندي خمس مراكب. وقيمة المركب السادس سأستغني عـــنها. بإمكـــاني أن أخســـر بضع قطع من الذهب الذي استخرجته في منافستك وخـــراب بيـــتك. أنـــت أيهـــا الـــتاجر الثعلب فشلت في تصور مدى الثروة التي اســـتخرجتها. سأخنقك يا مُهدي. سأجعل بضاعتك تتعفن في مخازنك. لن يعطيك أي من ناسنا كيلة بلح واحدة. تعلم كم يكرهونك وسيرحبون بخراب بيتك.

مُهـــدي الأصـــفر مـــبهوت. فكّ عمامته ليهوي رأسه قليلاً، يفكر في هذه المحـــنة. مـــركوبه بجانبه، أخذ فردة منه وأخذ يضرب بها على الأرض في رفق ظاهري. ويفكر. وجد بالمركوب فتلة طويلة، قرّبها من فمه وشدّها بأسنانه. رفع وجهه، عيناه ترقبان وجه سلاطين فوجد عيني سلاطين ترقبانه في تحدي الواثق المنتصر.

-ماهذا الذي تقوله يا ولد؟

-ســـأجعل الكل يشمتون فيك. وستطلق عليك أم لِسانين اسم مُهدي مسكين بدلاً من مُهدي الأصفر.

قفـــز مُهـــدي من جلسته ليقف غاضباً. سلاطين وقف مجابهاً له في هدوء الواثق من نفسه ومن جسده الأطول والأقوى. مُهدي يشبّ بجسده في تحد..

-تهديد. تهددني أنت، وأنت من سن ابني؟

-لـــك أن تخـــتار. مكاســـب لا تحـــلم بها، أو خسارة لم تحلم بها، وتموت فطيساً.

لـــم يهـــتم ســـلاطين بشتائم مُهدي وتهديداته المضادة. فقد علم أنه أصاب العجـــوز في مقتل. تركه يتوعد وينتفض حتى سكن وارتمى جالساً على الرمال. عاد سلاطين للجلوس بجانبه، ثم أمسك بكتفه في استهانة ورجّـــه..

- ســـأتركك تعمـــل مثـــلما كنت تعمل. تكسب من ناس البلد وتسرقهم كما تشاء. بل سأساعدك بمراكبي لتغتني أكثر وأكثر إذا..

- إذا ماذا يا أبا شرّين؟

- إذا طاوعتني فيما أطلبه.

-طلباتك يا سلاطين.

- بدايـــة.. امـــنع لسان وتشنيعات المجبّراتي عني. أما طلبي فليس الآن. وطلبي لن يكون أبداً ضد مصلحتك.

- وكيف آمن لك؟

- كلمة شرف.

- هيء هيء. سلاطين شرّين عنده شرف!.

- ســيأتي لك بعض الذين يعملون عندي. الأشرم وابن هَربيّة. وغيرهما. سيشترون منك مجموعة طلبات تكفي العمال الذين سيأتون للعمل في بناء مخازني ومقر تجارتي..

-مخازنك! مقر تجارتك!

-والميناء الذي سأقوم بتوسعته..

-ميناء! وتوسعه لحسابك؟

-بإمكانك أن تبيع لهم بأسعار أغلى، سيتركونك تسرقهم..

-سلاطين. مخازن ومقر تجارة وميناء وأنت مازلت صبياً لم تتزوج بعد؟!

-سأتزوج قريباً يا مُهدي. أرأيت؟ إنك يا مُهدي مضطر لقبول كلمة شرف من سلاطين.

-لن يتركك العمدة تخرّب في القرية.

- أي عمدة؟

- وناسنا.. ناس قبيلتنا، لن يتركوك تغيّر وتُبَدّل في القرية حسبما ترى.

- سيعمل الكثير منهم عندي وسيقفون خلفي أتباعاً.

- كــابوس هذا أم حقيقة! إن استطعت أن تفعل ما تقول.. سيكون كابوساً على أم رأس القبيلة الغبية قبيلتنا. كابوس يا ابن أخت هَمَرين؟

- هل عندك اعتراض على كلام ابن أخت هَمَرين ؟

- اسمع. اسمع.

- سمعت.

- هل أنت صادق؟

- سوف ترى كل ما أقوله وهو يصعد أمام عينيك.
- اسمع.
- سمعت.
- أين حق ابني فيّاج من الكنز؟
- اجعله يأتيني ويطلب بنفسه، سأعطيه شيئاً لأجل خاطرك. آفيالوجو.

مُهدي يتابع ظهر سلاطين مفزوعاً..

- مع السلامة..

ولما ابتلع الظلام بياض جلباب سلاطين وابتعدت أذناه عن مدي همهمات مُهدي، قال في صوت عالٍ..

- بل في ستين داهية. لن أمنع عنك يونس، بل سأزيده سُعاراً عليك. وبالندامة يا أبا شرّين.

الجبل الشرقي لا يترك أي حيّز زراعي على الضفة الشرقية للنهر أمام القرية. الجبل وتحته ينساب النهر مباشرة وفي بضعة أماكن مجرد مسطحات صخرية لا تسمح بإنبات عود واحد أخضر، عدا بقع متباعدة من أجمات خفيفة من أغصان الحَلفاء، لذلك ولا بني آدم يفكر في الذهاب هناك. أحيانا يشاهد ناس القرية ذئباً منفرداً أو ذئبين أو قطيع ذئاب تهبط من ثنايا الجبل لتشرب. لا تخاف تلك الذئاب من نباح الكلاب الغاضبة المهددة ولا من صيحات الأطفال المشاغبة، تعلم أن النهر بينها وبينهم، وأن الكلاب والأطفال لم يكونوا ليجرؤا على الصياح بكل هذه الثقة لولا ذلك المانع المائي العريض الذي يعطيهم الأمان والثقة.

نادراً ما يشاهد ناس القرية تمساحاً هناك. وبالأحرى على ضفتهم. التماسيح قليلاً ما تتخطى جندلهم الجنوبي عند حَلفا لتنساب هابطة شمالاً فتصلهم، وإن تخطى القليل منها ذلك الجندل أيام الفيضان، فنادراً ما تصل حتى قريتهم.

هذا الجبل هو المكان الوحيد الذي لم يتسلقه معتوق. هَكيمة تحذره رغم أنه لم يصارحها برغبته في الذهاب إليه، لكنها تعلم شغفه بالاكتشاف. آبدون يحذره إن ذهب هناك، فلو اعترضه ذئب لن يلحق به أحد لينجده، لكن معتوق يتحرق شوقاً لزيارة ذلك الجبل، خاصة الجزء المواجه للفاصل بين جزيرتي أصلاد وتايي،

حيث توجد أعلى قمة في ذلك الامتداد الجبلي الطولي والتي سوف ستُسمّى بجبل أثمان.

بعد صلاة المغرب، ونادراً ما يهبط الحقول بشر، هبط معتوق ومعه جريدة خضراء رفيعة. اجتازها، وعند النهر، بين أرض هاشم الكيد وانحراف مقدمة خور البحر حيث الأرض منخفضة تلامس سطح المجرى النائم، تقدم معتوق. خلع جلبابه، لفّه على رأسه عِمامة. هبط يسبح سباحته الهادئة. العصا يقبض بفمه على منتصفها، إنها سلاحه الوحيد. مر من المسافة التي تفصل بين الجزيرتين. صعد سفح الجبل الذي يعلو سطح النهر بأذرع. لم يهتم باتجاه القمّة الثانية من حيث العُلو.فقد اكتشفها مراراً مع الشباب الأكبر منه في كل غرّة رمضانية، حيث يثبّتون نخلة صغيرة جافة ويجعلونها شعلة تنير وتعلن أن هلال الشهر المبارك هَلّ. ارتدي جلبابه ينظر إلى أعلى قِمّة بالجبل.. إنه ليس بصعوبة جبل فرعون، بل هو سهل. صعد، صعد، لمح بريق ظهر ثعبان مبرقش، لم يأبه به. صعد. في مناسيب من الجبل يجده أفقياً ممتداً. يسير ببساطة ثم يعاود الصعود مرّة أخرى. وصل إلى قمته. عالية لكنها ليست أعلى من قمة جبل فرعون، وليست في جمالها. معتوق سعيد بأنه استكشف مكاناً جديداً، مكاناً عالياً آخر،يرقب منه السماء التي تحويهم بسحرها والأرض الساجدة أسفل منه والنيل تدفق ليّن يمر فيها. جلس.. ارتفع أذان العشاء من الجوامع الثلاثة. معتوق يسبّح وينشد بصوت خفيف. فلو ارتفعت عقيرته كما يريد، فسيسمعه ناس القرية وستغضب منه هَكيمة ويزجره آبدون.

وعند هبوطه، هبط من طريق آخر. صار أمام صخرة دُجُر التي ترتفع سوداء غامقة عالية على الضفة الأخرى، يلاصق جنوبها المَرسَى الصغير ثم مدخل خور أورِّك وعلى أقصى شمالها بداية أرض هاشم الكيد من طرفها الجنوبي.

في هذا الجزء من سفح الضفة الشرقية، امتداد مسطح صخري كأن هناك من بَسَطها عن قصد وسَوّاها رصيفاً عريضاً أملس، يشرف على سطح النهر بارتفاع بضعة أذرع! الطين يغطي الرصيف والكثير من الحجارة متناثرة عليه

والكثير من طرد الفيضانات، أغصان عطنة، عظام لبهائم نفقت من مواسم عدة، عظام أسماك ميتة تبرق وتختفي مع أول هبّة ريح أو ملامسة شيء لها.

خلع معتوق الخير جلبابه وشكّله عمامة. الجريدة بين أسنانه. وقبل أن يهبط النهر وجد من منتصف النهر عينان صفراوان تنزلجان على سطح المياه تتجهان إليه في تلصص. تمساح صغير. توقف معتوق، أمسك العصا بيمينه. يخشى أن يصدر صوتاً ليخيف التمساح فيسمعه ناس القرية، التمساح يقترب وتتحدد خطوط ظهره وسطح المياه يرتفع عليها ويهبط. هبط معتوق إلى النهر. اقترب التمساح ضرب بالعصا بقوة أمامه وصرخ فيه صرخة مكتومة. فتح التمساح فكيّه وفحّ وهو يلتف فالتف معتوق وأعاد الصراخ المكتوم كأنه زمجرة. يلتف التمساح ليناور وهو يفح ليخيف معتوق، فيلتف معتوق ليواجهه ويزمجر، ارتد التمساح الصغير أخيراً وابتعد.

عندما عاد معتوق، لم يحك لأي أحد ما جرى. لكنه عاد إلي الجبل الشرقي مرّات قليلة. ليس خوفاً من تمساح صغير، أو تمساح كبير خطورته قاتلة، لكن لأن الجبل الغربي وقمة تاج فرعون يستهويانه أكثر.

قَرهانة تعدو في الساحة وعلى ظهرها راضية. معتوق بين شجرتي التوت يضحك. قرهانة تجري في دوائر ثم في خط مستقيم ثم تقف فجأة لتعود إلى العدو فجأة لتنحرف جانباً ثم تعود إلي العدو دائرياً لتميل مرّة أخرى. حتى تكاد راضية أن تسقط من عليها. تصرخ راضية وهي تضحك في مرح.

نَبْرَة تقف عند باب البيت تراقب فرحة لأن ابنتها الحزينة تضحك ولو قليلاً. لكن لمّا زادت قرهانة من شقاوتها وحركاتها، نادت..

- معتوق. معتوق هووي.

أسرع إليها معتوق..

- لا تخا.. في، قرهانة تحب راضية و.. تلا.. عبها فقط. شقيقـ.. تان يا نَبْرَة.

فوجئت نَبْرَة بكلام معتوق فضحكت ثم عادت تغالب ضحكها وتقول..

- معتوق، كفى يا معتوق. يسراها ضعيفة وإن سقطت لن تستطيع حماية نفسها. ليس لي سواها يا بني.

عاد معتوق مسرعاً ونَبْرَة تضحك من إصرار معتوق على تشبيه ابنتها وقرهانة بأنهما شقيقتان! أتى بهما معتوق حتى باب الدار. نزلت راضية من على ظهر قرهانة. احتضنت رقبتها الرشيقة البيضاء وهي تنظر نظرة عميقة باسمة إلى معتوق. نَبْرَة وضعت يد على كتف راضية ويد على كتف معتوق..

- هل تعلمان أنكما أخوان بالرضاع؟

- إيْ.

- إيْ.

- إذن كونا أخوين طيبين.

نظرت راضية إلي أمها في تعجب ثم سريعاً ما تحولت نظرة التعجب إلى نظرة غضب. هرولت تدخل إلي البيت. لم يفهم معتوق ما يجري. تركا قرهانة ودخلا. راضية اختفت في حجرتها. اتجهت نَبْرَة إلى غرفة المطبخ. معتوق يضحك وهو ذاهب إلى غرفة نُوري.

نُوري في جلسته المعتادة في ركنه المعتاد. أصبح في حجم بقرة سمينة. عرقه الغزير بلّل الملاءتين والكليم المفروش تحته. صار جسده كأنه منفوخ. جفناه مكوران، خداه، رقبته، كرشه يثب لأعلى مباشرة من تحت الثديين الضخمين كأنه امرأة حامل في أربعة توائم، ثم يرتاح الكرش العظيم متكاسلاً على الفخذين مغطياً منتصفهما. وإن تعرّى جالساً أو واقفاً، فلن تظهر عورته، فقد انكمشت كبلحة جفت وتخفت بين طيّات شحم الكرش البشع.

رائحة عرقه ثقيلة، لا يكفي ذلك الباب وحده مع النافذة الصغيرة لتجديد الهواء بما يكفي لإزاحة الرائحة المؤذية. جلس معتوق بجانبه. أسفل عيني العمدة اللون أشد دكنة يشي بصريح المرض. نَبْرَة قصت شعر رأسه وذقنه وشاربه. فترة ونُوري مغلق لعينيه ويشخر شخيراً ثقيلاً. دخلت راضية ومعها فوطة نظيفة ووعاء ماء. بدأت تمسح جسد أبيها. توقف شخير نُوري لكنه تكاسل عن فتح عينيه. أحس بوجود معتوق كما أحس بفوطة راضية التي تعوّد عليها..

- معــتوق الخير.. سِسِّي مات. أنا سأموت. نَبْرَة ستموت. بالله.. راضية أختك، راعِها يا بني.

راضية تدمع صامتة. معتوق يهز رأسه بالموافقة.

الحاجز الذي يبنيه معتوق الخير بدأ يتّضح. يرتفع لنصف قامة إنسان بالغ، صــار امــتداده يزيد عن مائه خطوة، عرضه يعطي امتداد الذراعين لرجل بالغ، مســتوى السطح يسير عليه اثنان براحتهما ويجدان أقدامهما تسير بحذاء سطح الــنهر المــتدفق. فــوجئ ناس البلد بذلك العمل.. كيف يفعل هذا فرد واحد ولم يســاعده أحــد! فرد يكاد أن يكون صبياً! معتوق الخير بني هذا الجزء من سوره بدون أن يهمل زراعة الأرض، ولم ينس أبداً لعبه مع حمارته الشابة قُرهانة!

الأطفــال اكتشفوا لعبة جديدة، يجرون على الحاجز الأبيض فما زال مجرى النهر بعيداً عنه. المكان طيني، مياه النهر سوف تأتي لتغمر السور وتزحف خلفه إلى أرض المخاضــة الواسعة شبه المثلثة، ضلعها الأصغر جزء من مخرج خور البحر الجنوبي، وضلعه المتوسط هو الموازي لمجرى النيل، أما الضلع الأكبر فهو الفاصــل بيــن المخاضــة وأرض هاشــم الكيد، لكن القسم العلوي لا تصله مياه الفيضان، حتى مياه الفيضان العالي.

يســائل ناس البلد أنفسهم.. كيف لم يفكروا في بناء هذا السور حتى أتى معتوق الخير ليفكر فيه ويبنيه؟ يقول الشيخ صَلاتو..

-لقــد استصلحنا نحن الأرض العالية. وبعض المخاضات المجاورة للنهر. والعمــدة الكبير استصلح أرضاً واسعة. لكن هاشم فعلها، استصلح أرضاً لم تخطر على بالنا، وأيضاً يفعل معتوق الخير. هذه ميزة الغرباء إن كانوا طيبين. يزيحون كسل العقل وتَعَوّد العادة.

انــتهى مــن عمله وقد كبَسَ عليهما الليل. رفضت قُرهانة الاتجاه إلى بيت هَكيمــة حيــث حظيــرتها. من فوقها يضربها معتوق في دلال على رقبتها. تنفر وتعانده. هبط من فوقها..

-ماذا؟ ماذا؟ لا تريدين أن تنا.. مي؟ بنت مخـــ.. بولة. ستقلق عليك أمـــ.. ك.. . أين. أين تـــ.. ريدين الذ.. هاب؟

تحركت فرهانة هابطة إلى شريط الزرع العريض. ابتسم لها معتوق..

- آهاا. تــ.. ريدين اللـــ.. عب!

يســيران.. أخذتهما أقدامهما ناحية النهر. لم يستطع معتوق مقاومة إغراء مجــرى الــنيل. خــلع قميصـــه ووضعه على ظهر فرهانة، وبالسروال هبط إلي المجرى الهادئ، سبح في هدوء شمالاً. وفرهانة تسير محاذية له. خرج يردد..

- الله.. الله.. الله.

الــتقط قميصـــه وارتـــداه. اقــتربا من غابة فاكهة الكيد. أخذتهما النشوة واحــتوتهما حــلاوة الصمت. انحرفا صاعدين في المدق حيث خُصّ الكيد. سمعا همساً. توقفا. ترك معتوق فرهانة. تقدم ناحية الخُصّ المكشوف الجانب. وعندما أصــبح على بعد خطوة، صرخت بجيوَة صرخة مكتومة. وقف سلاطين يعدل من نفســـه. أســـرعت بجيوَةهاربة واختفت بين الأشجار. سلاطين تقدم من معتوق. عيونـهمـــا تبرق في الظلام تحدق في بعضهما. انفلت سلاطين تاركاً معتوق كاتما غضبه. فإن كان هو قوياً، فقد جرب قوة معتوق من قبل.

بعــد أن تدخل فرهانة حظيرتها وتظن أن صاحبها سيدخل حظيرته، من بعد صلاة العشاء مباشرة، يأخذ معتوق المعول، وكل فعل تعارضه هَكيمة وتحذره من ثعابين الجبل وعقارب، من تربص ذئب وضبع له، لكن معتوق يبتسم لها مطمئناً. تــلوم آبــدون بعــد خروج معتوق الخير، فهو لا يمنع معتوق بالقوة من ذهابه المجنون إلى الجبل ليلاً.

يخرج معتوق، يمر على البيوت غرباً. يسير على بعد من بيت عسل. يصل لسفح الجبل الغربي. يميل قليلاً ثم يصعد. يصعد معتوق ويتخطى الصخور، يصل إلى جــزء معين فيه. تسمع النجوع الكبرى الثلاثة في سكون الليل خبطات معوله الحـــادة وصوت سقوط الأحجار المقطوعة والتي يقذفها معتوق لتتدحرج مكروبة

وتستقر على السفح بين من سبقتها. وكثيرا ما كانت تتداخل أصوات الأحجار المكروبة مع الغنائيات المخمورة التي تَصدُر من رَبْوة مِجيد. وكثيراً ما يتوقفون عن الغناء ليسخروا من معتوق ومن بلاهة هذا اللقيط.

الظهيرة القائظة ونُوري كاره أن يفتحوا له الباب والنافذة، خاصة وهو يأكل. ولولا فانوس معلق يعطي ضوءاً ضعيفاً لكانت الغرفة مقبرة. نَبْرَة تساعد نُوري على تناول الطعام. إناء كبير من الإدام باللحم والعديد من الأرغفة وحزم من الجرجير والبصل، وصينية خوص مليئة بهرم من البلح والفشار وسطل بارد من الكركديه ينتظر. نَبْرَة بقميصها الداخلي عارية الرأس لكي تخفف من خنقة الغرفة وصهدها عليها. تضع اللقيمات في فمه وتثني عيدان الجرجير والبصل لتدفعها في فمه. ترفع له سَطل الكركديه ليتجرع منه. نُوري في جلسته التي يفضلها، تحته الملاءة الحصير. ينابيع العرق تتدفق من مسامه لتنساب جداولاً. شعره وذقنه اختلط فيهما الأسود بالأبيض. نَبْرَة تمسح العرق من جبهته بالمنشفة الملقاة دوماً بجانبه.

فاجأهما صوت أثمان ينادي من الحوش..

- نَبْرَة.. نَبْرَة.

توقف نُوري عن مضغ المحشور في فمه، انتابه الضيق. ربَتت نَبْرَة بيدها على صدره..

- لا تقلق، سأجعله ينتظر.

قامت، فتحت الباب قليلاً وأطلت منه. كان أثمان مقبلاً ناحية الغرفة.

- أثمان، بالله انتظر قليلاً.

أغلقت الباب. استكملت تغذية نُوري. رفعت الطعام إلى ركن بعيد، ارتدت جلبابها، خرجت. كان أثمان تحت السقيفة جالساً. أشارت بيدها أن ينتظر. دخلت غرفة ثم خرجت ومعها دلو ومنشفة وملاءتان. عادت لنُوري، تركت الباب موارباً وفتحت النافذة ونظفت زوجها من العرق. أبدلت الملاءة من تحته بصعوبة ونُوري يساعدها بمحاولة رفع مؤخرته قليلاً. غطت وسطه. نادت أثمان. هو يدخل، هي سبقته خارجه وقد بللها العرق تماماً..

-أثمان، سأستحم سريعاً بقليل من الماء، وأعود إليكما.
دخل أثمان باسماً..
-نُوري، سلامات؟
جــلس بجانبه. ابتسم له نُوري وهو يحرك رأسه محيياً. أثمان يتحدث في أمــور كــثيرة ليس لها أي أهمية، ينتظر عودة أخته ليفتح معهما ما أتى بسببه أصــلاً. عادت نَبْرَة وقد تخلصت من عرقها وشعرها مازال مبللاً تجففه بمنشفة. جلســت أمامهما تمشط شعرها. دار الحديث عن أحوال القرية. أثمان يتكلم ونَبْرَة تــنظر إلى وجــه نُوري، إلى عينيه. تحس بما يدور في باله. تجيب أثمان أحياناً عــندما يفشــل نُوري في إيجاد الكلمة المناسبة. أحسا سوياً أن زيارة أثمان هذه المرّة يقصد بها شيئاً، بان هذا من زيادة توتر أثمان الواضح. ولما استجمع أخيراً شجاعته..
-نُــوري، اســمع يــا نُوري. الموضوع وما فيه.. راضية يجب أن تتزوج أولــوا. راضــية ابنتك وابنتي وأولوا ابني وابنك. من يليق بها ومن تليق به؟ ثم الموضوع وما فيه.. أنه.. إنه..
نُوري رأسه مالت وعلا غطيطه..
-هل حادثتك هَكيمة، أم آبدون؟
-والله يا نَبْرَة، الموضوع وما فيه.. أقصد..
-سلاطين؟
-نعم. سلاطين من شهور يدفعني لأحادثكما في ذلك.
-وأولوا؟
-يريد راضية. لكنه ولد تالف.
-آهاااا.
-لا. لا. لا أقصــد تالف بمعنى تالف. ولكني أقصد بمعنى تالف معنى آخر. بمعنى مدلل. بمعنى.. كلامي يا نَبْرَة..
-أثمان، كيف تقول أنه تالف وتريد إعطاء راضية له؟
-قلت أنا لا اقصد تالف بمعنى تالف.

-أثمان، أولوا ابن أختنا هَكيمة. وأبوه آبدون رجل غال عندي وعند نُوري وعند راضية أيضاً، لكن أثمان.. هل أنت مستريح لذلك؟

- صراحة؟

- إيْ.

- ولا تقولي لسلاطين ما سأصارحك به؟

- إيْ.

- لا.

- إذن كيف تحدثنا في أمر أنت نفسك لا ترضاه؟

- آه، سلاطين يا نَبْرَة.

- اتــركه وتعــال عش معنا هنا. أو اذهب وعش مع هَكيمة. اختر أي من بيتي أختيك وعش مكرماً معززاً فيه. الشر أخذ ابنك تماماً.

- بسببي أنا يا نَبْرَة. ظلمته صغيراً وظلمه ناسنا كلهم.

- تدافع عنه؟

- لا. لا. هذا ما أحسّه في صميم قلبي.

- الحقيقة أن الشر أصلاً داخله. ورثه من خاله.

- لا يــا نَبْرَة. هذا ما يحرق جوفه أيضاً. لا يا نَبْرَة. لا يا عَمّته. لا تجعليه يســمع هــذا القول منكِ ولا من هَكيمة. يكفيه مقولات الآخرين عن خاله هذا. أنا نفســي أعــرف هَمَرين أكثر من كل الناس.. أعلم يقيناً كم كان شرّه وغلّه على الناس. لكن يكفي ما بسلاطين من آلام يا ناس.

- اســمعني يــا أثمان. لقد أرضعته أنا من ثديي، سلاطين ابني. لا أنا ولا نُوري قصرنا في تربيته. عاملناه مثل ابننا سِيــ..

توقفــت عن استكمال الاسم ناظرة إلى نُوري الذي ضربه مجرد نطق حرف من اسم فقيده الوحيد. فتح جفنيه بصعوبة. تغضن وجهه وبدأ في البكاء..

- سِيّي. ابني سِيّي.

خرج أثمان. مرت ساعة زمن ليهدأ نُوري ويغفو.

فـــي الليل نَبْرَة حادثت راضية، الأمر يخصها ولها أن تقول رأيها. رفضت بدون نقاش. ولمّا حايلتها أمها وتقربت بحلو الكلام من قلبها ثم سألتها..

- راضيةَ، وحيدتي، نور عيني. مَن مِن الشباب تنتظرين؟

- ..

- لـــن يجدوا لا أفضل ولا أجمل منك ولا حتى أكثر عِزّة ووجاهة من أبيك العمدة.. من في بالك؟

- لا أحد.

- بل هناك أحد.

- لا أحد.

- بلال.

- ماذا؟ ماذا تقولين؟ إنه..

- ليـــس لك هنا شاب قريب إلى قلبك إلا اثنين.. معتوق الخير وهو أخوك بالرضاعة ولا يحل لك، وبلال صَلاتو الذي تستريحين لحديثه وتقدرينه.

اختلج وجه راضية. تمالكت نفسها سريعاً لكن بعد أن قرأت أمها في وجهها وتيقنت أن ابنتها تميل لبلال.

راضية والحدّة في الحديث، تستعين بهما ليعيناها على الإنكار. قالت..

- إنه مثل غيره. لكنه رزين عاقل متعلم. مؤدب.. أستريح لحديثه.

- تتزوجيه؟

- يو، أمي!

- أستطيع إرسال آبدون ليرى الأمر مع الشيخ.

-لا. لا.

- أو أتحدث إليه أنا حين يعود في أجازته.

- لا، لا. هـــل وصل بنا الحال أن نشحذ عريساً لنا مثلما نشحذ الطعام من بيت هَكيمةلا. لا.

- إنـــنا لا نشحذ. كيف تقولين هذا يا راضية! يساعدنا ناس خالتك بالكثير وليس عيباً أن تساعدنا أختي، وأبوك ساعد آبدون كثيراً.

- يو. أمّي..

- لقــد أتى الشــيخ صَلاتو بنفسه ليخطبك لحفيده. أنتِ من رفضت. لماذا ترفضينه وأنت ترغبين فيه. أنتِ تتمنينه يا راضية، لماذا تقفين غريمة ضد قلبك؟

- نَـبْرَة، يــا أمّــي وأختي. بلال يريد فوزية. كيف أقبله زوجاً وقلبه عند أخــرى؟ الشيخ أتى يستطلع ولم يطلب صراحة لأنه لم يستشر بلالاً. هو يتمنى له راضــية. وأنتِ تتمنين لي بلالاً. وبلال.. فوزيةتحتل قلبه، ولا يُفكر في أي فتاة أخــرى. حتى راضية. أنا بالنسبة إليه زميلة كتّاب، أخت.. فتاة يستعرض أمامها معارفه. فتاة تحب حديثه.. أمي، انسي الأمر.

رغمــاً عــنهما، اضطرا ذات مساء للتوجه وطلب راضية لوحيدهما أولوا. يعلمان، متيقنين أنه لا يصلح لها، وانه مُشوّش النفس مضطرب، وشذوذه معلوم في كل بيت في القرية. بل هما متأكدان أن راضية نفسها تحتقر ابنهما ولا تطيقه. لكــن حبهما الجم لوحيدهما أجلسهما في جلسة عائلية عند نُوري العمدة، جلسة كئيبة في الغرفة الكئيبة مهما جددت هواءها نَبْرَة وراضية وبخّرتاها.

بعد توجس وخجل تكلمت هَكيمة. نَبْرَة كانت تعلم بما سيطالبان به وصمتها كــان رفضــاً اضــطرارياً. لكن هَكيمة طلبت منها أن يجيئا ويفتحا هذا الموضوع المحــرج أمــام نُوري حتى يعلم أولوا أن والداه فعلا كل ما باستطاعتهما. نُوري توتــر محرجاً، فهذا هو آبدون جوش، من أحب الناس إليه، وهذه هَكيمة كُورنة، أخــت زوجــته والتي يحبها كشقيقة له، خالة راضية ابنته. المحبة له.. إنه لا ينســى، لقــد كان هو نفسه. نُوري، أحد الشباب الذين أصابوها في كرامتها من مواسم طويلة مضت، كان أحد الشباب الذين تكالبوا على نَبْرَة، أختها الأصغر منها تاركين هَكيمة بوصة كخيال مآتة لا يُنظر إليه. كم كانت تتألم هَكيمة أيامها، لكنها لم تحقد لا على أختها ولا على المفتونين بها. راضية حذّرته. ابنته ترجتّه مراراً وتكراراً ألا يوافق لو طلباها يوماً لأولوا. إنها تحتقر أولوا بإصرار.

نُوري صدره الضخم يحشرج، العرق الغزير ازداد هطولاً على شحمه. عيناه من يراهما يحتار.. هل هو على وشك النوم أم على وشك الاستيقاظ؟ تمسح نَبْرَة

عرقه بالمنشفة وهو يحاول أن يبتسم في بلاهة. وفي النهاية اضطر أن يهز رأسه رافضاً.

عـادا إلى دارهما في خجل وألم. أولوا يجلس على مصطبة البيت، ينتظر. أسرع إليهما. وضعت هكيمة يدها على كتفه الذي صار بطول كتفها، أخذت رأسه ناحيتها. آبدون ينظر بعيداً ويتجنب ابنه.

انتصف الليل. آبدون وهَكيمة تحتْ السقيفة ممددان، لم يناما. أولوا لم يعد إلى الـبيت بعد. أكيد يسكر ويتخدر ليخرج غضبه وغصّته. وحيدهما يتألم، يتألم طـوال عمره وهو الآن يغرق في الألم تماماً، سينهار وسيفقدانه تماماً إن استمر به الحال في هذا الانحدار. هَكيمة يذوب قلبها حسرات. كانت تتمنى راضية لابنها كـي يهدأ قلبه وربما أعانته على الإفاقة من آلام نفسه المحبطة. تعلم أنه يريدها بقوة. تحس بأولوا منسحقاً أمام هزال جسده وخوار عافيته، منسحقاً عندما يقارن نفسـه المعقـدة بجوار فطرة معتوق الجارفة، وقوة سلاطين ابن خاله وسطوته وذكائـه. ابنها مُعذب ولا تستطيع أن تساعده لا بالمال الذي نما عندها ولا بحبها اللامحدود له.. وحيدها المدلل المسكين.

آبـدون لا يقل حَسرة عن هَكيمة. مـال برقبته الطويلة ناحية زوجتـه يشكو لها..

- لو لم يكن ابني شا.. ذأ، لو كان عادياً، لو كان غير ما هو فيه من عار، لو كان مثل بقية الشباب،لكان تزوج راضية ولكان أخذ بنا إلى قرب العمودية على القرية والسُؤدد في القبيلة، ولأراح قلبي وأراح قلب أبي موسى جوش في قبره. فقط لو كان سوياً ولم يكن.. ولم يكن.. مثلما هو كائن.

أخذت هكيمة رأس آبدون في صدرها. تبكي ولا يستطيع هو البكاء ليرطب حـرقة جوفه الذي يغلي حسرة. يحادثها ويخرج صوته مكتوماً فحيحاً وقد ضغط وجهه بين ثدييها..

- ترفضه ابنة خالته في مهانة. يسير كما ذيل حقير خلف سلاطين شرّين. صديقه وعشيقه.

نهـــنهة هكيمـــة تتصاعد. تمالك آبدون نفسه. قام. أخذها من أسفل باطها لتقوم..

- هيا ننام يا هكيمة. اتركي الأيام تربيه.

- الأيام تفسده أكثر.

ديوانـــة مســـكين تجـــلس وحدها على الطرف البعيد لمصطبة البيت، وقد انكســـرت حدّة الشمس، وإن كان ضياؤها مازال يحوي السُخونة. رمال الطرقات وكثـــبان الـــرمال العالية في لون الكهرمان شديدة اللمعة كأنها مرايا تكاد تعكس ضوء الشمس بكامله.

ديوانة في مكانها، أحاديث نفر من الرجال أمام دكان زوجها، تصلها خافتة باهتة فلا تزعجها في هدوئها. لا تجالسها أي سيدة، وإن جالستها لا تطيق دقائق معدودة ثم تترك ديوانة مسكين وتبتعد. لا تحب الحديث ولا الحكي ولا الضحك ولا حـــتى الـــندب والـــبكاء. ترتاح خاصة مع هكيمة التي تجالسها طويلاً ونَبْرَة التي حملت هم موت ابنها غريقاً ومرض زوجها وشحوب شباب ابنتها، فلا تجد الوقت الكافي لتجالس صديقتها ديوانة.

هـــذا العصـــر، أتت نَبْرَة. تقترب من ديوانة في خطواتها القصيرة البطيئة. تراقـــبها ديوانـــة. تقيـــس بدن نَبْرَة الذي هزل من بعد امتلاء كان حلواً. وجهها الباهت الذي يبعث الانكسار من بعد حيوية وحب للدنيا وجمال مشع اشتهرت به..

-ديوانة، ماس-كاج-نا؟

-..

جلست نَبْرَة بجانبها بعد أن ألقت السلام ولم تجبها، فقط تنظر نظرة حب في وجه نَبْرَة. دقائق وأخذت نَبْرَة تحكى لديوانة خوفها أن تكون هكيمة غاضبة منها بســـبب رفـــض زواج ابـــنها من راضية. أطالت نَبْرَة في التفاصيل والحزن كاس وجهها. ديوانة تهمس ببطء..

- نرسل إليها.

أتـــت هكيمـــة. الغروب كسر حدّة الشمس تماماً. وقبل أن تجالسهما قامت ديوانـــة وأشـــارت إليهما أن تتبعاها. في حجرتها النائية أنارت ديوانة فانوساً ثم جلســن أرضاً على الحصير. الحرج بين الأختين. ابتسمت لهما ديوانة، ما تتحدث به بعينيها وإشارات يديها يغني كثيراً عن قولها باللسان. مالت هكيمة على رأس نَبْرَة واحتضنتا بعضهما. تصبّرها هكيمة..

- الزواج قِسمة ونصيب.

أحاديث بين الأختين تلطف حرجهما. ثم تكلمت هَكيمة..

- من لراضية؟

- الله يعلم.

يـــتحدثون عـــن الشباب المناسب لها. لا أحد يتجسد في البال. وكل من هو لائق بها يجدونه مفتوناً بفتاة بعينها يتمناها زوجة. قاطعتهما ديوانة..

- خيشة تريد فَيّاجاً..

- لمن؟

- بهيّة.

- حادثتك؟

- إيْ.

- وفَيّاج يريد من؟

- ابنتك.

- راضية!

- لكن، لقد رفضته راضية من قبل!

- لم ترفضه هو.

تدخلت هكيمة..

- رفضـــته لأن مُهـــدي يريدها صفقة، لقد أشار إلى العفودية صراحة في حديـــث. زوجك يا ديوانة يحسب كل شيء بالمال والأعمال فقط، كيف قضيت معه كل هذا العمر يا ديوانة؟

- ما كان كان.

- ابنـــتي وأنـــا أعرفها. رفضت شاباً آخر من عائلة نُوري، لأنها تعلم أنه يـــريدها درجـــة سلم للعمودية. ولنفس السبب عندما أتى لنا مُهدي، رفضت لأنها ليست بوابة لمن يريد العمودية. لم يكن رفضها لأنها ترفض فيّاج.

- نَــبْرَة. أنـــا أعرف أن ابني فيّاج يريد راضية. ليس لي أنا دخل بأطماع مُهدي الديوث.

اتفقت النسوة الثلاث على بقاء الأمر سراً بينهن حتى تستطيع نَبْرَة استمالة راضـــية إلى القبول. وقبل أن تتركاها. أخذتاها في حزم المحبتين لها إلى الحمام. خلعـــتا عـــنها ملابسها. غسلتا جسدها الذي نحل أكثر وأكثر. ديوانة بقيت طوال حمامها مستسلمة في ضيق وعيناها مغمضتان حتى لا ترى جسدها.

الـــنهار.. تسلل الأشرم، يتحدث مع هُوشَة. يخشى أن تراه كِسبانة. هُوشَة مســـتندة على جذع نخلة في حقل أبيها. تتخفى أكثر من أختها المشغولة في ركن من أركان الحقل. تبتسم للأشرم والرسالة الشفهية التي يحملها. من تحت أرجلهم مرق حيوان الوَرَن شبيه التمساح بطول نصف الذراع وذيله النصف الآخر، عبر مســـرعاً يطـــارده وَرَن أكبر منه. صرخت هُوشَة فزعة، ولما عبر الوَرَن الأكبر احتضـــنت أمرُ الله ليحميها. لحظات ثم خجلت من خوفها ومن احتضانها للأشرم. تركته وهو يبتسم سعيداً أنه كان حماية لها وأنها التصقت به. نظرت هُوشَة حيث توجد كِسبانة، آتية مُهرولة على صرختها من بعيد. أسرع أمرُ الله الأشرم مبتعداً. يحني جذعه القصير ويحجل في خطواته المشوهة.

فـــي منتصف الليل، صَحت نَبْرَة وراضية فزعتين من خوار نُوري. أسرعتا إليـــه. كـــان محشوراً في باب غرفته،يكاد يختنق والعرق يسيل بغزارة من أنحاء جسده. أسرعت راضية تصرخ خارج الجدار..

-يا أهل المروءة يا هووي. يا أهل المروءة يا هووي.

الخفيـــر الذي يلازم البيت ليلاً كان الأسرع عند العمدة. ثم أتى ناس البيوت المجـــاورة أولاً. خـــوار العمدة به حشرجة نزع. حاول الرجال دفعه إلى الداخل، حـــاولوا سحبه إلى الخارج فكان يزداد انحشاراً وألماً، خواره وحشرجته يزدادان.

بـــال عـــلى نفسه وضَرّط. يتماسك واقفاً حتى لا يسقط بثقل جسده ويسلخ بأنياب الـــباب. وصـــل آبدون. نَبْرَة طالبت بإبعاد السيدات لتخفيف الموقف المخزي على زوجهـــا. أبعـــدوا فانوســـاً ولم يعد إلا فانوس واحد منير من على بُعد. يسحبون الملاءتيـــن مـــن عـــلى جسده فصار جسد العمدة عريانا. يرفع وجهه إلى أعلى مغمضاً عينيه خجلاً من موقفه المخزي. خواره الضعيف مبتل بمرارة وبمهانة.

أتوا بسلطانية سمن، آبدون يدهن كرشه وصدره ومؤخرته. معتوق وأثمان يدفعانـــه إلى الداخل برفق حتى لا يتسلخ لحمه وشحمه. فترة وخلصوه من مأزقه فسقط على جانبه داخل الغرفة مثل كائن خرافي أطرافه مضغمة في بعضها.

تـــركوا نَبْرَة ومعتوق يغسلان جسد العمدة ويضمدان تسلخاته ثم يجففانه. أتى خفيران مع معتوق وأضجعوه في مكانه. تركوه ينهنه ومازالت دموعه تجري لتختلط بعرقه الطازج.

نـــاس النجع يتفرقون كل إلى طريق والفجر يتصاعد آذانه، أتعستهم تعاسة وخـــزي عمدتهـــم، يدعـــون لنُوري بالراحة موتاً فيريح نَبْرَة وراضية. وقبل أن يبتعدوا عن البيت انطلق خوار نُوري العمدة قوياً..

-عاااا.. عاااا.

العمـــدة حـــي ميـــت. ميت حي. ولأنهم ناس الأصول كما يحبون أن يدعوا أنفســـهم، لـــم يحاول أحد أن يأخذ خطوة علنية ليمتطي المنصب ونُوري في هذه الحال ومازال يُدْعى بين الأحياء. لكن الأمر كان يقلق أكثر ما يقلق الشيخ صَلاتو، وإن جـــالس إسْـــهاج وآبـــدون خاصة، وتكلموا عن أحوال القرية المتغيرة وحال العمـــدة المتدهور، يتداعى الحديث حتى يقارب النقطة الحرجة.. العموديّة.. ومن لها؟ يتوقف الكلام في حلوقهم، ينظرون في عيون بعضهم، يريدون الخير للعمدة والخير في أن يدبروا شأنهم، لكن.. كيف والعمدة حي يشغلهم العمدة التالي!

أمـــا سلاطين فمازال يدعو بطول عمر العمدة موسمين أو ثلاث، وحينئذ له أن يموت، فيكون سلاطين قد تقدم في السن قليلاً ودخل مشارف تمام الشباب، فلا ينظر إليه أحد كأنه صغير السن، فيتفادى نقطة الضعف هذه. وأيضاً تكون ثروته قد ربَت واستكمل خنق أكثر ناس البلد واستعد تماماً ليكون هو.. سلاطين العمدة.

الكل يعلم أن سلاطين شرّين صار أغنى ناس القرية. ذلك الصبي المكروه. والكل يعلم أنه سيكون إن لم يكن، المحرك الأساسي للقرية. لكن.. مازالت هناك بقيـــة مـــن تقاليد قبلية فطرية، مازال الناس يتصرفون كما كان آباؤهم وأجدادهم يتصـــرفون. يتكلمون معه ويعاملونه ببساطة،لا يعطونه تبجيلاً يليق بمقامه الذي تسلق إليه عنوة.

وحين أتت مراكبه الثلاثة التي اتفق عليها مزينة بالبيارق الملونة، ورست فـــي مرسَـــى صخرة دُجُرْ، كان على ظهر الثالثة، عشرة أنفار من رجال الصعيد الأشـــد، الأشرم يستقبلهم. الشمس مازالت في بداية يومها. الأشرم وأثمان وسط الأنفار. الكل ينتظر وصول سلاطين. أتى على ركوبته وعلى جانبيه الشابان اللذان صارا ملاصقين له. سلاطين وسط الصعايدة لا يقل عنهم قوّة جسد، لا يدانيه في الصِبا والقـــوة إلا شاب واحد من مجموعة الصعايدة. عرفت مجموعة العاملين الصبـــعايدة أن ســـلاطين هـــو صاحب العمل، وهو من سيعطيهم أجرهم. لكنهم لم يعطـــوه الاهـــتمام والاحترام الذي كان يتوقعه. فهو في نظرهم مجرد شاب صغير شاربه مازال خفيفاً، بل انهم استاءوا.. كيف يتصدى للكلام والاتفاق معهم وأبوه موجـــود؟ بـــل كيـــف يكـــون هو صاحب العمل أصلا وأبوه حيّ؟ كانوا أقرب إلى الاستهانة. قرأ سلاطين ذلك في صفحات وجوههم النحاسية وتعبير عيونهم. ضاق بهـــم وبعمـــائمهم الصغيرة وجلابيبهم المقلمة الباهتة، كره منظر أرجلهم الحافية واحتقر فقرهم الواضح وأهمل صلابتهم الأوضح.

قادهم أمرُ الله إلى القرية. يسيرون خلفه متعجبين من أشجار السنط الغزيرة المطلّة على أغلب الضفة، ومن النخيل الكثيف النضيد، وغزارة أسراب العصافير التي تملأ الفضاء زقزقةً، وجماعات البجع تطير وتهبط بين أبسطة الزرع وسطح الـــنيل العريض قريب من جماعات البط المتنوعة وثنائيات وفرادى أبو قردان في

أعـــداد لا تحصى مختلطة بمالك الحزين في وقاره، ومن الأجواء العالية صيحات الصقور والنسور وحدآت سوداء تطير في دوائر قريبة من أعالي النخيل.

اعتـــلوا التلال حيث نجع أورِّك، ينظرون إلى البيوت الواسعة المزركشة في دهشة. الدروب والساحات الواسعة ذات الرمال الصفراء النظيفة. النساء والفتيات الكواعـــب ســـافرات الوجوه لكنهن يبتعدن عن طريقهم في تَرَفّع. الأطفال كَوّنوا جوقة تسير خلفهم يقلدون حركاتهم وكلماتهم العربية حتى أضحكوهم. كلما مرّوا عـــلى رجـــل أمام منزله القوا عليه السلام رافعين الأيادي في احترام واجب، لكن رجـــال القـــرية يحيونهـــم في فتور وعدم ارتياح، إنهم ليسوا من سلالات نوبية. والمقـــلق في الأمر أنهم ليسوا مجرد فرد، بل جماعة رجال أشداء وأغراب! إذن هـــم أكثر خطراً من تركهم يجوسون خلال دروب القرية. وعليه يجب أن يظهروا الاستهانة والغلظة ليضعوا في قلوبهم الرهبة.

سَيِّد هَربيّة بمجرد أن أتى، كُلّفَ بالعمل. أسرع على حماره إلى دكان مُهدي ساحباً حماراً آخر خلفه. قاد حماريه ليقف بهما تحت ظل شجرة الكافور. نادى..

-مُهدي. مُهدي هووي. مُهدي. تعال هنا يا مُهدي.

تـــرك مُهـــدي زبوناً. جاءه مُهدي حيث هو وهو في حال بين الغضب وبين الـــتوقع الحـــذر أن يكون سَيِّد هَربيّة سيطلب طلبات عديدة، وإلا لما تكبّر وترفع هكذا.

-ماذا تريد يا سَيِّد؟

سَـــيِّد هَـــربيّة يشمخ بأنفه وينظر لمُهدي من عُلو مميلاً رأسه يمنة ويسرة معدداً طلباته..

-دقيق، سكر، شاي، دخان، زيت. فحم، وزنبيل بلح.

نســـي مُهـــدي الزبون المنتظر. لكن الزبون لم ينزعج، لم يحتج، يريد أن يراقب ما يجري. مُهدي أعد كل ما طلبه سَيِّد سريعاً. حمل أربعة زنابيل ثقال وقد ربـــط أياديهـــا معـــا، وعلق كل اثنين منهما على جانب من جانبي الحمار الثاني. وثلاثـــة زنـــابيل أخر ربطها معاً ووضعها على ظهر الحمار أمام سَيِّد هَربيّة. ثم وقف يبتسم له..

-أي شيء آخر يا بني؟

-لا. والآن.. حسابك؟

أعطـــاه سَــيّد هَربيّة مطلبه بدون فِصال. عدد من الريالات الفضية. أمسك مُهدي بالريالات غير مصدق، لقد جاءه دخل شهر بكامله في صفقة واحدة. وسَيّد يحث حماره على الالتفاف قال..

- مُهدي. اسمع يا مُهدي.

- ماذا يا بني؟

- اســتعدّ لــي، املأ دكانك بالطلبات من كل نوع فأنا سوف آتيك كثيراً. لو مــرّة واحدة، مرّة واحدة لم أجد ما أريد، قسماً عظماً أذهب أشتري من أي قرية أخرى مهما كانت بعيدة وأتركك.. أسمعت؟

- اطمئن، كل ما تطلبه ستجده.

- واسمع أيضاً. أنا أعلم أنك سرقتني في ريال على الأقل. لكن سلاطين قال لــي اتــركه يسرقك. وأنا بناء على رجائه لي، تركتك تسخر مني. لكن.. والله لو كان سلاطين تركني، لكان لي معك شأن آخر يا مُهدي يا أصفر.

نخس الحمار الذي تحته فأخذ طريقه عائداً والثاني يتبعه. سَيّد هَربيّة على ظهــر حماره يبتعد رافعاً ذقنه لأعلى في تيه وكِبر. مُهدي يبتسم وهو يتابع ظهر ابن هَربيّة، يحادث نفسه..

- سلاطين شرّين يفي بوعده. موسم واحد أبيع فيه كل يومين صفقة كهذه، أجمع ثروة تعادل ما جمعته طوال حياتي!

تذكر الزبون الذي تركه. عاد إليه متثاقلاً، بادره الرجل في تلهف..

- اشترى منك بكم ريال؟

غضب مُهدي غضباً مبالغاً فيه، وأعطى الرجل درساً في عدم التدخل في أعمال الغير، وبين له أن الأرزاق على الله وليس من الدين النظر في نقود الغير. ثم أحضر له ما طلبه وألقاه في استهانة.

في بيت أثمان كُورنة الصعايدة يجلسون تحت السقيفة. أثمان يحاورهم بالعربية المكسّرة، ويعيد ويزيد لإفهامهم أعراف وتقاليد القبيلة. يعطيهم فكرة سريعة عن مهمتهم.

أمرُ الله ذهب على حماره إلى عدّة بيوت، يحاول أن يشترى منهم طيور وسمن ولبن. الأمر كان مفاجأة، فلا بيع ولا شراء لمثل هذه الطلبات في القرى، فالنجع كله يشارك في إطعام الغرباء، فلماذا يطلب الأشرم الشراء! بل يزيد ويطالبهم بأن يأجروا له من الغد حميرهم مقابل قروش فضيّة! رفضت البيوت البيع واستهجنوا الأشرم. لكنه يصر على الشراء ويرفض أخذ شيء بدون مقابل. وجد بيتين باعا له نقداً، قروش فضية قبضوها غير مصدقين. ثم وجد بيتا فقيراً أرسل فتاة صغيرة لتقوم بإعداد الطعام للأغراب طوال فترة إقامتهم. أخذ ناس الفتاة ريالاً فضياً ثقيلاً منقوش عليه صورة للرجل الضخم الفخم العظيم!

وحين تكسّرت أشعه الشمس في العصر، وأكل الغرباء واستراحوا، خرجوا لمهماتهم حاملين أدواتهم، اتجه نصفهم إلى نفس المنطقة في الجبل الذي كان معتوق يكسر منها أحجاره لزوم بناء حاجزه. صعدوا، خلعوا جلابيبهم، صاروا بسراويلهم الباهتة وهي أطول قليلاً من سراويل رجال القرية، وقمصان داخلية بلون الغرين المحمر طويلة الأكمام. انشغلوا في العمل فوراً. ضرباتهم بالآلات الحادة ضربات سريعة قوية. حديد يضرب في صلد الجبل فتنبعث أصوات الضربات رنّانة تنطلق طائرة فوق بيوت القرية لتعبر بحر النيل إلى الجبل الشرقي ثم ترتد صدى أعمق وأصفى.

نصفهم الآخر هبط إلى الحقول، ثم إلى صخرة دُجُر حيث ينتظر سلاطين مع الشابين اللذين أصبحا تابعين له تماماً كأنهما خفيران. شرح سلاطين ماذا يريد..

مبــنى مــن غرفتين، غرفة صغيرة للقيلولة والسهر. وغرفة أكبر للعمل، الجزء الــباقي مخــزن عبارة عن حوش له باب واحد وسقف من أوصال جذوع النخيل يغطــي جانباً من الحوش. استمعوا له وسريعاً خلعوا جلابيبهم وانهمكوا يسوون نتوءات الصخرة بأدواتهم الحديدية. سلاطين يراقبهم في إعجاب وغضب. أقوياء لكــنهم لا يعطونــه الاحــترام اللائق بوضعه الجديد. مازال في نظر الناس شاباً صغيراً.

أيام قليلة سوّيت الصخرة. وعلى ظهور الحمير الخمسة المؤجرة من ناس القــرية، أتت الحجارة من الجبل لزوم البناء. والبناء يعلو ويعلو سريعاً. أغنيات العمــل الصعيدية. أغنيات لا تماثل الأغنيتين الحزينتين اللتين سمعوهما من هاشم الكيد. أغانيهم قوية متدفقة سريعة. بدأ ناس القرية يتعودون عليها وعلى أسراب العمـــال وهــم يذهبون كل صباح إلى الموقعين ويعودون ظهراً إلى بيت أثمان ثم يذهبون مرّة أخرى بعد انكسار حدّة الشمس لمعاودة العمل الشاق المرهق.

مَــن مانع في بيع الدواجن والبيض والسمن وغيرها بحجّة أن البيع عيب وأن إطعام الغرباء واجب قبلي جماعي، بدأ يراجع نفسه.. الغرباء ليسوا ضيوفاً، إنهم عمال جاءوا للعمل لفترة طويلة، وتكاليف إقامتهم من تكاليف العمل مثلما قال أمــرُ الله الأشـــرم. باعوا.. تنافسوا في البيع،بل إن بعض الأطفال حملوا بضاعة بيوتهم حتى بيت أثمان يعرضون البيع على أمرُ الله وسَيِّد هَربيّة وأثمان. عرضوا أنفســهم وحميــرهم لــنقل الحجارة من الجبل حتى الميناء. تولى بعض الصبية توصيل المياه إلى الصعايدة خلال عملهم المرهق. ناس نجع أورّك خاصة امسكوا بالــنقود الفضية في أياديهم في دهشة وعدم تصديق. ومن باع لأتباع سلاطين أو عمل في خدمة عماله، صار يذهب إلى دكان مُهدي يشترى ما كان يريده من قبل ومالا يريده. وكان الدفع نقداً وليس بالأجل لأول مرة في القرية.

جــلس ســلاطين مــع أكبر البحارة الكنوز عمراً. كنزي عجوز خَبَرَ النيل ودرسه تماماً بإبحاره فيه صعوداً وهبوطاً طوال عمره المديد. سأله فقال..

- ميناء حلفا عند الجندل الثاني جنوباً. منه تأتي بضائع النوبة العليا وناس كــردفان وبَرْبَر. وقبائل دارفور، وأيضاً ما يأتي من قبائل التَكْرُون.وميناء سُوين

عــند الجــندل الأول شمالاً، منه نبتاع بضائع بر مصر، وبينهما ميناء كوروسْكو وفيــه تســتريح المراكب الكبيرة وفيه سوقها ملتقى تجارة النوبة وقوافل الجَبّالة والســودان كلــه، حيث أكبر سوق يقطع درب الجمال الذي يمر على أغلب قرى النوبة.

- وكيف أجعل ميناء صخرة دُجُرْ أهم من ميناء كوروسْكو؟

- تبني رصيفاً. تعمّق المياه تحته. تصنع ساحة لقوافل درب الجِمال وتغري التجار بالحضور.

- كيف؟

- بإيجاد كل ما يحتاجونه. أحواش وحظائر لجمالهم وأعلاف. أماكن يبيتون فيهــا إن اضــطروا. طعــام طازج. دكان يبتاعون منه طلباتهم الصغيرة، مقهى يجلســون فيــه ويــتفقون على صفقاتهم.. بعض السهرات البريئة وغير البريئة تجذبهم من آذانهملكن.. كل هذا لا يضمن. إنها مغامرة.

- والحال في التجارة ما بين سُوين وحلَفا؟

- كــل خير، وأنت وشطارتك. والأهم، أن يجد أصحاب القوافل مصلحة في المرور على قريتك.

أيام وكان بضعة رجال يتجهون مبكرين لأسفل رَبوة مِجيد خلف بيوت نجع أورّك عــلى حَــدّ دَرب الجِمــال القديــم. يحدّدون بأحجار حدود واسعة لحوشين مــتقاربين. ثم على العديد من الحمير يأتون بأجولة الطين الجاف. ومن أقرب بئر يــأتون بالميــاه. وفــي أيام ثلاثة بعملهم المستمر إلا حين الظهيرة حيث الغذاء وراحــة القيــلولة، يتم بناء أسوار الحوشين ثم في اليوم الرابع البابين استكملا. وأجــر العمال فضّة. وأجر كل حمار فضة. وصاحب البئر له فضّة. لذا كان العمل متدفقاً بالحماس.

لــم يفــت هذا مُهدي وابنه. وتحمسا هما أيضا لحجز مكان لحوش، وكما ســبقهما ســلاطين في اختيار أفضل الأماكن لما سيكون، سبقهما واشترى بضعة

قــراريط من الأراضي الزراعية التي ترقد أسفل البيوت مباشرة، والموازية لدَرب الجِمــال، ولا تفصلها عنه سوى الساحة الكبيرة التي تطل على بيت العمدة. وهي أرض لا تطولها مياه الفيضانات العالية ثم تركها مهملة إلى حين.

أمــرُ الله أبــلغ ســلاطين بأن وجود الصعايدة وسط النجع يضايق البعض، ويونــس المجــبّراتي أعــدّ بعض الشباب والرجال استعداداً لافتعال مشاجرة مع الصــعايدة. وســلاطين نفســه لم يحب الصعايدة، جعلهم يبنون أخصاصاً بجوار صــخرة دُجُــر ليبيتوا تحتها. أما الملاحين الكنوز الذين أتوا لبناء أسقف حجرتي صخرة دُجُرْ، وان كانوا أغراباً عن ناس القرية، فهم نوبيون من قبائل نوبية، لهم أن يبيتوا في بيت أثمان. ولهم أن يسيروا في طرقات النجع. وكان للبحارة الكنوز الذين أتوا تباعاً نفس الحرية.

بعد انتهاء عملهم ذات ليلة، زار الصعايدة حاجز معتوق. شاهدوه يعمل وقد قــارب الــليل منتصفه. حادثوه فحادثهم بصعوبة. قال إن صعيدياً مثلهم هو الذي عــلّمه. قــالوا أنهم سمعوا عنه لكنه يرفض أن يزوروه. عادوا إلى أخصاصهم. ولمــا ســألهم سلاطين عن الحاجز قالوا إن معتوق الخير يعمل بطاقة مجموعة رجــال، وإن مـــا يصنعه سور متين، لكنه ليس مشذباً تماماً. أمّا فكرته، فسوف تنجح. قال سلاطين كاتماً غيظه..

– ستبنون رصيفاً لميناء دُجُــر، مينائي. ويجب أن يكون الرصيف الخاص بي أقوى وأجمل من حاجز معتوق.

حاول الصعايدة أكثر من مرّة أن يزوروا هاشم الكيد، رفضت بجيوَة. ولما دخــل أثمــان عــلى الكيد لإبلاغه برغبة الصعايدة، رفض هو الآخر. وبقى على رفضــه حــتى رحــلوا بعد انتهاء عملهم ولم يعرفوا من أي قرى الصعيد جاء؟ ولماذا؟

القــرية ينقلب حالها سريعاً. ميناؤها تبدل، وتمناء الغرفتين المتلاصقتين، والحــوش المســقوف نصــفه على صخرة دُجُر. وعلى الجرف تجسّد الرصيف الأبيض الطويل العريض. وعلى أطراف النجع عند خور البحر، صار حاجز معتوق الخيــر واضــحاً بــبياض حجارتــه الذي يشي بأن هذا المكان هو الآخر سيتبدل وستنمو فيها الخضروات والأشجار والنخيل وستزدهر الزراعات فيه بالخير.

السيدات يذهبن بأرجلهن باحثات عن الأشرم وسَيّد هَربية، ليعرضن عليهما الدجــاج والحمــام والبط وفخاريات السمن واللبن الرائب، بل والماعز والخراف بأسعار ينافسن فيها بعضهن. وعندما لام بعض الرجال أزواج تلك النسوة فوجئوا بأنهم يعلمون بأمر زوجاتهم، دافعوا عن نسائهم قائلين مقولة سلاطين..

- إن فوج الصعايدة ليسوا ضيوفاً، بل هم عمال أجَراء.

وتحــت الــلوم القاسي، الفتاة الفقيرة التي تعمل في إعداد طعام مجموعة عمّــال الصــعيد، اضــطرت أن تترك عملها، رغم أن صبياً يقوم بإيصال صواني الطعام للآكلين وليست هي. اليوم التالي لذهابها، أتت فتاتان مكانها!

صَلاتو وآبدون ثائران. آبدون ترك رحلاته السياحية إلى القرى القريبة وكل يــوم يــزور صَلاتو ليتشاورا. يشاركهما الحماس عدد من الرجال، خاصة يونس المجــبّراتي، فهــو وإن كان ليس ذا شأن كبير مثل صَلاتو أو آبدون، إلا انه أشد حدّة وأغلظ لفظاً، فهو موتور من هَمَرين خال سلاطين شرّين وصِنوه، هَمَرين من انتقم منه، وأوحى إلى زوجته فأتته تسعى في ليل فنالها، ليس لجمال تمتلكه، بل نكاية في يونس الذي استخدم غوغائيته وقدرته على إثارة نعرات قبلية عنصرية وصــوته الجهوري على إشعال حماس الناس، فيونس غوغائي مخضرم، يضيف مــبالغاته الــتي تحتوي على الكثير من الكذب المُعالَج ببعض من الصدق النادر. يونــس ألقى بكل ثقله وإمكانياته ضد سلاطين شرّين، يحرض الناس في النجوع الثلاثة لوقف معاملاتهم مع سَيّد هَربية والأشرم. ذهب إلى هَربية لتمنع ابنها من اتباع سلاطين. وقف في طريق الأشرم ليضربه لكنه هرب منه وهو يعرج.

وفـــي ليلة، ذهب أمرُ الله الأشرم إليه. يونس يستعد للنوم. وقبل أن يمسك بالأشـــرم ليضـــربه، يتكلم الأشرم سريعاً ليتفادى أذية يونس لـه. . يونس مع كل جملة يقولـها أمرُ الله يهدأ حتى سَكَن تماماً وأخذ يستمع للأشرم..

- جئـــتك بخيـــر وافر يا يونس فاسمعني، ريالات فضية، فاسمعني قبل أن تـــتهور وتخســـر الكـــثير، تجبيرك الكسور وتشريطك المرضَى وحجامة العجائز وحلاقة الرؤوس وغيرها، لا تأتي لك بالرزق الذي يناسب مواهبك. والقرية ليس بهـــا خـــائط للملابس. كل بيت يخيط لنفسه، آبدون وأمثاله يخيطون جلابيبهم في كوروسْـــكو أو تأتيهم بالتوصية جاهزة. وأنت تخيط ملابسك جيداً. كلنا نشهد لك بذلـــك. لماذا لا تكون أنت خائط القرية؟ ومقدما.. نريد ثمانية جلابيب، أحدهم لي والآخـــر لسَـــيّد هَربية. وبعض الشباب الذين يعملون لدي سلاطين. الأقمشة عند مُهـــدى. تشـــتري بثمن وتحسبه علينا بثمن أكبر. بالإضافة إلى سِعرك العالي في التفصيل نفسه. أليس هذا أفضل من عملك الحالي؟ ثمانية جلابيب تربح منها على الأقل ريالين فضة! بدلاً من الانتظار لموسم البلح ليعطيك حقك من عالجتهم ومن حلقت رؤوسهم طوال الموسم. مجرد حفنات من بلح وهم غير راضين! وبند آخر هام.. سلاطين سوف يتيح لك فرصة لتدخل في التجارة، بل هو قد اختار لك شيئاً ما سوف يُغرقك في المال. ثم.. لا نقول لك اترك مهنتك التي أنت فيها، بل زد من أعمالك. زد من مكاسبك.

يونـــس أفاق لنفسه الكارهة ولا يصدق حديث الأشرم تابع سلاطين، اندفع يسَـــبّ أمـــرُ الله الأشرم ويطارده خارج بيته ولا يحاول الإمساك به، ربما حديثه صـــحيح! لم يستطع النوم بسهولة. ولم يستقر على رأي في عَرض أمرُ الله إلا بعـــد ليلـــتين، حقـــده الشخصي لما حدث سابقاً، أم طموحه الشخصي لما سيكون لاحقـــاً؟ رنين الفضة الذي تخيله أخذ تلابيبه. مياه طوفان تطفئ نار غلّه من زنا الساحر في زوجته، مع وسواس سُوس دائماً ينخر كبده، إن زوجته ربما.. ربما كـــانت غيـــر مجبورة للذهاب إلى حيث الساحر. فقد ظهر منها مراراً عدم رضاها التام من انشغاله بعمله وعدم لهفته الجسدية لجسدها. قالت له في نوبتي غضب..

- إن كنت في نظرك قبيحة، فلم تزوجتني؟

يحــرقه إحساسه بأنه مظلوم في القرية القبيلة، وأن مواهبه لم تأخذ حقها تــبجيلاً ومكانة وسط الناس. صار يحلم ويتعجل.. متي يمسك بالفضة الحرّة بين أصابعه؟ متي يدخل في زمرة كبار القبيلة؟ ولمّا ذكّرته ذاكرته بأمر مُهدى له، أن يتصاعد في تجريح سلاطين وأتباعه، ابتسم مطلقاً لفظ سخرية واستهجان . .

- كودوش!

وحيــن جلس أهم رجال القرية حول الشيخ صَلاتو في مضيفة نجع نجيبية، وتداولــوا في أمر القرية وحالها الذي لا يسر، تبين لهم عجزهم. صحيح أنهم في الظاهــر لهــم الأمــر، لهــم أن يأمروا ناس القبيلة فيطيعون، أن ينصحوا فتأخذ الجموع بنصيحتهم حرفياً وتكون شرعاً. أن يسيروا في المقدمة مثل الجَدْي الكبير ذي القرون والقوة ليسير خلفهم باقي القطيع. لكن.. لكن حقيقة الأمر، أن القرية تغيرت تماماً من داخلها وإن لم يكن التغيير قد وضح وتجسّد على السطح. الجذور تخلخــلت. صاروا نخيلاً مازال واقفاً في رسوخ ظاهري، لكن دبيب الموت داخله ينخر فيه فتفسَّخ. نخيل دهمه الفناء فمات واقفاً إلى حين يسقط.

الشيخ صَلاتو يحذر آبدون من الاستهانة بسلاطين، ويحذّر غيره من الإفراط فــي تصــور قوته. إن الحال ذهب إلى طفل اسمه سلاطين شرّين. وسوف يتغير الحــال ليأتي لنا أو لذريتنا الصالحة مرّة أخرى. هكذا الأيام. لكن نحن علينا أن نقاوم، حتى لو كان عمدتنا مريضاً.

أرســلوا إلى ســلاطين ليأتيهم حيث هم، رفض سلاطين على لسان الأشرم الــذي أرســله إليهم. أضاف الأشرم أن موعدهم مع سلاطين خلال حفل الكرامة، احتفالاً بإتمام مبانيه والرصيف وبدء الرحلات المنتظمة لمراكبه، وذلك بعد ثلاثة أيــام فــي بيــت أثمــان حين ينتهي البناؤون الكنوز من إتمام سقفي الحجرتين الجديدتين على صخرة دُجُر، سقفين على شكل القباب.

ذهب الأشرم، صَلاتو وآبدون في حيرة من أمرهما. صَلاتو قرر في حسم.. على ناس القرية كلهم منع التعامل مع سلاطين. بعض الرجال ينظرون إلى سقف المضــيفة، زوجــاتهم يبعن الكثير إلى سلاطين، وتعمل ابنتان في خدمة الأغراب

أتـــباع ســـلاطين والد إحدايهما موجود في الجلسة. البنتان تكسبان في أسبوع ما يكســبه هــو مــن حصد زراعة ترمس أو حتى حصد كيزان ذرة حقله كله. أما يونـــس المجبّراتي فكان في موقف صعب، هو الذي كان يقيم الدنيا ويقعدها على رأس ســلاطين، والذي كان يخطب بصوته الجهوري في كل نجع، في كل شارع ضـــد ســلاطين، صار خياطاً لملابس أتباعه. أتاه بعض الرجال الذين تكسبوا من ســلاطين فخاط لهم وأتته أيضا بعض النساء. وأتيح له أن يجمع ريالاً كاملاً في سهولة ويسر. النقود صارت سيّارة بين أيدي الكثير من الناس! ولم تعد المقايضة سائدة بدون منازع.

صَلاتو فترت ثورته، تيار تحتي يجرفه لليأس..

- سلاطين شرّين مثل مركب كبير من مراكبه، شراعها عال عريض، تسير مـــع الـــتيّار والهواء ملء شراعها الكبير أيضاً، وبيرقها المثلث في أعلاها أحمر فـــاقع، وتحت البيرق بيرق طويل نحيل كالسهم يرفرف مع نسمات الهواء ليبين أيـــن اتجاهها.. إلى الأمام تتجه المركب حسب الإشارة، تسبح بقوة وكل من يقف أمامها ما هو إلا عشب طاف تزيحه عن طريقها في يسر وسهولة واستهانة.

- لا يا شيخ صَلاتو، سلاطين وعاء معدني ساعدته دوّامة ليصل لمنتصف الـــنهر، وســـوف يسبح مسافة، لكن مصيره أن يدفعه التيار وتتسرب إليه المياه فتسحبه للغرق. ثم إنه صبي صغير، لا تقلق يا شيخنا.

قـــام آبـــدون، اتجه إلى الخروج وخلفه انسحب الرجال. بقى صَلاتو جالساً ساهماً ومعه بعض رجال نجع نجيبيّة. نظر الشيخ لأعلى..

- يا حَسرة على العباد.

بـــروز دور الفـــتى ســـلاطين المفـــاجئ والمعاكس لنمطيّة القبيلة الرتيبة والمنســـابة مع تحولات الزمن، جلب كرهاً لسلاطين أكثر وإن أتاه العديد من ناس القـــرية آمـــلين العمـــل عنده. والكثير ممن لم يعملوا عنده حتى الآن يأملون في فرصة تأتيهم يوماً ما، وربما وجدوا عنده عملاً أفضل من عملهم. ومن لا يحتاج إلى ســـلاطين يتقرب من سلاطين، صار الأهم والأغنى في القرية، حاول البعض

مصـــادقته لمجرد التباهي بصداقته رغم فارق السن. هذا وإن بقيت الأغلبية نائية عـــنه، مشـــاهدين لمـــا يجرى، يتعجبون ولا يفعلون شيئاً ضد سلاطين وأيضاً لا يؤازرون الشيخ وصحبه.

وســـط هـــذه الـــتيارات المواتية، بين عدد الرقاب التي انحنت له، ووسط الظـــروف وأغلـــبها متوافقة مع عصره، لم يفت عن عقله أن نظرات الناس إليه تحمل الكثير من الحسد والحقد والغل، وأنهم في أول فرصة سينقضون عليه كما انقضـــوا على خاله هَمَرين، وسيوجهون له الضربات والركلات. لن يقف بجانبه أحد.. لن يتوانوا عن هدم كل ما بناه. سيحرقون ما يمتلك كما أحرقوا بيت هَمَرين مـــن قـــبل، بـــل ربما قتلوه كما قتلوا خاله. سيتخلى عنه الكل وتتعالى عليه كل الرقاب التي تنحني له الآن.

شَـــغَلَهُ هـــذا الأمر طويلاً. كيف يتصرف؟ حتى وجد الحل، نفس ما حاوله مُعَـــلمُه . خالـــه هَمَـــرين، أن يحمـــي نفسه بخلق مجموعة من الناس حوله، مصـــلحتهم من مصلحته، وكما فكّر هَمَرين تماماً يجب أن يفكر ويفعل هو.. لكن، بصـــبر أرحـــب ومكـــر أبعد، وعدم التقيد بالأسرة. عليه أن يخلق طبقة مستفيدة حوـــله، طـــبقة غـــنية. الطبقة الغنية تكون كواكب وهو شمسها. تحيطه كسياج، يحمونـــه لأن فـــي حمايـــته حماية لهم.. حماية لمصالحهم. والأجراء من عمال وغيرهم.. هم أشباه الخفراء عندهم.

لـــم يضع وقتاً، طلب من إسْهاج مركباً إضافياً يتسلمه منه زجِرْ بن سَليمتو عســـل، أرســـل لإسْـــهاج مؤكـــداً احتياجه لمركب إضافي أمر كل من يعمل عنده بتفصـــيل ثوب واحد على الأقل عند يونس الخياط. وطلب من يونس أن يوفر في يـــده نقـــوداً لأنـــه يجب أن يبني فناء كبيراً بجوار رَبْوَة مِجيد للتعامل مع تجارة القوافـــل الـــتي ســـتأتي. أما مُهدى وابنه فيّاج، فقد بنيا فناء واسعاً بجوار فناء سلاطين، توقعا بأنه يخطط لأمر ما! وقد كان.

حضـــرا إليه مساء. كان بانتظارهما في حجرته فوق صخرة دُجُر. اجتمعوا حول المنضدة التي عليها الفانوس. قال لفيّاج..

- فيّاج، انظر إلى تلك الحسابات المدوّنة في تلك الدفاتر. إنها دفاتر صناعة وتجارة العرقي. إن أعجبتك تلك الأرقام فالــ . .

اندفع فيّاج مقاطعاً لسلاطين واقفاً أمام أبيه . .

- يـــا، قلت لك نرفض دعوة هذا الجبان. لكن أجبرتني على الحضور. يريد تلويث سمعتنا بصناعة وتجارة الخمور مثلما تلوثت سمعته وسمعة أبيه.

الأشـــرم قدم لفائف الدخان التي لفّها إلى سلاطين فأخذ واحدة ثم إلى مُهدى وفيّاج فرفضاها. سلاطين هادئ. فيّاج ثائر يريبه ويضايقه كل ما يقوم به سلاطين من عمل أو يقوله من قول.

قام مُهدى، ابتسم سلاطين فابتسم الأشرم. مُهدى يقلب في صفحات الدفاتر. الضجر والضيق يخنقان فيّاج. صاح في أبيه أن يذهبا. لكن مُهدى أشار إليه بيديه أن يصمت. ثم التفت إلى سلاطين . .

- سلاطين.. سأفكر في هذا العرض.

فيّاج يريد أن يثور مرّة أخرى على أبيه، لكن مُهدى يشير إليه في حزم أن يصمت. ثم قال لسلاطين . .

- اترك لي تلك الدفاتر ليلة واحدة. هذه الليلة، ثم نجيبك على عرضك.

- إنهــا لكمـــا. وســـتقبل العرض يا مُهدى. اسمع يا فيّاج، لكما أيضا كل المعدات التي اشتراها أثمان لتصنيع العرقي، بسعر زهيد.

- والمقابل يا سلاطين الخبث؟

- هاها، المقابل يا فيّاج هو مصلحة لنا جميعاً.

- كيف؟

- يجــب أن تكــون في القرية طبقة غنية لتحمي نفسها من بقية الناس.. اســـمع يا مُهدى.. أنت وابنك العصبي، استكملا سور الفناء الخاص بكما، سوف نتاجر مع القوافل التي ستأتي إلينا. سوف نقيم سوقاً لها، يجب أن تتعلما المتاجرة

مع القوافل مثلما سأتعلم أنا أيضاً. يزيد عددنا، وتزيد مكاسبنا وأموالنا، خاصة أنا وأنتم. تزدهر القرية، نستفيد ونفيد ونحمي أنفسنا كما قلت لكما.

- طبعاً مخطط لنفسك يا سلاطين أن تكون الأقوى والأغنى؟

- طـبعاً، من حقي أن أعمل لصالحي أولاً ولكما أن تحاولا ذلك. والفائز له أن يفوز. لكن لي شرط.

- آهاااا، جئنا للألاعيب.

- لا ألاعيب. شرطي هو.. حين يقوم أحدنا بخطوة ما لصالحه، لا يقف في طريقه أحد.

- وما الخطوة الأولى التي في جوفك؟

- سـأتقدم لـلعمودية، تكـون فـي صفي يا فيّاج. أما أنت يا مُهدى، فلا تعارض. يكفيني بقاؤك مع كبار السن ساكناً.

- كنت تخطط لها من زمن يا سلاطين.

- كما خططتما أنتما وفشلتما.

- لم نفشل بعد يا سلاطين.

- فشـلتما يا مُهدى. وأنا لم أقف في طريقكما. راضية هي التي هدمت ما خططـت لـه يـا مُهـدى برفضها لابنك، أليس كذلك؟ كما قلت.. كلنا أحرار في المحاولات.

- أنت نذل.

- مُهـدى، تجيبـني غـداً، وتعلّم ابنك أن يهتم بالمصلحة، ويبتعد عن قلة الأدب. غـداً ردك الـنهائي. إن وافقـتما.. تربو تجارتكما وتتراكم أرباحكما. إن رفضـتما وقـررتما محاربتي في العمودية.. فقل على تجارتكما الوداع ولن تنالا العمودية. سيأخذها آبدون.

خرجا. مُهدى يحمل الدفاتر. قدم الأشرم فنجان قهوة إضافية إلى سلاطين ثم وقف أمامه يفرك يديه . .

- مبروك يا عمدة.

- اسمع يا أمرُ الله. من الغد تشتري حماراً تركبه.

- مــاذا يضايقك يا سلاطين في حبي للمشي؟ أنا أركب الآن في المشاوير بين النجوع فقط. هل قصّرت في عملي ماشياً؟

- علمتْ القرية أنك تستطيع المشي بعرجتك مثلك مثل بقية الناس. انتهينا.

- قدمي وإن كانت عرجاء، فهي لا تؤلمني.

- تؤلمــك أم لا تؤلمــك، هذا لا يخص أحداً غيرك. من باكر تشتري حماراً عفياً قوياً. فالعمل إيقاعه يسرع وقدمك العرجاء لن تسعفك.

لــم يصــبر مُهدى، في صباح اليوم التالي كان في بيت أثمان. جلس وسط أثمان وسلاطين والأشرم يفطر معهم ويضحك ويتحدث . .

- طبعاً يا بني يا سلاطين، عرفت أنني بمجيئي إليك، قد وافقت على صفقة الأمس.

- أنــت يــا مُهــدى أعقــل من أن ترفض وراثة صناعة وتجارة العرقي المربحة.

توقــف أثمان عن المضغ، يحاول أن يبلع ما في فمه أصابته زغطة. ناوله الأشــرم كوز الماء. بعدها نظر إلى سلاطين الذي لم يشف غليل حيرته. واستمر يحادث مُهدى . .

- اسمع يا مُهدى، أنت وفيّاج تكرهانني وتكرهان أبي أثمان . .

- لماذا يا بني تقول هذا الكلام؟

- وأنــا وأثمان لا نحبكما أنت وفيّاج. وبعد موتك أنت وأثمان، سنبقى أنا وفيّاج متنافسين. لكن كل هذا لا يهم. لنترك الكره والحب لفقراء القبيلة. المهم..

- إيْ؟

- المهم أن نتعلم كيف نحافظ على مصالحنا، ننميها بتعاوننا. لذلك حاول أن تجعل قيّاج يتناسى حقده عليّ. ينسى حصولي على المقبرة بمحتوياتها.

- نسـيان هذا الأمر صعب. لكن.. على رأيك، يجب أن نتناسى. والتناسي ممكن وسهل إن عوضت قيّاج عن خسارته.

- هكـذا يكـون الكلام. الذي كان.. كان، وانتهينا. نعيش الواقع. وسوف أساعد قيّاج كثيراً ليكون شيئاً كبيراً.

- إيْ.

- سوف أعود إلى سهراتي فوق رَبْوَة مِجيد. يجب أن يحضر قيّاج ليسهر ويسكر معنا مثل أيام زمان. ليعلم ناس القرية أننا معا.

- سـيأتي. سيأتي لك ابن الكلب هذا لنتعاونا. لكن أثمان كُورنة يجب أن يمدنا بخبرته في صناعة العرقي ولا يتركنا هكذا؟

- لـن يـبخل عليكما أثمان، ثم من ساعدونا في صناعة العرقي وتجارته سوف يستمرون معكما.

انصرف مُهدى سعيداً. بعدها أثمان يسأل حزيناً متعجباً..

- نـترك تجـارة رابحـة مثل صناعة وبيع العرقي لمُهدى وابنه؟ إنهما عدوّاك ومنافساك أصلاً.

- وأنا الفائز.

- عجيبة!

مـا كادت هُوشَة تلحق بنعجة شردت بعيداً على جرف النيل، حتى ظهر لها الأشـرم ولا تعلم كيف؟ ترّقب طويلاً ابتعادها عن كِسباتة. ابتسمت له. ضحك لها حتى وضحت شرمته أكثر فازداد قبحاً على قبح..

- اليــوم، في القيلولة تذهبين إلى دكانة مُهدى لشراء أي شيء. سلاطين سيكون هناك.

- ماذا؟ في القيلولة؟ لا يا أمر الله.

- سينتظرك هو. عنده كلام مهم. كلام مهم يا هُوشَة.

- ولماذا تضحك يا أمر الله؟ أنت تعلم هذا الكلام المهم، ما هو؟

- لا. سيقول سلاطين لك ما يريد. وستفعلين ما يريد. أليس كذلك؟

- لكن.. القيلولة وعند مُهدى!

- فَيّاج ذهب إلى قرية بعيدة. ثم إن مُهدى أصبح تابعاً لسلاطين. ألا تعرفين ذلك؟

-كل القرية عرفت.

كِســبانة تقــترب، لمحها الأشرم الذي لم يكف عن المراقبة خلال حديثهما، أسرع هارباً وهو ينحني بجذعه القصير الضئيل بين غيطان الذرة. هُوشَة جلست ساهمة باسمة. أتتها كِسبانة فوجدتها على هذا الحال. ضمت شفتيها في قرف ثم جذبتهما للجانبين وأسفل..

- بنت عبيطة صحيح.

ذهــبت هُوشَــة إلى دكــان مُهدى. دخلت الدكان خائفة، دخلا في المخزن، حوش صغير مغطى بسقف خوص لحماية البضائع من الشمس ولا يمنع التهوية. جلسا. وازداد خوفها عندما رأته يقف أمامها مراقباً جسدها وصدرها الذي امتلك ما يقارب برتقالتين صغيرتين. تمسح عرقها من على صفحة وجهها بكم جلبابها..

- سلاطين، الشمس حامية، رأسي سخنت.

- أوحشتيني يا هُوشَة.

-..

- سأتزوجك هذا الموسم.

- هاا!

- ألا تصدقينني؟

- لكن..

- أتظنينني سازلت طفلاً في الكتاب يا هُوشَة؟

- لا أبداً. لكن..

- كِسبانة؟

- إيْ. كِسبانة ستحرق البيت بناسه. ستضربني وتعضني. أخاف منها أكثر من الذئاب. هاها. إنها شرسة.

- ولماذا تضحكين؟

- أحب كِسبانة، وهي تحبني. لكنها لو علمت نيتك وموافقتي ستفترسني.

- كوني قوية. لا تظهري لها خوفك.

- وأمي؟

- أبوك وافق.

- كيف؟ لكن.. المهم أمي، المهم كِسبانة. أبي يخاف منهما. هاها.

- ستكون أمك معك.

- صحيح كيف؟

- اذهبي أنتِ. لا أُريد أن يرانا أحد هنا. وعندما يتكلم أبوك في الموضوع قفي معه قوية ضد كِسبانة.

- سلاطين. حتى لو استطعت أن أقاوم شراسة أختي، فأنا سأشفق عليها، سيكون كلام الناس كثير عليها. وهي ستتعب من الغيرة. هي.. تحبني يا سلاطين.

كِسبانة تحبني. وأنا لا أريد أن أغضبها. لكن.. لو أنت تريد الزواج مني هذا الموسم، ولو استطعتَ أنتَ.. أنا موافقة يا سلاطين.

لم يتخلف عن ليلة عشاء الكرامة، احتفالاً بالبدء الحقيقي لتجارة سلاطين إلا القليل. دار أثمان مليئة، رجال نساء أطفال. الطعام يكفي ويزيد، اللحوم منوّعة في قطع كبيرة. عدد من النساء تعملن في خدمة الحضور بالأجر المغري وليس مجرد تعاون قبلي مثل سائر الولائم. بعض الأطفال تشاجروا ليكونوا في خدمة النساء العاملات، من إحضار الصواني وتوصيل كيزان المياه للشاربين، فقطع الملبن وغيرها في انتظارهم. وبعد الرجال جاء دور النساء في تناول العشاء. أتت الكثيرات وقليلات لم يأتين، منهن ديوانة. أما هَكيمة ونَبْرَة فقد كانتا في خضم حفل الكرامة، إنه أخوهما وابن أخيهما. آبدون لم يرض عن ذهابهما، لكنه تفهم موقفهما، وكان هو من أبرز الغائبين مع الشيخ صَلاتو.

سلاطين تعمد الحضور متأخراً. يمتطي ما يشبه بغلاً بنياً عالياً ذا سرج ثمين، معلق على رقبته أجراس صغيرة من نحاس تدق كلما تحرك الحمار العالي القوي شبيه البغل. على رأسه عمامة عالية ناصعة البياض. على جسده عباءة صيفية خفيفة ثمينة. في قدميه مركوب أحمر جديد، خلفه على الجانبين الشابان الضخمان على حمارين قويين، ثم عددا من اتباعه. موكب ثمين ليجبر الكل على احترامه وهيبته من بداية ظهوره في أي مكان حين يدخل على الحضور، والحاضرون لم يغب عنهم هَمَرين.. شبه تام بينه وبين سلاطين رغم تباين الملبس. هبط سلاطين من فوق ظهر ركوبته الفاخرة وقد أمسك الأشرم برقبة الحمار الغريب في علوه وضخامته.

وانقضت الليلة والكل أتخمه الطعام والشراب، وأغلبهم يضمرون الحسد وعدم الرضى وإن اظهروا العكس تماماً. وفي الصباح الباكر.. انطلقت المراكب إلى العمل، منها ما أبحر جنوباً ومنها ما أبحر شمالاً، تعلن مولد تاجر شاب شديد الطموح.. شديد المراس.

بجيوَة جسدها تعود على العطاء المبكر. ما يكاد يهمد بعد مداعبات سلاطين وأحضانه حتى يعود فائراً صارخاً طالباً المزيد، لكنها تتمالك نفسها وتمنع

سلاطين من فض بكارتها رغم شوقها الشديد لذلك. تريد الإبقاء على شيء ما لا يـنـاله فيشـتـاق إليه بالزواج. لا تريد أن تمنحه كل اللبن فيزهد في البقرة كلها. وسلاطين هو المُبْتَغى لجسدها، لأنوثتها المراهقة الساخنة والتي كادت أن تتخطى السذاجة الطفولية. وأيضاً سلاطين هو المُبْتَغى اجتماعياً لتكون امرأة تتساوى مع نساء القبيلة في النجوع الثلاثة، فزواجه منها يرفعها من ابنة لغريبين عنهم إلى زوجـة شاب من أهم شبابهم، شاب يخطط ليكون عمدة القرية،زعيم القبيلة كلها. حـتى مـن سترفضها بينها وبين نفسها، لن تستطيع النطق بكلمة ولن تستطيع الترفع عليها، فسلاطين هو سيد القرية القادم بدون منازع. وأيضاً هي، يجيوَة.. غـنية بحديقة أبيها الكيد، وهي ليست ضعيفة لا جسداً ولا أسناناً ولا أظافر حين اللزوم.

طلـبت مـن سلاطين أن يتزوجها. أن يأتي مع أبيه أثمان إلى أبيها هاشم الكيـد يطلـبانها لـلزواج، لكنه يتحجج في كل مرّة. تعلم.. لا منافس لها إلا هذه الضـئيلة جميلة الوجه.. هُوشَة التي بدأ نهداها في البروز تواً. سلاطين أقرب ما يكون ليجيوَة جسدياً، وأبعد ما يكون حين تتخيله زوجها المنتظر. تكاد أن تيأس مـنه. تحاول معه.. تريده وتشتهيه وتخشى فقدانه حتى لا تنكسر قوتها وأنفتها. رفض سلاطين لها امتهان لكرامتها.. إعلان بأنها وإن كانت جميلة مرغوبة، إلا أنها ليست ذات حَسَب ونَسَب.

واحتسـاباً لفقدانها سلاطين، لم تقطع رجاء سَيّد هَربية فيها. يشتهيها ذلك الأبلـه وهو يعلم أنها تشتهي سلاطين. تركته يضمها مرتين حتى لا ييأس منها. ابتسـمت سـخرية منه أولاً ثم حولت ابتسامتها إلى ابتسامة خجل مصطنع حين سألها سَيّد..

- تتزوجينني يا يجيوَة ؟

واقـترب مـنها أولوا، الذي يتبع خطوات سلاطين، حب الاستطلاع جعلها تتركه يحتضنها. ماذا سيفعل هذا الشاذ الذي كان يفعل فيه سلاطين؟ تسمّر أولوا ولم يعلم ماذا يفعل خاصة أنها كانت سلبية معه. غلبه عرق الخجل فتركها وأسرع مبتعداً.ولم تستطع هي أن تمنع ضحكها بصوت عالٍ على خيبته.

فَيّــاج الغيور من سلاطين، الطويل ابن التاجر الشهير،انفردت به على النيل بعد محاولات لرصده وحده. حادثته في ليونة وميوعة. أجلسته فجلس فاضطجعت بيــن الأعشــاب وخلف حشائش الحلفا الكثيفة، لكنه قام فوراً ليبتعد. رصدت في عيــنيه الشهوة والرغبة، رصدت في عينيه الريبة أن الأمر مؤامرة. هرب، يعلم أنها تعشق سلاطين ولا تهواه هو.

شاعت بين ناس القبيلة خفتها واستهانتها بالأصول. النساء ضجراتٍ منها، الــرجال عدد منهم اشتهاها، فالفتاة متساهلة مغرية، ليست من القبيلة فلن يثور لهــا أحــد لا ذكــر ولا أنــثى، وهاشم الكيد مشلول. الكل يشتهيها مثل سلاطين، يشتهون نضجها الجسدي المبكر.

المشــلول لا يبرح حجرته، وجهه مبلّل دائماً بدموع الذل، لا يصدر صوتاً، إحساسه بعاره يجعله يشيح بوجهه حتى يضطر من يزوره للخروج سريعاً. هاشم الكيــد يظــن أن الكــل يتغامزون على حال ابنته. لا تستريح تضاريس وجهه إلا للخاصــة لديه.. الشيخ صَلاتو وآبدون وخيشة وهكيمة ونَبْرَة، ثم معتوق الخير الــذي يــزوره صــباح كل يوم قبل النزول للحقل أو للسور، وإن انشغل صباحاً فيزوره خلال النهار ولا ينقطع عنه.

يومــا شــكا وبث حرقته مضطراً لآبدون. فم هاشم المعوّج أصبح لا يصدر حرفاً سليماً، آبدون بالكاد فهم كلماته..

-عار الحريم ظِلّي. وظلي يتبعني حتى في ظلام الليل. في مرقدي يقفز قبلي ليستقبلني بالأرق. هاشم الكيد صار نهاره قلق وليله أرق.

حــاول آبــدون أن يطمئنه. يبكي الصعيدي الجلمودي، حَسَرة على ما صار عــليه حالــه. العار في قريته الأصلية يدفن بعد ذبحه. كيف يتحدث عنه علناً مع غريب عن العائلة؟ عاره عارين. اختار العزلة وحياة الصمت. هلاوسه وكوابيسه تــرزح عــليه ليــلاً، تــروّعه بَهية بصوت انكسار جمجمتها وجحوظ عينيها ثم ضــحكاتها عــلى خيبته وفضيحة ابنته، ثم تتداخل الحكايتان ولا يستطيع التفرقة بينهما. الأمر الوحيد الذي يبقيه حياً هو أمل في وصول ابنه سلامة ليأمره بمحو

عـــار أخـــته بجيـــوَة. كمـــا محـــا هو عار أخته بَهية من قبل. وبعد ذلك يموت مستريحاً.

بجيـــوَة تتحمل مسئولية أبيها الكيد، تراعيه في رحمة وإن كان الخوف منه يجـــبرها على الحذر أن يمسك بخناقها ويخنقها. جوانب منها تحبه وتشفق عليه وجوانـــب مـــنها تكـــرهه، تُحمّله مسئولية وضعها السيئ في القريـة، تلومه في نفسها..

لـــم جـــاء إلى هذه القرية؟ وبعدما جاء، لِم لم يتزوج من القبيلة ليضع لابـــنائه.. أنا وسلامة أساساً يتساوى مع بقية ناس القرية؟ لِم قسوته عليّ وعلى أخي فتسبب في هربه؟ آه يا سلامة، أين أنت؟ ولم تركتني ورحلت؟

حبها له وشفقتها عليه، لم يتغلبا على جوانبها التي تحمله مسئولية عذابها وهوانهـــا. بجيـــوَة.. طاقاتها الجنسية وتمرد جسدها، كانا ذوي تأثير أقوى وأشد وقعاً عليها من إحساسها بتحقيرها لأبيها وهي تدخل سلاطين بيته لينال من جسد ابنـــته. الفاصـــل بين حجرة أبيها وحجرتها التي تضمها وسلاطين حجرة أخرى صـــغيرة. لـــم تتصور أنه في حالته هذه بإمكانه أن يسمع ضحكهما المكتوم هي وسلاطين حين يمزحان سوياً.

من يشعرها بتدنيها،كان صوفاني، وصوفاني رحل لسِوين، بقي آخر يهينها ويؤكـــد تدنيها بلسانه العيي ونظراته المتعالية، من يسكب الخل على جراحها.. معـــتوق. فحاولت منعه من زياراته المتكررة لأبيها، على أن تقوم هي بما يفعله معتوق. تشاجرت معه وصاحت به..

- إنه أبي يا معتوق. إنني اعتني به.

- لماذا لا ترحمـــ يـــ يـــ ه. مـــ. .مـــا. . دام أبوك؟

- قطع لسانك.

يومـــاً بعـــد أن عاد بهاشم من دورة المياه ثم أبدل له ملابسه. دخل حجرة بجيوَة، وجدها مستلقية في ثوب نوم خفيف، صدرها يكاد يطل من عبها وفخذها

عــار. تدعــي الــنوم. اضطرب فاضطرب لسانه أكثر. قذف بملابس أبيها على جسدها العاري. ضربها في جنبها وهو يبعد وجهه عنها. ادعت الفزع..

- من؟ معتوق!

غطت نفسها بدلال..

- معتوق. ما الحكاية؟ ألا تخجل؟ تدخل وأنا نائمة نصف عارية؟

- كذ..ابة.

- اخرج يا لقيط الجبل.

- يزو..رك ليلاً؟

- ماذا تقول؟

- شــ..رّين.

- ماذا تقول؟

- حرام علــ..يكِ.

وثبت من السرير تضرب معتوق في صدره وتدفعه للخروج..

- كاذب. انقطع لسانك يا كاذب. أنا يزورني سلاطين ليلاً؟ تلوث سُمْعتي يا كلب؟

- سُــمْعتــ.. ك ســا.. ســاءت من زمـــ..ان. حــ..رام عليك عذاب هاشمــ. يعلــ..م بمن يزو..رك كل..كل ليلة.

- ويْ ويْ ويْ. يعلم!

تأكدت بجيوَة أن أباها يشعر بزيارة سلاطين لها ليلاً. بدّلت حجرتها لتكون أبعــد عــن حجــرة أبيها. ورغم ذلك قضت ليلة واثنتين من التوتر خلال وجود سلاطين معها، ثم لم تعد تأبه به إن كان يسمع أو لا. سلاطين، لم يتأثر أصلاً ولم

يتوتر لأن الكيد يحس به، لم يهتز ولم يأبه بالرجل الذي صار لا يملك إلا الانتظار لابن طال غيابه ولن يعود إلا بعد وفاته.

مع الأيام يئست بجيوَة تماماً من سلاطين. فكرت في المخاطرة. لم يمانع سلاطين، بل سرّ سروراً شديداً عندما تركته بجيوَة يفعل ما يريده كاملا. وبعدها أخبرته بأنها حَملت منه. لم تزد إجابته عن جملة واحدة..

- سأتصرف.

ثم أخذها في أحضانه القوية. لم يحمل همّ ما سيكون. ولمّا أتعبته بالبكاء والرجاء جذبها من ضفائرها في عنف وألقاها أرضاً. مال سلاطين على جانبه ومن فوق السرير الجريدي القصير ينظر إليها وهي ملقاة أرضاً تتوجع وتبكي..

- تريدين إجباري على الزواج منك يا بجيوَة ؟ غبية.

- ارحمني. يجب أن تتزوجني. قلت لك إنى حامل.

- مشكلتك أنتِ وحدِك.

- أنتَ أبوه.

- ولو. المشكلة مشكلة من تحبل.

- جبان.

- إيْ.

- وقح.

- مضبوط.

- أنا أفضل من الطفلة النحيلة هُوشَة.

- أنتِ أحلى.

ابتسمت..

- إذن لماذا تميل إليها وتتركني وأنا الأحلى؟

-لأنها أفضل.

- كلب.

- تأدبي يا ولّيّة.

- إبيوو -بيو. يا بلوتي.

- ارفعي صوتك أكثر لتسمعك القرية كما يسمعك أبوك.

-سلاطين. أول مرّة أسمع كلمة ولّية!

- هاها.

- تميل لهُوشَة، والأشرم يميل إليها!

- أخ وأخت.

- لا. الأشرم يشتهيها.

جذب ذراعها بشدة..

- لا تخافي. ستتزوجين.

هبّت إليه وتعلقت برقبته فرحة..

- سلاطين. صحيح؟

- صحيح.

- متى؟

- مرور قمرين ثلاثة.

- قمرين ثلاثة! والذي في بطني؟

- الفظيه.

- حيوان.

- عيب.

- لكني سأتحمل وأفعل كل ما تريده. مادمت ستتزوجني.

- ليس أنا يا وَلية من سيتزوجك.

- ليس أنت! من؟

- سَيّد هَربية.

- إب ب ب ب. ذلك العبيط؟

-ومن يرضى بالزواج منك إلا العبيط؟

هبّت إليه تخربش وجهه وتعضه وهو يدفعها بعيداً ضاحكاً. لكن عندما أمسكت بخصيتيه جأر ولكمها في جنبها فارتمت تتلوى على الأرض. نزل سلاطين واستلقى بجانبها آخذاً جسدها في جسده.

لم توافق راضية هذه المرّة على فيّاج مُهدى بسهولة، أتعبت أمها التي أقسمت لها أن الأمر لا طمع فيه بعمودية. أرهقت أمها رفضاً، حتى عندما هاجمتها نَبْرَة بقسوة وقالت أنها تعرف رغبتها في بلال صَلاتو، لم تهتز راضية، تصميمها أنها لن تكون صفقة. لن تكون بضاعة في دكانة مُهدى وابنه فيّاج.

أخذتها أمها من يدها في عنف إلى حجرة أبيها المظلم. نُوري مسنداً ظهره على الحائط في ركنه المعهود ويغط في شخيرة غارق في عرقه ولعابه يسيل على ذقنه الكثّة. دفعت نَبْرَة ابنتها بجانب أبيها ثم ركعت هي أمامه. تناولت المنشفة تمسح لنُوري عرقه ولعابه. فتح نُوري عينيه في إرهاق ووخم. جلست نَبْرَة أمامه، خاطبته في حِنُوْ..

-ابنتك ترفض!

يداه على فخذيه. بأصابعه أشار لابنته لتأتي أمامه. فتربعت بجانب أمها. ينظران لبعضهما. قرأت راضية الخوف من الأيام القادمة في عيني أبيها. تشنجت

شـــفتيه وهطـــلت دموعـــه. صدمتها أغوار الحزن التي تمور في عينيه. فقامت راضية على ركبتيها واحتضنت رأس أبيها . .

-موافقة، موافقة با.

بعدها في جلسة بسيطة تم الاتفاق. لكن لم تنطلق الزغاريد من بيت الحزن، بيـــت العمـــدة، النسوة يخشين أن تهيج الزغاريد أعصاب نُوري العمدة ومازالت ذكرى ابنه الغريق تعيش فيه.

بعد انقضاء شوط من الليل، تسكن الشوارع ولا يتحرك بين ديار النجوع إلا الكـــلاب فـــي جماعات وفرادى. ينبحون على بعضهم يؤكد كل منهم سلطانه على بيت سيّده وعلى المجال الحيوي حوله. يتشاجرون في عنف على الإناث القليلات. ربما يشغلهم قليلاً قط مسرع فيهرعون خلفه حتى يتسلق جداراً أو يمرق من تحت عقب باب. يبتعدون عن أي عقرب غبي تاه ودخل بين البيوت، يتركونه يسير في ســـلام رافعاً ذنبه بشوكته المسمومة. ربما ناوشوه قليلاً فيلقون في قلبه الرعب، لكن دورهم الأساسي ليلاً هو منع الذئاب من دخول القرية.

كـــم رجلاً يتسلل ليلاً؟ وإلى أين يذهبون؟ الكلاب نبحت على إنسي عابر، لا يستمر نباحها طويلاً، فهي تشم رائحته وتعرف انه من ناس النجع فتصمت وتعود إلى صراعاتها الخاصة.

معـــتوق الخيـــر فـــي أول الليل يذهب إلى سفح جبل حيث يكسر الأحجار. فتنطـــلق من فأسه تكتكات حادة منتظمة وهي تصطدم في عُنف وإصرار بصخور ســـفح الجبل وبطنه. ولیالي ينطلق إلى قِمّة ما ويبقى ساكناً متعبداً، وأحياناً إلى قمّة ثانية وتنطلق من فمه التراتيل الدينية.

انطلاقـــات أخرى ليلية متلصصة.. سلاطين إلى بيت هاشم الكيد ليأخذ جسد بجيوَة ، مُهدى يتسلل كل عدّة ليالي، ما يخطفه في الظهيرات لا يطفئ ظمأه. شاب ينســـاب من باب بيت ليحتضن فتاته دقائق ثم يعود وكأنهما نالا كل حلاوات الدنيا وذاقا طعمها.

ورغــم حــرص كــل متسلل، فإن القرية كلها تعرف سواء عاجلاً أم آجلاً العلاقــات الخفيّة وكأنها تبعث رائحة معينة يصعب كتمانها. أحياناً خطأ بسيط يقع فيــه المتسلل، حظ سيئ يكشفه بمحض الصدفة. لكن الأمر الجديد الذي طرأ هذه الأيــام في العلاقات السرية ، امرأة صارت تهبط بنفسها إلى حيث خص الصعايدة المــتطرف، تــريد الصــعيدي الشــاب الذي لا يستطيع الصبر حتى يعود لقريته ليحتضــن زوجــته. وقــبل رحيل الصعايدة، عرفت القرية تلك المرأة، إنها نفس المرأة التي يذهب إليها مُهدى كلما اشتاق لحضن أنثى.

هَكيمــة تجــلس على ضفة النيل، قريبة من نخلة معتوق الخير التي بدأت تصــعد وتغــلظ فــي عنفوان، تنظر إليها وتبتسم. تنظر إلى سطح المجرى وإلى أمواجــه الــرقيقة المتمهلة. ثم إلى الجبل الشرقي بقمته التي تشبه الشاهد. يرتد بصرها إلى الغرب، آبدون يعمل في الحقل في تراخ، يدّعي أنه يعمل حتى يُرضى هَكيمــة. اتهمته كثيراً بأنه صار رقيقاً ناعماً من هجره الزراعة وتفرغه لركوب الجمــل الســعيد ورحلاته إلى القرى للترفيه والتمتع بالضيافات. وشهرته بــ. . آبدون الوجيه. تتهمه واتهامها حق، بأنه ترهل. ثم يأتيها حال أولوا وترديه فلا تملك إلا التنهد والحسرة والدعاء له ولأبيه أن يهديهما الله.

أفاقت من سرحانها وأصابع آبدون تمسح دموعها. .

-هَكيمــة. يــا أم أولوا، اتركي أمر أولوا لخالقه. لقد فعلنا كل ما نستطيع فعله. والأمر لله من قبل ومن بعد.

بقــدر مــا سعدت بهيئة وفرح صوفاني بخطبة فيّاج لراضية، حزنت خيشة وفُجعت. تضرب بكفيها على جانبي رأسها. تتأوه وجذعها يتمايل يمنة ويسرة، ثم جلســت أرضاً مطرقة.. تبكي. تكاد تنهار خشية انهار حلمها وأملها في بقاء اسم عائلتها واستمراره في نسلها.

لــم تخجل مما انتوته. امتطت حمارها. لم تستطع بهيئة أن تمنعها. صاحت بها. .

-ستفضحينني يا خيشة.

لكـــن خيشة انطلقت على حمارها متجهة إلى نجع أورِّك. دخلت على بيت مُهــدى. بـــاب غــرفة ديوانة مسكين مفتوح، ألقت بنفسها باكية بجوار ديوانة. ديوانة تعلم السبب. خيشة تتكلم. تحكي عن بلائها في ذريتها. ملاك الموت الذي خطــف كل أحبابها. توضح كيف أن أملها في فيّاج. وديوانة وجهها حزين لبؤس خيشة. وفي النهاية قالت جملة واحد..

-فيّاج نفسه يريد راضيّة. ومُهدى أيضاً يريد له راضية.

ذهبت خيشة إلى دكان مُهدى من الباب الداخلي حيث حوش البيت. نادته.. بعد قليل أتاها. حدّثته بما في صدرها. قال لها..

- اسم العائلة لا يهم. كلنا قبيلة واحدة.

ضـــربها كـــلام مُهـــدى في قلبها. استدارت لتبتعد. أحس مُهدى بأنه قسي عليها. قال مضاحكاً لها..

- إن كـــنت تـــريدين تدفق اسم العائلة في نسلك، زوجيني أنا من بهيتّة.. هاها.

توقفـــت خيشة. التفتت إليه لتتبين مدى جدّيته.في عينيها رعشة. وجدته يضحك في شيء من الحرج. فعادت إلى اتجاهها بعيداً. تحادث نفسها..

- لو كان مصطفى الجبان. ذلك الحفيد الشارد موجوداً، لما كان هذا حالي. ولتركت بهيتّة لصوفاني.

ومـــن يومهـــا بدأ أسلافها يزورونها ليؤنسوها ويخففوا عنها خيبة أملها، تـــزاحموا فـــي أنحـــاء الـــدار بتفاصيل حياتهم اليومية السابقة معها. يحادثونها وتحادثهم، تشتكي لهم فيستمعون لها مطيبين خاطرها.

وفي نفس هذا اليوم، حين أخبرت هكيمة ابنها. صرخ..

- راضية وفيّاج! راضية وفيّاج! لا. لا. لا. وأنا؟ وأنا! أنا ابن خالتها. أنا ابن آبدون وهكيمة. لا. لا. أين وعدك يا سلاطين؟ راضية يا خائنة.

دفـــع أمـــه بعيداً فكادت أن تسقط. خرج إلى الحوش الواسع. دجاج كثيف يسير أمامه. ركل إحداهن فطارت توقوق ثم سقطت على جانبها بعيداً. اعتدلت ثم أســرعت خطوات ثم سقطت تفرفص ألماً. أولوا يسير في الحوش. عمامته على كـــتفه. يســير خطوات إلى اليمين، خطوات إلى اليسار، يرتد ناظراً إلى أمه التي تـــتألم لـــه أكثر من ألمها على دفعه لها بهذه القسوة. يفتح فمه ليتكلم، لا يجد ما يقـــول، يـــرتد.. خطوات هنا.. وهناك. وجد الأزيار الأربعة بجانبه تحت السقيفة. غصـــن سنط غليظ ملقي، أسرع إليه، التقطه، عاد إلى الأزيار يحطمها واحدا بعد واحـــد بعـــد واحـــد بعـــد واحد. تناثرت شظايا الفخار وتدفقت المياه. مستمر في التحطيم حتى جعل الأزيار شظايا صغيرة متناثرة على مياهها التي بللت الرمال من تحـــته. أســـرع إلى الحظيـــرة. أخرج الحمارة الأم وامتطاها من داخل الحظـــيرة منطلقاً بها خارج البيت.

لـــم يذهـــب ليهـــنئ خالته نَبْرَة ولا ابنتها راضية. لم يقترب أصلاً من بيت نُـــوري العمدة. لم يعد له إلا سلاطين. بكى عنده وسلاطين قَلِق من خطوة مُهدى وفَيّاج الصحيحة. لقد عادا وأخذا راضية لصفهم. إنهما أذكى وأسرع مما تصور. لكن لن ينالا راضية. لن ينالا العمودية.

يطيب خاطره ويعيد له الأمل..

- راضية حتى لو خطبها ألف شاب.. فهي لك.

ممـــتطية حمارتهـــا عـــائدة إلى بيتها. ليست هي العائدة، بل الحمارة التي تعرف الطريق أفضل منها. عينا تَعويضة تضعفان سريعاً سريعاً. أمامها على ظهر الحمـــارة كومـــة كبيرة من عيدان خضراء طويلة لطعام المواشي. تركت كالعادة بنتيها تستكملان حش بعض الخضروات، وترعيان بضعاً من الخراف والماعز.

قـــبل الغـــروب الفتاتان عائدتان. كِسبانة ممسكة بزنبيل مليء بالحاجيات، هُوشَة تهش القطيع الصغير الذي يعلم طريقه جيداً وإن كان يتدلل ويمازح انفلاتاً هـــنا وهناك، يبدو عليها الارتباك، تريد أن تخبر كِسبانة بأسلوب يطيّب خاطرها

حتى لا تصدم عندما يتكلم أبوها الليلة في موضوع زواجها من سلاطين. اقتربت من كِسبانة، كِسبانة وهي ناظرة أمامها في عدم اهتمام ظاهري . .

- هُوشَة، تريدين إخباري بشيء، لكنك جبانة .

- إيْ.

- ما الأمر؟

- أقول ولا تغضبين؟

-وهل الأمر يغضب يا بنت؟ إن كان يغضبني سأغضب. وإن كان لا.. فلا.

- إذن لن أتكلم .

- أنت حرّة. إن شاء الله لسانك ينخرس إلى يوم مماتك .

- الله يسامحك .

- يــا ســلام! طيــبة يا بنت يا هُوشَة، أنا أحس أنك من أيام طويلة وأنتِ مرتــبكة، ســاهمة تقضــين معظم الليل مستيقظة تنظرين إلى السقف وتتنهدين، وخــلال رعيــك للأغــنام يشرد بالك ويشرد غنمك، وتتركين أمك العجوز وأختك الكبيرة الوقورة المسكينة تعملان كأنهما عبدتان عند الذين خلفوك. بنت.. هُوشَة. ما بك؟ والله العظيم لو كان هذا السلاطين أبو شرّين حادثك حديثاً معوّجاً.. لتكون نهايتك .

- إيْ .

- إيْ! إيْ في عينيك. ماذا يريد سلاطين الوسخ؟

هُوشَة تجعل بينها وبين أختها عدداً من الماعز والخراف تحسباً من غدره.

-يريد أن.. أن يتزوجني .

- ويْ ويْ ويْ ويْ ويْ. هــذا الشرير؟ لص مقابر أجدادنا؟ بائع الخمور وابن بائع الخمور! هذا شبيه خاله هَمَرين الساحر! كيف تفكرين في مثل هذا الولد؟

- ألم تكوني ترغبين فيه زمان؟

- أنا؟ أنا! زمان ونحن صغار. وليس الآن. اسمعي، انسيه. ابعدي عنه.

- لا. أنا موافقة على الزواج منه.

- ويْ ويْ ويْ ويْ. ومنذ متى تنتقي البنات الذكور لينكحوهن!

-سيتزوجني هذا الموسم.

- إبيــوو- إبيو. هذا الموسم! وأنا؟ أنا الأخت الكبرى أبقي وحيدة عزباء أشاهد جَمال أمك؟ تعالي هنا.

هجمت على أختها، لكن هُوشَة كانت مستعدة لهذا الاحتمال، أسرعت هاربة إلى البيت، وهناك اختبأت في حجرتها وأغلقت الباب من الداخل. أمها تصيح فيها مــن الخارج ما الخبر؟ هل جرى لكِسبانة شيء؟ هل عرض عليها معتوق العبد الزواج بسمكة مرّة أخرى؟ قالت لها هُوشَة اذهبي واجمعي الأغنام لأني تشاجرت مــع كِسبانة. اطمأنت تَعويضة، ولمّا اتجهت إلى باب البيت، وجدت كِسبانة تدخل، ومــا كــادت.. حــتى صبّت طوفاناً من الشتائم على هُوشَة ودعاءً عليها بالموت والشلل مثل هاشم الكيد والغرق مثل سِيّي وتتخطفها الشياطين. فهمت تَعويضة الأمــر، تــركت كِسبانة جالسة على باب الحجرة من الخارج تواصل لعناتها على هُوشَة، وذهبت مسرعة لتأتي بالأغنام.

أتــي الأب ليــلاً. لم يكن في حالة سُكر بيّن هذه المرّة. جلسوا للعشاء، هو وتَعويضــة فقــط على الحصير الذي فرش في الحوش وبينهما طبقان صغيران. سَليمتو يأكل صامتاً، لم يسأل أين هُوشَة؟، لم يتعجب لجلوس كِسبانة بعيداً مستندة على الجدار، خدها على كفّها في حزن ونور الفانوس يصل إليها ضعيفاً فزاد من بــؤس مــنظرها. تَعويضة تمضغ اللقمة الصغيرة في أناة وهي تنظر إلى سَليمتو لعله يسأل عن ابنتيه، لكنه هادئ لا يبالي. لم تجد بدّاً من الكلام..

-والله يــا سَليمتو أنت أبرد من أن تؤدب هُوشَة، ابنتك المغرورة بجمالها ستجلب علينا العار.

سأل سَليمتو وهو يمضغ لقمة في هدوء تعودوا عليه..

-وماذا فعلت هُوشَة؟

-مــاذا فعــلت؟، تقول ماذا فعلت! أقول أنا لك ماذا فعلت. هُوشَة تقول أن سلاطين يريد الزواج منها! هكذا! البنت الصغيرة تتفق مع الشباب وعلينا نحن أن نطاوعها صاغرين. الدنيا هذه الأيام تسير بمؤخرتها!

-..

-البــنت الــتي كــنت أظــنها مؤدبة، تصير بنت قليلة الأدب قليلة الحياء. سَليمتو.. تكلم واترك الطعام قليلاً يا مفجوع.

-وما العيب؟

اعتدلت كِسبانة من المفاجأة. تصلبت تَعويضة في ذهول..

-إبيوو -إبيو. والكبرى يا رجل؟ ابنتنا الكبرى! كِسبانة شبيهة أمها، أليست ابنتك، أم نسيتها لأنها قبيحة؟

سعلت كِسبانة وشرقت مع أنها لم تكن تأكل. أسرعت إليها أمها بكوز ماء. تناولت جرعتين ثم قذفت بالكوز بعيداً على الرمال ولم تعده إلى أمها المنتظرة له بجانبها، فعادت تَعويضة إلى الجلوس بجانب زوجها..

-ماذا قلت يا رجل؟

-أنا موافق.

-والله أنتَ رجل معدوم النخوة معدوم المروءة معدوم الرجولة. لقد قطعت أمــلي فيــك تماماً. الآن سأذهب إلى زَجِرْ ابني. عيناي لم تعودا تريان ليلاً، لكني سأذهب إلى زَجِرْ.

-وهو موافق.

-آهَاا. ابني القلة سار خلف أبيه الزير البارد.

-المصلحة يا تعويضة.

-مصـــلحة! أي مصـــلحة؟ آهاا!. هناك مؤامرة دبرتموها معاً. كلكم. أنت وزجِرْ القلة والبنت هُوشَة العبيطة.

نـــامت كِسبانة تحت السقيفة وبدون أن تتناول عشاءها. سليمتو وتَعويضة نامـــا في الجانب الآخر من الحوش، أبعد ما يكونان عن كِسبانة. وقبل أن يصبح الصباح، كانت تَعويضة قد اقتنعت بالأمر، شرح لها سلميتو أن دخله سيرتفع على الأقـــل مـــرّات ومرّات. وانه لو لم يتعامل مع سلاطين ليرتفع دخله سوف يحاربه ســـلاطين. عنده ثلاث مراكب وسوف يمتلك المزيد. أغراها بأن ابنهما زجِرْ بدلاً من عمله الآن كأجير عند سلاطين، سلاطين نفسه سوف يساعده ليكون له مركب خـــاص، مـــلكه وحـــده، مركب كبير بشراع أكبر، يعمل في نقل بضائع سلاطين ويصير غنياً. كل هذا مشروط بزواج هُوشَة من سلاطين.

فـــي الصـــباح تدهورت حالة كِسبانة بعدما انضمت أمها إلى صف هُوشَة، تَعويضـــة تحـــاول إفهامهـــا.. التقاليد القديمة لا تنفع مع أيامهم هذه. والمكسب والغنى سيكون للكل وستجد ألف زوج بنقود أبيها وأخيها.

لم تستكف كِسبانة بالبكاء. صرخت..

-إبيوو -إبيو. إبيو كِسبانة إبيو.

ولْوَلَـــتْ وســـكبت عـــلى رأسها رمال الحوش. فتحت باب الدار وصرخت صـــرخات متوالية إبيوو-إبيو. أمسكت بها أمها لتعيدها بعيداً عن الباب لكنها لم تقدر عليها. هُوشَة كانت قد خرجت فزعة من العويل. ارتدت إليها كِسبانة، أخذتها مـــن شعرها، أطاحت بها أرضاً وبركت عليها تضرب فيها وهي تلعنها. لم تستطع تَعويضة إبعاد كِسبانة المتوحشة عن الابنة الصغيرة الرقيقة. سليمتو كان قد غادر البيت مبكراً، تاركاً مهمة إقناع كِسبانة على عاتق تَعويضة.

ســـريعاً امتلأ الحوش بالسيّدات وبعض الرجال. أبعدوا كِسبانة عن هُوشَة. اســـتمرت كِسبانة في صبّ اللعنات على هُوشَة، تشهد الجميع على جبن وبرودة

أبيها الزير البارد وأخيها زجِرْ ووضاعة أصل أمها أم لِسانين. انصرف الرجال. لم تهدأ كِسبانة إلا بعدما أقسمت أمها أنها لن تزوج هُوشَة قبلها، عندئذ، بدأت تهدأ وتعـي ما حولها. نظرت إلى بعض النساء اللاتي مازلن واقفات في حوش بيتها يبتسمن على ما يحدث. اتجهت كِسبانة إليهن غاضبة..

-وأنـتن يـا نسوان، ألا تذهبن إلى دياركن لتباشرن أعمالكن بدلاً من أن تتدخـلن فـي شئون عائلتي؟ ألا تذهبن إلى النهر لتملأن الجرار وتعبأن أزياركن الفارغة؟ تأتين لبيوت الناس وأنتن في جنابة امتطاء بغالكن لكُن؟ نسوان ناقصات عقل ودين صحيح.

خـرجت النسـاء يضحكن على الابنة التي صارت مثل أمها غليظة قسمات الوجه طويلة الجسم واللسان.

وحيـن وافق سَليمتو على تأجيل زواج هُوشَة كما اقترحت عليه تَعويضة، صُدمت هُوشَة وقررت تقليد فُوزية فيما فعلته وأضربت عن الطعام. يومان وأقبل صـباح الـثالث. لـم يسأل سَليمتو عن ابنته التي لم يدخل معدتها سوى الماء المحلي بالسكر والليمون.

هَـزلت هُوشَـة، ضـعفت. تَعويضة تبكي حزناً وخوفاً على ابنتها. هُوشَة سقطت أرضاً وهي ذاهبة إلى دورة المياه التي في أقصى الحوش. أغشى عليها. أعادتهـا تَعويضة وجلست بجانبها تبكي وهُوشَة ترفض الطعام. بالضغط والرجاء وخشـية الموت ارتوت بجرعتين من شربات البلح فتشرب جسدها بإمداد غذائي غني رغم ضآلة ما شربته. هي على يقين من حب كِسبانة لها وأن قلبها سيؤلمها عـلى أختها. لقد اكتسبت هُوشَة أسلوباً تضغط به على أمها وأختها حتى لو كان بتعريض صحتها للخطر.

القلق أتعب سلاطين حين عرفت القرية بامتناع هُوشَة عن الطعام. يتماسك موقناً بأن ما تفعله هُوشَة سوف يأتي بنتيجة سريعاً. لا يهمه لغط الرجال خاصة، عـن انفلات البنات ورغبتهن في الزواج حسب اراداتهن وحدهن. القيامة اقتربت كما يقول كبار السن خاصة من النساء!

صـــباح اليـــوم الـــرابع. دخلت كِسبانة على هُوشَة حاملة صينية الخوص وعـــليها سلطانية كبيرة من ثريد اللبن الساخن، وضعته أرضا، صعدت إلى سرير هُوشَــــة وتمددت بجوارها. أشاحت هُوشَة بوجهها بعيداً عن أختها. كِسبانة تمرر أصابعها على شعر هُوشَة في رقة . .

-ماس -كاج -نا، هُوشَة؟

-..

-ألا تسمعين سلامي؟ مازلت في خصام معي يا هُوشَة؟

-..

-لأنـــني أعطيـــتك عـــلقه ساخنة! وماذا في هذا؟ الست أختك الكبيرة؟ ثم يعني.. أنا وافقت على زواجك من أبي شرّين.

هبّت هُوشَة من رقدتها وجلست تنظر إلى أختها غير مصدقة . .

-صحيح؟

-إيْ.

صـــاحت هُوشَــــة صيحة طفولية وهي تلقي بنفسها على صدر أختها اللدود المســـتلقية. دخلت تَعويضة عليهما. تنظر إليهما لتفهم ما الأمر. كِسبانة وأختها مازالت مستلقية بنصفها العلوي عليها تقول . .

-وافقـــت، تزوجي سلاطين. سأعنس أنا وأسلى نفسي بالمعارك مثل أمي، إلا إذا وجدت زيراً يسترني مثلما ستر أبونا الزير أمنا تَعويضة لِسانين.

ضربت تَعويضة كفها على صدرها صارخة . .

-إب ب ب. بنت! ماذا تقولين على أبيك وأمك يا بنت الكلب؟

ضحكت هُوشَة فقهقهت كِسبانة فارتمت تَعويضة عليهما تحتضنهما ضاحكة. ثم هبطن أرضاً يتناولن الفطور سوياً.

لفقـر أسـرته ولاضـطراره أن يكون أحد دعائمها المادية، خاصة بعد أن صـارت الـريالات الفضية هي أساس التعامل وهي أساس القيمة عند الكثير من نـاس القرية، كان قرار صوفاني بعدم استكمال دراسته في أزهر القاهرة مع بلال صَلاتو ومصطفى خيشة. قرر العمل في سُوين مدرساً للغة العربية. القرار أحزن أسرته، لكنها تعلم اضطراره، تعنت خيشة أبأسه، فما كان منهم إلا أن ذهبوا للمرّة الـثانية طالـبين مـن خيشة يد حفيدتها بهيتَة. ولثاني مرّة ترفض خيشة. أتاها الشـيخ بنفسه، أصرت خيشة على الرفض. حاصروها واشتد عليها الشيخ رافضاً مـبررها بحكايـة اسم العائلة. تبكي خيشة وتنهمر دموعها بغزارة. تشد شعرها وتحاول انتزاع جديلتيها في قسوة..

-زواج بهيتَة من خارج العائلة سيقتلني حَسَرة ويقتل بذور أجدادي وذنبي في رقبة بهيتَة.

بهيـتَة هـي التي صارت ترفض صوفاني بنفسها. ذهبت إليه وسط ناسه. ترّجـته أن يتزوج غيرها فهي لن تكون له. تركتهم وهم يعلمون كم تتعذب بهيتَة بقـرارها هـذا. ربما أكثر من عذاب صوفاني. القرية كلها تتناقل حبهما العفيف لبعضـهما. الأغـلب يـتفهمون موقف خيشة فضياع السلالة كارثة، مع تقديرهم للحبيـبين، يقـارنون بيـن أدب وطاعة بهيتَة لجدتها واسم عائلتها وبين نشوز وأنانية فُوزية وهُوشَة. والأقلية تتفهم موقف الحبيبين، خاصة السيدات صغيرات السن، ويعتبرن أن ضياع هذا الحب العفيف بين صوفاني النبيل وبهيتَة.. خسارة. خاصة بعد أن ترك صوفاني القرية ورحل لسُوين، فقد اكتشفت النساء أن صوفاني بتكوينه الخاص بالغ الوسامة والرجولة، وأنه فاتن بالنسبة لهن، وكيف لم يعرف أكثرهن ذلك من قبل؟ حديثهن وحديث النساء العجائز هو هذا النبيل الأبي الصامت دائمـاً والمعتز بنفسه أبداً. وإن كان الكل يتغنى بأغاني حب تاج طنبورة لفُوزية، فـإن حكايـة صـوفاني وبهيتَة أوقع في الوجدان عندهم. فهما الأصدق والأنبل، والمضحيان حقاً.. هُما.

بجيـوَة صبروا عليها. نصحها آبدون وأنّبها صَلاتو. بعض السَيّدات منهن هَكيمـة نصحنها. ثم سبتها سَيّدة وهددتها، لكنها استمرت في غيّها، ثم احتقرها

الجميع، منعوا بناتهن من مخالطتها. لم تأبه بجيوَة حتى بعدما جاءتها خيشة، فلم تستمع بجيوَة لرجاءات خيشة أقرب ناس القرية لها ولأبيها.

وبجيــوَة يظن ناس البلد أنها تلهو لمجرد اللهو وأنها لا تخجل، لا يعلمون أن تلك الفتاة مدفوعة إلى فعل ما تفعله، مدفوعة بجبروت نداءات جنسية فيها لا تُقاوَم، جبروت الجنس عندها زائد، مثلها مثل من أبتلى بمعدة واسعة. واستقبالها لسـلاطين ليـلاً به الكثير من خوف المستقبل. حقيقة تتألم من سوء سمعتها، لا تريد ولا تحب أن تكون في مواجهه مع القرية خاصة وهي غريبة الأصول عنهم. لا عائـلة حولها، أمها جوليه ماتت، لا خالة ولا عَمّة ولا خال ولا عم، فأين من تبث أرقها إليهم؟ أين من يحتضنونها ويبثون فيها دفئاً عائلياً فيمتصون توترها؟ لم يكن لها سوى خيشة. وخيشة عجوز نسيت لسعة الجنس ولم يلسعها إحساس كونهـا غريبة عن القبيلة وأقل قيمة عندهم، نصائحها لبجيوَة جامدة لا روح فيها تكاد تكون تحصيل حاصل. نصائحها تكرار فاتر على كون بجيوَة غريبة الأصل من فرع والدها، مهينة الأصل من فرع أمها ولذلك عليها الحرص وعدم إغضاب ناس القبيلة. بجيوَة تكره حديث خيشة لها، لا تريد رؤيتها حتى لا تسمع حديثها الممل الفاتر. أمّا أبوها الكيد الحجري، فلم يعطها قبل شلله إلا عطاءات الحصار والكبت بشـدّته وجـبروته، ولمـا سقط مريضاً،صار يطلق عليها شرر نظراته القاسية الكارهـة والتي تتوعدها بأنه قاتلها في أول فرصة تتاح له. وقع الكيد مشلولاً.. انطـلقت بجيوَة تعوض ما ظنت أنها حُرمت منه.. حريتها في فعل ما تريد وكما تريد. حريتها التي نالتها فجأة بدون إعداد. عمرها الصغير وتفاهة خبرتها، فورة الجـنس الزائدة عندها، رعبها إن رفضت سَيّدْ هَربية وأصرّت على إبعاده عنها، فتبقى عانساً أو يلتقطها أرمل أو مطلق أو عجوز يحتاج إلى من تخدمه ويلعب في جسـدها بجسـده المتهالك والذي شارف على الفناء. وربما أتاها من يطمع في حديقتها كما أتاها ذلك الكهل العفن من نجع المنحنَى. روافد كثيرة تدفعها لفعل ما تفعل، سلاطين لم تستطع كسره وإجباره على الزواج منها. حتى بعدما ضعفت هي أمام شهوتها وأكمل معها المضاجعة وجعلها امرأة. زاد رعبها من أن تتكَوّر منها البطن وتتضخم.. كيف سيكون حالها؟ لم تعد لها أيام طويلة لتجد حلاً. من يكون

لها زوج الآن؟ زوج شاب لا بقايا رجل والسلام؟ صوفاني الذي تخجل منه وتشعر معــه بشـــيء مـــن الصفاء ينسكب في قلبها لا تعرف لم؟ صوفاني يموت شوقاً لـــلزواج مـــن بهيئة وهو أعقل وأهدأ من أن يقع في بذاءاتٍ معها، وترك القرية هائمـــاً. فيّاج ، إنه أذكى من ذلك وسبق لها أن حاولت معه فاستهان بها وارتاب، أهانهـــا بتركه لها مستلقية له. أولوا، دلّوع هكيمة الطّري. لن يستطيع أن يكفيها كذكـــر وهـــو الشـــاذ. ثم إنه يريد ابنة خالته، يريد راضية. وتاج طنبورة.. إنه لفوزية .

تداخلت الخيوط بين يدي بجيوَة، تزيّن لها نفسها بتكرار المحاولة مع فيّاج، تعـــلم أن فيّاج خطب راضية. لكنها موقنة أن راضية لا ترغب فيه، راضية تميل لـــبلال، ثم إن راضية نحيفة ولا تمتلك جسداً متفجراً مثل جسدها البازخ. فلتحاول مع فيّاج. لتحاول أيضاً مع صوفاني النبيل، لعله يكون تَعب من رفض خيشة ويقع تحـــت تأثير جسدها وحديقتها وهو الفقير، لتحاول. حتى مع بلال الأبي، لتحاول. بل لن تستبعد المحاولة مع مصطفى خيشة إن حضر، وهو المشهور بأن هواه في الشمال.

رأته ذاهباً إلى نجع نجيبيّة على ظهر حماره، خلفه حمار آخر يسحبه محمل ببضـــاعة مـــن دكان أبيه. وفيّاج عائد، وفي مطلع الخور قبل أن يصل إلى حافة نجعه، وجد بجيوَة على ظهر حمارها تنتظر وتنظر إليه نظرات مفهومة. .

-فيّاج ، أريدك الليلة.

-ماذا؟

-في داري.. ليلاً.

-لِمَ؟

-ستعرف.

-لا. ليس فيّاج من يأكل فضلات سلاطين.

-كلب حقير. أنا لا أفكر فيك كرجل أيها المغرور. كنت ساشتكي لك من أبيك مُهدى.

-أبي! مالك وأبي ؟

-يطاردني. وكرر تهجمه على. ولما يأس مني عرض على الزواج يا فيّاج.

-كاذبة. أنت مجرد جِنّارة.

-الجِنّارة هي أمك عشيقة هَمَرين.

وثب فيّاج في سرعة من على ظهر حمارة ليمسك بها، لكن بجيوَة كانت قد لــوت عــنق حمارها وحثته فأسرع بها. كان بإمكانه الإمساك بها. لم يفعل. فإن امســك بهــا وضــربها، فماذا يقول لمن يسأله.. لماذا تضربها؟ كيف يتكلم عن حادثة أمه مع هَمَرين؟

طعنته بجيوَة لما طعنها، قالت له ما لم يقله أحد باللسان. طعنته بجيوَة ولم يــبرأ من طعنتها. كرهها ولم يشف غليله منها أبداً. حتى بعدما تزوجت زيجتها الثانية المحترمة من الذي يحترمه هو بالذات.. لم يسامحها، حاول إفساد زواجها الثاني. بقى حاقداً عليها، حاقداً على حديقة الكيد التي بقيت تذكره بطعنة بجيوَة. الحديقــة التي حاول شراءها من زوجها الثاني بأعلى من قيمتها وهي أصلاً ذات قيمة عالية. وذلك ليمتلك ما هو جزء من بجيوَة فيصير له، وكأنه بتجريدها من حديقتها، سوف يجردها من البند الوحيد الذي يعطيها قيمة خاصة بعد شلل أبيها، بتجريدها من حديقتها كأنه جردها من ملابسها. ربما يطفئ ذلك من النيران التي أشعلتها بجيوَة داخله، فشل.

عادت بجيوَة إلى بيتها. لا تستطيع أن تفهم.. لماذا تفشل مخططاتها وتنقلب عليها؟ كيف وهي تحّس بجسد الذكور ومدى تأثيرها على جسدها، كيف لا ينهار الذكــور الشباب تحت سطوة جسدها؟ كيف تخر لسلاطين فينال منها، ولا يخر لها صــوفاني ولا بــلال. ولا يخــر عند قدميها ساجداً فيّاج ولا ينتبه لطغيان جسدها معتوق الخير، ولا تجد من يخر لها غير ابن هَربية.

خــرجت والقــلق يملؤها. اتجهت على حمارها إلى خور البحر مرّة أخرى. عــبرت إلى نجيــبيّة وتخطــتها إلى نجع المنحنى. لا تأبه بالشمس التي اشتدت. صــدمتها زغــاريد إعلان خطبة فوزية على تاج طنبورة. ازدادت حزناً. رأت من تقصــده عــلى حماره يبتعد عن الزحام في صمت. وحده.. صوفاني. أسرع بها حمارهــا لــتوازيه. صوفاني الذي سبق عمره برزانته فصار في هدوء وترو ابن الأربعيــن. حَيّته فحيّاها في هدوئه الرقيق. يتجه وتتجه معه إلى نجعه، المنحنى. تحادثــه بجمــل متوترة مبعثرة وهو صابر عليها.سار معها توقفت وتوقف بين خميــلة دوم كــثيفة. ظلت تنظر إليه في انكسار الأنثى وتوهجها.. أمالت رأسها بدلال..

-طلبــني الكثيرون للزواج يا صوفاني. آخرهم ابن هَربية. و.. وسلاطين. أنت تعرف أنه يريدني من زمن كنّا فيه أطفالاً. لكنّه..شرّير، بل شرّين على رأي تَعويضــة. ثــم بعــد أن نبش مقبرة الأسلاف، لن أتزوجه. أما من أرادني لأجل حديقتي فأنا أحتقره. اسمع.. حديقتي. وما ادخره أبي لي..

ابتسم صوفاني ابتسامة تسامي وحُنو من سذاجتها. لكنه يرى بعينيه ويدرك بعقله وقلبه، مدى الحيرة والانكسار التي تملأ عيني بجيوَة..

- تعلمين أين مطلبي.

- أعلم، لكن خيشة لا تريد تزويجك بهيئة. وأنا قلبي عندك أنت.

- أشك في ذلك.

- أتعلم بأحوال قلبي أكثر مني؟

-..

- تعــلم يــا صوفاني أن لك مكانة عندي. تعلم أنني احترمك كثيراً وأشعر بالخجل منك أنت وحدك، لا من أي من زملاء الكتّاب.

-وقلبك عند سلاطين.

- إشاعات.

- وســـلاطين قلـــبه عند هُوشَة. بِجيوَة، لن تَسلّي سلاطين يا بِجيوَة، فأنت تشتهينه.

- أنتَ قاسٍ.

-الحياة هي القاسية يا بِجيوَة.

بِجيوَة تمسح دموعها..

-هل تظن أن بلال.. أو مصطفى..

-لا. بـــلال ليس لكِ. مصطفى خيشة وإن كان يعود أحياناً معنا كل صيف، لكنه ليس لنا.

-..

- لا تـــبكي يا بِجيوَة. بئر الحَسْرة نشرب منه سوياً. أنا وأنت وفيّاج وبلال وأولوا وبهيتّة وراضيّة وحتى سَيّد هَربية.

- صوفاني، سأتزوج سَيّد.

- خطأ تدارين به خطأ آخر. ستندمين.

- ليس عندي حل سواه.

- اصبري قليلاً، دعي الأيام تأخذ فرصتها. ربما أتت لك بما هو أفضل.

- الأيام ربما فضحتني يا صوفاني.

- بِجيوَة ! هل..؟

- إيْ.

-..

- ساعدني يا صوفاني. تزوجني وسأكون عبده تحت قدميك طوال عمري.

- ليتني أستطيع. كنت أغار عليك ونحن أطفال. غيرة شقيق على شقيقته. لكنك لم تتركي لي فرصة حمايتك من سلاطين. حمايتك من نفسك.

- لا أتحمل اللوم الآن يا صوفاني.

- ومن يلوم من؟ أنا لا ألومك. أنا منسحق مثلك. مُهان مثلك.

- ليس لي إلا ابن هَربية.

- ليس لنا إلا الصبر. اصبري على بلائك هنا، أمّا أنا فسوف أصبر على بلائي هناك.. في سُوين.

لم تمر أيام، وبعد صلاة العشاء،أتي الشيخ صَلاتو مع هَربية وابنها سيّد. وفي حجرة المشلول، كانت خيشة معه. تحدث صَلاتو. سمّي باسم الله وصلى على النبي محمد وطلب يد بجيوَة إلى سيّد هَربية. على أن يقيم سيّد وأمّه في منزل هاشم فلا يفقد الكيد ابنته التي تراعيه في مرضه. هز هاشم رأسه بالموافقة، أبلغوه من قبل فلم يصدق، فلما علم بمن هو العريس ابتسم ابتسامة غُلب.. اختاروا لابنته من يتزوجها بعارها. ولما أراد الشيخ وضع كف يده اليمنى في يد الكيد اليسرى السليمة، أشار الكيد ليمناه المشلولة فأمسك بها الشيخ، وكانت يد الكيد باردة. قرأوا الفاتحة. بعدها هاشم بصوت مضغوم ضعيف يتحدث ولا يفهمه أحد بسهولة، لكن بقسمات وجهه المشوّه مثل لسانه، بتشنجات جسده ونظرات العينين الممتلئة بالرغبة في الانتقام والعجز المهين وبعض الحروف التي ربطها السامعون بعضها ببعض، تبينوا أن الكيد يعلن براءته من ابنته.

قبل أن يخرجوا من البيت، طمأنها الشيخ بأنه لن ينطق بكلمة مما قاله أبوها، لكنها قلقة ولا تريد أن تهتز صورتها أمام ناس القرية أكثر وأكثر حين يعلمون ببراءة أبيها منها. هَربية تحت ضغط الشيخ أقسمت بعدم الثرثرة بما كان. لكنها رفضت رفضاً قاطعاً أن تترك بيتها وبيت زوجها سليمان حتى لو كان قد مات من مواسم. لن تأتي مع ابنها لتعيش في بيت بجيوَة.

خيشة تمسح دموع الحزن. تنهنه وتتمتم بالدعاء بالستر للكيد ولبجيوَة وتترحم على أمواتها وعلى جوليه أم بجيوَة.

سَيّد هَربية. ترك الشيخ يحادث هَربية وخيشة ودخل في حجرة دخلت فيها بجيـوَة. وجدهـا جالسـة أرضاً بجانب سريرها. جلس بجانبها ووضع يده على كتفها يسألها . .

-لم البكاء؟

-..

-تحدثي لي فأنا خطيبك يا بنت؟

-لم تنطلق زغرودة واحدة في ليلة قراءة فاتحتي. ألا يستحق هذا البكاء؟

-سنعوض كل شيء في ليلة العُرس يا بجيوَة.

هَـربية تـناديه. قام مبتعداً عن بجيوَة وهو يتمني أن يحتضنها. بكاؤها لم يخف أنوثتها عن عينيه المتعطشتين لها.

خـارج الـبيت، الشيخ يحادث خيشة. وقع حوافر حمار يبتعد. هَربية كأنها فارس على الحمار الذي يسرع بها بين طيات الظلام وطرحتها تتطاير في الهواء. في دارها، بمجرد دخول سَيّد، هجمت عليه هَربية وأطاحت بعِمّته وأمسكت بشعره وجذبته ثم هبطت به إلى الأرض تلعنه وتسبه . .

-ألـم تجـد إلا بجيـوَة يا ابن هَربية؟ ألم تجد إلا من تبرأ منها أبوها يا حمار؟ غصبتني على الموافقة يا كلب. تأخذ الجِنّارة المستلقية في الحرام، فتأخذك في بيتها وتتركني وحيدة يا أبله مثل المرحوم أبيك.

أبعـد سَيّد يدي أمه عن شعره. أسرع إلى حجرته وأمه مازالت تصرخ فيه وتطارده . .

-أجبرتني على الموافقة يا تيس. لن أذهب معك.

-وافقت يا يو. وافقت يا أمي أن تأتي معي. لم تلحسين وعدك؟

-أترك بيتي وبيت أبيك لبيت رجل غريب؟

-إنه مشلول يا ولَيّة.

-شـلك الله، تتركني وحدي وأنا العجوز لتبقى عند هاشم! هل تشفق على هاشم أكثر من شفقتك على أمك؟

- أنت صحتك صخر يا ولَيّة.

-وتحسد أمك؟ وهل ستعود إلى أمك لو مرضت أمك؟ صباح الغد سأكون مريضـــة مــرض المــوت وســنرى ماذا ستفعل يا عبيط القرية. هَوَستك بجيوَة بمؤخرتها، اتركها وابعد عن نارها يا شبيه أبيك.

وقف سَيّد على باب حجرته والتفت إليها..

-لا. لا. لا. لن اتركها.

اليــوم الثاني انتشر الخبر، هَربية تستقبل المهنئين في برود لتبيّن لهم أنها غير مقتنعة، وأنها أصلاً لم توافق. لذلك كانت الزغاريد قليلة فاترة. أمّا في حجرة الكيد، فلم تستطع امرأة واحدة أن تزغرد أمامه وهي ترى دموع القهر تنحدر على خدّيــه. خــرجن حزيــنات.. لكنهن في الحوش يطلقن الزغاريد مهنئات متذكرات جوليه محييات لروحها الباقية معهن. لكن.. كيف تحطم الكيد؟ ذلك العنيف الشديد الصخري الذي لم يكن يلين؟ الذي كن يهبنه أكثر من هيبتهن وخوفهن من آبائهن وأزواجهــن وإخوتهن؟ رأونه اليوم يبكي وهو مستلقٍ على ظهره كوسادة ليس لها في أي أمر شيئاً.

لــمْ يكــن ســلاطين مشغولاً بتجارته وارتباك حساباته ودهاء التجار الذين يــتعامل معهم فقط، بل هناك أمور مهمة أخرى يستكمل بها أرضية قوية لتجارته ولتصــفية حساباته القديمة، وأحد الأمور الهامة.. كيف يكسر خطبة قيّاج مُهدى وراضيه العمدة؟ راضية قبلت بقيّاج وهي لا تريده، وقيّاج رغم إعجابه براضية، فهــو ليس بساذج لينسى أنها بند يكسب به ويصعد، خاصة أمام صعود سلاطين الســريع. مُهدى سعيد، فشل في المرة السابقة حينما أخطأ وبان جشعه في سحب العموديــة إلى سلالته. الآن قيّاج وأبوه في انتشاء لأنهما صعدا خطوة للعمودية مستقبلاً. لا يريد سلاطين الآن أن يخسر مُهدى الأصفر. القرية في خلخلة وتحوّل وستســقط عــلى حجــره ثمــرة ناضجة قريباً. يريد كسب أكبر عدد من الأتباع

والأشياع من كبار السن، مُهدى، إسْهاج، يونس، وتحييد آبدون المنافس المنتظر لـــه، وحيـــن يـــتوفى العمدة، يجب أن يكون هو العمدة. وبعدها بإمكانه أن يحجّم مُهـــدى وغيره. أن يضرب كل من يتخطى حدوده منهم. سيكسب الرجال الأصغر سنّاً والشباب كله والكبار والنساء، سيكسبهم بالذهب والكرباج معاً.

مخـــازن ســـلاطين المتوسطة السّعة صارت مليئة تماماً، لا يبالي بركودها الحـــالي. مراكـــبه لا تكل. مازالت شهرته خارج قريته باهتة، لكن القرية صارت تشتري الكثير من بضائعه عن طريق دكانة مُهدى، أنواع جيدة من الأقمشة ناعمة أنيقـــة، صـــوف مقـــلّم وسادة. نوع من الأحذية بنفس شكل المركوب لكنه بالغ الأناقـــة، غـــليون للـــتدخين، أنواع جديدة من الدخان. وللنساء أنواع عديدة من أصناف التجميل، عطور،زيوت، أعشاب بالإضافة إلى المعتاد القديم. مُهدى وابنه انشغلا تماماً بالبيع، فالكثير من ناس البلد صاروا يمتلكون الريالات الفضية. فرع تصـــنيع العرقي وتجارته تركاه لوكلاء لهما مناصفة، يدر الكثير وإن كان عليهما بعـــض الـــلوم وبعض المهانة. كانت فكرة ممتازة أعجبت سلاطين وشهد لمُهدى بالذكاء لثاني مرّة في أيام قلائل. وإن كانت مكاسب سلاطين مازالت ضئيلة، لكن ما يربحه أن الكثير من ناس القرية من الذين لم يعملوا عنده، يشترون من مُهدى بأكـــثر مـــن طاقـــتهم تقليداً لمن امتلكوا الريالات من العمل معه، وسوف يدفعون أغـــلب محصـــولهم من البلح حين موسم الجني، وعندها سيركعون عند سلاطين طلـــباً لـــلعمل أو بيـــع بعض ما يمتلكون له أو لمُهدى نفسه، فلن يتركهم مُهدى ويمهلهم.

أمـــرُ الله نصحه بأن يزور نُوري، فنُوري سيموت في أية لحظة. سلاطين يعلم ذلك، ويعلم أن عَمّته سوف تلومه رغم أن نُوري هو الذي طلب منع سلاطين مـــن زيارتـــه. سلاطين لن يهين نفسه بطلب زيارة أحد يرفضه. يدعو أن يعيش نُـــوري لحيـــن أن يستعد هو للعمودية، وأيضاً لغرض آخر يعلمه الأشرم، الأشرم واحـــد مـــن اثـــنين أدركا أن سلاطين يسعد ويفرح كلما ازداد حال نُوري العمدة تدهوراً، يتمنى له العذاب الطويل وألاّ يموت سريعاً. سلاطين لم يتحدث بكلمة عن شعوره الشامت هذا. أما الثاني الذي يعلم ذلك التمني الشامت، فهو نُوري نفسه.

وهـو يتضخم ويتهالك بشحمه وسِمنّة تهلكه بمهانتها، زاره سلاطين مرّة واحدة مـع أبيـه أثمـان كُدرنة، تلاقت عيناه بعيني نُوري. قال سلاطين له الكثير بتلك النظرة.. كيف تبدل الحال بالطفل اليتيم الذي كان عندك مهاناً وأنت كنت ذا المكانة ولم ترحمه، صرت أنت الآن المهان وأنا ذو المكانة ولن أرحمك!

بعدهـا طلب نُوري ألا يزوره سلاطين أبداً. ولم يزره سلاطين ولم يره بعد ذلـك إلا جثة ضخمة بشعة يجر نعشها جملان ثم يصعد به حماران قويان إلى تل الجبّانة! منهما الحمار شبيه البغلة الذي سيتدلل به سلاطين نفسه.

فُوزية كانت أكثر من اشترت حاجيات النساء من دكانة مُهدى، فأبوها استلم الكثير من الريالات، كان يأتي له أثمان عند ساحة العمل التي أمام البيت، كل حين وحين بدفعات كلّما تجسّد وبان هيكلا المركبين. فُوزية أول فتاة في القرية جرؤت واشـترت رداءً وردياً لترتديه بدلاً من الجرجار الأسود التقليدي، وأضافت طرحة حمراء ومركوباً مذهباً نعله محفوراً بنقوش جميلة تترك أثراً على الرمال، فيعرف كـل من يراه أن فُوزية مرّت من هنا. تبعتها بعض الفتيات. بعدها ارتدت فستاناً فـتحة العنق فيه شاسعة تظهر أعلى الصدر! طرحتها الملونة مدلاة على القفا في دلال فظهـر الشـعر المجدول في ضفائر رفيعة شديدة الغزارة ومدهون بالزيوت والطيـب. وفـي عصر يوم فاجأت ناس القرية وهي تركب حماراً وترتدي جلباباً عجيباً ذا وردات صفراء وحمراء! والأدهى أن أكمامه لا تغطي إلا نصف ذراعيها! مـا ألقى الخوف في قلوب رجال القرية، أن الفتيات صرن يقلدن فُوزية في كل ما تفعلـه، وكأنهـا الكبش الكبير الذي يقود القطيع، هي المثل للدلال. تاج طنبورة سعيد بزوجة المستقبل وحبيبته. إنها تشعل قريحته وموهبته فغني لها..

يا سلاام..

يا مخضبة كفيك بالحنّاء الذهبية.. دوماً

وتتمخترين بجلبابك الأحمر .. دوماً

تستعرضين بذراعيك وقد رفضتا أكمام الفستان.. دوماً

جلبابك الأحمر يخايلنا بلونه المشع.. دوماً

ولحم ذراعيك الذهبيين يخايلان فستانك الأحمر.. دوماً

يا سلاام..

بعـض السيدات الشابات اتّبعن الفتيات المراهقات في تقليد فُوزية، والبنات الصـغيرات أخـذن فـي مسابقة الأكبر سناً، ثم تحولن إلى فئة تسخر من اللاتي مـازلن مُصِرّات على الملابس التقليدية. فُوزية البعض يغار منها. لكنها استمرت لفـترة طويـلة حـتى بعـد زواجها بمواسم عديدة، استمرت هي القائدة المُلهمة المُعلّمة لهن كيف يرتدين الجديد ويتدللن به.

بِجيـوَة حـاولت التغلب على شهرة فُوزية ومعها المال تتصرف فيه على هواها، لكن حِسّها الجمالي متواضع وابتكاراتها في فن التأنق معدومة. ارتدت هي الأخـرى الجِـرجار المـلون والجلباب النصف كم ذو الفتحة الواسعة عند الصدر والعـنق، فصـار عليها صارخ الأنوثة وجلب عليها شهوات الذكور أكثر لحلاوة ثدييهـا الممتلئين وفوره ووفرة جسدها، لكن تلك الملابس وتوابعها الحديثة على فُوزية أجمل وأحلى وأرق.

مُهـدى صـار يحـب فُوزيـة ويعارض الرجال الذين يلومونها ويحملونها مسـئولية انفلات البنات، أليست هي التي امتنعت عن الطعام فقلدتها هُوشَة والله أعـلم مـن بعدهـن؟ أليست هي التي ترتدي الملابس المتهتكة الفاضحة فقلدتها الفـتيات والسـيدات؟ أليسـت هـي السبب في كل هذه المصاريف التي تجبرهن نساؤهم وفتياتهم على صرفها؟ والغريب الذي استغربوا له وسعد به مُهدى وابنه فيّاج.. أن تجار القرى القريبة بدءوا يأتون إلى قريتهم ليشتروا من مُهدى كل هذا الجديـد ليبيعونه لناس قراهم! فكانت الحوارات سواء في الجامع أو في الجلسات الخَمرية أو الونَسات العائلية، كلها لها قاسم مشترك..

-الدنيا تنقلب يا هوووى!

-القيامة على وشك القيام يا ناس!

يونـــس حوّل غرفتين في بيته إلى دكان خياط. جعل لهما باباً من الخارج وبابــاً لداخل البيت. زبائنه رجال ثم لحق بهم بضع نساء من كل الأعمار. فانقلب المجبّراتي من كاره وشتّام لسلاطين إلى مادح له، يدافع عن انقلابه بقوله . .

- لــم أكــن أدرك كل الخيرات التي سيجلبها سلاطين. أما شرّه فهذا شيء والتجارة والمكاسب شيء آخر .

القــرية فــي غمْرة تحوّلاتها نسوا أمر معتوق الخير، لم يلحظوا أنه مازال يعمــل يوميــاً نهاراً وليلاً، ومن لاحظ لم يهتم. يستكمل حاجزه العريض الطويل بإصــرار رغــم أن الصــعايدة جاءوا وأنهوا ميناء سلاطين ومخزنه ومقر عمله سريعاً ورحلوا وهو مازال مثل نملة تعمل في بناء تل. وفي ليالٍ معينة، يعود إلى تكسير الأحجار بعدما استخدم كل ما اختزنه وجهّزه في الحاجز. وفي أواسط الليل أحيانــا يصــعد إلى قمة جبل فرعون. يصل إنشاده الجليل إلى ناس القرية صافياً رائقاً يسبّح لله . .

عِبَادِي لا تَسْهــــوا عنّي ولا تَلْهُوا

من بَطْشِنا خافوا ونفورنا صافوا

لِفَيضِنا وافـــــــوا

سُبْحانك الله.. سُبْحانك الله

ثم يمدح طه الرسول . .

تَجمّل يا مُكَمّلْ

بأنواع الكَمالِ

صلاة الله ربّي

على طه المربّي

وهُـــم بيـــن الإفاقـــة والسكْر، والحديث فوق ربوة مِجيد ليلاً في الحميمية والدف، تعمّد الأشرم أن ينحرف بالحوار ويذكر بلال لأمر ما. ثم أخذ سلاطين دفة الحديث ليتكلم عن بلال وكيف أنه شاب مهم، إنه متعلم وسيكون عظيم الشأن مثل جـــده صَلاتو. يتعجب السامعون عدا الأشرم. سلاطين يمدح بلال! ثم الأشرم يعود ليتكـــلم عن مشاهدات بلال صَلاتو في سُوين والقاهرة، وكيف أنه حكّاء موهوب، ثـــم سلاطين يأخذ المبادرة مرّة أخرى ليقول أنه شخصياً رغم العداوات التي بينه وبيـــن بـــلال، فهو يحب أحاديث بلال عن القاهرة خاصة، وعن الأبطال والمواقع الحربية القديمة. وهنا ضغط الأشرم على منطقة الوجع التي تؤلم فرداً منهم..

-ليس أنت فقط يا سلاطين من تحب أحاديث بلال، بل الفتيات أيضاً خاصة ابـــنة عَمّـــتك وأختك بالرضاع. راضية تحب أحاديثه وحكاياته والأشعار التي يلقيها أيضاً.

أولـــوا طُولـــب بالثبات وعدم المشاركة في حديث بلال وراضية. موضوع بـــلال يعـــود على لسان الأشرم. وخلال سيرة بلال يرشق اسم راضية حتى انفعل سَيِّد هَربية وصاح..

-ما هذا؟ كل حديث عن بلال صَلاتو تأتون بسيرة راضية العمدة؟ لا هو ابن عَمّها ولا هو ابن خالها ولا حتى خطيبها!. خطيبها معنا هنا جالس كالجوال.

تشـــاتم فَيّاج مع سَيِّد فأنهى الجلوس تشاتمهم. فَيّاج في ضيق لكن لا يجد وســـيلة للشـــجار مع الأشرم حتى لا يظهر بمظهر الغيور من بلال. أغلق الأشرم الحديث بقوله..

-لا بـــلال ولا راضـــية يـــا هـــووي، نحن هنا نشرب وننبسط. ثم هل من المفـــروض أن كل من تعجب بشاب، أن يكون هذا الشاب ابن عمها أو ابن خالها أو خطيبها؟ إن بلال صَلاتو يستأهل إعجاب كل البنات. وهذا لا يضايق فَيّاج طبعاً.

فَيّــاج له مزايا لا يملكها بلال. وإن كانت راضية لا تلاحظ ذلك ولا تقدره، فليس الذنب ذنب فَيّاج يا ناس.

زجاجــة العــرقي يــنقص مــا بهــا لتمتلئ الأكواب فيتجرعها أفراد شِلّة الأفْشْطُفوش الذين شبّوا شباباً، وشبت في باطنهم نيران الصراع الوحشي مبكراً. تشــاغلوا في مواضيع شتّى وأتوا بسيرة أناس شتّى، لكن موضوع راضية وبلال هــو الجــاثم في قاع عقل كل منهم، كل بدرجة معينة، منهم من أحس بأن هناك مؤامرة تدبر، ومن أحس بشيء لكن لا يعلم ما هو. ومنهم من وصلته النيران.

انــتهت الســهرة بســماع الأغــاني من تاج طنبورة. وذهب كل إلى بيته، وأوصــلوا أولوا عند باب بيته، تسلمته هكيمة مقعياً على الأرض. أخذته للفراش وهــو يلعن فَيَّاج وبلال. لكن في تلك الليلة، تم الغرس الأول في بذرة غِل غرسها سلاطين والأشرم في قلب فَيّاج لتأتي بأكلها حين الحصاد.

ماعدا رحلاته التجارية في بعض القرى القريبة، والتي نادراً ما تكون، يكاد أن يصبح سجين دكان أبيه، يبيع الكثير. الريالات تملأ الصندوق وحسابات الديون على ناس القرية تتزايد في الدفتر. مُهدى بعدما أنهكته مشاجراته مع ابنه، صار يــتركه يأخذ ما يشاء على مَضض. يعلم أن ابنه كلما سمح له الوقت، يذهب ليلاً بزجاجة عرقي على حسابه الخاص في سهرة ربوة مِجيد.

فَيّاج، التوتر قائم بينه وبين راضية من قبل ألاعيب سلاطين والأشرم، في قــرار قلبه يوقن أن بلال لا يشتهيها وأن قلبه عند فوزية. لكن الغيرة من مكانته عــند راضــية تضايقه، ثم صارت تحرقه بعد أن ألهبه سلاطين وتابعه بما يشعل الــنار في قلب كل شاب من سنه، خاصة أن راضية لا تلقى بالاً له، مشغولة في خدمة والدها، وإن جلست بدون عمل وجالسها، لا يجدان حديثاً يجمعهما. يحكي لهــا عــن رحلاتــه إلى القريتين الجارتين جنوباً وشمالاً، وعن قرية أبي سمبل وتماثيلها الأربعة للفرعون الضخم والرمال التي تغطيها حتى وصل ارتفاعها لحد الذقن! لكن.. أين حديثه من حكاوي بلال؟ أين حديث فَيّاج الرتيب البارد من مَلَكَة بلال في الحكي؟ أين أشعار بلال الغريبة لذيذة الوقع على القلب؟ فَيّاج يعرف ذلك ويعرف أنها تعرف ذلك وتقارنه ببلال فيكون هو المغلوب. تتمنى أن يتحدث فيما

يحســـنه ولا يحاول مجاراة بلال في ميدانه. نَبْرة تحاول فتح مواضيع بينهما حين تجالســـهما قـــليلاً، لكـــن لا فائدة. جلساتهما ماسخة بائخة. وحين يختلي بنفسه يسائلها . .

-هل أخطأت في خطبتي من راضية؟ أنها هَمّ عَلَيّ وكنت أحسبها ويحسبها أبي بند قوة لي. ربما بعد الزواج ستكون لي قلباً وقالباً.

يجالس أباه قلقاً من فتور راضية تجاهه. يطامِنه مُهدى . .

-سيموت نُوري وستصير العمدة كما خططنا.

-لكن.. أبا شرين يصعد نجمه. أتباعه يزدادون يوماً بعد يوم. هل سيتركني سلاطين لأكون عمدته وعمدة قبيلته؟ أبداً.

-كُن مثله ذكياً وخطراً. كن أخبث منه تكسب يا فيّاج.

-آه، كم أكرهه وأكاد أكره راضية ابنة عَمّته.

-أكـــرهه هـــو. لكـــن لا تكره من ستكون زوجتك. لا تكره من ستكون لك مصطبة تعلو عليها. من ستكون لك رَبوة تقف عليها لتصعد الجبل.

حمـــل معتوق زنبيلين مليئين بالخضار المتنوع. امتطي فرهانة وفي حضنه عـــنزة سمينة. انطلقت فرهانة صاعدة من الحقول إلى النجع، تمر خلال الدروب صاعدة إلى دار عسل والغروب ينسحب. صاح معتوق . .

- يا هووي. يا هوووي. يا انـــ . اس البـــ . يت. تَعويـــ . ضة.

خرجت له هُوشَة. ابتسمت له . .

- ادخل يا معتوق.

معتوق بقى على فرهانة. أتت تَعويضة، وضعت يديها في وسطها..

- لمـــاذا تـــنادي يا ولد بصوتك القبيح؟ لماذا لا تدخل بدون إزعاج؟ ماذا تحمل؟ وإلى أين بكل هذا الخير؟ أهو لنا؟

- إيْ.

- إياك أن تقول تتزوج مِنْ..

- كِسبا. .نة. إيْ.

- إلهي وأنت جاهي لا تُكْسِب يا معتوق يا ابن أم معتوق أبداً. ألن تتعب يا ولد من إلحاحك؟ نحن نرفضك. كِسبانة تحتقرك يا عيي اللسان.

- زو. .جتي.

أتــت كِسبانة وعجين الدقيق مازال ليناً في ساعديها. تنظر إلى معتوق في تعالٍ..

- هُوشَــة، خذي كل ما يحمله بدون كلام. ولد عبيط يِهادي. خذي منه ثم اركليه.

لم تتقدم هُوشَة. تقدمت تَعويضة من معتوق. أخذت منه ما يحمله والماعز تماميء. رفع معتوق يديه ملوحاً مبتسماً. ثم أخذته قرهانة بعيدا.

تَعويضة تقلّب في محتويات الزنبيل..

-والله يا كِسبانة أنت عاقلة ومفترية مثل أمّك تماماً. خيرات معتوق كثيرة. لا ترفضـــين منه هدية أبداً. وليت هُوشَة العبيطة كانت مثلك، كنّا مَصصنا أموال سلاطين الكلب.

عبستْ هُوشَة وهي تبتعد غاضبة.

قــبل هياج النهر في موسم عنفوانه، عاد بلال صَلاتو في اجازة صيفية من أزهر القاهرة. احتفلت به القبيلة. بلال صَلاتو نجيب آخر من نجباء نجع نجيبيّة، تتوســم فيه قبيلته أن يكون يوماً عموداً من أعمدة القرية، ورجلاً تفخر به أمام بقيــة القــرى بعلمه وملابس الأزهر التي يصر جده صَلاتو أن يرتديها بلال في المناســبات. بــلال يخطف الأنظار بهذا الشرف الديني الكبير. ويأسف الكثير من

نـــاس القرية، لأن العُمودية بعيدة عنه، صَعب أن ينالها، فهو من بطن هَزيل من بطون القبيلة لا أرض لها إلا النذر اليسير ولا عزوة عددية.

خيشة احتضنت بلال، يحمل رائحة حفيدها العاق مصطفى، زميله في الأزهر الـــذي لم يأت معه، فقط يطلب المساعدات المادية. تسأل بلال أكثر من سؤال في وقـــت واحد، تتلهف أن تطمئن على الحفيد الوحيد.. صحته، علومه، ملابسه، هل يفضح القبيلة مع النساء الشماليات ناصعات البياض؟

صلاة المغرب كانت في الساحة الخارجية لجامع نجيبيّة، استوعبت الساحة الصـــغيرة المصـــلين بالكاد، ثم جلسوا في ضوء الفوانيس صفوفاً لتناول عشاء كرامة وصول بلال، وإعادة التهاني لصَلاتو والعائلة بوصول النجيب الصاعد.

ســـلاطين وســـط الحشـــد، حوله تابعوه ومنهم سَيِّد هَربية وخلفه الشابان الضـــخمان وقد صارا يمسكان بالكرابيج وكأنها زينة، لكن الكرابيج شعار سطوة، شعار قُوة وإن لم يصلا لسطوة وقوة بنادق خفر العمدة بعد. سلاطين فَخم يدّعي الـــرزانة فـــي كل لفتاته، وعند مواجهته لبلال منافسه في الكتّاب، حاول أن يكتم إحساســـا تفجّـــر داخلـــه يُقِـــر بتفوق بلال عليه، فبلال يقترب من إتمام العلوم، بالإضـــافة إلى تاريخ أسرته، فهو إذن أفضل منه على الأقل في أمر أو أمرين من الأمـــور، بـــل بإمكانـــه أن يكـــون مثل جده صَلاتو.. منافساً للعمدة نفسه، بعلمه الدنيوي والديني وبصفته شيخ القرية ومأذونها. تواجها. مدّا يديهما، سلام قوي، كل منهم يُصلّب كفّه في كف الآخر، كل منهما يفرد ظهره ويشد قامته في شموخ، نظـــراتهما مـــن عيونهمـــا المُشـــعات بالذكاء والإرادة تتلاحم في صراع وإظهار العنفوان. مظاهرة قوة. سلاطين يملؤه إحساسه بقوته الجسدية ووسامته النسبية وأمواله ومراكبه حتى ولو كانت مسروقة من مقابر الأسلاف. وبلال لا يقل عنه فخامـــة ملبس، خاصة وهو يرتدي ملابس شيوخ الأزهر التي لا يستطيع سلاطين أن يـــرتديها مهمـــا كان امتلاكه من نقود ذهبية. بلال الليلة كأنه عريس، جسده المشـــدود أقرب إلى النحافة والقِصر، لكنه صلد لا ينكسر، في عقله علوم وثقافة وأمـــور ديـــنية. في خلاياه بصمات عائلة صَلاتو. ابتسم سلاطين لبلال في شبه

استهانة، فأجابه بلال بابتسامه وجهه الداكن السمرة والذي يبرق من فمه أسنان تلمع لمعة صاحبها المتحدي الواثق.

ضـــربات دفوف هادئة ومعتوق الخير يتوسط الناس لينشدهم أناشيد المنشد عســـل.صـــوته ليس في حلاوة عبد الرحيم عسل، ولا في طلاوته. صوته أجش جهـــوري، لكـــن له ما يميزه ويقرّبه من القلوب والأرواح التشوق المناسب فيه تقـــرباً إلى الله. أمـــا طنبورة فليست هذه الليالي الصوفية الدينية لياليه، يجالسهم كشـــاب مـــن الشباب العاديين. ثم بعد العشاء يتسحب ليسكر بعيداً ولا يعود. هذا رغـــم حبه لأنغام التسبيح والإنشاد، يرددها خلف معتوق بمتعة، لكنه لا يستطيع الكـــف عن السكر البيّن. وإن شَرب من العرقي أكثر مما قد شَرب بالفعل، وبقي وســـط الـــرجال في الإنشاد فالكبار يطردونه ساخطين من رائحة العرقي المنبعثة منه. رغم أن بعض الرجال الموجودين سكارى أيضاً. لكنهم لم يشربوا إلا جرعات من مشروب الدكّاي، خمر البلح الحلو المُخَفَّفْ، والذي ينعش ويقوي ويشجع على تناول الطعام، لكنّه لا يُسكر فيطيح بجانب من العقل، وبخمر الدكّاي يستعد هؤلاء ويتأهبون أكثر للمديح والتسبيح!

فيّاج هو الشاب الوحيد الذي تخلف عن الحضور. قراره بعدم الحضور كان مفاجأة، لكن سلاطين والأشرم عدلا في تفاصيل خطتهما سريعاً. وبقى فيّاج راقداً ســـاهماً فـــي حجرته، قلقه ازداد سخونة بعودة بلال صديق راضية خطيبته. بلال الجمـــرة التي أرسلها له سلاطين بالتعاون مع الأشرم لتكويه. إن بلال هو الأقرب لراضية وليس هو. ديوانة مسكين تأتي وتنظر إلى ابنها من الباب المفتوح، نور الفانوس يلقي عليه صفرة باهتة.

ذهبت راضية مع الفتيات. بجيوَة سبقت الفتيات، أسرعت على ظهر حمارها متحمسة لخطّة سلاطين التي حُدّد لها الليلة إن ساعدتهم الظروف.

صـــوت معتوق يجلجل في السماء الصافية، ينطلق من وسط الرجال مرتفعاً إلى الأجواء الليليّة الحالكة بدون قمر..

سألتُكَ الكافِي

نَبِيُّكَ الصَّافِي

مُحَمَّدُ الوافِي

سُبحانَكَ اللهُ.

عـندما بدأت النساء في العودة إلى نجوعهن مبكرات، وانسحبن جماعات، كــانت يجيــوَة تراقب راضية، رأتها حين مالت على طفل وأرسلته. لحظات وأتى بلال يعدّل من وضع عِمامته. كانت راضية قد سبقته متجهة إلى نجعها. عند آخر بيــت من بيوت نجع نجيبيّة لحق بها بلال. سارا معا في ظلمة الليل ناحية جسر خور البحر.

أسرعت يجيوَة على ظهر حمارها. الرمال تكتم صوت الحوافر. وصلت حيث ينتظر الأشرم بعيداً. قالت له في صوت هامس حاسم..

-هيّا.

اتجه الأشرم ناحية الجانب الآخر حيث ركوبته هناك مع بقية ركائب الرجال. يسرع،لحقته يجيوَة بصوتها الحاسم الحانق..

-ليس لدينا وقت، هيّا. اركب خلفي.

الأشرم في حيرة..

-عرفنا أنك أشرم وأعرج، هل أنت أطرش أيضاً؟

بســاعدها القــوي ســاعدته ليمتطي الحمار. لاصق ظهرها تماماً. أسرع الحمار بهما. يهبط خور البحر من طرفه البعيد. رمال الخور في الظلام كأنها نهر عــريض مترع بمياه ثقيلة. النجوم ظاهرة ونورها لا يُظهر من يسعون على ظهر الأرض.

أمــرُ الله الأشــرم بلّله العرق، الخجل والرهبة والخوف من رد فعل يجيوَة مــنعاه مــن الانغمــاس في أحاسيس جنسية. وعندما صعد الحمار حافة الخور الجَــنوبية ومــالت بجسدها أكثر عليه وهبّت رائحتها تلفح خياشيمه بقوة، سخن

جسده واستنفرت أعصابه، كان الحمار قد وصل إلى أعلى بداية نجع أورّك. قالت بجيوَة ساخرة . .

-انزل.. أم استهواك الأمر؟

هــبط مــتدحرجاً في ارتباك فكاد يقع. كتمت بجيوَة ضحكتها. وهي تراقبه يغــوص فــي الظــلام بعرجته المضحكة، تكاد ساقيه أن تلتفا حول بعضهما من ارتــباكه وخجله. لوَتْ رقبة الحمار ومازالت تكتم ضحكتها متجهة إلى مدخل نجع أورّك الطــبيعي حيــث يصب جسر الخور وستظهر منه طلائع السَيِّدات والفتيات الآتيات من حفل الكرامة.

صــوت معــتوق الذي انجلى تماماً في الحضرة الصوفية يتصاعد ويتهادى على مخلوقات الله المحيطة . .

سبحانك الله .

رب الخلق أجمعين .

الأمر لك ربنا .

فارضى عننّا .

آمين . .

فيّــاج عقله شارد. في ملَل وضيق. يجلس وحده على المصطبة بجوار باب الــبيت. ارتطم الحجر بباب البيت الخشبي. الصوت ليس مفزعاً لكن فيّاج انتفض مفزوعاً، صرخ . .

-من؟ من ابن كلب ألقى بالحجر؟

أخذ خطوات هنا وهناك ينظر. عاد ليلتقط الحجر.

مــلفوف بورقة مثبتة بدوبارة. دخل يقرأها تحت ضوء فانوس . . "راضية عُمدة مع بلال بين أشجار حديقة الكيد" خرج يلعن بصوت عال من أرسل الحجر. لحظات حيرة، ثم أسرع مترجلاً تجاه حديقة الكيد.

بلال وراضية مرّا على الجسر، أطراف حديقة الكيد أمامهم، يسيران بجوار آخـر صـف مـن صفوف الأشجار متجهين إلى الساحة الكبيرة حيث بيت نُوري العمـدة، بلال مشغول بناء على رغبة راضية بالحكي عن العشّاق.. قيس وليلى، جميـل وبثينة. وغيرهم. تطالبه بإلقاء بعضاً من شعر العشّاق المساكين.. تسمع صوته الحنون ينشد لقيس ليلي وكأنه يغني..

قضَى الله بالمعروفِ منها لغيرنا

وبالشوق مِني والغرام قضَى ليا

أحَبُ من الأسماء ما شابه اسمها

أو أشبههُ أو كان منه مُدانيا

تعيـش راضية لحظات معه وكأنها ليلى وبثينة وغيرهما، لحظات تستحلبها حيـن تكـون وحدها وتحاول تذكر هذه الأبيات الغزلية، فلا تتذكر منها إلا لماما. تفيق معه وهو يحكي عن الأزهر ومآذنه والدروس الدينية التي لم يذهب إليها أي مـن أبـناء القبيـلة مـنذ أيـام موسى وآبدون جوش. وحتى هذين لم يستكملا دراسـاتهما. يحكـي عن المدينة وسحرها ووسعها وناسها الكثيرين. سألته عن حياتـه هـناك، عن حاله وهو بعيد عن قبيلته، بعيد عن أسرته. فأفاض. راضية تبتسم وتتعجب في رضاء وراحة تشعر بها معه. ثم صَمَت هو. شجعها على أن تحكـي. ومـا كـادت تـبدأ حتى أسهبت هي الأخرى. صار دور بلال الآن في الإنصـات، فـي تشجيعها على التنفيس. غرَقت في الحكي، تُفضفِض غباراً كثيفاً يخـنق صدرها، تَعَبها وحُزنها في بيت صار بيت حزن، آلامها من حال أبيها. ثم بَثت قلقها العميق من خطبتها لفيّاج. تُبَيِّن أنها لا تكرهه، لكنها لم تكن تفكر فيه كـزوج لهـا. إن من يشغل بال فيّاج وبال مُهدى أبيه هو سلاطين وليست هي. يحـاولان مكايدة ومنافسة ومحاربة سلاطين. تؤكد أنها تَشُم ما يجري في أغوار فيّاج. إن رغبته فيها كزوجة من حسابات أبيه. مثله مثل ابن عمة أبيها الذي أتى ليتزوجها زوجة ثانية بحجّة الحفاظ على منصب العمودية داخل العائلة، إنها عند فيّـاج مجـرد صـفقة. تستمر راضية في الحكي، في الشرح كيف أن فيّاج صار

صـــورة مصـــغرة لأبيه. صار كل قلبه وكل عقله في المكسب المادي والخسارة. صار فيّاج الأصفر. تماماً مثل والده.

- ماذا أفعل يا بلال؟

لمْ يقل لها افسخي هذه الخطبة. وهي تريد منه أن يقول ذلك لتفسخها فوراً، وبذلك تأخذ بلال إليها خطوة. ربما مال لها وفكر فيها وابتعد عن فُوزية خطوة. لم تفكـــر في هذا بخبث. قلبها دفعها. ميلها إليه. وبلال حريص تماماً. يدرك أنه إن نصـــحها بفســـخ خطوبـــتها لفيّـــاج، فهذا شبه وعد منه بخطبتها لنفسه، فكانت إجابته..

-لا تتســـرعي. ربمـــا كان هو الخير. وإن كنتِ لا ترغبين فيه، ففكري في الأمر سبع مرّات.

فجأة.. وجدا أمامهما شبحاً منتصباً في الظلام ويداه معقودتان على صدره. فيّاج! اقتربا منه في حرج..

- ماذا كنتما تفعلان داخل حديقة الكيد؟

تقدم منه بلال خطوتين..

- ماذا تقول يا فيّاج؟ عيب!

تركه فيّاج وتقدم ناحية راضية..

- إذا كـــنت تفضـــلين بـــلال، لماذا لم تأخذيه هو بدلاً منّي؟ ولا ضرورة للاختباء والاختلاء به بين الشجر ووسط الظلام؟

- فيّاج! ماذا تقول؟

أمسك فيّاج بشعر راضية يجذبها ناحيته..

- أم لأنك بنت العمدة فمن حقك أخذ رجلين ليشبعاك؟

قـــبل أن يمســـك بـــه بـــلال كانت راضية قد قذفت بيده بعيداً وبصقت على وجهه..

- حقير.

أسـرعت راضـية بعيداً. حاول بلال أن يشرح الأمر لفيّاج خوفاً من تلويث سمعة راضية وسمعته. لكن فيّاج دفعه بقوة بعيداً عنه وابتعد.

راضـية تندفع داخل دارها. سمعت شخير أبيها. باب الغرفة مغلق، النافذة أيضـا مغلقة، رائحة العرق الثقيلة راسخة. أمها نائمة على برش بجوار زوجها. ارتكزت راضية على ركبتيها بجوار نَبْرة وهزتها . .

- يو، أمي. يو، أمي.

فزعت نَبْرة . .

- راضية! ما بك يا بنت؟

توقف شخير العمدة وفتح عينيه في تثاقل. راضية في غضب وثورة . .

- يـو، والله العظيـم يا يو، والله العظيم لن أتزوج فيّاج الحقير. اغصباني وسأغرق نفسي في النيل والحق بسِيِّي.

قبل أن تستوعب نَبْرة محنة ابنتها، فاجأها خوار شديد بجوارها . .

- عاااا. عاااا. سِيِّي . . سِيِّي. عاااا. عاااا.

دور بجيـوَة انـتهى، لكنها تمادت. لم يطلب منها سلاطين أن تتقول على راضية. لكن لذّة تنساب فيها وهي تلوث سمعة فتاة من أهم فتيات القرية..

- فليـتقوّل المـتقولون على راضية مثلما يتقولون عليّ، ليتألم فيّاج الذي نعتني بالجِنّارة، وقد صارت خطيبته جِنّارة مثل أمه.

هكـذا تقول لنفسها، تبتسم سعيدة. تتأهب لاستكمال مهمتها مستغلة تجمّع بعـض العـائدات من حفل الكرامة حول الساحة الكبيرة حيث بيت العمدة وخواره المؤثـر. حكـت لهـن أنها رأت صدفة وهي عائدة وحدها، راضية عمدة وبلالا يخرجان من حديقة أبيها، ثم فيّاج يعترضهما ويتضارب مع بلال. ثم راضية وهي تجري عائدة إلى بيتها.

الـــليل طويـــل ثقيل ممدّد. في هذا البيت لم ينم في هذه الليلة سوى نُوري العمـــدة تحـــت ضـــغط شحمه الثقيل على نفسه. راضية مستلقية على برش في الحـــوش بجوارها أمها التي لا تكف دموعها عن الهطول دقائق إلا لتعود فيضاناً. وكـــل فترة تقترب من جسد ابنتها المستلقي في ذهول، لتهون عليها وهي تربت على رأسها ويديها، تخفف عن ابنتها وهي تحتاج ما يُخفف عنها.

مـــع أذان الفجر كانت راضية قد انصاعت لملاك النوم وبعدها نَبْرة التي ما لبـــثت أن اســـتيقظت عـــلى صياح الديكة ونقنقة الدجاجات وهديل الحمام ونـهيق الحمارة وثغاء غنمتين بقيتا لهم، يريد كل منها إفطاره. ضوء الشمس فرش نفسه عـــلى المكان، قامت تدعو الله أن يصبّرهم. فإذا بصوت نُوري الباكي يناديها. إنه أيضاً يريد إفطاره الأول، وبعدها بساعة زمن إفطاره الثاني. استيقظت راضية، ثم أتت لهما هَكيمة، ساعدتهما. ثم جلست مع أختها في ظل السقيفة. نَبْرة في مكانها بجوار الرحاية الصخرية، وكيس حبوب. اندمجت في الطحن وهي تحكي بالتفصيل لهكيمة ما كان من فيّاج تجاه راضية.

انطلقت هَكيمة على حمارها إلى بيت الكيد. بجيوَة ليست هناك، بجيوَة عائدة مـــن نجع نجيبيّة بعدما اطمأنت على أن الجميع سمعوا بما كان. لم تسلم بجيوَة مـــن إجابـــات غاضبة من النساء على ادعائها، بل نالتها قذائف تصيبها هي في شرفها. الصدود منهن أن يصدقن بتورط راضية عمدة وبلال صَلاتو في أثم معيب حتى لو كانا وحدهما في حديقة الكيد. حمارها يصعد بها حافة نجع أورك، وجدت راضـــية أيضا على حمارتها تنتظرها ومعها بعض الفتيات. أمسكت راضية بشعر بجيـــوَة فأمســـكتها بجيوَة بدورها. جذبتا بعضهما فسقطتا تحت حوافر الحمارين. بجيوَة جسدها قوي، يضعفها أنها تعلم الجُرم الذي فعلته وخوفها من تدخل البنات المصـــاحبات لراضية. وراضية يسراها شبه عاجزة وإن كان شدة غضبها والظلم الـــذي وقـــع عـــليها قد ملآها ثورة وقوة. أدميتا بعضهما ثم تدخلت فتاة ثم باقي الفـــتيات ضـــربا وجذباً في شعر بجيوَة حتى ارتفع صراخها. قامت تدفع الفتيات بعيـــداً عـــنها وهي تحمي وجهها. تركتها الفتيات وأمسكن براضية حتى لا تعاود

الهجــوم، وهــن يلعنّ بجيوَة التي تسمع اللعنات صامتة وهي تنفض الرمال عن وجهها وشعرها. ثم تستدير بحثاً عن حمارها، صدمتها صفعة قوية من هكيمة . .

-والله لولا أنك معدومة الأهل هنا، ولولا حبنا لهاشم الكيد وسيرته الطيبة، وأم لك كانت منّا وعلينا. لطردناك من قريتنا يا جِنّارة.

لــم تجــرؤ بجيــوَة عــلى رد الصفعة القاسية .ولا الأقسى من ذلك، سَبِّها وتشــبيهها علــنا بالعاهرة. ركبت حمارها مبتعدة في خزي انقلب عليها والعيون تتابعها في تَشَفٍ.

إن كــان مــا وقــع لديوانة مسكين قد كتمه الناس كتماً وهم به عالمون، لوضــوح عدم حيلتها، فإن ناس القرية تكلموا كثيراً في موضوع فَيّاج من ناحية وعــن بــلال وراضية من ناحية أخرى. فلماذا كثر الحديث؟ لا يعلم أحد! هل لأن صَلاتو لم يستطع إخماد الأمر بين مُهدى من ناحية وآبدون الذي تصدّى ضد اتهام فَيّاج لراضية من ناحية؟ هل لأن راضية مصممة على فسخ خطبتها من فَيّاج رغم ميــل مُهــدى للمصالحة؟ الأمر أعقد من ذلك. الأمر غير ذاك وذلك. المكتوم بدأ يتجسّــد، المسكوت عنه فجّره الكلام عن هذه الحادثة.. منصب العمودية. التناطح بيــن مــناخ جديــد مخيف يدمدم، ومناخ قديم كان راسخاً لأحقاب عميقة وحتى مواســم معــدودة مضت، والآن رسوخه يسيخ ويغرق. ليست البلبلة تخص أمراً جنسياً يقول البعض إنه حدث بين اثنين من أهم شباب القبيلة، البلبلة بلبلة وضع عام يمور.

أتــت النســاء ليواســين نَــبْرة، يقسمن لها أن كلهن يعلمن بشرف وعفة راضــية، حتى تطمئن نَبْرة أن سمعة ابنتها لم تمس رغم كل هذه الأقاويل. وكلما أتت النسوة إلى البيت زاد كرب نَبْرة، إن الموضوع ليس بالبساطة التي تتكلم بها النســاء، ما حدث الحديث عنه في الجلسات الخاصة يتسع ويشتعل، وإن تم كتمه ظاهرياً فقد تم رصده ونحته في التاريخ التحتي للقبيلة، سيسجل وسيرافق ابنتها فــي درب حياتها مثل عَجْز يسراها ولن يُمحى، بل سيستمر كواقعة حدثت سواء صدّق من صدّق أو كذّب من كذّب.

نـوري لا يفقــه مـــا جرى تماماً، إلا أنه يحس بأن بلاء حط على أسرته. معتوق يلازمه ويَتَوَنّس معه، وهَكيمة تدخل عليهما لتنضم للحكي معهما وتضحك كـثيراً بافـتعال! يســأل عن نَبْرة وراضية، تأتيه نَبْرة وراضية قليلاً ثم تعودان لاســتقبال نســاء الــنجوع الـثلاثة. آبدون وصَلاتو اضطرا أن يخبراه ويبسطا الموضوع عنده. استقبل الأمر بهدوء كاذب. طلب طعاماً وأكل وشرب ونام.

صَــلاتو وهــو خـــارج توقف في الحوش. تجمع من النسوة تحت السقيفة ونَــبْرة وســطهن. ناداهـــا فأتته. هزيلة منكسرة. قال بصوت تسمعه النسوة ولا يسمعه العمدة . .

-ابنــتك أشرف البنات كما كنت أنتِ وأختك وأمكما من قبل أشرف النساء. وبلال أشرف الشباب . إنه حفيد صَلاتو، حفيد الشيخ. اصمدا للقيل والقال. نعلم أن كيد النساء مؤلم. لكن كيد الله غالب بإذنه .

ديوانة مسكين تبكي، تلعن ابنها. تقسم لنفسها انه لن يجد من هي في أدب راضية، ولا في جمال راضية ولا في حَسَبها ونَسبها، وأنه ظلمها. وفَيّاج مازالت أعصـــابه محترقة من ضياع كنز المقبرة وتلف أعصابه يطغي على تماسك عقله. مُهــدى الأصفر يَسُب ابنه. حاول أن يدفعه للذهاب إلى بيت العمدة للاعتذار، لكن فَيّـــاج يرفض . ذهب مُهدى وحده، لكن لم تستجب لا نَبْرة ولا هَكيمة، بل منعتاه مـــن الدخول على العمدة. عاد والحسرة تكويه على مكاسب كان يطمع فيها. قال لفَيّاج . .

- اســمع يـــا فَيّـــاج يـــا بني. سنقلب المكيدة علي رأس سلاطين الكلب. وسأزوجك من ابنة أكبر تجار قرى عرب النوبة، جميلة وغنية. أنت تعرفها، فقد أرســـلتك مـــرتين إلى بيت ودكانة أبيها. تأخذها بورثها الثقيل، ونأخذ من أقاربها عزوة.. وتتشعب تجارتنا إلى قرية أخرى قريبة من ميناء كوروسْكو، قريبة من مدينة سُوين.

شريحة من ناس القرية هم من يشعلون نار الحكي بإصرار مقصود في هذا الموضــوع. يبــثون الســموم لتلويث الجُرح الذي انفتح، لا يريدون له أن يلتئم، يتساءلون علناً . .

- هل كانت راضية فعلاً في خلوة غير بريئة مع بلال في حديقة الكيد؟

- ممكــن الحدوث، هذا وإن كان بلال مهذباً، وأيضاً راضية لم يخرج منها العيب أبداً لا هي ولا نساء عائلتها. لكن.. الشيطان شاطر يا ناس.

- إي، إن بِجيوَة تغار وتريد تلويث سمعة راضية عُمدة لأن سمعتها سيئة. لكنها قالت ما رأته يا هووي.

- والمكان كان حديقة شاسعة متطرفة، والزمان ليل حالك، وهما في شرخ الشباب. والشباب دمه ساخن وعقله ساذج. المهم، ما حدث حدث صحيح. لكن الله يسامح ونحن نتسامح.

- الله يقول . . إن بعض الظن إثم.

- الله قال بعض. ولم يقل كل.

ســلاطين آلمه ما حدث لعمته نَبْرة وابنة عمته راضية. يسخط على بِجيوَة ووضح عليه شيء من لوم النفس. سأله الأشرم . .

- تحب عَمّتك وابنة عمتك. فلماذا فعلنا ما فعلنا؟

- صــحيح، أنــا أحــب نَبْرة وراضية. لكن لا مكان للعواطف يا أمر الله، الســؤدد لي، العمودية لي، لي شخصياً. وأنا الذي عليه أن يحوّل القرية إلى بندر لا يقــل عن سُوين. وسيعلمون قيمة سلاطين عندها تمام العلم. أنا يا أمر الله، أنا وأنا ابن أخت هَمَرين الذي قتلوه ورفضوا دفنه وسط مقابر أجداده. أما راضية.. لــم أطلب من بجيوَة أن تلوث سمعة راضية هكذا. كنت فقط أريد شيئاً من الشك الــذي يفك خطبتها لفيّاج. لكن تلك الغبية وجدتها فرصة لتلويث راضية ولإغاظة فيّــاج. ثم عندما يأس مُهدى وفيّاج من غفران راضية.. أمروا أتباعهما بالخوض بالوســاخات فيما كان بين بلال وبين راضية. لم أتوقع كل هذا الذكاء الخبيث من

مُهدى الأصفر. على كُلٍّ سوف تتزوج راضية من أولوا وتألفه مع مرور المواسم. وسوف تتلاشى تلك الفضيحة مع المواسم. وخالتي نَبْرة لها الصبر.

معتوق بات ثلاث ليالٍ في بيت نُوري العمدة، يسهر معه ويحادثه حتى ينام. يخـــرج إلى الحوش. يجالس نَبْرة وراضية. حديثه بعيد تماماً عمّا كان، يتكلم عن الرصـــيف الـــذي يبنيه، عن جمال الكون من أعلى الجبال، يقسم لهم أن من بنوا المعـــبد الذي يكلل جبل فرعون لا مردة ولا شياطين، بل ناس مثلنا كانوا يتجهون لعبادة الله. يحكي عن نوادر قَرْهانة، صديقته الحمارة الصغيرة، يشكو دلالها عليه وذكاءهـــا، راضـــية تضحك فتضحك نَبْرة. وببساطة يميل معتوق بجسده فيستلقي عـــلى ظهره لينام. لا يأبه بهما وهما تريدانه أن يقوم لينام على السرير الجريدي الذي تحضرانه له. في الصباح الباكر لا تجدانه. لقد ذهب لهاشم الكيد، ولعمل يوم جديد.

نَبْرة وهَكيمة، وقد أصرت راضية على الذهاب معهما إلى ديوانة مسكين. لم تأبـــه راضـــية إذا قابلت هناك قَيّاج أو مُهدى. ديوانة في خجل منهن. جلسن في حجرتها. حادثنها فترة طالت، ثم أخذنها بالإصرار المعهود وبشيء من الشدّة إلى الحمـــام. غســـلن جسدها من العرق المتراكم وهي مغمضة العينين، مازالت تكره جســـدها وترفض أن ترى شيئاً من عُريها. جلست في ملابسها النظيفة مستريحة مطمئنة أن من تحبهن لسن غاضبات عليها. الطمأنينة والاغتسال أعادا شيئًا من لمحات جمالها الغابر.

عـــند خـــروج الثلاثة، قابلهن مُهدى. أبدي أسفه وحزنه وكان صادقاً، فقد خســـر شـــيئاً كبيراً كان سيعينه وابنه ضد سلاطين والعصر السريع المتقلب الذي يدهم الكل.

أثمان وكأنه ليس شقيق نَبْرة وهَكيمة، لم يظهر في بيت العمدة خلال أزمة راضـــية. ابـــتعد تماماً، فهو يعلم يقيناً أن سلاطين خلف هذا الأمر. ليس له غير احتساء العرقي حتى يسكر تماماً. أفضى بحزنه إلى آبدون الذي هوّن عليه. جاءه مُهـــدى الأصـــفر ذات مساء. جلسا سوياً أثمان يشرب من زجاجة خمرة، مُهدى

يشـــرب كـــوز ليمونادة. فكانت أول جلسة ود تجمعهما منذ زمن طويل، لكنه ود المصلحة المشتركة.

أثمـــان لم يرحه لا آبدون ولا مُهدى، لا يريحه إلا الحوار والشجار والجدال مع أم لِسانين. يَنْفض معها حزنه. يَنْفض رماد الحزن الذي يحرق مصارينه. حكى لها..

- سلاطين شَرَّين. ابني. إنه يا تَعويضة يا أم لِسانين أشرّ منك ومن أبيك. هـــو الذي دبـــر الأمر مع بِجيوّة والأشرم. الأشرم الذي كنت أعطف عليه وأرعاه وأعاملـــه مـــثل ابني، انقلب تابع شر لسَيِّده سلاطين شرّين، صار مجرد مركوب يرتديه سلاطين. وكله بسببك. أنتِ السبب.

- أنا السبب! يا ضلالي.

- إيْ.. أنـــتِ مـــن عذبت الشرماء أمّه. أنتِ من عذّبت الأشرم ابنها حتى اضطر أن يأتي خادماً عند سلاطين.

تَعويضـــة الأسى يطفح على وجهها، تمسح دموعاً تهطل ولا تستطيع منع حروف حديثها من بث أساها على ما اقترفته في حق الشرماء والأشرم.

-آخ، أثمان، هذا الموضوع يحرق كبدي، فلنتركه.

-فعـــلاً، تهربين من إحساسك بالندم يا تَعويضة. اسمعي، لا تزوجي هُوشَة من سلاطين. ستتعذب معه.

-إنه يريدها يا أثمان. وهي تريده.

-هـــي تحـــبه، إيْ، لكن سلاطين لا يحب إلا نفسه. سلاطين يكره كل ناس القـــرية. صحيح إنه يحب راضية مثل أخته وهي أخته بالرضاع، لكنه فعل ما فعل بهـــا ودمّـــر خطبتها. يحب أولوا، ويعطف عليه، إيْ.. وكان يفعل فيه ما تعرفينه أنـــتِ وأعرفه أنا وكل ناسنا يعرفونه. ويحب هُوشَة، يريدها زوجة له، لكن.. لكن لا يعـــلم أحـــد مـــاذا سيفعل بها. لكن، ربما تساعده هُوشَة لتستقر نَفْسه، ربما. تَعويضة، سلاطين طموحه مثل طموح خاله هَمَرين. ناره التي في جوفه، ولا نار

جهنم يا وَلِيّة. هل ستترك ناره تلك المهولة.. بضع بقع حب خضراء؟ وإلى متى؟ لماذا لا تشربين معي كأساً؟

تغلبت تَعويضة على نغمة الحزن والأسى اللتين غلبتا على حروفها، عادت إلى حدّتها وحدّة لسانها المَنجلي..

-أثمان. ماذا تقول؟ أسكر مثل الرجال التيوس؟

-ومــاذا فــي ذلك؟ لقد صرت أخشن من الرجال. شاربك تنتفينه حتى لا يــبين، لكــن آثاره واضحة. تَعويضة.. أنتِ لا ينقصك من الرجال سوى عضو الذكورة.

-أثمـــان يا فاقد رغبات الرجال.. نسيت جمالي الذي كان يخبلك زمان؟ ألم تتمنَ الزواج مني؟

-زمان. لكن الآن أراهن على لباسي الداخلي، أنكِ أصبحت امرأة مَسدودة. لاشيء في نصفك التحتي مفتوح إلا فتحتي السائل والجامد.

-إسفَخْسْ عليك وعلى أمّك كُورنة.

رغــم أن الــليل هبط من وقت قريب، إلا أن المكان شديد الظلمة، لا قمر. والــنجوم كثيرة قريبة لامعة، لكنها كالعادة لا تنير الأرض. على ضفة بحر النيل نقيق الضفادع جوقات متفرقة شديدة الحماس في عزف لحن واحد مكرر. وصرير الجــنادب حــاد لا يتهاون في إثبات وجوده. النهر.. حياة كاملة فريدة، مخلوقاته المــرئية فــي مياههم المتدفقة المتجددة أسماكاً متنوعة نوعاً وحجماً وشراسة. يتصـــارعون فيأكــلون بعضـــهم والأمواج من فوقهم حالمة هادئة شاعرية. أمّا مخــلوقات الــنهر غير المرئية لناس الآدمير إلا في ظروف خاصة ومع ناس من الخاصة، فهم كائنات ترتبط بناس القرى بصلات دم وعِرق بعيد. يسكنون طبقات الــنهر الــتي تسيل فوق بعضها وكل طبقة تضم نوعاً منها مختلفاً، وكل نوع به الطيــب وبـــه الشرير، تماماً كما في الآدمير البريين في قريتهم تلك، عدا سكان

القاع اللدن.. فكلهم نسّاك طيبون، تتناثر قراهم على طول القاع المستقر الهادئ، خاصـــة أمـــام كل قرية من قرى البر، ليحموا الآدمير ببركتهم من الشرور التي تتوالد في برّهم.

تحـــت القـــاع حيث الأرض جافة خشنة، أنهار تسكنها مخلوقات فاقدة لنور بصرها، ورغم ذلك فهم سباحون مهرة يمتلكون القوارب السريعة التي تجري في بحـــور الجـــوف. وفيهـــم الأخيـــار وفيهم الأشرار، ثم تحتهم نار الجوف، حيث السخونة الحارقة.. وينابيع نار جهنم. والنهر الأحمر.. مجراه جاف يسودّ لونه، ويأخذه الإحمرار في حقبات بعيدة حين تثور ينابيع النار وتنطلق من فوهات قمم الجـــبال حمم سائلة لتتجمع سيولاً تكتسح كل الكائنات فيها لأنهم أشرار، جلودهم حراشيف معدنية، معدومو الشعر ولا رموش في أعينهم ذات الجفون الحديدية. ثم تنصـــب الحمـــم بما تحمل في النهر الأسود ليصير أحمر طوال العِقاب الناري، ثم يضـــعف الطوفان ويتسرب ويجف النهر ويصير من أثر الحرائق والحمم وذنوب الكائـــنات أشـــد سواداً من قبل، لتأتي أجيال جديدة شريرة تُعذِب فتتعذب في هذه الحياة القاسية منتظرة أن يأتيها طوفان الحمم ليحرقها ويجرفها إلى حيث الفناء.

وَشْوشـــات الأغصان وجريد النخل بالقرب من النهر، كأنها همسات عشاق حـــالمين ينسابون نهراً أثيراً فوق النهر المائي. قرهانة عائدة من رحلتها الليلة، عـــليها صـــديقها معـــتوق الخير مشبع الروح من تجواله في الطبيعة التي يحبها تتبخـــتر بـــه عـــلى الشاطئ الخالي من البشر، معجبة بنفسِها، تسرع وتبطئ في تشـــكيلات استعراضية. تسير مائلة بجانبها الأيسر ثم الأيمن كأنها فَرَسَه أصيلة، تـــتقافز بقـــوة مداعبة معتوق ثم تعود للسير الهوينى. معتوق يقهقه سعيداً مع صديقته.

رفع معتوق يديه عالياً محيياً الوجود حوله. يتنحنح ليهئ حنجرته فضربت قرهانة رأسها يمنه ويسره تتوقع الغناء من صديقها..

يا ســـــــــــــــلاااام

الشمس عمامتي

يا هووي

القمر عباءتي

يا ناس

النيل شرياني

يا هووي

الروح ربّاني

يا ناس

يا ســـــــــــــــــلاام

دخلت فرهانة خور أورّك، ولأنها تخاف هذا الخور المليء بالثعابين، أطلقت لنفسها العنان مسرعة وهي تنهق نهيقاً متقطعاً مرعوباً رعباً مخلطاً بالدلال. معتوق يسخر من جُبنها، يضرب على رقبتها ضرباً خفيفاً.

على حافة الخور حيث نجع أورّك، كانت حمارة عليها راكبة تقف منتظرة. فرهانة وهي تصعد ارتعشت أذناها وانتصبت. نهقت. انتبه معتوق. نادته . .

-معتوق .

- راضية!

- انتظرك من زمن .

اقتربا. هبطت راضية. هبط معتوق. اقتربت راضية منه واقتربت الحمارتان تتشممان بعضهما. راضية رغم توترها تمعّنت قليلاً في الحيوانين، ابتسمت وأنشدت بيت الشعر الساحر الذي سمعته مراراً من بلال..

أحبها وتحبني

ويحب أتانها حماري

معـــتوق سمع كلمتين، ثلاثة مما أنشدته راضية. لم يفهم. راضية أنفاسها تهـــب على وجه معتوق تحمل أريج أنثى فائرة ثائرة فأربكته. شمّت هي رائحة اللـــبن الطـــازج وســـكّر البـــلح وذكـــورة معتوق المطمورة. أخذت شهيقاً عميقاً فارتعشـــت. معتوق في حيرة يقف وقفة المتبلد، منخاره العريض انتفخت فتحتاه وعبق رغبة الأنثى العاصف يهب عليهما. جسده اضطرب..

-راضية. ما بك؟

-لاشيء.

وجهها بين كفيها تنشج وترتعش. وما كاد معتوق يربت على كتفيها حتى ارتمـــت عليه، احتضنته وهي تصر على أسنانها. معتوق أرخى ذراعيه في حيرة وعـــدم فهم، لكنه يحس بجسد راضية يضغط على جسده بطريقة لم يألفها. أدرك وعَـــلِم وانتفضت خِلاياه البكماء. جسده يتداعى داخلياً. قالت راضية وهي تزداد تداخلاً في جسده..

-لماذا لا تتزوجني أنت؟

معـــتوق يتراجع ودماؤه في أوعيته مشتعلة. متشبثة به متعلقة بعنقه فيجر جسدها معه، قدماها تشقان الرمال خطين. يواصل التراجع ويدا راضية لا تنفكان عن عنقه وصدرها على صدره يعذبه وقدماها مازالتا تخطان على الرمال..

-معتوق. أنت تعرف. راضية تريدك أنت.

توقـــف معـــتوق. أمســـك ذراعيها وأبعدهما عن عنقه في إصرار غير ذي عُنف..

-لا. لا. لا. لا. أخـــ. تي. أخـــ. تي.

بامتداد ذراعه أوقف تقدمها. هارباً من راضية ومن نفسه وثب على ظهر قـــرهانة الـــتي تركت حمار راضية و أسرعت به كالرهوان، تاركة المكان لبكاء راضية الصامت الذليل.

مــرّت ثلاثـــة أيـــام على ليلة تهور راضية. راضية تتمنى أن تنخسف بها الأرض. ومعــتوق فـــي خجل وعدم فهم فامتنع عن زيارة نبْرة. عمله في تكسير الأحجــار ليــلاً ازداد عنفاً وطالت ساعاته. يرفض تماماً أن يفكر عقله في الذي جــرى. يــريد أن يمحو تلك الليلة من واقعه محواً. كل ليلة يكسر الأحجار حتى يــنهار تمامـــاً. نهاره يعمل في الأرض وفي الحاجز. لا يرحم نفسه، لا يرحل في رحلاتــه المعهــودة مــع قــرهانة. آبدون لا يفهم ماذا حدث للفتى. كل صباح لا يضاحك هَكيمة، لا يستجيب لرجائها ليفضي لها هماً يحزنه.

الليـــلة الرابعة لم يصعد الجبل الغربي ليكسر الأحجار. بالقميص والسروال الأبيضـــين، هـــبط خور أورّك وصعد جبل فرعون. تخطي الفسحة المستطيلة فيه وبدا يصعد ثلثه الأعلى الصلد الأملس. يعرفه ويعرف كل صخوره الناتئة والأخدود الصاعد. يثب في سرعة كأنه في سباق مع مخلوق غير مرئي. وصل إلى القمة. أعمدة المعبد وسقفه جاثمة في رسوخ وجلال. سار في خطوات سريعة يدور حول المعــبد يــراقب المحيــط الليلي حوله. يتنفس بعمق. وعند العمود المعهود إليه جلس. أسند ظهره عليه، يبدو كشبح مسالم. نسمات رقيقة تداعب قميصه الواسع الـــلين. قـــام. فـــرد ذراعيـــه يريد احتضان الكون ليبث شجونه. يستنشق صفاءً روحانيـــا. ركـــع، سجد. دمعت عيناه. نـهض فجلس مستنداً على عموده الشمالي الغربي. قبة السماء وقمرها هلال هزيل خجل. فضاء يحتويه وحده. . نادى الله..

أنتَ المَليكُ وأنتَ دَيّانُ الورى

أنتَ العظيم القدر والرَّهَبُوتِ

هدأ. أتت إليه ذكرى ما حدث من أربعة أيام. راضية واحتضانها الرديء له. كان جسدها ينتفض مثلما كان جسد بجيوَة ينتفض ليلة هاجمته على ضفة النيل. يحبها كأخت. بل هو أخوها في الرضاع. سيقول لها إنه يحبها كأخيها. والله يغفر لنا.. أليس كذلك؟

الصباح التالي بعد زيارة هاشم الكيد. أخذ قرهانة مباشرة إلى بيت نَبْرة. عارضت قرهانة غاضبة

من كسر خط سيرها المعهود فجأة. ثم وافقته. بل تشجعت وتحمست لما وجدت أن صديقها يأ خذها إلى بيت راضية. دخل البيت صائحاً..

- نَبْــ . .رة. نَبْــ . .رة هووي.

دخل حجرتها. كانت على السرير الجريدي. شاحبة صفراء. ابتسمت عندما اقــترب مــنها وجلس بجانبها. يقبل شعرها العاري المُهمَل. أحاط كتفها بذراعه. أشاحت بوجهها مدعية أنها غاضبة. عاد فقبل رأسها ضاحكاً..

- أحســ . .ست بأنــ . .ك متعبة هذا الصباح.

- لماذا تأخرت عني أربعة أيام؟

- سامحيني.

- ســمعت نهيــق فرهانة وشممت رائحة اللبن المسكَر. فعرفت أن ابني معتوق تذكرني بعد هجران.

ضــاحكها. يحكــي لها عن عمله في حماسة. دخلت راضية وهي تعلم أنه بــالداخل، تحمل صحنا عميقا من الفخار مليئاً بثريد اللبن إفطار أمها التي غلبها وَجــع فــي صــدرها. لم تلق تحية الصباح على معتوق. جلست بجوار أمها من الجــانب الآخــر. عابســة. معتوق جمدت ابتسامته التي كانت على وجهه. نَبْرة تحيرت فسألت..

- راضية، هل أغضبت معتوق منك؟

ابتسم معتوق خجلاً وغضبت راضية..

-لا يهمك غضب ابنتك وتقلقين على غضب معتوق!

قال معتوق لراضية وهو يشير بإصبعين متلاصقين..

-أنتِ أخــ . . تي. أنا أخوك.

وضــعت راضــية الكــوب أرضــاً. قامت غاضبة رافضة لقول معتوق في احتقار..

-أنا بنت نوري العمدة ولست أختاً لأبله لقيط.

خرجت مسرعة. نَبْرة في ذهول تتابعها غير مصدقة. نظرت إلى معتوق في اعتذار..

-معتوق، ابني. لا تغضب منها. إنها متعبة الأعصاب.

معتوق لا يستطيع أن يخفي حزنه وحرجه..

-لا أغـ..ضب من.. راضية.

بعد انصرافه تحاملت نَبْرة وذهبت إلى حجرة ابنتها. لم تجدها. تبحث عنها في بقية الغرف. تسير في خطوات بطيئة وهزالها واضح. خارج البيت كانت راضية على المصطبة جالسة. استندت نَبْرة على ضلفة الباب..

-معتوق الخير أخوك بالرضاع.

-..

-امنعي عقلك أن يفكر فيه.

-شتمته لأنه..

-لا، الأمر ليس شتيمة عابرة يا راضية. لا تفكري فيه كرجل. لا تفسدي أخوتكما الطيبة.

-أمي!

-اسمعي يا بنت، أمك صامتة قليلة الكلام لكني امرأة وأفهم. اطردي الوسوسة التي لوثت قلبك، هو أخوك وأنت أخته وقسمتك ستأتي رغماً عنك وعنّا.

-أنا في عذاب يا نَبْرَة. كأنني أسقط في قبر يا أمي. كرهت الدنيا وكرهت الحياة.

أتى سلاطين ليعضد أولوا ضد والديه. استقبلته هَكيمة وآبدون في برود. لكنه كان طلق اللسان واضح الحجّة . .

-تعلمان أن فيّاج خسيس، مثل أبيه. وتهوره أضر براضية. وما أشيع عنها بسـببه، أضـرّها وأضـرنا بصفتنا عائلة راضية، وبلال الأبي لن يستطيع التقدم لـلزواج منها وإلا ظن الناس أن ما قيل عنهما صحيح. يأمل بلال أن يأخذ مكانة جدّه، لذلك لن يضع نفسه في موضع الريبة. ثم هو يأمل في فُوزية إسْهاج. الكل يعلم ذلك.

أخذ شهيقاً وهو يعدّل من جلسته في وقار أكبر من سنه . .

-وتعـلمان أن راضية أختي بالرضاع، لذلك لن أستطيع الزواج منها. وقد خطـبت هُوشَة وسأتزوجها. صوفاني هجر البلد بعد أن صدمته خيشة بإصرارها عـلى رفـض زواجه من حفيدتها بَهيتة. إذن، من بقى ليكون كفئاً لراضية؟ من سيتزوجها؟ من؟ لا يوجد سوى أولوا. إلا إذا كنتما تريدان لراضية زوجاً كهلاً أو أرملاً أو شاباً تافهاً لا يليق بابنة العمدة ونَبْرة. أولوا هو ابن خالتها. ابن آبدون حفيد جوش الولي الكبير. يليق بها ويسترها. نَبْرة تعلم ذلك. راضية صحيح دائماً غاضـبة من أولوا، لكن لابد لما ليس منه بد. ومع المواسم ستنسى عدم رضاها عنه، لماذا لا تحاولان مرّة أخرى؟ لماذا لا تعملان لإسعاد وحيدكما؟ انه وحيدكما يا ناس.

آبدون في تعال وكبرياء وكره له، أجاب . .

-سنفكر في الأمر.

تدخلت هَكيمة في حدّة . .

-لن تحب أولوا أكثر من حبنا له يا سلاطين شرّين. لم يجلب الضرر على أولوا أحد أكثر مما جلبت أنت الضرر والشر عليه. أسأت إلى سمعته وأسأت إلى سمعتنا أنا وآبدون . .

-هَكيمة!

صـــائحاً، قاطعهـــا آبدون محرجاً من إثارتها هذا الموضوع سلاطين اهتزت جلســـته واهتزت ثقته في نفسه. لكنه صمت ليستوعب التغيير الذي حدث. تركت هَكيمة هذه النقطة الحرجة..

-لتســـترح يـــا ابن أثمان، نَبْرة لن تجامل أختها هَكيمة على حساب ابنتها. سترفض.

اســـتراح ســـلاطين لابـــتعاد هَكيمـــة عن علاقته بأولوا، فتدفق سريعاً في موضوع زواج أولوا من راضية وعنده ما يأخذ لب الجميع..

-لكن يا عمتي. أنا كلمت عَمّتي أمس. وافقت.

-ماذا؟

-مثلما قلت لكما، ونَبْرة حادثت راضية مراراً. راضية وافقت أيضاً.لكنها.. اشـــترطت أن يعيـــش أولـــوا فـــي بيت أبيها. فهي لن تستطيع ترك أبيها وأمها وحدهما.

تـــركهما فـــي حيرة وخرج متعالياً متباهياً بنفسه وبما قدمه لهما من خير. نظرت هَكيمة إلى آبدون المذهول..

-هـــو الذي دبّر مكيدة تفريق فَيّاج عن راضية. إنه شَرّ. لكنه يحب راضية وأولوا. كان وأولوا صغيرين وفي طيش الشباب. لكنه يحبه كأخ فعلا.

-لـــن أنس ما فعله في ابني أبداً. قتلني ابن أخيك. قتلني ابن أخت هَمَرين ينبوع الشر.

فـــتحوا نافذة ثانية في حجرة نُوري، مواجهة للنافذة الأولى، وبذلك يكون فـــي الحجرة تيار هواء يخفف من الرائحة. خلاف هذا طالبت نَبْرة بفتح باب آخر يطـــل عـــلى الخارج. باب واسع. أصرّت على اتساع الباب المبالغ فيه، تقول إن المكـــان في هذه الناحية خلاء، وبذلك يستطيعون إخراج نوري ليجلس في الهواء الطلق قليلاً كل يوم، وبدون أن يضايقه تواجد أي بشر. حينها صدقوها، صدقوها

رغم أن نُوري لم يخرج ليتمدد في الهواء الطلق أبداً لا ليلاً ولا نهاراً،لكنه عندما مات، فهموا لماذا طالبت نبْرة بهذا الباب الواسع الذي يطل على تل الجبانة.

بعد أن نظفوا الحجرة وعطّروها بالبخور والصندل. اطمأنوا أن النافذة الثانية والباب الثاني الواسع احدثا تهوية أكثر في حجرة نُوري، فرشوا الحصر المزركشة والمساند على الأجناب. أتوا بنُوري من حَمّامه بعد أن غسلوا جسده وعطروه هو الآخر ودثروه بملاءتين جديدتين. جلس في مكانه مستنداً على مسند خاص به. قبل أن يصل الرجال طلب إحضار سرير سِسِّي. لم يستطع أحد أن يثنيه عن طلبه. احضروا السرير على وعد ألاّ يبكي حتى لا يتحول حفل عقد قران راضية إلى مَبكى. وافق بهز الرأس. أتوا بالسرير ووضعوه في أقصى الحجرة على يسار نُوري بعيداً عن عينيه. نُوري يرى السرير داخلاً محمولاً كنعش فأغمض عينيه وزم شفتيه. نبْرة تجلس أمامه تطالبه بنظراتها أن يفي بوعده.

أتى الرجال، كل يلقي التحية على العمدة ولا يحاول أن يصافحه باليد. معتوق جلس على يمين نُوري الذي أراد ذلك، وعلى يساره الشيخ صَلاتو. وحول ساقيه الممددتين، جلس آبدون وأثمان وإسْهاج وأولوا. بقية كبار عائلات القبيلة على أجناب الحجرة التي كادت أن تضيق بهم. سلاطين الذي أتى متأخرا كما تعوّد أخيرا وفي كامل زينته وفخامته، جلس بعيداً كأي من بقية الرجال، ليس له مكان مميز بين الأقطاب في مثل هذه الاحتفالات القبلية.

حديث حاول الجميع أن يكون مرحاً، لكنه كان متوتراً. قال الشيخ في صوت وقور كلمات عقد القرآن، ثم خاطب نُوري وآبدون..

- يداكما لنقرأ فاتحة أولوا على راضية.

تشنج أحدث قناع لحمي أضيف على وجه نُوري، ينظر إلى الحاضرين وتعبيرات وجهه المخنوق باللحم لا يعلم من يشاهدها.. هل هو على وشك الخوار أم أنه يريد الابتسام؟ يحاول رفع يده ولا يستطيع من ثقلها وتوتره. ارتكز معتوق الخير على ركبتيه ورفع يمين نُوري. كَفّة من سمنتها تلاحمت. صارت قطعة

واحدة بداخلها ثلاثة خطوط طولية لما يمكن أن يكون ثلاثة أصابع، والإبهام نتوء لحمي صغير مشوّه.

وضع آبدون كَفّه التي بدت كَكَفْ طفل في كف العمدة المنبعجة. قرأ الجميع الفاتحـــة. نُوري يهمهم. أعاد معتوق ذراع نُوري. العرق الغزير من جسد العمدة تغلب على جفاف الملاءتين فأصابهما البلل. الرائحة العرقية الثقيلة تحارب رائحة البخور والصندل لتتجسد رويداً رويداً.

فـــي الحـــوش الواسع زغردت هَكيمة ونَبْرة معا، فانطلقت أسراب زغاريد النســـاء المزدحمات حولهما وحول راضية الساهمة. الجميع يبارك لهن. لم تدق الدفـــوف في البيت حتى لا تهيج أعصاب نُوري العمدة. الجميع ارتوى من شّراب الكركديه.

والـــرجال عـــائدون أسرع أثمان ودخل بجسده الضئيل بين حماري صَلاتو وآبدون. سأل . .

-آبـــدون، بذمتك يا ابن الشيخ موسى وحفيد الولي الكبير، هل أنت راض عن خطبة أولوا لراضية؟

-لا .

-الحمد لله مازال في القبيلة رجل صِدْق مثلك يَحكم بالحق حتى على وحيده الذي ليس له غيره. لكن . . لماذا وافقت؟

-ومن يستطيع منع المكتوب يا أثمان؟

حيـــن انفرد آبدون وهَكيمة ببعضهما، لم تكن سعادتهما صافية. متأكدان أن راضـــية قبلت ابنهما على مضض. استسلمت لقدَر، استسلام من لم يعد يملك غير ما أتى. لكنهما موافقان تماماً على أن يبقى أولوا في بيت خالته بعد الزواج، من ناحيـــة لأن عبء خدمة نُوري العمدة لن تتحمله نَبْرة وحدها، ولأن بُعد أولوا عن الـــبيت، بُعد عن معتوق الخير. ربما تحسن حاله ببعده وبحصوله على راضية.

والأهـم.. كـان يحدوهما الأمل أنه بزواجه سيهجر شذوذه، وناس القبيلة لعلهم يتناسون شذوذه ويعتبرونه طيش صبي طاش وعاد لصوابه.

أيـام لا تسـتطيع هَكيمـة فتح موضوع الشذوذ مع ابنها. آبدون ترك لها التصرف. مستحيل أن يقتحم هذا البلاء مع ابنه. وقبل أن يخرج أولوا لسهرة من سـهراته، أخذتـه أمّه. شجعها أنه في حالة طيبة وروح عالية. جلسا متقابلين. سالت دموع هَكيمة فرَق لها ابنها. يلاطفها ويسألها..

- ماذا يا أمي؟

اشـتدت فـي البكاء حتى أصاب أولوا الخوف. وهي تتشنج وتُخفي وجهها بكفيها قالت..

-مـن أجـل خاطـر أبيك المكسور قلبه. المهشم أمله. اترك ما تفعله مع الصبيان. أبوك سوف يموت حسرة يا أولوا. أبوك سوف يموت حسرة يا بني. الله أعطاك مبتغاك وحصدت أملك وستتزوج راضية عُمدة. إبدأ حياة جديدة يا أولوا.

توقفت عن بكائها لما بكى أولوا ونشج، تسمعه وهو يقسم لها بأنه سيهجر هذا الأمر ولن يقترب من ظهره أحد.

أقبل الفيضان هذا الموسم متعجلاً صاخباً هادراً يعلو ويعلو في سرعة حتى غـطى جزيرة أصلاد. وبعد أيام ابتلع جزيرة تايي العالية. زحفت مياهه المتجهمة كوحش خرافي يخشاه ناس النوب بقدر ما يحبونه. ناس القرية يعملون جماعات جماعـات ليحصـدوا بقيـة زراعاتهم قبل أن يغتالها الطوفان العالي. انتهوا من حصـاد البـلح في فرحة غير كاملة من الخوف. يخلعون عيدان الذرة وهي قوت بهـائهم طوال موسم الفيضان. الحمير على ظهورها الحصاد والفتيات والسيدات يسقنها صاعدات للبيوت عائدات بها فارغة الظهر للأرض. غلبهم الفيضان العالي واكتسـح الأرض الزراعية قبل أن تستكمل عملية الحصاد تماماً. أصبحت النجوع أشـباه جـزر محاصـره بالمياه التي ملأت الأخوار الفاصلة بينهما بلونها البنيّ

المحمر بما تحمله من غرين هضبة الأحباش الغنية إثر تفتت صخورها تحت وابل الأمطار الموسمية الهائلة.

فـــي الليل، الأشجار والنخيل تتحول إلى كائنات هلامية تخيف الصغار وهم يراقبونها من عل، وفي الصباح الباكر مع مقدمات ضوء النهار يتطلع الكبار إلى مستوى النهر الذي كوّنت مياهه بحيرة علوها بدا متجاوزاً حد المعقول، وإن زاد على هذا المستوى سيأكل أول صف من ديار النجوع.

بضـــعة أيام تعدت العشرة توقفت المياه عن الصعود. زال القلق، لكن نجعي أورِّك ونجيـــبيّة يـــنظران في إشفاق إلى منحنَى النهر، حيث نجع المنحنَى الذي اضطرته الطبيعة أن يكون موقعة بارزاً في الشمال الغربي، وكأنه مصد أو حاجز يحـــاول منع مرور النهر السرمدي. يتفهم النهر ومن عند النجع يلتف هادئاً بعيداً عـــن أراضـــي النجع الزراعية، لكنه في حال الفيضان، حين تندفع المياه المهولة المهـــرْولة فـــي عصـــبية غيـــر واعية فإنها تكتسح زراعات النجع كلها وتعلو متسلقة جذوع أشجارها ونخيلها. لا تستكفي أمواجها، تثب تجاه البيوت المتربعة فـــي العـــالي تـــريد أن تبتـــلع صفوفها الأمامية وتقذفها بالكثير مما جمعته في مظاهرتها الموسمية.. جثث حيوانات قطع أخشاب من مراكب حطمتها ومساحات مـــن نـــباتات الحلفا والسيسبان، وكل بضعة مواسم ترمي للنجع جثة إنسي. وفي مواســـم أبعـــد يـــأتي لهم بتمساح غالباً ما يكون صغير الحجم أو متوسطه غلبته التيارات وأعيته ثم قذفته لاهية عند أعتاب بيوت المنحنَى.

زمـــن مـــرور قمر والخطر على النجع متدفق تهبط أمواج لتثب أمواج في تـــوالٍ غيـــر يائس، وإن تقوّت التيارات بموجة فتيّة فتعملقت، تصعد عالياً وتلقم بيوتاً في سهولة مفزعة ساحبة إيّاها إلى امتدادها الذي اكتسبته فوق الزراعات. ما يمنعها من ابتلاع النجع، أن الجبل الشرقي الصلد الذي انحنى شرقاً يجبر النهر للإذعان والتدفق شرقاً تاركاً اتجاهه الأزلي الشمالي قبل أن يعود شمالاً كما كان. فـــي الانحـــناء والتحول ثم العودة، يكون النيل في أخطر مراحله، أخبثها وأكثرها شراهة للقرابين البشرية وغيرها. تتكون في هذه المنطقة تيارات ودوّامات شديدة

تهـــدد أمهـــر السباحين بالموت غرقاً في لحظات وقذف جثثهم حيث لا يعلم أحد، وبمجرد أن يضع أي منهم ساقيْه في هذا التيار المرعب.

فـــي هذا الموسم المفزع اختفى من بيوت نجع المنحنى بيتان، ولحسن حظ ناســـهما انهـــم كانوا يتوقعون ما سيكون، فبقوا خارج البيتين يقضون الليل عند أقاربهم. في الصباح لم يكن البيتان قائمين، مكانهما أطلال حجرية طينية مكسوة بالبَلَل كأنها من عصور قديمة خلت.

انحســـر الفيضـــان قليلاً. هدأت ثورته الزائدة. اطمأن ناس البلد فبدأوا في ترتيبات حفلات الأعراس حيث يتلاقى الذكور الجدد المتشوقون بالإناث الصاعدات المتشـــوقات، فتوضـــع بذور أجيال لتأتي ممثلة لأسلاف ذهبوا في حصاد بشري. الأرض الزراعية تحت المياه تستقبل ذرات الغرين المخصب لتقوى استعداداً لبذر الـــبذور والحَبَل بالمحاصيل لاحقاً. ثلاثة أهلة ستبزغ لتنمو وتصير بدوراً وستمر والأرض الـــزراعية مغطـــاة بالمياه، وطوال زمن هذه الأقمار، يلتفت ناس القرى لحفلات الأعراس فلا فلاحة ولا ري ولا حصاد، بل لا هبوط للأراضي الواطئة.

ومثـــلما كان الفيضان غريباً شرساً، كان موسم الأعراس هذا غريباً قاسياً غيـــر تقـــليدي! الجيل الذي تأهل للزواج زاحمه جيل أصغر فامتلأ الموسم بنوايا الزواج الكثيفة. اجتمع الكبار لترتيب المواعيد فكاد أن يحدث الشجار. كل نجع لا يتحمل أكثر من عُرسين في الشهر، فالعُرس الواحد يحتاج لأسبوع قبله وأسبوع بعـــده على الأقل. وكل ساعة لها طقوسها وأنواع رقصاتها وطعامها وأيضا أنواع الذكـــر والتســـبيح. موروثـــات جلمودية تؤدَّى في لذّة وفخار. كسر طقس منها يخلخل البقية ، يفسد لناس العُرس فرحتهم، ولتداخل الدين مع العادات والأعراف الاجـــتماعية، فإن انتشال طقس اجتماعي كأنه انتشال فريضة دينية! وكأن الزيجة ليســـت حلالاً ولن يرضى عنها الله ورسوله. وأبرز الحزانى تكون العروس التي تفـــزع لحـــذف أي شـــعيرة مـــن شـــعائر عُرسها، وتقارن نفسها ببنات الأسرة وصـــديقاتها، ولا تـــريد أن ينتقص من عُرسها أي تفصيلة ولو هينة. تُرى.. هل سيكفي الموسم لكل هذه الأعراس المزمع أقامتها؟

العمـــدة لا يحـــل ولا يربط، مشغول في طعامه ونومه. تصدّر صَلاتو ومعه آبـــدون وإسّـــهاج. التنظيم لم يكن سهلاً. عاندت الكثير من الأسر. أتعبوا صَلاتو ومـــن معه، سلاطين من بعيد يتوقع إخفاق صَلاتو ويتمنى ذلك. صَلاتو بفكرة من آبـــدون تخـــطى المأزق.. الزيجات المختلطة بين النجوع لها الأولوية، ثم بعدها توزيع الأعراس على النجوع الثلاثة. عُرس في أورّك ثم الدور على المنحنَى ثم أورّك ثـــم المنحنَى، وبعدهما نجيبيّة قليلة العدد، وكل نَجع عليه ترتيب أعراسه فيما بينهم.. فهذه مسئولية كُبار النجع. اتفقوا واقتنع الجميع، كل عرس له يومان فقـــط قبله ويومان بعده. بدأ الشجار داخل العائلات في النجوع، أي من الأعراس يســـبق الآخر. كل منهم يخشى أن يكون عُرسه وعُرس ناسه متأخراً بحيث يكون نـــاس القرية قد ملّوا أو تعبوا فتبوخ مجموعات الرقصات والأغاني وعليه تبوخ فرحه ناس الفرح. اضطروا للاتفاق، كل نجع يخشى أن يظهر وكأنه أقل نظاماً من الـــنجعين الآخـــرين، ولا بد من الاتفاق والتنازلات فيخسرون بعض الفرحة، وإلا خســـروا كل الفرحة. جلس كبار القرية لتحديد حفلات أعراس الزيجات المختلطة، وقـــد أطلقوا على زيجات هذا الموسم لقب زيجات الأفشْطفوش، لغلبة زيجات هذه العصبة التي تهز بأفاعيلها أركاناً قبلية راسخة.

أبدى صَلاتو رأيه الذي أخفاه لحينه..

-سَيِّد هَربية وبجيوَة الكيد أولاً.

اعترض الكثير استهانة بسَيِّد وبجيوَة. لكن الشيخ فسّر سِر اختياره..

-سَيِّد عريس بجيوَة. وبجيوَة هي ابنة أخينا وحبيبنا هاشم. الكيد المشلول. القرية ستستر ابنته فهي ابنتنا.

صمت الجميع، التفتت بعض الوجوه إلى ركن بعيد حيث يجلس عشيق الفتاة التي فقدت الحياء بالمرّة، سلاطين الذي يجلس صامتاً هادئاً وسط بعض من شلّة الأفشْـــطفوش الذين صاروا شباباً ودفعهم سلاطين للزواج قبل موسمهم وبالتالي خـــلق هذه المشكلة.. تاج طنبورة وسَيِّد هَربية وأولوا والأشرم. حارساه الشابان الضخمان بقيا في الخارج. أما قيّاج فهو معهم جسداً وضدهم قلباً.

ســلاطين لم يحاول التدخل، إن في باله أمراً سيفاجئ القرية. سيقف أمامه الكثير من ناسه، إذن، لا داعي لزيادة حقدهم عليه. فليكن طيباً هادئاً مسالماً.

فـي نفـس تـلك الليـلة، لم يعد أمرُ الله مع حاشية سلاطين ولم يصاحب سلاطين إلى بيت أثمان. افتقده سلاطين. أما هو.. الأشرم، فقد عَرَج بعرجته بين الـبيوت. وحده. حتى وقف أمام أطلال بيت خَرِب تنتصب أمامه جثة شجرة أثل. ذهب إلى جانبه ودار حول جدرانه ثم عاد ينظر في الظلام إلى واجهته. تقدم. دفع الـباب الكـبير ودخـل. حـوش ميت، غرف ميتة. شبحا فأرين أسرعا بعيداً فلم يـتابعهما بصـره. مسح دمعتين. بيت أمه الشرماء التي لم يرها وقالوا إنها لم تره. سمع عنها كل خير.. من أثمان ومن غيره من الرجال، ومن ديوانة مسكين ومـن غيرها من النساء. أمه الشرماء التي أذلتها الحياة وأذلتها تَعويضة لِسانين وسَليمتو ابن عمها، وها هو ابنها الأشرم مثلها يشرب نفس الذل من الحياة مثلما شـربه مـن تَعويضة لِسانين ومن ابنتها كِسبانة. أمه وقد جاءها أبوه من جوف الصـحراء، جـاء من حيث لم تعلم القرية. غريباً عن نسل القبيلة، غير منتمٍ إلى فخـار الأسـلاف، لم يكن يحمل عِلماً دينياً ولا كرامات أولياء تُعَوِّضه هباء نسبه غير المرصود. لم يكن يحمل مالاً يرفعه درجة عن فقر مَقام وضعته فيه قرية لها أسـلوبها الطَـبقى النظام، فأعطوه أبشع الإناث وأفقرهن وأهونهن عائلة. جاء ليرضـى بهـا زوجـاً فتنجب! ليته لم يأت وليت أمه لم تتزوج. ليتهما لم يتلاقيا فيـتوقف بـئر الأسى وفيض المذلة. ليته لم يكن قادراً على الإنجاب. ليتها كانت عاقـراً. ليتهما وفرا عليه تلك الخِلقة الرذيلة. قُبح على قُبح. هذا هو نصيبه من الحياة.

اقترب من غرفة. دفع بابها بقدمه المعطوبة في قسوة عليه وعليها. صرخ الـباب وهـو ينكفئ للداخل. ظلام خرب. باب حجرة أخرى.. ركله، نفس الظلام الـبائس. يـنظر في اللاشيء.. تُرى، في أي حجرة من تلك الحجرات وُلِدت أمه بشـرمتها؟ وأي حجـرة مـن الحجـرات تلك عاشرها أبوه فوضع بذرته التعسة العـرجاء؟ أي مـن هـذا الحطام الجريدي كان السرير الذي زرعت فيه شَرمته؟ وهاهو موسم زواج زملائه. كل منهم له من يريدها. ومن افتقد من يريدها سيجد

من تريده. فأين من تريده هو؟ أين من تريد الأشرم الأخنف الأعرج؟ هل ستأتي له امرأة من جوف الصحراء فقيرة وليست من سلالة القبيلة لتقبل به زوجاً؟

ضرب الحائط بقبضة يده صائحاً . .

-لا. لا. لا. ألف لا. ألف لا. لا لن أتزوج. لن أنجب أشرماً مثلي يتعذب. لن أنجب شرماء مثل أمي لتتعذب. ليتزوج الشباب الذي استوت شفتيه وتوازنت قدميه. ليتزوج سلاطين من هَوشَةَ من دوني. ليتزوج حتى البلهاء أمثال سَيّد هَربية، ليأخذ بجيوَة في أحضانه حتى لو سخرت منه وافتعلت أنها عذراء. لتكن زوجته في عقد نَصْب وخداع للزنَى وركوبة لسلاطين في الحرام. إنها رضيت بالأبله، لكنها لم تكن ترضَى بي أنا! ليكن. ولن يبقى في القرية رجل بلا امرأة إلا أنا.

خرج من بيت الشرماء. الظلام جاثم على البيوت ويحتوي الكل. أصوات رجال عائدين في تلكؤ يتحاورون، تبينوه بعرجته قبل أن ينحرف بعيداً. ناداه أحدهم فلم يأبه بهم . .

-إنهم يستهينون بي كلهم. رجالاً ونساءً وأطفالاً. كما استهانوا بأمي. نحن صاحبا الشرمة. اللعنة على كل القبيلة. ليتزوج الشباب ولأبق أنا وحيداً استنزف نفسي متخيلاً بجيوَة. أحلم في دنيا خيالي.. أتزوج هُوشَة. أنال مجد وهيبة سلاطين . هذا قدَري وسأعيشه بشرمتي. هذه أيامي وسأسير فيها.. أعرج.

يعود إلى ملجأه حيث دار أثمان كُورنة . هادئ الخطوات يائساً. لا أحد إلا نفسه يحادثها . .

-لن تريدني أي بنت. لن تغرم بي امرأة، ولن يقام لي حفل عُرس ولن يغني لي تاج طنبورة. ولن يسبّح لله ويمدح رسوله في زفة صوفية لا معتوق الخير ولا غيره. تكفيني طيبة هُوشَة معي. يكفيني أن صديقي سلاطين سيتزوجها وسأعيش معهما. أراها كل صباح وكل مساء. يكفيني أن أبقى بجانب هُوشَة. أراها وأسمعها وأشمها. أحلم بها حتى لو كانت لا تشعر بي إلا كإنسان مشوّه تابع لزوجها.. وإن عاملتني كشقيق فقط.. يكفيني هذا ويرطب قلبي.

لم ينفع الندم راضية، تتحسّر على نفسها. كيف وافقت على أولوا؟ لا تحبه. ربما تشفق على ضعفه ومرضه لكونه ابن خالتها، لكنها تحتقره. يتباهى ولا تعلم بماذا يتباهى؟ عاطل. يأخذ مصاريفه من هَكيمة وملبسه الأنيق يدفع ثمنه آبدون. ضـعيف البنية سكّير. لا يمتلك إلا وسامة وجه. وهذه الوسامة تمتلك هي أفضل مـنها. الوسامة أمر مألوف في عائلة أمهاتهما. بلال الأبي أقل وسامة. لكن أين أولـوا التافه من بلال صَلاتو؟ ومعتوق ليس وسيماً، ليس أنيقاً بالمرّة، لكن أين أولوا من معتوق الخير.

حاولت مع أمها أكثر من مرّة أن تؤجل زفافها عدة مواسم، لم تفلح. طلبت التأجيل ولو لموسم واحد فقط، تأبي نَبْرة..

-أبـوك حالـه تتردى.سيموت في أية لحظة. لا يعيش إنسان بهذا الحجم أبداً. زفافك كلما كان قريباً كان أفضل. ليطمئن عليك أبوك فيرتاح قبل رحيله.

كـل مـا استطاعته راضية أن تصر على تأجيل الزفاف إلى نهاية الموسم، فيكون زفافها في آخر هذا الموسم الغريب المعبأ بالأعراس.

أول عُـرس فـي الموسم، يبدو وكأنه سيكون الأحلى، ناس القرية والقرى المجـاورة، من تعاملوا مع هاشم الكيد، الكل أتى. اتفقوا دون أن يتفقوا.. سنؤكد لهاشم أنه ليس غريباً عنّا. إنه منّا. سيرى أن مقامه كبير بين ناس النوبة وان ابنته ابنتنا وعُرسه عُرسنا. سيعلم أننا نسينا ما كان من بجيوة وستكون امرأة لها وزنها مثلها مثل كل نساء قريتنا.

النسـاء يـأتين إلى بيـت الكيد فرادى وجماعات، يحتضنّ بجيوَة ويقبّلنها بادئـات صـفحة جديدة لحياة جديدة. يأتين مبتهجات هاشّات باسمات على هاشم الكيـد، يهنئنه. يدعين له ولابنته. خيشة لم تترك هاشم الكيد بسهولة، تحتضنه بقـوة. الكيد دموع الامتنان المختلطة بدموع الحسرة على حال ابنته وغياب ابنه سـلامة، بلّـلت لحيـته الرمادية. الوحيدة التي لم تأت إليه هي تَعويضة لِسانين. حـادثت بعـض النسـاء تأخذ رأيهن، تريد الاعتذار له وتطلب منه الصفح، الكل

رفض. حذرنها أن تقترب من العُرس أصلاً حتى لا يراها الكيد فيشتد حزنه حزناً، فهي التي طعنته وشلّته.

آبـدون وأثمـان وضعا الكيد على حمارته. يسندانه من الجانبين وصَلاتو خلفهما. أتوا به إلى المضيفة حيث الوليمة. بعض جسده حي وأغلبه ميت. أنزلوه ودخلوا بـه ونـبّوته الذي أصر عليه في يده تلك الليلة، رفض الجريدة الجافة، يمسـك بالنـبّوت عكـازاً بيده السليمة. أجلساه. الكل يأتي إليه يحتضنه. يبارك. يقبلونه. الشباب يقبلون رأسه حيث العمامة الصعيدية الصغيرة. ولما أتى العشاء لم يستطع إلا تناول لقيمات صغيرة. فمه المعوّج لا يساعد ولا يده شبه السليمة، ولا نَفْسه تشتهي طعاماً من الأساس. ولما خرج به آبدون وأثمان ووضعاه علي حمـاره، كان العمدة يقترب من بعيد بجُرمه الهائل على فَرهانة التي تسير ببطء مـرغمه لـثقل جسد نُوري. معتوق الخير وخفير يسندانه من الجانبين. تقترب فَـرهانة منهم بما تنوء به حتى أصبحوا يسمعون حشرجة صدر العمدة المتعب، وبإضاءة الفوانيس استطاعوا رؤية العرق الفيضاني الذي بلله تماماً. وقف رَكْبه بجوار رَكْب الكيد. كل منهما سمع بابتلاء الآخر ووصفوا له حاله، لكن أيّاً منهما لـم يتصـور سوء حال الآخر. عجوزان ضربهما الزمن فأثخنهما وجعلهما شبه أحياء شبه أموات وكل منهما موقن أنه هو الذي نال أقسى الكوارث. العمدة عيناه كابيـتان وجفـناه مـتورمان يبكي موت وحيده الغريق، والمشلول عيناه مازالتا تشـعان بعـض قوة، دموعه على شرفه المثلوم والذي هو أهم عنده من الموت. يتمـنى لـو كانت ماتت ابنته غريقة، ولم يجر لها ما جرى. قادا مطية الكيد إلى جانب من فَرهانة التي ملّت من ثقل جسد العمدة المتربع فوق ظهرها، رفع نُوري يـده بصعوبة وضعها على فخذ الكيد. دموعهما لا تتوقف. ولما بدأ العمدة يخور كبقرة مريضة، عادا به إلى بيته. فَرهانة تكاد أرجلها أن تخونها من ثقل حملها.

في غرفته أجلسوا المشلول على سريره. وضع آبدون يده على كتفه..

-هاشم، سآتي إليك بعد ساعة زمن لتكون معنا قليلاً في فرح ابنتك.

-لا. أريـ..د..أن أسـ..تـ..ريح.

تــركوه وقد أيقن أنه منهم وهم منه إلا قليلاً. وأن مكانته لم تهتز رغم ما تفعلــه بجيوَة، وعُرسها سيكون عُرساً تحكي عنه الحكاوي. ولما بدأت الرقصات المختــلطة مــن الجنســين، والدفوف تدوي والفوانيس والمشاعل تضيء ساحة الأعــراس كــان هاشــم الكيــد يتهرب من شبح بهيّة التي تتقافز حوله وتضحك ضــحكات هســتيرية، يغمــض عينيه فتثقب جفنيه وتدخل له لتواصل ضحكاتها وبكاءهــا ثم تطلق بفمها صوت قوي . . صوت تحطم الجمجمة. أرهقته وأثخنته طعناً فلم يجد بدأمن أن يهذي باسم سلامة الذي لا يعود. غفا عن الوعي ثم عاد ليسأل خيال ابنه..

-متى تعود.. متى تذبح بجيوَة . .

فــأتي له خيال ابنه. يحمل النّبوت القديم. نفس النبّوت الذي هشّم به رأس بَهية. أتاه ثائراً يملؤه الغضب وتكسوه العَجْرَفة. صاح في أبيه . .

-أين هي؟

أجابه متشوقاً بلسان سليم وأشار له بيده العاجزة حيث الرقص الساخن . .

-هناك .

تــرك سلامة الحجرة مندفعاً.. وهاشم الكيد في ظلام حجرته مطروحاً على ســريره ليس له من الحواس إلا حاسة السمع هي التي تتشوق وتتلهف. صيحات ابنه بصوته هو.. صوت أبيه المشلول ينطلق هادراً . .

- بَهية.. بَهية.. بَهية .

ثم شهيق الهواء والنبّوت يشقه صاعداً ثم زفيره والنبّوت يقتحمه هابطاً ثم فرقعة انفجار جمجمة بجيوَة . .

استرخي جسد الكِيد واسترخت ملامح وجهه ثم استراح .

ورغــم تعــدد المطربين وتنوع أصواتهم، فالكل ينتظر المطرب الشاب تاج طنــبورة. وتاج طنبورة احترف الغناء رغم وعده لحميه إسْهاج. زاد من الدلال. فهــذا الموســم صار هو الأشهر بدون منازع في قرى النوب. ولأجل صداقته مع

سَيّد هَربية وزمالة بجيوَة في الكتّاب، قال إنه رفض دعوة لإحياء عُرس في قرية أخـــرى مقـــابل ضعف ما سيأخذه هنا. طلب أن يكون عشاؤه مخصوصاً في مكان مخصـــوص لـــه ولمريديه. يرفعون صواني العشاء لوضع قارورتين من العرقي أمامـــه والأكواب وطبق صيني مليء بلفائف الدخان المحشوة بالبانجو. وبعد ذلك استغرق في الدردشة بمزاج وانسجام.

الليـــلة بعد إرضائه، صعد مع بعض مريديه وعدد من أصدقائه الأفشنطفوش إلى ربـــوة مِجيـــد حيث جلسته الخاصة. يستكملون عَبّ العرقي والتخدير. تحتهم نجـــع أورَك وســـاحة الأعراس ممتلئة بالراقصين متلألئة بالمشاعل والفوانيس. ضـــربات الدفوف المتنوعة والأصوات قوية ورجع الصدَى من الجبل يغطي محيط المكان تماماً.

معـــتوق الخير بعد أن أعاد العمدة إلى حصيرة ليجلس ويستند على مسنده الســـميك، ساعد نَبْرة وراضية على تقديم العشاء المهول إليه، يراضيه وهو يأكل ويمسح دموعه التي زادت حسرة على نفسه وعلى صديقه الكيد.

امـــتطى فرهانة وهبط بها ناحية الجزء الذي أتمه من حاجزه. الحاجز أشبه بخـــط سميك أبيض وسط مياه الفيضان الداكنة. ترك فرهانة بعيداً، وخلع جلبابه وألقـــاه بجانبها، وبسرواله الداخلي يتحرك بصعوبة وسط المياه الثقيلة. يمر على الحاجز مدققاً، كلما تحرك تحركت فَرهانة موازية له بعيدة عن المياه التي تخشاها بالفطرة. تصدر أصواتاً قلقة وتضرب الأرض بحوافرها مستعطفة تتعجله للخروج إليها.

بعدمـــا تـــأكد من إعادة تثبيت بعض أحجار في أماكنها ووضع على بعضها قطعـــاً أخـــرى ليثبـــتها، التفت إلى النيل الهائل المتدفق في هرولة وقد بلغ قمة عـــنفوانه الموســـمي.. وثب في المياه. غطس.. قبّ. أحنى رأسه وشرب. سبح ببطء وداعب السمك الذي تجمع حوله

ارتـــدى قميصـــه و امتطى صديقته. أسرعت به شمالاً لا يلتفت إلى دمدمة طبول ودفوف العُرس. إنها فسحة فرهانة وقلّما تفتقدها. وصل إلى نجع المنحنى

فصعدت به لتعود من المدق الصخري الفاصل بين الجبل والنجوع والموازي لدرب الجِمـــال. قرهانة وقد وجدت الطريق المُقْمر ممتداً بلا نخيل ولا أشجار تعترضه، أسرعت بكامل قوتها وهو فوقها يحثها بصوته الغليظ المتقطع..

- قر..هانة هووي.. بسر..عة إلى عُرس سَيِّـــ..د وبنـــ..ت الـــ..كيد.

فـــوق البســـاط الرمـــلي على ربوة مِجيد. لمح فَيّاج وهو يرفع كأسه شيئاً صدمه..

- بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من أهل التيار الشياطين والسحرة.. انظروا.. انظروا جميعاً.

أشـــار بكأســـه ناحيـــة المدق الذي يعلو نجع نجيبيّة والظلام باهت.. حمار أشـــهب يجري في سرعة فرس أصيل ولا تهمه النتوءات الصخرية والمنخفضات القاتلة. عليه فارس والهواء يضرب قميصه الأبيض الواسع فيهفهف خلفه كشراع أهـــوج. الحمـــار يقترب من مهبط خور البحر. ضربات حوافره بدأت تعلو وتعلو وســـط هديـــر دفـــوف العُـــرس. اقترب كثيراً من مهبط الخور لكنه لم يهدئ من سرعته.. أولوا تبيّن فصاح..

- إنه معتوق وحمارتنا قرهانة.

فـــرهانة اســـتمرت في العدو السريع. اعتدل الجالسون ونهض المستلقون منهم. خور البحر العميق والممتلئ بمياه الفيضان أمام قرهانة. أسفلها. وقرهانة براكبها تقترب في سرعة.. وبدلاً من أن تسقط بمعتوق في الخور استمرت تعدو وكـــأن هناك سطح غير مرئي يصل بين حافتي الخور. قَرهانة ساقاها الأماميتان تتـــبادلان الوثب مع الخلفيتين على لاشيء بدون أن يصدر منها أي وقع للحوافر. جلباب معتوق شراع أبيض يتلاعب به الهواء. حتى وصلا إلى الحافة القريبة من نجع أورِك. هدأت خطواتها ثم اختفت قرهانة براكبها بين البيوت الرحبة.

ينظرون لبعضهم في حيرة..

- قلت لكم مائة مرّة إنه شيطان ساحر لم تصدقوني.

- لا يا أولوا، سمعنا ونحن صغار عن مقابلاته لفانالاندي امرأة ناس النهر. وجلوســـه عـــند غولة الإيركابي التي تأكل الذئاب والضباع وكل مسافر وحده في الصحراء.

- وكَلايا شِلْشِل!

- معتوق أكيد مؤكد مخاوي جِنّيّة من ناس النهر.

- أو متزوج من عفريتة خطيرة.

فيّاج والعجب والحيرة مازالتا تدوران في رأسه..

- أرأيتم كيف سبحت به قرهانة فوق الخور العريض! ومن ناحيته الخطرة حيث الصخور؟

-أنها الخمر يا ناس لعبت برؤوسنا.

- لا.

الــرقص حـــار، وعندما وصلت قرهانة إلى حافة الساحة، وثب من عليها معتوق فاستدارت متجهة إلى ركن تقف فيه الركائب وبعضها أقعى أرضاً. معتوق اخترق حلقات الرقص. توسط الدائرة. خطوتان واسعتان ثم وثبة عالي، رفع يديه وصاح بصوته العميق..

- يامـــ..ولانا أهمـــ..د.

توقفـــت الأغـــنية وأبدلت الدفوف إيقاعها. زغردت النساء. وابتدأت رقصة الكَـــفّ. حــلقة كبيرة من الرجال لم تنغلق تماماً من ناحية النساء اللائي استوين صــفوفاً متراصـــة. الـــرجال في متتاليات مُنوّعة من ضربات الكفوف القوية مع الـــتعاجب بالنفس وفرحة بالأجساد الرشيقة السمراء. النساء في رَجْرجة جسدية يشـــجعن. والغـــناء يتـــبادل الأدوار مع الكفوف والدفوف. تدخل فتاة لترقص في الدائرة سريعاً لتلقي نظرات خاطفة إلى شاب بالذات وتتلقى منه نظرة ثاقبة لتعود وتدخـــل غيـــرها. اشـــتد الـــرقص وارتفعت ضربات الكَفّ حتى نسوا عدم وجود طنبورة المدلّل المغرور.

وسـط البـنات، فوزيـة قلقة تنتظر تاج ليشبب بها وقد ارتدت ثوباً جديداً وتجمـلت وتعطّرت، وامتلأ رأسها وعنقها وصدرها وساعدها بالذهب، وخلخالان مـن الفضـة يتواثبان أعلى كعبيها. تتعجل لفت الأنظار إليها، لتغطي على جمال راضـية الملائكي المنكسر وجمال هَكيمة الأنثوي الناضج، وجمال العروس بجيوَة الصاخب الصارخ.

تـاج طنـبورة هبط من ربوة مِجيد وقد وخزته الغيرة، واتجه مهرولاً إلى سـاحة العُـرس ليغني ويسترد هيبته. وأفراد الأقشْطفوش يسخرون منه. وترك الجميع الربوة إلى العُرس الهادر.

سَـيّد هَـربية وسـط الزحام يتقبل التهاني في فرحة، يشرب جرعات من العَرَقي ويدخن البانجو مع مهنئيه. يتلهف لساعة أخذ بجيوَة. الحزين وسط الفرح هـي أمّه العجوز هَربية، رغم مشاركتها الرقص وإطلاقها الزغاريد، لكنها كانت تأمل أن يبتعد ابنها الوحيد سَيّد عن بجيوَة ذات السمعة السيئة، ولا تستطيع كأي امرأة قبلية أن تتغاضى تماماً عن كون بجيوَة ليست من سلالة القبيلة، وأن أمها عبدة وأعتقت، ثم أن ابنها سوف يبقى في بيت الكيد. سوف يتركها وحيدة.

أبـدع تـاج طنبورة، من شاهدوه يتجرع العرقي لم يتصوروا أبداً أنه قادر على الوقوف في هذا الزحام ليغنى بهذه القوة وبهذا الجمال! أطلق لفوزية أغنية حُـب جديدة عاشت بعد مماته لمواسم لا تحصى، أغنية حوار بينه وبين الجموع المنتشية..

من يميل لها قلبي يا هووي؟

ثرى.. هل هي ابنه المزارع؟

لا ليست هي

ثرى.. هل هي ابنه التاجر؟

لا ليست هي

من يميل لها قلبي يا هووي؟

ثُرى.. هل هي ابنه الملاح؟

لا ليست هي

ثُرى.. هل هي ابنه العمدة؟

لا ليست هي

من يميل لها قلبي يا هووي؟

ثُرى.. هل هي ابنه الحداد؟

لا ليست هي

من يميل لها قلبي يا هووي؟

تُرى.. هل هي ابنه المداوي؟

لا ليست هي

من ميل لها قلبي يا هووي؟

تُرى.. هل هي ابنه النجار؟

إي إي إي. إنها هي

بعد فاصل سريع من الغناء، أصحاب الدفوف يسخنونها على حطب مشتعل. البعض من الرجال يختفي هنا وهناك ليدخن البانجو ويشرب كأساً من العَرقي. البعض يثرثر والنساء يراجعن أطفالهن ليطمئنن عليهم. كل هذا استعداداً لزفة السّفين الصوفية التي سينتهي بها العُرس. العريس سيّد ارتدى الجلباب الأبيضَ الجديد والعمامة الفخمة الضخمة يضحك وسط أصدقائه. العروس بجيوةَ مضطربة. شيء ما يقلقها على والدها. ألحّت عليهن فتركونها تذهب إلى حجرته مرّات تنظر إليه وهو مستلق في ظلام الحجرة. لكنها تهاب الدخول. تخشى أن يثور عليها أو يلعنها في ليلة دخلتها. المرّة الأخيرة حملت فانوساً مضاءً، أغلقت الباب خلفها فالقلق والتوجس ينهشانها. اقتربت منه، نائم في هدوء. رفعت زبالة الفانوس فاشتد النور. وجه أبيها انبسط وتلاشت التغضينة

الحزيـــنة المريضـــة. صـــدره لا يتحرك مع أي تنفس. هزّته. هزّته مرّة أخرى. وضعت أذنها على صدره، على فمه. شهقت.

انتهت الزفة الصوفية التي أبدع فيها معتوق الخير كعادته. انسل العروسان. وعـــندما انفـــردا في حجرتهما، وبدأ سَيّد هَربية خلع عمامته، تقدم إليها فوجدها تذرف الدموع. اقترب منها فانتفضت هلعاً. ظن أنها تبكي حظها معه. تعب معها.. يـــئس. يقيـــنه كـــان أنه سينالها في ليلته هذه. ولِهاً بجسدها وتشوقاً ليحكي في الـــنهار التالي لأصدقائه عن بطولاته الجنسية مع عروسة. لكنها منعته وزجرته وأهانته عندما غضب مذكراً إياها بأنه زوجها.

في الصباحية وقبل أن تتوجه النساء والبنات إلى بيت العُرس لعَجين الدقيق وتجهيز وجبة الشّعرية باللبن والسمن للجميع، صدمهن عويل بجيوَة..

-إبيوو -بيو. يا أهل المروءة يا هووي.

أعلنت العَروس موت أبيها. موت هاشم الكيد.

عـــند غُسله وضح لصَلاتو أن الرجل توفى من أول الليل. سَيّد هَربية عرف لمـــاذا كـــانت تبكي بجيوَة. ودّع ناس القرية صديقهم وأسكنوه مقابرهم في نفس الرمس الذي حَوى منذ مواسم عديدة جسد زوجته جوليه.

نادراً ما كانت تتمنى موته لتستريح منه وتنطلق تماماً حسبما تُريد، وغالباً مـــا كـــان قلـــبها يشـــفق على أبيها الذي ضربه الشلل فصار عاجزاً من بعد قوة وجبروت. تدخل عليه وهو مستلق مغمض العينين، تراقبه. يفتح عينيه ينظر إليها حاقداً كارهاً. تبتعد وهي تشعر أنها من داخلها لا تكرهه. تحبه. وشيء ما داخلها يقول أنه يحبها رغم كل هذا الكره الواضح منه. تعلم أنه لو استطاع قتلها لقتلها فـــي لحظـــة ودون تـــردد. لو نالها لهشّم رأسها،لخنق أنفاسها، لأغرقها إغراقاً، لطعـــنها بسكين.. لو زايله شلله الذي يسجنه.. لو حدث لكانت نهايتها فلن يوقفه كل ناس القرية.

سـَــلامة أخوها، ذلك المهاجر، إن احتمال مجيئه موجود. كان حلم أبيها أن يعـــود ســـلامة ليقتـــلها بالـــنيابة عنه! تُرى، لو عاد سلامة.. هل سيقتلها؟ هل

سيتصرف تصرف ناس الصعيد، ناس أجدادهما، أم سيتصرف تصرف ناس النوب الذيـن وُلـد بينهم وعاش بينهم؟ أم سيتصرف مثلما يتصرف الناس الذين يعيش بينهم الآن؟ تمنت في أيام أن يموت هاشم الكيد سريعاً قبل أن يعود سلامة، فحتى لـو عاد سلامة لن يجد من يحرّضه على قتلها. يجيء ليراها ثم يسافر. الآن لها رجل. زوج يتحمل مسئوليتها. سلامة لن يتخطى زوجها. لو جاء ليأخذ نصيبه من حديقة أبيهما، فليبع نصيبه لها ويذهب إلى حيث زوجته وأولاده.

مات أخيراً الكيد. مات هاشم. حزنت بجيوَة وفُجِعت. تجلس ساهمة في ثاني أيـام الحـداد اللـذين لا ثالث لهما بدلاً من السبّعة. هما اليومان اللذان كان من المفـروض أن يكونـا امـتداداً لليلة سَعدها المفترضة. في مضيفة النجع آبدون وصَلاتو يتلقيان العزاء في صديقهما الذي مات، وسطهما سَيّد هَربية. خارج بيتها وفـي الحـوش تدور رقصة النائحات. خيشة تترنم وتنوح على شقيقها الكيد،هي أكثر الناس حزناً ومصاباً. وفي الظهيرة هدأت الرقصة من بعد توهج حزين. تبكيه نسـاء القـرية، يبكين بحرقة على رجل أحبوه واحترموه وإن كان غريباً. بجيوَة تـرقص وسطهن وهي تعلم أن النسوة يشفقن عليها، أنهن يعطينها الفرصة لتبدأ معهـن مـن جديد. سرّها هذا، إلا أنها تفكر فيه.. في الكيد. أبيها. لكم أوحشها! كيـف ستعيش بدونه؟ كيف سيكون حال بيتها؟ حال كل طوبة فيه، كل غرفة فيه وهاشم الكيد غائب؟

جلسـت القرفصاء واضعة كوعيها على فخذيها ورأسها المتدلية محشورة بين قبضتي يديها. تحادث نفسها باكية..

-والحديقة. حديقته هو. تُرى ما سيكون شكلها الآن بعد أن رحل صانعها؟ مـا سيكون طعم موالحها بعد غياب زارعها الكيد؟ سيصير مرّا من اليوم، يموت هـو ليـأتي سَيّد هَربية! بقرة لحيمة غبية جاءتها ليرحل عنها أسد. ديوث يأتي فيمـوت الأبـي الهصور؟ دخلت بيتها دجاجة وذهب إلى تل الجبانة جَمَل.. هاشم الكيد.. أبوها.

أدخلنها إلى الحوش تحت السقيفة. مسحن وجهها بالماء البارد لتفيق. بكين على حالها ونسين ما فعلته، إنها طفلة وإن كان جسدها جسد امرأة فائرة. تجلس

ســاكنة يائسة وعلى يمينها خيشة العجوز، أخت أبيها في العشرة ورفقة الحياة، وعلى يسارها هَربية وبهيتَة.

مــن الــبيوت القريــبة يأتي الطعام للكل. أمامها طبق بسيط يشجعنها على تــناول لقيمات. تثاقلت الأحزان في جوفها. انفجر جوفها فصرخت وقامت تهرول مســرعة تتخطى الحوش وتدفع من تحاول إمساكها، خارج البيت مزقت جلبابها الأســود مــن عــند الصــدر، تغرف الرمال وتضعها على شعرها الناعم الطويل وتضــرب عــلى صدرها المكشوف الثائر، تعدد وتنوح وتصرخ على الذي راح. هــاجت قــلوب النساء فقمن معها راقصات نائحات. خيشة تحمل ثقل عمرها تكاد تســقط إعيــاءً، العجــوز التي تلوم نفسها وتتهم نفسها بأنها شؤم على كل من يعايشــها طويــلاً، العجوز التي كلما يرحل راحل يذكرها بجموع الذين رحلوا من عائلــتها وتــركوها لتــبكيهم كلهم. حفيدتها بهيتَة ورعب الموت كادت تتوارثه. الخوف من الآتي بدأ يفيض من خلاياها وتتشبع منه. حياتها الماسخة التي تحياها فــي قــتامة. ثلاثــتهن متصــدرات للرقصة الكئيبة، والبطانة الجوقة، هن نساء القرية.. نساء القبيلة.

ورغم كل حزن ورغم كل بلاء، هدير الزمن وصخبه ووقع خطواته الثقيلة تجــرف كــل مــا أمامها. فتوالت الأعراس، تاج طنبورة جعلوه يغني ويتغزل في زوجــته التي سيدخل عليها في ليلته هذه. غنى لثوب زفاف فوزية الجامع لألوان الدنيــا كلها، وعيونها المكحلة والحنّاء المنقوشة في كفيها وكاحليها. غنى لدلال فوزية الساحر. أما فوزية فالفرح يغمرها وقد بدت في أجمل صورة وأوفر أنوثة. هــانم مَفكوكــة ســعيدة ترقص ورقصها تغلبه الرعشات التي تصدر منها غصباً عــنها، تنــثر الــروائح على تجمعات النساء حاملات الأعواد الخضراء والرجال بملابسهم البيضاء وهي تتحرك بحيوية وسطهم.

بــلال لــم يكــن الحــزين الوحيد في تلك الليلة، ابتعد قدر استطاعته عن المشــاركة فــي رقصات العُرس الاحتفالية. بعض الفتيات يتابعنه بحثاً عن نظرة حســرة وقسمات عذاب يرصدنها في وجهه. فهو المحب لفوزية بدون أمل، مثلما يحــب صوفاني بهيتَة بدون أمل. لم يسكر بلال فهو حفيد الشيخ صَلاتو والسائر

فــي مــنواله، لكن لـه سُكره الخاص.. أبيات الشعر التي يتذوقها ويرويها لنفسه ولمــن حوــله، وفي هذه الليلة كان يروي لنفسه مراراً وتكراراً بيت شعر عربي شهير مع رفع اسم المحبوبة ووضع اسم حبيبته التي يحبها بدون بصيص أمل..

ودّع فُوَيْزَة إن الركْب مُرتَحِلُ

وهل تّطيقُ وداعاً أيها الرجلُ

الحزين الذي لم يقل حزنا عن بلال، كان إسْهاج النجار، فقد حَضر ما يقارب الســتين فيضـــاناً من عمر النهر. ليس له إلا فُوزيـة. مات لـه ابنان قبل أن يشبّا. وهـــاهو في أيام ضعفه يزف وحيدته ويسلمها إلى شاب لا يرضى عنه. لا يحبه. كســـول حشّاش أميل إلى القذارة، لا يؤتمن. مجرد مطرب أجير يأخذ مقابل إحياء حفلات الأعراس كأنه غجري متسوّل! يأخذ نقوداً حتى لإحياء أفراح عائلته! ولولا عدم قدرته هو وأمها على بُعد فُوزية عنهما، لما وافق أن تتزوج في بيته وتبقى فيـــه فارضـــة عليهما ذلك المخمور القذر. يعلم أن طنبورة لا يريد البقاء في بيت أبيـــه الفقيـــر، وانـــه يطمع في عيشة رغده في بيته الذي يتوفر فيه الرزق وبه أحسن الطعام والشراب. يدرك أن طنبورة سوف يشاركهم معيشتهم بدون أن يهتم بالمشـــاركة في مصاريف المعيشة. بل عندما يعطيه الله ذرية لن يهتم بإنفاق ما ثمنه حفنة بلح عليهم. قال ذلك لابنته فأنكرته على أبيها ذلك القول الإدعاء. لكن ما قاله إسْهاج تحقق وأدركت فُوزية خطأها بعد فوات الأوان.

إسْـــهاج يقــف وحده ينظر لطنبورة وهو وسط زحام ناسهما الراقص يغني مشبباً في ابنته..

أنتِ يا يمامة

يا من عطّرت دارك

كلما مررت عليكِ

أشم رائحة المسك والعنبر!

يمتعض. يلوم حظه مع هذا الشيء. ولما وجد آبدون قريباً منه، أعلن له ما في صدره ليخفف من آلامه..

-ما رأيك في عريس ابنتي، من أخذ فوزية رغماً عن أنفي؟

ولـــم يترك فرصه لآبدون أن يجيب على السؤال، أجاب إسْهاج على نفسه بدلاً من آبدون..

-خسيس. شاب لا هو فلاح ولا ملاح ولا هو نجّار ولا حدّاد ولا أي شيء. كنت آمل أن تأتي لي فوزية بزوج اتخذه ابناً. فأتت لي بهذه العنزة!

يبتسم له آبدون ويهم بمحادثته، لكنه يفاجأ بإسْهاج يبتعد متجهاً إلى جانب مـــن أجـــناب الساحة الخالية، ليجلس وحيداً مع نفسه. وهناك واصل حديثه لكن ليس لأحد..

– مـــاذا لـــو تزوجت تلك العبيطة بلال؟ بلال كان سيعوضني عن فقد ابنيّ. لكـــن في نهاية عمري يكون زوج ابنتي والذي في مقام ابني رغماً عنّي.. ذلك السّكير الوضيع؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

يـــأخذه ناســـه معهم ليرقص في صف الرجال الأول مرغماً ويبتسم مرغماً ويحـــاول الفـــرح، زوجـــته هانم في صف النساء الأول الراقص، تحمل مثل بقية النساء العجائز فرعاً أخضر تلوّح به سعيدة. تنظر ناحيته مؤنبة راجية أن يشارك ويفرح في عُرس ابنتهما، فيحاول ادعاء الفرح من أجل خاطرها.

الانتشـــاء يشـــيع أكثر ويغمر مشاعر الراقصين مع أغنية جديدة لتاج، من وحي خاطره المنطلق..

يعذبني العطش

بالله عليكِ أيتها الناقة الصغيرة

أيتها اللينة البكر

أعطني بعض لبنك

عدّة أعراس ثم عُرس سلاطين وهُوشَة. فارس الرقص هي تعويضة لِساتين، أبدعت في الرقص وجعلت ليلة زفاف ابنتها ليلة مرحة ضاحكة، بأسلوب رقصها العجيب بإضافاتها اللحظية التي تبدعها. وكلما تعبت النساء وأرادت بعضهن الراحة جلوساً على الرمال.. لعنتهن ولسعتهن بعود الشجر الطري الأخضر على أفخاذهن واتهمتهن بقلة الأصل. يولْولْنَ ضاحكات لاعنات. ولم تسامح أحداً منهن إلا ديوانة مسكين ونبْرة وخيشة العجوز وأخرى من عمر خيشة. تجذب ضاربي الدفوف من تلابيبهم إن استكانوا لحظات. ضربها لهم ضرب قوي. تصيح فيهم..

-ألم تأكلوا من ذبائحنا؟، ألم تسكروا من خمر زوجي الزير البارد؟ إذن.. هيا دقوا الدفوف بقوة يا أولاد الكلب.

يضحكون وأحدهم مازحاً يصر أنه سوف يتزوجها بعد موت زيرها البارد، فتضحك وتذهب لتشاغب غيرهم. تنثر قطرات الروائح من القناني التي أخذتها من بقايا دكان أثمان. كل من يبارك لها تحتضنه سواء كان أنثى أو ذكراً عجوزا أم فتياً. تتبين الملامح بصعوبة رغم وفرة الفوانيس، تستعين بالصوت. احتضنت الجميع عدا اثنين فقط.. سلاطين الذي سيدخل على ابنتها هذه الليلة! وأمرُ الله الأشرم. هما يبتعدان عنها كلما تقابلا في الزحام. يبعدانها عنهما كلما همت بالدخول فيهما بدون أن تتبين أياً منهما. لكنها تحدس.. هذا هو سلاطين، وهذا أمر الله. تعلم أن كلا منهما يكرهها بقدر ما يكره ناس النوب العقارب وثعبان الطريشة.

لم يكن كل من في العُرس سعيداً، الكثير في غيظ ويدعي السعادة، ابن عم هَمَرين، ترك العُرس غاضباً ثائراً محسوراً، بعد أن حاول التقرب من سلاطين مراراً وتكراراً، يرفضه سلاطين، لا يطيق أن يحادثه هذا الكهل الجبان، وهذا الكهل الجبان يذكّره بأنه ابن عم لأمه.. أيْ في مقام خاله. وهذا يرفضه مصراً علي تذكيره بخيانته لخاله هَمَرين. يصارحه بأنه يتقرب منه آملاً في مكسب يجنيه، لكنه لو انقلب ناس القرية عليه سوف يكون من ضمن المنقلبين، وسينسى قرابته لأمه. حاول الكهل أن يدافع عن نفسه وعن عائلته الهَمَراب، لكن سلاطين

قال إنه كان يراقب كل ما يجري يوم مقتل هَمَرين، وشاهده وهو يعدو مع الرجال لقــتل هَمَرين. وشاهد أفراد عائلة الهَمَراب وهم يستخذون وينافقون. يئس الكهل وابــتعد. ولم يحاول مرّة أخرى إلا بعد مواسم طويلة، عسى أن يكون سلاطين قد نفــذ غضبة وتذكر عائلته، لكن سلاطين لم ولن ينسى، فقابله بالبرود المعتاد ثم بالتهديد ليبعده ويبعد كل الهَمَراب عنه. سلاطين عائلته هي عائلة أبيه فقط. أهله وناســـه هـــم عمـــتاه وابناؤهما. لا يهم ضيقه من عَمّته هَكيمة. إنها عَمّته. أبوه يضعه بعيداً، لكنه لا يتبرأ منه، غاضب منه كثيراً، كاره له، أو يخيل له ذلك كثيراً جــداً. لكن عائلة الهَمَراب.. عائلة أمه فهو لا يطيقها رغم حبه الجم لأمه التي لم يــرها. لقــد خانت عائلة الهَمَراب خاله هَمَرين وشقيقته.. فلِم يفتح لتلك العائلة صدره؟ أبداً لن يكون هذا.

تَعويضـــة لِســـانين نفســـها، لقد أهانها سلاطين إهانة مفاجأة هي وابنتها كِسبانة. بعد أن تم إعداد كل شيء واتفق على كل شيء. وعقد قرانه على هُوشَة، فـــي حوش بيت أبيه وهو جالس على حصير وسط أصدقائه، مستنداً على مساند تصـــلّب جذعه. بجانبه يونس ووعاؤه المليء بعجين الحنّة المعطرة، يكسو باطنا قدميه وراحتيه. فإذا به يعلن أن لا تَعويضة ولا كِسبانة مسموح لهما بدخول بيته!

هُوشَـــة في حوش بيت أبيها وأمها، في نفس وضع سلاطين، بجانبها سيدة أتى بهـــا سلاطين من ميناء حلفا خصيصاً لتقوم بنقش تشكيلات الحنّاء للعروس، تقـــوم بزخـــرفات جميلة معقدة في ظاهر كفي هُوشَة وباطني يديها وقدميها. ثم أعـــلى مشـــط قدميهـــا متصاعدة حتى سمانتي ساقيها، فكانت حدثاً جديداً، بدعة أعجبت الفتيات وصارت واجباً مقدساً يصررن عليه في ليالي زفافهن.

حـــدث الكثير من القول والرجاءات بل والتهديد بإلغاء العُرس أصلاً، ليعود سلاطين عن قراره المفتري. لا فائدة. آبدون اقترح أن تكون كل أمور العُرس في بيـــته.. والعروســـان فـــي النهاية يدخلان في بيت أثمان والد العريس، بدلا من الدخول في بيت العروس كما هي العادة، حل وسط لا يحرم تَعويضة وكِسبانة من المشـــاركة في إعداد الطعام والشراب، بعدما تجهزان هُوشَة العروس في بيتهما، إذن لـــن يفوتهمـــا الكـــثير في ليلة الحنّة ولا في ليلة الدخلة، وستقود مع ابنتها

كِسبانة تجمعات الراقصات من النساء في كل الرقصات المتنوعة، لكن سيفوتـهما المشــاركة فــي الصــباحية التي ستكون في بيت أثمان. سَليمتو حمد الله ألا أحد اقــترح أن يكــون العشــاء في بيته، فرغم أن الذبائح على حساب سلاطين وكل الــتكاليف، إلا أن الأمــر كــان سيستدعي بعض المشاركة في التكاليف من بيته. تَعويضـــة ترقص فرحة، خبّأت ألمها حتى كاد أن يَغرق مؤقتاً في يَمْ جوفها. لكنه مــن اليــوم التالي صار كالحجر الثقيل في البطن. يوجع ويكوي في الحشَى وفي المعدة وإن تناسته الأعصاب وقتياً.

كِسبانة شعلة في الرقص وتطلق الزغاريد في تواصل بدون راحة. تُريد هي الأخــرى تغطيــة حســرتها عــلى نفسها وغيرتها من أختها الصغيرة الجميلة، والشوشرة على الإهانة التي تجرعتها مع أمها من قِبل سلاطين العريس. سلاطين الــذي لا ينسى حدثاً مرّت عليه مواسم عديدة، حين فضحته هو وبجيوَة. وبعدها أطلقت عليه أمها نعت شرّين.

صُرف على هذا العُرس ببذخ يليق بثروة سلاطين العريس. وجبات العشاء غنية باللحوم، فالذبائح عديدة. الشباب يجد ما يستطيع أن يشربه من خمر فزادت نســبه الســكارى، وبالتالي زادت فرقعات ضحكاتهم ونوادرهم. طنبورة العريس الذي لم يمض على زواجه أيام، صمم على إحياء كل الأعراس في القرية، وأبدع أكثر في أعراس أصدقائه، لكنه لم يرفض أجره في أي منهم. في عُرس سلاطين، كــان المطربون كثيرين أتوا من القرى المجاورة، بعضهم تحت إغراء الاستقبال الــذي عُرض عليهم، والفخامة التي سيعيشون فيها ثلاثة أيام متوالية، ثم الهدايا التي سيعودون بها، ثم التشوق للتقرب ومعرفة هذا الشاب الصغير الذي بدأ صيته يعلو عليهم. وكان منهم من سمع أغاني طنبورة بأصوات مطربين غيره، لكنهم لم يســمعوه ولم يروه. متشوقون لسماع أغانيه منه شخصياً وأن يروه. ولم يستطع أحد منهم أن يعلو عليه، على طنبورة ذلك المطرب الناشئ.

سلاطين اقترب من أولوا، احتضنه وطمأنه..

-أولــوا، لقــد وفيــت بوعدي لك. لماذا الحزن؟ هل من أجل زمن مرور قمرين فقط ستنتظر فيهما ليلة زفافك؟

-أخشـــى أن تـــتحجج راضـــية بأيـــة حجّة لتؤجل الزفاف للموسم التالي. والموسم التالي لا أحد يعرف ماذا سيكون؟

-لا تخف، ابن خالك معك، لن يتخلى عنك.

-خائف.

-قلت لك لا تخف. راضية ستكون بين أحضانك هذا الموسم.

في صفوف النساء الخلفية والتي تحتلها العجائز، انضمت إليهن سَيّدتان من قــبل الأوان.. ديوانة مسكين ونَبْرة التي لم تعد أقل مَسْكَنَة من ديوانة.. كادتا أن تكونـــا هيكـــلين عظميين. لم تلبثا إلا قليلاً، نَبْرة نادت راضية من ضمن صفوف الفتيات. أعادت عليها وصيتها بالبقاء في حفل العُرس حتى نهايته، ثم عادت مع ديوانة لتوصيلها حتى بيتها، فهي التي أتت بها لتخرجها من محبسها. وإن وافقت ديوانة، فأنها وافقت لأن العريس ابن شقيق نَبْرة وهَكيمة.

نَــبْرة تقــلق على زوجها من كل هذا الضجيج الصادر من الأعراس، ربما اهــتاج فيــثور وتأتيه إحدى تلك النوبات البكائية الطويلة المتعبة. وإن أتته فلن يســتطيع مجــرد خفير يتولى رعايته أن يفعل شيئاً. لكن نُوري صارت أحاسيسه بـــالموجودات تَبهَت يوماً بعد يوم، لا يثير أذنيه إلا حرفين يتواليان.. سِسِّي. تنفذ تـــلك الأحـــرف في تركيبتها تلك إلى قلبه حتى لو تلفظ بها أحد بجانبه وهو نائم، يحـــس بطعـــنه نصل طويل طويل نحيف نحيف مثل إبرة صُلب تمرق مباشرة في طيات لحمه حتى تخترق قلبه فيصيح في بؤس ويأس منادياً على وحيده الغارق.. سِسِّي. سِسِّي. وينخرط في عويله البَقَرى.

شـــيخ الخفـــر الكهـــل المتصابي، أرسل الخفير ليأخذ نصيبه من الرقص والمشـــاركة فـــي العُرس، أخذ على عاتقه البقاء بجوار حجرة نُوري، حتى تعود نَـــبْرة من تواجدها الرمزي البسيط في عُرس ابن أخيها، ثم على الخفير أن يعود ليبقى الليل بطوله في غرفة قريبة من غرفة العمدة، فربما احتاجه ناس العمدة في شئ.

استلقى شيخ الخفر على حصير متكدراً من دقات طبول العُرس. إنه عُرس ابــن شقيقة هَمَرين. تؤذيه الغيرة على زوجته الثانية وهي تغطس في الرقصات بيــن النســاء عارضة مهارتها في العديد من الرقصات على الرجال. بها إغراء مفلوت، لا تستمع إلى أوامره بأن تهدئ من رقصاتها وتكون مع النساء اللاتي في منتصــف العمر، وقورة محترمة، خاصة أنها زوجة شيخ الخفر، ويكفي ما جرى من حبها لاستعراض بدنها حين أخذت انتباه هَمَرين فكان منه ما كان معها.

أتــت نَــبْرة، حــادثت شيخ الخفر، قالت له أن يذهب ليشارك في العُرْس. ماطــلها بحجّة انتظاره عوده الخفير. دخلت هي غرفة زوجها قلقة. كان مستغرقاً فــي النوم. الشحم واللحم وعمليات تمثيل طعامه الخرافي تجبره على النوم أغلب ســاعات النهار والليل. لا يستيقظ إلا لساعة زمن قصيرة يتناول فيها طعاماً كثيفاً يــتكفل بتجنيد كل أجهزة جسده للاستغراق في الهضم. حِسّه تَكَلّس. لينهد البيت ويسقط عليه السقف الطيني وهو نائم فلن يحس، لكن لا يتفوّه أحد بــلفظ سِيِّئ.

ديوانة مسكين، استلقت في مكانها على مصطبة البيت الخارجية. قليلاً من الوقــت ثم تمددت في مكانها نائمة مستسلمة حتى عاد ابنها وضوء ما بعد الفجر يتغــلغل في الأجواء. يأخذها إلى حجرتها متألماً من دموعها التي تبلل خديها بعد أن تبينته. تمددت على السرير الجريدي وجهها ناحية الحائط. كاد فَيّاج أن يخرج من الغرفة حين نادته. عاد إليها، قالت بصعوبة كلمة واحدة..

-أنا.. أنا..

ثــم عــادت تنخرط في البكاء. فَيّاج يُربت على رأسها حتى هدأت قليلاً إن ابنها يعلم أنها مظلومة ولم تفعل شيئاً يجلب عليه العار برغبتها.

يِجيــوَة مازالت في حداد على أبيها الكيد. وهي كأي عروس جديدة. أخذت أقصــى فــرحة تكون في بلاد النوب. فرحة تكوين نواة لأسرة جديدة. مع أقصى حــزن يأتيهم، حزن فقد نفس منهم. تجمع النقيضان عندها في ليلة واحدة. ولأن الــتقاليد لا تسمح لمن فقد نفساً في عائلته بالحضور في الأعراس طوال الموسم. ولا حــتى تسمح للزوجة الجديدة بالخروج السريع من البيت، فقد بقيت في بيتها

ولم تحضر زفاف عشيقها سلاطين على تلك الفتاة الضئيلة وسيمة الوجه هُوشَة. بقيت في حجرتها مغلقة بابها حتى لا تأتيها ضربات الدفوف وصيحات الزغاريد. تشد في شعرها غيظاً تلعن الخائن سلاطين وتلعن أباه أثمان ولم تنم حتى أتى زوجها سَيِّد هَربية بعد انتهاء العُرس وانتهاء صلاة الفجر. نام هو بكامل حسرته أنه لم ينل زوجته حليلته بعد! ولا يقلقه أبداً، بل لم يخطر في باله أقاويل نسائية ثم غير نسائية أنه لم يغزو جسد زوجته بعد.

وبقيت هي حتى وضح الصباح. بعدما عايشت عذاب اللحظات التي سيكون فيها سلاطين يباشر فيها هُوشَة لأول مرّة ويفض بكارتها. فتستلذ هُوشَة لذة مشفاة إلا من شُعَيْرَة ألم لها بدورها لذّتها الخاصة.

فرحت هُوشَة سَليمتو بسلاطين ولم تبد أي لمحة من الأسى أو الشجن وهي تترك بيت والديها. لم تتكدر فرحتها بما فعله سلاطين من إذلال أمها وأختها علناً، رفضت ضغوط أمها بأن تهدد سلاطين بعدم إتمام الزواج، رفضت رجاءها بأن تتمسك بتأجيل الزواج للموسم القادم حتى يتأدب سلاطين. هدّدتها أمها وثارت عليها أختها. هدّداها بعدم حضورهما الزفاف. لكن هُوشَة الضعيفة الرقيقة الضئيلة لم تكن على استعداد لقبول أي فعل يهدّد زواجها بسلاطين، خاصة أن أباها يعضدها بقوة، فهو يأمل في مكاسب آتية ولا يهمه إهانة زوجته أو ابنته. فاستطاعت هُوشَة الصغيرة أن تقف ضد الطاغيتين أمها وأختها الكبيرة. أما زِجِرْ شقيقها الوحيد، فكأنه لا يوجد أصلاً. كل ما فعلته هُوشَة أنها طمأنت أمها وشقيقتها بأنها من يوم الصباحية سوف تحادث سلاطين أن يرضى عنهما ويرفع عنهما الحظر!

لحظات العبوس والضيق لم يكن سببهما ما يظن الناس، كانت مرتعبة من لحظة المضاجعة التي لابد منها. تخشى الألم الذي ستسببه لها هذه العملية. لا تتصور أن قضيب رجل يدخل فيها وتتحمله! إن القطع والتشويه اللذين نالتهما يوم الختان، والعذاب الذي تلاهما لا تستطيع نسيانه. لقد رأت في قطعة مرآه ما فعلوه بها من تشويه. كم تمنت وحلمت بأن يكون الزواج والإنجاب بطريق ليس

للمضـــاجعة فيها من نصيب، ولا حتى الولادة. كل شيء يهون، فقط الابتعاد عن هذه المنطقة، الابتعاد عن مكمن الفخذين الذي بُتر وتشوه منذ زمن.

أتعـــبت سلاطين كثيراً، ثم استسلمت له خوفاً من ضيقه وغضبه. كرامته لا تسمح له بأن يقال عليه بأنه لم ينل زوجته من الليلة الأولى! استمتع سلاطين بها استمتاعاً جزئياً، ولم تستمتع هي إلا بإحساسها بأنها أمتعت زوجها. ولا شيء بعد ذلك إلا عذاب الفعل نفسه وسخافته.

زارا الـــنهر بعد الفجر مباشرة في أول يوم يمر عليهما زوجان، وتباركا به وبمياهـــه، وبعـــد عودتهما مباشرة حاملين عودين أخضرين ودخولهما حجرتهما والســـعادة تشـــع مـــن وجه سلاطين السمين، ترّجته هُوشَة السماح بدخول أمها وأختها البيت. فاجأها سلاطين بجانب من شخصيته كانت تزاور عنه، وتدعي أنه غيـــر مـــتواجد فيمن مال إليه قلبها. انقلبت تعبيرات وجهه من السعادة إلى وجه مَغْـــلول ممرور يطلق طوفاناً من الكراهية والغل ورغبات الانتقام من أعز الناس عندها.

لـــم يـــلن لها وهي تنظر إليه مبهوتة تضطرب وقد أذهلتها كل هذه الثورة النارية التي طغى بها عليها، هددها بالطلاق إن عادت إلى هذا الحديث، فبكت في أول صـــباح لهـــا معه، ثم تماسكت وتمسّكت بحبها له وثقتها فيه. لم تتصور أن هاتين العينين الواسعتين العسليتين اللتان تحبهما، تحملان أي شر. وراهنت على أن الأيام سوف تطفئ نار غضبه وكرهه لأمها وأختها.

وقت دُخلة ابنتها، حين أخذوا هُوشَة لتدخل بيت زوجها، كانت ساعة صعبة من كل النواحي على تَعويضة. قبل عودتها لم تعدم امرأتين أحبتا أن تقسوا عليها كمـــا تقسو هي على النساء، سألنها بخبث عن سبب منع سلاطين لها من دخول بيـــته وهـــو بيت ابنتها التي أنجبتها وربتها؟ كيف يكون احتفال العُرس في بيت آبـــدون وليـــس في بيتها هي أو بيت أثمان كُورنة والد العريس؟ وكيف تقبل أن يدخـــل عـــريس ابنتها على ابنتها في بيت والد العريس بدلاً من الدخول في بيتها هـــي؟ أكدا أن هذا الوضع إهانة لكرامتها لا تغتفر سوف تحكي عنها العائلات في

القبيلة مواسم طويلة. كيف تقبل بذلك وهي المرأة القوية التي يخشاها الجميع؟ أليست هي بنت محمود تانا وسَبَلطة عزيزاب؟ المرأتان لا تُريدان غير الضغط على موضع ألم تَعويضة، هي تعلم ذلك. لكن ماذا تقول؟ كيف تجيب وهي قد أهينت فعلاً؟ لذلك بكت أمامهن غيظاً وكمداً وقِلّة حيلة.

في حجرتها لم تنم سريعاً. القلق ليلاً يتزايد معها. خيالات الشياطين والعفاريت والأرواح والشخوص الخرافية الذين أدمنت أن تحكي للأطفال حكاياتهم.. كلهم يأتونها ليلاً ويملئون رأسها، ولا يرحلون إلا عندما تأتيها الشرماء لتلومها وتتوعدها فتبكي حسرة. تَعويضة علمت فضل حميها المنشد عسل، مات ولم يعد أحد يقرأ القرآن المَجيد ويسبّح لله ويمدح رسوله فتهرب الشياطين والعفاريت الكافرة وتبتعد عنها الأرواح الثقيلة، تبتعد عنها وعن مجال البيت كله. ورغم اعترافها بفضل المنشد عسل، إلا أنها تلومه.. فهو الذي أختار هذا المكان المتطرف والمنفرد على سفح الجبل مباشرة ليبني بيته، منه لحدود الجبل مباشرة! تلومه.. ألم يعرف أن ابنه الزير سيتزوج سَيّدة تخشى ظلام الليل وظلام الجبل بسكانه الشياطين؟ ليلة قلقة مرهِقة باكية لم تنته حتى أتاها الفجر متباطئاً فنامت.

احتفالات الصباحيّة، تَعويضة وكِسبانة أتيتا ووقفتا خارج البيت وكلهما ثقة بأنهما ستدخلان. كان الأشرم هناك ينظر إليهما بتشف. النساء يدخلن يحادثن أثمان وسَليمتو وزجِرْ. لكن لم يستطع أحد أن يجعل سلاطين يتراجع عن عِنده بأنهما لن تدخلا منزله. أثمان كان في حرج بالغ، فالبيت بيته وتَعويضة أعز صديقاته، لكنه أضعف من مغالبة ابنه. ترك الكثير من الرجال والنساء الحوش ورفضوا تناول الشعرية باللبن والسكر احتجاجاً على هذا الجبروت، لكن لم يأبه سلاطين. وقت لم يَطُل على الأم وابنتها وهما خارج بيت العُرس تقفان مثل شحاذتين. عادتا إلى دارهما دامعتين. كان الإذلال قاسياً. وكانت ضحكات الأشرم الشامت فيهما لا تبرح خيال تَعويضة. في هذه الليلة صارت ضحكات الأشرم تصدرها الشرماء! الشرماء صارت تزورها كثيراً في أحلامها ليلاً وفي عز النهار لائمة متوعدة.

زواج سلاطين أسعد سَيّد هَربية. أعطاه اطمئناناً نسبياً بأنه سيتفرغ لهُوشَة زوجته وينسى بجيوَة. سَيّد يرتاب، لا يستطيع أن يحدد نوعية العلاقة التي جمعت سلاطين بزوجته بجيوَة. يعلم كما يعلم الجميع انهما كانا في علاقة جنسية، لكن ما مدى تورطهما معا؟ لقد عذبته بجيوَة إحدى عشرة ليلة كاملة لم يستطع أن يقربها وينال حقه كزوج لها. حجّتها موت والدها الكيد وحزنها عليه. وفي الليلة الثانية عشـــر أحرقته ما بين استسلام ظاهري مُغري وتمنع صلد. حتى قبل آذان الفجر. هـــي التي طالبته بأن يشرب قليلاً من العَرَقي وشجعته أن يزيد منه. وحين تركته يتمكن منها في شبه ظلام وفي وضع صعب، ارتمي بعدها منهكاً في غطيط. وفي نهـــار اليـــوم التالي تركته يري بقعاً حمراء على قطعة قماش، إنها نتيجة تمزق بكارتها في تلك الليلة المتعبة كما أوحت إليه.

عـــلى كـــره، وافقت راضية على إقامة عُرسها على أولوا. كان آخر عُرس وأتعس عُرس في القرية وقد انحسرت مياه الفيضان وبدأ موسم العمل. لم يخرج نُـــوري العمـــدة من حجرته، مطلقا، ولا حتى رضى بأن يستقبل زواره من القرى المجـــاورة. لا يريد أن يشوه ليلة ابنته بقبحه. ويخشى أن يدهمه النوم والشخير ويســـيل لعابه في وجود أغراب. ثم أن رائحته ثقلت مهما غسلوه كل يوم ومهما ســـدّوا خلايـــاه بالشَبّة. زنخ عرقه وصار يتغلب على كل أنواع البخور والعطور. وضـــراطه لا يـــتحكم فيه. يدرك أن راضية لا ترغب في أولوا. وأن زواجها منه اضـــطراري. حزنه ازداد لحزن ابنته، لكن يأسه من الحياة كلها وليس حياته فقط يعطيه راحة مؤقتة حتى تأتي سريعاً راحته النهائية بالموت.

اعـــتذر الشيخ وآبدون وإسْهاج للضيوف بالنيابة عنه. وقاموا بالواجب من مقابلات ومجالسات. أولوا أسرف في السكر فرحاً فكان هُزأة حتى في يوم زواجه. ســـلاطين قـــدم ذبيحة، بقرة سمينة، وصال وجال بين الصفوف يغني مع الناس ويرقص وسطهم أكثر مما يفعل في الأعراس الأخرى.

ولمّـــا سخن الرقص تماماً وتاج طنبورة أخذه الانسجام عالياً، وأم العروس تـــرقص وتدّعـــي السعادة رغم فشلها في ذلك، ارتفع صوت خوار نُوري العمدة باكياً..

- عااااااا. سِيتِي سِيتي.

سمعه كل من بالحوش. من يعدون الطعام والشراب ويقومون بغسل الأواني. لم يصل خواره إلى الساحة التي يغلب عليها دوي الدفوف والغناء الجماعي وصخب الأطفال. لكن الكثير سمع بانهيار العمدة خلال عملية البحث عن زوجته وابنته بحثاً غبياً غشيماً. فصمت الغناء ليصل إليهم خوار نُوري المؤلم فانكسرت بهجة العُرس. نَبْرة وراضية دخلتا عليه، تحتضنانه تهدئانه، وهما في أشد الاحتياج لمن يهدئهما. راضيه لم تذرف دمعة، لكن وجهها يشي كم هي حزينة بائسة.

شَمَت فيما حدث اثنان، قيّاج وأبوه مُهدى الأصفر. ورغم أن ميعاد زفة السفين الصوفية لم يحن بعد فقد ردّد معتوق أبياتاً منها وهو يسير سريعاً وسط الزحام الحائر ويجمع طاقم الإنشاد، الشيخ وآبدون وإسْهاج. استجاب الناس بسرعة لانتشال العُرس من كبوته. رددوا معه..

الله الله ويا الله.

شكّلوا المستطيل المعهود واندفعوا في الاهتزاز والمديح والتسبيح. عادت الدفوف لحيويتها وتصاعدت زغاريد النساء في السماء الصافية.

راضية تم تجهيزها كعروس. جسدها رشيق لكنه نحيل يحتاج إلى طبقة لحم لتتبدى فيه مواضع الأنوثة أكمل ما تكون. فاتنة الوجه الحزين. عيناها الصافيتان السوداوان مازالت الأدمع مستعصية عليهما. لكنهما كانتا مشبعتين بأعماق من البؤس واليأس.

السَّفين في أواخر مسيرته، الفوانيس تنير حولها. يتسرب الضوء إلى زوايا من البيوت، خاصة أعاليها ليصنع ظلالاً متحركة تجلب الخوف لضعاف القلوب الذين يسيرون فرادى إلى بيوتهم وقد ضربهم التعب. انفلت العريس من بقايا المسيرة. يأخذه وزيراه في مسيرة قصيرة مسرعين متجهين به إلى بيت العروس، بيت نُوري العمدة حيث تنتظر راضية في حجرتهما المزينة حديثاً بأطباق الخوص المزركشة والحصر الملوّنة والمجدولة لفائف معلّقة ومفرودة.

انــــتهى السّــفين. بقايا المسيرة ودقات الدفوف سريعة في وداع العريس. الأغنية الأخيرة من الشباب..

الديكة ما تزال نائمة

يا عريسنا

لم تصح بعد..

كيكي ليكي

والليل طويل طويل

وزفافك لم ينته بعد

لماذا هربت منّا؟

والإشارة لم تنطلق بعد

صائحة..

كيكي ليكي

الــليل مــازال قابعاً بظلامه، تَعويضة عائدة إلى بيتها. تمسك بأعلى ذراع ابنتها كِسبانة، تخشى ظلام الجبل حيث يرتع أهل التيّار، الشياطين الكافرة. تخشى تــلك المخـــلوقات الشــريرة القـــادرة الغادرة، والتي ليس لها عمل ولا يوجد ما يشــغلها، إلا تدبيــر المؤامرات والمكائد لبني البشر.. سلالة الآدمير. تلعن ابنها زجِرْ الذي ركع لأوامر فخذي زوجته فهجر أمه وبيته وسكن بعيداً. صمتت لصمت ابنــتها الحزيــنة، مســافة ليست بالقصيرة، لكنها خائفة فيجب أن تتحدث لتشغل عقلها..

-كِســبانة، لماذا لا تتحدثين معي؟ حزينة لأنهن يتزوجن وأنت لم يتقدم لك خروف؟

-لا تفتحي هذه السّيرة.

-إذن، نعـود لأخيك، لو كان رجلاً لكان الآن وسط أمه وأخته يوصلهما في أمان واطمئنان إلى حيث بيتهم البعيد. لكنه قـلّة باردة وابن زير أبرد.

-إنه ابن زوجك.

-إيْ.

-وابنك أنتِ أيضاً.

-اتركيـنا في سيرة أبيه أفضل. أبيه الذي يرفض أن يشترى حماراً نركبه بدلاً من حمارتنا مريضة الساق التي نركبها يوماً ونريحها شهراً. من أيام طالبته بحمـار آخـر. هذا الزوج الحمار قال لي.. يكفيني أني أقوم بالصرف على ثلاثة حميـر.. أنـتِ وابنتيك. هاها. وُلِد بخيلاً وسيموت بخيلاً عليه اللعنة. هاها.. لكن الحمارة الصغيرة تزوجت من أبي شرِّين، نحتاج لحمارة بدلاً منها.

-تَعويضة!. هل ترغبين في الإنجاب وأنت في شيخوختك هذه؟

-لا أقصـد.. خيّبك الله يا بنت الكلب. اقصد أن يشتُرى لنا حمارة من جنس الحمير بدلاً من أختك هُوشَة.

تَعويضة لولا إمساكها بذراع ابنتها، لسقطت في منخفضات الطريق وتعثرت فـي بروزات الأرض الصخرية، حيث تركتا الرمال صاعدات متجهات إلى بيتهما الرابض في مكانه العالي المتطرف على أول سفح الجبل.

ضربات الدفوف في مسيرة العريس الأخيرة مازالت تدوّي مع أغنية الوداع المتواصـلة. الصـوت يؤنـس السائر وحيداً فيشعر أنه مازال بين ملحمة الناس فيقوى فؤاده على رهبة الظلام.

قبل أن تصلا إلى مشارف البيت، صدمتا بأن ما تخشاه تَعويضة وتسخر منه كِسـبانة، حادث أمامهما. تسمّرت تَعويضة وتشنجت أصابعها على ذراع كِسبانة. مـن إحـدى شـعاب الجـبل، والقريبة من بيتهما، أصوات دفوف وغناء راقص يأتيهمـا. وأعلاها يتوهج بألسنة لهب تتراقص وتشكّل تهويمات تثب وتختفي في سرعة. تَعويضة ميّزت الصوت فقط، كِسبانة سمعت ورأت. صرخت تَعويضة..

- كِسبانة، أتسمعين ما أسمع؟ أترين ما لا أراه؟

-..

- صدقتيني يا بنت الكلب؟

هرولتا عائدتين. تسقط تَعويضة تتشبث بابنتها ترجوها ألا تتخلى عنها. ترفعها كِسبانة وتعاودان الهرولة إلى وسط بيوت النجع. ثم عادتا في طريق بيتهما وبرفقتهما أثمان ليوصلهما. يسبهما إذ أخذاه من عُرس ابني أختيه. رغم أن العُرس انتهى بالفعل ولم يتبق إلا بعض رجال وشباب يتحوطون في أحاديث مسترخية ولن يذهبوا للنوم إلا بعد رسوخ الصباح الصريح. أثمان يسخر من رعبهما وتخيلهما عن الجن والعفاريت. رائحة العرقي تشع من فمه والسكر يشع من عينيه اللامعتين. وفي نفس المكان الذي شاهدتا فيه وسمعتا ما كان، لم يسمع ولم يشاهد أثمان أي شيء. عاد يسبهما. لكنه استمر معهما حتى باب البيت. دخلت كِسبانة، تَعويضة وهي تدخل أخذت ركلة من قدم أثمان في مؤخرتها. أثمان وضع فيها ضيقه منها وترك مقدمة بلغته تضرب وتنغرس فيما بين فلقتي تَعويضة. تأوهت متألمة والمفاجأة أربكتها فأسرعت داخلة. أثمان وهو عائد مازال يلعن ويسب. كيف أنه طاوع هذه المخبولة وبنتها اللتين ارتعبتا من مجرد الصدى.

لم تحاول تَعويضة رد السباب، مازالت خائفة. تتحسس حيث نالت الركلة. وفي غرفة كِسبانة التي خلت من هُوشَة وأخذت تَعويضة مكانها فيها، بقى الفانوس منيراً بقية الليل. لم تصدقا تفسير أثمان بأن ما سمعتاه وشاهدتاه ما هو إلا صدى الغناء والدفوف لمسيرة العُرس، والخيالات خيالات الفوانيس وليست ألسنة نيران زفة الشياطين. أن ما شاهدتاه هو فعلاً مسيرة زفاف ساخرة، مسيرة شياطين كَفرة، الشياطين الكارهين للمسيرة الصوفية الإنسية، الكارهين للآدمير، بني آدم المؤمنين، لذلك فهم يشكّلون مسيرة صغيرة تماثل مسيرة البشر الصوفية، ينشدون وكأنهم يسبحون. الألحان وضربات الدفوف هى هي، لكن الكلمات ساخرة كافرة، ينطقون حروفها مضغومة لا يتبينها الإنسي. هكذا حكت لهم الجدات والجدود، وقصوا عن بعض البلهاء الذين انخدعوا بتلك المسيرات

الشيطانية، كيف ظنوا أنها فرع من مسيرة زفاف الآدمير مازالوا في غناء وطبل حتى وهم عائدون إلى بيوتهم. يدخل المخدوع وسطهم يرقص ويغني حتى يختفوا مـن حولـه فجـأة.. يجد نفسه وسط شعاب الجبل وحيداً إلا من صدى قهقهات شيطانية شامتة. وبعد ذلك هو وقدره، ربما استطاع العودة إلى القرية، وربما تاه فـي ظـلام الجـبل فتأكله الوحوش ولا يشعر ناسه باختفائه فينقذونه قبل فوات الأوان. وتَعويضة نفسها، حكت تلك الحكايات للأطفال. واستشهدت بمعتوق الخير الـذي حـكى لأمه هَكيمة، أنه شاهد زفة كافرة خلال تجواله على شقيقته فَرهانة ذات ليـلة باردة. كاد أن يتوسطها لولا أن فَرهانة نهقت نهيقاً منكراً لأنها تَري تـلك المخـلوقات على حقيقتها. لذلك تنبه معتوق الخير للخدعة فسمي باسم الله فانكشفت الزفة عن سرابها وبان الملعوب.

أصابه الأرق في هذه القيلولة، يسأل نفسه ساخراً..

-هـل الحصـير ينسـحب من تحت قدمي؟ لا، إن الحصير انسحب وانتهى الأمـر. كـانت الـزعامة بعيدة عني سابقاً، لكن الأموال وسطوتها كانت عندي، بقوتها أضارع عمودية العمدة وسطوة الجانب الروحاني للشيخ. الآن.. العمودية بعيـدة عني وستكون بعيدة عن ابني بالتأكيد بعد زواج راضية بأولوا. وسلاطين الكـلب أبـو شَرِّين هو الآن أغنى رجال القرية والقرى كلها بضربة حظ وبدون جهـاد المواسـم التي تسبقها مواسم وتليها مواسم.. وهاهو العبد اللقيط الأسود معـتوق قد قارب إنهاء حاجزه وسوف يلي ذلك استصلاح أرض واسعة. سيكون هـو الآخـر من أغنياء القرية يا هووي! إذن.. ما هو وضعي؟ وما وضع فَيّاج ابني؟ صحيح أننا الآن أغنى من قبل بكثير، لكن بالنسبة لسلاطين لم نعد الأغنى، نحـن بعـد سلاطين شَرِّين، والمصيبة أن الأمور تتبدل سريعاً وإن اقتنص غيرنا بعض الفرص فربما لن نكون حتى ولا ثالث ولا رابع أغنياء القرية!

يتحسـر مُهدى الأصفر. انكسر التوازن بالنسبة له. قيمته تضاءلت. قيمته تضاءلت حقاً. وان زادت مكاسبه ومدخراته حقاً!

وثــب مــن ســريره. خــرج من حجرته. تخطى الحوش المشتعل بشمس منتصــف الــنهار. دخل دكانة، فيّاج على حصيرة نائم على ظهره يصدر شخيراً خفيفــاً. ركلـــه مُهــدى ففزع فيّاج وانتصب واقفاً يمسك بجانبه الذي يؤلمه قليلاً وينظر لأبيه في حيرة..

– با ! لماذا تضربني؟

– سلاطين الكلب يغلبك.. ويغلبني؟

– با.. أنا..

– اخرس يا خِلفة البؤس. اسمع.. أنا أدعو الله أن أحيا حتى أرى يوماً يُذَل فيــه هذا السلاطين سليل السحرة والشياطين. اسمع.. لو لم تتفوق على سلاطين ســوف أضــربك كل صباح بالمركوب على رأسك الغبية. والآن عد للنوم يا ابن الكلب.

خرج مُهدى بعد أن أطلق على ابنه بعضاً من كبت الغل في قلبه، واتجه إلى شــجرة الكافور. جلس تحتها، مازال مغلولاً ومضطربا، لا شئ ولا أحد يخفف من دوّامــات القــلق الــتي تجتاحه. التفت.. ديوانة ممددة حيث مكانها المعهود. قام واتجه ناحيتها. عند آخر المصطبة وعند رأسها المسندة على ذراعها جلس. ينظر إليهــا. رفــع يده ودفعها في كتفها. فتحت عينيها في لا مبالاة.. نظرت إليه في تعجب وهو ينظر إليها نظرات بائسة..

– ما هي قيمتي في القرية هذه الأيام؟

أغمضت عينيها وأبعدت وجهها إلى الجهة الأخرى.

– إن قيمــة زوجــك مُهــدى الأصفر راحت. ضاع آخر أمل. هل تدرين يا ديوانــة أن الــناس تكــاد تحــترم الولد سَيّد هَربية أكثر مني! إيْ ورسول الله الصادق!

قلبت شفتيها قرفاً منه.

- أنا زوجك وزوجك يحادثك. قيمة زوجك تكاد تضيع يا وَليّة.

وجهــت وجهها ناحيته وهي مازالت مغمضة العينين. بصقت عليه فأصابت البصقة جلبابه. ثم أعادت وجهها للجهة الأخرى.

قبل انتهاء الموسم، اعد مُهدى كل شيء بحماسة لا تدانيها إلا حماسة ابنه فيّاج. لم يدعوا أحداً من ناس قريتهما عدا بضعة أفراد من ابناء العمومة الأشقاء. مُهــدى وفيّـــاج قــبلا الذهاب بدون عصبة كبيرة من قبيلتهم تشرفهما في قرية العــروس. وكأنهمـــا يردّان ما يحسّانه من استهانة القرية بهما باستهانة وإهمال مضاعف لكل القبيلة.

تــم زواج فيّـــاج من الابنة الكبرى لواحد من أكبر تجار قرى العرب الذين اســـتوطنوا المنطقة النوبية من قبل دخول الإسلام. يومان وعاد مُهدى إلى دكانه. أسبوعان وعاد فيّاج مع من ذهبوا معه بالإضافة إلى زوجته رَبيعة وأمها ودَزينة مـــن عائلتها. لم يستطع مُهدى أن يعترض علنا على حضورهم رغم ضيقه منهم سراً.

كما خططوا، خصصت أيام ثلاثة للاحتفاء بزواج فيّاج. مُهدى أراد الاستغناء عـــن هـــذه الأيام، هو كاره للزحام الذي سيكون في بيته، مشفق على نفسه من استنزاف وقته وخيراته على الذين سيأتون للتهنئة! زغاريد وغناء ورقص خفيف في الحوش وجلسات صغيرة يبدع فيها تاج طنبورة، لأن العُرس الأساسي كان في قرية وادي العرب، قرية العروس. الآن والقبيلة قد أخذها تشوق الاستطلاع، تأتي جماعـــات نساء وفتيات القرية ورجالها شيوخاً وكهولاً وشباباً للتهنئة من ناحية. ومـــن ناحيـــة أخرى يردن رؤية تلك التي أتى بها فيّاج من قرية شمالية بعيدة، البـــنات خاصـــة شـــوقهن ولهفتهن أسخن، لرؤية رَبيعة وفحصها ليعرفن ما هو الشـــيء الـــذي فيها وليس فيهن؟ ولماذا يتفاخر بها فيّاج كل هذا الفخر، هل فقط للونها الذي أخذ لون سنابل القمح الناضجة؟ إن هذا اللون هو اللون الأساسي هنا أيضـــاً. لاشيء عند رَبيعة يزيد عليهن. بل فيهن الأجمل منها بمراحل. من فكروا بـــرويّة مـــثل سلاطين وتابعه الأشرم، وكما فعل صَلاتو وآبدون، توصّلوا لغرض

مُهـدى الأصـفر. أن تـزويج ابنه لابنة واحد من أهم التجار في القرى الوسطى العـربية، والملاصـقة لأهم ميناء تجاري على النيل النوبي الشمالي، حيث قرية كوروسْكو وهي قرية أيضاً عربية نوبية، هو زواج تحالفي تجاري، إن كان مُهدى قـد زوج ابنـته مـن تاجر من قرية قريبة من قريتهم، فقد كان غرضه التجاري بسيطاً، التنسيق لجلب الحاجيات معا من سُوين وتبادل المنافع البسيطة، لكن هذه المرّة غرضه أكبر وسوف يبين كل شيء مع الوقت.

ورغـم حـرارة استقبال القرية لها، فإن رَبيعة قلقة، بغريزة الأنثى، ورغم احتفاء قَيّاج بها وفخره. أحسّـت بأن قلبه بارد ناحيتها. لم تسترح لمُهدى، لكنها أحـبت ديوانة وأحبتها ديوانة كثيراً. في الأيام الثلاثة الأول، كانت خيشة وبِهيئة مقيمـتان فـي بيت مُهدى، تقومان بالخدمة مع عدد محدود من النساء والبنات، يعـدِدْن الوجـبات والمشـروبات ويقمـن بالغسل والتنظيف. مُهدى يكاد أن يَعُد الصـحون الواسـعة المحملة بالشعرية الساخنة والمترعة باللبن والسمن لإفطار الضـيوف. ثـم ظُهـراً في الغداء وليلاً في العشاء، نفس الأطباق محملة بالثريد واللحوم والمرق وبعضها بالإدام والأرغفة. يواجه الآكلين مباشرة قائلاً إنهم أكيد لا يأكلون في بيوتهم بهذه العزيمة المرعبة! يضحكون منه ويتعمدون تمام الشبع. وبيـن كـل وجـبة ووجبة، الكل يطلب القهوة ثم الشاي الذي غزا أمزجة الناس حديـثاً. يغضـب مُهدى أن البشر يدمنون الشاي ويشيحون عن الحلبة والكركديه والينسون والقرفة وحلف البر، وهذه منتجات حقولهم! ويقسم مائة يمين أنه يقول ذلك ليس لأن الشاي أغلى لأنه يأتي من بلاد بعيدة، ولا لأنه بخيل، بل لأن الشاي ضـار ومكروه دينياً. يضحك أمام ضيوفه. المقربون منه يبادلونه الضحك بخبث إغاظـة لـه. وكلما أتي مهنئ في غير ميعاد الطعام يصيحون عالياً لتأتي الفتيات بوجبة للضيف. وحين ينفردون به يقسمون له أنه يكاد يبكي على مصاريف زواج ابنه. هو يقسم قسماً مضاداً، أن هذا كذب، ثم يوافقهم بأنه غير سعيد. ثم يعترف بأنه شقي بكل هذه المصاريف التي ليس لها لزوم. منطقه يقول..

-ماذا يا ناس يستأهل كل هذه المصاريف؟ ولد تزوج فتاة. إذن لم كل هذه المصـاريف؟ ثم لماذا أتت أم رَبيعة وناسها حتى هنا؟ لماذا هم فرحون مغتبطون

كــل هــذه الفــرحة والاغتباط؟ لأن ولداً سيمتطي ابنتهم ليحولها من عذراء إلى امرأة، هل هذا الموضوع يستأهل كل هذه الفرحة وكل هذا الاغتباط؟

مُهــدى خلال تلك الأيام الثلاثة، وهو في حزنه للمصاريف وفرحته بزواج ابنه وبناء مخطط بعيد المدى لمضاربة سلاطين، التقطت عيناه الفتاة بهيتّة. رآها عــدّة مــرّات تتحرك نشطة. رآها من خلفها منحنية في ركن الحوش وهي تجمع الأواني. جلس وحده يناجيها ويفكر في هذه البنت..

– إنهــا جميلة، وجهها الأسمر سَمِح. لها مؤخرة طيبة. مؤخرة لو امتلأت قـليلاً، لذكّرتــني بمــا كان لدي ديوانة أيام عِزّها. رغم أن مؤخرة ديوانة كانت وحيــدة ليــس لها مثال. وإن كانت بهيتّة قصيرة عن ديوانة وليست شحيمة. لا يهم.. جسد هذه الفتاة قوي متين. ثم إني لم أرها مرّة واحدة وهي تأكل! إنها غير نهمة. ملابسها بسيطة. لم تندفع مثل بقية البنات جرياً وراء تلك التقاليع السخيفة من ملابس ملونة عارية أعلى الذراعين والثديين. إنها تقوم بخدمة رَبيعة زوجة فَيّاج بدون أي حسد أو حقد. ورَبيعة أحبتها وصارت صديقة حميمة لها في مجرد يوم، نهار يوم!. رغم أن جدّتها خيشة كانت تخطط لتزويجها من فَيّاج! فتاة طيبة خيّــرة والله. إذن.. لا هي بالفتاة البطنة ولا بالفتاة الجشعة ولا بالفتاة التي تحب المظاهــر المكلفة. وهي طيبة. لم يرض ابني بالزواج منها! ابن كلب. يقولون أن الولــد صوفاني يريدها وهي تُريده. وماذا في ذلك؟ هذا لم يكن يمنع أن يتزوجها ابــني. فَيّاج ابن كلب. لم يلن لتوسلات خيشة أن يتزوج بهيتّة. لا. لا. فَيّاج عنده حــق. بهيــتّة إرثها بسيط، سوف يشاركها أخوها في الإرث ولن يبق لها الكثير. رَبيعــة غنية وسوف يكون لنا عمل مع تجارة أبيها كما خططت أنا ووافقني ابني العاقل. إذن أنا الذي هو ابن كلب. لماذا؟ لأنني اشتهي تلك البنت بهيتّة. لماذا؟ هل لأنهــا شــابة ناضــجة، تساعدني على إنعاش شبابي المتبقي؟ لكن.. وهل.. ولو تزوجــتها، ورغــم أني سأتحمل مصاريف مأكلها ومشربها وملبسها، إلا أن ذلك أخــف وطــأة مــن طلبات تلك المرأة التي أزورها وتزورني خلسة والتي قاربت الأربعين خريفاً. وتجرأت الفاسقة وطلبت قرطاً ذهبياً! إب ب ب! تُريد استغلال

جسدها البائخ الشائخ. يا لضيعة ذَكَرٌ ترضي به أنثى لتنال منه الصابون والدقيق والعطور. ثم إنها.. ذهبت إلى الصعايدة وضاجعها من ضاجعها منهم. تحولّت من امــرأة لهــا عشيق محترم، لتصير جِنَّارة تبيع جسدها لمن يدفع. مصيبة. ابنة القبيــلة تعطــي نفسها للغرباء؟! يا للعار. ليس عندها دين ولا مِلة. ومقابل أقل القليل. فالصعايدة لا يدفعون مثلنا. أبداً. والله إن بهيتّة أجمل وأقل تكلفة. وأشرف بالطــبع. لكــن.. يــلزمها ليــلة عُرس ومصاريف أكل وشرب وإن أنجبت سوف تستنزف منّي مصاريف إضافية! وزحام بحجة التهنئة ثم أكل وشراب، مرّة أخرى. والله العظيــم عاداتنا هذه كلام فارغ. نحن عشائر تحب الزّيطة والزمبليطة! ولو أنجــبت بهيــتّة، لن يكون ابنها عبئاً على فيّاج. لا. لا. سيكون ابنها عزوة لفيّاج يســاعده في محاربته لسطوة سلاطين شَرّين وعائلة العمدة. ثم.. سمعتي ليست طيــبة، لقــد عايرني آبدون علناً بأنني أطارد الفتيات. قليل الحياء. وهل ستوافق خيشة على زواجي من حفيدتها؟ ابنتي أكبر من بهيتّة بمواسم! ربما توافق. على الأقــل ذريــة بهيــتّة ستحمل اسم عائلتنا المشترك وسوف تحيي ذكرى أسرتها الصغيرة المنقرضة. وهذا طلب خيشة المخرفة. إنها تساعد وتخدم ضيوف عرس فيّــاج وقلــبها كلــه حزن. وإن انحدرت دمعة أسف على فقدها الأمل في فيّاج، تتحجج بأنها مازالت حزينة على أخيها هاشم الكيد! ثم إن ديوانة لم تعد أنثى بعد أن فقــدت عقــلها. وثــم مرّة أخرى.. أليس الزواج من شابة صغيرة افضل من مطاردة المراهقات داخل مخازني والتسلل إلى تلك المرأة المفضوحة ليلاً، وإعطاء الفرصة للقيل والقال وقلّة المقام؟

أتــت مــركب الكاشف، زوج العسكر العثمالية وقد وصلا لسن الشيخوخة، بســيفيهما الثقيلين على هزالهما يحرسان إبراهيم بن مُركوس!. صعدوا إلى بيت العمــدة، اعــتذروا لإبــراهيم أن العمدة لن يستطيع استقباله. مرت إجراءات كل موســم حصاد، فكان إبراهيم مثل أبيه، دمثاً واعياً لن يستطيع مُهدى أن يلعب به كمــا لم يستطع اللعب بأبيه، صوت إبراهيم به رنين مضيء. إبراهيم يعلم ما حل بالقــرية مــن تجديد ومكاسب، أبلغهم سعادة الكاشف الحاكم بالجباية التي زادت. أوصلوه للميناء ورحل بمركبه.

حاول سلاطين أن يذهب هو بالريالات إلى أبريم لتسليمها، كاد ينجح لولا أن اعـترض مُهدى وقال إن سلاطين مازال صغيراً، وإن كان ولا بد من ذهاب جيل جديـد، فـليكن فيّاج. ذهب آبدون بالريالات، وانتظر سلاطين فرصة أخرى يذهب بالـريالات، لا ليسـلمها فقط، بل ليحاول إقامة علاقة مع الكاشف.. مع الكاشف الكبير حسن كوسة.

مضـى موسـم الطوفان وعادت المياه إلى مجراها الأصلي. شريط الأرض الـزراعية بـان تحـت الشمس وقد كسته طبقة من غرين النيل كأنها عجين من ملاييـن ثمـرات أشـجار الكاكاو التي تنبت على هضبة الأحباش. أعشاب برية تترعرع فتيّة على هذا العجين المعطاء فترعى عليها قطعان الماعز والضأن لتربو لحمـاً. الشـمس الحامية تتلقف مساحات من الأراضي التي تركتها المياه مبكراً فتلهبها لظاً وتجففها، ثم تزيدها جفافاً حتى تتحول لشبه حَجَر، ثم تلهبها وتلهبها بلا شفقة حتى تتشقق مكوّنة خطوطاً تشكل أشكالاً غريبة رسمتها مخلوقات هائلة عابثة. تصير ذات حواف كأنها أطراف الموسى تذبح باطن أقدام النساء والأطفال. لا يتحمـلها إلا كـل فلاح صلب باطنا قدميه مع توالي المواسم فصارا كتلتين من صلب يكسران حتى حواف الموسى باستهانة.

طوفـان من السعادة يضرب قلب هُوشَة الطفولي الصغير، لم يقلقها كثيراً الكره بين زوجها من ناحية وأمها وأختها من ناحية أخرى. فرحتها أنستها ثورة سلاطين وتهديده لها بالطلاق في صباحيتهما! ورغم أنها بدأت تسعد به وباقترابه مـنها. لـم تعد تخشى الجنس كل هذه الخشية، خاصة بعد أن اقتنع سلاطين بأن القناع الذي انتشله من المقبرة ويعلقه على جدار حجرتهما يرهق أعصابها، فصار قـبل أن يقـترب يغطـي القناع بقطعة قماش. وفي الصباح يرفع الغطاء فيبتسم لابتسامة القناع الدائمة. هدأت مخاوف هُوشَة قليلاً، تغطية القناع أراحتها، فلمعته التي تقاوم حتى الظلام فتشع بريقاً باهتاً، والشعاع الذى تؤكد أنه ينبعث من عينيه كانـا يسـيطران عـلى تفكيـرها ويصيبانه بالتشتيت. استراحت بتغطية القناع. وانطـلقت بفرحة مع زوجها، فقد كانت تسقط كل أسباب عدم توفيقها مع زوجها جنسياً على هذا القناع، أبعِد.. فابتعدت معظم مشاكلها. صحيح مازالت تعتقد بأنها

لا تـــنال ما يجب أن تناله. صحيح أنها تتألم كثيراً في بدايات التداخل الفعلي. لكن يكفيهـــا استكمال سلاطين لما يريده بدون تشنجات رعب منها تضايقه، وفي هذا كـــامل ســـعادتها. لكـــن الـــذي أعاد القلق إلى نفسها وعقلها، إن سلاطين وقبل استكمال مرور قمر واحد، عاد لإبداء عدم رضائه بعد كل مضاجعة معها، وبدون قـــول مباشر. لكن ملامحه واستغراقه في الصمت أبلغ من الكلام. إنه غير سعيد بجســـدها، رغـــم أنهـــا تـــداري بقية الخوف الذي يعتريها لا إرادياً كلما جمعهما سريرهما الجريدي. تظن أنها تؤدي كل ما يسعد الزوج الذكر، والزوج الذكر غير ســـعيد! إذن هـــناك أسباب غير طبيعية تعمل على إفساد ما بينها وبين سلاطين! أيقـــنت بان الكثير من الناس يحسدونها. لذلك فمن المؤكد إن إحدى النساء اللاتي أتين ليباركن قبل انقضاء الاحتفال بمرور أسبوع على عُرسها، أتتها وهي حائض أو وهـــي لـــم تســـتحم بعد أن ضاجعها زوجها، هذا بغرض إلقاء لعنة المشاهرة السفلية فتصيب هُوشَة في علاقتها بزوجها، أو تمنعها من الإنجاب. بالإضافة إلى الحســـد الـــذي انصب من أعين الناس. فصار ثالوث من الشر يحاربها... الحسد والمشـــاهرة والقناع الذي لم يفقد قوته الشريرة حتى بإبعاده عن الحائط وانكفاء وجهـــه لأسفل. هذه الأسباب التي تكالبت علي نفسِها المنهكة، بذرت بذور القلق والتوتر وعدم الرضاء في قلب زوجها. وأهم جانب في هذا الثالوث هو الحسد.

صار هاجس هُوشَة الأخطر قبل أن تنجب.. الحسد. في أول زيارة لها لبيت أمهـــا أفرغت مخاوفها عندهما.. تَعويضة وكِسبانة، لم تستطيعا تهدئة مخاوفها. وافقـــتا على إجبار سَليمتو الزير البارد، على أن يأتي لها من شيخة شهيرة في حَـــلفا بمـــا تُـــريده. خاصـــة أنه سوف يأخذ مصاريف ما سيحضره مع إضافات سيخترعها. أتى لها بحجاب.. شريحة صغيرة من جريدة نخل. كتبت عليها آيه من كتاب الله وأحرف غيبية. ألصقتها في خلفية القناع. وبذلك آمنت شره. ومسحوق لا طعـــم لـــه ولا رائحـــة وضـــعته في مشروب القهوة وشربته مع زوجها يفسد المشاهرة التي نالتها قبل مرور أسبوع على الزواج. اطمأنت أنها ستنجب. لم يبق لها من عدو غير مرئي سوي الحسد. تخشى على سلاطين من الحسد، على بيتها الـــذي وضـــحت فيـــه النعمة، على مراكب زوجها، على مبانيه وبضائعه، تهيئ

دفاعاتهــا ضد بجيوَة التي تعشق زوجها، وضد كل عين بالإمكان أن تحسدها من حيــث لا تحتسب. وكلما تقارن سعادتها بشقاء صديقاتها أو بواخ حياتهن، تخاف أكــثر. بجيــوَة التي تزوجت من لا تحبه ولا تقدّره. راضية بنت العمدة في أسى وحــزن مع أولوا، فوزية بدأ حبيبها تاج طنبورة يتعرى من ستائر الفن الوردية وينكشــف أمامهــا كــرجل كسول سكير حشاش أميل إلى القذارة، تماماً كما كان يحذرها أبوها ويعلن رأيه في كل مكان وكل مناسبة في القرية. بهيتّة بدون زواج حــتى الآن، حتى رَبيعة، تحاول مداراه إحباطها من برود قيّاج تجاهها. والنساء الأكــبر مــنها، مــتزوجات وغير متزوجات. من منهن نالت حظها هي؟ من؟ ولا واحــدة! إذن.. فهي معرضة لأكثر من عين حاسدة. إن العيون الحاسدة تتحوطها تماماً كأنها جزيرة والحسد نهر هائج من حولها.

حــائط بيــت أثمان المواجه للنيل مثله مثل بقية البيوت، مثبت فيه أطباق خــزف ملونة لها أكثر من غرض. هي رمز لأتون الشــمس، الإله القديم. وهي سد يمنع عين الحسود أن تخترق جدران البيت، بالإضافة إلى كونها تشكيلاً تراثياً جماليــاً. طلــبت من أمرُ الله أن يضاعف عدد الأطباق على الواجهة، بل أن يضع بعضــها على بقية الجدران. تقنعه أنه كلما زاد الرزق في بيت ما، زادت الأعين الحاســدة رصداً له. ولذا وجب عمل دفاعات ضد كل عين حاسدة. سلاطين يسخر من هلاوسها. لكنه لم يمنعها أن تتصرف كما تشاء. وافق على أن تُبَخّره هُوشَة كل صباح قبل أن يخرج من البيت. وضع الحجاب الذي أعدته له في جيب جلبابه، الطــلب الوحيد الذي رفضه لها، أن يكسر القناع الملون الذي وجده في المقبرة. القناع مفتاح والفأل الحسن لكل صعوده المتوالي، انه رمز الخير بالنسبة له. إنه يمثله.. يمثل سلاطين. والقناع في حد ذاته قطعة جميلة، جميلة جداً. لو كان ذهباً ربما.. ربما كان سلاطين قد فكر في صهره واستغل قيمته في تجارته. لكنه خشب مطعم بأحجار نصف كريمة. سلاطين معجب به كشيء مبهر لا يملك إنسان مثله. أغــرب مــا فيه تلك العينان اللتان تتابعان الناظر إليها أيا كانت زاوية وجوده.. وهما ثابتتان! الفم.. من خامة مخالفة بها أسنان ناصعة البياض لامعة. والشفتان منفرجتان وأطرافهما مسحوبة لأعلى في لمسه بسيطة موحية بابتسامه تحمل بين

طياتها سخرية الواثق. الفم والعينان معا يحملان انسجاماً في الابتسامة البسيطة.. ويـتوافقان فـي السخرية المبطنة. وكذا بقية الوجه. وهكذا يقرأ سلاطين تعبير الوجـه. لكن أثمان وهُوشَة قالا له محذرين أن سخرية الوجه هي سخرية الواثق المنـتقم. وأمرُ الله الأشرم، فاقد الوسامة، قرأ الوجه بنفس قراءتهما، لكن أضاف لنفسه..

-إنه وجه جميل..

ولأن الوجـه يكـاد يبدو في الظلام، ويلمع تحت أي ضوء ضعيف، فيصير مجسـداً كأنه سوف يثب من الظلام إلى النور، ولأن هُوشَة صارت تحس بترصده لهـا كلما كانت في الغرفة، عاد الخوف منه يغزوها هُو ليلة بعد ليلة، حتى وصل بها الأمر أنها لم تستطع أبداً أن تعطي نفسها لسلاطين زوجها لأن القناع يرعبها. القناع يدفعها للبكاء خوفاً حتى وهو مُبعد في ركن بعيد من الغرفة! وافق سلاطين أن يضع القناع في غرفة أخرى لا تستخدمها هُوشَة. لكن هُوشَة لم تهدأ مخاوفها حـتى أتى اليوم الذي تهوّرت وفعلت بالقناع ما حوله من صلب إلى غاز يتماوج ويتشكّل في هيئة صاحبه، صاحب اللعنة الذي ظن البعض أنهم رأوه في أكثر من مناسبة تخصه وتخص من نبشوا قبره وهتكوا حرمته، ومن بعد ذلك كان الهلاك.

فـــي البدء، بين جنادل نـهر النيل الستة، كانت المنطقة نوبية سمراء، كوّنت أناسا جاهدوا لتثبيت الحياة حتى امتلكوا وقتاً فبحثوا عن الإله وأبدعوا بذوراً نمَت وترعــرعت فــأعطت الجنوب والشمال، والشرق والغرب، وكل عطاء استقر في مكان وخلق خصائصه وتفرد وحده أو كاد فخيّل له أنه الأصل وعلى الآخرين أن يسجدوا له.. أن ينمحوا.

الآخــذ يقــوى. جيوش وكَهَنة الفراعين صعدت النيل إلى الجنوب متخطين الجـــنادل يعطــون من لونهم الذي قارب الصّفار من تداخلات قبائل الغرب وقبائل الأســيويين، يعطــون من علمهم الذي بهروا به الخليقة، من دين تسامى لحكمة الــتوحيد فأنار للبشرية، وبجشعهم وغرورهم الذي يُصيب كل غالب، والذي صوّر لهم أنهم هم الناس وغيرهم دون قيمة، يمتصون كل خيرات الأمكنة التي يطئونها ويعــاودون الأخــذ، وقبلهم وبعدهم وخلالهم، تدفقت قبائل الزنـج على الجنادل بما حمــلت من عنصر ولون أسود له جماله وفنونه، وبما اعتقدت من ديانات، تعطي في سماحة أحياناً وتحرق وتزهق الأرواح أحياناً فيصير سواد لونها كئيباً.

فـــي كــل الحـــالات.. منّى الحُكّام تشتهي خيرات المنطقة، ومنّي جنودهم شـــماليين وجـــنوبيين يتسلل لفروج النساء. تتحطم حضارات لتعود كالعنقاء من محرقـــتها منتعشـــة شامخة، تعود وقد فقدت نقاء عنصرها، وتصير كلها مخلطة بدمـــاء بعض لتكون عنصراً هو سبيكة، ويظن من يظن أن عنصرهم هو العنصر النقى، ولم يتلوث مطلقاً ببقية العناصر الرديئة!

تنـــتفض سلالة النوب فتعود لتبث أريجها جنوباً وشمالاً مع حاملى الحراب وضـــاربى النـــبال، وينساب جنود النوب شمالاً وجنوباً وينسال منّيهم بدورهم في الفـــروج، فتـــتداخل السلالات تداخلات إضافية وتتشابك اللغات وتتلاقح الثقافات، ويمضي الزمن وكل ركن يتشكّل في خصوصية تقبل أو ترفض بقية الخصوصيات الـــتي هي في الأصل كانت منها، حتى يرسخ الغموض فلا يعلم العالِم.. أين بدأت هذه وأين انتهت تلك؟ وأين الحد هنا وأين التخوم هناك؟ نهر من الغموض جنادله

الدالـــة هلاميـــة مُلغِزة رغم جُرمها المشهود وجرانيتها المشدود. لكن.. من دوّن هذا؟ ومن يُفكّر في هذا؟ ومن يُقِر بهذا؟ ومن يتواضع؟

تخمد الحركة لحين أتت اليهودية فحرّكت وغلبها السكون، فتأتي المسيحية لتنعش الروح ثم يأتي الإسلام سامياً بالروح. تتماهى الأديان سماوية من لدُن رب السـماء، وأرضـية من إشراقات الفكر الإنساني المتطلع تشوقاً للإله الواحد رب السـماوات والأرضين. حركة وعطاءات متبادلة تحمل الحضارة على عاتقها آلاماً وآمـالاً. تسـيل بين تداخلاتها الدماء الحمراء بحوراً على الرمال الصفراء فتكاد تَحمّـر، لا نبع الدماء يجف ولا بحور الرمال تتشبع. بين هذا وهذا يعود الخمود والجمود، فترات خمول يتثاءب فيها الزمن مُتكاسلاً مُتعباً مُرهقاً من شمس النوب القاسـية. تتـباطأ الحـركة ويصـبح كل موسم صورة من سابقه. لا جديد تحت الشـمس. لا تسـرّبات من أجناس طازجة تأتي فتُنْعِشْ، وعليه يُكتَب الركود على النيل كله.

فـي القرية، أصبحت حياة الناس خامدة هامدة، إلا من موت مسموم بلدغه عقـرب أو نهشة ثعبان، وغريق كل بضعة مواسم. ضياع إنسان في متاهة الجبل وعودتـه مرعوباً أو موته مأكولاً من الوحوش. إلى أن وُلِدَ هَمَرين وشبّ بعقله الجـبار وبعـلمه المـبهر وبسحره الشرير فقتلوه وانتفضوا ثائرين، فكانت أيام هَمَـرين حركة قلق ومشكلة وانتهت. ثم أتى إبن أخته سلاطين شَرّين بزينة المال وفتنته وبريقه الساحر، فلم يكن كما كان خاله حركة قلق ومشكلة وتنتهي، لا، بل صـار حجراً ثقيلاً ألقى في مسطح ماء فأقلق سكونه وخلّق فيه تموجات وتيّارات وأمواجـاً صار لها تدفقها الذاتي فلم تعد البركة بركة.. بل صارت بحراً ولن تعود بـركة. تدفقت التجارة وأسرعت الخُطى من بعد بطء. تتحوّل حياة أناس الآدمير مـن البسـاطة إلى التعقيد، من رؤى أقرب هي إلى الوضوح، ولا تحمل إلا ثابتاً واحـداً لا لَبْس فيه، أو تحمل على أكثره ثنائيات مُحدّدة محدودة، إلى رؤى تحمل رؤى، وكل رؤية منها تزخر بألوان الطيف وهي حُبلى دائماً بجوانب وأبعاد جديدة عديدة وغير ثابتة، فيزداد شقاء الناس وتزداد حيرتهم وهم ينتقلون من حالة إلى حالـة، وحيـن تستوي الحالة الجديدة لتستقر نفوسهم نوعاً، إذا بهذا الاستقرار الـنوعي مـا هـو إلا حالة مخاض لحالة جديدة تؤلم بني الآدمير ويزدادون بها

شـقاءً. ومـن عجـب أن تزداد الفائدة المادية لهم بعلمهم الذي تنوع وتخصص وتكـثف. وتزداد الفائدة العقلية بنموها وتزداد الفائدة الروحية لهم وهم يجتازون مخاضـات عـدّة يكتشـفون بعد كل نُقلة قدرة خالقهم العظيمة كلما نمت عقولهم وتعمقـت مداركهم. لكن الحيرة والشك في كل شئ وعدم اليقين من شئ، يخلخل الثوابت ويفقد الإنسان استقراره، ويؤلمه ذلك ويجعله يحن لماضٍ سعيد بسيط لم تكـن فيـه آلام كما يخيل له ذلك، ماضي شبه مستقر. خلخلة الثوابت كلما ثبتت تجعله دائماً خائفاً من الآتي.. من الغد، بل من اليوم الآني. وهذا الرعب والفصام يكون أحرّ ما يكون في تلك المواسم التي هي حلقة انتقال من عهد إلى عهد جديد. الـرعب والفصام يكون أحرّ ما يكون في المخاض العنيف المفاجئ والذي لا يمتد متروياً ليعطي الناس فرصة لالتقاط الأنفاس.

موسـم شد الرحال إلى بيت الله الذي ببكّة تنسال مراكب الحجيج المُـزيّنة من الجنوب قاصدة ميناء سُوين حاملة حَجيج النوبة. ومن ميناء القرية الذي بدأ ينـتزع نصيبه كميناء من أهم موانى النهر، انضمت مركب سلّيمتو عسل للموكب حاملة رجلين من القرية وثلاثة من قرية قريبة. زغاريد وطبول وذكر لأسماء الله الحسـنى. مديـح طه الرسول. ونفس الأبيات الدينية التي تتردد في هذا الطقس المقـدس منذ عشرات المواسم عادت ليرددها ناس القرية مع الحجيج الذين على ظهر قافلة المراكب المزيّنة بالأعلام والملونة والفرحة الروحية المشعّة..

قولوا.لا إله إلا الله.

صادق.يا رسول الله.

انووا.نزور بيت الله.

حتى اختفت المراكب بعد ثنية النيل عند نجع المنحنى.

رغـم المشاكل التي تثيرها هَكيمة كلما هَمّ آبدون بسفر جديد، إلا أنه مُصِر عـلى الاستمرار في تلك الرحلات. هذه المرّة يستعد للسفر على مركب متجهاً إلى سُوين، يجهز بضعة زنابيل بالخيرات المُخزّنة في البيت، لحم مُقدّد ودواجن عُلقت كأنها غسيل وتُركت للشمس فشوتها نصف شواء فلا تفسد من طول التخزين، بلح متـنوع وغـلة وأطـباق خوص ملوّنة. تدور هَكيمة خلفه وهي تتهكم على لقب الوجيـه الـذي اكتسبه ويزداد ترديده في القرية والقرى المجاورة.. تتهمه بأنه

أصبح مثل أخيها أثمان، مَرَضَ بمرض حب التنقل وعدم الاستقرار وعشق النساء الأغراب. آلمته، بل وخزته بأنه يلعب بذيله بعدما زاده الله في رزقه ببركة معتوق الخيـر، فـتحوّل الـرزق الزائد إلى فتنة سقط فيها فسلبته عافية الجسد ورشاقة الـرجال المكـافحين عملاً، سلبته وقاره وبركة جده جوش الكبير. هَكيمة تقرعه وتؤذيـه بكـلمات كالسـياط رغم أنها تعلم انه يهرب من آلامه. يهرب من آماله المـنهارة وخيبة ابنه وانهيار حلم أبيه، لكنها تؤلم زوجها.. تريده أن يبقى فاعلاً ومؤثراً بين ناسه. تريده أن يفيق من تهويمات أورثها له أبوه. وأيضاً.. رُكن في نفسـها قـلق مـن ابنة أبَيِّدْ الجلاب نخاس العبيد.. تلك التي كانت تتمناه زوجاً ورفضـها آبـدون. صحيح أنها تزوجت وأنجبت، لكن ما المانع لفتاة كانت فاقدة الحيـاء وَسَعت عارضة نفسها على شاب، ما المانع أن تصير امرأة لا تمانع في عرض جسدها على رجل؟ ومصيبة أن تكون على إصرارها القديم أن تتزوجه.

ورغـم كـل أقـوال وظنون هَكيمة القاسية، إلا أنها تفعل في كل سفر من أسـفاره الطقس المفترض، تحمل في طبق قبضات صغيرة من الرمال التي داس عـليها فـي خطواتـه السبع الأولى خارج الدار، كي يعود لها بالسلامة، تحتفظ بالقبضـات السـبع حتى يعود فتنثرها في حوش البيت، وهي تشكر الله وتسقي زوجهـا العائد جرعات من سلطانية لبن، ثم تذبح ما يطرأ على بالها أولاً.. جِدياً، شاةً، عدداً من الدواجن. وتوزع السمن واللبن والبلح وغيرها على الجيران بركة عـودة زوجها آبدون. وفي قلب الليل يبدءان الوَنْسة اللذيذة. ونَسْتهما لم تعد بكل تـلك الـلذة القديمة، لكن آبدون مازال الحَكّاء الطيب ذا الوجه الذي يحمل الحب ويجبر من يتمعن فيه أن يحبه، مازال آبدون يمتلك ذلك اللسان العَسَلي.

أوصـله معـتوق بحمارته فرهانة حاملاً عليها كل الزنابيل. لا يتحدث مع آبـدون وإن حـاول آبدون فتح موضوع للحديث أغلقه معتوق رافضاً الاستطراد. وفي المرسَى ودّعه بنظرات لوم لأنه يقسو على هَكيمة الباكية.

كـان من المفروض أن يسافر أثمان بعد أيام إلى سُوين أيضاً لإنهاء عمل من أعمال ابنه سلاطين، إلا أن سلاطين منع أباه من السفر لما علم بسفر آبدون. يخشى أن ينفرد آبدون بأبيه في سُوين ويأخذ منه أسراراً. أسبوع وكان آبدون في سُـوين. بـقى أيامـاً في ضيافة من عاش معهم طفلاً. يهادي ويتصدر المجالس

بأبهــته وفخامــته وما يصرفه. زار أَبَيِّدْ فأرسل إلى ابنته لتأتي وتَرى من تربى معهــا صغيراً وأحبته، أتت وهي تحمل أصغر أبنائها على صدرها. مازالت جميلة رغــم نحافــتها وطولها الذي خيل لآبدون أنه زاد. نظراتها له تحمل الحب القديم فدب الرعب في قلب آبدون.

وفــي ليلة وجد أمامه صوفاني. انفردا ببعضهما يستعرضان أحوال القرية الغيــر المستقرة. اتفقا أن سلاطين سَيَدفع القرية بناسها إلى تغيير جلدهم. الاثنان أكدا لبعضهما أن سلاطين فعلاً شَرِّين كما أسمته تَعويضة. ولما وجد صوفاني أن آبدون هيّن في حديثه ويحادثه كأصدقاء أنداد، ولا يتعاظم عليه لأنه يكبره بمراحل ســنيّة، تشــجع وصـــارحه بما كان الكل يعرفه من قبل.. حُبّه لبهيتّة، وأمله في الزواج منها مازال يتدفق. طلب من آبدون أن يبلغها ذلك.. ويؤكد لها أن صوفاني لــن يتزوج غيرها، فلتصبر كما يصبر هو. وعده آبدون بأنه سيكون سنداً لبهيتّة ولــه، ســيكون وســيطاً بينهما. ولما عاد، انفرد ببَهيتة في بيتها وأبلغها، فساد الأسى على صفحة وجهها..

- تعرف يا آبدون أوجاع خيشة؟
- أعرف.
- هل يرضيك أن أكسر أمنيّة حياتها فأحمل مسئولية موتها؟
- لا.
- واسم عائلتي. ورغبة أسلافي في امتداد اسمهم.
- كلنا أولاد آدم وهوّا.
- إنهم يأتون لها ليلاً ويحادثونها، إنهم يعايشونها ويخففون عنها أحيانا.. وأحيانا يلومونها.
- من؟
- ناســها.أمها وأبوها، زوجها وأبناؤها الذين ماتوا صغاراً. ابنتها.. أمي. جدودها، جدّاتها.
- بهيتَة!
- صدقني، يشبعونها تقريعاً أنها تتركهم للنسيان والضياع والفناء. صدقني يا آبدون.

- أصدقك.

- وصـوفاني.. ليـتزوج فـتاة طيـبة مثله، سأفرح له يا آبدون. ليتزوج صوفاني فتاة غيري، ليتزوج غيري وهو أعز الناس.

- وأنت أعز الناس عنده.

نَـبْرة.. زوجها، همّها الثقيل. تدعو الله ليته يموت فيستريح ويُستَر. يوماً بعـد يوم يزداد نُوري بدانة وخواراً وحزناً على ابنه الغريق. طعامه صار جنوناً، انـتحاراً صريحاً. حمولة حمار كل يوم من بيت هَكيمة إليهم. بالكاد يكفيه. أغلبها ولا يـبقى لزوجته وابنته إلا اللمم. لم تعد تستطيع غسيل جسده ولا مساعدته في إخراج ما في بطنه المهولة. خفيران من الثلاثة صارت كل مسئوليتهما هي العمدة نفسـه، أن يوقفـاه ويعرياه من الملاءتين، ثم يجلساه بكل حرص على الحوض القصرية. وأن يخبئا قرفهما فلا يظهر عليهما حتى لا يثور العمدة عليهما ويخور غاضباً فيدفعهما بعيدا ليسقط و تسقط مخلفاته مبعثرة، ولن يسلما من تقريع نَبْرة وراضـية ثم غضب آبدون وصَلاتو وتهديدات بفصلهما. يغسلانه يومياً ويريحانه عـلى ظهـره، وكل فترة يقلبانه على أحد جانبيه، ويجلسانه في جلسته المفضلة ليستند على الحشية المستندة على الحائط، وتحته ملاءات قديمة وبرش الحصير، وبهذا لا يتقرّح جسده.

راضـية تدخل مرحلة الأسَى من قبل ميعاده، تُريد من يريد غيرها وتركت مـن قبلـته رغماً عنها خطيباً، تركته بفضيحة تؤلم وهي من فرع أهم بيت في القبيلة. جمالها شابه الكَمَد ثم نالت زواجاً ممّن لا تستريح معه وتحتقره. راضية جسدها نحيف، لكنه جسد شاب حيوي، أما الوجه الحلو فقد انطفأ فيه وهج عشق الحياة من زمن وإن بقي حلواً آسراً.

كـانت فرصة سلاطين قد أتت فذهب بالريالات الكثيفة إلى أبريم . والمركب تنسـاب وتقترب من أبريم ، وضح حصن بريموس الذي اشتق منه اسم القرية، وضـح مـتربعاً على قمة جبل متوسط العلو، وكلما اقترب وضحت تفاصيله حتى استطاع أن يرى بضعة مِن العسكر العثمانيّة يصعدون إليه ويهبطون.

فـي الميناء استقبلوه بما يستحق كواحد من أهم وأغرب التجار في القرى النوبية، استراح في جناح من أجنحة بيت الكاشف الكبير. جاءه إبراهيم مُركوس

ومساعداه. وبعد صلاة العشاء استقبله الكاشف حسن كوسَى. ناصع البياض ضخم قـوي شاربه كثيف متعالٍ، حذر ذكي في هدوء يقلق. غرفة ديواني واسعة عالية السـقف. الهـواء يجـري فيهـا والجـدران مبطـنة بالحصر الملونة والأعلام والمشـغولات الخوصية الفائقة الجودة. الأرض عليها أنواع من السجاد الخفيف، والكـنب المبطن على أجناب الغرفة وحسن كوسَى متصدر في كنبة صغيرة تسع ثلاثـة، يجـلس عليها وحده وبعض المساند والحشيات حوله. وعلى جانب من نفس الواجهة كنبة أخرى أصغر وأقل فخامة، يجلس شقيقة حسين كوسَى، ضخم ويمـاثل حسن كوسَى في كل شئ وإن كان شحمه أرحب ولا يحمل وقاراً، بل به توتر حتى وهو جالس صامت. في عينيه ملل وزهق ورغبة في الاعتداء.

بعـد أن سَـلّم سـلاطين عـلى حسن كوسَى باليد، أشار له عسكري شاب بالرجوع والجلوس على الكنبة الأولى التي تحتل الضلع الذي على يمين الكاشف، وكـان هـذا تكـريماً كبيراً. جلس ثم شرب ما قدموه له. أبدى الكاشف سعادته بالهديـة التي أحضرها له سلاطين.. خاتم ذهبي بفص كريم، وبالجباية المتزايدة في قريته والعمل الذي يتصاعد. وعده سلاطين بأن الجباية سوف تزيد كل موسم مع ازدياد شَغل الميناء. وسلاطين ينصرف قال له. الكاشف..

– إن فـتحت مقـبرة أخـرى، لا تدخلها إلا بعد أن يصل مندوب مني، لن أحاسبك على الأولى، فقد أخذنا منك جباية كافية.

فـي نفـس الليلة أتاه في جناحه اثنان من العسكر العثمانيّة، أمراه بالمثول أمـام الأميـر حسـين. ذهب متوقعاً الشر. حوش متوسط في ركن منه عدد من أشـجار الجميـز والكـافور. حصير مفروش وحسين كوسَى يجلس مستنداً على حشـية. حولـه ثلاث من الفتيات الشقراوات الجميلات وعلى بعد خطوات حارس كهل غليظ الرقبة متهدل البطن. أشار الأمير لسلاطين بأن يجلس أمامه. لم يمهله، حادثه بالنوبية الطلقة..

– أنـا لسـت موافقاً على أن يتركك أخي تفلت بكل غنيمة المقبرة. لكن.. ربما، ربما نتقابل مرة أخرى، وحينها لا تنتظر مني أن أكون رقيقاً مثل أخي.

قبل أن يتكلم سلاطين أشار له حسين كوسَى أن ينصرف، فعاد سلاطين إلى جناحه متوتراً ولم ينم حتى الصباح حين جاءه الإذن بأن يعود لقريته. إبراهيم مُركوس أسر له بصوته ذي الرنين، على أن يكتم ما سيقوله..

– احترس من حسين كوسَى، فهو شرير وسمع عنك أحاديثاً كثيرة، البعض يريد الإضرار بك.

– من هم؟

– ليسوا من قبيلتك، وليسوا من الأغراب الذين عندكم. المهم.. احترس من حسين.

فعاد وهو يتمنى أن يموت حسين قبل حسن.

فيضان عالٍ آخر ولّي، فعل مثل سابقه، أرعب الناس وأخذ بعض رزقهم وترك لهم أغلبه. ثم عاد النيل شرياناً ينبض في هدوء. الأرض أخذت مئونتها الموسمية الدسمة من غرين جبال الأحباش فصَبَتْ وتجهّزت لاحتضان البذور وإطلاق الزرع زاهياً. لكن.. لم يكن ناس القرية مثل كل موسم. بعض الشباب والرجال انشغلوا مع سلاطين، عملوا ملاحين مساعدين على مراكب سلاطين، سواء على المركبين اللتين أنهاهما إسْهاج أو تلك التي اشتراها من كوروسْكو. تركوا أرضهم لغيرهم فقام الغير بالعمل. والبعض لم يركب مراكب سلاطين لكنه يعمل مع سلاطين. وبعضهم مثل سَيّد هَربية كل ما هو مطلوب منه، أن يكون من بطانة سلاطين شَرِّين. وحين يركب سلاطين حماره الفارع ذا السرج الثمين والجرس النحاسي المعلق في رقبته فيصهلل كلما تحرك وفوقه سَيّده وسَيّد القرية الجديد سلاطين شَرِّين، يركب سَيّد هَربية مع غيره مكونين بطانة حوله، والشابان الضخمان حاملا الكرابيج يمتطيان حماريهما مسرعين خلف حمار سيدهما شبيه البغل، فيعطيانه الحماية والهيبة والفخامة. والأهم.. يعطيانه عنوان الجبروت.

قبل موسم الزواج التالي، أنجبت أغلب من تزوجن في الموسم الذي سبقه. فوزية وضعت زينب، هُوشَة أتت بطفل أطلق عليه أبوه اسم سلطان، راضية أتت بطفلة، حاول أولوا أنْ يُسميها سَمْرة، لكن راضية صممت على تسميتها صبرية. اسم يليق بصبرها على زوجها الذي مازالت تستصغر شأنه. يعلم أولوا مغزى اسم

صـبرية، لكـنه لـم يستطع أن يفرض الاسم الذي يريده. التفت العائلة حول تلك المولودة، كلهم فرحون مستبشرون أن تكون تلك الرضيعة طاقة فرح تنسيهم آلام أسـرتهم. عـدا واحد منهم يحاول إخفاء إحباطه وحزنه.. آبدون، كان يأمل في طفـل، طفل ذكر يكون يوماً رجلاً يعوضه عن انحطاط ابنه أولوا، ويكون أملاً في بـزوغ فجـر جديـد يعيـد السؤدد للعائلة.. عائلة جوش الولي! أما أن تأتي له المقادير ببنت، وفي زمن ضاع فيه زمن النساء، فصرن تابعين للرجال من بعد أن كـنّ مـلكات النوب وأصل القبائل.. فلا. لا يستطيع الترحيب بحفيدة أنثى. وحين بشّروه بصبرية قال قلبه..

- ليتها كانت صبري.

أمّا رَبيعة، فقد رزقت بنتاً اختار لها أبوها فيّاج اسم حفيظة. أنجبت كل من تـزوجن عَـدا بجيـوَة. شَمتت فيها القليل من النساء وقلن إن الله يعاقبها على علاقـتها المشـينة شبه العلنية بسلاطين. أما هي، بجيوَة، فقد تناست لياليها مع سـلاطين وعـدم حمـلها منه واتهمت علناً سَيّد هَربية بأن العيب فيه. ولما كان الموسـم الـثاني وحبـلت من تزوجن في موسمها للمرّة الثانية، وبَجيوَة بطنها مازالت على خوائها، أصرّت بأن العيب في الأبله الذي تزوجته.

بيـع الحقول المزروعة بسعر عال لسلاطين، ليتركها خاوية جرداء إلا من نـباتات برية تشرئب منها في قُبح، صار هاجساً يفرض نفسه على ناس القرية، خاصة بعدما علموا بنيته في تحويلها إلى مخازن له وبيعها مخازن أيضاً مستقبلاً. الأغـلب وإن كـانوا لا ينكرون خسارة الحقول التي ستبور، إلا أن لعابهم يسيل لـلقيمة العالية التي يعرضها سلاطين. ثار عليه القليل من الرجال. جاءه صَلاتو عـلى حمار. الشيخ صار ضعيفاً هزيل الجسد، ومازال قوياً صارماً في طبعه وما يعـتقده مـن مـبادئ. تَحـوّط حوله بعض الرجال الثائرون على تبوير الأرض الخضـراء. رقعـة الأرض محـدودة ومحصورة بين بحر النيل والجبل. شبر من الأرض هـنا ثروة تقيم أود عائلة. سلاطين يستمع لتأنيب الشيخ في عدم مبالاة، والـرجال الذيـن حـول الشـيخ لـم يستطيعوا فعل شيء. بطانة سلاطين أقوى وأشرس.

عـــاد الشـــيخ محبط النفس. زاره إسنهاج ليلاً يعتذر، فقد رفض الذهاب مع صَـــلاتو بحجّة انهم أصبحوا عجائز وعليهم ترك أمور القرية لمن هم أصغر سناً. أما آبدون فتحجج بأن الخطأ على من باع أرضه، والذي اشترى حُر.

توقفـــت قرهانة عند بيت العمدة. تركها معتوق عند شجرتي التوت فأقعت. دخل بيت العمدة صائحاً ..

- نَــبْــ..رَة.هوووي.

في الحوش كانت نَبْرة خارجة من غرفة نُوري، تحمل صينية خوص واسعة تكوّمت عليها أطباق الطعام الفارغة، تتجه إلى غرفة المطبخ.

- اذهب إليه يا معتوق.

وهو يعبر الحوش . أولوا يقف على باب غرفته ينظر ناحيته في اشمئزاز. ابتســـم له معـــتوق فـــأبعد أولوا وجهه. يقترب من حجرة نُوري. فانوس خافت الضـــوء. الباب مفتوح والنافذتان مفتوحان. زنخ العرق يملأ المكاننُوري ظهره على الحائط، ساقاه ممتدتان وعليهما الملاءة. أنفاسه مكروشة كأنها شخيرجلس معـــتوق بجانـــبهمد يده ووضعها على يد نُوري الذي أحس به، وبدون أن يفتح عينيه ابتسم..

- معتوق.

- إيْ يا نُـــ..وري.

- حالي عدم يا معتوق.

- شَـــ.فاك الله.

- لا أريـــد الشـــفاء. معـــتوق.. ادع لي ربنا.. وقل.. أماتك الله. أريد أن أستريح.

- ..

- هـــل رأيـــت رجـــلاً بحجمـــي؟ أنا.. أنا.. العُمدة أكون.. هكذا؟! رجلان وزوجـــتي يســـندونني.. لأقضي حاجتي.. في حوض! أنا يغسل جسدي أغراب.. ويكشفونني! أنا تخجل مِنّي.. ابنتي الوحيدة؟

- هي تحبــ..ك.

- وتخجل مني أيضاً.

لم يستطع استكمال حديثه. ينهنه باكياً. معتوق يربت على يده. لكن العمدة نُوري خار كالثور في بكاء غير آدمي..

– عااا عااااسِيِسِّيسِيِّي.

الليل مضي شوط منه. عاد معتوق إلى بيت هَكيمة. فَرهانة تسير بجانبه في صمت وقد أحست بمدى حزن صديقها. أدخلها حظيرتها وذهب إلى غرفة هَكيمة. طــرق الــباب. دخل. هَكيمة على سريرها تنظر إلى الباب. أسرع إليها. ركع عند سريرها وأمسك رأسها ينهنه..

– هَكيمة. العمـــ..دة. أمام عيـــ..ني ينمو لحـــ..مه. سيـــ..موت يا أمي.

بيـــت أثمان واسع مثل بقية بيوت القرية، تتراص الغرف ملتصقة بجدرانه الممـــتدة. يســكن الأشرم في غرفة منعزلة عن بقية غرف البيت. ارتاح متحرك واحد في نفسه المعذبة. أصبح له سكَن حتى وإن كان لا يملكه حقاً. أفضل من أن يعيد ترميم بيت أمه الشرماء الذي مازال طللاً. وحتى إن رمّمه وعاش فيه، كيف يعيـــش وحده؟ سيبقى منزله طللاً بدون أن تدخله أنثى تتقبله كأشرم. سيبقى في بيت أثمان، فهو أفضل من بيت خاله سَليمتو وزوجته البشعة أم لِسانين. لا يهمه أن ســـلاطين يعاملـــه معاملة السيد للخادم. الأشرم مازال يجِل شخصية سلاطين المسيطرة القوية ويعجب بفرعه المتين ووجهه الراسخ على ذقنه العريض. مازال سلاطين مثله الأعلى ومازال يتقمص شخصيته في أحلام يقظته. أثمان طيب هيّن ليّــن معـــه ومـــع الجميـــع. ولولا انشغاله في متابعة العديد من أعمال سلاطين المتشـــعبة، وفي مراقبته لسكان القرية وإبلاغ سلاطين أولاً بأول عن كل شيء، لوجـــد متسعاً من الوقت للجلوس على الرمال الناعمة والونَسة مع أثمان الطيب، والتمـــتع بـــالحكي الذي يدور عن أمه الشرماء. وأحلى ما في هذا المسكن الذي أواه، أنـــه في بيت واحد مع حُبه الكبير الذي يطويه في أحشائه.. هُوشَة. يراها صُبح مساء. بل يا سعده يراها كثيراً في وقت القيلولة القائظة وقد تخففت أحياناً من ملابسها العادية، وارتدت جلباباً ليناً بسيطاً يحدد خطوط جسدها الرقيق وهي تتحرك وتعمل في بيتها. جسدها لم يعد كما كان طفولياً ساذجا، جسدها نما وربا، أصبحت امرأة، أماً أرضعت فصار صدرها مغرياً، رغم إن نهديها لم يزد حجمهما عن برتقالتين ناضجتين. ورغم حب سلاطين لزوجته ورغم أنه يحس ويرى جسد

زوجـــته وهـــو يتـــبدل فـــي تَجَسّـــده، فإن أمرُ الله الأشرم بعينيه ذات النظرات المحـــرومة، يرى ويحس بالتغييرات في جسد هُوشَة أكثر من سلاطين. هي قمَره المـــنير بعيد المنال. وما يزيدها إغراءً عنده، إنه لفترة طويلة لم يكن يدري تماماً بضعف هُوشَة الجنسي، ولا يعلم الفرق بينها وبين النساء الأخريات أمثال بجيوَة. وفـــي تقمصه لشخصية سلاطين تكون هُوشَة زوجته هو، حبيبته هو، معشوقته هو، بل أم ابنه هو.. هو نفسه أبو الطفل سلطان، ألم يتم زواجه من هُوشَة وهم أطفـــال؟ يـــبقى في أحلامه وخيالاته إلى أن يفيق على وجود عمل ملح، أو يغلبه النوم فينام هادئاً مستريحاً.

موســـم فيضـــاني أتـــي مهرولاً، بداياته تبين كم سيكون عالياً هادراً، أيام عصيبة لكنها مرت ولم يبق منها سوى عدد من المواقف الطريفة والذكريات التي ســـتحملها الأســـر عن أيام الكفاح لنيل الرزق وحماية الأولاد. معتوق الخير على حمارته الشهباء تسير به قرب بحيرة الماء المتسعة المتدفق. قاربت نجع المنحنَى فـــارتفع صـــوت الماء في النهر الهائج في أذنها. قُرهانة تخاف من النهر. وقبل المنحـــنَى شـــاهداً شـــبحاً جالســـاً على حافة الماء تماماً معطياً ظهره إليه ناظراً للشمال. وقفت قُرهانة بجواره ونادى معتوق..

- خيـــ..شة هوووي.

لم تلتفت خـــيشة. أجابت وهي متسمرة في مكانها..

- معتوق ثانية؟

هبط معتوق. جلس بجوارها. وضع يده على كتفها..

- مصـــ..طفى.

- يعذبـــني بـــبعده عني. كما تعذبني بَهيتة في قربها. رفضت قريبين لنا، حجّتها أن أولهما أرمل ويريدها لتربية بنتيه، والثاني متزوج فعلاً ويريدها لمجرد المـــتعة. تـــريد صـــوفاني. كـــل البـــنات من عمرها تزوجن وانجبن. لا تريد أن ترحمـــني.. لا تريد أن تهبني أحفاداً أرى فيهم معالم أبي وأمي وأشم رائحة أختي وابـــني. ألـــقى عـــليهم أســـماء ناسي الذين ماتوا من زمن وتركوني وحيدة إلا منهما.. حفيدي المتعِبين.

قــام معــتوق. أخذ بيدها فقامت. مَسح دموعها. رفعها ببساطة على ظهر فرهانة وذهبا بها إلى بيتها.

مَرسَى صخرة دُجُر صار ميناءاً نشطاً، لا تصعد مركب أو تهبط في مجرى النيل إلا ورَست عنده ساعات، ولو لمجرد أن يشاهد ملاحوه الميناء والقرية التي علت فيها الجدران وصارت تنمو سريعاً سريعاً مهددة ميناء كوروسكو نفسه.

أتت القوافل، ضئيلة قليلة. تأتي من الصحراء تمخر في الدرب القديم لتنيخ بالقــرب مــن ربــوة مِجيــد. يصير المكان سوقاً برياً، يأخذ منه الميناء النهري ويعطيــه. استكمل مُهدي حوشه المجاور لحوشي سلاطين الواسعين، ثم لحق بهم حــوش صغير على قدر طاقة رجل من نجيبيّة، رجل أتى متكاسلا لمجرد إرضاء ابــنه الصبي الذي يرافقه. شاهد سلاطين الصبي.. مخايل ذكاء وتوقد في عينيه. إصرار يزوم في ملامح وجهه الهادئة. سأله سلاطين..

- اسمك يا ولد؟

- عبده هنيفة.

- سوف أعطى والدك الفرصة، لأجل خاطرك أنت، لكن لا تنسى ذلك.

ثــم أتى يونس حسبما نصحه سلاطين أيضا فسَوّر مكانا ليبني فيه حجرات ملاصــقة. ســقيفة تحــتها أزيار وأكلمة ومساند. بنى بذلك نُزُلاً ومطعماً للتجار والغرباء. وبهذا بدأت تبرز سوق قوافل الجِمال.

رغــم ضــآلة القوافل وهشاشتها من ناحية المكاسب، وتلهف الناس ليوم تتكاثف، فقد رفض سلاطين واحدة منها أن تستقر في سوق القرية وطردها فوراً، قافــلة أتت بالعبيد. لم يسمح لهم إلا بالراحة لساعات قليلة ليتناول العبيد الأسرى والجَمــال طعاماً وشراباً. لم يسمح للتجار بالدخول ولو تحت الظل، اضطر التجار لقــبول هــذه المعاملة المذلة حتى لا يموت أحد من بضاعتهم.. عبيدهم! وبعدها لزمن طويل لم تجرؤ قافلة عبيد أخرى أن تأتي إلى القرية.

وفــي نفــس الليلة، وهو في غرفته الخاصة على صخرة دُجُر جالساً على السرير الجريدي وبجواره زجاجة عرقي وكوب. ضحك له أمرُ الله..

- بالطـــبع يـــا سلاطين، لن تسمح لقوافل العبيد أن تبقى في سوق القرية، حـــتى.. حـــتى يموت نُوري العُمدة، وتصبح أنت سلاطين العُمدة، وبعدها.. لتأتي قوافل العبيد إن شاءت.

ضحك سلاطين مغتبطاً، أمرُ الله الأشرم أكثر ناس القرية فِهماً له، بل يفهم خلجات نفسه أكثر من هُوشَة زوجته!

عـــندما ظـــن سيد هربية إنه استحوذ على ما كان يصبو إليه طيلة مواسم صباه ومراهقته، وجد نفسه وقد قبض على جمر من نار. بجيوةَ أصبحت زوجته، حلالـــه، يشاركها الفراش وقد كان يحلم مواسم عديدة بمجرد أن يتحسس بطنها، أن يرى أعلى صدرها. هي الآن له، لكن ما أبعد المسافة التي تفصلها عنه، تعذبه بإهاناتهـــا، لا تعتبره رجلاً، تُحصي وتزيد مزايا أبيها الصلد وكيف كان ذا هيبة، لتهيـــنه وتخســـف من شخصيته. تعدد مزايا أبيها لكنه يحس أحياناً أنها لا تعدد مـــزايا هاشم الكيد، بل مزايا سلاطين.. قوته وسطوته ووسامته، والذي يزيد من شـــكوكه، أنهـــا قلّما تتذكر لون أبيها النحاسي والذي لا يتشابه مع لون سلاطين المـــائل للسمار. لا تعطيه جسدها إلا إذا احتاجت إليه هي. حاول ليلة واحدة بدون إرادتهـــا مستخدماً جُرمه الكبير. دفعته فأسقطته من على السرير ولعنته بالعبيط ابـــن العـــبيطين. هاج عليها هاجماً ليضربها. تغلبت عليه وخربشت وجهه حتى أدمته. عضته وأسقطته مرّة أخرى أرضاً ثم ركلته وهو يبكي مستعطفاً لتسامحه. بصـــقت عليه. ومن يومها لم يجرؤ على معاودة المحاولة. أصبح وكأنه كلب أتت به بجيوةَ ليؤدي مهمة معينة ويكون ذيلاً ذليلاً لصاحبه.

هَـــربية ذاقت أقسى أيامها. ابنها، كل من لها في الدنيا، هجر بيتها ونجعه كلـــه وذهـــب ليسكن في بيت زوجته بجيوةَ التي رفضت أن تأتى هي وتسكن مع هَربية. ورغم إلحاح ابنها وأقاربها أن تذهب إلى حيث بجيوةَ حتى لا تبقى وحيدة، إلا أنها تصر على الرفض. تؤكد أن بجيوةَ لا حياء لها وستهينها كما تهين ابنها. تلعن ابنها. تحمد الله أن بجيوةَ لم تنجب فترى بعينيها حفيدها من أم عاهرة. هذا إن كان حفيدها حقاً. تبكي مُعذَبَة ومُعذِبه لابنها المُعذَّب.

أقـــبل فيضان هذا الموسم متعجلاً ثائراً أكثر علواً من سابقيه، أمواجه أشد. دوّاماتـــه أوســـع وأسرع، شهيقها ولولة يتخللها شخير قوي. ناس القرية كلهم

رجـــال ونســـاء وأطفال جماعات جماعات، هبطوا مسرعين متعجلين إلى الحقول والمــزروعة أغلــبها بـــالذرة. يحصدون الكيزان والأطفال يحشرونها في أجوله وزنابيل ثم على مطاياهم يصعدون ليفرغوها في أحواش البيوت ليعودوا مسرعين كَــرّة أخرى. وفي نفس الوقت مجاميع أخرى تجيء بمواشيهم من جزيرة أصلاد. المــراكب تـــأتي بها أفواجاً أفواجاً. ولأن الوقت ليس في صالحهم اضطروا كما فعــلوا فـــي الفيضـــان السابق والذي قبله، أن يدفعوا البقر للسباحة تجاه شاطئ القــرية وقد ربطوا أعناقها بالحبال تحسباً إن جرفها التيار، رغم كراهتهم لنزول حيوانـــاتهم في مجرى نيلهم المقدس، ولخوفهم من غرق بقرة أو أكثر. عمل لما بعــد الغــروب، ثــم لوم من البعض للبعض. العديد من الأفراد بدأ يعمل لصالحه منفرداً وإن كان داخل مجموعته.

في اليوم التالي كانوا يسرعون في جمع غذاء مواشيهم لموسم قادم، سيقان نــبات الــذرة نفســها. مياه النيل ارتفعت وبدأت تنساب إلى الحقول. يجمعونها بســرعة أكوامـــاً ثم يضعونها على ظهور الحمير وفوقها تركب النساء والأطفال يقودونها إلى حيث البيوت. وبعد الغروب نفس اللوم والعتاب، لكن بعصبية أشد.

هَكيمـــة تعمل في نفس مجموعة آبدون ومعتوق. الجمل السعيد، استخدمه آبــدون لأول مرّة في أعمال الحقل. ولأن عملهم كاد أن ينتهي، فقد ترك معتوق الخيــر مجموعته وذهب يساعد مجموعة مجاورة. أولوا لم يسأله أحد من والديه المســاعدة، ولــم يــتحمس هو حتى للإشراف على أرض العُمدة، أرض زوجته، لو هــبط الأرض ليعمل فلن يستطيع، بل سوف يربك المجموعة التي يعمل معها، فهو أطرَى وأرق من ذلك.

انسابت المياه الغرينية على الأرض الزراعية وقد خلت أو كادت مما عليها مـــن زرع، ثم تدفقت المياه وفاضت. ناس القرية يساعدون بعضهم في مساحات صـــغيرة متفرقة لم تحصد بعد، لم يخسروا كثيراً من الحصاد رغم هجوم الفيضان العـــالي الشــرس. أصوات سقوط الجروف الطينية العالية تدوي حين تصطدم بها الأمـــواج وتســـقط على سطح النهر، تحذرهم.. أن انتهوا من عملكم وإلا.. الدور عــليكم. ومـــن الأمـــاكن العالية حيث صفوف البيوت، وقف ناس القرية يراقبون سرعة تدفق المياه المتوحشة الداكنة.

وكان هذا الفيضان من متواليات الفيضانات العالية.

الحيـاة لا تعطـي إلا لتأخذ بنفس المقدار ولو بعد حين. مضى على موسم الأعـراس الكـثيف فيضانان. سلاطين وهُوشَة أنجبا جاويش الابن الثاني. تاج طنـبورة وضعت له فوزية البنت الثانية رُقية. وغيرهم وغيرهم. أطفال في جيل كـثيف ملـئوا أجواء القرية بعوائهم الباكي وضحكاتهم. وإن كانت بجيوَة مازال رحمها أصماً فلم تعط سَيِّد هَربية ابناً أو بنتاً يفرح بها وتفرح معه.

في هذا الموسم ازدهرت أعمال سلاطين وصلصلت ريالات الفضّة أكثر بين أيـادي العامـلين على مراكبه والتابعين لمصالحه في القرية، ووضحت وسوَسة جـنيهات الذهب بين أيادي تجارها، ثم حان ميقات أخذ ما أخذته القرية في موسم الأعراس من أفراح وما كان نتيجة ذلك من مواليد غزيرة.

مـاتت هَـربية بدون مرض ظاهر،افتقدها جيرانها ذات صباح، دخلوا بيتها فوجدوهـا على سريرها ميتة. انهار سيد هَربية وهم يشيعونها. معتوق والأشرم يحفـران قبرها ويضعانها. في أيام العزاء الثلاثة معتوق يقرأ القرآن ويسبح لله. وفـي نهاية اليوم الثالث، نسي سَيِّد هَربية خوفه من سلاطين الذي لازم المضيفة سـاعات طويلة معه. ترك كل الرجال بما فيهم سلاطين وأخذ معتوق والأشرم في حضـنه يبكي على كتفيهما القصيران. ينادي أمه هَربية. تقلص وجه سلاطين في عدم رضاء.

أيـام وعـاد سَـيِّد هَـربية تابعاً مخلصاً لسَيده ورفيق صباه، عاد يَضحك ويُضـحك الناس عليه، فهو ذليل بجيوَة. ناس القبيلة يأخذونه على علاته.. وإن أحبوه وأشفقوا على بلاهته .

نُـوري العُمدة وصلت سمنته إلى درجة الموت الأكيد، فلم ولن يوجد إنسان بهذا الحجم ويعيش. نَبْرة وراضية أوشكتا على الانهيار من إعداد طعامه وغسيل ملابسـه التي صارت ملاءة لأعلى الجسم وملاءة لأسفله. والملاءات زنخة تُبدل مـرتين يومياً، خاصة أن إنجاب صبرية أخذ من أمها وجدتها الكثير. هَكيمة دائماً معهما تساعد. الخفيران وكبيرهما ضربهم الزهق فقلّ ما يقدمون من مجهود وقد صـار عمدتهـم أمـام أعيـنهم طوال اليوم مثل بقرة متضخمة. الخفيران حاولا الحصـول عـلى عمـل عند سلاطين، لكنه رفضهما بحسم، مضطران للعمل عند

العمـــدة وهما يغالبان اشمئزازهما وسخطهما، ويضربهما القرف، يلعنانه ويلعنان أهله كلهم وهما ينقلان فضلاته إلى الخارج ثم يدفنانها بعيداً. العُمدة جفناه كتلتان من اللحم انسكبتا على عينيه فلا يستطيع رفعهما إلا بمقدار سمك شَعره تتيح له رؤية خيالات. أصبح يعتمد على السمع في معرفة محدثيه. الكل يتوقع موته. نَبْرة وراضــية وهَكيمة يبتهلن إلى الله لسرعة موته، أن يرحمه الله بأخذه فيريحه من طول بلائه.

ليل الشتاء شديد البرودة. في ليلة منها تحشرج تنفسه واستلقى على ظهره فــي شــكل غــريب، أعــلى ظهــره عــلى الحِشية وكذا مقعدته الهائلة وبينهما فجــوة..فراغ. وتحت رأسه خمسة وسائد مكتنزة لرفع رأسه حتى لا تترك الرأس متهدلة في الهواء. بطنه كثيب أسود دهني كبير، وثدياه بشعان. العرق يضخ من مسامه الواضحة ينابيع مصحوبة برائحته المؤذية. فاجأهم بأنه لم يعد يسأل عن الطعــام، فقــط يشــرب كل دقائق كوز من المياه الباردة، بوله يفرغه على نفسه لينسال مبللاً أسفله. تأكدوا أنه قارب على النهاية والراحة.

فــي قلب الليل بعد أيام ثلاثة على حالته هذه. انفجر الصراخ والعويل. هبّ ناس النجوع. ظنّوه نُوري، لكن لم يكن هو. كانت ديوانة مسكين. لم يحزن عليها مُهــدي بقــدر ما حزنت عليها نَبْرة وهَكيمة. تألم لفقدها قيّاج كثيراً رغم أنه كان منشغلاً عنها وعن آلامها.

والــناس تــتوقع أن الدور على نُوري، فإذا بهائم مَفكوكة تشتكي صداعاً. أتاها يونس المجبّراتي، قام بعملية حجامة على صدغيها. أعطاها مسحوقاً تسفه. ارتــاحت قليلاً. في الليل ازدادت الآلام عليها. قامت ابنتها فُوزية بتشريط سمانتي ساقيها بالموسَى لتنزف الدم الغزير. زوجها إسْهاج أعطاها السفوف، قبل الصباح كانت ميتة.

يدفــنون هائم في نهار رياحه شديدة وبرودتها تقتحم الملابس الثقيلة لتنفذ فــي العظــام. في نفس هذا اليوم كانت مركب سَليمتو التي رحلت من قبل موت ديوانــة، مــازالت تهــبط النهر إلى الشمال. الشراع مطوي والتيار يأخذ المركب المحمــلة ببضــاعة سـلاطين. طيور الماء متناثرة على سطح النهر ما بين بجع أبيــض وإوز أبيــض وأطــراف ريــش سوداء، وفلامنجو ملون قرمزي الرأس

والمـــنقار، وبـــط يقارب لون البيج، وكلها مشغولة بالتقاط الأسماك والراحة على سـطح المياه وتقبل الموج في فرحة. ميناء كوروسكو على بعد قرية واحدة، فإذا بالــرياح الشمالية تشتد وتَبْرد والبيرق المؤشر لاتجاه الريح ينتفض عكس اتجاه المــركب مشـيراً للجنوب. المركب تكاد أن تقف في مكانها، التيار يتدفق شمالاً والهـواء الشديد يضرب جنوباً. طيور الماء تركت الصيد وارتفعت صيحاتها غير مبيـنة إن كانت صرخات فزع أم صيحات فرح. الرياح تشتد وتصرّ أكثر فتتغلب عـلى الـتيار. مجـرى النهر الذاهب إلى الشمال صارت أمواجه في السطح تعلو وتــثب مــن الشمال للجنوب بفعل الرياح القوية الباردة، المركب تكاد تدور حول نفسها. سَليمتو مع مساعده الصبي يتحكمان فيها بصعوبة. يحاولان الرسو على الضفة. سَليمتو لم تعد عِمامته على رأسه، ملابسه تتطاير، صدره انكشف للرياح الباردة كما انكشفت صلعته من قبل. تمكنا من الرسو. ربطا المركب بالضفة جيداً. سَليمتو العجوز يسعل. أجلسه مساعده ليستريح. سعاله يزداد. جاء الليل فجاءته الحُـمى والرعشــة مع السعال الجاف الذي يضرب جسده فينفضه.. في ظهيرة اليـوم الـتالي كان قد أسلم الروح. دُفن في أقرب قرية. هدأت الرياح فاستمرت المركب في رحلتها، فهذا قانون النهر. وبعد أيام كانت المركب عائدة إلى الجنوب بدون سَليمتو عسل، يقودها ملاح شاب.

ضربات قوية على الباب فزعوا. آبدون ومعتوق وخلفهما هَكيمة هرعوا في وقت واحد وصوت أولوا ينادي من الخارج..

- آبدون. هَكيمة هووي.

دفع معتوق الباب غير الموصد. أولوا يمسك بركوبته..

- العُمدة.

امـتطى أولوا ركوبته وأخذ بيد هَكيمة لتثب خلفه علي ظهر نفس الحمار، لتســرع بهمــا الــركوبة ويختفيا في الظلام يتبعهما نباح الكلاب. لحقهما آبدون ومعتوق.

نُــوري فــي رقدتــه المفجعة. تَل دهن ثقيل الرائحة. حزرت نَبْرة أنه مات عندما توقف زفيره وشهيقه الشخيرى، وتوقف جسده عن ضخ ينابيع العرق ذي

الرائحة الزنخة. هَكيمة عند باب البيت واجهت بقية بيوت النجع وأطلقت صريخاً طويلا..

- إبيوو –بيو.إبيووو عُمدة إبيو.

نَـبْرة وراضية في بكاء ونحيب حول جثته. آبدون وأثمان وسلاطين وأولوا فـي ركن الغرفة. معتوق يقبع على بعد خطوات منهم ووجهه بين كفيه يردد آيات من القرآن الكريم ودعوات بالرحمة.

الصـبح لـم يسـفر عـن ضوئه الواضح بعد. زحام ناس النجع يتكاثف. مجموعة من النساء في الساحة على بعد قليل من بيت العُمدة معاً واجهن الشمال حيث نجعي نجيبيّة والمنحنَى، أطلقن الصريخ المولول بحدّة وكثافة..

- إبيوو –بيو.إبيووووو –إبيوو.

الصـريخ انهـال كهجمة متوحشة على النجعين. ثم بَعده من بُعد عواءات الذئاب المذهولة في الجبل وصرخات الضباع، ومن قُرب نباح الكلاب التي تسرع وتهـرول وتنبح وتتجمع حول بعضها في اضطراب وقلق داهم. وجميع الأصوات المـتعددة الـتي أتتهم من أجناب الجبلين الشرقي والغربي في متواليات متباينة القوى والثقل وكأنها صادرة من مخلوقات أسطورية تضرب بيوت النجعين وتفزع ناسـهما. لقد وقع خَطبُ جَلل، العُمدة نُوري مات. تأكد ما توقعوه بوصول راكبان مسرعان على حماريهما ليؤكدا ذلك.

العديـد من الركائب خرجت براً، حمير وجِمال أسرعت والصُبح يطل عليهم لإبـلاغ نـاس القرى على ضفتهم الغربية شمالاً وجنوباً، والمراكب لتأكيد البلاغ للقرى على الضفة الشرقية.. مات العُمدة والجنازة بعد صلاة الظهر.

النسـاء يخـرجن من نجعي المنحنَى ونجيبيّة أسراباً تتجه إلى نجع أورّك وهي تهرول في نواح وعديد، وكل مجموعة تصل إلى بيت الميت ترفع صرخات الـنحيب وكـل مـنهن تبحث عن ناس الراحل، نَبْرة وراضية وهَكيمة، تأخذهن بالأحضـان الراقصـة واحدة بعد واحدة، كل منهن تحصي أمجاد وفضائل النفس العظيمة التي رحلت في جُمل موزونة رجزاً ونغماً حزيناً وعلى إيقاع ضربات قلب مرعوب.

في غرفة نوري، النافذتان والبابان مفتوحان. الرجال أمالوا الجثة جانباً بصعوبة وهم يسحبون من تحته الحشية التي اتسخت تماماً. غسّلوه في مكانه. الباب الجانبي الواسع مفتوح، فانكشف الفضاء المواجه للجبانة. أعدوا زحّافة عرضها أثنى عشر شريحة من جذوع النخيل. أتوا بها بجانب الجثة. كفّنوه بملاءات أربع وتكالبوا على الجثة بصعوبة لتستلقي بظهرها على الزحافة، والزحافة عليها سبعة من الملاءات. ثبتوا أوتاداً على جوانبها. ربطوا بالحبال كل جرم اللحم والشحم المسجى بأوتاد الزحافة.

اعتلت الشمس قلب السماء. ذهبوا جميعاً لصلاة الظهر. جموع كثيفة، لم يستوعبهم الجامع الصغير، الصلاة داخله في الظل وخارجه تحت وهج الشمس التي بثت حرارة مرغوبة في برودة النهار الشتوي. بعد الصلاة ينتظرون قليلاً لتوالي الآتين في تدفق من البر والنهر كل حسب بعد قريته.

الساحة الكبيرة تستوعب كثافة خلق الله بملابسهم البيضاء وعمائمهم المتهدلة علامة الحزن العميق. بعض الشباب يمر على الناس بأكواز المياه التي يأتون بها من أزيار بيوت النجع. عويل النساء لا يتوقف من داخل حوش بيت العُمدة وخارجه. أسرعن خارجات ينهنهن من البيت ليلتففن حول أسواره محتشدات ناظرات إلى غرفة الميت التي تهدّمت حيث ستخرج الجثة منه. جثم الوجوم على الخَلق.

عنقا الجملين الطويلتان ورأساهما المتجهان ناحية تل الجبّانة مضطربان يلتفان يمنة ويسرة ولأعلى. ربطوا الزحافة بهما. آبدون ساق السعيد والجمل الذي يزامله ويلازمه في جر هذا الثقل. يحفزهما فأسرعا والحبال خلفهما مشدودة حتى ظهرت الزحافة وعليها الجثة الضخمة مكفنة بالملاءات الأربع. أطلقت راضية عويل إبيوو إبيو، وكأنها إشارة لإعادة طقوس رقصة النائحات. تبعتها النساء بعويلهن المتواصل فانزعج الجملان واضطربا. استجمع آبدون كل قدراته للتحكم فيهما وواصل الاتجاه ناحية التل المنتظِر. الرجال بكاؤهم صامت والدموع تنهال ساكنة. أوقف الجملين لما وازت الجثة الجامع. صلّوا على نوري وهو في نفس رقدته. توقف عويل النساء ولم يتوقف نحيبهم ولم تتوقف أياديهن وهي تلوّح بالطرح السوداء تجاه قبة السماء. اشترك العديد من الرجال في رقصة

الـــنائحات وقـــد تحزّموا بعمائمهم. عادت المسيرة وعاد العويل الحاد العالي. عند التل، حلّوا الجملين. ربطوا الحمار البغلي الجسد وبجانبه حمار قوي آخر وقصّروا الحـــبال. الحمـــاران يصـــعدان ســـاحبين الزحافة بصعوبة. معتوق خلف الزحافة مباشرة يمسك الوتدين بكامل اتساع يديه، حافي القدمين عاري الرأس وسط كثافة العمـــائم المنكســـرة. سلاطين ورجل على جانب وسَيّد هَربية مع قيّاج على جانب آخـــر. وصـــلوا الحفـــرة العميقة العريضة. وازوا الزحافة بجانبها، فكوا الحبال، أمســـكوا بأطراف الملاءات السبع التي بأسفل الجثة، وفي هبّة واحدة مع صيحة قويـــة حملوا الجثة ليضعوها في حفرتها، لكن الثقل كان أعتى من قوّة سواعدهم فافـــتقدوا التوازن والميزان المطلوبان وسقطت الجثة مائلة منهم في دوي مكتوم وقـــد أخـــذت معها جانباً من الحفرة فتصاعد الغبار مع تصاعد عويل النساء من ســـفح وأركان تل الجبانة. الجثة احتكت بأجناب قبرها لتستقر مائلة، بدلاً من أن تكـــون على جانبها الأيمن تماماً مالت قليلاً كأنها سوف تنكفئ على وجهها. هبط معـــتوق، سَيّد هَربية ألقي عِمامته وخلع جلبابه ولحق بمعتوق في قاع المقبرة، عدلا الجثة الضخمة بصعوبة.

زحام الرجال يحيط بالمقبرة في كثافة. الشيخ صَلاتو وقد رفع يديه ووجهه للســـماء يدعـــو دعـــوات طـــلب الرحمة والوداع للعمدة الذي ذهب، والمشيعون يؤمّـــنون عـــلى دعـــوات شيخهم، والشباب مشغولون بإهالة التراب على الجثة، النســـاء مرشـــوقات على سفح التل في ملابسهن السوداء يلطمن على خدودهن وعلى أعلى رؤوسهن يتقافزن وينحن كأسراب من الغربان تنذر الدنيا بالويل.

بقـــوا جميعاً فترة يدعون له بالراحة والغفران. نثروا الحبوب أعلاه وتركوا جرار لبن وماء ذات فتحات واسعة، لتأكل الطيور والوحوش وتشرب رحمة ونوراً لـــلفقيد. وهم يهبطون التل.. ينعون لبعضهم ولأنفسهم عمدتهم الذي تركوه تحت التل. تداخل عدد من الرجال مع النساء في رقصة النائحات.

مضـــيفة الـــنجع استوعبت أسرة الفقيد وكبار رجال القرى الآتين للتعزية، وبيوت العُمدة وآبدون وأثمان وسعت بقية الناس. الفتيات خرجن من بيوتهن كل تحمـــل صـــينية طعام، الفتيان يتناولونها ليرصوها صفوفاً بينها مساحات يجلس عليها الآكلون.الدروب مليئة بالحركة المضطربة.

رقصـــة النائحات ساخنة، النسوة لم يتوقفن عنها فالميت هو كبير القرية، عُمــدة القبيــلة ورمــزها، ويجــب إعطاء رمز قبيلتهم مقامه خاصة والضيوف مــتواجدون مــن أكــثر مــن قــرية، تحزمن بطرحهن وصببن الرمال صباً على رؤوســهن، ثــم يدخلن جماعات جماعات إلى حوش بيت الفقيد حيث أعد وعاء نحاســي واســع مــليء بالرماد، جلست بجانبه تَعويضة متربعة، شعرها منفلت كأجمــات نــباتات بــرية فزعة حول رأسها، تنشد أناشيد حزن كئيبة على نُوري وعــلى زوجهــا سَــليمتو الــذي دُفن في الغُربة. تدور الجماعات راقصات حول تَعويضـــة والوعاء وتتقدم واحدة بعد واحدة لتنحني عندها فتأخذ تَعويضة حفنات مــن الــرماد وتضــعها على رأسها وهي مستمرة في إطلاق العديد المنغم بإيقاع رتيــب. تــتراقص النساء الدائرات حولها كالساقية ضاربات الأرض بالأرجل ذات الخلاخيــل الفضــية ضــاربات صدورهن بالأكف ذات الأساور الخرزية والذهبية، يــتأرجحن يمــنة ويسرة، ثم يخرجن إلى الفضاء حيث ينتظمن في بحر الرقصة المكتظ ويدخل غيرهن. أبقين على الرقصة المفجعة حارة ملتهبة معطاءة لشلالات من الأسى الحارق. الشتاء هو الرازح، لكن حرارة الرقصة المفجعة حولت الشتاء صــيفاً على الراقصين بسخونتها. العرق ينضح ليتشرب بالرماد والرمال فيصنع قناعا داكناً متماسكاً بشعاً على وجوههن ثم يسيل أنهاراً عكرة على الرقاب وبقية الجسد، وكلما خفت طبقات الرماد من وجه بعضهن يدخلن لتضع تَعويضة حفنات رمــاد إضافية على رؤوسهن، والرماد في الوعاء النحاسي كلما قارب على النفاد أتت فتاتان بالمزيد.

اليــوم الــثالث.. الرقصة الكئيبة قائمة. سلاطين يمر بجوار الساحة، على جــانب زحام السيدات كانت فُوزية تحتضن سيدة أخرى وترقص معها ثم يبتعدان خطواتىعــن بعضــهما ليشــيحا بيديهمــا حولهمــا وللسماء. لفتت فُوزية نظر ســلاطين.. حتى في رقصة الحزن تتأود في ميوعة وتتثنى في دلال. إنها مشبعة بطــراوة ومضــمخة بطلاوة، وكل هذا العَجَب يرتمي عليه طنبورة التافه! يذهب سلاطين لما يريد لكن خيال وتأودات فُوزية تجذبه. وفي الليل كانت فُوزية وتثنيات جسدها مازالت حاضرة في أحشائه الساخنة.

في نفس تلك الليلة، لم يأبه سلاطين بتحذير أمرُ الله وأمره بمراقبة النسوة. يراجعه أمرُ الله فيما ينتويه، ينصحه بالابتعاد عن فُوزية فهي زوجة ولا تهتم به كـــرجل إطلاقــاً، لكـــن سلاطين مصمم على المحاولة. أبلغه أمرُ الله الأشرم بأنها عـــائدة إلى بيتها وحدها. سلاطين يلتف من بعيد خلف عدّة بيوت حتى يأتي بيت إسْهاج من طريق آخر غير طريق فُوزية، يتمهل حتى يكون وجوده لاحقاً لوجود فُوزية بفاصل زمني معقول. وفي نفس الوقت كان أمرُ الله يبحث عن المنقذ العاقل فـــي مثل هذه الورطة التي وضعه فيها سلاطين، وجده وسط بضعة رجال، تحايل حتى انفرد بصَلاتو وأفشى بما انتواه سلاطين، طالب الشيخ بعدم ذكر أنه هو الذي ابلغه بالأمر، وأن يختلق سبباً يبرر به تواجده في بيت إسْهاج النجار في التوقيت الذي سيكون.

فُوزيـــة تحمـــل وعـــاء الماء فارغاً وتسير في حوش بيت أبيها عائدة من الحمـــام بعـــد اغتســـالها مـــن جهد النهار الطويل والعرق والرماد المتخللين كل جســـدها. فانوس ضعيف في ركن الحوش البعيد، وفانوس آخر داخل الحمام يلقي بمستطيل ضوء أمامها. يد تمسك بالوعاء.تشهق..

– بسم الله.

يأخذ منها الوعاء ويضعه أرضاً..

– من؟ سلاطين!ما الذي أتى بك هنا. وفي هذا الوقت؟

وهـــو يأخذهـــا إليه فزعت وقد أدركت ما يريده. تدفعه بعيداً عنها،تعضه، حـــاولت الصـــراخ لكن كفه كانت أسرع منها وأغلقت فمها وأنفها فصارت تكافح لتتـــنفس تاركـــة جسدها يثنيه سلاطين ويمدده أرضاً، تحاول عضه وهو يشلحها بـــاليد الأخـــرى، فأمســـك بخُزامها المشتبك بأنفها فصارت كالجمل الذي حتى إن ســـحبه طفـــل من حلقة معدن مشتبكة بأنفه، فعليه أن يخضع. انحنت تتأوه ألما رغمـــاً عـــنها. أنفاسه على رقبتها وشفتاه تدعكان الرقبة وأعلى الصدر، تحاول ضـــربه والتـــلوي لتضـــع واجهتها على الرمال فتحفظ فرجها، لا تستطيع. التعب يأخذهـــا، أصابعه تتحسس أخص خصائصها فتثور أكثر، لو تستطيع أن تلقي به بعيـــداً، تحاول في يأس، أعصابها تخونها وجسدها يتفاعل مع محاولاته، دموعها تنسال.

جــريدة خضـــراء لينة كما الكرباج تنهال على ظهره، على نصفه السفلي العاري، ففزع وترك من تحته ليثب واقفاً ناظراً في بلاهة للشبح الذي استمر في ضـــربه، يــتقهقر وهـــو يسمع السباب من الشيخ صَلاتو، يرعبه ويشلّه موقفه المخزي وخوفه من فضيحة بإمكانها أن تطيح به وبآماله. الشيخ عجوز ضعيف، دفعـــة واحدة يطيح به مثلما فعل به من قبل، لكن.. وضعه المخزي وهو لم يعد مـــراهقاً صغيراً كما كان في فعلته الأولى مع بجَيوة، وآماله العظام تمنعه. يحمي رأســـه مـــن الضربات وهجوم الشيخ العجوز عليه بإصرار عنيف، حتى استطاع الإفـــلات والعـــدو خارجاً من البيت كله. وحين ابتعد وأخذت خطواته تهدأ، لومه لنفســـه لـــم يهـــدأ، يـــزداد ثقلاً وحدّه.. تهور وتسرّع والأيام القادمة حاسمة له ولطموحاته.

فوزيـــة غطت ساقيها وأدارت وجهها ناحية الحائط تبكي في خزي. أتي لها بكـــوز ماء تغسل بها وجهها. هدأت. وترجته أن يكتم ولا يصرح بما حدث. فهو عـــار عليها أيضاً، وسوف يتسبب في الكثير من الآلام على أبيها. تلح وتستعطف ألاّ يعلن عمّا كان، والشيخ ينظر إليها في غضب..

-أمـــرُ الله لا يـــريد أن يعـــرف أحد أنه هو الذي أبلغني، وأنتِ تلحين في الكـــتمان. له حق سلاطين أن يتجبر على قبيلته ويتسلطن على قريته. ماذا لو لم أحضـــر وفعـــل فيـــك؟ كنتِ ستصمتين خوفاً من الفضيحة، أليس كذلك؟ ويهرب المجرم بفعلته بسبب جبننا.

- أمر الله! الأشرم هو من أبلغك بنية سلاطين؟!

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أخطأت بإفشاء ما طالبني بكتمانه.

لـــم تســـتكمل بقية أيام المشاركة في رقصة النائحات، بقيت في بيت أبيها مريضة. وبعد يومين وجدت ما سألت عنه، قطعة حجرية من الملح. وضعتها في إنـــاء مليء بالماء، عَرّت شعرها وأخذت تدعو على سلاطين أن تذوب أيام حياته كما تذوب قطعة الملح سريعاً. صارت تدعو ربها باسم المنتقم، سريع الحساب أن ينتقم لها من سلاطين ويقصف عمره سريعاً. بقيت في تركيزها ودعائها ودعواتها حـــتى ذاب حجـــر المـــلح، فأخذت الإناء وألقت بالماء خارج البيت وداست عليه

بقدميهـــا العاريـــتين وهـــي تستكمل الدعوات أن يخسف الله المنتقم من سلاطين ويأتي يوم موته سريعا فتدوس عليه وهو في تربته بقدميها وتتشفى فيه.

ســبعة أيـــام والحـــداد متواصل والرقصة المفجعة لا تتوقف إلا بعد صلاة العشـــاء لـــتعود في الصباح. أقمن مناحة هائلة، ثم بدأت الدروب تعود إلى سابق عهدها من الهدوء وإن كان الحداد سيستمر أربعين يوماً كاملة.

الأعمـــال المعتادة تعود لنشاطها. الطيور التي اضطربت معيشتها خشية كل هـــذا الضـــجيج عادت إلى فِطرتها ونسيت ما كان. رقصة النائحات انتهت بعدما امتصت حيوية النساء واستخرجت خزين الآلام المتكلس طوال مواسم وأذابته إلا قليلاً.

نَبْرة فقدت في أسبوع رقصة الحداد الكثير من وزنها الهزيل فصارت شديدة الهـــزال، ضـــاع صوتها. راضية بح صوتها وأضيف إلى جوفها طبقة جديدة من الأسى.

الـــليل، فوانيـــس عديـــدة تـــنير المضيفة. يتراص ناس القرية على الدكك المرصوصة في توازٍ مع الجدران. الشيخ في الصدارة ومعه آبدون. معتوق الخير أنشـــد التسبيح للخالق والمديح للرسول. ثم ذهب، الحديث يدور في المستجد من أمور. أخذهم الكلام إلى حال القرية، التحولات التي لا يرضونها، يرصدون تفسخ العـــادات والـــتقاليد الـــذي بدأ مع جيل الأفَشْطَفوش الفاسد.. كسر احترام الكبير وضـــحالة العطف على الصغير، الفتيات والنساء صرن يرتدين كل فاضح مخالف لمـــا كـــانت تـــرتديه أمهاتهن وجداتهن، صارت المظهرية عندهن أهم من إتقان أعمالهن في البيت ومن المساعدة في الزراعة وصناعة أطباق وصواني الخوص وتجفيف البلح، لم يعد نظام الزواج الذي يقرره الجدود والجدّات والآباء والأمهات عرفاً معروفاً، لم يعد الصبية والصبايا أبرياء كما كانوا زمان، لم يعد هناك الأمان القديـــم، صـــارت سوءة الأطفال تجذع النفس بعدما كان الصبيان والصبايا معا لا يشـــعرون بذكـــورة هؤلاء ولا بأنوثة هؤلاء. الآن تهدم كل شيء.. نظام الزواج، نظـــام البيع والشراء جاءت الريالات الفضية بالشَرَه والطمع وكنست القناعة. لم تعد أعمال الزراعة جماعية حقاً كما كانت. تتكسر منظومة القبيلة. لم يعد عندهم

طبقة الكبار سناً ومقاماً يَـأمرون فتأتمر بأمْرهم القرية القبيلة كلها. وكله بسبب هذا الجيل الأفَشْطَفوشي وكبيرهم شرّين.

قاطعهم صَلاتو..

– لا. الـلوم ليـس فقط على الأفَشْطَفوش . نحن الذين ربينا الأفَشْطَفوش. إنهـم حصاد تربية أجيال من سبقوهم. إنهم وقود زمن جديد لا نفهمه. هم مظهر لـلمرض وليسـوا هـم المرض. يا ناس.. تفسخ قريتنا أصلاً بدأ من أيام جوش الكبير.

بهـت السـامعون. نظـروا في عدم رضاء إلى شيخهم الذي يجلّونه. لكنه استمر في كلامه الحاد..

– أيـام الولي جوش وكنت أنا صبياً، تركنا نظامنا الذي يجبر كل مِنّا على أداء دوره المعيّـن حسب سنه ونوعه وقدرته، تركنا نظامنا وتواكلنا على بركات الشـيخ الولي الطيب جوش الكبير، صار هو أساسنا وليس نظام القبيلة الجماعي المـتين، صار الولي الفرد الواحد أساسنا القبلي وليس المجموع، فباخت أدوارنا كلـنا، عُـزلت، صِرْنا نعتمد عليه.. على الولي المبارك. ننسَى عمله في الفلاحة وفي بث السلام في الأرض ونتذكر فقط أنه سبح فوق الأرض ومشَى فوق سطح الـنهر! وكان رحمه الله في شبابه ورجولته وكهولته، كثيراً ما ينصحنا أن نتابع عملـه ونـترك آياته، مراراً وتكراراً أكد لنا.. في الآخرة الإنسان يأتي ربه فرداً، لكـن فـي الدنيـا الفرد بالقبيلة، لا إنسان يعلو عليها، لم نكن نستمع لأننا نريد الـتواكل، نـريد من يتحمل عنّا أمانة الاختيار ومسئوليته. تغير ولينا جوش حين مـرت بـه المواسـم العديدة بعدها المواسم العديدة، وصار لا يعلم من بعد علمه وسبحان الله ففوق كل ذي علم عليم. لما ضربته الشيخوخة صار بدون أن يقصد هـو المـرجع لكل القبيلة والقبائل المجاورة واستعذب ذلك، هو الفقيه والخطيب والمـأذون والعمدة والفلاح الأول والمصلح بين الناس وحده والمطبب المداوي، حـتى أنه هيأ ابنه موسى والد آبدون ليكون يوماً ما محله، وكأن الولاية صارت مـلكاً عضوضـاً. رحمه الله. آ آ آ آه، في أواخر مواسمه صارت كل الأمور في يـده.. ولمّـا مـات وجدنا أنفسنا في ارتخاء، ولم تتبين لنا بداية الشرخ الضئيل لضآلته. لم يتفاقم الشرخ، ولم تظهر العيوب عياناً جهاراً إلا بعد مرور العديد من

المواســم، حــتى تجســدت في طريقة معاملتنا وتربيتنا لجيل الأفشْطفوش فكانت القشّة التي قصمت ظهر البعير.

مــن قبل، عارض ناس القرية الشيخ مرّات كثيرة، بل تشاجر معه البعض، لكــن هذه المرّة هب نفر من الناس صائحين فيه لا مبالين بأنهم مازالوا في أيام الحداد، ولا مبالين بكبر سن الشيخ وعلو منزلته. طاعنينه بأنه طوال عمره يغار مــن مكانـــة وليّهم الصالح جوش الكبير، وأنه يريد أن ينال مكانته ولا يستطيع. يريد أن يسبح في الهواء ويمشي على الماء مثله ولا يستطيع.

آبــدون لــم يشارك في الجدال. ظاهرياً الجسد مستريح على دكّته، عِمامته مفكوكـــة على حجره في استرخاء، لكنه في داخله يتعذب، لا يعذبه حديث صَلاتو عن جدّه الولي جوش، بل يتعذب تذكراً لعذاب أبيه موسى جوش وموته محسوراً، يتعذب أن صَلاتو أخذ مكانة أبيه موسى وطال به العمر مغلقاً على آبدون نفسه أن يـــتخذ مكانته، ثم انجب حفيداً يتحفز بعلمه وأدبه أن يرث من جدّه صَلاتو المكانة الديـــنية، إذن، ضـــاع الأمـــل أن يسترد آبدون مكانة أسرته، وضاع الأمل نهائياً بضياع ابنه أولوا.. وإنجاب أولوا لبنت وليس لولد. هل سينجب بعدها ولداً؟ متى؟ وإن استمر في إنجاب بنات، هل يكون من البنات ذرية من الذكور الأقوياء؟ وهل عندما يكون أحداً من البنين قوياً بالقدر الكافي ليمسك بالأمور ويأخذ ما لم يستطع جدوده أن يأخذوه.. هل سيكون الناس مازالوا يتذكرون جوش الولي الكبير، وإن تذكروا.. هل سيعترفون بهذا الحفيد البعيد خليفة له؟

الأنظـــار تحيط بآبدون أن يتكلم،أن يدافع عن جدّه. يعلمون أنه يحب ويجل صَـــلاتو، لكـــن صَلاتو يجرّح في جده شخصياً! آبدون في جلسته التي يبدو فيها مسترخياً ينظر إلى الأكلمة الممددة على الأرض، لم يترك للناس أن يروا إلا شعره الـــرمادي المبعـــثر، مدارياً خطوط وتعاريج التجاعيد على جبهته وتحت العينين، وعندما رفع رأسه حين الانصراف.. بدا عجوزاً مُتْعَباً.

فـــي الليل كان آبدون في أشد الاحتياج للوَنَسة مع هَكيمة، لكن هَكيمة في بيت ناس الميت، تبيت مع أختها في أيامها الحزينة، فتحدث مع خيال أمه اللائم.. يعـــتذر لها أنه لم يجابه الشيخ صَلاتو حين عَدّد أخطاء جدّه، يعتذر لها أنه لم يعد آملاً في تضميد روح أبيه، يعتذر لها بأنه يئس من سلالتهم، يأس من أولوا، يؤكد

لها أن الشيخ صَلاتو لا يرمي لمنفعة شخصية له ولا لحفيده، إنه رجل صادق مع نفسه ومع ناسه، يؤكد لأمه أن الشيخ عندما جعل معتوق يزرع نخلة جوش، لم يكن يخطط لسحب الولاية الدينية من سلالة جوش كما تظن وكما قالت هَكيمة، لا، بدليل أنه لم يزرعها بنفسه ولم يأت ببلال حفيده معه ليزرعها.

آبدون يحكي لأمه المتوفاة ويقسم لها لتصدقه، لكنه هو نفسه بدأ يشك في قصدية صَلاتو ويشحذ نفسه ليرد على الشيخ إن عاد لما قاله عن جده! لكنه بعد أيام عندما يصر صَلاتو على ذهاب العمودية لآبدون، يعود واثقاً في صدق صَلاتو ونصاعة سريرته، ثم ينقلب على وثوقه قبل معركة العمودية مباشرة، يعود للشك في الشيخ.. ربما الشيخ يريد له أن يدخل المعركة حتى يفضحه سلاطين وأتباعه في ابنه وبذلك يقتل الأمل في آبدون تماماً، وربما يريد منه أن ينال العمودية حتى يترك له المكانة الدينية!

أيام الحداد الأربعين قاربت على الانتهاء، سلاطين لم يكن في الهدوء الذي يدّعيه، اتباعه يوجههم أمرُ الله الأشرم، والأشرم نفسه اقتنص جلوس آبدون وحده على مصطبة بيته، ظهر له فجأة على حماره، توقف أمام آبدون، وتكلم ببساطة وسرعة، بضع جمل سريعة ثم يبتعد قبل أن يفيق آبدون من المفاجأة..

– السلام.. تعلم أني لست ضدك ولا أنكر ما كان لدى جدك جوش الكبير من قيمة. تعلم كم كانت أمي رحمها الله تحب وتصادق هكيمة ونَبْرة. لذلك واجب عليَّ أن أخبرك بأمر إن وقع سوف يؤذيك..

– ماذا تريد يا أمرُ الله ؟

– اقسم لي أنك لن تبوح بمن سرّب الخبر لك.

– بدون أن أقسم، أنا آبدون بن موسى جوش. أعدك بأني لن أقول من الذي أخبرني.

– سلاطين لن يترك العمودية تذهب لغيره، أبداً. وهو مستعد لفعل كل أمر قبيح لكي يؤذي ويهين منافسيه.. ولن يترك فضيحة تخصهم إلا وآثارها علناً لكي يبعدهم. هذا ما قرره. لن يعمل حساباً لابن عمّته، ولا لزوج عمّته. أحببت أن أخبرك وأنت حر.

وقبل أن يعتدل آبدون غاضباً، كان الأشرم على حماره يبتعد سريعاً.

الشـــيخ صَلاتو يقاوم ثقل المواسم الطويلة الأمد على بدنه الهزيل، يجالس الرجال وكبار القرية يؤكد عليهم ويحثهم ليكونوا مع آبدون، يشرح لهم ..

– همنا الأكبر.. العمودية، فالقرية في تغيرات تنذر بالعواقب التي لا يعلمها إلا الله، يجــب أن تكون العمودية في بيت رجل عاقل، قوي حكيم. فعمودية الأيام القادمـــة ليســت فقط تشريفاً ومتابعة أمور تقليدية تسير كالمعتاد. وليست عملاً بســيطاً كشــجار ورثـــة على توزيع ثمار نخلة، ولا منازعات بسيطة على حدود أرضـــهم الـــزراعية، ولا هي إشكال بين سِكّير ومُخَدّر في عُرس مقام. يجب أن يكون العُمدة هو آبدون. رغم عدم تحمسه.

يســـمعونه ويهـــزون رؤوسهم موافقين، لكنه يعلم أن سلاطين في نفس بعضهم. عزمه أن يلتقي بكل ناس القبيلة، أن يتواجد في كل المجالس منبهاً على أهمية حسن الاختيار.. والاختيار الحسن هو آبدون، عزمه شديد، لكن عمره مديد وطاقته لا تكافئ عزمه. يُنهك فلا يحقق ما يريد. يقول لنفسه..

–لـــو كـــان بلال وصوفاني هنا.. لكانا نعم العون لنا. علهما يتواجدان ليلة الاختيار.

دخـــل بيـــت هَكيمة، هو وهَكيمة ضغطاً على آبدون ليتقدم.. ليأخذ خطوات عملية فيأخذ العمودية. وآبدون يخشى معركة تنكأ في قلبه جُرحاً يخاف أن يقترب مـــنه مُقـــترب، شذوذ ابنه المعلوم. لقد نبهه أمرُ الله الأشرم، لن يقول لهما ذلك فينكث بالوعد. وخوف آخر يرعبه.. الفشل كما فشل أبيه من قبل.

الضـــغط من الشيخ ثقيل، مع إصرار هَكيمة التي يكويها جرحه المفضوح، فجـــرحهما واحد. طمأنته كثيراً. ألحت عليه كثيراً أن يتناسى شذوذ ابنهما وهو صغير، فالناس سوف تختاره هو وليس لأولوا دخل، طلبت من معتوق أن يتحدث مع آبدون ويشجعه، فصمت حتى تواجد معهما سوياً.. فوجه حديثه لهكيمة..

–هـــل اســـتمرأ زوجـــك الســـ..ياحة في بلاد الناس والتباهي؟ هل استمرأ زوجك أن ينعتونه هنا وهناك بآبدون الوجيه؟ هل استمرأ زوجك الكسل؟

آبـــدون يـــنظر إلى معـــتوق غير مصدق خشونته في القول تجاهه. واصل معتوق حديثه وهو ينظر في عيني آبدون..

– أم يخاف حمل مسئولية ناسه؟ أم يهاب مواجهة سلاطين؟

ثم تركهما مصدومين منه عائداً إلى عمله.

ظــن الشــيخ إنـــه وإسْهاج وآبدون سيكون لهما القول الفصل في اختيار العُمدة الجديد، فقد هيأ القبيلة من قبل هذه الليلة لاختيار آبدون، يظن ذلك خاصة أن كــبار السن يؤيدونـهم، لا يهم مناورات مُهدي الأصفر وابنه المبتسم ابتساماته البائخة، ولا يهم صمت وخبث يونس المجبّراتي. أبلغهم البعض أن سلاطين يستعد لهـــا، وتحـــركات الأشـــرم ليســت خافية ولا تحمس سَيّد هَربية العلني ولا حتى إبتسامات أولوا المحملة بالمكر، لكن الشيخ على ثقة بقدرته على تنفيذ ما انتوى، يحمل في طيّات عمره ما يقارب القرن من المواسم، ويفكر كما كان يفكر في الأيام الــتي ولت وانقضت، رغم أنه حدد من قبل أن الزمن الآن غير الزمن، والشباب غير الشباب، فبعقله يعلم أن القرية تحولت أحوالها، بلسانه قال هذا في أكثر من جلسة، لكنه وهو العجوز العتيق مازال يظن أن جذور الأيام الخوالي مازالت باقية ومازالت قادرة على التأثير والضغط على الأغصان!

في الليلة الواحدة والأربعين، بعد صلاة العشاء، افترشوا بحر الرمال بالقرب مـــن المضيفة التي علقت على جدارها الخارجي المواجه للساحة بضعة فوانيس. أتـــوا بكنـــبة وحيدة فجلس في وسطها الشيخ صَلاتو بين آبدون وإسْهاج وعلى الطـــرفين أثمـــان ومُهدي. رجال القرية والشباب الناضج جالسون أمامهم وفي الصفوف الخلفية جلست النساء والفتيات الشابات والشباب الذي كاد يبلغ الحلم.

رغم تواجد شيخ الخفر والخفيرين ببنادقهم الثلاث، ورغم تحيزهم الواضح لآبـــدون وضد سلاطين، يزداد القلق في قلب آبدون، فكل الشباب الذي يعمل لدي سلاطين موجود، متى أتت مراكبه ورست؟ لكن.. أين سلاطين؟ وأين أولوا؟ وسيد هَـــربية والأشرم؟ القلق نـهر أصفر حَمضي يكويه. يعيد ضبط عباءته ذات اللون البني، يراها مصفرّة رملية!

أثمـــان كـــثير التنحنح، تعمد الجلوس على الطرف بعيداً عن الشيخ، رائحة الخمر مازالت في فمه رغم قزقزته لحبوب اللب ثم مضغ شظية من القرنفل.

صلصـــلة حـــادة، أجراس حمار سلاطين يقترب، صار اسمه البَغل أو البغلة حســـبما يقول عنها من يقول. اتجهت الأعين ناحية بيوت نجع أورّك، بحر الظلام يـــبرز مـــنه أشباح رجال على الركائب، تعلو أجراس البغلة. اقتربوا. كوكبة من

المطايـا. سلاطين في المقدمة يتوسط موكبه. خلفه مباشرة الشابان الضخمان ثم بطانته.

هـبط الأشرم مسرعاً يسابق سرعة سَيّد هَربية وأمسكا برقبة البَغلة ليهبط سـلاطين فـي وقـار زائد. لحقه أولوا ووقف بجواره للخلف قليلاً. سَيّد هَربية والأشـرم دخلا وسط الصفوف الأمامية للمتربعين وانحشرا بينهم. اتجه سلاطين ناحيـة الجالسـين عـلى الدّكـة، الـتابعان الضـخمان له والغريبان عن أصول القبيـلة،يـتدلى الكرباجان في وضوح من يديهما. ضوء الكلوبات المصفر أوضح وجـه سلاطين المبتسم في ثقة. يرتدي عمامة كبيرة وعباءة سوداء ثمينة تحتها جلـباب أبيـض وفي قدميه مركوب أحمر لامع، في يده كرباج كما في كل يد من أيادي أتباعه كرباج.

آبـدون يرقب ابنه أولوا في غضب وإنكار. الشيخ صَلاتو يزر عينيه ناظراً إلى سلاطين في غضب واستهجان. ابتسم له سلاطين..

- السلام.

- السلام على من اتبع الهدى.

أجـاب الشيخ وأشار له بيده في استهانة ليجلس مع الناس. تابُع لسلاطين أتي من المضيفة حاملاً دِكة أخرى، وضعها بجانب دِكة الكبار. حاول شيخ الخفر وتابعاه الخفيران أن يمنعوه، لكن زحام من اتباع سلاطين تدخلوا. جلس سلاطين في وسطها فجلس على جانبيه أولوا المنتشي وفيّاج الذي يؤدي دوره مضطراً، و الشـابان الضـخمان لا يبتعدان عن ظهر سلاطين. الكرابيج الغزيرة في يد أتباع سلاطين استرعت انتباه الجميع، شيخ الخفر والخفيران محاطون بجموع أكثر قوة وعـدداً وإن كـانوا لا يحمـلون بـنادق، والبـنادق ليس لها أي فائدة، فلم ولن يستعملها أحد ضد أحد في هذه القرى، الكرابيج هي السلاح المستخدم، والكرابيج غزيرة مع أتباع سلاطين.

صمت مُريب يجوس في كل النفوس، رفع الشيخ رأسه قليلاً وأخذ شهيقاً..

- بسـم الله الـرحمن الرحيم ونصلي ونسلم على النبي الذي اصطفى. قال سبحانه وتعالي.. واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا. صدق الله العظيم. رحم الله نُـوري العُمـدة كان طيباً محباً للناس. الآن وقد رحل، نجتمع لاختيار العُمدة

الجديد. نحتاج رجلاً بالغاً عاقلاً طيباً، يعرف الله ويخشاه. عادلاً. نأمنه على أنفسنا وعــلى قبيلتــنا وقريتنا الآمنة. يقودنا في الزمن الغريب. رجل ماله حلال ومأكله حــلال ومشــربه حــلال وملبسه حلال. وقد استخرت الله في رجل منّا لا تشوبه شــائبة.. آبدون موسى، حفيد الولي جوش الكبير. وعليكم أنتم يا ناس القبيلة أن توافقوني أو لعلكم ترون من هو أفضل.

همهمات رضاء وكلمات متناثرة من بضعة أنفار..

– موافقون.

– خير من اخترت لنا والله.

– موافقون.

من بين صفوف الأمامية للمتربعين أرضاً، سَيّد هَربية وقف في كبرياء..

– هذا اختيارك أنت يا شيخ صَلاتو. هل أخذت رأينا؟

– أنا سألت الناس رأيهم، لكن.. وما رأيك أنت يا سَيّد هَربية ؟

– رأيي مثل رأي أكثر الناس.

– مــالك أنــت ومال الناس؟ استطعت أن تدير شئونك فجئت لتدير شئون الناس؟

– رأيي ورأي الناس أن عمدتنا الجديد هو سلاطين بن أثمان كُورنة.

همهمة تعلو، تعلوها صيحة الشيخ العجوز.

– اخرس يا سَيّد.

– وهل نتركك تتكلم وحدك وتقرر مصيرنا وحدك؟ لن أخرس. لن أخرس يا ناس. أليس لابن هَربية رأي؟ ورأي وجيه حكيم أيضاً؟

وقف عديد من الجالسين من مؤيد ومعارض يشيحون لبعضهم ويصرخون. البعض يصرخ باسم سلاطين ومنهم شاب لم يكن يتدخل في أمور القرية من قبل، يصــيح الآن متحمساً في تشنج وتهور، زجِرْ شقيق كِسبانة وهُوشَة! وصبي من خــلف الجمــوع يصيح كلما هدأت الأصوات قليلا ليظهر نفسه وهو يلوّح مؤيداً لســلاطين.. الصــبي عبده هنيفة ابن نجع الشيخ صَلاتو.. نجع نجيبيّة! والأقلية تصــرخ باســم آبــدون حتى وقف إسْهاج بجانب الشيخ المذهول، صاح إسْهاج بصوت مرتفع..

- يـــا نـــاس ي هوووي. يا ناس القبيلة اسمعوني. أنا نجّار كما تعلمون. كســبت من صنع مراكب سلاطين، ومازلت أكسب من صيانتها. أي أن مصلحتي الشخصـــية فـــي عمودية سلاطين. اهدءوا اهدءوا واسمعوني يا ناس. الحق حق والله حق. سلاطين لا يصلح. لا تقاطعوني يا ناس.. آبدون لها..

لـــم يســـتطع أن يستكمل كلامه. مرّت فترة يتداخل فيها حديث العشرات في صـــياح العشرات. هرج ومرج. جلس الشيخ صَلاتو وجلس إسْهاج. صوت الكبار ضائع. لم يعد للسن قيمة. تكتلت بعض الأصوات تنادي..

- نسمع أولوا بن آبدون.
- نسمع أولوا بن آبدون.

صمت.. وقف أولوا.. يحاول أن يدعي الوقار، نكّس آبدون رأسه فهو أعلم بابنه. أولوا وهو يشير بكرباجه لأعلى..

-يـــا نـــاس القرية، يا آباءنا وإخوتنا. الزمن زمن جديد. لم تعد قريتنا مثل الأيام الغابرة معزولة عن الدنيا إلا من مركب سَليمتو رحمه الله. الآن نحن نتاجر مع مدينة سُوين وصعيد مصر ومع ناس حَلفا. وغداً سنصل للدلتا والبحر المالح شـــمالاً والجـــندل الرابع جنوباً. سيأتي إلينا ناس الشمال صاعدين وتقصدنا قبائل الكـــبابيش والـــبَقّارة والـــتَكارنة هـــابطين. ورأيتم بأعينكم بدايات قوافل الجلابة والبشارية، أصبحت تتوقف في مجال قريتنا لتتاجر.. يا ناس. آبدون أبي.. طيب. حفيد الولي جوش الكبير. تحبونه ويحبكم. صلته بالقرى المجاورة وطيدة. لكن..

معـــتوق كان يأتي متخطياً رؤوس الجالسين دافعاً أجساد الواقفين. اضطرب أولـــوا قـــليلاً. سلاطين لم يتركه في ذهوله فغمزه في ساقه بكعب مقبض كرباجه فواصل أولوا حديثه..

- لكن.. نريد عمدة يقودنا وسط هذا الخضم الجديد..سلاطين.

تصفيق وترديد جهوري ينادي..

- سلاطين.سلاطين لها.

سلاطين عُمدتنا.

معـــتوق وقـــف أمـــام الدكتين بجلبابه الأزرق عاري الرأس حافي القدمين كعادتـــه، عيـــناه تلمعان غضباً. فالتف الشابان الضخمان كل من جانب من جانبي

الدِكــة الــتي عليها سلاطين يداعبان كرباجيهما في تهديد واضح لمعتوق.الشيخ صَلاتو ينادي..

- آبدون مبتغانالن يكون عُمدة إلا آبدون.

سَـيّد هَربية المستمر في وقفته المتحمسة، اقترب من الدّكتين يُلوّح بيديه والتي تحمل إحداهما الكرباج، ويتدافع من فمه حديثه غير المفهوم. أما فيّاج فكان أول ما قاله في تلك الليلة.سؤال وجهه للشيخ..

- هل تريد التجبر علينا؟

- حاشــا وكــلا يا ابن مُهدي. ما عهدتم تجبراً مني، لكن يجب أن تنصتوا لرأي شيخكم فهو العالم الفاهم.

وقف شاب آخر من ركن..

- أنــت فــي طول عمرك المديد، لم تأت لنا بأي كرامة. لم تشف أحداً، لم تطف على الماء، لم تتصاعد في الهواء.

- وهل أنا إلا بشر يا ناس!

- إذن كن بشراً مثلنا مثلك واتركنا نحدد مصيرنا.

- أنا أقول رأيي ورأي الدين..

- وقد قلته يا شيخ صَلاتو. فاتركنا نقول رأينا ونسير أمورنا بدون وصاية.

أصوات بلال وصوفاني والقليل من الشباب والرجال ضائعة وقد انضم رجال كثيرون للشباب المؤيد لسلاطين. الشاب المجادل يهاجم الشيخ..

- ليس رأيك هو الرأي الملزم.

- كــنت تــلوم القرية أنها اتبعت جوش الولي وصارت متواكلة، تريدنا أن نتواكل ونتركك وحدك تقرر الأمر فينا؟

- لن تجبرنا على رأيك يا شيخ صَلاتو لمجرد كونك شيخ الجامع.

لــم يكن صَلاتو ينتظر كل هذا الهجوم الذي أصابه بالوجوم وضعضعة أمام الجمع. تبين أن فيّاج هو الصائح بهذا القول الأخير المؤلم..

- وابن ديوانة أيضاً معهم. فيّاج. ابنك يا مُهدي يلقي ببذاءاته مصراً على تجـريحي؟ وابــن آبــدون! هكــذا؟ يــريد الشباب ومن معهم أن ينصبوا زعيم الأفشْطفوش عُمدة على القبيلة؟

مُهدي ينظر بعيداً حيث لا يواجه نظرات صَلاتو. آبدون ينظر حوله ويحسب التوقعات. يحاول إحصاء الكرابيج!

معـــتوق أخذ خطوات ونحّى مُهدي بعيداً عن الدِكة وأمسك آبدون من أعلى ذراعه وأوقفه. أفاق آبدون لما يجري. سمع معتوق يصرخ في أذنـه..

– تكلـــ..م.

ومن الناحية الأخرى لآبدون، صَلاتو يصرخ فيه..

– تكلم يا رجل.

بصعوبة وهو ينظر إلى ابنه أولوا لائماً، فابنه الساذج لا يعرف أنه يقف مع ســـلاطين الـــذي سوف يُشهر بشذوذه ويضحي به إن أفلت الزمام وتجمّع الناس حـــول أبيه! آبدون وهو يلملم عباءته التي سقطت من أعلى كتفيه بدأ يتحدث إلى ناس القبيلة..

– تعرفونني، وتعرفون سلاطين. أعلاكم صوتاً الأقلية التابعة له والعاملون عنده، لكن أغلب ناسنا صوتهم ضائع وسطكم.

قاطعته أصوات عالية..

– كذب. كذب.

– اجلس اجلس.

تـــاج طنـــبورة وبجانبه صبي يحمل طاراً يضرب عليه ، يغني أغنية تمدح وتمجد في سلاطين. فيردد بعده عدد من الشباب والصبية.

– سلاطين لنا. ولنا سلاطين.

– سلاطين لنا. ونفدي سلاطين.

آبـــدون يـــراقب مـــا يجري وقد انضم عدد آخر للغناء مع طنبورة. صَلاتو يضــــرب كفـــاً بكف، هذا السّكير لم يعرف أن سلاطين كاد يضاجع فُوزية زوجته! يبحث صَلاتو عن فُوزية وسط النساء في الخلف، لن يستطيع أن يراها في الزحام وفي هذا البعد، وهي أصلاً أحنت رأسها خزياً.

أتـــباع سلاطين بدأت أياديهم تتحرك بالكرابيج. تحوطوا حول من يتوقعون مـــنه المعارضـــة الشديدة لزعيمهم. لمح آبدون أثنين يسرعان الخطو إلى خلف

الدِكـــك، نظر خلفه.. بضعة غرباء بالنبابيت وعُصِيَّ من أغصان الشجر يترقبون. رأس معتوق تقترب من رقبته..

-لا تأبـــه بهم. قل ماتـــ..تريد. لن يرهبو.. نا. سلاطين شر. لا تتراجع يا آبدون.

صاح فيه صَلاتو..

-تكلم يا آبدون واصل..

لكن آبدون الخوف أمسكه في أحشائه وهو يرى أحد الشابين الضخمين وقد أمسك بتلابيب معتوق من خلفه والثاني يتربص، والبقية تقترب من معتوق ينوون بـــه شراً. معتوق أطاح بالشاب الضخم الذي امسك بدفعه واحدة، حاول الثاني أن يصـــيبه بكـــرباجه فكان معتوق أسرع منه وضربه بمؤخرة كفه على أنفه وسمع القريـــبون مـــنه صـــوت تهشـــم الأنف. جذبه ثالث بعيداً عن آبدون. حوله ثلاثة وأربعـــة. أطـــلقت النساء الصراخ. وقف كل الحضور وتداخلوا. أجساد تتصارع وبضـــعة مـــن بطانة سلاطين تقف بينهم وبين الناس حتى لا يتدخل أحد. لحظات خـــرج معتوق من بينهم، الدماء تنزف من فمه وأعلى جبهته، لكن الأربعة كانوا مطـــروحين أرضـــاً وكل منهم يمسك عضوا من جسده متألما. معتوق يتقدم من ســـلاطين. وقـــف أحد التابعين متصدياً له رافعاً كرباجه. لكمة من قبضة معتوق الغاضب في فكه كَوّمته. ومعتوق مشغول في خنق الثاني قبل أن يضربه بكرباجه، لحظـــة ودفـــع به معتوق على سلاطين الذي حاول تفاديه بالابتعاد خلفاً فعرقلته الدِكّة وسقط وسقط عليه تابعه. أولوا الذي ابتعد خطوة رفع كرباجه. معتوق ثور هائج والبقية كلهم في صمت وذهول من سرعة تحركات معتوق وسرعة ما يجري أمامهم. أمسك معتوق بكتفي آبدون..

-واجه الشر. واجه سلاطين. لا تهرب.

استدار معتوق ناحية الناس الذين وقفوا كلهم. أخذ خطوتين ناحيتهم..

-اسمعوه. اسمعوا آبدون جوش. هو خيرين. سلاطين شرّين.

فاجأه كرباج أولوا من الخلف، يلتف لسان السوط على كتفه الأيمن متقاطعا لجانـــبه الأيسر مطرقعاً بصوت مفجع ثم.. يجذب أولوا الكرباج لينسحب اللسان الطويـــل ساحباً أشرطة من جلد معتوق. أمسك معتوق باللسان قبل أن يبتعد عنه،

جذبــه بقوة فإذا بأولوا ينكب على وجهه تاركاً الكرباج الذي صار في يد معتوق. الــتف معــتوق بكامل جسده، عدّل الكرباج في يده وقبل أن يهبط به على ظهر أولوا كانت هَكيمة المهرولة من بعيد لتدافع عن أولوا، قد ألقت بنفسها على ظهر ابنها أولوا تحميه بجسدها. تسمّرت يد معتوق عالياً. أتباع سلاطين حول معتوق بالكــرابيج ينــتظرون أي حــركة منه. الغرباء تقدموا بالنبابيت. آبدون صاح في الناس..

–يــا نــاس القبيلة.. لن أقاتل على عُمودية لا أريدها. أتباع سلاطين وهم أقــلية اخــتاروا سلاطين بقوة الكرابيج، وأقلية مجردة من كرابيج وغير كرابيج تعــارض اختيار سلاطين. أما أغلبكم، أغلب ناس القبيلة، فهي ساكنة تخشى على نفســها. وآبدون لن يحارب بدلاً منكم أيها الصامتون الخائفون. سلاطين لكم. هو لكم. والندم للقبيلة كلها.

صــمتُ شــلّ الجميع. الشيخ صَلاتو وإسنهاج تهدلا في يأس. معتوق ألقى بالكرباج أرضاً والتف خارجاً من بين رجال عصبة سلاطين ناظراً للسماء. أوسعوا لــه منفذاً. اتجه ناحية شجرتي التوت حيث الركائب. أمسك بَقرهانة وسار جانباً يحادثها..

– سلاطين شر. وآبدون هرب. آبدون شر.

قرهانة تنظر ناحيته في تعجب من الدماء التي تسيل منه ومن لسانه الذي تــرك تعــثره وسال فصيحاً. يهبطان ناحية الأرض الزراعية المختفية في الظلام الحــالك وهمهمة وصياح النصر من أتباع سلاطين تتعقبه. خطوات مسرعة تتبعه وصوت نسائي ينادي..

– معتوق. معتوق هوووي.

التفت. شبح طويل يقترب منه. توقف..

– كِســبانة! ماذا تريدين أنتِ الأخرى؟ لسانِك ينطق كلمة واحدة لا تعجبني أكسر رقبتك.

لم تبال بتهديده. مدت يدها ناحية قميصه الممزق تماماً. انتزعت قطعة منه وبدأت تمسح شريط الدم مكان جلده المسلوخ.

– ابعدي عني.

- معتوق.. تزوجني.

الحشـــد يـــنفض مـــن الساحة. الشيخ صَلاتو على حمارته وحمارة إسْهاج تســـــــــير بجانبـــه. إسْهاج صامت والشيخ يردد..

- يا حَسْرة على العباد. يا حَسْرة على العباد.





صدر من هذه السلسلة:

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

هذا الكـــاتب



حجاج حسن أدّول

- مواليد الإسكندرية، بدأ الكتابة الأدبية فى سن الأربعين، عام ١٩٨٤ .
- عمل بالسد العالى حوالى خمس سنوات من عام ١٩٦٣ حتى ١٩٦٧ .
- جند بالقــوات المسلحـــة من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ، واشترك فى حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ١٩٧٣ .
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٠ . فرع القصة القصيرة عن مجموعة (ليالى المسك العتيقة) .
- حـــصل على منحـــة تفـــرغ، من المجلس الأعلى للثقافة (وزارة الثقافة) أعـــوام ٩٦-٩٧ و ٩٧-٩٨ و٩٨-١٩٩٩ لاستكمال رواية (معتوق الخير).

- المؤلفات الأدبية المنشورة:

- ليالى المسك العتيقة.
- بكّات الدم.
- الكشر.
- [illegible]
- غرابية القمر.
- إغراق عنخ.
- خالى جاءه المخاض.

• شمال جبل فرعون العالى المكلل بأطلال المعبد التليد وقبله حيث الساقية الكبيرة الغربية، وعلى شاطئ النيل ذاته حيث رصيف أبيض عريض وحافة خور واسع فى عمقها البعيد جسر قديم، مصطبة حجرية تعلو عشرة أذرع، بنى عليها ضريح ذو قبة بسيطة أنيقة ناصعة البياض، بجوارها مباشرة قبة صغيرة لا تقل بياضاً عنها، تتجدد القبتان كل موسم من مواسم الفيضان الحولى. ناس القرى النوبية المجاورة لا ينقطعون عن زيارتهما، يتبركون بالقبة العالية ثم يملسون على الوطئة وهم يسبحون الله الذى هدى الوحش وجعله رحيماً ببنى الإنسان. يوزعون البلح واللبن على بعضهم ويأكلون ويشربون، يحكون عن الولى كل غريب عجيب. يتردد اسمه فى حب وعشق برجاء أن يعيده الله يوما على وعد بألا يتركوه يقتل مرة أخرى.

حجاج
أدّول





